مكتبة ٥٩٢

ليف تولستوي

الأعمال الأدبية
المنشورة بعَدَ موته

ترجمة: صياح الجهيم

مكتبة | 592

الأعمال الأدبيّة
المنشورة بعَدَ موته

رواية

Author: **Лев Никола́евич Толсто́й**

Title: **Literary works published after his death**

Translator: **Sayah Al jhayem**

cover designed by: **Majed Al Majedy**

P.C.: **Al – Mada**

First Edition: 1993

Second Edition: 2017

Copyright © Al – Mada

المؤلف: ليف تولستوي

عنوان الكتاب: الأعمال الأدبية المنشورة بعدَ موته

ترجمة: صياح الجهيم

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 1993

الطبعة الثانية: 2017

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

٢٠٢٠٧٢٠ مكتبة

t.me/t_pdf

ليف تولستوي

مكتبة | 592

الأعمال الأدبية المنشورة بعَدَ موته

ترجمة : صياح الجهيم

مقدّمة

لعلّ الدارسين لايشيرون إشارة كافية إلى أن تولستوي كان يتأنّى في صنُع أعماله الأدبية: كانت مسودات النصوص ورواياتها لا تني تتكاثر، وكان يعمل على نسخ النص حتى عشر مرات، ثم يهجره ويستأنفه... ليدعَه جانباً، وقد يدعه نهائياً في بعض الأحيان! وذلك لأسباب شتّى: فتارةً كان يرى أن العمل الأدبي لم ينضج نضجاً كافياً، وتارةً أخرى لأن العمل يتّسم بطابع شخصيّ مفرط؛ أو لأنه لم يكن يريد أن يزيد من خصوماته مع الرقابة. فليس مدهشاً إذن أن تُلفي ابنته ألكسندرا نفسها، بعد موته، مالكةً لنحو أربعين عملاً لم تُنشر، وأن تُبادر إلى أن تدفع جزءاً منها إلى النشر. وكان فلاديمير تشيرتكوف يشرف على تحريرها النهائي. وقد ظهرت ثلاثُ مجلدّات في موسكو، في سنة ١٩١١ وفي سنة ١٩١٢. ونحن نجد بينها نحو عشرين قصة وأربع مسرحيات، وأعمالاً من الطراز الأول مثل «الحاج مراد» و«الجثة الحيّة». أما المخطوطات الأخرى فلم يُقدَّر لها أن ترى النور إلا بعد ذلك بزمن كبير، وبرعاية الجمعية التعاونية «زادروغا»، في موسكو، لتظهر في طبعة الأعمال الأدبية الكاملة التي كان يُنوى إخراجها في سنة ١٩٢٨ بمناسبة مرور مئة عام على ولادة تولستوي. وبما أن الجمعية التعاونية المذكورة قد حلّها النظام السوفييتي فإن نُسخ النصوص التي كانت ستظهر أُرسلت سراً إلى باريس، حيثُ ظهرت

بالروسية تحت عنوان: قصص ومسرحيات لم تُنشر، لليون تولستوي، بعناية الناشر المعروف جداً «كاربسنيكوف» الذي كان مهاجراً آنذاك. ويحتوي هذا المجلّد على أربعة أعمال دراميّة وتسع قصص تُرجمت إلى الفرنسية، بعد ذلك، ونحن نقدّمها اليوم مع التي ظهرت في طبعة تشيرتكوف[1].

لابدّ من الإشارة إلى أن معظم هذه النصوص التي أُعيد طبعُها في الطبعة المسمّاة «اليوبيل»، في موسكو (وَلنذكّرْ أن عدد النسخ ٥٠٠٠ نسخة فقط) لا توجَدُ في الطبعات السوفيتية التالية، وذلك أيضاً لأسباب شتى. ومن ثمّ فإن طبعتنا لأعمال تولستوي بعد وفاته أكثرُ كمالاً، مثلاً، من الطبعة السوفيتية لعام ١٩٥٨.

لنضفْ أخيراً أن هذه الأعمال تتدرّج من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٩١٠. ولئن كانت متفاوتة الحجم جداً - والقيمة أيضاً - فإنها تظل جديرة بأعظم الاهتمام. وكيف لا نتتبّع عبرْها مسيرة فكر عظيم، وتقلبّات مصير عظيم؟.

تاريخ نهار الأمس ١٨٥١:

هذا أول مشروع أدبي لتولستوي. والكاتب الذي بلغ اثنين وعشرين عاماً مقيمٌ في اياسنايا بوليانا. القصة بسيطة كل البساطة، ويمكنها أن تكون فصلاً من فصول «الشباب». وهي تدور حول شاب غنيّ، فارغ. أخذ يدوّن مشاهداته وأفكاره في كل يوم. لكن حياته

---

١ - وهي: تاريخ نهار الأمس، هكذا يموت الحب، الحجلة، قصة فارنكار الصغيرة... الحلم، كيف يموت الجنود الروس، الواحة، المرافعة، والمناقشة حول الملكية الزراعية.

الداخلية عظيمة الشدّة، وقد بلغ تدفقُ انطباعاته حدّاً «لا يكفي معه كل حبر الأرض لتسجيلها». إن التحليل الدقيق لمختلف حركات النفس، ودقة اللمسة، والرهافة في طريقة تثبيت الإحساس، وحدّة الشعور والملاحظة، كل ذلك يعلن، منذ ذلك الوقت، عن شخصية فائقة القدرة. الصدقُ يتجلىّ: فحتى أسماء الأعلام، - القديس توما، ديتيريتش - لم تُغيّر. ويتقدّمُ، عند هذا الشاب إذ ذاك، الحرصُ على الكمال الأخلاقي، الحرص على التوفيق بين طريقة التفكير وطريقة الحياة.

هكذا يموت الحب ١٨٤٨:

هذه القصة التي تخيّلها المؤلفُ في موسكو والتي إنما أُكملتْ في القوقاز، هي كسابقتها مرتبطة بموضوعات «الشباب». إن شاباً مثالياً يستسلم لنداءات الجسد، بتأثير الفساد المحيط، وتأثير ذلك الميل «الطبيعي» الذي يجد العذرَ لكل شيء. إن النزاع الذي سيعذّب تولستوي طوال حياته يظهر في هذه الصفحات التي ينتقل فيها المؤلفُ من وجهة نظر ذاتية «للطفولة» إلى تصوّر موضوعي للقصة.

الواحة ١٨٥٣ - ١٨٦٠:

نغمة «الطفولة والشباب» نفسها مع أن الراوي شخص عجوز. ونحن نرى فيها يافعاً سعيداً بالعيش في قلب الطبيعة، نهماً إلى القراءات الفلسفية، وإن كان يرجو، في أعماقه، سعادةً عظيمة تظهر بالطبع في شكل فتاة رائعة. هذه الصفحات جديرة بأن تكون مع الصفحات الأولى التي نشرها المؤلف.

كيف يموت الجنود الروس ١٨٥٨:

ننتقل إلى التجربة العسكرية. الإطار المكاني: القوقاز، حيث أدّى

تولستوي خدمته العسكرية الأولى. وقد أُلِّفت القصة في سنة ١٨٥٨، بعد «القوزاق». ونحن نحس فيها، كما نحسّ في «القوزاق»، وفي «حكايات سيباستوبول» ببروز إعجاب المؤلف بقوّة الروح وبساطة الجندي الروسي. إن تولستوي يكتشف طبيعة الفلاح القوية التي يرى فيها الممثِّل للشعب السلافي «العظيم، وتلك الشجاعة الهادئة والمتواضعة التي هي أعلى من جميع تألّقات البطولة.

الحجلة ١٨٥٣:

وهذه أيضاً ذكرى من تجربته العسكرية في القوقاز حيث كان تولستوي يرى حبَّ الطبيعة يتوطّد فيه إلى جانب حب آخر لم يتركه أبداً هو حب الحيوانات، وذلك بموازاة اكتشافه للعظمة الإنسانية في الجندي الروسي.

قصة الصغيرة فانكار التي كبرت في ليلة واحدة ١٨٥٧:

هذه القصة الرائعة التي كتبها تولستوي حين كان لا يزال عذباً، موجّهة إلى إحدى بنات أخواته. وفيها يثبتُ المؤلف فهمه العميق لنفس الطفل. وهو يحسن بخاصة تصوير هذا الشيء الشديد الصعوبة، ولادة الإحساس بالحب لدى كائن صغير وأولى ردود فعل الحياة اللاشعورية.

الحلم ١٨٥٧ - ١٨٦٢:

قصة رُسمت خطوطُها الأولى سنة ١٨٥٧. لقد حلم أخو الكاتب حلماً وقصّه على تولستوي الذي أولى هذا النصّ أهميّة كبرى. وأثناء السنوات الخمس التي تلت ولادةَ هذا العمل، كان يعود إليه باستمرار، وفكّر في إدخاله «الحرب والسلم»، وفيه يتجلى التناقضُ بين النزوع

الاجتماعي، النضال من أجل تحسين المجتمع، وبين السعادة بجانب امرأة لا تفهم ولا تريد أن تفهم شيئاً من تلك المشكلات، وهي تملك حقيقتها الخاصة بها، دون غيرها من الحقائق، ومن هنا بعض القوة. على كل حال، فهذه النظرة المطابقةٌ كل مطابقة للفكرة التي كوّنها تولستوي عن الزواج، أثناء السنوات الخمس الأولى من حياته الزوجية، وعن دور المرأة. ومن المثير التفكيرُ أن صوفيا أندريفنا الشابة نسخت، بموافقة زوجها، هذه القصة الصغيرة، وأرسلتها إلى إحدى المجلات باسم مستعار هو، «ناتالي أو كوتنيسكا». فرفِض النصُ، وهزئ الناس بذلك كثيراً، وظلت تلك الصفحات بغير نشر حتى سنة ١٩٢٦.

الحبّ البريء ١٨٦٣:

وهي تشير إلى مرحلة جديدة في درب الكاتب، إلى تغيير للطريقة. فالمؤلف كفَّ، في الواقع، عن وصف الحياة الذاتية لشخصية تتحرك في «المجتمع الراقي». وإنما هو يتصدّى لقصة موضوعية عن حياة الفلاحين، ويصور بكثير من الحيوّية شابةً من الريف تتسلّى بتلويع عاشقيها ولا يلبث أن يفتنها، في نهاية الأمر، شابٌ محتال، هو ابن تاجر ثريّ. والواقع أن هذه القصة لا تطرح أية مشكلة اجتماعيّة. وإنما هي تدور على استرجاع ذكرى الحياة التي غدت أسعد قليلاً في الريف بعد إلغاء القنانة. ونحن نبقى فيها عند المستوى البسيكولوجي.

حاجّان ١٨٧٠:

هذا النص الذي ظلّ، مع الأسف، ناقصاً، يعود تاريخه إلى سنة ١٨٧٠، وهي فترة «آنا كارينين» بالنسبة إلى تولستوي. وكان المؤلف يهتمّ، آنذاك، بالحجّاج الكثيرين الذي يقصدون «كييف»، ويمرون أمام أملاكه في «أياسنايا بوليانا». ويدور الموضوع، في هذه القصة،

حول حاجٍ يرغب في «أن يغوص في نهر حياة الشعب». ولا يفوتنا أن نلتمسَ الشبه بين هذه الشخصية وشخصية لينين، ونحن نفكرّ في مطامح تولستوي نفسه.

المناقشة ١٨٧٥:

هذا النقاش الذي افتتحه تولستوي في عنفوان فترة الأزمة الدينية والأخلاقية، يُتيح للمؤلف أن يُعرّف وجهة نظره في العلم. وهو بالطبع يهاجم مختلف العلوم: التاريخ، الفقه، وحتى الطب، بضربٍ من الضراوة المشبوهة قليلاً وبكل المبالغات التي تنبع منها. وهو لا يرى في البحث العلمي سوى التفاهة ما لم يسهم في التحسين الأخلاقي للإنسان.

مذكّرات مجنون ١٨٨٤:

أثناء السنوات التالية، تصبح القصص القصيرة أكثر عدداً وأعظم قوّةً أيضاً. وتحلّل مذكرات مجنون بأمانة «ليلة آرزاماس» الشهيرة، (في ٣١ آب ١٨٦٩) التي كأن تولستوي أوتيَ فيها وحياً بشيئين: تفاهة الأشيَاء البشرية وسرّ الموت. وقد بلغت الصدمةُ حدّاً أنه بعد خمسة عشر عاماً قادراً على أن يعطي عنها تعبيراً حاداً ومؤثراً في آنٍ معاً.

الشيطان ١٨٨٩:

لهذه القصة أيضاً طابع السيرة الذاتية، كما يشهد بذلك اسمُ البطل الرئيسي - إيرتينييف - الذي يُعيدنا إلى «الطفولة». لقد كان لمؤلِّف آنا كارينين علاقةٌ بفلاحة شابة «في إياسنايا بوليانا» قبل زواجه بالضبط، كما اعترف بذلك، ذات يوم لصديقه وكاتب سيرته «بول بيريوكوف». وكانت هذه المغامرة تبهظ بثقلها ضميره، وهو يتحدّث

عنها بشيء من الحدّة بعد سنوات طوال، لأنه يهبها نهاية فاجعةً، على المستوى الأدبي: ففي رواية النص المطبوعة ينتحر «إيرتينييف»، وفي رواية أخرى للنص، ما تزال مخطوطةً، يقتل حبيبته، إن الشهوة الجسدية وسحرها هي ما يهاجمه تولستوي؛ ولا نَنْس أننا في حقبة «السونات لكروتزر».

الأم ١٨٩١:

مشكلة أخرى يلامسها تولستوي عن كثب: الحاجة إلى الوحدة وسط أسرة كثيرة العدد، حاجة الحياة الزوجية ومتطلّبات التأمل. ماري ألكسندروفنا، تمثّل هنا تولستوي: فهي أمّ لثمانية أولاد، بل هي جدّة لذرّية كثيرة العدد. بيد أنها تشعر بالحاجة إلى التخلّي عن هذه الحياة، فتقيم غير بعيد في دير حيث تعيش عيشة متواضعة، وتريد أن تنهي أيامها في الوحدة والتأمل. ومنْ ذا الذي لا يتعرف مطامع «المنزوي» في إياسنايا (لم يفلح قط في أن يكون كذلك). من المؤسف أن يكون النص ناقصاً، وأننا لا نعرف شيئاً عن الحياة الزوجية للبطلة.

سهرة القيصر الشاب في ليلة عيد الميلاد ١٨٩٤:

هذه القصة التي كُتبت في آخر عام ١٨٩٤ - بعد صعود نيقولا الثاني الشاب إلى العرش - تتّسم بروح التبشير الاجتماعي. تولستوي هنا هو تولستوي الفترة النضالية. وقد ساد الظنُّ حينئذ أن الملك الشاب الذي تعاونه امرأة أنهت دراستها الجامعية، سيفتتح عهداً من الإصلاحات. بعد عهد أبيه الجليدي. حتى أن تولستوي كتب، بهذه المناسبة، رسالةً إلى نيقولا الثاني، يتوسل فيها إليه أن يهجر النظام الاستبدادي المشؤوم الذي مضى عهدُه. وهو يتناول هذا الموضوع ثانيةً فيتخيّل، في هذه القصة، حلماً حلم به الملك تظهر فيه مصائب

الحكم: السجون التي يقبع فيها المجرمون، قتل مهرّب، قرية سكرى بأسرها، محاكم تعسّفية، وبالاختصار لوحة الواقع الروسي الحزين. ويشير المؤلف على القيصر بثلاثة طرق للسلوك ممكنة، أشارت بواحدة منها نيكولا زوجتُه ذاتها - وهو اختراع من عند تولستوي - وهي تتلخّص في «نقل جزء كبير من السلطة إلى ممثّلي الشعب. ولسوء الحظ، فقد انكشفت ألكسندروفنا فيدوروفنا عن أنها أشد رجعية من زوجها، و لم يكن يلزم انتظار خمسين عاماً لنتبين إلى أين تُفضي سياسة نيقولا الثاني التي تنبّأ تولستوي بغايتها.

الأب سيرج ١٩٠٤:

نعود هنا إلى مناقشة الشهوة والعفة ونتجاوز ذلك إلى محاكمة المجد. ينبغي ألا نخشى القول: إن «الأب سيرج» هو أحد أكثر أعمال تولستوي أسراً للنفوس. لقد بدأها في سنة ١٨٩٠، بعد «السونات إلى كروتزر» بالضبط وأنهاها في صيف ١٨٩١، واستأنف العمل فيها تباعاً في سنة ١٨٩٥ وفي سنة ١٨٩٨، و لم يعرف هذا العمل نصّه النهائي إلا في سنة ١٩٠٤ ونحن نعثر فيها على تولستوي في أخصّ ما فيه: الخوف من خطيئة الجسد، القلق والحاجة إلى الوحدة، والتأمل والانعزال في مَنْسك، والتخلي عن الأسرة، وعن النجاح بخاصة، وعن المجد. لأن الصراع ضد الشهوة - كما كتب لتشيرتكوف - ليس سوى حلقة أو درجة على الأصح؛ الصراع الأساسي موجّه نحو غرضٍ آخر: المجد الإنساني؛ أوضح عالم شاب هو «روستيسلاف يلتنيف» في مجلة «سلافيا» (رقم ٩، براغ ١٩٣٣) أن موضوع هذه القصة، الذي يقع في روسيا القرن التاسع عشر، استعاره تولستوي من حياة قديس من قرون المسيحية الأولى، هو يعقوب الصائم - رُويت

في أعمال القديسين اليونانية الروسية، بتاريخ ٤ آذار. ومن المعلوم أن تولستوي كان قارئاً عظيماً لحياة القدّيسين هذه، والمقارنة بين هذه القصة ومصدرها مفيد إلى أقصى حدود الفائدة. وليس من العسير إثبات العلاقات المتبادلة وهي:

١. يتناول الموضوع ناسكاً صارماً أجَلّه الجميع.
٢. جاءه الإغراءُ من مومس أرسلها المازحون.
٣. يبتر الناسك نفسه بإرادته (بحرقه يده اليسرى).
٤. تتوب المومس وتترهب.
٥. يخرج مجدُ الناسك من الامتحان متطهراً.
٦. ظهور إغواء جديد: فتاة مريضة يغتصبها وينتهي بقتلها.
٧. فرار الناسك وحجّاته، حجّات الخشوع.
٨. مغفرة الله التي مُنحها.

لكن تولستوي استطاع كأحد معلّمي الأدب، أن يضع القصة من جديد في سياق القرن التاسع عشر الروسي، وأن يرسم صورة لا غبار عليها لأرستوقراطي روسي عزف عن خيرات الأرض - الغنى والمجد - لينهي حياته حاجّاً، متسولاً مغموراً.

الحاج مراد ١٩٠٢ - ١٩٠٤:

كانت القريحة الخالقة لدى الكاتب الكبير أبعد من أن تُستنزف. ولم يجفّفها الوعظ مهما يعتقد بعضهم. ودليل ذلك هذه القصة الطويلة التي هي أثرٌ رائع على طريقتها، هي أيضاً، وهي ترتكز من جهة أخرى، على حدث واقعي إطاره المكاني هو القوقاز قبل نصف قرن. إن تولستوي، إذ يشاهد ذات يوم، عن طريق المصادفة، شوكةً مدعوكة، يتذكر الفاجعة التي روُيت له: فاجعة جبليّ عنيد فرّ من «شامل» لكنه لم يستطع أن

ينضم من قلبه إلى القضية الروسية. «القصة التي يرويها بأقصى الوضوح قد كلفته عملاً كثيراً. وهي تشهد على حرص دقيق على التفاصيل. ولم يتردد تولستوي، من أجل ذلك، في أن يرجع إلى وثائق العصر، وإلى المذكرات، وأن يسأل شهود القصة. وهو على كل حال، يعترف بذلك لكورغانوف ابن ذلك العقيد الذي كان يحرس الحاج مراد: «عندما أكتب عن موضوع تاريخي، فأنا أحب أن أكون أميناً للواقع حتى في أدنى التفاصيل»: وكل دلالة القصة تأتي من التضاد البارع الذي أقامه المؤلف بين المقاتلين الآسيويين والجنود الروس، ولاسيما بتدخل شخصية نيقولا الأول الذي أتاح لتولستوي أن يُقيم ذلك التوازي بين شامل والقيصر، وهما «قطبا الحكم المطلق الإقطاعي الآسيوي والأوروبي». ولا شك أن عطف تولستوي يتّجه إلى العنصر الآسيوي الذي يُؤْثر عفويته وروابطه بالحياة الطبيعية على الهوس الانكليزي لدى الأمير فورونتزوف أو على الاستبداد «البروسي» لدى نيقولا الأول.

بعد الحفلة الراقصة ١٩٠٣:

وهنا أيضاً يستلهم تولستوي حدثاً واقعياً، وهنا أيضاً يهاجم الاستبداد الصارم لدى نيقولا الأول. أما الحدث الواقعي فان تولستوي يرجع بنا إلى تلك السنين البعيدة من ١٨٤٠: وكان إخوة الكاتب إذ ذاك طلاباً في جامعة قازان، وقد عشق سيرج الأخ الأكبر، ابنةَ قائد المنطقة العسكرية بارب كوريشا، وهو من أصل بولوني. وبعد أن شهد سيرج عقاباً جسدياً ناله جنديٌّ على يد والد الحبيبة، قطع علاقته كلها بأسرة كوريشا. وحين كان يشتغل تولستوي بالحاج مراد، تذكر هذا الفصل؛ الاتجاه الاجتماعي يلتحم هنا مع العنصر الشخصي. ومن هنا الطابع الحي لهذه الصفحات.

العملة المزيّفة ١٩٠٤:

رُسمت الخطوط الأولى لهذا النص في سنة ١٨٨٨، و لم يستوقف انتباه تولستوي ثانيةً إلا في ١٩٠٢ و١٩٠٤، دون أن يتمّ مع ذلك لقد كان المؤلف يريد أن يعرض سلسلةً متوالية من المشاهد، وكأنها في مشكال، لكي يُظهر «كيف ينتشر الشرُّ وكيف ينتهي». والمشكلةُ هنا مشكلةٌ أخلاقية واجتماعية في آن واحد؛ والعمليّةُ في كل من هذه المشاهد واحدة: إن شراً صغيراً، إذا اصطدم بالمعارضة نما مثل كرة من ثلجَ وبلغ أبعاداً هائلة. لكنه ما إن يواجه «اللاعنف» حتى يأخذ في الذوبان. ونحن نرى أخلاقيّةً ترتسم: وهي بالضبط اللاعنف والتوبة والمغفرة التي تهدي الناس وتجدّدهم، لا المحاكم ولا السجون. وهكذا فإن قاطع الطريق سيميون يغدو رجلاً فاضلاً، بل قديساً، بقوة التوبة. إن تولستوي، كدأبه دائماً، يراهن على النهوض الأخلاقي للناس، لا على التقدّم الاجتماعي.

ألكسي الإبريق ١٩٠٥:

قصة صغيرة كُتبت في خمسة أيـام، في شهر شباط ١٩٠٥. الموضوع المُستلَهم: المحيطون بالكاتب؛ وقد كان نموذج الشخصية الرئيسية طاهياً في إياسنايا بوليانا يُلقّب بـ «اليوشا الإبريق». وقد يبدو هذا النص في نظر البعض - أو في نظر معظم الناس - تافهاً. لكنه عندما ظهر في سنة ١٩١١، في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه أعمالُ تولستوي بعد وفاته، تحمّس له الشاعر «ألكسندربلوك». ودوّن في يومياته: «أكثر ما قرأته عبقريةً حتى الآن: ألكسندر الإبريق لتولستوي».

يوميات الشيخ فيدور كوزمنيتش التي ظهرت بعد وفاته ١٩٠٥:

أُلِّفت هذه الحكاية خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول من سنة ١٩٠٥ في إياسنايا بوليانا، بينما كانت الثورة تدوّي في موسكو. وليس مستحيلاً أن يكون تفكير تولستوي في عدم كفاءة نيقولا الثاني للحكم وهو ينوء تحت ثقل العرش، قد قادته إلى استرجاع ذكرى الإسكندر الأول الغامض الذي رسم خطوط صورته في الحرب والسلم. ومن المعلوم مدى انتشار تلك الإشاعة في روسيا ومؤداها أن الملك قد تظاهر بالموت ليتمكن من اللجوء إلى سيبيريا باسم مستعار وليُنهي حياته في هيئة ناسك بسيط. ويبدو أن الإشاعة لم تكن بدون أساس. لكن المؤكّد أن الرقابة لم تسمح - حتى سنة ١٩٠٥ - أن يُكتب شيءُ عن هذا الموضوع ولا عن موت بول الأول بحادث عنيف. ونحن ندرك تعاطف تولستوي مع شخصية متقلّدة للسلطة الكلّية تفهم فجأةً تفاهة كل شيء أرضي، وتفاهة الألقاب والأمجاد، وتقرّر أن تتنسّك لتكفّر عن خطاياها وخطايا الآخرين. لقد وجد الكاتبُ في ذلك صدى لأشدّ أشواقه إيلاماً. وعندما كان الناس يسعون جهدهم ليبرهنوا له أنْ لا شيء في التاريخ يسمح بالمطابقة بين القيصر الإسكندر والشيخ كوزميتش، كان يجيب: «مادامت استحالة التوحيد بين الإسكندر وكوزميتش لم يُبرهن عليها، فإن سيرة هذا القديس تحتفظ بكل جمالها وإمكان حدوثها». ويبقى أن مذكرات الإمبراطور المزعومة التي يعلن فيها تخلّيه عن جميع متع الدنيا تشهد مرّةً أخرى على فطنة تولستوي التاريخية، وفهمه للحقائق الإنسانية العظيمة، والفكرة الشديدة الخصوصية والملائمة التي كوّنها لنفسه عن العمل الفني. ولنستمعْ إليه بهذه المناسبة أيضاً: «الحقيقة الفنّية يعرفها من لا يبحث عمّا كان، بل عمّا كان يجب أن يكون. الأعمال الأدبية ليست حسنة ولا نافعة إلا بالمقدار الذي لا تصف فيه ما كان،

بل عندما تدلّ على ما كان يجب أن يكون: لا عندما تروي ما فعله الناس، بل عندما تقدّر قيمة الخير والشر... هناك جبالٌ من الكتب تصف ما كان أو ما كان يمكن أن يكون، لكن كل شيء في هذه الكتب كذبٌ... وقد يقع أن ترى النور قصص حكايات وأساطير تحدّث عمّا لم يكن قط وما لم يمكن أن يكون، ومع ذلك فإن هذه الأساطير والأمثال هي الحقيقة عينها لأنها تشهد على الموضع الذي توجد فيه مملكةُ الرب». إن سيرة فيدرو كوزميتش هي إذن بالنسبة إلى تولستوي التعبير عما كان يجب أن يكون، عما كان يجب أن يقع لهذا الكائنِ الحسّاس والمنغلق الذي كأنه الإسكندر الأول. لقد رأى ذلك جيداً كورونلكو، في سنة ١٩١٢: «إننا لا نعلم مَنْ كان هذا الناسك فيدرو - الإمبراطور الإسكندر، أو ابن زنا لبول الأول أو شخصية ثالثةٌ ما - لكن دراما هذه الحياة متقاربةُ تقارباً حميماً، على كل حال، مع أماني نفس الكاتب الكبير، أمانيّها الخفيّة والمشروعة».

ما رأيته في الحلم ١٩٠٦:

هذه القصة النابضة بالحياة التي كُتبت في سنة ١٩٠٦ مُستلهمةٌ من حدث واقعي - المغامرة التعسة لابنة أخ الكاتب، فيرا، ابنة أخيه الأكبر «سيرج». حدثت الواقعةُ نحو سنة ١٨٨٥؛ وبعد نحو عشرين عاماً، يتمثّل تولستوي بقوة، مرة أخرى، حركات نفس بطلي الدراما، مخضعاً إياها لفكرته المفضّلة: مغفرة الخطيئة، الشعور المسيحي الحقيقي الوحيد الذي ينبغي أن يغلب مشاعر الكبرياء والخيبة العميقة.

الأب باسيل ١٩٠٦:

هذا نصٌّ الحبُّ فيه حبٌّ مسيحي خالص. وسوف نعجب بالصورة التي يرسمها تولستوي لكاهن ريفي مسكين هو الأب باسيل. إن الأب

باسيل هذه الشخصية المتواضعة يحب من كل نفسه الفلاحين الفقراء الذين يسعى جهده ليمدّ إليهم يد المعونة، ونحن نحسّ إلى أي حدّ يودّ تولستوي لو يغدو مخلوقاً من هذا النوع... ولعل القارئ سيلاحظ أنْ لا أثر لدى الكاتب، وهو في نهاية الدرب، لأية فظاظة إزاء الكنيسة الرسمية، كما هي الحال في «البعث» مثلاً. ولا أية سخرية أيضاً من الأسرار المقدّسة، ولا من وظيفة الكاهن. لا لبس في ذلك. الكاتبُ كله موضوعية وعطف: إن كاهن حكايته الصغير وهو حقاً أخوه في المسيح.

مَنْ القَتَلةُ ١٩٠٨:

نعود مع النص إلى المسائل الاجتماعية. وفيه يبذل تولستوي جهداً «ليَفهم» الثوريين، بسيكولوجيتَهم، وهذا العنف الذي فيهم والذي كان غريباً عنه. إن ابن فلاح يشتغل في موسكو مستخدماً صغيراً لا يمكن إلا أن تصيبه التناقضات الاجتماعية، فتفارقه سكينته النفسَية؛ إنه يَطْرح على نفسه أسئلةً، ويغدو فوضوياً، ثم ثورياً. وإذا «بمتآمرين» يَعْرضون عليه أن يقوم بالسطو، أن يسلب تاجراً ثرياً ماله... ولم تتمّ القصة.. لكن تولستوي، كما يمكننا أن نرى، قد تردّد من غير شك، بين القصة والشكل المسرحي، ولعل ذلك لأن هذا العالم كان شديد البعد عنه لا تكاد تكون له ألفةٌ به...

حكمة الطفولة ١٩٠٨ - ١٩١٠:

واحد وعشرون مشهداً صغيراً أُلِّف وأعيدت كتابتُه بين ١٩٠٨ و١٩١٠. ونحن نجد هنا أيضاً المسائل الاجتماعية. لكن تناولها هنا يتم بطريقة أخرى مستلهمة هذه الحكمة: «الحقيقة تخرج من فم الأطفال» وبهذا الشكل المستحبّ، يخضع الكاتب العجوز لنقد

لا رحمة فيه، جميع المبادئ العزيزة على الكنيسة والدولة، وجميع الأفكار الموجّهة التي يعيش عليها مجتمع زمانه. كل شيء يمرّ بها: المعجزات، الوطن، الملكية، مثلها مثل الحرب، ومبيع ماء الحياة. مؤسسة المحاكم، الحكم بالإعدام الخ. الأطفال يدهشون من الحياة ومن تصرّفات الراشدين وهؤلاء لا يجدون حججاً معقولة ومعلّلةً ليدافعوا بها عن مواقعهم. ولعل الفوضوية بأساسها المسيحي لدى تولستوي قد وجدت هنا تعبيرها الأكثر تركيزاً.

ما من مُذنبٍ ١٩١٠:

حكاية ظلت ناقصةً وموضوعها قريبٌ من موضوع «العزيز» نحن هنا أيضاً أمام التضاد المخيف بالنسبة إلى الكاتب، بين حياة ملاّك غني والحياة التي يحياها فلاّحو الجوار.

نقاش حول الملكية الزراعية ١٩١٠:

كُتبتْ في حزيران ١٩١٠، وهي تتابع الحكاية السابقة وتكوّن نوعاً من الرواية الإيديولوجية للنص. كل الشر في نظر تولستوي يأتي من توزيع الأرض غير المتساوي. وهو يحارب من وجهة النظر هذه، الملكية الكبيرة، مستلهماً نظرات عالم الاجتماع الاميركي هنري جورج الذي كان يعجب به كثيراً – من أجل إصلاح سلمي. ولسوء الحظ، أبى النظام الرجعي أن يتنازل في هذه النقطة الرئيسية، و لم توافق الحكومة على مشروع القانون المعقول جداً حول نزع الملكية الكبيرة الذي صوّتت عليه الدوما الأولى في سنة ١٩٠٦. بل إن البرلمان حلّ، وعدّل القانون الانتخابي فيما بعد، في سنة ١٩٠٧، تعديلاً سيئاً. كان النظام يجري إلى حَتْفه، وأخذت تتكاثر علامات العاصفة المقبلة.

كودنيكا ١٩١٠:

إن هذا الجو الاجتماعي بالذات الذي مردّه إلى عمى الحكومة هو الذي يُعيد بناءه آخر أعمال تولستوي الأدبية، المؤلَّف قبل بضعة أشهر من موته، أي في حزيران ١٩١٠. وهو يقدّم حدثاً دامياً لم ينْجُ من التأويل، في تلك الحقبة، إذ أُوِّل على أنه نذير شؤم لعهد نيقولا الثاني، حدثت الأشياءُ أثناء التتويج الرسمي للقيصر الذي حدّد موعده في ١٤ أيار ١٨٩٦، في موسكو. أما في ١٧ من الشهر فقد قرُر أن يقام احتفالٌ توزّع فيه الهدايا على الشعب في حقل التدريب «كودنيكا». وفي عشية الاحتفال اجتاح الأماكنَ جمهورٌ من ثلاثمئة ألف شخص. ولما كان الجهاز المحافظ على النظام غير موجود، فقد جرّ التنظيم إلى الكارثة: فعندما اندفع الجمهور إلى الموائد المُثقلة بالهدايا، هلك مئاتٌ من الأشخاص خنقاً. لكن الرقابة منعت التلميح إلى الكارثة، واستمرّت الاحتفالات كأن شيئاً لم يكن.

ولا يخلو من الفائدة التذكير، بهذه المناسبة، أن حدثاً مشابهاً وقع في باريس أثناء زواج ولي العهد لويس السادس عشر وماري انتوانيت في ٢٧ أيار ١٧٧٠. ذلك أن جمهوراً من ثلاثة آلاف مشاهد إلى أربعة آلاف يحرّكهم جيشانهم العنيف قد أرادوا أن يتّجهوا إلى ساحة لويس الخامس عشر ليشهدوا الألعاب النارية التي كان مقدّراً أن تطلق من سطح «التويليري». ولسوء الحظ، حدثت الزحمة الشديدة في الشارع الملكي الذي سحبت منه ١٣٢ جثةً مدهوسة بالأقدام و ١٧٠ جريحاً ماتوا في اليوم التالي. لكن الأفراح المقرّرة أُلغيتْ لذلك، بل إن ولي العهد حضر شخصياً جنازة الضحايا. وقد سجّل أحد كاتبي سيرة لويس السادس عشر «إنه لاتفاقٌ فاجعٌ، فبعد ثلاثة وعشرين عاماً سيسفح دم الملك في المكان ذاته الذي سفُح فيه دمُ الشعب، في فجر

ملكه». وفي روسيا أيضاً، سقط النظام القديم، وجرى مقتل الكثير من الأسرة الإمبراطورية بعد عشرين عاماً من حادث «كودينكا» المشؤوم.

لقد استطاع تولستوي أن يقرأ عبر الحدث، مثل نبي من أنبياء التوراة، النذير الذي لم يستطع آخرون أو لم يريدوا أن يفهموه. وبالحيوية المؤثرة وبفن الكاتب المتفوق إنما وصف تولستوي الفوضى البشرية على «كودينكا». لكن هذا الوصف القاتم تنثر عليه لمسات من الحنان والإخاء الإنساني. وهكذا نرى، والتدافع على أشدّه، العاملَ البسيط ايميليان ينُقذ أميرةً شابة اختلطت بالجمهور، عن طريق الفضول. وهو يفعل ذلك بلا قصد سيِّء، يدفعه الإحساس بالتضامن الإنساني والمسيحي وحده. وهكذا يُختتَم بنغمة من الحب الإنساني العميق بالرغم من الإعصار، العمل الأدبي الذي لا نظير له، عمل تولستوي، «كاتب أرض روسيا الكبير».

الكسندر سولوفييف

***

مكتبة
t.me/t_pdf

تأريخ يَوم الأمس

١٨٥١

إنني أكتب تاريخ يوم الأمس لا لأن هذا النهار كان بذاته لافتاً للنظر، بل لأنني كنت أرغب منذ زمن بعيد أن أسجل سلسلة الانطباعات التي يتكون منها يومٌ واحد بطوله.

الله أعلم كم هي متنوّعة، وكم هي متجمّعة تجمعاً مثيراً، وكم تولِّد فينا من أفكار تلك الانطباعات المبهمة، المُظلمة، والتي تفهمها نفسُنا، مع ذلك. ولو كان ممكناً أن تُروى بحيث يستطيع كلُّ واحد أن يقرأها وكأنه هو كتبها، وأن يجد نفسه فيها كاملةً، إذن سيكون بين أيدينا كتابٌ عظيم الفائدة وشديدة الإثارة؛ ومن المؤكد أننا لن نعثر في الأرض، من أجل كتابة مثل هذا الكتاب، على ما يكفي من الحبر، ولا على ما يكفي من الطابعين لتنضيد حروفه.

نهضتُ أمس متأخراً – في العاشرة إلا الربع – لهذا السبب البسيط وهو أنني أويت إلى فراشي بعد منتصف الليل. وقد كنت حدّدتُ قاعدةً لنفسي، منذ زمن بعيد وهي ألا آوي إلى فراشي بعد منتصف الليل. ومع ذلك، فقد يقع لي أن أخرق هذه القاعدة نحو ثلاث مرات في الأسبوع؛ ولكني أصنّف هذا النوع من المخالفة، بحسب الظروف.

إما بين الجرائم، وإما بين الأخطاء الطفيفة. وها هي ذي الظروف التي كانت أمس (هنا أرجو القارئ أن يعذرني، لأني سأضطر، إلى رواية ما وقع لي أول من أمس - ألا يكتب الروائيون في الغالب، قصصاً طويلة تتصل بالأجيال السابقة على بطلهم؟). لعبتُ بالورق لكن دون أي شغف باللعب كما قد نُغرْى بالاعتقاد؛ ففيّ من الشغف باللعب كالذي في من يرقص البولونية من شغف بالنزهة!

بين النصائح الكثيرة التي كان ينصح بها جان جاك روسو والتي لم يكن يتبعها أحدٌ، أنه اقترح أن يلعب الناس، وهم جماعة، بكرة القَرن لتكون أيديهم مشغولةً. لكن ذلك لا يكفي: إذ من الملائم أيضاً، في الجماعة، أن يكون الرأسُ مشغولاً، أو على الأقل أن يستغرق جزئياً في تمرين يترك فراغاً للكلام أو للسكوت، مثل هذا التمرين، ها نحن نعثر عليه! إنه اللعب بالورق.

يشكو أبناء الجيل القديم. أن فن الحديث يختفي. لا أدري كيف كان أبناءُ الجيل السابق (لا شك أنهم كانوا شبيهين بنا)، لكن ما أستطيع تأكيده هو أن الحديث ليس شيئاً قائماً في ذاته. الحديث، من حيث هو شاغل يشغلنا، ابتكار غبيّ. وليس نقص الفكر هو ما يقتل الحديث، بل الأنانية: كل واحد يريد أن يتكلم عن ذاته أو على ما يهمّه؛ وإذا تكلم الواحد وأصغى الآخر فالحديث لا يعود حديثاً، بل يغدو درساً. وإذا التقى شخصان معنيّان بمسائل واحدة فيكفي أن يحضر شخصٌ ثالث حتى يُفسد كلَّ شيء؛ إن هذا الأخير يتدخّل في النقاش، وينبغي أن يُعطَى حظه فيه، فيضطرب الحديث.

وقد يبدأ الحديث بين شخصين يهتمان بموضوعات واحدة دون أن يزعجهما واغلٌ عليهما؛ الأمرُ هنا أسوأ أيضاً: إذ أن كلاً منهما

يتكلّم عن الشيء ذاته منطلقاً من وجهة نظره، مرتّباً الأمور على هواه؛ وكلما امتدّ الحديث ابتعد أحدهما عن الآخر إلى أن يلاحظ كل منهما أنه لم يعد يتحدّث، لكنه يعظ متّخذاً من نفسه شاهداً على ما يقول، وأن محدّثه الذي يفعل فعله لم يعد يصغي إليه. هل وقع لك أن شاركت بلعبة البيض أثناء الأسبوع المقدّس؟ إنك ترمي على لوحة صغيرة منحنية بيضتين متشابهتين، وتحرص على أن توجه رأسيهما وجهة متعاكسة! ستبرم البيضتان أول الأمر في الاتجاه نفسه، ثم لا تلبث أن تمضي كل منهما في الاتجاه الذي يعينّه لها رأسها. لا شيء يشبه هذه اللعبة أكثر من الحديث: البيض الفارغ وحده يجري بصوت شديد لكنه لا يذهب بعيداً، أما البيض الممتلئ وذو الرؤوس المحدّدة فإنه يَجرْي على هواه، ولن تجد بيضتين تسيران على الطريق نفسه فلكل بيضة رأسها.

لست أقصد تلك الأحاديث التي تنعقد لأن من غير المهذّب ألا يتكلم المرءُ، كما أنه من غير المهذّب أن يخرج المرءُ بلا ربطة عنق. إن أحد المحدّثين يقول في نفسه: «أنت تعلم جيداً أن ما أقوله لا يعنيني أبداً، لكن لا بدّ من أن أقول شيئاً». ويقول الآخر في نفسه: «تحدّث، يا صاحبي المسكين، إن كان لا بدّ من ذلك!».

ليس هذا حديثاً، وإنما هذا أشبهُ بثوب الحداد، وبطاقة الزيارة، والقفازين؛ إنها قضية لياقة. أما أثناء اللعب بالورق فيمكن الاستغناء عن الكلام، ويمكن، بين وقت وآخر، أن يلقي المرءُ نكتةً إرضاء لغروره، دون أن يكون مضطراً من أجل ذلك، إلى أن يستمرّ باللهجة ذاتها، كما يكون الأمر بين جماعةٍ لم تجتمع إلا للذة الحديث.

ويجب أن يحتفظ المرء بآخر خرطوشة لآخر جولة، للحظة التي

يوُدِّع فيها؛ فهذا هو الوقتُ المناسب لإطلاق أسهمه النارية، لبَذْل كل مخزونه المدّخر، كجواد السباق وقد أشرف على بلوغ الهدف؛ وإلا بدوت باهتاً وضَحْلاً. وقد لاحظتُ أن الذين يُعدّون لامعين وخفيفي الروح في المجتمع، لا الأذكياء وحدهم، يُفْسدون سحرهم لأنهم لا يُحْسنون تدريج آثار الحديث في السامع. وإذا ما اندفع المرء بسرعة مفرطة، وتكلم حتى يُستَنْزف، فسيكون آخر انطباع لدى المستمعين: «يا إلهي، ما أجمده!».

عندما تلعب الورق، فها هنا شيءٌ لا يحدث دائماً! إذ من المباح لك أن تصمت دون أن تتعرّض لأي نقد. وفضلاً عن ذلك، فقد يحدث أيضاً أن تشارك نساءٌ فتيّات في اللعب، وما الذي يمكن أن يرغب فيه الإنسان أكثر من أن يبقى ساعتين أو ثلاثاً إلى جانب امرأة جميلة؟.

ودونك ما جرى: كنتُ ألعبُ بالورق؛ كنت جالساً إلى اليمين حيناً، وإلى اليسار حيناً آخر، وفي مواجهة الآخرين حيناً ثالثاً، وكنت أجد الراحة حيثماً جلستُ. استمر ذلك إلى منتصف الليل إلا ربع ساعة. وقد لعبنا ثلاث جولات.

لَمَ تحبّني تلك المرأة؟... (كم كنت أود لو أضع نقطة هنا) إن ذلك يُشيع الاضطراب فيّ وبخاصة أنني لا أشعر بالراحة في حضرتها: فتارة يُخيّل إلي أن يديّ ليستا نظيفتين تماماً، وتارةً أخرى أن جلستي غير مريحة؛ وتارةً ثالثة يُضايقني دمّل على الوجنة (الوجنة التي استدارت صوبها بالذات).

ومع ذلك فيبدو لي أنها لا دَخل لها في ذلك كله؛ أنا الذي لا أجد راحةً أبداً مع الذين لا أحبهم أو مع الذين أُحبّهم حبّاً جماً. لَمَ ذلك؟ الأمر بسيط جداً: ذلك لأنني أشتهي أن أري الذين لا أحبهم

أنني لا أحبهم، وأن أري الآخرين أنني أُحبّهم؛ وأنْ تُري الآخرين ما تستشعره ليس شيئاً يسيراً. وعلى كل حال، إن ذلك يؤول دائماً إلى عكس ما أريد. فإذا شئتُ أن أكون بارداً خُيِّل إلي أنني أفرطتُ في ذلك، فأغدو حينئذ مُسرفَ اللطف؛ أما إذا كنت مع مَنْ أحبّ - مع من أحبهُّم أعظمَ الحب - فإنني لا ألبث أن أغدو جافاً وفظاً لمجرد التفكير بأنهم قد يظنّون أنني لا أحبهم.

هي امرأةٌ، بالنسبة إلي، لأنها تملك صفات ساحرة تجبرنا على حب النساء، أو على الأصح، حبّها هي - وبكلِمة واحدة لأنني أحبها. لكن التفكير بأنها يمكن أن تكون ملك رجل آخر لا يقلقني البتّة؛ بل إن ذلك لا يخطر ببالي. إن لها هذه العادة السيئة (الحمقاء قليلاً) وهي أن تُناغي زوجها، حتى بين الناس؛ لكن ذلك غير مهمّ عندي - غير مهم كما لو كانت تُقبِّل مدفأةً أو طاولة.

إنها تلعب مع الناس وتجد دائماً الموقف الذي يتلاءم مع كل ظرف من ظروف الحياة. إنها مغناج. لا! ليست مغناجاً فحسب؛ إنها تحب أن تُعجب الناس، بل إنها تحب أن تفتل رؤوسهم. وأنا أطرح كلمة «مغناج» لأن في هذه الكلمة، أو على كل حال في الفكرة التي ترتبط بها، شيئاً من سوء النية. وفي رأيي، أن عَرْض العُرْي، والكذب في الحب، ليسا غنجاً، وما هما إلا سوقية ودناءة. لكن الرغبة في الإعجاب، وفي فَتْل الرؤوس، على العكس هي التي تخلو من كل ما هو بشع؛ إنها لا تؤذي أحداً - إذْ لم يعد «فرتر» موجوداً - وهي مصدر لذة بريئة تحرّكها تلك الرغبة وللذين يخضعون لها. وهكذا، فأنا مثلاً، سعيدٌ جداً بأن تعجبني ولست أطمح إلى شيء آخر.

ثم إن هناك نوعين من الغنج: أحدهما ذكي والآخر أحمق. الغنج

الذكي هو الذي لا يُلاحظ، هو الذي لا يمكن أن نداهمه مداهمةَ. أما الغنج الأحمق فهو لا يخفي شيئاً؛ وانظرْ كيف يتكلم: «إنني لستُ جميلة، لكن لي ساقين بديعتين. انظرْ إليهما عندما أصعد العربة. أرأيت إليهما؟ أليستا جميلتين؟».

– ربما كانت ساقاكِ جميلتين، لكنني لم ألحظهما لأنك أَرَيْتني إياهما.

ويقول الغنجُ الذكي: «سواء عندي أنظرتَ إليّ أم لم تنظر؛ شعرتُ بالحرارة فخلعت قبعتي».

– «لكنني أرى كل شيء» – وماذا يهمّني من ذلك كله. كلُّ ما في الغنج الذكي بريء وخفيف الظل.

نظرت إلى ساعتي ونهضتُ. عجيب! لم أر قط نظرتها تستقرّ علي، إلا عندما أكلّمها؛ ومع ذلك فلا تُفلت منها أيةُ حركة من حركاتي.

– عجباً، ساعتكَ ورديةٌ!

استأتُ غاية الاستياء لأنها وجدتْ ساعتي وردية. ولاشك أن غيظي كان شديد الوضوح، إذ إنها اضطربت هي أيضاً عندما أجبتها إن ساعتي ممتازةٌ. وأظن أنها أسفت لأنها قالت شيئاً ساءني. وأدركنا كلانا كم كان ذلك مضحكاً، وانسلّت ابتسامةٌ إلى شفتينا. وقد سرني كثيراً أن أحس أننا استشعرنا الاضطراب نفسه معاً، وأننا ابتسمنا معاً – وعلى الإجمال، أننا ارتكبنا حماقةً معاً. وأنا أحب هذه العلاقات الخفية التي تعبر عنها ابتسامة، نظرة، والتي لا سبيل إلى تفسيرها؛ لا لأن الواحد يفهم الآخر، لكن لأن كل واحد يفهم أن الآخر يفهم، أنه يفهمه، إلخ.

أكانت تريد أن تنهي ذلك الحديث الشديد العذوبة بالنسبة إلي؟ أكانت تريد أن ترى كيف أرفض متابعة اللعب أو أن تعلم إن كنت أرفض متابعته؟ لقد نظرتْ إلى الأرقام المكتوبة على الطاولة، وتناولت حوّارةً، ورسمت صورةً لا يمكنها أن تكون صورة رياضيةً أو فنية، ودسّتْ نظرةً بين زوجها وبيني وقالت:

- لنلعبْ أيضاً جولةً أخرى.

كنتُ مستغرقاً في التأمل، لا تأمل حركاتها فحسب، لكن تأمل ذلك الشيء الذي لا يمكن تحديده والمسمى «السحر»، إلى الحد الذي انطلق فيه خيالي بعيداً، و لم يتمكن من العودة في الوقت المناسب ليزين كلماتي بصيغة موفقة. اكتفيتُ بالقول:

لا. لا أستطيع.

ما كدتُ ألفظ هذه الجملة حتى بدأ الندمُ يخالجني - يُخالج جزءاً مني لا أنا كلي. ليس بين أفعالنا فعل لا يدينُه جزءٌ من نفسنا؛ وبالمقابل، هناك دائماً جزءٌ آخر يسوّغ تلك الأفعال: «وماذا يُصيبكَ لو نمتَ بعد منتصف الليل؟ أأنت متيقّن من أنك ستجد المناسبة لقضاء سهرة ممتعة إلى هذا الحد؟».

لا شك أن ذلك الجزء كان يتكلم بكثير من الفصاحة والاقتناع (ومن المؤسف أن نقل تلك اللغة بدقة أمرٌ مستحيل)، لأن الخوف انتابني وأخذتُ أبحثُ عن الحجج. كنتُ أقول في نفسي: «أولاً، إنك لا تشعر بلذة عظيمة، إنها لا تعجبك البتّة، ثم إنك في وضع محرج: كنتَ قد قلتَ إنك لا تستطيع البقاء؛ أنت تضيّع نفسك في تقديرها...».

- ما ألطفه، هذا الشاب!

هذه الجملة التي تلت فكرتي مباشرة قطعتْ أفكاري. فأخذتُ أعتذر قائلاً إن من المستحيل علي أن أقبل؛ ولكن بما أن مثل هذه الجمل تُلفظ دون أن تكون هناك حاجةٌ إلى التفكير، فقد بقيتُ أطلق العنان لأفكاري. يروق لي، إلى أقصى حد، أن تتحدث عني بضمير الغائب؛ هذا خشنٌ، في الألمانية، لكن حتى في الألمانية، يروقني ذلك. لم لا تجد طريقة مناسبة لمخاطبتي؟ إنها تبدو منزعجةً لأنها تسميّني باسمي أو بلقبي. أم لأن ذلك...

قال زوجها:

- ابق معنا للعشاء.

وإذ كنتُ مستغرقاً في أفكاري حول صيغ الغائب، لم ألاحظ كيف أن جسمي بعد أن اعتذر عن عدم استطاعته البقاء، قد وضع قبّعته مرة ثانية، واستقر على كرسيّه بهدوء. ولا ريب أن الجزء الروحيّ من ذاتي لم يشارك أية مشاركة في هذه الحماقة.

كنتُ متضايقاً جداً وعدتُ إلى لوم نفسي عندما جاءت مناسبةٌ سارةٌ جداً لتنسيني نفسي. لقد أخذت المرأةُ الشابة ترسم، من جديد، شيئاً بانتباه شديد - شيئاً لم أتمكن من رؤيته - ثم رفعت الحوّارةَ إلى أعلى مما يجب، ووضعتها على الطاولة، واتّكأت بذراعها على الأريكة التي تجلس عليها واستندت بظهرها إليها لتنزلق انزلاقه خفيفة؛ رفعتْ رأسها - رأسٌ حوافيه ناعمةٌ وبيضوية، عيناه سوداوان مُغلقتان نصف إغلاقه لكنهما قويتان، فمه بخاصة عظيم الفتنة، بتناغم تعبيره مع تعبير العينين، ويعبرُ دائماً عن شيء جديد.

ماذا كان يعني ذلك الفمُ، في هذه اللحظة؟ كان فيه شيء من الحلم، ومن السخرية، ومن اللطف المتكلّف، ومن رغبة في الضحك مكبوتة، ومن الوقار، ومن النزوة، ومن الهوى، ومن الخمول. وما الذي لم يكن يعبرّ عنه ذلك الفم أيضاً!...

خرج زوجها في هذه اللحظة، ليأمر بالعشاء، من غير شك. وعندما أترك وحدي معها يستولي علي دائماً الخوفُ، ويستبدّ بي القلقُ. وأحسّ، وأنا أتابع بعينيّ الذين يذهبون، بالضيق الذي أشعر به عندما أرى مراقصتي تنتقل إلى الجهة الأخرى، في النقلة الخامسة من الرقصة الرباعية، وتدعني وحدي. وأنا على يقين من أنه كان أقل إيلاماً لنابليون أن يرى السكسونيين ينضمون إلى العدو، في ليبزغ وأنا أشهد، في ريعان شبابي، هذه الحركة القاسية. والوسيلة التي استخدمها في الرقصة الرباعية هي التي أستخدمها أيضاً في الحالة التي تحدّثتُ عنها: أتظاهر بأني لم ألحظ أنني بقيتُ وحدي.

انتهى الحديثُ الذي بدأ قبل ذهاب الزوج، كررتُ الكلمات الأخيرة وأنا أضيف فقط:

- أليس كذلك؟

واكتفت بأن قالت: «نعم».

وهنا بدأ حديثٌ آخر، حديثٌ صامتٌ، هذه المرة. هي: «أنا أعلم لماذا تكرّر ما قلته: أنت مضطربٌ وأنت ترى أنني مضطربة مثلك. فلكي نبدو منهمكيْن، لفظتَ بعض كلمات؛ أشكرك كثيراً على هذا الاهتمام، لكني أقول لك سراً: إنَّ ما قلته لم يكن عظيم الذكاء».

أنا: «حقاً، ملاحظتك صحيحة، لكني أتساءل لِمَ أنتِ مضطربة.

أتظنين أنني سأقول لك أشياء مزعجة، لأنني وحدي معك؟ ولكي أثبت لك أنني مستعد للتضحية بملذاتي جميعاً، مع أن هذا الحديث الصامت ممتعٌ لي، فسوف أتكلمّ بصوتٍ مرتفع، أو بالأحرى، ابدَئي أنتِ نفسك».

هي: «أتريد ذلك؟».

وما كاد فمي يتهيّأ للَفْظ تلك الكلمات المبهمة التي لا تدع مجالاً للتفكير في أشياء أخرى، حتى شرعت في حديث بصوت مرتفع - حديث كان يمكن أن يمتدّ طويلاً. لكن أشدّ الناس إمتاعاً، في مثل هذا الوضع، يقعون في الفراغ، لأن الحديث الآخر هو الذي يستمر. وبعد أن ألقى كلٌ بدوره، جملةً! صمتْنا مرةً أخرى. وهذا هو الحديث الآخر.

أنا «لا، يستحيل الكلامُ! أرى أنك مضطربة. الأفضل أن يعود زوجك».

هي (بصوت مرتفع، مخاطبةً أحد الخدم): - أين إيفان إيفانوفتش؟ أرجُهُ أن يأتي.

وإذا شكّ أحدٌ بأن مثل هذا الحديث الخفيّ يمكن أن يجري فإني أقدّم له ما يلي دليلاً على ما قلت.

تابعتُ بالطريقة نفسها: «أنا مسرورٌ جداً من أننا وحدنا. وألاحظ أن حذرك يجرحني في الغالب؛ وإذا وقع لي مصادفةً أن تُلامس رجلي رجلك، بادرت على الفور إلى الاعتذار دون أن تدعي أمرَ الاعتذار لي، مع أنني لم أكد أتبيّن أن رجلك هي التي لامست رجلي. لست سريعاً مثلك، وأنت تظنين أن اللباقة تنقصني».

كان الزوج قد عاد إلى الغرفة، فتعشَّينا، وثرثرنا، وبعد منتصف الليل بربع ساعة استأذنتُ.

نحن في الربيع، في ٢٥ آذار الليلة عذبةٌ وصافية وفي مواجهتنا، فوق سطح أحمر لمنزلٍ كبير أبيض، يعلو الهلالُ في أول أيامه. و لم تبق سوى آثار نادرة من الثلج.

- قدِّمْها.

كانت زلاّجاتي تنتظر وحدها في الشارع. وكان ديمتري يعلم جيداً، أنني سأخرج، و لم يكن الخادم بحاجة إلى مناداته؛ والواقع أنني تعرّفت صوت شفتيه، الشبيه بصوت قبلة في الظلام - وهو الصوت الذي يستخدمه عادةً ليحث الجواد الصغير، وليساعده على الانطلاق بالزلاّجة على البلاط الذي تصرّ مزالجه وتصرف على نحوٍ مزعج. تقدمت الزلاجةُ؛ قدّم الخادمُ ذراعه ليساعدني على العبور؛ لكني مشيت ببطء لكي لا أخدش هذا الرجل الطيب، بحيث أني حطّمت قشرة الجليد الرقيقة التي تغطّي نقعةً من الماء وبللّتُ قدميّ.

- شكراً، يا صاحبي! هل سيكون جمدٌ، يا ديمتري؟

- طبعاً! الآن، سيكون جمدٌ، في كل الليالي!

إن في هذا لغباءً! ما حاجتي إلى سؤاله؟ كلا، ليس في ذلك غباء! أنت تشتهي الكلام، تريد أن تثرثر مع أحد الناس لأنك حسنُ المزاج. و لم أنا حسن المزاج؟ لو كنتُ قد صعدتُ إلى الزلاّجة قبل نصف ساعة، لما كانت بي رغبةٌ في الكلام. أما الآن، فها أنت فرحٌ لأنك تكلمت كثيراً قبل ذهابك، لأن الزوج قال لك وهو يوّدعك: «متى سنلتقي ثانيةً»، لأن الخادم، الذي امتلأ برائحة الثوم الخبيثة، قد خف إليك (ولابدَ من القول إنني أعطيتهُ روبلاً ذات يوم).

في جميع ذكرياتنا، تمحي الأحداث الوسطى. ويبقى الانطباعُ

الأول والانطباع الأخير وحدهما - ولاسيما الأخير. ومن هنا ربما جاءت هذه العادةُ الجميلةُ التي تقضي بأن يرافق رب البيت ضيفه إلى الباب، حيث يخاطبه وهو يحييّه ببعض من الكلمات المحببّة، مهما تكن علاقاتهما حميمة. فإنَّ مخالفة هذه القاعدة مخلٌّ باللياقة. وهكذا فإن «متي سنلتقي ثانية؟» لا تعني شيئاً، لكن حب الضيف لذاته يترجم هذه الصيغة على النحو التالي: «متى» تعني «تعال بأسرع وقت»، وضمير الجمع في «سنلتقي» تعني «أنا وزوجتي التي ستكون سعيدة بأن تراك ثانية» ونلتقي تعني «أننا قضينا معك سهرة رائعة، فتكرّمْ علينا مرة أخرى بهذه المتعة». ويمضي الضيفُ هكذا وهو يحمل هذا الانطباع السار.

وممّا لا بدّ منه، وبخاصة في البيوت التي لم تُنظّم تنظيماً جيداً، حيث الخدم ولاسيّما البوّاب (وهو الخادم الذي يترك أول انطباع وآخره) لم يُدرَّبوا تدريباً حسناً - أقول ممّا لا بد منه أن تُوزّع الحلوانات. إن الخدم يستقبلونك حينئذ ويودعونك كأحد المتردّدين على البيت، ويمكن ترجمة احتفائهم الذي مصدره خمسون كوبيكاً كالآتي:

«كل الناس هنا يحبونك ويحترمونك، ولذلك يمكننا أن نُعنى بك ونحافظ في الوقت نفسه على رضا أسيادنا».

وحتى لو كان الخادم وحده هو الذي يحبك ويحترمك، فهذا يسرّك مع ذلك، وماذا يهمّ لو أخطأنا؟ لو لم تخطئ لما...

- الحقّ أنك ضللتَ سبيلك!

كان ديمتري يقودنا ببطء وحذر، على طول الشارع، متحاشياً الجليد، ملازماً الجهة اليمنى، عندما صدمتنا فجأة عربةٌ يقودها غولُ

(لم يطلق عليه ديمتري هذا الاسم إلا بعد لحظات). تخلّصنا من المأزق كيفما اتفق، و لم يرفع ديمتري صوته إلا بعد عشر خطوات:

- إن هذا الرجل لغولٌ! إنه لا يعرف حتى يده اليمنى! لا تظنّ أن ديمتري خجول وأن سرعةُ الجواب تعوزه! على العكس: فمع أنه قصير القامة ولا لحية له (لم يكن يحتفظ بغير شاربيه)، إلا أنه كان عميق الشعور بكرامته وكان يؤدي واجبه بدقة؛ وسبب تخاذله في الحالة الحاضرة تعود إلى ظرفين، الأول أن ديمتري تعوّد أن يقود مركبات توحي بالاحترام، وكانت زلاجتنا حينئذ حقيرة، مربوطة بجواد شديد الصغر ولها عريشان طويلان بحيث لم يكن السوط ليطول هذا الجواد الهزيل الذي كانت قائمتاه الخلفيتان تنتقلان بخرق. ومن الواضح أن كل ذلك لم يكن يؤلّف طاقماً حسن التألق ولا عظيم الهيبة، وكان ديمتري يتألم من ذلك إلى الحد الذي كاد يُفقده الشعور بكرامته. والثاني إن سؤالي عن الجمد ذكّره، فيما أظنّ بالأسئلة التي تُطرح عادةً في الخريف عند الانطلاق إلى الصيد. وكان ديمتري صياداً ماهراً؛ ولاشك أنه أخذ يحلم بالصيد، ونسي من جراء ذلك أن يسبّ الحوذيّ الذي لم يلزم يمينه. وبين الحوذيين - كما هي الحال بين الناس جميعاً - يكون الحقّ مع الذي يكون أشد صراخاً ومع ذلك فهناك استثناءات: إن فانكا مثلاً، حوذيّ العربة، لا يثور أبدا على عربة سيدّ؛ إن عربةً بجواد واحد مهما تكن أنيقة لا يليق بها أن تتصدّى لعربة بأربعة جياد. كل ذلك منوطٌ في الحقيقة بطبع كل واحد وبالظروف، لكنه منوط، قبل كل شيء، بشخصية الحوذي.

ذات يوم في تولا رأيت مثلاً مدهشاً للتأثير الذي يمكن أن يُحدثه إنسانٌ في إنسان آخر بفضل جسارته. كان ذلك أثناء عرضٍ في

عيد المساخر؛ كانت الزلاجات بجوادين، وبأربعة جياد، والعربات بجوادين، والخيول التي تخبّ والخيول الأصيلة، كل ذلك كان يمرّ بمهابة على طول شارع «كييف» يتبعه جمهورٌ من المشاة. وفجأةً دوّى صوتٌ آتٍ من الشارع العرضاني. انطلق صوتٌ قوي حازم:

- هيه! أنت هيه! انتبه! هلاّ تنحيتَ! ياللشيطان! وعلى نحو عفويّ، تنحىّ المشاة في مجموعة تامة، وتوقفت العربات. ومَنْ تظنّ أننا رأينا أمامنا؟ حوذيٌّ عربة رث الثياب، واقفاً على زلاجته المخلّعة ملّوحاً بطرف من الرسن فوق رأسه؛ عبَرَ الشارع بجواده وتوارى قبل أن يفيقَ أحدٌ من ذهوله. وأخذ رجال الشرطة أنفسهم يضحكون بملء حناجرهم.

ومع أن ديمتري كان جامح المزاج، سريعاً إلى التجديف، إلا أنه أوتي قلباً ممتازاً، وشفقةً على الحيوان. وهو يستخدم السوط لا ليحث الجواد - فذلك لا يليق بالحوذي الجيّد - بل ليؤدّبه (مثلاً عندما يتحرك بشدة أمام البوّابة). وقد أتيح لي قبل قليل أن أبدي بعض الملاحظات بهذا الصدد. فللمرور من شارع إلى آخر كان جوادنا يلقى مشقات جمةً لتفادي أكداس الثلج، وقد أدركتُ من حركات ظهر ديمتري اليائسة إلى اصطفاق شفتيه أنه في وضع صعب. أيضرب بالسوط؟ لم تكن هذه عادته! ومع ذلك فلو أنه توقّف لتألّم من ذلك ألماً شديداً وإن لم يكن هناك من يصيح به: «هلاّ أعطيته عليقه!» أو كلمة ساخرةً أخرى من النوع نفسه. فهذا هو الدليل على أن ديمتري كان يمتثل للشعور بالواجب أكثر مما يمتثل لغروره.

لقد فكرت كثيراً في مختلف أحوال الحوذيين فيما بينهم، في حضور بديهتهم، في براعتهم وكبريائهم. ولاشك أنهم يتعرّفون بعضهم على

بعض حين يجتمعون، وأغلب الظن أن الذين تخاصموا يصبحون أخلص الأصدقاء فيما بينهم - ففي هذا العالم كل شيْ شائقٌ ولاسيّما العلاقات بين الناس الذين ينتمون إلى أوساط غريبة عنا.

إذا كانت العربات تسير في الاتجاه نفسه، فإن الشجار يطول. فمن أطلق الشتيمة يبذل وسعه ليتجاوز ضحيته أو يظل في الخلف؛ أما الآخر فهو يفلح أحياناً في تبيان أخطائه ويتخطّاه؛ وعلى كل حال، فعندما يكون الاتجاه واحداً تكون الغلبةُ للذي خيلُه أسرع.

إن موقف الأسياد بعضهم من بعض ونحو حوذييّهم، أثناء مثل هذه الحوادث، لا تخلو أيضاً من الأهمية.

- هيه، أنتَ، أيها النذل! أين تذهب؟

عندما يتوجّه الكلام إلى العربات بأسرها، فإن الأسياد يتخذون تلقائياً مظهراً رزيناً أو مرحاً أو لا مبالياً - وبالاختصار، مظهراً لم يكن لهم من قبل. ومن الواضح للعيان أنهم كانوا يفضلون كثيراً أن يكون الموقف عكس ما هو عليه. وقد لاحظتُ، على وجه الخصوص، أن الأسياد المشوربين حسّاسون حساسيةً خاصة للإهانات التي تنال حوذيِّ عرباتهم.

- مَنْ الآتي؟

الحارس هو الذي صاح - وهو الحارس نفسه الذي وبّخه بعنف على مرأى مني حوذيّ إحدى العربات. كانت العربة واقفة على باب بناية، في مقابل مَحْرَسِ الحارس بالذات. وكان الحوذي رائع المظهر، أصهب اللحية، جالساً عند المقود، ومرفقيه متكئتين على ركبتيه، يدفئ ظهره بأشعة الشمس. وكان واضحاً، أنه قد استمتع كثيراً بذلك، لأن

عينيه كانتا نصف مغلقتين. وفي مواجهته، كان الحارس يتمشى أمام محرسه، ويجهد أن يعيد لوحاً خشبياً يغطي نقعةً من الماء إلى موضعه، ببلطته الطويلة اليد. وفجأة. ساءَهُ شيء؛ أكان ما ساءه المركبة التي لم تبرح مكانها؟ أم أنه حسد الحوذيّ الذي يتدفأ بدَعَة في الشمس، أم أن لسانه كان يتحرّق للكلام فقط؟ ضرب ببلطته اللوح الخشبي وصاح:

– هيه! أنتَ! أنت تسدّ الطريق!

فتح الحوذيُّ عينه اليسرى قليلاً، ورمق الحارس وما لبث أن خفض جفنه.

– إنما أكلّمك أنت! انصرفْ من هنا!

فلم يفعلْ كلامُه شيئاً.

– أأنت أصمّ؟ قلتُ لك، اجْرِ!

وعندما رأى الحارس أنه لم يتلقّ جواباً، دنا منه وهو يستعدّ لقول شيء لاذع. في هذه اللحظة، انتصب الحارسُ، ورتب العنانَ، والتفت بعينيه الناعستين إلى الحارس، وصاح به:

– أما انتهيت من زَعيقك؟ انظروا إلى هذا الغبي! حتى لقد رفضوا أن يسلّموه بندقيةً! مالك تزعق؟

– اجرِ!

استيقظ الحوذيُّ أخيراً، ثم تقدّم بعربته. رميتُ الحارس بنظرة خاطفة فدمدم وحدجني بنظرة ساخطة. كان يسوءه، كما يبدو، أن يرى أنني سمعتُ كلَّ شيء وأن يقرأ في نظرتي شيئاً من الإنكار. وأنا أعلمُ أنه لا إهانة للإنسان أعظم من أن تُفهمه أننا رأينا كل شيء، لكننا

نُوثر ألاّ نقول شيئاً. شعرتُ بالضيق من أجل الحارس؛ أشفقتُ عليه وابتعدت.

وما أحبُّه أيضاً في ديمتري قدرتُه على ابتكار الألقاب، إن هذا يُمتعني كثيراً: «أيه هلا تنحيّت، أيها القبعة! أيها التابع! أيها الغرّ! انتبه، أيها القاضي! حذار، أيتها الغسّالة! امض، أيها البيطري! خذي يمينك، أيتها الصورة! انتبه، ياموسييه!» إن الموهبة التي يملكها الروسي للعثور على لقب جارح للإنسان الذي يراه لأول مرة - لا الإنسان وحده بل وأيضاً الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها ذلك الإنسان - لشيءٌ مدهش. إن البرجوازي الصغير يغدو: «سلاّخ الهر» (وكأن جميع البرجوازيين الصغار كانوا يأكلون الهررة)؛ والخادم الفرّاش يغدو «لحّاس الصحن»؛ والحوذي يغدو «آكل الأعنّة« الخ... لا يمكن تعداد كل شيء. وعندما يتشاجر روسيٌ مع رجل يراه لأول مرة فهو يجد له على الفور اسماً يلامس نقطةً حسّاسة فيه: «كلب أعمى»، «شيطان أحول»، «وَغْدٌ أهدل»، «أنفٌ طائر». ولن أنسى أبداً الإهانة التي لحقتْ بي ذات يوم: لقد قال روسيٌّ عني في غيابي: «آه! ذلك الرجل ذو الأسنان المتباعدة».

(لابد من القول أن لي بالفعل أسناناً رديئة منخورة ومتباعدة).

اندفع ديمتري من مقعده ليركض ويفتح باب المدخل، واندفعت أنا لأدخل من الباب الصغير. العمليةُ نفسها تتمّ في كل مرة: أنا أسارع إلى الدخول كعادتي؛ وهو يبادر إلى قيادة العربة حتى درج المدخل على طريقته المعتادة.

ينبغي أن أقرع الجرس طويلاً: الشمعة تسيل و«بروف» خادمي العجوز، قد أغفى. فكرتُ وأنا أقرع: «لَم أشعر دائماً بالنفور من

العودة إلى البيت، أيّاً كان المكان الذي أسكن فيه؟ أنا متعب من أن أرى أبداً «بروف» نفسه في المكان نفسه، أن أرى الشمعة نفسها، والبقع نفسها على الطنافس نفسها، واللوحات نفسها؛ كلُّ ذلك يولِّد في حزناً لا نهاية له. الورق الملوّن واللوحات هي التي تغيظني أكثر من غيرها لأنها تطمح إلى أن تكون مسلّيةً، ومع ذلك فيكفي أن نراها أثناء يومين لتغدو أكثر إملالاً من الجدران البيض. هذا الانطباع المزعج الذي أحسّ به وأنا عائد إلى بيتي ربما جاء من أن الرجل لم يُخلق ليعيش عذباً وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. كان الأمر سيكون مختلفاً لو أنه طُلبَ إلى بروف (الذي كان سيَثبُ ويضرب الأرض بجزمته ليُريَ أنه كان ينتظر منذ زمن طويل وأنه يُؤدي خدمته أداءً حسناً).

– افتحْ. هل نامت السيدةُ؟

– لا، السيدة تقرأ.

شيءٌ آخر أن يستطيع المرءُ أن يمسك بين يديه الاثنتين برأس صغيرٍ؛ أن يمسك به قدّامه، ويتأمله، ويقبّله، وينظر إليه من جديد ومن جديد يقبّله. لن تكون العودة إلى البيت حينئذ مضجرة! أما الآن فليس لديّ سوى سؤال واحد أساله «بروف» لكي أريه أنني على يقينٍ من أنه لا ينام في غيابي أبداً.

– هل جاء أحدٌ؟

– لا أحد، يا سيدي

ويجيب بروف عن سؤالي جواباً لا يتغيّر بصوت متباكٍ، وفي كل مرة أشتهي أن أقول له:

– لِمَ تقول ذلك بصوتٍ باكٍ؟ أنا مسرورٌ من أن أحداً لم يأتِ.

لكنني أتمالك نفسي، لأن بروف يمكن أن ينحرج، لأن «بروف" بالرغم من كل شيء، رجلٌ طيّب.

في المساء، أكتب مذكراتي عادةً وأراجع نفقات النهار. لم أنفق شيئاً هذا اليوم لأنني لم أكن أملك مالاً. وإذن فلا حساب للنفقات. أما المذكرات فشيءٌ آخر؛ وعلي أن أكتب، لكن الوقت متأخر؛ أنا أؤجل الكتابة إلى الغد.

غالباً ما أسمع الناس يقولون عني: «هذا رجل معتز بنفسه: إنه يعيش بلا هدف». حقاً! وأنا أقول ذلك لنفسي في الغالب، لا استمتاعاً بإعادة أقوال الآخرين، بل لأنني أحسّ في أعماقي بأن من السوء أن أعيش هكذا وأنني يجب أن يكون لي هدفٌ في الحياة.

لكن كيف العمل لأغدو «رجل عمل وأحيا بهدف؟». أما تحديد الهدف فلست أفلح فيه. لقد جرّبتُ ذلك مرات بلا نجاح. ثم إن الهدف لا يُخْترع اختراعاً! وينبغي أن تكتشف هدفاً مطابقاً لميولك، هدفاً، وإن كان موجوداً من قبل، يتلاءم مع شيء عميق فيك. وكان يبدو لي أنني عثرتُ على هدف: الحصول على معرفة شاملة وتنمية المواهب جميعها فيّ. وخُيّل إلي أن أشد الوسائل فعاليةً للوصول إلى ذلك هو وجوب تسجيل الملاحظات وكتابة المذكّرات المصنّفة.

في الملاحظات أعترف كل يوم بكل ما فعلته من شر. في المذكرات المصنفة أصنّف جميع نقائصي في أعمدة: الكسل، الكذب، الشراهة، التردد، الادعاء، الشهوانية، الكبرياء الخ، وهكذا أُحيلُ إلى أعمدة المذكرات، بواسطة صلبان صغيرة، جميع الأخطاء المرتكبة والمسّجلة في الملاحظات اليومية.

بدأت أخلع ملابسي وفكرّتُ: «أين العلم الشامل هنا وتنمية المواهب والفضائل؟ أبهذا السبيل تصل إلى الفضيلة؟ أين ستقودك هذه المذكراتُ وهي تَصْلُح فقط لتعداد نقائصك التي لا تُحصى على كل حال والتي يزيد عددُها كل يوم؛ وحتى لو توصلتَ إلى إلغائها، فلن تتوصل أبداً إلى الفضيلة. أنت تخدع نفسك، وتلهو بذلك كله كما يلهو الطفل بلعبته. وهل يكفي الرسامّ أن يعلم ما لا يجب فعله ليغدو رساماً مجيداً؟.

وهل بوسعنا أن نبلغ الخيرَ بالامتناع وحده عمّا هو شرير؟

لا يكفي الزارع أن يُعشب حقوله، بل ينبغي له أيضاً أن يحرثها ويبذرها. ضَعْ لنفسك قاعدة من قواعد الفضيلة والِتَزمها.

كل ذلك قاله ذلك الجزءُ من فكري الذي وظيفته النقدُ. وأخلدتُ إلى التفكير: أيكفي أن نلغي سبب الشر ليغدو الشرُ خيراً؟ الخيرُ إيجابي لا سلبي. ولهذا السبب يمكن للشر أن يُلْغَى لا الخير. الخير موجودٌ دائماً في نفوسنا، لأن النفس هي الخير. وما الشر سوى طُعم. ولو ألغي الشرُّ لتفتحَ الخيرُ. والتشبيه بالزارع ليس مطابقاً تماماً، لأن الزارع يجب أن يبذر، في حين أن الخير مبذورٌ في نفوسنا. وعلى الفنان أن يتدرّب ليصل إلى الكمال في الفن، بشرط ألا يخضع لقواعد سلبية. ينبغي أن يرفض التعسف. أما لبلوغ الكمال في الفضيلة، فلا حاجة إلى التدريبات: التدريب هنا هو الحياة.

البرد هو غياب الحرارة؛ غياب النور هو الظلمات، الشر هو غياب الخير. لِمَ يحبُّ الإنسان الحرارة والنور والخير؟ لأنها من الطبيعة وأسبابَ الحرارة والنور والخير هي الشمس والله. لكن كما أنه لا يمكن أن تُوجَد شمسٌ مظلمة وباردة، فلا يمكن أن يوجد إله شرير. نحن

نرى النور وأشعته ونبحث عن السبب، فنقول إن الشمس موجودة. النورُ والحرارة وقانونُ الجاذبية يُبرهنون لنا على ذلك؛ هذا في العالم الفيزيائي. وفي العالم المعنوي نرى الخير ونرى إشعاعه ونرى نفس قانون الجاذبية نحو شيء أعلى مصدرُه الله. انزع عن الماسة غلافَها الخشن وسترى بريقاً؛ اطرح غلاف النقائص وستعثر على الفضيلة.

«لكن أتظن حقاً أن هذه الترهّات التي سجّلتَها في مذكراتي هي التي تمنعك من أن تكون فاضلاً؟ أليس هناك أهواءٌ أشد خطراً؟ وما السبب في أن تقديرات مثل: جُبنْ، كذب على الذات... توجد بكثرة في الأبواب المصنّفة؟ ولسنا نرى أي تحسّن، ولسنا نلاحظ أيَّ تقدّم».

كانت هذه أيضاً إحدى ملاحظات الفكر النقدي. والحقُّ أن جميع النواقص التي أسجّلها يمكن أن تصنّف في فئات ثلاثٍ (وكل فئة تتضمّن عدة درجات ولا نهاية لمركبّاتها):

١ - التكبر؛
٢ - ضعف الإرادة؛
٣ - نقص الوضوح.

لكن من الصعب تصنيف جميع النقائص الناتجة عن تلك التركيبات، في هذه الفئات. وفوق ذلك فإن الفئتين الأوليتين هما على طريق التراجع، بينما لا تستطيع الفئة المستقلّةُ أن تتعدّل إلا مع الزمن.

وهكذا فقد كذبتُ اليوم وكان ذلك بلا سبب: لقد رُجيتُ أن أحضر عشاء، فرفضتُ أول الأمر بصراحة محتجاً بعد ذلك بدرس.

- أي درس؟

- درس لغة إنكليزية.

وكان الدرس في الحقيقة، درس رياضة بدنيّة.

ما أسباب الكذب؟

١ - نقص الوضوح:؟ لم أفطن على الفور أنني كنتُ أكذب بغباوة.
٢ - نقص الإرادة: ترددتُ أولاً قبل أن أعلِّل رفضي.
٣ - التكبر الغبي: بدا لي أن درس الإنكليزية أجدرُ بالاحترام من درس الرياضة

ألا تقوم الفضيلة إلا على إصلاح النواقص التي تغضّ منك؟ تبدو الفضيلةُ على العكس، كأنها تتضمن نكران الذات. لا! هذا خطأ! الفضيلة تمنح السعادة لأن السعادة تمنح الفضيلة. وكلما كتبتُ مذكراتي بصراحة تامة. كفّتْ نقائصي عن إثارة سخطي؛ ويبدو لي أنني إذا اعترُفت بها لم تعدْ موجودة. وذلك إحساسٌ سارٌ جداً.

صلّيتُ ونمتُ. صلاتي مساءً خيرٌ من صلاتي صباحاً إذْ أفهم فهماً أفضل ما أقوله وأحسّ به إحساساً أشد. ولستُ أخشى نفسي في المساء في حين أجد نفسي في الصباح مفعماً بالقلق: إن كثيراً من الأشياء الجديدة تنتظرني.

إن النوم إذن لشيٌ عجيب وفي كل مراحله: الاستعداد، والإغفاء، والنوم ذاته! ما أكاد اضطجع حتى أفكر: ما ألذ أن يتدثّر المرءُ بدفء شديد وينسى حتى وجوده ذاته!» ولكني لا أكاد أبدأ النوم حتى أتذكّر فجأة أنه قد كان لذيذاً أن أنام، فأستيقظ. وجميع ملاذ الجسم تزول بالشعور. يجب ألا تشعر؛ بَطُلَ السحرُ و لم أعد أستطيع النوم.

يا له من أمر متعب! لم أعطانا الله الشعور بما أن هذا الشعور يمنعنا من الحياة؟ الحقُّ أن المتع المعنوية يشتدّ الإحساسُ بها حين تكون شعورية. وإذ كنتُ أفكرُ كذلك، استدرت وبهذه الحركة زال الغطاءُ عني. أيُّ إحساس مزعج أن يجد المرءُ نفسه في الظلمة! بدا لي أن ساقي تعرّضتا فجأةً لتماسّ محرق أو جليدي. فتغطيت على عجل طاوياً أطراف الغطاء تحتي بعناية. دفنتُ رأسي في الوسادة وأخذت أنام وأنا أتضرّع:

– يا ربّة الأحلام، «مورفيه»، خذيني بين ذراعيك! (إني أرضى أن أكون كاهن هذه الرّبة).

أتذكرُ سخطَ تلك المرأة التي قال لها أحدهم: «عندما مررتُ ببيتك كنت ما تزالين بين ذراعي:مورفيه"؟ لقد شُبِّه لها الاسم بإسم آخر: آندريه أو ما شابه. يا له من اسم مضحك! لكن ما أجمل هذه العبارة «بين ذراعي» فكنتُ أتصوّر هذا الوضع وأتصور فوق ذلك الذراعين ذاتهما. ذراعان عاريتان إلى الكتفين، وفيهما حُفَيْراتٌ؛ ذراعان سمينتان تطلعان من قميص أبيض مقوّر على نحو مكشوف. الذراعان على العموم شيءٌ جميل جداً وفكرتٌ على الخصوص في حفيرةٍ لإحدى معارفي!

تمطيتُ وتذكرت على الفور أن «توما»[1] كان يخطر على التمطّي. ويذكّرني توما بدييتريشز...

كنا نسير على جوادينا جنباً إلى جنب أثناء جولة رائعة للصيد بواسطة الكلاب، عندما أخذ دينيكا[2] يصرخ، على مقربة من ستاتوفوي؛

---

١ – توما هو مربي تولستوي الفرنسي.

٢ – دينيكا: لعله أحد الصيادين، أما ستاتوفوي وناليوت فهما كليان من كلاب الصيد.

وكانت ناليوت تجري وصدرها إلى الأرض خلال الشيلم. وغضبُ سيرج! إنه عند أخته في هذه اللحظة. ما أروع هذا المخلوق، ماشا! آه! ليتها كانت زوجتي!..

ستكون ربةُ الأحلام «مورفيه» جميلة، في هيئة فارس، لكن ينبغي لها أن تمتطي جواداً عاري الظهر... وبما أنه يمكن مصادفة امرأة..! يبالغ قليلاً، القديس توما... كانت المرأة تباشر أبداً بالصيد... ثم تمطّت، لكن عبثاً... إنه لشيءٌ جميلٌ جداً مع ذلك أن يكون المرء بين ذراعين.

في هذه اللحظة نمتُ تماماً، من غير شك. ورأيتُ نفسي ما أزال أحاول إدراك السيدة. وفجأة ينتصب جبلٌ أمامي، فأقْلبُه بدفعة من ذراعي (زحلت الوسادةُ إلى الأرض) ثم أعود إلى بيتي: لم يكن العَشاءُ جاهزاً بعد. لماذا يتكلّف فاسيلي مظهراً الإعجاب بالذات؟ (وراء الحاجز، سألت المربيةُ: «ما هذا الصوت»؟، فأجابتها الخادمةُ الفرّاشة سمعتُ ذلك كله عَبْر النوم، ولعل هذا هو ما أثار حلمي)، ويدخل فاسيلي ويستعد الجميع ليسألوه: لمَ لم يَجْهز العشاء، فيلاحظون أنه بالبزة الرسمية، وعلى جانبه سيفُه، فأخافُ وأجثو على ركبتيّ، وأنا أقبّل يديه. سرّني تقبيل يديه كما يسرني تقبيل يديْ التي ألاحقها، بل وأكثر. لم يلتفت فاسيلي إلى شخصي، وسأل:

– هل عُبِّئَ؟

صانع الحلويات في تولار «ديتريشز» هو الذي يجيب

– إنه جاهز. أطلقْ!

وتنطلقُ الصَليْةُ (كان ذلك هو المصراع الذي يضرب بالجدار.)

فتندفع فاسيلي وأنا لجولةٍ راقصة. وفجأةً ألاحظ أنني لا أطوّق فاسيلي وإنما أطوّقها هي! وعلى حين غرةٍ، أوه ياللبشاعة! صغر بنطالي إلى حدّ كبير حتى بدت ركبتاي عاريتين. ولا يوصفُ عذابي (انزاح الغطاءُ عن ساقيّ في نومي، و لم أفلحْ في تغطيتهما ثم غطيتهما أخيراً). لكن حلمي لم ينته. تابعنا الرقص الذي انضمّتْ إليه أيضاً ملكلةُ «وتمبرغ» وبغتةً لم أستطع أن أتمالك نفسي عن الشروع في رقصة قوزاقية. حُملَ إليّ أخيراً رداءٌ وجزمة. لكن وضعي غدا الآن فاجعاً أكثر من ذي قبل: ألفيتُ نفسي الآن بلا بنطال أبداً! غير ممكن أن يجري ذلك في حالة اليقظة. لا شك أنني أنام.

استيقظت لأعود إلى النوم على الفور، مع أنني كنتُ مستغرقاً في أفكاري. ومن جديد، أخذ خيالي يشتغل: ومرّت لوحاتٌ في تتابع منطقي جداً. ثم قام خيالي بدوره؛ أصبحت الصورُ ضبابيةً ومختلطة؛ وغرق جسدي في هذا النوم.

يتألف الحلم من أول انطباع وآخر انطباع للشعور. وكان يُخيّل إلي تحت هذا الغطاء أنه لن يصيبني شيء ولن ينال مني أحد. إن النوم حالةٌ يفقد فيها الإنسانُ شعوره كلّياً. لكن النوم لا يُلمُّ به إلا شيئاً فشيئاً، والإنسان يفقد شعوره تدريجياً. والشعور ليس شيئاً سوى ما يُسمّى عادةً «النفس» على أن ما يُفهم من كلمة نفس عادةً هو «عنصرٌ بسيط»، بينما هناك أنواعٌ من الشعور بقدر ما هناك من أجزاء متميّزة في الكائن الإنساني، أي ثلاثة:

١ – العقل.
٢ – العاطفة.
٣ – الجسد.

العقل يقع في المرتبة العليا؛ ولا تملكه سوى الكائنات المتطورة أما الحيوانات والكائنات التي تشبهها فلا تملكه. وهو الذي يَفتُر أولاً. العاطفة أيضاً لا يملكها سوى الجنس البشري وتنام بعد ذلك. الجسم هو آخر ما ينام، ونادراً ما ينام على نحو كامل. لا تعرف الحيوانات هذا التدرّج، وكذلك الناس الذين فقدوا الشعور، إما بسبب تسلّط إحساس مسرف العنف، وإما في حالة السكر. فإذا شعرنا بأننا نحلم خرجنْا من حالة النوم. وذكرى الزمن المنصرم في الحلم لا تنبع من نفس المصدر الذي في الحياة الناشطة أي من الذاكرة. وليست القدرة على استعادة إحساساتنا هي المعنيةُ هنا، بل القدرة على جمعها في اليقظة، نجمع جميع الإحساسات التي نحسُّها في لحظة الإغفاء وأثناء النوم (لم يكن الإنسان ينام نوماً تاماً)، وذلك بالتأثير المباشر للإحساس الذي سبّب اليقظة؛ واليقظة تتابع تدريجياً بحسب مسيرة الإغفاء نفسها، أي ابتداءً من القدرات الدنيا وانتهاءً بالقدرة العليا. وهذه الظاهرة تتطور بسرعة فائقة حتى إنه من الصعب أن أشعر بها. وبما أننا قد تعودنا إيقاع الزمن الذي يشير إلى تطوّر الحياة الناشطة، فنحن نكوّن من مجموع هذه الإحساسات، ذكرى الزمن الذي جرى أثناء حلمنا. كيف نفسر مدة الحلم – التي تبدو في غاية الطول – في حين أن الحلم قد ابتعثته المناسبةُ التي سبَّبت اليقظة، أنت تحلم مثلاً بأنك ذاهبٌ إلى الصيد؛ فتعبّئ بندقيتك وتنطلق الطريدة وتطلق النار. في الواقع إن الصوت الذي حسبته صوت إطلاق النار ليس سوى الصوت الذي أحدثه الإبريق الذي أوقعته في نومك. أو أنت تحلم بأنك سترى صديقك ن...، وتنتظره؛ وأخيراً يصل الخادم الذي يعلن مجيء ن... الواقع أن صوت خادمك الخاص هو الذي أيقظك.

لكن حذار من تصديق أولئك الذين يريدون أن يروا دائماً في

الأحـلام وقائع ونبوءات ذات دلالـة. هـؤلاء الناس يستخلصون استنتاجاتهم من أقاويل العرّافين. وهم يمنحون أحلامهم شكلاً سبق تصوّرُه، مضيفين من خيالهم ما ينقص، ومهملين عن قصد ما لا يتوافق مع هذا الشكل. ستحدّثك أمٌ مثلاً أنها حلمت أن ابنتها كانت تطير إلى السماء وهي تقول: «وداعاً ماما سأصلّي من أجلك!» لا شك أنها رأت فقط ابنتها تصعد السطح دون أن تنبس بكلمة، وفجأة تظهر بمظهر الطاهي يفان وهي تهتف: «لن تُفلح في الوصول إلى هنا».

إذا كنت تريد أن تتحقق من ذلك، جرّب ذلك بنفسك. تذكّر جميع أفكارك، جميع الصور التي عَرَضتْ لك في اللحظة التي نمتَ فيها؛ أو أكثر من ذلك، قُصَّ على إنسانٍ شهد نومك جميع الظروف التي لعلها أثرت فيه وحينئذ ستدرك لمَ رأيت هذا الشيءَ و لم تر ذاك في حلمك. هذه الظروف قد تكون عديدة جداً؛ إنها منوطة ببنيتك وبحالة معدتك، وبعوامل فيزيائية أخرى. يقال إننا عندما نحلم أننا نطير أو نسبح فإن ذلك يعني أننا نكبر. سجّلْ بعناية لم تسبح في هذا اليوم، بينما تطير في ذاك. إذا كنت تتذكر كل شيء فسيكون التفسير يسيراً. ومن الممكن على كل حال أن الناس الذين تعوّدوا أن يفسِّروا أحلامهم بحسب صيغة مسبقة يتوصلون بحكم العادة أو بفضل خيالهم إلى تركيب كامل؛ وهذا دليل إضافي حينئذ لتعزيز نظريتي.

ولو أن حلمي حلم به أحدُ أولئك «العرّافين» فسوف يستخلص منه ما يلي: «رأيتُ القديس توما يركض، يركض طويلاً، وعندما سألته: «لم تركضُ؟»، أجابني: «أبحث عن خطيبة» «سترى، سوف يتزوج بكل تأكيد، وإلا فسوف نتلقّى منه رسالةً بعد قليل!».

لاحظْ أيضاً أنه ليس في الذكريات تدرّجٌ في الزمن. في الذكرى

التي تحتفظ بها عن الحلم، تتذكّر قبل كل شيء ما رأيته أولاً. ومنذ استيقاظي هذا الصباح تذكرتُ حلمي. لقد ذهبنا أخي وأنا إلى الصيد بواسطة الكلاب؛ وفي أثناء الصيد انطلقنا لمطاردة امرأة في ذروة الفضيلة! لا! قبل أن تذهب جاء القديس توما وطلب الصفح مني...

كثيراً ما نستيقظ مرّات أثناء الليل. لكن الشعورين الأدنيين، الشعور بالجسد وبالعاطفةً، هما اللذان يستيقظان وهما ينامان من جديد، والإحساسات المسجّلة أثناء هذا الاستيقاظ تضاف إلى إحساسات الحلم، دون أي نظام ودون أي تسلسل منطقي. ولو أن الدرجة الثالثة من الشعور، الشعور بالعقل، استيقظ ليعود إلى النوم في الحال، لا نشطر الحلم شطرين متميزّين.

***

هكذا يموت الحب

١٨٥٣

١ – اللقاء

ليلة جليدية من عيد الميلاد في سنة ١٨٥٠ كانت تجري، على طول تفيرسكايا[١]، عربةٌ يجرّها جوادان ضامران منهكان.

كانت السماء العالية ذات الزرقة العاتمة مرصعةً بالنجوم التائهة في الفضاء اللامتناهي. أخذت لحيُة الحوذيّ تتغطىّ بالجمد. وكان الهواء الذي خلخله البرد يَقطع النفَسَ ويلسع الوجه. وكانت العجلات تصرّ على الثلج المتجمّد. كل ذلك كان يذكّر بأعياد الميلاد التي تعودنا أن نَقْرنها بعواطف الحب الشعرية وبسِيَرِ القديسين القديمة وبالتقاليد الشعبية، وأيضاً بانتظار شيء مذهل وخفيّ.

لكن لم تكن تُرى أمام الأبواب والجدران والنوافذ، تلك الأكداسُ من الثلج الأبيض، ولا تلك الطرقات الضيّقة التي تُشَقُّ في الكتلة المتحرّكة للوصول إلى البيوت، ولا تلك الأشجار الباسقة السوداء بأغصانها المغطّاة بالجمد، ولا تلك الحقول الرتيبة على مدّ النظر والتي

---

١ – تفير سكايا: أحد شوارع موسكو الرئيسية. اليوم شارع غوركي.

ينيرها القمرُ الشتوي بلألائه الباهت، ولا ذلك الصمت المهيب لليلة ريفيّة لا يوصف سحرُها.

على العكس، كانت البيوت العالية بسطوحها الحمراء المتشابهة تشابهاً لا يسرّ النظر، تُخفي الأفق من هذه الجهة أو تلك، وتتعب البصر برتابتها. وكانت ضوضاءُ المدينة المتأخّرةِ والمستمرةِ تولّد فيك حزناً مقيماً. وكان الثلج المهروس الذي بلونِ الزبل يغطّي الشوارع التي تضيئها هنا وهناك أنوارٌ ساقطةٌ من النوافذ ومن واجهات المخازن، وكذلك من مصابيح مقطّبة يتعهّدها مُشعل وسخ يتجوّل من مصباح إلى آخر حاملاً سلّمه. هذا البؤس كان يتناقض تناقضاً قاسياً مع فخامة سماء عيد الميلاد، المتلألئة والتي لا نهاية لها. دنيا الله ودنيا البشر...

وقفت العربةُ أمام واجهة أحد المخازن المضاءة. وثبَ منها شابٌ جميلٌ رشيق في نحو ثمانية عشر عاماً، قد غطّى رأسه بقبّعة مدوّرة، وارتدى معطفاً قبّتُه من الفرو الفاخر، وثب إلى الرصيف وفتح الباب على عجل فرنّ الجرسُ الصغير:

- قفازين، من فضلك.

- قياسك؟

- ستة ونصف.

كان هذا جواب الشاب وهو يُخرج محفظته ويذرع المخزن. سأل صوتٌ جَهْوري وحازمٌ آتٍ من الغرفة المجاورة:

- أهذا أنت يا بني؟

رنينُ الصوت وهذه المناداة بابن، على الخصوص أنبأا الشاب

بوجود حامية في المجتمع الأمير كورناكوف، وهو من أبرز رجال المجتمع في موسكو.

كان الأمير كورناكوف طويل القامة، في نحو الثلاثين من عمره، رشيقاً جداً، ذا سالفين أصهبين، وأنف طويل دقيق، وعينين متألقتين تعبّران عن الذكاء واللامبالاة في آن واحد، وشفتين رفيقتين، انحناءتُهما صارمة وهادئة عندما لا تبتسمان. كان جالساً ممدّد الساقين أمام مرآة حائط عالية تعكس الشخص الأنيق لذلك الوافد بلباس السهرة. وقد أسْلم الأميرُ للسيد شارلي[٢] الذي أطلق العنان لفنه، فنّ الحلاّق الماهر. وكان هذا يُدير بحذق بين يديه المدهونتين بمرهم الشعر مكواتين للشعر، ملقياً بين حينٍ وآخر أوامره إلى أرنست الذي كان يناوله المكواتين الحاميتين. وكان يمنح التمشيطة الأخيرة - بحسب تعبيره - شعرَ أعظم زبائنه قدراً.

- سأل الأميرُ:

- أنت ذاهب إلى الحفلة الراقصة يا بني العزيز.

- نعم، وأنت أيها الأمير؟

- مع الأسف، لابد لي من أن أذهب إليها أيضاً.

وأضاف وهو يشير إلى صدرته البيضاء، وربطة عنقه:

- لقد وعدتُ بذلك؛ أنت ترى جيداً.

سأل الشابُ بدهشة وهو يذرع الغرفة:

---

٢ - السيد شارلي: حلاق فرنسي في موسكو.

- ألا ترغب في الذهاب إلى هناك؟ ماذا كنت ستفعل بليلتك إذن؟

أجاب دون أي تكلّف:

- كنتُ سأنام.

- أوه! لستُ أفهم مثل هذا الشيء.

- وهو شيءٌ لم أكن أنا نفسي أفهمه قبل عشر سنوات. كنتُ حرياً بأن أقطع ثلاثمئة فرسخ على عربةٍ لكي لا تفوتني سهرةٌ راقصة.

كنتُ شاباً إذ ذاك، وكنتُ عاشقاً في كل حفلة راقصة جديدة، كنت أعلم أنني فتىً جميل، وكنتُ واثقاً من أن الناظر لن يجد فيّ من أية جهة نظر إليّ، لاصلعة، ولا خصلة شعر مستعارة، ولا أسناناً صناعية... وأنتَ، يا بني، مَنْ تُغازل في هذه اللحظة؟

نهض، وسوّى أمام المرآة قبة قميصه.

هذا السؤال الذي أطلقه بلهجة مازحة، أدهشت الشاب وجرحته. فتمتم وهو يحمرّ:

- أنا لم... أنا لم أغازل أحداً حتى الآن.

آه! نعم، نسيتُ... لقد روتْ لي ابنةُ عمك هذا الصباح، أنك كنتَ مغرماً «بالجمال الساحر». فكيف لم تُقدّم إليه بعد؟

- لم تسنح الفرصةُ حتى الآن.

- حقاً؟ بل قلْ إن الجرأةَ أعوزتْكَ! أنا أعلم أن الحب الحقيقي - ولاسيّما الحبّ الأول - خَجلٌ دائماً.

قال شابنا وهو يبتسم وقد بدا عليه الارتباك:

وعَدتني ابنةُ عمي أن تقدّمني اليوم.

- لا، لا! أنا نفسي الذي سيقدمك، يا بني العزيز.

وأضاف الأمير وهو يشرع في ابتسامة:

- إنني أقدر على ذلك من ابنة عمك، وسوف ترى أنني فأل حسنٌ لك.

وتابع بلهجة عارفة:

- لكي ينال المرءُ الحظوة قرب النساء يجب أن يكون مقداماً وجسوراً، ولا شيء يمنح مثل هذه الثقة سوى الحظوة نفسها، ولاسيّما في أول حب؛ ولكي تنجح في حبك الأول فينبغي لك أن تتغلّب حتماً على هذا الحياء الغبي الذي لا ينتج عنه إلا الأذى لك. سنذهب معاً.

٢ - ولدان:

كان الشابُ يُدعى سيرج ايفين. كان فتى جميلاً ذا نفس غضّة يتأكلها الندم على الأخطاء المرتكبة، نفس مُفعمة بالأحلام المضيئة والعواصف النبيلة. لم يكد يخرج من الطّفولة ومن مقاعد المدرسة، حتى ألفى نفسه، بصورة لاشعورية تقريباً، ودون أن يكون بحاجة إلى أن يفعل أي شيء، مقيماً رأساً في قلب هذا المجتمع الموسكوفي الذي يستقبل بثقة وعائلياً - إن صح مثل هذا التعبير - الأشخاص الذين يملكون اسماً وشيئاً من التربية، دون اعتبار لصفاتهم الشخصية. ويُستقبَل هؤلاء الأشخاص بحرارة أعظم أيضاً إذا كان المجتمع يعرف جميعَ سوابقهم، كما كانت حال ليفين. ولا يمكن القول إن

كان ذلك نعمةً أو شؤماً عليه. فمن جهة، كانت علاقات المجتمع توفّر له كثيراً من الملاذ التي يستطيع شبابُه أن يستمتع بها بلا قَصْد سيء ودون ندامة. ومن جهة أخرى كان هذا العالم ينقلُ إليه على نحو غير ملحوظ، هوى الغرور الدنيء، إن هذا العالم بطبيعة الملاذ التي يوّفرها، وكذلك بقوانين المواضعات التي تُديره، كان يخرّب اندفاعة استعداداته الطيبة وثباتها. وكانت أحلام الحب والصداقة، والغرور - مع الأسف - منضافةً إلى جاذبية المجهول وإلى الحماسة الخاصة بالشباب، تملأ خياله بخليط غريب.

في حفلات هذا الشتاء الراقصة - وهي أولى حفلاته الراقصة - إنما لقي الكونتيسة «شيفنج» التي أطلق عليها الأمير كورناكوف، وكان مهووساً بتوزيع الألقاب على الناس جميعاً، لقب «الحمال الساحر».

كان سيرج يشعر عند مرأى الكونتيسة بلذات لا سبيل إلى فهمها؛ فإذا لم يستطع أن يراها لم يتحوّل فكرهُ عنها. وقد التقت عيناه ذات يوم نظرتها الغريبة والبريئة: فأحسّ بفرح عارم، وبخوف، الله أعلم لماذا، خوف بلغ مبلغاً كان يتحاشى معه كل مناسبة يُقدَّم فيها إليها.

كانت الكونتيسة «شيفنج» مكوّنةً أحسن تكوين لتجتذب فتىً مثل سيرج. كانت جميلة جمالَ امرأة وطفل في آن واحد؛ كان وجهُها الذكيُّ ينمّ على العذوبة والمرح. وفوق ذلك، فقد كانت تنتمي إلى أعلى فئات المجتمع. ولا شيء يُضفي سحراً على المرأة أكثر من شهرتها بأنها امرأة فاتنة، لأنها سعيدة بهذه الشهرة أولاً، وثانياً لأنها تشدّ إليها انتباه الناس جميعاً. ثم إن الكونتيسة كانت تملك أيضاً سحر البساطة النادر، لا تلك البساطة التي تقابل التكلّف، لكنها بساطة ساذجةٌ وفاتنة لا توجد إلا نادراً، وتُزين المرأة بأشد

أنواع التفرّد جاذبية. كانت تسأل ببساطة وتجيب بمثلها. ولم يكنُ يلحظ في أحاديثها ظلّ لفكرة مبطّنة؛ كانت تقول كل ما يمرّ برأسها الذكي. كانت واحدة من أولئك النساء اللواتي يستأثرن بمحبة الجميع حتى اللواتي يمكن أن يَحْسدنها. وأخيراً، تضَافُ إلى مفاتنها فتنةُ المرأة الشابة البائسة في بيتها. وكان الكونت «شيفنج» أحد «فرسان الصناعة» الواسعي النفوذ قد جمع ثروة حقيقية، مرة بعد مرة، لم يلبث أن أضاعها، ولكي يختم حياته بضربة مدوّية، تزوج وارثةً ثرية. ولا يعلم أحدٌ كيف تمّ هذا الزواج، وإنما كان واضحاً أن الحب لم يلعب أي دور فيها، لا بهذا الجانب ولا بذاك. وكان الكونت شيفنج يحب امرأته كما تُحَبُّ أعذبُ الزوجات وأكثرهن طاعةً.. وكان يحبها أيضاً لأنها كانت حلوةً (لم تكد تمرّ سنةٌ على زواجهما). ومع أن النفوس الحسّاسة زعمت أنه دونها وأنه عاجزٌ عن فهمها، فسوف نلزم الصمت في هذه النقطة. لأن «شيفنج» الفاتنة لم تكن تتطلّب من زوجها حباً آخر. لم تكن ترغبُ في زوج آخر غير زوجها «حنّا»؛ وكانت تحبه حباً شبيهاً بالذي كان يبذله لها إنها لم تحب قط قبل زواجها، فلما تزوجت وقع لها أن لقيت رجالاً كان يمكن أن يعجبوها، لكنها لم تكلّف نفسها عناءَ محبتهم. فجميعهم في حدود معرفتها بهم، كانوا يذكّرونها بزوجها. الأشياء التي لم تكن ترضى عنها في زوجها كانت ميله إلى الإنفاق وحبه للقمار وتساهل ضميره؛ لأنه كان يخسر في القمار، وقد خسر أكثر من نصف ثروة زوجته. لكن هل ينبغي للفتاة الروسيّة الكريمة الأسرة أن تملك مفهوماً عن ماهية الثروة، وعن استحالة العيش بدونها وعما كلفت الآباءَ من جهد؟ ما كانت تعلمه الكونتيسة هو أن زوجها خسر أربعين ألف روبل أو ستين ألفاً، وأنه ذهب في هذا اليوم بالذات إلى اللعب. لقد

أحسّت إحساساً غامضاً أن زوجها يُسيء التصرّف، لكنها أقلعت عن هذه الأفكار المتعبة، واستعدّت بهدوء للحفلة الراقصة عند آل ز... الذين كان سيرج يتّجه صوبهم في اللحظة نفسها مع الأمير كورناكين.

٣- الحفلة الراقصة:

ما جدوى محاولة وصف الحفلة الراقصة بكل تفاصيلها؟ ومن ذا الذي يتذكر الانطباع الغريب والأخّاذ لأول حفلة راقصة؟ بريق ألف نار، العيون، الجواهر، الألـوان، المخمل والحرير، الأكتاف العارية، الموسلين، الشعور الثياب السوداء والصدرات البيضاء، أحذية الساتان، البزات المخطّطة والخلع؛ أريج الزهور والعطر والنساء. جلَبة آلاف الأصوات، وضوضاء الأقدام التي غطتّها نصف تغطية أنغامُ رقصة الفالس أو البولكا الصاخبة والحركة التي لا تنقطع والخليط المتقلّب لجميع هذه العناصر!

لكن الإحساسات التي أيقظتها الحفلة الراقصة لدى صاحبينا كانت شديدة الاختلاف. كان سيرج متأثراً أشد التأثر حتى ليمكنه أن يرى قلبه، تحت صدريته البيضاء، وهو يخفق خفقات عنيفة وسريعة؛ وقد اضطُرّ إلى الوقوف لحظةً على سطح الدرج، قبل أن يدخل الصالة، وذلك ليسترد زينته. أما الأمير كورناكوف فبعد أن خاطب بكلمات لطيفة ربة البيت، بالطلاقة نفسها التي يدخل فيها غرفة نومه، دلف إلى الصالة الكبرى وهو يبتسم، حيث انضمّ إلى الحلقة الأرستقراطية التي كان تقف بمعزل عن الجمهور. كانت مشيته هادئة وواثقة مثل مشية موظف يُقبل على مكتبه وطاولة عمله. لا شيء يمكن أن يفاجئ الأمير، فتميزّه الطبيعي وتميّز المجتمع الذي يعيش فيه يحميه من كل حادث

مزعج. هل يتوقع لذّةً ما من حفلة راقصة؟ لقد فقد تلك السعادة منذ زمن بعيد. والمشاهدة نفسها وهي التسلية الوحيدة التي قد تثير شيئاً من اهتمام الذي لا يرقص، لم تعدْ تحمل إليه شيئاً جديداً.

«عجباً، هذه هي د... الجميلة التي ترتدي ثيابها بكثير من التأنق! إنها تصغي كعادتها وهي تبتسم إلى المجاملات الأدبية من معجبيها المنجذبين إليها. ولا بد أن تكون نادنكا ذات العينين الحلوتين، هنا في أحد الصالونات، وفي أثرها البارون ذو المونوكل والفرنسية الرديئة التي نوى منذ سنة أن يتزوجها ولعله لن يتزوجها أبداً. وهذا هو المرافق العسكري ذو الأنف الطويل - ذاك الذي يتصور أن قمة الفكر هي في إلقاء الدعابات. وهو في هذه اللحظة يتلوّى من الضحك وهو يروي سفاهاته لتلك العانس المتحرّرة التي هي الآنسة ج...».

موائد اللعب هي في الأمكنة نفسها التي لا تتغير، ويشغلها الأشخاص أنفسهم الذين يقامرون دائماً بالنسبة نفسها كما تقضي العادة منذ أن أخذ آل «ب» يقدّمون حفلاتهم الراقصة، قبل خمس سنوات... وتنهمك ربة المنزل وهي تنتقل من غرفة إلى أخرى وعلى فمها ابتسامتها الأبدية وجملتها الواحدة التي تكررها مئات المرات. وفي منتصف الصالة خمسة طلاب أو ستة، وضابطان من ضباط الحرس دُعيا خصيصاً لهذه الأمسية، وكذلك الثلاثة الذين لابدّ منهم: تامارين، غلوبكوف، نييفيتشف، الذين شاخوا في صالات موسكو والذين يعاف حضورهم جميُع الناس.

وقرب الباب، على طول الجدار، يقف رجالُ في ثياب سوداء، مجهولون وجامدون: الله أدرى بما جاءَ بهم إلى هذا المكان! ومن حين إلى آخر تبدرُ حركةٌ في صفوفهم؛ إذ ينفصل عنهم واحدُ منهم بالغ

الجرأة، ويغامر بنفسه عَبْر الصالة ليدعو إلى الرقص السيدة الوحيدة التي لعله يعرفها. ويجرها إلى بضع دوراتٍ من الفالس مع ضجرها الشديد فيه، ثم يختفي مرة أخرى خلف جدار الراقصين المنفردين.

بعض الفتيات المسكينات لا يعرفن أحداً، وقد دُعين إلى هذه الحفلة الراقصة بفضل ألاعيب أهلهن، وهنّ الآن جامدات بقرب الجدار؛ و لم تفدهن زينتهُنّ شيئاً (هذا مع أن هذه الزينة ربما استغرقت منهن شهراً من العمل) وسخطهنّ من أن يرين أنفسهن مهملات قد زادهن بشاعةً.

سيطول الكلام لو عدّدنا كل شيء؛ لكن ذلك كله كان بالنسبة إلى الأمير كورناكوف بالياً أشدّ البلى. فالبرغم من غياب أكثر من وجه قديم ومن ظهور وافدين جدد كُثُرٍ في الحلبة الاجتماعية الراقية، إلا أن هيئات هؤلاء الناس وحركاتهم وأحاديثهم ظلّت هي نفسها. والترتيب المادي للحفلة، بمقصفها وعشائها وموسيقاها، وزينة صالاتها، كل ذلك كان الأمير يعرفه عميقاً إلى الحد الذي كان يصاب فيه بالاشمئزاز.

كان الأمير كوناركوف ينتسب إلى أولئك الأغنياء العزّاب الذين تقدّمت بهم السنُّ، والذين غدا المجتمع ضرورةً لهم، شيئاً لا بدّ منه وهو في الوقت نفسه مُضجر. ومنذ مطلع شبابه احتلّ بالفعل المكانة الأولى في قلب هذا المجتمع الراقي دون أية صعوبة و لم يسمح له حبه لذاته أن يجرّب حظّه في وسط آخر: بل إنه لم يكن يسلّم بإمكان وجود نمط آخر من الحياة. وكان هذا العالم يُضجره لقد بلغ ذكاؤه حداً مفرطاً دفع به إلى التألم من تفاهة هذه الصلات الدائمة بين أناس لا تربطهم المصلحةُ ولا أيةُ عاطفة نبيلة، وإنما يربطهم الحفاظُ المصطنع

على علاقات المواضعة. وكانت نفسه منطبعة دائماً بحزن كامن جاءه من الندم على السنين المضيّعة والخوف من مستقبل لا يبشرّ بخير. ولم يكن هذا الحزن يترجم عن نفسه بالقلق أو تبكيت الضمير، وإنما بالأحاديث الساخرة والمقلّدة لما هو شائع، اللاذعة غالباً، السطحية أحياناً، لكنها خفيفة الظل دائماً وأصيلةٌ إلى أبعد الحدود. وكان يشارك أقل مشاركة في شؤون المجتمع وينظر إلى هذا المجتمع من علٍ، بحيث أنه لم يصطدم بأحد؛ لكنه بالمقابل لم يكن يحظى بمحبة أحدٍ، دون أن يثير الضغينة مع ذلك؛ بيد أنه كان يتمتع بشيء من الاحترام الذي يبديه له الناس بسبب مكانته.

٤ – الحب العاصفة:

قال سيرج لابنة عمه التي كان يطوّق خصرها النحيل، والتي كانت تدور الصالة ملتهبةَ الوجنتين، للمرة العاشرة وهي ترقص الفالس برشاقة وخفة:

– ارقصي معي هذه الجولة أيضاً، أرجوك:

قالت ابنةُ العم الجميلة، وهي تبتسم وتخلّص ذراعها:

– لا، يكفي لقد تعبتُ.

اضطُرّ سيرج إلى التوقّف وألفى نفسه أمام الباب الذي وقف الأميرُ كورناكوف بإزائه مسنداً ظهره إليه في وضعه المعتاد من عدم الاكتراث الهادئ. كان يحدّث الكونتيسة شيفنج. قال وهو يشير إلى سيرج بنظره:

– ها هو ذا بعينه.

وأضاف وهو يُحيّي باحترام ابنة العم الجميلة:

- اقتربْ. تحب الكونتيسة أن تتعرَّف عليك.

ردّ سيرج بتحية خجلة وصبيانية:

- إني أطمحُ إلى هذا الشرف منذ زمن بعيد.

أجابت الكونتيسة وهي تلفّه بنظرة باسمة وبريئة:

- حقاً، ما كان ذلك ليخطر ببالي حتى الآن.

صمت سيرج، ازداد حمرةً، وهو يبحث عن جوابٍ لا يكون تافهاً. وبدا الأمير كورناكوف كأنه يستمتع بالاضطراب الصادق لدى الشاب، لكنه حين رأى أن هذا الارتباك أخذ يطول قال بطلاقته المعهودة:

- أتمنحين جولة فالس، أيتها السيدة الكونتيسة؟

نظرت إليه الكونتيسة وقد بدت عليها الدهشة إذ كانت تعلم أن الأمير لم يكن يرقص منذ زمن بعيد.

- اوه! لا أطلب ذلك لنفسي، أنا أحس أنني أشد بشاعة وأكبر سناً من أطمح إلى هذا الشرف.

وأضاف:

- اعذرني، يا بني، لأنني أخذت على عاتقي أن أكون ترجمانك. انحنى سيرج. قابلته الكونتيسةُ، ودون أن تنبس بكلمة؛ طوت ذراعها الجميلة ورفعتها إلى مستوى كتفه. لكن ما كان سيرج يطوّق خصرها

حتى انقطعت الموسيقا. وكان لا بدّ له أن يظل في هذا الوضع إلى ان استأنف الموسيقيون موسيقاهم، بعد أن لمحوا الإشارة التي وجهّها إليهم الأمير. ولن ينسى سيرج أبداً هذه الثواني القليلة التي ضمّ وأرخى خلالها مرّتين خصر مراقصته.

لم يعدْ سيرج يحسّ بقدميه تنزلقان على أرض الصالة، كان يبدو له أنه منحرفٌ بعيداً، بعيداً جداً عن الجمهور المبرقش الذي يُحيط بهما. كانت كل قواه الحية متركّزة في آن واحد على حاسة السمع - التي كان يخضع لها وهو يتابع إيقاع الموسيقا مُبطئاً حركته تارة ومُسرِّعاً لها تارةً أخرى - وعلى حاسة اللمس المرتعشة بتماسها مع خصر الكونتيسة اللدن الذي كانت حركاتُه تتناغم مع حركاته إلى حدّ تصبح فيه شيئاً واحداً. وبين الحين والحين كانت نظراتُه تحطّ عليها بإحساس متناقض من الخشية واللذة، وتنتقل من الكتف الأبيض إلى عينيها الزرقاوين الصافيتين اللتين يُغشيهما غشاءٌ رقيق من الضباب الشفّاف بمنحهما تعبيراً لا يوصفُ من الذبول واللذة.

قال الأمير كورناكوف لابنة عم سيرج:

- انظري أرجوك ماذا يمكن أن يوجد أجمل من هذين الزوجين؟ تعرفين ذوقي للأزواج الجميلة.

- نعم، أعتقد أن سيرج يعوم على لجّة السعادة.

- ليس سيرج وحده في ذلك. وأنا مقتنعٌ بأن الكونتيسة تشعر بلذة أكبر في مراقصته من مراقصة شيخ مثلي.

- أنت حريص أشد الحرص على أن أقول لك دائماً إنك لست عجوزاً!

- أين ذهبَ بك الظنُّ؟ أنا أعلم تماماً أنني لستُ عجوزاً بعد. أنا أسوأ من ذلك: أنا مُضجرٌ، أنا فاسد، مثل جميع هؤلاء السادة الذين يأبون أن يسلّموا بذلك. أما سيرج فهو جديدٌ كلّ الجدة، ثم هل تستطيع امرأة أن تتمنّى رجلاً أكثر جاذبية؟

وأردف برضا حقيقي، وهو يتأمل الزوجين:

- انظري ما أجمل ذلك! وما أعظم سحرها! إنها لتُغري المرء بعشقها..!.

- يجب أن أقول ذلك لليز. (هكذا كانت تُسمى الكونتيسة شيفنج).

- لا فائدة من ذلك، فمنذ زمن بعيد اعتذرتُ من الكونتيسة لأنني لم أقعْ في حبها. وهي تعلم أنني لم أعد قادراً على الحب. وإنما أنا مغرمٌ بالثنائي الذي يؤلّفانه.

لم يكن الأمير كورناكوف وحده معجباً بسيرج وبالكونتيسة وهما يرقصان. كل من يرقص كان يتبعهما بعينيه تلقائياً، بعضهم طلباً للاستمتاع بمشهد يسر النظر، وبعضهم الآخر غيظاً وحسداً. ولقد تأثر سيرج تأثراً شديداً بفعل الحركات والموسيقا والحب حتى إنه عندما طلبتْ إليه الكونتيسة أن يرافقها إلى مكانها وسحبت ذراعها من كتفه وهي تشكره بابتسامة، راودته الرغبةُ فجأةً - رغبة بلغت من عنفها أنه لم يكد يكبحها - في أن يستغلّ هذه اللحظة ليقبّلها. لقد استشعر هذا الشابُ البريء الحبَّ لأول مرة في حياته. كانت نفسه مملوءةً برغبات مبهمة لم يفهمها. فلم يحترسْ منها و لم يقاومها.

٥ - الحب

مرت الحفلةُ الراقصة، بالنسبة إلى الشاب العاشق كالحلم الساحر البديع الذي نفكّر فيه بخشية وافتتان. لم تكن الكونتيسة حرّة التصرّف إلا بالرقصة الرباعية السادسة؛ فمنحته إياها. وكان حديثهما هو الذي يتناسب مع جو الحفلة الراقصة. لكن كل ابتسامة، كل كلمة، كل حركة، كل نظرة بالنسبة إلى سيرج كانت تتخذ دلالة خاصة.

وأثناء الرقصة الرباعية، كان د... مراقص الكونتيسة المعهود بجانبهما. خُيّل إلى سيرج أن د... يعامله وكأنه صبيّ وهو ما أثار حنقه لكن الكونتيسة كانت بالغة اللطف والطيب إزاءَ صديقها الجديد؛ كانت تكلّم د... بجفاف شديد، بينما كانت نظرتُها وابتسامتها وهي تلتفت إلى سيرج، تعبران عن المسرّة التي لا سبيل إلى إنكارها. ليس من عاطفتين أشد ارتباطاً وأشد تناقضاً في الوقت نفسه من الحب ومن حب الذات. كان المسكين الصغير سيرج في اللحظة الراهنة نهباً لهاتين العاطفتين اللتين اتّحدتا لتفقدانه رشده كلياً. وأثناء رقصة المازوركا اختارته الكونتيسة مرّتين شريكاً لها؛ ففعل مثلها. وأثناء إحدى حركات الرقصة مدّتْ إليه باقتها، فانتزع منها زهرة وأخفاها في قفازه فرّدت الكونتيسة بابتسامةٍ على هذه الحركة.

وبما أن الكونتيسة لم تبق للعشاء، فقد رافقَها سيرج إلى درج المدخل.

قالت وهي تمدّ إليه يدها:

- آمل أن أراك في بيتي.

- متى تسمحين لي بذلك؟

- في أي يوم تشاء.

فكرّر في صوت متأثّر:

- في أي يوم؟

ودون أن يحترس شدّ على اليد الصغيرة التي تريَّثت بثقة في يده.

احمرّت الكونتيسة وارتعشت يدها. أأرادت أن ترد على شدّة اليد أم أرادت أن تتخلّص؟ الله أعلم بذلك. لكن ابتسامة خجلةً ارتجفت على شفتيها وهبطت الدرج.

طار فؤاد سيرج فرحاً. فعاطفة الحب هذه التي استيقظت لأول مرة في قلبه، لم يستطع أن يركِّزها على شيء. كانت تتدفّق على كل شيء وعلى كل الناس. وبدا له العالم كله جميلاً ومحبباً. توقّف على درجة، وأخرج الزهرة من قفازه، وحملها مرات إلى شفتيه بانفعالٍ جعل الدمعَ يبرقُ في عينيه.

سأله الأمير كورناكوف:

- حسناً يا عزيزي أأنت راضٍ عن «حمّالنا الساحر؟».

أجاب وهو يشدّ على يده بحرارة:

- اوه! ما أعظم اعترافي بالجميل لك! لم أحسّ قط بمثل هذه السعادة.

٦ - كان يمكن أن تكون سعيدة هي أيضاً...

عندما وصلت الكونتيسة إلى بيتها، استفسرت على عادتها عن

الكونت. لم يكن قد عاد بعد. ولأول مرة سرّها غيابُه. كانت تشتهي أن تنأى عن الواقع، ولو لبضع ساعات. كان الواقع ثقيلاً ثقلاً خاصاً هذا المساء، وكانت تودّ لو تبقى وحدها مع أحلامها، لأن أحلامها كانت لذيذة.

كان سيرج قليل الشبه بالرجال الذين حفّوا بها حتى الآن، وكان من الطبيعي أن يجذب انتباهها. فمن حركاته ومن صوته ومن نظرته كان ينبعث الإخلاص والصراحةُ والحماسة الخاصة بالشباب. لقد فُتنت الكونتيسة وسحرت بنموذج الفتى النقي، وهي التي لم تخرج قط من هذا الوسط الاصطناعي الذي يُسمّى «العالم الراقي": كان كائناً سليماً لم تترك عليه الأهواءُ والرذائل آثارها؛ كائناً جدّ قريب من ينابيع الطبيعة الأولى.

كانت في مفضلها الأبيض، وبقبعتها الصغيرة على رأسها أعظم فتنةً منها في ثوب الحفلة الراقصة. ارتمت على سريرها الكبير وتمدّدت واتّكأت على الوسائد، وأخذت تحدّق في نور المصباح الباهت. واستضاء وجهها بابتسامة كئيبة.

سأل صوتُ الكونت من وراء الباب:

- أيمكنني الدخول، ليز؟

أجابت دون أن تغيرّ وضعها:

- ادخلْ

استفسر الكونت وهو يقبّلها:

- هل استمتعتِ يا صاحبتي؟

- نعم.

- لِمَ أنتِ حزينةٌ ليز؟ لعلك غاضبةٌ علي؟

ظلّت الكونتيسة صامتة. وأخذت شفتاها ترتجفان مثل شفتي طفل يوشك أن يبكي.

- أنت غاضبة لأنني أقامر؟ اطمئني يا عزيزتي استعدتُ ما خسرتُ هذا المساء... لكنْ ما بك؟

وكرّر ذلك وهو يقبّل يديها بحنان.

لم ترد الكونتيسة أبداً، وسالت الدموعُ من عينيها. وعبثاً حاول الكونت أن يغمرها بأعذب ملاطفاته وهو يسألها؛ لقد أبت أن تبوح له بسبب دموعها التي على العكس تضاعفت.

دعْها، يا رجلاً بلا قلب ولا رقة! إنها تبكي لأنك تلاطفها بالذات ولأن لك الحق في ذلك؛ لأن جميع الأحلام التي كانت تسكنها قبل هنيهة طارت هباءً تحت هبوب الواقع الذي لم تكن تكترث له حتى هذا المساء، والذي غدا كريهاً عليها منذ اللحظة التي لمحت فيها إمكانَ حب حقيقي وسعادة حقّة.

٧ - حيث نرى ظهور سيد جدير بالاحترام ومحترم:

سأل الأمير كورناكين سيرجّ الذي كان يطوّف من صالة إلى أخرى، بعد أن كفّ عن المشاركة في الأحاديث وفي الرقص، وقد انطبعت نظرتُه بالقلق وباللامبالاة.

- أأنت متضايق، يا بني العزيز؟

أجاب بنصف ابتسامة:

- نعم، وسأنصرف.

- تعال إذن إلى بيتي، سوف نتحّدث.

- آمل ألا تبقى هنا للعشاء، كورناكوف؟

كان الذي ألقى هذا السؤال عليه رجلاً ضخماً طويل القامة، وكان يمرّ في هذه اللحظة وقبعتُه بين يديه، ماشياً بخطى ثابتة واثقة، وهو يشقّ الجمهور المتجمّع عند الباب. كان في نحو الأربعين من عمره، وكان وجهه البشع والمنتفخ يعبّر عن عجرفةٍ لا حدود لها.

- أأنهيتَ لعبتكَ؟

فصاح من وسط الصالة:

الحمد لله. لقد أتيح لي أن أنهيها قبل العشاء. وهكذا أستطيع أن أتحاشى «المايونيز» القاتلة، والكمء الروسي، والسمك الألماني المنتن، ولطائف أخرى من هذا النوع.

- وأين ستذهب لتتعشى؟

- عند تراخمانوف إن لم يكن قد نام بعد، أو في «نوفو ترويتزكي[٣]».

تعال إذن؛ سيذهب آتالوف أيضاً.

قال الأمير:

---

٣ - نوفوترويتزكي: مطعم مشهور في موسكو.

- هيّا يا إيفين. هل تعارفتما؟

أشار سيرج إشارة النفي.

قدّمه الأمير:

- سيرج إيفين، ابن ماريا ميخايلوفنا.

قال الرجل الضخم دون أن يُعير سيرج التفاتةً، وهو يمدّ إليه يده الغليظة دون أن يكفّ عن المشي.

- يسعدني ذلك. أسرعوا!

أقدّر أن وضعاً مفصّلاً للسيد الضخم المدعوّ دولغوف لا تُرجى منه فائدة. فجميُع القراء سمعوا عنه، على الأقل، إن لم يكونوا قد عرفوه. وتكفي بعض الخطوط المميّزة للشخصية لكي تبدو صورته في بريق تفاهتها ودناءتها. هذا ما يبدو لي على الأقل. إن الغنى والمكانة وآداب السلوك والموهبة الأكيدة والمتعددة - كل ذلك قد أغرق في الفراغ والرذيلة: الفكرُ الوقح الذي لا يوقفُه شيء في خدمة أدنى الأهواء؛ غيابُ الضمير الكامل؛ فقدانُ أدنى مشاعر الخجل وأكبر من ذلك فقدان تذوّق المتع الفكرية والأخلاقية؛ الأنانيةُ الوقحة، والأحاديث الخشنةُ والحاسمة، والميل المفرط إلى الشهوانية والشراهة والسكر، احتقار كل شيء ما عدا شخصه. لم يكن ينظر إلى الأشياء إلا من وجهة نظر اللذة التي يمكن أن يستخلصها منها. خطّان مميّزان كانا يُهيمنان على حياته: من جهة، حياة خاليةٌ من أي نفع، فارغة وبلا هدف، ومن جهة أخرى أحقر الفجور الذي كان يجاهر به، وكأنه يفتخر بوقاحته نفسها.

إن له سمعة الفاجر، لكنه يلقى الاحترام والحفاوة في كل مناسبة. وهو يعلم ذلك كله جيداً، فيضحك منه ويزيد احتقاراً لمن حوله. وكيف لا يمكنه أن يحتقر الفضيلة، وهو الذي قضى وقته يدوسها برجليه ويجد لذةً في ذلك؟ لقد لقي سعادته في إشباع أهوائه دون أن يفقد لأجل ذلك احترام الجميع له.

كان سيرج ممتاز المزاج. وكان حضور الأمير، الذي يكنّ له سيرج مودةً عظيمة والذي كان يؤثّر فيه تأثيراً لا يُنكر، دون أن يُعرف سببٌ لذلك، مدعاةً لسروره. وكونه قد تعرّف إلى شخصية هامة ومرموقة يُدغدغ كبرياءه بسرور. لم يُعر السيد الضخم في أول الأمر، سيرج، سوى القليل من الانتباه. ولكن كلما كان الندل القوزاقي الذي يخدمه في نوفوترويتزكي يحمل إليه الفطائر والخمر كان يغدو ألطف. وإذ لا حظ تصرّفات الشاب الطليقة والعفوية، فقد أخذ يتحدّث معه وهو يدقّ قدحه بقدحه ويربّت كتفه. إن الناس من نوع دولغوف يستفظعون الخجل.

إن أفكار العاشق ومشاعره يحتكرها موضوعُ هواه إلى الحد الذي يغدو معه مستحيلاً أن يلاحظ ويُحلّل الناس الذين هم معه. ولا شيء يُعيق المعرفة التي يمكن أن نكوّنها عن شخص وكذلك بساطة الموقف الذي يجب أن نتّخذه إزاءه، مثل عادة الشباب بالحكم على الناس من خلال مظهرهم الخارجي بدلاً من النفاذ إلى دوافع أفعالهم وأفكارهم الصميمة.

ثم إن سيرج كان يحسّ هذا المساء في نفسه برغبة عظيمة ويحسّ في الوقت نفسه بإمكانات خاصة في أن يبدو محبّباً ومتألقاً، دون أن يكلّف نفسه جهداً كبيراً من أجل ذلك. إن التعرف إلى الجنرال

المتقاعد دولغوف ذلك العربيد المشهور كان جديراً بأن يرضي حبّه لذاته قديماً؛ لكنه لا يحس اليوم إلا بفرح طفيف؛ بل قد كان يُخيّل أنه هو الذي يسرّ الجنرال ويكرّمه حين يمنحه وقتاً ثميناً كان يمكن أن يخصّصه للتي يحبّها. ما كان يجرؤ من قبل أن يخاطب كورناكوف بضمير المفرد، مع أن كورناكوف كان يفعل ذلك في الأكثر. أما الآن فقد أخذ يخاطبه به بكثير من العفوية. ويُسرّ بذلك سروراً غير عادي. إن النظرة الرقيقة والابتسامة اللتين منحتهما إياه قد وهبتاه سلطاناً أعظم مما منحه فكره ومزاياه الفيزيائية وشهاداته، والمدح الذي أغدقه عليه مَنْ حوله. ففي ساعة واحدة، صنعتا من الصبيّ رجلاً. شعر على الفور بجميع الصفات التي تجعل منه رجلاً صاحياً: الثبات، روح التصميم، الجرأة، تصورٌ معتزٌ بكرامته. إن الملاحظ المنتبه يستطيع أن يتبيّن تغيّراً في وقفته. غدت مشيته أكثر ثباتاً وحريةً. أخذ جذعه يتقدّم إلى الأمام، ولم تعد يداه تربكانه، وكان يرفع رأسه عالياً، وزالت عن وجهه استدارتُه الطفوليّة وخطوط المحيط غير الواضحة وبرزت بروزاً أكبر عضلات الجبهة والوجنتين، وأصبحت ابتسامته أجرأ وأثبت.

٨ – السهرة

في الحجرة الصغيرة الحمراء الواقعة في صدر مطعم «نوفوترويتزكي». وهي حجرة مخصصة للروّاد الرفيعي الشأن، اجتمع الأميرُ كورناكوف والجنرال وضابط الحرس آنالوف من بطرسبرج مع سيرج.

قال سيرج للأمير كورناكوف وهو يملأ قدحه ويرفعه إلى شفتيه:

– أشربُ نخبَ مَنْ تَعْرفُ.

كان سيرج شديد الحمرة والتمعت عيناه ببريق كدرٍ مصطنع.

وافق كورناكوف:

- نعم، فَلْنشربْ!

وحلّت الابتسامةُ الملاطفة محل تعبير وجهه المُستعصي على التأثر والذي ألمّ به الضجر.

وشُرب عدة مرات نخبُ الشخص المجهول. كان الجنرال قد فكّ ربطة عنقه وتمدّد على الأريكة، وسيجارُه في يده، وفي متناول يده زجاجُة كونياك، وقدحٌ صغير، وقطعةٌ جبن. وازداد وجهُه حمرةً وانتفاخاً عن عادته، وعبّرت عيناه الوقحتان اللتان ترفّان رفّاً خفيفاً عن الرضا.

قال وهو ينظر إلى سيرج الجالس قبالته والذي كان يُفرغ الكأس بعد الكأس:

- هذا ما يسرّني. جاء وقت كنت فيه أنا أيضاً أشرب الشمبانيا هكذا. زجاجةٌ كاملةٌ تنفد في العشاء؛ ثم أرقص بعد ذلك كأنني لم أشرب، وكان الناسُ يجدونني من أجل ذلك ألطف.

قال كورناكوف الذي أسند وجهه إلى يده، ونظر بحزن إلى عيني إيفين المنتعشتين:

- ليس هذا ما آسف عليه. فما أزال قادراً على شرب ما تشاء من شراب، لكن ما جدوى ذلك؟ ما آسف عليه هو الزمن الذي كنت فيه، مثله، أشرب نخب س:... وكنتُ فيه مستعداً لأن أموت ولا أقلع عن شرب نخبها، وكنتُ سأفعل كل شيء لكي تكون ثُمالة الزجاجة من

حظي، وكنتُ فيه مقتنعاً بأنني سأتزوج تلك التي أفرغ على صحتها ثمالةَ الزجاجة. اوه! لو كنتُ قد تزوجتُ جميع اللواتي شربتُ على صحتهن آخر قطرة... فكم من الزوجات الرائعات كنتُ سأتزوج! ليتك تستطيع أن تتصورهن، يا سيرج!...

وبدرت من يده حركة. وقال له وهو يصبّ له آخر كأس:

- هذه هي ثمالة زجاجتك. لكن ماذا أفعل؟ لستَ بحاجة إلى ذلك...

وابتسم له بمرح وحنان.

- اوه! لا تذكّرْني بكل هذه الأشياء المستحيلة! لقد نسيتها ولا أريد أن أتذكّرها. وأنا أحسّ الآن أنني بخير!

وبرق في نظرته فرحٌ حقيقي لكائن شاب طبيعي يستسلم بلا كابح لحبّه الأول.

قال كورناكوف وهو يلتفت إلى الجنرال:

هو لطيف، أليس كذلك؟ عجيبٌ كم يُذكِّرني اليافعَ الذي كنتُه. لنُفْرغْهُ تماماً.

فقهقه الجنرال، وقال:

نعم، أتعلم ما أنا... هيّا إلى حيث النساءُ، ولنأخذْه معنا! بعد خمس دقائق، كان سيرج في زحافة كورناكوف. كان الهواء الجليدي يلسع له وجهه، وكان ظهر الحوذي السميك يسدّ الأفقَ في وجهه؛ وكانت بضعة مصابيح باهته تنير الجدران الهاربة في كلا الجانبين.

٩ – أحلام اليقظة

هأنذا في الريف حيثُ ولـدتُ وحيث قضيتُ طفولتي، في سيمينوفسكي الملأى بالذكريات العزيزة والساحرة. نحن في الربيع. الوقت مساء. أنا في الحديقة، في المكان الذي كانت تُؤثره أمي المسكينة، بقرب المستنقع، في ممر أشجار البتولة. لستُ وحدي. إلى جانبي امرأة ترتدي البياض، وقد عقدت شعرها ببساطة حول رأسها الساحر. هذه المرأة هي التي أحبها كما لم أحبّ أحداً من قبل؛ هي التي أحبّها أكثر من أي شيء في العالم، أكثر من نفسي. القمر يسبح بهدوء في سماء تحفّ بها غيومٌ شفافة وهو ينعكس على صفحة الماء المتلألئة والساكنة، لا معاً، تلفّه هالةٌ مضيئةٌ من السحب التي تحيط به. وهو يغمر بنوره نباتَ السُعادى الباهت، والضفاف المغطاة بالخضرة الغضّة، وعوارض الهويس اللمّاعة، وأشجار الصفصاف الحانية، والأوراق الداكنة لشجيرات الليلك وأشجار كرز الطير التي تملأ الهواء بالأريج الربيعي، والنسرين الذي يرص صفوفه على حافات الطرقات المتعرّجة، والأغصان الطويلة والمتشابكة المتدلّية من أشجار البتولة العالية، وأجنة الزيزفون الفاتحة والكثيفة على طول الممرات الكبيرة المظلمة. وفي الجانب الآخر من المستنقع، في ظل الأشجار بأغصانها المتداخلة، يرتفع غناء العندليب المطرب الذي ينبسط فوق سطح الماء الساكن.

في يدي أمسك باليد الحلوة، يد المرأة التي أحبّها؛ نظرتي تغوص في عينيها الكبيرتين الجميلتين اللتين تطيران بروحي بلذة عظيمة. إنها تبتسم وتشد على يدي. إنها سعيدة.

أحلامٌ غبيةٌ ولذيذة! غبية بما فيها من عدم تحقق ولذيذة بالعاطفة

الشعرية الخالصة التي تطبعها. حتى إذا لم تتحقق أبداً. فلماذا لا أنساق وراءها إذا كان ظهورها وحده يمكن أن يوفّر مثل هذه السعادة العظيمة الخالصة؟.

لم يخطر لسيرج، في هذه اللحظة أن يتساءل كيف يمكن أن تغدو تلك المرأة له، وهي الآن متزوِّجة؛ ولا إن لم يكن ذلك مخالفاً للأخلاق، في الحال التي يكون فيها ذلك ممكناً؛ وكيف سيكون عليه أن ينظّم حياته. الحياةُ التي كان يتخيلها كانت مصنوعةً من لحظات الحب واللذة وحدهما الحب الحقيقي يحوي في ذاته كثيراً من القداسة والنقاء والجرأ... والاستقلال بحيث لا يتصوّر دناءةً ولا عائقاً ولا أي مظهر مادي للحياة...

توقفت الزلاجات فجأة. وانقطاعُ الحركة الرتيبة التي كانت تهدهد سيرج أيقظته.

١٠ – الغجريات

توقف الأمير كورناكوف والجنرال المرح أمام درج مدخل. وكان الجنرال يصرخ، وهو تارةً يخبط برجله الباب الذي أخذ يقرقع ويتمايل، وتارة أخرى يشد السلسلة الصدئة التي تُستخدم جرساً:

– هيه، يا من أنتم فوق، «تشافالي»[٤] افتحوا!

وسُمعت أخيراً خطواتٌ متردّدةٌ وحذرة، زاحفة في أحذية بالية؛ والتمع ضوءٌ عَبْر المصاريع وانفتح الباب. وعلى العتبة برزت امرأة عجوز محدّبة، وقد ألقت فوق قميصها الأبيض معطفاً من فرو الثعلب، وأمسكت بين يديها المتجعدتين شمعة.

---

٤ – تشافالي: لقب يطلق على الغجر.

القسماتُ المخدّدة والقوية والقاسية، العينان السوداون والبرّاقتان، الشعر بلون القار، وإن انتثرت فيه شعيرات بيضاء، المتفلّت من تحت الخمار، الجلد القاتم الذي يميل لونُه إلى لون الآجر، كل ذلك أعلن، من أول نظرة عن الغجرية. وإذْ رفعت الشمعة إلى مستوى وجوه الزائرين تعرّفتهم بفرح فهتفت بصوتٍ حَلْقيّ، وبلهجة خاصة بالغجر:

- آه! يا إلهي! آه! يا أبتي! يا للفرح! شمسنا الحمراء، وأنت، نيكولا نيكولايفتش! مضى زمنٌ طويل ولم تُشرّفنا بزيارتك كم ستُسرّ بناتي! هيّا ادخلوا! سنبدأ الرقص على الفور!

- الجميع في البيت؟

- الجميع هنا، وسيصلون على الفور، يا «كنزيّ، ادخلوا، ادخلوا!

قال الأمير كورناكوف:

- لِندخلْ.

دخل الأربعة، دون أن يخلعوا قبّعاتهم ومعاطفهم، غرفة واطئةً ووسخةً، مرتّبة وكأنها غرفة عادية خاصة ببرجوازي صغير. وبدت في أرجائها مرايا، في إطارات حمراء؛ وفي زاوية أريكةٌ ممزّقة ظهرها من خشب، وكراسي وطاولات قذرة تقليد للأكاجو.

إن الشباب ينجرّ بسهولة نحو الشر، عندما يخضع لتأثير أناس محترمين. كان سيرج ينظر إلى هذا المحيط الغريب باهتمام إنسان يحضر تجارب كيماوية، ناسياً أحلامه. كان يلاحظ كلَّ ما يقع تحت عينيه وينتظر بفارغ الصبر ما سوف يجري. كان يهيّىء نفسه سلفاً لمشهدٍ جميل.

كان غجري شاب ذو شعر طويل أسود جعد، وعينين مغوليّتين مائلتين إلى الاكتئاب، وابتسامة تكشف عن أسنان بيضاء، مضطجعاً على الأريكة. وبطرفة عين، نهض وارتدى ثيابه. نظر حوله، ووجّه كلمات إلى العجوز، بصوت حاد، وأقبل على القادمين يحيّيهم.

استفسر الأمير:

- مَنْ رئيسكم الآن؟

أجاب الغجري:

- إيفان ماتفييفتش.

- فانيكا؟

- نعم، فانيكا

- والمغنّي الأول؟

- تانيا وماريا فاسيلييننا.

- ماشا؟ التي كانت عند آل ب...؟ هذه البنت الجميلة؟ أما تزال عندكم؟

أجاب الغجري، وهو ما يزال يبتسم.

- نعم، ياسيدي. وهي تأتي من حين إلى آخر.

- حسنٌ؛ اذهبْ وأحضرْها، واحمل الشمبانيا.

أخذ الغجري المال الذي قُدِّم إليه وتوارى. أما الجنرال فقد جلس مفرشخاً على كرسيّ، كما يليق بأحد المترددين على المنزل، وشرع يتحادث هو والعجوز. كان يعرف جميع الغجر، رجالاً ونساءً،

الذين كانوا يكوّنون قديماً «الطابور»[٥]، وكذلك القرابة التي تربطهم بعضهم ببعض.

روى ضابط الحرس أنه لا سبيل إلى العثور على النساء في موسكو وأن الأوساط الغجرية لا تُقرَب لفرط ما كانت قذارتها كبيرة ومثيرة للاشمئزاز. وكان من الأفضل، برأيه، دعوتهن إلى البيت. فاعترض الأمير قائلاً إن الغجر على العكس أدعى إلى الاهتمام في محيطهم الخاص، وأنه ينبغي محاولة فهمهم في هذا المحيط ذاته. كان سيرج يصغي إلى الحديث دون أن يشارك فيه، لكنه في قرارة ضميره كان يوافق الأمير على حججه. فأصالة المكان كانت تعجبه وتقنعه بأنَّ أشياء بالغة الإثارة ستجري فيه.

من حينٍ إلى آخر، كان باب المدخل ينفتح؛ فيندفع منه هواء الخارج البارد، بينما كان الغجر الذين يؤلفون الجوقة يدخلون اثنين اثنين. كان الرجال يرتدون ستراً زرقاء فاتحة مشدودة على قاماتهم الرشيقة، وبناطيل عريضة متّصلة بجزماتهم. وكانت شعورهم جميعاً طويلة. أما النساء فارتدين دثاراً من الحرير المقصّب المبطّن بفرو الثعلب؛ وكان على رؤوسهم خُمُرٌ ألوانُها زاهية؛ وكانت زينتهن غنية وجميلةً، وإن كان زيّها قديماً.

عاد الغجري يحمل الشمبانيا وقال إن ماشا ستأتي بعد قليل واقترح أن يبدأ الغناء بدونها. ووجّه بضع كلمات لرئيس الجوقة - وهو شاب مظهرُه أقربُ إلى الهزال، لكنه حسنُ الهيئة، ممشوق القامة في جلبابه المزيّن بشرائط - وكان يَضْبط قيثارته على ركبته، وقدمه مستندةٌ إلى حافة النافذة الذي اشتد صخبُه وتحوّل في آخر الأمر إلى جلبة عامة.

---

٥ - الطابور: اسم يطلق على مخيم الغجر (وعلى الفرقة)

وكانت العجائز يحرّكن أيديهن، وقد اتّقدت نظراتُهن، ويطلقن صرخات حادة. وكان الرجال وبضع نساء يعارضوهن. ولم يكن الزوار يميزون في هذه المناقشة التي لم يفهموها، سوى كلمة واحدة تردّدت كثيراً: «ماكا، ماكا»[٦] وظلّت ستيوشكا، وهي فتاةٌ جميلةٌ قدّمها رئيسهم على أنها المغنية الجديدة الأولى، جالسةً، غاضّة عينيها، وهي وحدها لم تكن تشارك في النقاش. فهم الجنرال الموضوع الذي دار حوله النقاش: إن الغجري الذي ذهب ليحضر الشمبانيا ربما كذب إذ قال إن ماشا ستأتي بعد حين، كان يريد أن تغنيّ ستيوشكا الأغاني. ودار النقاش حول مسألة ما إذا كان ينبغي أن تُعطى لستيوشكا حصةٌ ونصف من إيراد المساء.

– صاح الجنرال:

– أيه! تشافالي، اصغوا إليّ!

لكن لم يعره أحدٌ انتباهاً. وبعد صعوبات جمّة حملهم على الإصغاء إليه. فهتف قائلاً:

– ماشا لن تأتي! قولوا هذا مِنْ مرّةٍ.

فأجاب الرئيس:

– لن يكون حظ ستيوشكا في الإجادة أقل من حظّها. يجب أن تسمعها في «الليلة»، لن تجد خيراً منها. إنها تغني تماماً على طريقة نانيوشا. أنت تعلم ما معنى ذلك، وأنت تعرف جماعتنا كلها (كان يعلم أنه يتملقه بهذه الكلمات.) اصغِ إليها.

ومن كل الجهات تعالتْ صرخاتُ الاستحسان.

---

٦ – ماكا هو اسم آخر لماشا.

- طيب، ابدؤوا!

- استفهم الرئيسُ، وقيثارته في يده، وقد وقف في قلب نصف الدائرة التي شكّلها المغنّون:

- بم تريد أن نبدأ؟

- ابدؤوا بما تعوّدتم الابتداء به: «أتسمع....».

اتخذ الغجري الوضع المطلوب، وشدّ قيثارته على ركبته، واستهلّ ببعض النغمات. وبدأت الجوقة أغنيةً بطيئة ومنسَّقة.

صاح الجنرال:

- قفوا! قفوا! لا يصحّ هذا! يجب أن تشربوا أولاً!

اضطُر الجميع إلى ابتلاع قدح من الشمبانيا الرديئة والفاترة. دنا الجنرال من النساء، وطلب إلى واحدة منهن، لابد أنها كانت جميلة جداً في شبابها، أن تتنازل عن مكانها، بينما سيجلسها هو على ركبتيه.

استأنفت الجوقة غنَاءها ببطء أولاً، ثم بسرعة متزايدة لتنتهي على الطريقة الغجرية، الغجرية على نحو نموذجي، بايقاع محتدم. وبفن لا سبيل إلى تقليده. سكتت الجوقةُ فجأةً. ثم تعالى النغم الأولي مرة أخرى، ورُدّدت اللازمة بصوت عذب، حنون، نقي، مع نبرات وتنويعات مذهلة الأصالة، ثم فَخُم هذا الصوت النحيل شيئاً فشيئاً، ثم غدا جَهْورياً أكثر فأكثر لينتقل باتساق اللحن الشجي إلى الجوقة لتردده في توافق تام.

جاء وقتٌ كانت الموسيقا الغجرية في روسيا، هي المفضّلة على

كل موسيقا أخرى، كان الغجر إذ ذاك يغنون الأغاني الروسية القديمة، و لم يكن تفضيلهم على المغنين الإيطاليين من رداءة الذوق في شيء. وفي أيامنا هذه يُغنّي الغجر أمام الجمهور مقاطع غنائية من هزليات خفيفة ويبدو مضحكاً على نحو واضح، أن يُحبّ غناؤهم وأن يزدان باسم «موسيقا». ومن المؤسف أن ينحط فنهم إلى هذا الحد. لقد كان في روسيا، الانتقال الطبيعي بين الموسيقا الشعبية والموسيقا المؤلّفة. وما العلةُ في أن أي صعلوك في إيطاليا يفهم ويحب ألحان دونيزتي وروسيني، بينما لا يكاد البرجوازي الصغير أو التاجر، عندنا، يتذوقان من «قبر أسكولد»[٧] أو «الحياة للقيصر»[٨] سوى الزخرف الخارجي. وأنا لا أذكر إلا الأوبرا الشعبية، لكن ما قولك في الموسيقا الايطالية التي لا يقدر على تذوّقها سوى نحو مئة من العارفين الروس! وعلى العكس من ذلك، كلٌ روسي يحب الموسيقا الغجرية، لأن مصادرها شعبية. قد يعترض معترضٌ فيقول إن هذه الموسيقا جلفةٌ ولا قواعد لها... حسناً! ليُصد قْني من يشاء، لكني أقول هنا ما استشعرتُه بنفسي: الذين يحبون الموسيقا الغجرية سيفهمونني بيسر، وإن شاؤوا أن يجرّبوا ما جرّبتُ فسوف يقتنعون مما أقول. جاء وقتٌ كنت أحب فيه الموسيقا الغجرية كما أحب الموسيقا الألمانية، وكنت أتعاطاهما كلتيهما. إن أحد أصدقائي، وهو موسيقيّ ممتاز، من أصل ألماني، تربّى في المدرسة الموسيقية الألمانية، كان يدخل دائماً في نقاش معي مؤكّداً أن الجوقة الغجرية تَحْفل بالأخطاء الموسيقية التي لا تُغتفر - وكان يجهد نفسه ليبرهن لي على ذلك. الغناء الإفرادي وحده هو الذي

---

٧ - قبر اسكولد: أوبيرا رومانسية لألكسي فيرستوفسكي ظهرت في سنة ١٨٣٥

٨ - الحياة للقيصر: أوبيرا تاريخية لميشيل غلنكا ظهرت في سنة ١٨٣٦. وهي معروفة الآن باسم ايفان سوسانين.

كان يجد الرضا من أذنيه، وهو عناء كان يعتبره هو كما يعتبره كل الناس ممتازاً.

كنتُ أحسن كتابة الموسيقا، وكان هو يجيدها، فقرّرنا يوماً بعد أن استمعنا إلى أغنية نحو عشر مرات أن نسجّل علاماتها الموسيقية كل بمفرده. وبعد الموازنة بين التوليفتين، وجدنا بالفعل مجموعات من الفواصل الخماسية، لكني لم أعتبر نفسي مغلوباً. فاعترضتُ بأننا لو استطعنا أن نسجل الأصوات تسجيلاً صحيحاً، فإن الأزمنة الدقيقة قد أفلتت منا، وأن الفواصل الخماسية المعنيّة يمكن ألا تكون سوى تقليد للفواصل الخماسية، سوى شيء من نوع التتابع المنسّق تنسيقاً حسناً. أعدنا التجربة وأخذ الألماني برأيي، في نهاية الأمر. الحقيقة أن طريقة التآلف ظلت هي نفسها في كل عمارة موسيقية، لكن التوافق غدا أعنى، أو أن تكرار المقطع البارز كان يحل محل علامة موسيقية: وبكلمة واحدة، كان الشكل الخارجي صورياً، وكان من المستحيل أن يكلّف كل غجري بغناء الجزء الخاص به. كانوا جميعاً يغنون الصوت الأول فإذا غنوا كجوقة، كان كل منهم يرتجل.

ليعذرْني القراءُ الذين لا يهتمون بالغجر وموسيقاهم لهذا الاستطراد في غير موضعه، لكن حبي لهذه الموسيقا الشعبية والأصيلة التي وفّرت لي كثيرا من لحظات الفرح، قد بلغ حداً أفضى بي إلى أبعد مما أردتُ.

أثناء تنفيذ المقطع الأول، أصغى الجنرال بانتباه، طارقا عينيه من وقت إلى آخر، وعلى فمه ابتسامةٌ موافقة. وكان يتجهّم أحياناً هازاً رأسه وكأنه ينتقد. ثم كفّ بعد هنيهة عن الإصغاء وأخذ يثرثر مع ليوباشا، وكانت هذه تجيبه تارة بابتسامة تكشف عن أسنان لها بريق اللؤلؤ، وتارة أخرى، تمزج بالجوقة صوتها الجهوري في أعلى درجاته،

وهي تلقي نظرات صارمة على الغجر، وتخاطب هؤلاء الغجر الذين يحيطون بها، بالإشارات.

جلس ضابطُ الحرس إلى جانب ستيوشكا الجميلة، وكان يردد بلا انقطاع كلمات الاستحسان وهو متوجّه إلى كورناكوف: «لطيف»، «لذيذ»!، أو كان يدندن دندنةً سيئة مع الجوقة، مما أزعج النساء، على ما يبدو، وجعلهن يتذمّرن.

إحداهن لمست كمّه قائلة له:

- أرجوك، يا سيدي!

وكان الأمير كورناكوف، يهمس بلا انقطاع، وقدماه على الأريكة، في أذن الراقصة الجميلة مالاشكا، وكان سيرج الذي وقف وسط نصف دائرة المغنين، وقد فكّ أزرار صدرته، يصغي وهو خاضعٌ، على ما يظهر، لسر الغناء. ولاحظ أن جماعة من النساء الفتيّات ينظرن إليه ويتهامسْن: لا يمكن أن يكون الهزء هو الذي يثير هذه الضحكات، بل الأولى أنه الإعجاب، لأنه كان يعلم أنه فتى رائع الجمال.

نهض الجنرال فجأةً وقال مخاطبا الأمير:

لا ليست الأمور على ما يرام! الجوقة لا تساوي شيئاً، بدون ماشكا أليس كذلك؟

وافق الأميرُ الذي كان يبدو خامداً ونعساناً. دفع الجنرال للغجر أجرتهم وأعفاهم من مقطع العودة. وقال:

- لنذهبْ.

فردّد الأمير وهو يتثاءب:

- لنذهب

ضابط الحرس وحده أبدى احتجاجا مبهماً لم يُعره أحدٌ التفاتا. ارتدوا معاطفهم وخرجوا

١١ - على من يقع الخطأ؟

قال الجنرال وهو يدعو سيرج إلى الجلوس في عربته:

- يستحيل عليّ أن أنام في مثل هذه الساعة. لنذهب إلى ب...

قال كورناكوف:

- وأنا رجلُ المسرات جميعاً.

وظهرت مرةً أخرى العربتان تتبعهما زحّافة، وهي تجري في الشوارع المظلمة والصامتة. ولم يشعر سيرج برأسه يدور إلا عندما استقرّ في العربة. وقد أسنده إلى حافة العربة المنجّدة، محاولاً أن يرتّب أفكاره المضطربة، دون أن يصغي إلى الجنرال الذي كان يُسرّ إليه بصوت هادئ:

- لو كانت امرأتي تعلم أنني أعربدُ معك!

وتوقفت العربات. صعد سيرج والجنرال والأمير كورناكوف وضابط الحرس درجاً نظيف المظهر، حسن الإضاءة، يقودهم إلى مدخلٍ نَزعَ فيه أحدُ الخدم عنهم معاطفهم، وأدخلهم صالةً منوّرة بشدةٍ، مزيّنة بزينة تَنْشُد غرابة الذوق والترف السَمِج. كان بعض الأزواج يرقصون على أنغام الموسيقا. وكانت نساءٌ منفرداتٌ يجلسْن على طول الجدار، في ثيابٍ مقوّرة. مرّ أصحابُنا إلى غرفة أخرى حيث تبعتهم هؤلاء «السيدات». وقُدِّمت الشمبانيا.

دهش سيرج، في أول الأمر، من الطريقة الغريبة التي كان أصحابه يتصرّفون بها مع هؤلاء السيدات، وكذلك من اللغة المثيرة التي كانت السيداتُ يبادلنها فيما بينهنّ – لغة تشبه الألمانية كثيراً. شرب سيرج أيضاً بضعة أقداح. ناداه الأمير الذي كان قد جلس على أريكة بجانب إحدى هؤلاء السيدات. وعندما دنا سيرج راعه الشبهُ بين هذه المرأة والكونتيسة، أكثر مما راعه جمالُها (وكانت بالفعل ذات جمال غير عادي): العينان ذاتهما، والابتسامة ذاتها، التعبير وحده كان مختلفاً: كان تارةً خجلاً، وكان تارة أخرى بلا حياء. جلس سيرج قربها وأخذ يكلمّها. وفيما بعد، لم يكد يتذكر موضوع هذا الحديث، وكل ما تذكره أن قصة «غادة الكاميليا»[٩] قد خطرت بخياله المُهتاج، بكل سحرها الشعري. وتذكّر أن الأمير كان يدعو هذه المرأة: «غادة الكاميليا» قائلاً إنه لم يرقط كائنا أكمل منها في كل جزئياتها، ما عدا اليدين. كانت تظل ساكتةً، مبتسمةً أحياناً ابتسامةً لم يسرّ منها سيرج. لقد أدار بخار الخمر رأس الشاب الذي لم يتعوّد الخمر إلى قليلاً. تذكر أيضاً فيما بعد أن الأمير ألقى ببعض كلمات في أذن المرأة، ثم انضمّ إلى الجماعة التي تكوّنت حول الجنرال وضابط الحرس، بينما كانت المرأة الشابة تَجْذبه إليها وتشدّه، بعد أن أمسكت بيده.

بعد ساعة افترق الأصحابُ الأربعة أمام درج مدخل البيت. دلف سيرج إلى عربته، دون أن يردّ على توديع الأمير له، وأخذ ينتحب مثل طفل. وتذكّر عاطفة الحب النقيّة والطاهرة التي كانت تنُعم صدره، قبل ساعتين بالانفعال وبالرغبات المبهمة. وأدرك أن زمن هذا الحب قد انقضى بالنسبة إليه. فبكى من الخجل ومن الندم.

---

٩ – «غادة الكاميليا»: دراما ألكسندر دوماس الشهيرة ١٨٥٢).

لم كان الجنرال مبتهجاً أشدّ ابتهاج وهو يرافق الأمير إلى عربته ويكرّر بالتذاذ: «ضيّع المسكين بكورّيته؟».

وكان كورناكوف يجيب:

- نعم، أنا مُغرم بتأليف أزواج ظريفين.

على من يقع الخطأ؟ أعلى سيرج الذي انجرف، خاضعاً في آنٍ واحد لتأثير أشخاص محترمين ولنداء الطبيعة الغريزي؟ هو مذنبٌ، بالتأكيد، لكن مَنْ الذي يرميه بالحجر الأول؟ أهي خطيئة الأمير والجنرال؟ هذان الرجلان اللذان يقوم دورُهما على الإساءة إلى من حولهما، لهما فائدة من حيث أنهما مُغويان، إنهما موجودان ليُبرزا قيمة الخير. أنتم المسؤولون، أنتم جميعاً الذين تتساهلون معهم، ولا تتساهلون فحسب بل إنكم تختارونهم مُرشدين أيضاً. لماذا؟ على من يقع الخطأ؟.

ومع ذلك، فمن المؤسف أن كائنين جميلين صُنع كلٌّ منهما للآخر وأدركا ذلك، يخسران في الحب خسارة نهائية! ولعلهما سيلتقيان لقاءات أخرى، وربما أحبّ كل منهما الآخر من جديد. لكن ما قيمةُ ذلك الحب؟ أليس الأفضل أن يحتفظا بالحنين طوال حياتهما، من أن يحاولا أن يخنقا، في نفسيهما الذكرى النقية لبضع لحظاتٍ من الحب.

***

الحلم

١٨٥٧ - ١٨٦٢

في حلمي، كنتُ واقفاً على قمّة مترنّحة لجبل باهرٍ ببياضه. كنتُ أخاطب الناس وأُطلعهم على جميع الأفكار التي كانت في نفسي والتي كنتُ أجهلها حتى هذه اللحظة. وكانت أفكاري غريبة مثلها مثل الأفكار التي تأتينا في الحلم، لكنها كانت تتحوّل تدريجياً إلى كلمات مُلهمَة ومتناسقة. وكنت أدهش من كلامي. كان رنين صوتي يملؤني بالحبور. لم أكن أرى شيئا، لكنني كنت أحسّ أن جمهوراً غير معروف يتجمّع حولي، وكان هؤلاء الناس جميعاً إخوتي، وكنت أحس بأنفاسهم على مقربةٍ مني. كان البحرُ يهدر، مظلماً وشبيهاً بالجمهور. كانت كلماتي تطير مع الريح إلى ما وراء الغابة، وكان النسيم الحامل للفرح والحبور يهيُج الجمهور ويهيجني في الوقت نفسه. وعندما كان صوتي يسكتُ، كانت تُسمَعُ تنهدّات البحر. البحر والغابة... الجمهور... كانت عيناي قد عميتا لكني كنتُ أحسّ بالنظرات تحطّ عليّ. وكانت قوةُ هذه النظرات جميعاً هي التي تبقيني واقفا. كان ذلك شاقاً علي ولذيذاً في الوقت نفسه. كان انتشاؤهم يَسْندني وانتشائي يسندهم. كان لي سلطانٌ لا حدود له. وكنت أسمع في داخلي صوتاً غريباً يقول: «يا للفظاعة!» فانتابني الخوف. وظللتُ أمشي وأُسرعُ

في المشي، ماضياً إلى بعيد، أبداً. أخذ نَفَسي يضيق، وزاد في حماستي كوني أردت السيطرة على خوفي، وكانت القمّة التي تحملني ترتفع أكثر فأكثر، في إيقاعٍ منتظم، بعد بضع لحظات سينتهي كلُ شيء.

كان أحدُهم يمشي خلفي. أحسستُ بنظرة غريبة مُلحّة تنصبُّ علي. بالرغم من مقاومتي، اضطُررتُ إلى الالتفات. رأيتُ امرأةً، انتابني إحساسٌ من الضيق ووقفتُ. و لم يكن الجمهور قد تفرّق بعد، وكان صوتُ الريح يُسمع أبداً.

عَبَرت المرأةُ الجمهورَ بهدوء، دون أن يَحيد الجمهور عن دربها، ودون أن تختلط هي به، وتزايد إحساسي بالضيق. أردت أن أتابع كلامي لكني لم أعثر على الكلمات. لم أكن أعلم مَنْ هذه المرأة. كانت تجسّد الإغراء، وكانت فيها قوةٌ لا تُقهر تجذبُ جذبا رفيقاً ومؤلماً. رمتني بنظرة عَجْلى، ثم استدارت بعدم اكتراث. لم ألمح غير حوافي وجهها، لكن نظرتها الهادئة ظلّتْ فيّ. وكان في هذه النظرة سخريةٌ عذبةٌ وشفقةٌ لاتُلمح.

لم تكن تفهم كلماتي و لم تكن تأسف على ذلك، لكنها كانت تشفق عليّ. لم أكن أستطيع التحرر من نظرتها. و لم تكن شفقتها تبدو متوجّهة إلي لكن إلى حماستي. كانت هذه المرأة تُشعُّ سعادة. كانت تكفي نفسها بنفسها، ولهذا السبب خيِّل إلي أنه لا يمكنني العيشُ بدونها.

وفجأة لفّتها غلالة من الظلمات ومن الضباب وفصلتْها عني. أخذتُ أبكي بلا خجلٍ، أبكي السعادة الماضية الضائعة التي لن تعود، أبكي كذلك استحالةَ السعادة المقبلة، السعادة للجميع... ولكن السعادة الحاضرة كانت تمتزج بهذه الدموع.

***

قصة فارنكا الصغيرة

التي كبرت في ليلة واحدة

١٨٥٧

قالت الأم بعد العشاء: «ياإلهي، نسينا الأولاد تماماً. لقد انقضت الأعياد، و لم نأخذهم مرةً إلى المسرح! أَعطني البرامج! سنرى إن لم يكن فيها شيءٌ مسلّ لهم».

كان نيكولنكا وفارنكا وليزانكا يلعبون لعبة «جنية البحر». كان ثلاثتهم قابعين في مقعد واحد: كان المقعد هو السفينة التي تمضي بهم تحت الماء إلى الجنّية. كانوا يمثّلون عائلة كاملة من ستة أشخاص: الأم والأب و«أوجين» و«ساشا» و«ميلاشكا». كانت ليزانكا تلعب دور ميلاشكا وتتهيّأ كي تصبح بعد لحظة، الجنية التي تستقبل الوافدين. لكنها كانت في هذه الأثناء تُصيخ السمع إلى حديث الكبار.

همست وهي تتابع لعبَ دورها الذي يقوم على النفخ والإيماء باليدين لتشير إلى أنها تتقدّم تحت الماء:

فارنكا، سوف نذهب إلى المسرح!

سأل نيكولنكا:

- ماما قالت ذلك.

أجابت فارنكا:

- نعم

وتتابع اللعبُ تتابعاً أقرب إلى التقطّع، لقد أنفق الأولاد وقتاً طويلا ليصلوا إلى الجنّية لفَرْط ما انهمكوا في الإصغاء إلى الحوار الذي كان يدور بين أمهم وعمّهم. وكان موضوع الحوار اختيار المسرح. أين يذهبون؟ إلى السيرك أم إلى المسرح الكبير الذي كان يَعرض «حورية الماء والصياد».

قالت الأم أخيراً:

- اذهبوا وارتدوا ثيابكم.

لم يبق مجالٌ «لجنّية الماء». ولم تبق سفينةٌ ولا ماء ولا جنّيةٌ.

سألت البكرُ «فارنكا»:

- نحن، ماما؟

مع علمها جيداً بأن الأم إنما توجّهت بأمرها إليهم. وكان نيكولنكا وليزانكا ينتظران مع ذلك التأكيد، وينظران إلى أمهما بصمت.

- هيا، هيا، اصعدوا بسرعة.

اندفع الأولاد مثل اندفاعة عصافير الدوري وهي تزقزق وتتدافع. ونزلوا في مدى نصف ساعة برفق وأدب، محترسين من أن يوسخوا أو يجعّدوا ثيابهم وزينتهم، وقد غسلوا وجوههم وأيديهم بعناية. كان الثلاثة أولاداً رائعين: البنتان الصغيرتان بخاصة في فستاني الموسلين

والشرائط الوردية، ولم يكن الصبي أقلّ روعة ببلوزته الحريريه التي بحمرة الجمر والتي شُدَّ عليها زنّاراً مذهَّباً، أزعجه أشد الإزعاج أنه لا يكاد يلمحه.

تساءلت فارنكا:

- أمن الممكن ألا أكون جميلة مثل ليزانكا؟

ولكي تتأكد من ذلك، انسلّت إلى أمام المرآة، واختلست النظرَ إلى نفسها فظهرت في المرآة، فعلاً، طفلةٌ صغيرةٌ لطيفة. نادت:

- ليزانكا، هيّا انظري إلى نفسك. شعركِ متطاير!

لكن ذلك لم يكن سوى مزحة، إذ دنتْ ليزانكا ورأت أن شعرها كان في أحسن نظام. أراد نيكولنكا أيضاً أن يتأمل زنّاره الذهبي.

- هذا مثل سيف عمي تماما. وهو جميل مثله!

وفجأةً دخلت المربيةُ التي كانت تنتظر وراء الباب ومعها فروات اليدين، وجذبت ليزانكا إليها، وقالت لها وهي تسوّي الفستان الصغير:

- دعكتِ ثيابك أيضاً. لن تستطيعي المجيء معنا.

لكن ليزانكا كانت تعلم أنها لا تتكلّم بجد.

قالت المعلمة وهي تدخل الصالون، وقد ارتدت فستاناً جميلاً من الحرير ذي الحفيف، والمزين بشريطة حمراء:

- اذهبوا إلى الحمّام، قبل الخروج!

صاح الأولاد:

- الحمّام! الحمّام!

وذهبت ليزانكا أولاً

قال نيكولنكا باعتزاز:

- أنا، لا حاجة بي إلى ذلك.

وقالت فارنكا:

- ولا أنا، ايضاً.

هتف الأولاد وهم ينطنطون حول الآنسة «بليسر" مربيتهم:

ما أجملها، بيسوت! وما أجمل تنورتها!

فنظرت بدورها في المرآة لترى إن كانت قد أصبحت جميلة، بمعجزة.

استغرقت أمُهم زمناً طويلاً في ارتداء ثيابها، ولعب الأطفال أيضاً لعبة الطبيب، داعكين ثيابهم، مفسدين نظام زينتهم.

وُبِّخوا على ذلك، وقيل لهم أنهم لم يكونوا يستحقون أن يلبسوا ثياباً نظيفة، وأُكّد لهم أنهم سيُتركون في البيت. ومع أنهم كانوا مقتنعين بأن شيئاً من ذلك لن يتمّ، فقد أبدوا ارتباكاً وإن غمرهم الفرحُ.

انتهى الأمرُ أصعدوا إلى العربة. وكان ميشيل يحملهم على الأرض الحصبة ويرفعهم إلى المرقاة، وهو يُقفِّزهم كالبالونات. وعلى عتبة الباب، كانت المربية العجوز، بلا شال، وبفستانها وحده رغم البرد، تدور بلا انقطاع: كانت قبعة ليزانكا مائلة، على فارنكا أن تخبئ

يديها الصغيرتين، نيكولنكا وحده كان فتى طيباً لأنه لم يكن بحاجة إلى شيء.

وأخيراً، بلغوا المسرح. لم يكن ها هنا سوى أروقة واسعة يزدحم فيها ناسٌ مجهولون يمرّون وهم يدفعونك. وكانت الأم تستفسر عن الطريق عند كل خطوة، لأن ميشيل لم يكن يعرفها، أحسّ الأطفال بالخوف لكنهم لم يجرؤوا على الاعتراف به. ظنت ليزانكا أن الأمر قد انتهى، وأنهم قد ضلّوا السبيل، وأن الناس سيرمونهم أرضاً، أو على الأقل، سيلقون بهم بعيداً جداً... أهذا هو المسرح...! كانت تختنق من الخوف، ولولا قليل، لأخذت تبكي، لاشك أنها لن تعترف بذلك، لكنني أعلم أنها كانت خائفة. وعندما استقرّوا أخيراً في مقصورتهم وجاء رجل، مزدان بأشرطة مذهبة، وطلب البطاقات من الأم، بعد أن فتح لهم، مع ذلك الباب، أحسّوا أنهم في وضع أفضل، بل أفضل بكثير. بيد أنهم لم يكن بوسعهم أن يتخلصوا من شعور خفيف بالخوف: هذه الموسيقا التي تُحدثُ الكثير من الضوضاء، النور الساطع من تلك الشموع الضخمة وهذا الجمهور، كل هذا الجمهور! وهذه الرؤوس، كل هذه الرؤوس! لم يكونوا يرون سوى الرؤوس حيثما نظروا! الناس فوق، تحت، في كل مكان، وناسٌ حقيقيون!

أجلست الأمُ الأولاد أمامها وجلست خلفهم. حينئذ أخذوا يتفحّصون ما حولهم بفضول. كل هذه الرؤوس كانت ناساً حقاً، بل إنهم ناسٌ يتحركون! وكان هنالك أولادٌ أيضاً، أولاد حقيقيون مثلهم! وبجانبهم بالذات في المقصورة المجاورة صبيٌّ وطفلة صغيرة جميلان جداً وكأنهما خارجان من حكاية إحدى الجنّيات. كانت الطفلةُ بخصل شعرها النازلة إلى كتفها، وبفستانها المقوّر، في سنّ فارنكا، من غير شك، وكان شعر الصبي مجعّدا أيضاً، وكان يرتدي

سترة من المخمل مزينة بأزرار ذهبية، وكان أجمل بكثير من جميع الصبية الذين يعرفونهم. نعم، إنه حقاً، هاربٌ من حكايات الجنيّات. كان هذا الصبي الطالع من حكايات الجن وجارته الصغيرة يلاحظان أيضا الوافدين الجدد. وكان صغار هذا العالم الصغير يروون بالتفصيل ما يرون وهم يتهامسون.

- إلى هناك يجب أن تنظروا، يا أولادي. هناك المسرح.

نظر الأولاد إلى الجهة المشار إليها، لكن ذلك لم يكد يعجبهم. كان يُرى من بعيد موسيقيون في ثياب سوداء، ومعهم قيثاراتهم وأبواقهم، وفوقهم قليلاً، ألواح خشبية رديئة، وسخة جداً، تذكّر بأرضية بيت ريفي. وعليها كان يروح ويجي أناسٌ بقمصان وقبعات حمراء، وهم يومئون بأيديهم. وكانت طفلة صغيرة بلا بنطال، وبتنورة قصيرة جداً، تقف على أصابع قدميها، وترفع ساقها الأخرى أعلى من رأسها. لم يكن ذلك حسناً وأشفق الأولاد على الطفلة.

استفسر نيكولنكا.

- أين المسرح ماما؟

أجابت الأم وهي تنظر إلى تلك الطفلة من خلال شيء يشبه الأنبوب:

- لكنهم هناك.

نظر الأولادُ، مرةً أخرى، إلى الجهة المشار إليها، ورأوا تلك الطفلة تقفز وتدور، بينما كان الآخرون يقفزون ويرقصون حولها. لم يكن في ذلك ما يسلّي، وإن كان البحر والقمر يُريان خلف الطفلة. وهذا الذي كان جميلا.

سألت ليزانكا التي كانت خائفة، وكانت لسبب غير معروف، تشتهي أن تبكي.

- أهي طفلةٌ حقيقية؟

أجابت فارنكا:

- طبعاً، هي حقيقية. انظري إليها وهي تمشي، وعندما تمر أمام هذا الحاجز فسوف نتبيّن أنها حقيقية.

أحسّت ليزانكا أنها أُهينت:

- الوالدان الجالسان بجنبنا واضحٌ أنهما حقيقيان، أما الآخرون فلا أدري.

كانت فارنكا تسرّ، حقاً، برؤية المقاصير والثريّات، وتُسَر أكثر برؤية جاريها - الصبيّة والصبي - أكثر من سرورها برؤية المسرح ذاته. وكان هذان الجاران يفعلان فعلهما، وكان الأهل مضطرين دائماً إلى تذكيرهم بمراعاة النظام.

ما كان مسليّاً هو عندما كان الناس جميعاً يأخذون بالتصفيق. لكن الأظرف كان قبل النهاية بالذات، عندما اقتحم المسرحَ رجالٌ مسلّحون ببلطات طويلة وأخذوا يتقاتلون، وفجأة اندلع حريق كبير وابتلعت النيرانُ أحد المقاتلين. لكن، يا للآسف! ففي هذه اللحظة بالذات، أُسدل الستار.

نهض طفلا المقصورة المجاورة وخرجا مع الضابط الذي كان يرافقهما.

قالت الأم:

- ما أشدّ الحرّ!

وخرجت مع أولادها لتتجوّل في الرواق.

تشبّثت ليزانكا بتنورة أمها، لكي تتأكد من أنها لن تضيع. وكان أخواها يمشيان وحدهما، وكان الضابط يتجوّل أيضاً ومعه ولدا حكاية الجنية. وكان الأولاد في، ذهابهم ومجيئهم، ينظر بعضهم إلى بعض، في اللحظة التي يتصالبون فيها، بكثير من الانتباه، حتى أنهم لم يكونوا يرون أين يحطّون أقدامهم، وهكذا تعثّرت ليزانكا ووقعت. لكنها لم تبك، واحمرّت فقط ثم انفجرت ضاحكةً في نهاية الأمر. وأخذ طفلا حكاية الجنّية يضحكان أيضاً، وبدوا أجمل، وهما يضحكان من كل قلبيهما، بدوا لطيفين جداً، مرحين جداً، ولاسيما البنت الصغيرة - كما فكّر نيكولينكا -، ولاسيما الصبيّ الصغير - كما كانت تقول ليزانكا وفارنكا إحداهما للأخرى.

قالت الأم للمربية بصوت مرتفع ليسمعه الضابط والولدان اللذان يصحبانه.

- ما أروع هذين الطفلين!

وكانت تفكّر، في قرارة ضميرها: «لا شك أنهما جميلان، لكن أولادي أجمل».

ذُهل الأولادُ بل وخافوا من كلمات أمهم، وإن كانوا يوافقونها.

في الطرف الآخر من الرواق، قال الضابطُ الشيءَ نفسه لولديه.

- هيا نتعرّف إليهما.

قالت البنتُ الصغيرة:

- اذهبْ أنت نفسك، إذا شئتَ

قال الصبيُّ الصغير، وهو يرفع بصره إلى وجه الضابط:

- أنا سأذهب فعلاً، لكن ماذا أقول لهم.

- اسألْ إن كانت الطفلة لم تُصَبْ بأذى حين وقعت.

قال الصغير بحزم:

- طيب، وهو كذلك!

قالت الطفلةُ:

- سأذهب معك.

و ذهبا إلى ملاقاتهم. حدق الصبيُّ في الصغيرة التي وقعت، ووقف أمامها، وفتح فمه، ثم انتابه الخجلُ فجأةً. احمرّ وركض، وهو يصرّ بحذائه الجديد، ليلتجئ إلى الضابط الذي أمسك بيده.

وبّخه الضابط:

- ألا تخجل؟

وإذ تصالبا مرةً أخرى، انتصب الصبي الصغير أمام ليزانكا التي وقفت هي أيضاً. فسألته

- ما اسمُكَ؟

- ساشا

فردد نيكولنكا وفارنكا وليزانكا معاً:

- آه، ساشا!

وانفجروا ضاحكين.

قال نيكولنكا:

- نحن نلعب لعبة فيها ساشا.

قالت طفلة حكاية الجنية:

- ونحن نلعب لعبة الكجّة.

سألت فارنكا:

- هذه أول مرة تأتون فيها إلى المسرح؟

- أوه! لا! رأينا «القرصان». وذهبنا مرتين إلى السيرك لنرى المهرّجين. ورأينا كذلك «الناي المسحور» وبعد غد سنخرج مع جدتنا.

أحست فارنكا بالغيظ:

- «الناي المسحور» لابد أن ذلك جميل؟

- أوه! لا! فأنا أفضّل السيرك على كل شيء.

- أتتكلم الفرنسية؟

نعم، نحن نتكلم الفرنسية والألمانية، ونحن نتعلم الإنكليزية.

- وأنتم، ما أسماؤكم؟

أصبح المتجوّلون أندر في الأروقة. عادت الأم إلى مقصورتها. واستُؤْنفت الموسيقا مرة أخرى بيد أن الأطفال استمروا في حديثهم.

قالت المربية:

- حسناً! لقد تعارفتم؟ فلنعدْ إلى المقصورة الآن.

قال الضابط مبتسماً:

- تبادلوا تحيات الوداع، والقبل.

تعانق الأولاد. فارنكا وحدها لم يسمح لها الوقتُ بعناق بطل حكاية الجنية الفتي، وأحزنها ذلك كثيراً، في أثناء الفصل الثاني لم يكف الأولاد في المقصورتين عن تبادل النظرات وإشارتا الصداقة، بدلاً من أن يهتموا بما يجري على المسرح. كانت المربية تنبِّههم بلا انقطاع لأنهم دعكوا ثيابهم.

لشدّ ما ضايقهم ذلك، فأخذوا يقولون:

- لكن ماذا يضيرنا من ذلك بما أننا قد وصلنا الآن.

التقى الأطفال في الاستراحة الثانية، وتجوّلوا معاً يداً بيد، وهم يروون قصصهم الصغيرة. اشترى الضابط لهم عنباً فأكلوه بنهمٍ ملوّثين قفازاتهم.

سألت فارنكا:

- متى سنلتقي؟

أجاب ساشا:

- ربما التقينا في المسرح.

- ألا تستطيعان المجيء إلى بيتنا؟

- بلى، لكن إذا سمحت ماما بذلك فقط، وعندما نكبر سنفعل ما يسرّنا، وسنذهب إليكم كلما أردنا.

- الأفضل أن تأتوا إلى بيتنا، عندنا صالةٌ كبيرة للألعاب.

- تعرفون، دلّني واحدٌ أعرفُه على سرٍّ لأُصبح كبيراً، لكني لم أجرّبْه بعد، يكفي أن ننتزع شعرةَ ونثبتها حول عنقنا قبل النوم.

فإذا ظلت الشعرةُ في مكانها إلى اليوم التالي كبرْنا.

كان الصغار مرحين، مرحين على نحو لم يعرفوه من قبل.

صاح الصبي الصغير وهو ينصرف:

- سنظل أصدقاء دائماً؟

قال نيكولنكا الشيءَ نفسه للطفلة الجميلة، ورددت ليزانكا كالآخرين هذه الكلمات.

قال ساشا منُهياً كلامه، وقد بلغ الفرحُ غايته:

- سنكون جميعاً أصدقاء، جميعاً.

بعد المسرح، جاء العم لتناول الشاي مع ماما، فقصّ الأولاُد على المربّية ما رأوا، لكنهم تكلّموا بخاصة على الولدين اللذين التقوهما. كانت أمهم متعبة. لقد أضجرها المسرح.

سأل العمُ ليزانكا:

- كان الوالدان لطيفين إذن؟

أجابت:

- لطيفين جداً.

- صرنا أصدقاء حميمين!

- وهل أعجبتهما أنتِ؟

- نعم... أظن ذلك.

- وهل يمكن أن نُعجب بدون أسنان.

فأدركت فارنكا:

- تماما، يمكن أن نُحَبَّ بدون أسنان.

قالت المربّية:

- لقد تحابّوا فيما بينهم.

قالت فارنكا، وهي مفعمة بالارتباك:

- نعم، أنا مُحبّة!

قالت الأم:

- حسناً، يا كنزي، تريدين الزواج منه إذن؟

دهشت فارنكا لهذه التسمية المحبّبة. فقالت:

- نعم، أود ذلك.

قالت ليزانكا:

- تستطيعين ذلك، عندما تصبحين كبيرة، أما الآن فذلك مستحيل.

- أعلم جيداً أن ذلك مستحيل.

- حان الوقت للذهاب إلى النوم، يا أولادي!

رسم الثلاثة علامة الصليب، وباركتهم أمُهم. وبعد أن قبّل الأولاد كلَّ مَنْ في الغرفة صعدوا ليناموا.

لم يكفّوا عن الكلام على ولديْ حكاية الجنية، وهم يخلعون ملابسهم، بل وأثناء الصلاة. وتعبت المربية كثيراً في إسكاتهم. كانوا يتخاطبون بلا انقطاع من سرير إلى آخر. وأخيرا صمتوا.

قصرت المربّيةُ ضوءَ القنديل وخرجت من الغرفة.

نادت فارنكا، في الظلمة:

- نيكولنكا!

جلست وقد أزاحت الغطاء وانزلق قميصُها عن كتفها.

جثا نيكولنكا على سريره.

- أود لو أرى ساشا في الحلم.

أجاب نيكولنكا:

- وأنا أود لو أرى ماشا

وصاحت ليزانكا:

- وأنا، الاثنين كليهما.

قالت المربية خلف الباب

- انتظروا، سأخبر الماما!

صمت الأولاد.

قالت فارنكا لوسادتها:

- إنه أجمل الجميع، الجميع!

وتراءى لها ساشا بشعره الأسود الجعد وببسمته الرائعة.

- آه! لو كنتُ كبيرةً لتزوجتُه على الفور، حتماً!

وعادت إلى ذاكرتها قصةُ الشعرة. اتكأت على مرفقها وأخذت تشد شعرها، ولكنها انتزعت شعراً كيثراً فتأذّتْ وأرسلت صرخةً.

همس نيكولنكا:

- ما بك، فارنكا؟

قالت:

- لا أهمية لذلك. طابت ليلتكَ.

- طابت ليلتكِ!

بيد أن شعرتين ظلتا بين أصابعها. اختارت أطولهما وحاولت أن تلفّها حول عنقها، لكنها كانت أقصر من أن تلفّ عليها. فربطت شعرتين معاً، وأعادت العملية، وأراحت رأسها على وسادتها.

وفكرت وهي مرتعبة:

- وليزانكا، ونيكولنكا... سيظلان صغيرين؟ لا أهمية لذلك سأفعل لهما الشيء نفسه. سنأخذ ساشا معنا وسنعيش معاً. عند هذه الفكرة أغفتْ بغتةً.

وفجأة، أحسّت فارنكا أنها تتمدّد وتطول وأنها لا تجد في السرير مكاناً كافياً لها. وكان نيكولنكا وليزانكا ما يزالان نائمين. استيقظتْ ونظرت حولها، ونظرت إلى نفسها: لقد كبرتْ.

نهضت برفق، وخرجت إلى درج المدخل، وركضت رأساً إلى المنزل الذي يسكنه ساشا. كان ساشا ما يزال نائماً. دنتْ من سريره. ورأت على عنقه شعرةً معقودة لا تكاد تثبت، وهي على وشك السقوط فأعادتها إلى مكانها، بعناية فائقة. وفجأة أخذ ساشا يتمدّد ويكبر ويكبر إلى حد أن سريره قد طقَّ. ضخمت ذراعاه وساقاه، وطلع له شاربان. فتح ساشا عينيه ونظر إلى فارنكا. قال وهو يتمطى:

- هذه مفاجأة.

أحست فارنكا بغته بالضيق وانتابها الخوف، كانت نظرة ساشا وابتسامته غريبتين جداً! أظلمت عيناها وأرسلت صرخة وانقلبت على قفاها.

عاد كل شيء إلى الهدوء، شيئاً فشيئاً. فتحت عينيها ورأت سريرها الصغير، والقنديل، والمربيةَ العجوز، وعلى رأسها منديلٌ معصوب، وقد انحنت عليها وهي ترسم علامة الصليب.

نزعت فارنكا الشعرة من عنقها واستدارت وعادت إلى النوم.

***

كيف يموت الجنود الروس

١٨٥٣ [١]

مكتبة
t.me/t_pdf

قضيتُ بضعة أيام في حصن تشاغيري، هو من أروع الأمكنة وأكثرها وعورةً في القوقاز. وغداة وصولي كنتُ جالساً على مقعد بصحبة صديق لي نزلتُ عنده، أمام البيت الذي يسكنه. كنا ننظر إلى حلول الظلام، ونحن ننتظر الشاي. اقترب منّا النقيبُ «س»، أحد أخلص أصدقائنا.

كنا في الصيف. وقد تدنّت الحرارةُ قليلاً، أخذت سحبٌ بيضٌ تركض وهي تتمزق على الأفق. وبانت بوضوح أكبر، خطوطُ الجبال وبرزت بروزاً غير معتاد، وكان السنونو يطير مسرعاً ثملاً. وجمدتْ أمامنا كرزتان وبعض نباتات عبّاد الشمس جموداً تاماً، ملقيةً على الطريق ظلاً متطاولاً أبداً، كانت هذه الحديقة الصغيرة يخيّم عليها الهدوء.

وفجأة دوّى في الفضاء انفجارُ مدفع بعيد. فسألتُ:

– ماهذا؟

---

١ – كان عنوان هذه القصة في الأصل «النفير».

أجاب صديقي:

- لا أدري. كأن ذلك آتٍ من الحصن. أهو النفير؟

مرّ قوزاقي في شارع، وقد أرخى العنان لفرسه. وعبر الطريقَ جنديٌ وهو يركض، وجزمتُه الضخمةُ تقرع الأرض. وفي البيت دنونا من السياج وسألنا الجنديّ الوصيف الذي كان يركض في الشارع وهو يحك ظهره، وقد ارتدى بنطالاً مخطّطاً، معلّقاً بزرٍ واحد:

- ما الذي يجري؟

فصرخ دون أن يتوقّف:

- النفير، وأنا أبحث عن ضابطي.

تناول النقيبُ قبعةَ الفرو واندفع إلى المنزل وهو يزرّر بزتّه. كانت نوبةُ حرس سرّيته حينئذ.

وانطلقت من الحصن طلقةٌ ثانية ثم ثالثة.

قال صديقي:

- تعال نتفرّج من قمة الهضبة. أظن ذلك آتياً من جهة مورد الماء.

وقال للوصيف:

- لا تُطفئ السماور. سنعود على الفور.

كانت الشوارع ملأى بالراكضين: قوزاقي، وضابط على جواده، وجندي بإحدى يديه بندقية، وبالأخرى سترته، وفي النوافذ وأمام مداخل البيوت، أظهرت النساءُ وجوهاً مرتعبة، كان الاضطرابُ عاماً، وارتفع صوتٌ لاهث:

– من أين النفير، يا رفاق؟

أجاب صوتٌ آخر:

– من الجهة الأخرى من الجسر! اللصوص يسرقون خيولَ المدفعية

– إنها عصابة من النهّابين، وهم كثرة بحيث يُرعبون، يارفيق. وتشكّت امرأةٌ بصوتٍ باكٍ:

– يا إلهي، ماذا سيحلّ بنا إن دخلوا الحصن.

وتهكّم جنديٌ شاب ببنطال الخيّالة، وعلى أذنيه قبّعة الفرد:

– قولي لي يا خالة، هل خطر لكِ أنك قد تصبحين أمرأة «شامل»[٢]؟

ماكدنا نصل إلى قمة الهضبة حتى لحقت بنا سريّةُ الحرس، وهي تنحدر على السفح، والأكياس على الظهور والبنادق في الأيدي، وكان النقيب س يسبقها على جواده.

هتف به صديقُه:

– اهززْهم بقوة

لكن «س» لم يلتفت إليه. كانت نظرته المستقصية تفتّش الأفق البعيد، وكانت عيناه تومضان. وفي مؤخرة السرية، كان يسير الممرضُ، ومعه صرّةُ التمريض، وخلفه الذين ينقلون الجرحى. فهمتُ حينئذ تعبير وجه القائد. كان رجلاً يواجه الموت ببسالة، وما أجمل هذا! كان ها هنا مئات مستعدون لمجابهة الموت بلا وجل في أية ساعة

---

٢ – شامل: زعيم الجبليين المشهور.

وفي أية دقيقة، وفوق ذلك لقد زحفوا إلى لقائه، بدون تبجّح ولا صلف، بأقصى الهدوء والبساطة.

وصلت السريةُ إلى منتصف السفح عندما اقترب من الذروة جندي وجههُ ملوّحٌ يعلوه شعر كثٌّ أصهب، وفي أذنه حلقٌ كبير، وقد ضاق نَفَسه. كان يمسك بيد بندقية وبيده الأخرى جرابه. كاد يصل إلى سويتنا لولا أن زلّت قدمُه ووقع.

سُمع انفجارُ الضحك في الجمهور.

قهقه الجندي المتهكّم الذي يرتدي بنطال الخيّالة:

– انتبهْ، يا انتونيتش! إنه لفأل سيءٌ أن يقع المرءُ.

توقف الجنديُ فجأة واتخّذ وجهُه ذو التقاطيع المشدودة والمهمومة تعبيراً قاسياً عن أشدّ احتقار. وقال باستعلاء:

– يا إلهي، ما أغباك! أنت في الحقيقة مخبولٌ تماماً.

وأخذ يركض ليُدرك سريته.

كان المساءُ صافياً وساكناً. وتغشّت قمم الجبال بالغيوم كالعادة، لكن السماء كانت صافيةً، وفي الأعالي كان نسران أسودان يرسمان دوائر منتظمة. وعلى الضفة الأخرى من شريط النهر الفضي، ارتسم بوضوح البناءُ القرميدي للحصن المنفرد، وهو نقطة الإستناد الوحيدة لنا في تشيتشينا العليا.[٣] وغير بعيد من الحصن، كان يُشاهَد جمهورٌ من أبناء البلاد، من التشيتشين، يصعدون حافة الطريق الشديدة

---

٣ – تشيتشينيا: منطقة الشمال الشرقي من القوقاز يسكنها التشيشين.

التحدّر، وهم يسوقون أمامهم الخيول المنهوبة، ويتبادلون إطلاق النار مع جنود الحصن الذين يدافعون عن الموقع.

عندما اجتازت السريةُ الجسر، كان الناهبون قد أصبحوا بمنأى عن الإصابة. ومع ذلك، فمن حظّ جماعتنا علا دخانٌ طفيف، وتبعه آخر، ثم ثالث، وفجأة فرقع على طول جبهة السرية رميٌ متواصل.

وكان صدى الانفجارات يبلغ آذاننا بعد نحو خمسين ثانية مثيراً حماسة عامة بين جمهور المشاهدين. وكنا نسمع بين الضحكات والتصفيق:

– ها هم أولاء! انتهى الأمر، لقد فرّوا!

قال ذو بنطال الخيّالة الذي كان يجذب الانتباه دائما بأجوبته الحاضرة:

– من المحزن ألا نستطيع قطع خطّ الجبل عليهم ومنعهم من الهرب.

والواقع أن هؤلاء النهابين قد أسرعوا في الهرب وأخذوا يخبّون نحو الجبل. ولم يتخلّف سوى بعض منهم كانوا يتحدّون الرصاص ويردّون على نار جنودنا. وكان أحدُهم، على الخصوص، ممتطياً جواداً أبيض، مرتدياً ثياباً شركسية طويلة سوداء يُلعب جواده ويرقّصه. كان في الحقيقة مُكرباً أن نراه يهزأ من الطلقات المتواصلة، كان يروح ويغدو في وثبات قصيرة على مرأى من السرّية. وفي بعض الأحيان كان يُشاهد دخان مائلٌ إلى الزرقة وكانت قرقعة جافة لبندقيته تصل إلينا. وبعد كل طلقة، كان يَحْرف جواده جانباً، ثم يقف من جديد. كان الناس يقولون، من حولنا:

– لقد أطلق أيضاً طلقةً أخرى، القذرُ.

وأكد المتهكّم:

- إنه لا يخاف، هذا الحيوانُ، لابدّ أنه يحمل طلسماً.

- انتهى الأمر، لقد أُصيب.

وارتفعت هتافاتٌ فرحةٌ

- أقسم لكم أنه أصيب! نال ما استحقه! لم نسترد خيولنا، لكننا قتلنا أحد هؤلاء القذرين! لن ترينا مكركَ بعد الآن، يا صديقي!.

شوهد بوضوح اضطرابٌ في صفوف التشيتشين. فكأنهم توقّفوا فجأة ليلمّوا جريحاً، بينما كان جواد بلا فارس آخذاً بالهرب. بلغت حماسةُ الجمهور ذروتها، وأخذوا يهلّلون بجنون. اختفى الجبليّون كليّاً خلف المضيق الجبلي. وتوقفت السريةُ عن إطلاق النار.

قال صديقي:

انتهى المشهد، هيّا نشرب شاينا

في هذه اللحظة، قال محاسب التجهيزات القديم، ويدُه على واقية الخوذة:

- هيه، يا أصحاب! ربما أصيب أحدُ رجالنا. نعم، إنهم يحملون رجلاً.

قررنا أن ننتظر عودةَ المقاتلين.

كان النقيب يسير في المقدمة، تتبعه جوقةٌ تعزف لحناً من أكثر ألحان السير القوقازية مرحاً وسحراً. كانت وجوه الجنود والضابط مشربةً بالكرامة والكبرياء.

قال «س» وهو يدنو منا:

- أمعكم سيجارة تقدّمونها لي. بي شهوةٌ عارمة إلى التدخين.

سألنا:

ما الأمر؟

أجاب وهو يشعل سيجارته:

- لعنهم الله هم وخيولهم! لقد جرحوا «بوندارتشوك».

- وأيّهم بوندارتشوك؟

ذاك الذي أرسلته ليصلح سرجك!

- آه! نعم، عرفتُ، الأشقر!

- كان جندياً طيباً جداً! كان يدرّب السرية كلها.

- وهل جرحه خطر؟

قال وهو يشير بيده إلى بطنه إشارة عريضة:

- اخترِق هذا كله.

وفي اللحظة ذاتها، ظهرت، في المؤخرة، جماعةٌ من الجنود يحملون الجريح على نقّالة.

قال أحدهم:

- أمسك قليلاً بطرف النقّالة، يا فيليبتش، سأذهب لأشرب قدحاً.

وطلب الجريحُ أن يشر. توقّف حاملو النقّالة، لم يكن يُرى من الجريح سوى ركبتين مطويتين وجبهة شاحبةً تحت قبعة عتيقة.

أخذت امرأتان تطلقان فجأةً، والله أعلُم لَمَ، صرخات ممزّقة، اختلطت بها تمتمات الشفقة: كل ذلك أُضيف إلى تأوهات الجريح، وأحدث انطباعاً يفيض بالغم.

قال جندِيُنا ذو بنطال الخيّالة مع اصطفاقة من لسانه:

- هذه هي حياتنا!

اقتربنا لنرى الجريح. كان الجنديّ ذا الشعر المائل إلى الحمرة وذا الحلَق الذي تعثّر وهو يحاول إدراك سريته، بدا لنا وأنه كبر عدة سنوات. كان في تعبير عينيه وفي ثنية شفتيه شيءٌ جديد وخاص. إن فكرة الاقتراب من الموت تركت على هذا الوجه البسيط، وطبعت تقاطيعه بطابع الجمال النبيل والهادئ.

- كيف تحسّ نفسك؟

قال وهو يُدير إلينا عينيه المتسعتين واللامعتين مع ذلك:

- بحالة سيئة، سيدي النقيب

- ستشفى، بمعونة الله.

همس وهو يغمض عينيه:

- لا بدّ أن يموت الإنسانُ ذات يوم

استأنف حاملو النقّالة سيرهم، لكن المحتضر كان ما يزال يريد أن يقول شيئاً، دنونا منه، قال:

- سيدي النقيب، اشتريتُ الركابين، وهما تحت فراشي. لم يبق شيءٌ من مالك...

في اليوم التالي، مررنا بالمشفى لنستخبر عن الجريح.

- أين جنديُ السرية الثامنة.

استفسر جنديٌ هزيل، ممتقع الوجه، ويده معلّقة بضماد:

- أيّهم، سيدي النقيب؟

قال صوت ضعيف آتٍ من أعماق الصالة:

- أنتما تستخبران، من غير شك، عن الجندي الذي حُمِلَ أمس مساءً، بعد النفير؟ لقد أخذوه.

- هل قال شيئاً قبل أن يموت؟

أجاب الصوتُ نفسه:

- لا، لكنه كان يتنفّس بصعوبة. أناموه قرب سريري وكانت رائحته كريهة. كانت لا تُطاق، يا صاحب السيادة.

عظيمٌ قدرُ الشعب السلافي. وليس عبثاً أنه أُوتي تلك القوة النفسية الصافية، وتلك البساطة العظيمة، وهذه القدرة اللاواعية!...

***

الحَجَلة

١٨٥٠

ما أجمل الدنيا! وما ألذّ الحياة! والناس العاجزون عن تقدير كل ما بين أيديهم، لا يحسنون إلا أن يكونوا شريرين!

هذه الفكرة التي أتتني من أعماق كياني، لم تكن جديدة، من غير شك، لكنها استيقظت فيّ بفعل الطبيعة المحيطة، ولا سّيما بفعل غناء الحجلة الواضح واللامبالي الذي كان ينبعث من مكان ما بين العشب العالي.

«إنها لا تعلم، بكل تأكيد، على أي أرض تغني، (بل لاشك أن أفكارها بعيدة جدا عن ذلك) - لا تعلم إن كانت تغنّي على الأرض الروسية أو على أرض الجبليين العصاة. لا يمكنها أن تدرك أن الأرض يملكها الجميعُ وكل أحد، إنها تتصّور، بسذاجتها، أن الأرض واحدة للجميع، لقد بلغت هذا المكان بعد أن وهبت نفسها للحب والغناء، لقد بنت على هواها بيتها الصغير الأخضر، وهي تبحث عن طعامها في كل مكان وتستريح حيثما رحّب بها العشبُ والهواء والسماء، ها هنا وضعت صغارها وها هنا تربّي هؤلاء الصغار.

ليس لديها فكرةٌ عمّا هو القانون، الطاعة، والسلطة، إنها لا تعرف

سوى سلطة واحدة: سلطة الطبيعة، وهي تخضع لها بتواضع، بل بدون أن تدرك ذلك، ليس لها ما تشتهيه، ولا ما تخافه...

«لكن مهلاً، يا صغيرة! هل تنسين اللحظات التي ترفعين فيها إلى السماء برعبٍ عينيك الصغيرتين الحمراوين، وأنت مختبئة في العشب العالي؟ حيثُ تتابعين، وأنتِ ترتعشين، الصقر الذي يرصدك، وهو مختبئ في السحب العالية؟ أترين عمّا تبحث عيناه النهمتان، في الموضعِ ذاته الذي تجثمين فيه، ناشرة بالغريزة جناحيك، محاولةً، بلا جدوى مع الأسف، أن تحجبي عن عينيه صغارك برؤوسها الضخمة التي ما تزال عارية...؟ أنتِ ترتجفين، أنت خائفة!».

مَنْ ذا الذي هو، وا أسفاه، بمأمنٍ من الظلم.

***

الـواحـة

١٨٥٠ – ١٨٦٠

قلتُ لعمي، بعد سفر آنا فاسيلييفنا كورتشاغين التي فرضت علينا حضورها عشر ساعات، مع ابنتيها الصَموتتين وزوجها الذي لا يُطاق:

– هل عرفتَها قبل زواجها؟

لقد أفسدتْ هذه الزيارةُ الطويلة أحد أجمل أيام الصيف وأرهقتنا إرهاقاً، وبعد أن ودعتهُم إلى عتبة الباب، عدتُ إلى عمي على السطح. وجدتُه ينظر إلى بعيد، متأملاً الأوراق القاتمة لزيزفون الممر ذي الأغصان المغطّاة بالزهور. كانت يده تمسك بسيجار منطفئ، وكان على وجهه تعبيرٌ متفكرٌ ومتحنّن.

بينما كان يسترجع مع آنا فاسيلييفا ذكرى نزهة في ملكيته بقازان، دفعني الضياءُ الذي طاف بنظرته والمفعم بالحنان والحب، وكذلك الابتسامة المرتسمة تحت شاربيه الرماديين، إلى تصوّر أن بينهما علاقة لم يَرْق إليها الشك. لكنْ كان من الصعب الاعتقاد بأن المسألة مسألة حب بين عمي الذي كانت مشاغله الوحيدة هي السياسة والخرائط والخدمة، وبين هذه المرأة العاميّة والكريهة، ذات الشعر المدهون، والمشبعة باللياقة.

سألني عمي وهو يبتسم بكآبة:

- لِمَ هذا السؤال؟

- أوه، لا شيء! لا قيمة لذلك

لعلك تظن أنها كانت هكذا دائماً؟ كانت، على العكس، فاتنةً. ولا أعتقد أنني أحببت امرأةً قط بمثل هذا الحب الرقيق.

فهتفت مذهولاً إلى حد أنه لم يتمالك نفسه من الضحك:

- ماذا تقول؟ هذا غير ممكن!

- أتظن أن الحب وَقْفٌ عليك؟

- كلا، بدون شك.

- وإذن! هذا صحيح! في جميع الحيوات، ولاسيّما في صحراء حياةٍ كحياتي، واحاتٌ. وكانت تلك المرأة أجمل الواحات.

نبرةُ صوته أقنعتني بما يقول. فتعاطفتُ معه من كل قلبي، دون أن أدهش لذلك. لكني لم أستطيع، في قرارة نفسي، أن آلف هذه الفكرة.

رماني بنظرة طويلة.

أروِ لي ذلك، يا عمي!

- حسنا! نعم، إذا شئتَ. لكنْ قلْ لي هل رأيتَ صورتي التي عند أبيك؟

- بالتأكيد، راهنتُ ذات يوم أن الصورة ليست صورتك، أذكرُ ذلك.

- لكن يجب أن تعلم أن تلك السترة الرسمية كانت زيًا شائعاً آنذاك! أعطني زنارك!

قلت وأنا أنزعه:

- إنه واسعٌ جداً عليّ.

لفّه حول خصره لكن طرفيه لم يكادا يصلان إلى جانبي بطنه.

- كان ذلك قياسي، وكل هذا لم يكن موجودا.

قال ذلك وهو يرفع بيديه الجميلتين الملوحتين عارضيه الطويلين الأبيضين.

- بالاختصار، كنت شخصاً آخر، أليس كذلك يا عمي، ولا شك أنك كنتَ أقل حسناً بألف مرة!

- هذا ممكن جداً، لكني كنتُ مع ذلك، أنا بعيني. كنتُ ما أزال في الجامعة...

- آه! لا! اروِ لي كلَّ شيء، بكل التفاصيل لكي أتمكن من الفهم. لا أستطيع أن أفهم كيف أمكن أن تقع في الغرام.

- ليكنْ...

كان عمري إذ ذاك ستة عشر عاماً. وكنتُ قد تسجَّلتُ في الجامعة. وبعد عملٍ شاق استغرقني - وهو عملٌ غير معقول تماماً لشاب في سني تغليَ الحياةُ فيه، لكنه واأسفاه، عملٌ ضروري من أجل الاستعداد للامتحان - جئتُ لأقضي بعض الوقت عند عمي، في الريف، ولطالما استرجعتُ ذكرى هذا الريف الذي كبرتُ وحلمتُ فيه، وأنا أذرع

رصيف الشوارع الصاخبة، المغبّرة، التي سخنتها شمسُ تموز، على طول الشوارع التي يحفّ بها الزيزفون الهزيل. ففي هذا الريف قررّتُ أن أفوز بجميع الشهادات الجامعية التي ستمنحني، ركوب الحصان حين أشتهي ذلك، السباحة، الصيد، البقاء ممدَّداً على مرج الحديقة، والكتابُ بيدي - وبكلمة واحدة، فعل كل ما أبتغيه. كانت هذه السعادة تبدو لي عظيمة جداً بحيث لم أكد أصدق أنها تتحقق وبحيث خُيّل إلي أنه يجب استبعاد هذه الأحلام والتفكير فقط في الاستعداد للامتحان.

جرتْ الامتحاناتُ بكل مفاجآتها التي سرعان ما نسيتُها وإن كانت مخيفةً. حصلتُ على المعدّل الوسطي في اللاتينية. ارتديتُ اللباس الجامعي لأخلعه بعد قليل، وبعد أن استأذنتُ أستاذي الذي كنتُ أسكن عنده، قصدتُ بيتَ عمي لأول مرة في حياتي.

أدركتُ بسرعة أن آمالي كانت أكبر مما ينبغي. كلُ ما كنتُ أتوقّعه كان موجوداً هنا، لكنني كنت أرجو، وأنا في المدينة، أن أحصل على حظ أكبر من المتع في الريف.

إن عمي، وهو جنديٌ قديم في خيّالة الحرس، وطالبٌ قديم عند اليسوعيين[1]، كان شيخاً خفيف الروح، مرهف الذوق. كان في تلك الفترة يناهز الخمسين. استقبلني بمودّة وأعطاني غرفة في الملحقات. كان رجلاً حاسماً للمظاهر الخارجية، وللنظافة ولأناقة الملابس وللباقة ولحسن التصرف وللحديث، ولقد بذلت وسعي، بما كان فيّ من الإستعدادات الخاصة بالشبان لسهولة التكيف مع وجهات

---

١ - لليسوعيين: كان اليسوعيون يتعهدون في روسيا بعض المدارس لأولاد الطبقة الراقية، في عهد الإسكندر الأول.

نظر الآخرين، في أن أفعل كل ما يسرّه وأن أجعله راضياً كل الرضا عن شخصي. كنتُ ألقاه هو وزوجته، في ساعات الطعام، وأتريّث أحياناً في الحديث معهما، وأحسستُ فجأةً، اغتراراً مني بالعناية التي توجهّا بها إليّ، بأن لي أهمية الشخص الكبير. وكنتُ أصغي إلى قصص عمي، وكنتُ أحب أن أسمعه يعزف الموسيقا ويناقش فيها. وبين الحين والآخر، كنتُ أجازف فأبدي آرائي الخاصة التي كان يحملها على محمل الجد. وكان يقع له أن يردّ لي الزيارة في غرفتي، وكان يُثني علي للترتيب والعناية اللذين أحيط بهما تلك الغرفة.

كان تنظيم حياتي يسرني أبعد السرور، كانت هذه أول مرة أعيش فيها على هواي، مستقلا كل الاستقلال، إن صح التعبير.

في الصباح، كنتُ أنهض باكراً، وأستحمّ، وأغير ثيابي، بينما ينظّف الخادم غرفتي كليّا.(كنتُ، في هذه الحقبة، متشدداً جداً بشأن النظافة.) وكنتُ انتهي بأن أرتّب تحفي وأشيائي الشخصية، ثم أتناول فطوري أمام النافذة، والكتاب بين يديّ. كنتُ أقرأ كتباً فلسفية. وفي الأيام الأولى، شُغفتُ بها شغفاً عظيماً، لكنني ما لبثت أن تركتُ الكتب لأنظر من النافذة إلى الصنوبر وإلى أشجار البتولة التي كان يعيش فيها دبُّ عمي. وكان جمالُ هذه الأشجار، ونداوة العشب، وتراقص النور والظل، وطيران الحشرات، والكلب المتكوّر، كان كل ذلك يُحدث فيّ انفعالاً بلغ من شدتّه أنني اضطررتُ للاعتراف أمام نفسي بأن ذلك لم يكن كل شيء وأنني لابدّ لي من شيء آخر.

تصورتُ حياة عمي إبّان شبابه وحاولتُ أن أتخيّل الحياة التي سأحياها فيما بعد. وكان ينسل إلى قلبي قلقٌ عما أستطيع فعله لكي لا أضيع هذا الوقت الثمين، لأستمتع به بقوة، بأقصى ما يمكن من القوة.

الدب؟ الصيد؟

وهو كذلك، الصيد. صادقتُ البستانيّ سيميون. كنا ننهض قبل الفجر لنمضي إلى الصيد.

كان كل شيء رائعاً: طلوع الصبح، الندى الذي كان يبلّل أقدامنا، ظل الغابة العميقة والاستحمام في البحيرة. نعم، كان كل ذلك بديعاً، مع أن الزمن لم يكن زمن الصيد و لم يكن هناك طريدة لكن هذه النزهات كانت توقظ فيّ رغبات لا تني تتعاظم وتشتد «فينمور كوبر»[٢] قصاص الأثر، غابات أميركا العذراء، مكان المآثر العظيمة... وما قيمة كل ما كان يحيط بي في مقابل ذلك؟ شعرتُ من جراء ذلك بالغيظ وبحزن لا يُقهر. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى صيد السمك وركوب الخيل والموسيقا التي كنت قد عدتُ إليها، وزيارات الجيران التي كان عمي يأخذني إليها، كنتُ أبدأ كلَّ شيء بحماسة، وسرعان ما أشمئز منه، ثم أنتهي بتركه. كنتُ حراً، شاباً في صحة جيدة، كنتُ سعيداً... كان ذلك جديراً بأن يُسمّى سعادة. لكن القلق كان يكبرُ في نفسي، وهو قلق شاعري ابتعثه الفراغُ والانتظار اللامجدي لسعادة عظيمة لم تكن لتأتي...

سأل عمي امرأته وهو عائد من الكنيسة في عيد الثالوث:

– لماذا كانت آليونا سيلوفنا لطيفةً جداً اليوم؟ عَرَضتْ علي أن تزورنا اليوم مع ابنتها.

وسألني:

---

٢ – فينيموركوبر: روائي أمريكي (١٧٩٩ – ١٨٥١) مؤلف «قصاص الأثر" وروايات مغامرات أخرى.

- هل لمحتَ ابنتَها؟ جاءت من معهد «سمولني»[٣]. إنها لطيفة. أليس كذلك؟

خجلتُ، مثل كل مرة يجري فيها الحديثُ عن النساء بحضوري، لم أعلم عنهن شيئاً سوى أنهن خطيرات، وكنتُ أخافهن.

أجبتُ بصراحة.

- نعم بالفعل

أثناء الصلاة، شعرتُ عدة مرات بقلبي يخفق خفقات متسارعة، وبنَفَسي يضيق، ففي كل مرة التفتُّ فيها إلى الخلف، لقيتني نظرةُ الفتاة آليونا سيلوفنا. أكانت جميلة أم بشعة؟ لم يكن بوسعي أن أقرّر ذلك، لأن وجهها بدا لي مكلّلاً بهالة من السعادة التي لم أعهدها. لم أكن أستطيع أن أصدّق أنها إنما كانت تنظر هكذا إلي. لعلي كنتُ في محور نظراتها لا غير. لقد احتفظتُ بذكرى شيء خفيف، هوائي، كانت نظرةً رقيقة وملاطفةً من عينين مغمضتين نصف إغماضة، ومن حول هذه النظرة هالةٌ من الشَعْر وبياض العنق الباهر...

- نعم، بالفعل.

- لا شك أنها ظهرت جدّ لطيفة، على شرفك. غازِلْها، سيشغلكَ هذا.

غضبت عمتي:

- أوه! فلاديمير، لكنها مخطوبة.

---

٣ - معهد سمولني: مدرسة داخلية أرستقراطية في بطرسبرج.

- أوه! لن يخطفها! ومَنْ خطيبُها؟

- ابن إيفان فيدوروفيتش.

- مهندس الطرق الحديدية؟ إذنْ، حاول اختطافها، وأنا آذَنُ لك بذلك.

انتهت المحادثةُ عند هذه الكلمات التي كانت أبعد من أن تسرّني. كيف يجوز لعمي أن يمزح في موضوع بمثل هذه الأهمية؟ كنتُ أعلم أن جميع الرجال، حتى وهم ما يزالون فتياناً، يستطيعون أن يصبحوا عاشقين ومعشوقين. لكني لم أكن أجرؤ على الاعتقاد بأنني يمكن أن أغدو معشوقاً ذات يوم. وعندما أغرمت لأول مرة في حياتي، بزينا كوبيليوفا، هزئتْ مني بشدة حتى لقد قرّرتُ ألا أحبّ بعد ذلك، لكي لا أعاني العذاب الذي عانيتُه حينئذ. لقد نكأ عمي جرحاً عميقاً حين مزح هكذا. وعلى من تجرّأ أن يتكلم؟ على تلك الرؤيا السماوية التي تجلّت في الكنيسة؟ أنا نفسي كنتُ أتحاشى التفكير فيها، وحين أجبرني على التفكير فيها بكلماته آذاني.

قررتُ أن أذهب ومعي بندقيتي ساعةَ وصولهما. وهكذا ستفهم الفتاةُ السببَ الحقيقي لذهابي ولعل بعض الحزن سيُخامرها.

لكن لم يُسعفني الوقتُ لأنفّذ خطّتي. وإنما ذهبتُ بعد الغذاء لأتنزه مع الكلب «كنز»، وأخذتُ ألعب بالعيدان، وأنا مُمدّدٌ على العشب، مشيّداً أكثر من مشروع، كنتُ أفكّر في الوسيلة التي أستقدم فيها خادماً يستطيع أن يُصغي، في الليل، إلى ألحاني المرتجلة على البيانو - لأنني لم أعزف أمام أحد قط. كنت أصغي إلى هذه الأنغام وأعيّن بيدي اليسرى النغم الموقّع، حين جاء «كنز" فجأة ليلحس وجهي. فأمسكتُ

بقائمتيه الأماميتين وتابعت عزف نغم خيالي بهما، وإذ بعربة تظهر فجأة خلف الأيْكة. كانت هي... ضحكتْ وهي تشير إليّ. وقفتُ ورفعتُ قبّعتي. مرّتْ العربة بجنبي ووجّهت الفتاةُ ابتسامة إلي. كان كلٌ شيء فيها جميلاً، لكني ما كنتُ آمل أن أجد أبداً ابتسامة بمثل هذا السحر والود والرقة، وإن كانت مفعمة بالمكر.

لا! لن أذهب إلى الصيد، وإذا ما جاؤوا يسألون عني فسأرتدي سترتي الرسمية الجديدة وسأنزل إلى الصالون. لن أكفّ عن القول دائماً وفي كل مكان أن الكلاب أذكى بكثير مما نظن.

كنتُ أمشي مفكّراً فيها ومبتسماً الابتسامة نفسها التي ابتسمتها. كان حوذيّهم هنا ينظر إلي. يا له من حوذي رائع! ويالها من عربة! عربة قديمة، بلا شك ومُصلّحةٌ في أكثر من موضع، لكنها حلوةٌ جداً، قريبةٌ إلى القلب جداً، والجياد! ما أجمل أعرافها وكم ضُفرت بعناية! الجواد الأيمن كميتٌ، قائمتاه الأماميتان منحنيتان قليلاً، كان يطرد الذباب هو يهزّ رأسه. من المؤكد أن ليس في العالم سوى شخص واحد يمكنه أن يملك مثل هذه الجياد. كانت جياداً مُثيرةً، كانت تعبّر عن السعادة والفرح، والوعد بالملذات!... حتى في رائحتها كان شيءٌ لذيذ!...

جاء الخادم «بول» مبتسماً ليبلغني أوامر عمي. كان ينبغي علي أن أذهب لأساعده على تسلية هؤلاء السيدات.

كنتُ أسلّمُ بأن بالإمكان تسلية آليونا سيلوفنا، وكذلك الفتاة التي في مواجهتها وهي ابنتها بالمعمودية، أما هي... لا أحد جدير بذلك! لابدّ لها أن تبقى هنا فقط وأن تبتسم أبداً وتلك غايةُ المنى، الدنيا بأسرها ستكون مغمورةً بالنعمة...

شقّ علي كثيراً أن أدخل الصالون... كانت تجلس قرب البيانو. شعرتُ بالضيق الذي يشعر به شحّاذٌ رث الثياب في اللحظة التي يدخل فيها صالة فخمة أضيئت بأبهة وبألف ضوء. كان خجلي قاسياً. كنتُ أتألم لأنه كان عليّ أن أعرضَ في الضوء المنير تفاهتي إزاء إشعاعها. وعزمتُ أخيراً على الدخول. وبعد لأي واتتْني الشجاعةُ لأتقدم نحوها وأشدّ على يدها. لكنني ما إن وقفتُ بجنبها حتى اختفى خجلي، استضاء كل شيء واشتعل: آليونا سيلوفنا، الابنة بالمعمودية، عمتي وعمي خاصة كان هاوياً عظيماً للنساء الجميلات، وكان واضحاً للعيان أنه يغازلها...

***

الحبّ البريء

١٨٦٣

لا تلعب بالنار، وإلاّ احترقت!

من الحياة الريفية

أصبح «بطرس أوستراتييفتش شخصية" كبيرة - العمدة. يسهل القول إنه يدير قريتين، ويأمر كأنه سيّد إقطاعي. أحد أولاده تاجر والآخر موظف، ولقد مَهَر ابنته على ما رُوي خمسة آلاف روبل، وهو يعيش في بحبوحةٍ كأنه سيد عظيم، ويُودِع مالاً كلَّ سنةٍ في موسكو.

أخونا بطرس هذا، من أصل فلاحي، ابن «اوسترات تريغوبوف». بل إنه بحسب بعض الأقَاويل، ليس ابن اوسترات، ودونك ما وقع بالفعل. الحادثة معروفة: يذهب الثورُ ويبقى العجلُ لنا.

من الشائق أن نعلم كيف حدث ذلك الحدث التعليمي المفيد. لقد أظهر الناسُ في تلك الفترة دهشة كبيرة، كان الشعبُ في ذلك الزمان يعيش ببساطة عظيمة، وكانت الحوادث الغريبة من هذا النوع تبدو خارقةً للعادة.

إن الجدة مالانيا، أم بطرس أوستراتيينفش ما تزال حيّة، وهي تعيش عند أخيها «روماشا». وقد دعاها ابنها مراتٍ كي تأتي وتسكن عنده لكنها أبت ذلك.

كانت تقول:

– لقد خُلقتُ وسوف أموت فلاحةً. ففي هذه العيشة التي أعيشها ذنوب أقل. ومادام فيّ شيءٌ من القوة، سأساعد أخي وسأعتني بالمنزل. أما ابني بطرس فقد غدا سيّداً عظيماً، وفي صحبة العظماء الكثيرُ من الخطايا.

هكذا عاشت، ابنُها يرسل إليها وهي تباركه بالرسائل، كان فرحُها الوحيد أن تختمر في أيام الأعياد، بخمارٍ نظيف، وأن ترتدي ثياباً وأن تذهب إلى قُدّاس الصباح متوّكئةً على عصاها وبعد الظهر تطلبُ من أحدهم، ممن يعرف القراءةَ أن يأتي بيتها وأن يقرأ لها ورقةً أهدتها لها قديماً إحدى الراهبات. وفي هذه الورقة كلامٌ على السيّدة العذراء أم الإله. لكن مالانيا كانت تشعر بإيثار خاص للمزامير. كان طيبها لا حدّ له، فهي تؤوي من يسألها ذلك وتسهر على الموتى دون حاجة إلى دعوتها.

وبسبب طيبها، لا لأنها أم بطرس أوستراتييفتش إنما يقدّرها جميع مَنْ في القرية، شيباً وشبّاناً.

– ما أعجب، الشباب! الآن، لا تعترف مالانيا الجدّةُ بمالانيا التي كانت قبل أربعين عاماً، لم تكن تُدعى آنذاك جدّة، لكنها كانت تدعى «مالانكا – دونايكا» فقط، كانت سيّدة الحفلات الراقصة، وكانت أغانيها ورقصاتها تثير إعجابَ الحاضرين، وتخلق المرح في القرية كلها. لم يغتبْها أحدٌ حتى حدثَ ذلك الحدثُ، كانت مرحةً، فرحة،

حازمةً. لم تكن مالا من مواليد قريتنا، كانت من «مايفكا». وقد خطبها والدُ «اوسترت" ربما لأنه كان يعرفها أو ربما لم يكن في قريتنا فتيات أُخر. وكان أهل القرية يعتبرونها غريبة. كان حمَوها فلاحاً مَدنياً، لقد تلقَى لابنه قطعةً من الأرض، كان يعيش في يسر وكان مالكاً لثمانية جياد مع أمهارها، ولبقرتين، ولمناحل (ومايزال بطرس يملكها)، كان سيّده رجلاً طيباً، لم تكن السخرةُ منُهكة، و لم يكن يعاني كثيراً منها. وكانت حماتُها ربّة منزل حقيقية، وكانت تعمل لثلاثة أشخاص، ثم إن أختها التي كان زوجُها جندياً، كانت تسكن معهم وتساعدهم، وهكذا فلم تكن العروسُ تحتاج إلى شيء.

تزوجت مالا في الخامسة عشرة، بحسب التقاليد القديمة. كانت فتاةً حقيقية من جميع وجهات النظر، في بداية زواجها، عندما كانت تحمل دلو الماء بصحبة امرأة الجندي، كانت ليّنة الجسم تنثني مثل النبت المعرّش، لم تكن تشعر بالحب لزوجها لكن بالخوف، وعندما كان يقربها كانت تبكي، وكانت تقرصه، بل وتعضه بحيث أن كتفيه ويديه تغطّت في البداية بالبقع الزرقاء، لم تحبّه طوال عامين. لكنْ بما أنها كانت جميلةً وهادئة ومن أسرة كريمة، لم تكن تُفْرض عليها أعمالٌ متعبة، وشيئاً فشيئاً، وفي مدى ثلاث سنوات أو أربع، أصلحت نفسها وكبرت وتوددّت إلى زوجها وامتلأت وجنتاها وتورّدتا، وغذت أكثر جسارةً، وانتهت بأن تعوّدت حياتها إلى حدٍّ كانت تبكي معه كلما أرسلها حموها إلى المدينة.

ذات يوم زارها بطرس ذلك النذل وقال لها:

– آه! مالانكا كم تبكين بسبب هذا الشيطان المجدور! آه! ما أشدّ حزنك دونه. وأراد أن يلعب معها.

– هذا المجدور خيرٌ منك، مع أنك حسن الثياب. لا تهزأْ منه، وإلا فحذار، ودونكَ ما ينتظرك.

وهدّدته بصفعةٍ.

كلما كانت مالا تحزن، كان الجميع يحاولون مغازلتها. حتى الكبار كانوا يمازحونها، ويضايقونها. لم تكن المرأة الشابةُ لتغضب، على العكس كانت تردّ بابتسامة وتظل على الرغم من كل شيء وفيّةً لزوجها الذي كان غائبا، معظم الوقت.

كانت مالا تعمل بشكل ملحوظ، كانت سبّاقة إلى العمل، سواء أكان ذلك في القطاف أم حصاد الكلأ. كانت تُعب جميع مَنْ يحاولون اللحاق بها، وعلى طريق العودة كانت تغنّي، بل وتقوم ببعض الخطوات الراقصة، على رأس الجماعة.

كانت العجوز تقول لها أحياناً:

– من المؤسف أنك لا تمنحين الحياةَ مولوداً، أتمنى كثيراً أن يكون لي حفيد.

وأنا ألن أكون سعيدة؟ أنا خجلة أمام جميع الناس. انظري إلى هذين الزوجين اللذين تكلّلا في الكنيسة منذ سنتين، صار عندهما أولاد، وهذه هي الحال مع كل النساء اللواتي لا يتركهن أزواجهن.

وكانت مالا تبكي كلما فكّرت في زوجها. ومن الواضح أنه ليس من الخطيئة في شيء بالنسبة إلى امرأة مهجورة أثناء أكثر من سنة أن تُبيح لنفسها بعض الجوازات. ومن الواضح أيضاً إنه إذا كان بمقدور امرأة أن تصبح أماً ثمّ لم تصبح، فإن الناس يأخذون بالهزء منها.

بسبب ذلك كله، كانت مالانكا حزينةً، وكانت تحقد على حميها الذي كان يرسل زوجها إلى المدينة، كان حرفياً قديماً يصنع العجلات، وكان يعرف كثيراً من الأشخاص المرموقين. وقد لمس الفوائد التي يمكن أن يجنبها من إرسال ابنه للعمل في المدينة. وفي هذا الصيف بالذات أراد القدر أن يكون الزوجُ على بعد مائة كيلو متر عن القرية، بينما ناب عنه في البيت أحدُ العمّال. وكان سبب ذلك بسيطاً: كان الإبن بكسب مئة وعشرين روبلاً، في حين لم يكن العامل يكسب سوى اثنين وثلاثين وبعض الأزواج من القفازات التي بلا أصابع، واضحٌ إذن أن الحرفيّ كان يحسن الحساب.

كانت مالا تحزن لأنها بلا زوج. كانت هذه المخلوقةُ الشابة، الشغّيلة، التي هي في أوج نضجها، تعيش عيشة حسنة، وتأكل اللحم. وكان الناسُ جميعاً يغازلونها وزوجها غائب طوال ستة أشهر. كانت مالا تعود من عملها في المساء فتتعشّى وتُعدّ غطاء سريرها، وتذهب إلى غرفة المؤن حيث امرأة الجندي.

كانت تقول وهي تلتصق بالجدار:

– «ناستازيتشكا»، أنا خائفة من الوحدة. يُخيّل إلى أنْ سيأتي أحدٌ ليجرّني من ساقيّ.

– ٢ –

عيد الناسُ عيد بولس وبطرس[١]، وضعت النساء جانباً خُمُرهن الثمينة، وقمصانهن وفساتينهن، وانصرف المدعوون، صاحبُ الحانة

١ – () يقع هذا العيد ف ٢٩ حزيران.

وحده ظلّ في حانته، وضُعت الشباكُ مرة أخرى في المستنقع، وعاد الفلاحون إلى بساطة المأكل والمشرب، وسنُت المناجلُ الكبيرة، وتفرّق الفلاحون في الحقول، مثل النحل خارج المنحلة. كانت الشمس تتألق أبداً فوق المروج والطرقات وحقول القمح. كان الجو بديعاً، وقبل العيد بثلاثة أيام كانت السنابل ثقيلة. كان حصاد الكلأ مرحاً. وكان أمرح من قبل. ونشطتْ النساء، وكن يمضين إلى العمل وهنّ يغنّين، ويَعدن وهن يغنيّن. وكان الناس يشربون الخمر ويلهون بلا توقف، عندما يكون الليل قصيراً.

بعيد عيد « يتخون»[٢]، قصد عمدةُ القرية «ميخييفيتش» منزل مالا. كان شاباً قوياً منُعّماً. وكان يحتذي جزمةً جميلةً.

دخل الكوخ الخشبي، كانت مالانيا وحدها، متجرّدة من أكثر ثيابها، حافية القدمين، كانت في البيت، تُعنى بشؤُونه. وكان حموها في الفناء، يحيط به العمالُ ويُعد العدّة للحراثة. وكانت حماتها تسوق الماشية، أما امرأة الجندي فقد ذهبت إلى المستنقع.

أخذ العمدة يُمهّد لنفسه عند مالانيا. قال لها:

– لن أرسلك إلى العمل.

– العمل؟ أُحب كثيراً أن أذهب إلى السخرة. إنه لشيءٌ أكثر تسليةً أن يكون الإنسان بين الناس. أنا دائماً وحدي في البيت والعجوز يأمرني بالعمل.

قال:

---

٢ – () يقع هذا العيد في ١٣ أب.

- أنا سأشتري لك خماراً.

- سيأتيني زوجي بخمار.

- سأشغّل زوجك في وظيفة مدير أعمال، وسيكون له دخل.

سأدبّر كل شيء.

- لا أريد هذا الدخل. يذهب المرء عارياً إلى هذه الوظيفة ويعود عارياً:

- والنهاية؟ أستطيع أن أُعلل نفسي بالأمل؟ هل ينبغي لي أن أتألم طويلاً أيضاً بسببك؟

نظر حوله كانا وحيدين في الكوخ الخشبي، ودنا منها.

- حذار، ميخيتش، لا تحاول!...

أراد أن يمسك بها، لكنه تلقى بعض صفعات، كانت تضحك.

- ليس ذلك ممكناً الآن، سيعودُ المعلّمُ، فهل هذا حسن

- متى إذن؟ عندما تعودين من العمل؟

- نعم، بلا شك، عندما يذهب الناس، سنتوارى بين الأدغال لكي لا ترانا امرأتك.

كانت تضحك من كل قلبها، وتملأ البيتَ بمرحها.

- وإلا غضبتْ مارفا، السيدةُ زوجة العمدة.

لم يكن العمدة، في آخر الأمر، يعلم إن كانت مالانيا تمزح أو إن كانت جادة فيما تقول.

دخل العجوز ليحتذي حذاءه، لكنها تابعت ضحكها، لم تكن تتحرّج أمام حميها. تظاهر العمدة بأنه إنما جاء للزيارة فقط، كانت النسوة قد جمعن الكلأ وأخذ الفلاحون يحملونه. ذهب من كوخ إلى آخر، وعصاه بيده. كان يُرسل الناس جميعاً إلى السخرة، حتى الذين لا ينبغي لهم أن يذهبوا إليها. وقد عرض عليه بعضُهم خمراً، لكنه لم يسمح لنفسه بالقبول. لكنه ترك مالانكا حرّة بلا سبب، وعُهد إليها بعمل سهل. ومع ذلك فلم تطعه، وقالت وهي تضحك: سوف آتي. لقد كان لها، هذا الصيف، مغامراتٌ أخرى مع رجال آخرين. وكانت تحب أن تردّد:" لم يقع قط مثلُ هذا الصيف. كانت قوية، صحيحة الجسم، مرحةً، لا تعرفُ ما التعب. كانت ترتدي ثياباً خفيفة وتمضي نحو المروج في الساعة التي تعلو فيها الشمس الغابةَ، وكانت تذهب إليها أيضاً، في الظهيرة مع أخت زوجها، وتغني وهي تمشي.

وعلى هذا المنوال، كانت تجتاز مرجاً ذات يوم وكان حصاد الكلأ على أراضي كالينوف وقد طلعت الشمس وكان النهار أحمر، لكن البرد كان ما يزال يسود الغابة، وكانت لآلئ الندى تتألق والعصافير تغرّد، ومالانكا تغنيّ غناءً أقوى من تغريدها. كانت تمضي مغطيةً رأسها بخمار أحمر، ومرتديةً قميصاً مغلقاً، وقدماها الحافيتان تلمعان في صندلٍ معلّق فقط بخيط، وكتفاها ترتجّان. وصلت إلى المرج الذي كان فيه فلاحو السيّد الإقطاعي يحرثون الأرض.

كان الكثير من الفلاحين ونحو عشرين محراثاً في هذا المرج الذي يبلغ عشرة هكتارات. كان غريشكا بولوشين، هذا النذل على طرف الحقل، وعندما رأى مالانيا انثنى ومضى إليها، أراد أن يمزح ويلهو،

توقّف زملاؤه عن العمل ودنوا منها، فابتسمت لكل منهم. وكانوا سيتحدثون حتى الظهيرة لو لم يأتهم مديُر الأعمال على جواده.

– ماذا تفعلون، يـاأولاد الكلب، تتظارفون أمامها؟ تهذرون معاً!...

و اندفع نحوهم، حاثاً حصانه وتطاير التراب تحت حوافره.

آه! كان رجلاً قاسياً!

– انظرْ إلى هذه العصابة من الخاملين، لا يبدؤون بحصاد الكلأ إلا عند الظهر! سوف أُريكم!...

لكنه عندما رأى مالانكا هدأ وابتسم لها:

– سأجعلك تحرثين ما كان سيحرثه هؤلاء الفلاحون

– طيب، أعطني المحراث، وأنا أقبل أن أعمل مكانهم

– لا، لابأس. اذهبي، فهؤلاء نسوةٌ قادمات. آن الأوان لكنّ، أنتنّ الفلاحات، لتبدأن عملكن!

لقد غدا إنسانا آخر.

وصلت المرأةُ الشابة إلى المرج، وأخذ النسوةُ يعملن بحميّة، وفي مقدمتهن مالانكا، ضحك مديرُ الأعمال بينما كانت النسوةً يُرغين ويزبدن لأنهن يمضين بهذه السرعة الشيطانية، لقد أُرهقْن. لكن عندما حان موعدُ الغذاء أرسلن مالانيا إلى مدير الأعمال، وذهبت مباشرة إليه بينما كانت الأخريات يثرثرن. كنّ يتصبّن عرقاً، وقد آن لهن أن يسترحن، أن يتخفّفن من التعب.

حدث لمالانيا ذات يوم، حادثٌ مع مدير الأعمال، كانت أثناء حصاد الكلأ ترتّب الأكداس، كان الجوُّ متقلباً، وكان لابدّ من السرعة للانتهاء من الأكداس قبل الليل. كان الجميع يشتغلون بلا انقطاع. وكان معتمدو السيّد الإقطاعي موجودين، و لم يكن مدير الأعمال يفارقهم؛ حمل إليه طعامه فجلس يأكل تحت أشجار البتولة مع النساء. وعندما انتهى من طعامه، قال:

– حسناً، وأنتِ اشبينة مالانيا (رسما معاً علامة الصليب) ألن تنامي؟

– لا، لماذا أنام

– تعالي إلى هنا، «مالانشكا».

اضطجع بجنبها، فأخذت تضحك، نامت الفلاحات، وألمّ النعاسُ بمالانيا.

ثم نظرت حولها، لقد نام مديرُ الأعمال فلاحظت وجهه الأحمر الملتمع من العرق. وفجأة نهض، وجحظت عيناه الحمراوان... لم يكن جميلاً جداً. قال

– سَحَرْتِني، أيتها المرأة الشيطانية!

كان ضخماً وقوياً، فأمسك بها من خصرها وجذبها نحو الأدغال.

قالت له:

– ماذا أصابك، يا «أندريه إيليتش». هذا غير ممكن الآن، وسيكون ممكناً فيما بعد، اصرفْ أولاً كل هؤلاء الناس وأنا سأبقى.

أقنعتْه، وما إن صُرف الآخرون حتى سبقتهم إلى البيت. وروى صبيٌّ أن أندريه ايليتش ظلّ طويلاً وراء الكدس.

هكذا كان هوى مالانيا الأكبر: تُعلّل الجميع بالآمال ثم تضحك. في يوم القديس بطرس، وصل السيدُ الإقطاعي ذاته ومعه خادمه، وهو حيوان شرير.

وكان نفسه يروي كيف يخدع سيّده ويسرق ماله. على كل حال، لم يكن لذلك قيمةٌ، لكنه عندما كان هذا الخادم يرى النساءَ كان يغدو رهيباً. وكان الفلاحون قد صمَّموا أن يوسعوه ضرباً ذات يوم، وكانوا سينفذون مشروعهم، لولا أنه سافر في الوقت المناسب، بفضل الله. وتصوّرْ أنه مثلهم، أحد أبناء الشعب! لقد أعجبته مالانيا، وكثيراً ما كان يوزّع الروبلات الفضّية، والزرقاء والحمراء.

وكان يقول:

- لا أريد شيئاً بالمقابل، لا أريد شيئاً. ودعا العمدة كأنه كان يريد أن يعقد معه صداقة، كان ذلك في الربيع. وقد بُدئَ بدراسة القمح في وقت متأخر في الظلمة.

قال:

- أنا سأصعد على الكدس، فترسل لي امرأةً، وهنا أمتلكها.

- اتفقنا

وما إن بلغت أعلى الكدس حتى قالت له:

- انتظرْ، ليس ذلك سهلاً.

حفرتْ في القش حفرةً فرمت فيها الخادم، ونزلت هي عن الكدس.

ورفعت السلم ووضعته أمام كدس آخر، ثم استأنفت عملها.

طلعت الشمس. روت القصة فانطلقت الضحكات. وهُرعت النساءُ، فأنزلن جزمته، وملأنها ثم أعدنها له.

لم ييأس، فطلب إلى العمدة أن يرسل إليه مالانيا لتنظيف ممرات الحديقة. وهنا التقت السيّد الإقطاعي ذاته. كان يراها لأول مرة. فأسرت قلبه. والواقع أن مالانيا كانت جميلة.

روت المرأة الجميلة:

- كنت أتطلعّ حولي، فرأيتُ السيّدَ. كان بشعاً، هزيلاً، وكان كل شيء يدعو إلى الدهشة. مرّ فتابعتُ عملي، التفتُّ فرأيته في أحد الممرات التي كانت كثيرة وضيقّة. قلتُ في نفسي: لا بأس بذلك، إنه يُعنى بشؤونه. ألقيت عليه نظرةً فحدّق فيّ. حتى الظهر لم يتركني وشأني. كان لايني يلاحظني وأنا أمشي. ولقد أتعبني ذلك، ياللمصيبه! إن حصاد الكلأ أقل قسوةً. لكنه لم يأتِ إلي. ومن الواضح أنه لم يكن له من عمل، باعتباره السيد، سوى أن يشرف على العمل.

انكبت مالانيا على عملها، وقامت بمجهود عظيم، ونظّفت الممر.

عندما انصرف السيدُ وصل خادمهُ، وقال لمالانيا:

أعجبتِ السيدَ كثيراً. وهو يأمرك أن تذهبي هذا المساء إلى بستان البرتقال.

ففكرت: «حسناً، كل ذلك ألاعيب، انتظْر، سآتي».

- حذارِ!

- لقد وعدتُ، وسأكون هناك.

في المساء أخذت مجرفتها وعادت إلى بيتها. كان يخالجها شيء من التخوّف. ربما كان السيدُ نفسه هو الذي يستدعيها. نادت زوجة الجندي وذهبتا إلى بستان البرتقال، تطلعّتا: كان السيّدُ هنا يروح ويجيء. صاحت رفيقةُ مالانيا بصوت ذكوري كانت تستطيع أن تتّخذه متى شاءت:

- مَنْ هنا؟

هرب السيدُ. فانصرفت المرأتان وهما تركضان. ودخلتا البيت وهما تهتزّان من الضحك، وروتا للجميع ما جرى.

في اليوم التالي، أرسلتْ مالانيا مرة أخرى لتعمل في الحديقة. هذه المرة، جاءها الطاهي. وسألها:

لعلك لم تصدّقي ما قاله لك الخادم الفرّاش، إن السيد يرسلني أنا الآن. إن السيد متعلّقٌ بك أشد التعلّق، وهو يأمرك بالمجيء، لا محالة.

- حسناً... كنتُ أظن أن الخادم الفراش كان يهزأ مني، وكان يريد أن يُخيفني. أما الآن فسوف آتي.

وعندما أنهت عملها ذهبت إلى السيد ودخلت سطح البنات.

- ماذا تريدين؟

- أمرني السيدُ بالمجيء

دنت منها امرأة السيد، وسألتها:

- مَنْ أنتِ؟ ما أجملكِ! و لَمَ يدعوكِ السيد؟

- لا أدري

وأخبر السيدُ الذي وصل محمّر الوجه، وقال لمالانيا:

- تعالي فيما بعد، بصحبة والدك. لاوقت لدي للاهتمام بك الآن.

بعد بضعة أيام، تعرّض لمالانيا وأخذ يُلقي على سمعها أحاديث لم تفهم منها شيئاً على الإطلاق. وأراد أن يُمسك يدها، لكنها تنحّتْ عنه وهربت راكضةً.

هكذا كانت تتصرّف مالانيا: بالحيلة تارةً وبالقوة تارة أخرى. وحدث أن جنوداً أُنزلوا في بيتها. كان الجميع ينامون، بالطبع في الغرفة نفسها جنباً إلى جنب تقريباً. ومنذ المساء الأول أسكر أحد الأرستقراطيين الألمان حماها. وما أن أُطفئت الشمعةُ، حتى دنا من مالانيا، لكنها دافعت عن نفسها فوجّهت إليه ضربات بلغ من شدتها أنه أراد أن يشتكي عليها. لقد أوشكت أن تقلع له عينيه.

وضابط آخر ألحّ عليها لينال الحظوة لديها، فوعدته أنها ستعطيه ما يشاء، لكنها وضعت مكانها امرأة الجندي.

- ٣ -

لم تسلم مالانيا نفسها لأحد. وبالمقابل كان يقع لها أن تمهّد هي للحب وبإلحاح، فإذا استثارت الرجل هزئت منه. كان يُقال لها:

- لن يكون ذلك فألاً حسناً لك. وستُعاقبين ذات يوم.

- ماذا أهي غلطتي إن أحبّوني؟ هل ينبغي أن أبكي؟ و لِمَ لا أضحك؟

في هذا الصيف، كان عندهم خادمٌ هو آندريه، من تليا تنكي، ابن

ماثروشاكارافايكا. لقد أصبح الآن شخصاً هاماً، لكنه في تلك الحقبة لم تكن هناك أسرة أفقر من أسرته. وبسبب هذا الفقر أرسلت الأسرةُ صغيرها ليعمل. والله أعلم كيف كانوا يستطيعون أن يعيشوا.

لم يكن آندروشا سوى صبي لم يتجاوز السابعة عشرة. كان نحيفاً وطويلاً كالعمود، وكان يُخيِّل إلى الناظر أن دفعةً بسيطة تكفي لإيقاعه. والله أعلم كيف كان. بالرغم من ذلك، يتُم عمله: كان يُنفق عليه غاية قواه. كان الفتى مجتهداً، مطيعاً. كان يخاف معلّمه ويحترم جميع الذين هم أكبر منه. وربما أرسله أحدهم، في أيام العيد، ولو كان غريباً عن الأسرة، ليشتري له خمراً، فيركض ويسعى إلى أن يُحسن فعلَ ما كلِّف فعله. وبالطبع، لم يكن اندريه يُرى لاهياً مع النساء أو الفتيات. وهو يحمر خجلاً كلما مزحت امرأةٌ معه. كان نظيفاً، حسن الهيئة، لطيف الوجه، صافي العينين، أحمر الشعر، كان على الإجمال فتى جميلاً، شغّيلاً، منظّماً دائماً. لكن قميصه كان بالياً، وكان يضع على رأسه قبعة خوذي، وكانت قدماه حافيتين في حذائه الذي كان يصنعه بنفسه.

لم تترك مالانيا الصبيَّ وشأنه، فقد فتلتْ له رأسه، كما كان يقول. وكان يقول أيضاً:

- لقد استخدموني في هذا البيت، وأنا خائف. المعلم طيّب، لقد أراني ما يجب فعله، وقال لي متى يجب أن أعمل في البيت، ومتى يجب عليّ أن أذهب إلى بيت السيّد، ومتى يجب أن أتبعه، وهو لا يجبرني على حصاد الكلأ، إنه يشفق علي. وأنا آكل مثله، وامرأته تعطيني الحليب، وقد ألِفْتهم. الشابةُ وحدها تخيفني. الله أعلم ماذا تريد مني، وعندما أربط، وعندما أحمل الكلأ إلى الاصطبل للماشية،

تأتي دائماً وتنتزع ما في يدي. وتقول لي: انظرْ، وتفعل كل شيء بنفسها وهي مستعجلة، ثم تنصرف ضاحكة. وعلى المائدة، صبحاً أم مساء، أخشى دائماً أن يحدث شيء، فلا أجرؤ أن أرفع عيني. وإذا ما نظرت إليها مصادفةً. لاحظت أنها ترمقني بنظراتها، بل إنها تغمزني وتضحك، وأحياناً تقرصني إذا مرت بجنبي متظاهرةً بأنها لم تفعل شيئاً، وفي المساء، تذهب إلى الملحق لتنام مع عمتها، امرأة الجندي.

أسمعُ مَنْ يناديني: أندروشا، أندروشا، فأذهب إليه.

- ما الأمر؟

- من ناداك؟

وتأخذ النسوة بالضحك.

ذات يوم، استيقظتُ. كنتُ أنام في الزلاجة، نظرتُ إلى النساء - أهلكهن الله - كنّ هناك يضحكن وهن ينظرن إلي.

سألتني:

- أنت نائم؟ انهضْ فالمعلم يدعوك.

ذهبتُ إليه. قال لي: «ما الذي حملك على أن تخضب نفسك هكذا؟ ألست تفكّر. إنك تُخيف ثوراً. إن لك حقاً هيئة شيطان. انظر إلى نفسك في المرآة، ثم اذهب واشطفْ وجهك..». لقد غطّتاني بالسناج. أرسل المعلم الخدم ذات يوم إلى كوتشاكي ليأتوا بالعلف. وبعد إنزاله من السور كان لابدّ من تكديسه. كانت مالانيا تفور نشاطاً فتحمل بمذراتها عدة أكداسٍ معاً، وكذلك أندروشا. ظلوا في

العمل بعد الجميع. ألحّ عليهم الحرُّ والعرق وأُنهكوا. وبعد أن انتهوا من التكديس، صعد أندروشا فوق الأكداس وداسها ليلبّدها.

- أنت لا تمزح أبداً مع النساء؟

- لا، وكيف أستطيع ذلك، عندما يجب علي أن أعمل.

- أتعرف كيف يجب أن تفعل؟

- لا

- سأعلّمكَ، أترضى؟

صاحت آندريه. أمسكت به مالانيا، ورمته وصعدت فوقه لتلبّده رمت امرأةُ الجندي الكلأ عليهما، ثم ارتمت على الكومة. قالت:

- الكدس صغير.

انقلب أندروشا واستطاع أن يتخلص، وأمسك بمالانيا وأخذ يقبّلها، لم يعد يخافها. لكنها غضبتْ وقالت:

- انظري، هذا الخادم الغليظ يريد أن يقبلني بفمه الوسخ...

كانت تصرخ بقوة حتى ظن الفتى أنه سيجنّ. عاد إلى البيت. لم يكن يفهم شيئاً من الأوامر التي كان معلّمه يلقيها، كان هذا المعلّم يحبه: كان من الصعب العثور على فتى هادئٍ، مطيع، مجتهد، مثل خادمه.

- لكن، ماذا جرى لأندروشا؟ كأنه سيموت!

أجابت مالانيا، وزادت من خجل الفتى المسكين:

- سيموت؟ إنه يلهو طول الوقت مع النساء. أهذا أوان الموت في غمار موسم العمل! وإذن فأنا أيضاً سأموت.

ومع ذلك، فمنذ هذا اليوم، كان الفتى كالمسحور بها. لو أراد أن يهرب بعيداً عنها لما أوتي القدرة على ذلك. كان يكفي أن ينظر إليها حتى يحتاجه خوفٌ أشدّ من الخوف الذي انتابه من مدير الأعمال، كان خائفاً، و لم يكن ينام طوال اليوم وكان يلاحقها بلا انقطاع.

كان الفلاحون والفلاحات مجتمعين ذات يوم على مرج كالينوف قرب فرونكا. كان الرجال يحصدون الكلأ، والنساء يرفعن الكدس. وعند الظهيرة ذهبوا للاستحمام، النساء عند إحدى ضفتي النهر، والرجال عند الضفة الأخرى. سبح «يتشكا» وهو فلاح مرحٌ نحو النساء ودنا من مالانيا، وتظاهر بأنه سيغطّسها في الماء.

- اتركني، ياشيطان، كدتُ أغرق.

لا يعلم أحد بأية مصادفة ولا لماذا كان أندروشا هنا، قال لتيشكا:

- انتبه، سوف تُغرقها!...

وكادا يقتتلان.

عندما كان آندروشا يرى أن مالانيا ستستحم في النهر، كان يختبئ خلف القصب وينظر. لكن السابحات أبصرنه ذات يوم فخرجن من الماء، وقُبِضن عليه وجررنه وهو بقميصه فقط إلى النهر.

كان الفتى المسكين يبدو كالغبي: كان أكله سيئاً، وطعامه غير مغذٍّ، و لم يكن يشرب الشاي، كان الشغل يغمرُه، فإذا جاء الليل ظلّ بجنب معلمّه ليتمّ الأعمال الليلة، كان لايني يعمل حتى لا يبقى لديه وقت

للتفكير في الحماقات، ومنذ الحادث الذي جرى في الكلأ، ومنذ الخجل الذي انتابه، كفّ عن الكلام مع مالانيا. وقد أخذ على نفسه: «يمكنها أن تفعل ما تشاء، لكني لن أكلمّها، ولن أُريها ما أحسُّ به». طيب.

كان الطقسُ مناسباً إلى أقصى حد للحصاد. لم يكن كلأً ما يحصدونه، بل شاياً. وفي اليوم التالي لليوم الذي جرى فيه الحصادُ، كان كل شيء قد جفّ، وكان يمكن تخزينه.

انتهت الأعمال في مروج السيّد الإقطاعي وأخذ الفلاحون حصتهم، كانت الغلةُ وافرة، واستطاع كل واحد أن ينقل ست عربات، وبقي اثنتان لكل واحد تقريباً وكان هناك مروج الدولة التي كان يحصدها الفلاحون الذين استأجرهم مدير الأعمال.

كانت أملاك السيد مترامية الأطراف وكان يذهب للحصاد فيها كلُّ الذين عندهم عَمال. وقد ذهب إليها أيضاً العجوز وامرأته وعامله وامرأة الجندي. ووضع أندروشا ومالانيا تحت تصرّف مدير الأعمال الذي كانت مروجه على عشرة كيلو مترات من هذا المكان. وكان قد ذهب إليها أمس فلاحون وحصدوا فيها. وفي اليوم التالي وصلتْ نسوةٌ. وبعد أن جمع مديُر الأعمال نحو عشرين حاصداً ربُطت الجياد بالعربات وحملوا معهم خبزاً وجعةً وخياراً وصحونا وبرغلاً وذهبوا لمدة أسبوع.

في الطريق ما كان يُسمع سوى الغناء والضحك من الفلاحين والفلاحات الذين تجمَّعوا عشرة عشرةً في كل عربة.

ربط آندروشا خير الجياد، أول حصان في القرية (كان ما يزال

لهم إسطبل عامرٌ) ووضع في العربة المناجل، وأخذ معه ناساً آخرين، وجلس وسط النساء مثل أمير وسط الأميرات ممّا أضحك الناس.

كانوا يسيرون على الطريق الرئيسية حيث كان الناس يتنحُّون ليدعوهم يمرّون. وفجأة قالت مالانيا:

- امض خبياً.

- لم يأذن لي المعلم بذلك.

- تتكلم وكأنك كاهن! أسرعْ!

- حذار، أنا المسؤول لا أنتِ.

- أسرعْ!

وأنتزعت منه المقود.

قودي أنت بنفسك إذن.

نزل وأخذ يمشي وقد بدا عليه الاستياء. وصلوا إلى المكان المقصود. اختار الفلاحون رئيسهم وأخرجوا من العربات المؤن وأدوات العمل، وفكّوا الخيول، وقطعوا أشجاراً، ونصبوا خيماً غطّوها بالكلأ. وبدأ العمل.

وصل آندريه:

- أين الحصان؟

- كيف أعلم؟ أأنا عاملة؟ عليك أنتَ أن تعرف.

- لا سبيل إلى الكلام مع الإناث

همهم، وحرّك يده، ومضى يسأل الفلاحين. أحسَّت مالانيا بأنها أُهينت لكنها لم تجب. وفكرت: «انتظرْ وسوف أنتقم».

تحرك الفلاحون، حصدت النساء وهن يغنّين وتبعهن الفلاحون وهم يرفعون الأكداس. وصل مدير الأعمال وأخذ يمزح مع الفلاحين، وهم يرفعون الأكداس.

أرجوكم، ياإخوتي، ابذلوا مجهوداً، لن يدوم هذا الطقس الحسن، وستعانون من ذلك أنتم أيضاً.

- أعطنا ثمانية ألتار من الخمر.

أجاب:

- موافق

كان العمل يسير أحسن سير. نصف ساعة من الراحة عند الظهر، ثم عودة إلى الكدّ من جديد. العمل نفسه ما كان ليتم في ثلاثة أيام، على الأرض نفسها، كان الشغل يجري في جو من المرح الودّي. آندروشا وحده كان يحس أنه أتعس في هذا اليوم منه في الأيام الأخرى.

فكر: «سأطلب حسابي، وسأعود إلى أمي، وسأقول لها كل شيء. وسأجد عملاً أثناء الطريق». و لم يكن يرفع نظره عن مالانيا. كانت على الهضبة ترمي العشب بمذراتها أو بضربات من قدمها، وهي تغني وتضحك لم تنظر إلى آندروشا ولو مرةً واحدة فآلمه ذلك.

- نعم، يجب أن أذهب... لستُ قادراً على تحمل ذلك كله.

جاء الليل. تجمّعَ الجميع أمام العربات. أكلوا وهم يشربون الخمر،

لم تكلم مالانيا أندروشا. أغفى الكبارُ، أما النساء فصرن أكثر شجاعة بفضل الخمر ولم يشتهين النوم. بدأ الرقصُ الدائري، كان مديرُ الأعمال حاضراً. وذهب مَنْ يُحضر مزيداً من الخمر. لم يشربْ أندروشا الذي سحقه الحزن وعلى كل حال لم يكن يريد أن يتعود الخمر. كان هؤلاء الناس من سكان المحلّة، يعيشون في البحبوحة. أما هو فكان غريباً وفقيراً. ارتدى ثوبه وتناول كسرة من الخبز وانسحب إلى ماوراء الكدس. لم يكن الكلأ قد جفّ بعد، وقد كدّسوه ليحموه من الندى، ولابد له من النَشْر، في اليوم التالي، إن كان اليومُ مُشمساً، كان هذا الكلأ رطباً أخضر وكانت تنبعث منه رائحةٌ قوية.

أزال القشَّ الرطب الذي كان على السطح، ومدّ ثوبه وتمدّد وكان حزيناً. كانت أصوات النساء تصل إليه من الغابة، كنّ يضحكن، وكان الرجال يلاحقوهن. كان يسمع أيضاً صوت مالانيا الذي كان الريح الخفيف يحمله إليه، كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ. نام على ظهره كأنه لم يكن متعباً ولاحظ السماء، وصمتت الغابة لكنه لم يَنْعس. ودفعه حزنُه إلى الغناء. لكن ماذا يجري؟ كان الكدس يتحرك.

سأل:

- مَنْ هنا؟

ظهرت صورةٌ نسائيةٌ.

- مَنْ أنتِ؟

تعرفّها. كانت امرأة الجندي، ناستازيا. اتجهت وبرفقتها فتى جسورٌ طويل.

حينئذ ظهرت مالانيا، دنت منه دون أن تنطق بكلمة، وجلست على الكدّس.

– هذا أنا، لماذا انقطعت عن الغناء؟ تابعْ، أندروشا.

لكنه ظل صامتاً. كان كأنما فقد صوته. كان يود لو يغنّي، لكنه لم يكن يستطيع. أمسكت بيده وقالت:

– مالكَ؟ غَنِّ!... أحبُ هذه الأغنية. أَضجرني الفلاحون، فتركتهم. فغنِّ إذن!

آه! دعيني...

– ما بكَ؟ أأنت منزعج؟

ظل صامتاً.

– ليس هناك ما يبرّر حزنك. أنا، لي ما يبّرر الحزن. أنا حزينةٌ لأنني بلا زوج. أما أنت! فطعامك

حسن، ولك بيتْ تأوي إليه، فماذا ينقصك أيضاً؟

– ما الفائدة من زوجك؟ إن لك رجالاً كثيرين غيره.

لستُ أحبُ أحداً، آندروشا أنا حزينة لم يبق لي شيءٌ من الشجاعة. لستُ أحب سوى زوجي وأنت، ألستَ تلهو مع النساء.

– أنا، أنا غريب. وفي بلدكم عشّاقٌ كثيرون.

– هل أنت غاضبٌ عليّ.

– لا، و لم أغضب؟

- ما أمرّك! لستَ لطيفاً. أنتَ مستاءٌ بسبب الحصان؟

لا، مالانيوشكا. سأقول لك الحقيقة دعيني وشأني. أنا خادم ماذا يمكن أن أُمثّل في عينيك؟... إلا أن أكون غبيّاً... لستُ مالكاً لنفسي الآن. قبلُ لم أكن أنظرُ إليك... ففي القرية كثيرٌ من النساء، في الحقيقة، دعيني... ثم إني حزين، وأود لو أعود إلى بيتي.

- ماذا؟ هل سيزوّجونكَ عمّا قريب؟

- الله أعلم.

- كنتُ سأتزوجك، أنا.

صمتَ آندروشا. سُمعت ضجةٌ في الدغل، وصفر أحدهم.

ضحك آندروشا.

- نعم، كنتُ سأتّخذك زوجاً.

نهضت مالانيا، وجلست على ركبتي الفتى، وأمسكت رأسه بين يديها فقبّلته.

- لستُ أحبُّ أحداً، لستُ أحبُّ أحداً.

وسُمعتْ، من جديد، ضجةٌ في الدغل، جفلت مالانيا. ونهضت.

- لم تتصرّفين هكذا معي؟ ماذا فعلتِ بي؟

وأمسكها بيدها لكنها أفلتت منه.

قضى أندروشا ليلةً مسهّدة.

اضطجعت مالانيا بين النساء، بجنب ناستازيا، قرب العربات ونامت نوماً ثقيلاً دون أن تسمع أو ترى شيئاً.

ظل آندريه زمناً طويلاً جالساً على الدغل ثم طاف حول العربة، لكن مالانيا لم تنهض. سمعت فقط، عندما أخذ النهار يبزغ، الكلاب تعوي في المحطة، والديكةَ والعصافير تستيقظ، ثم سمعت فريق الفلاحين الجديد يصل وأحست كيف أن الندى البارد غطىّ الأرض والكلأ. و لم يكن آندروشا نفسه يعلم كيف نام، أيقظوه عند الفجر. لم يحدثّ أيٌّ تغيّر في موقف مالانيا، كانت كأن شيئاً لم يكنْ.

– ٤ –

وعندما تبخّر الندى تناول الشغّيلة طعامهم ثم استأنفوا العمل، العمل الذي يسرهم أكثر من أي عمل آخر: نقل الأكداس. كان بعضهم يقطع الأغصان، وبعضهم الآخر يربط الخيول بالعربات، ويفكّون الأكداس أو يلقون إليها بالكلأ.

كان النهار محمرّاً، وكان الشيوخ يقولون إن الطقس الحسن لن يستمرّ طويلاً وكان الندى طفيفاً، وقد تجمّع تُبُغ مدير الأعمال على السطح في المخزن وكان السنونو يُسفّ في طيرانه والجوّ ينذر بالعاصفة، كان كلُّ شيء من بعيد يبدو أزرق، ومن الأرض أخذ ينبعث بخار شديد حتى ليحسّ المرءُ بالاختناق.

حتى قبل الظهر، كانت قد جُمعت كميات ضخمةٌ من الكلأ، جيء بالعربات، وذهب مَنْ يحضر المذاري الكبيرة – لم تكن موجودةً ومن جانبي الكدس، كان الفلاحون يكدّسون الكلأ كل اثنين معاً، وكان اثنان آخران يوزعانه في البداية، كان كل ذلك يُحمل إلى مدير

الأعمال الذي كان يقف في أعلى الكدس، محلول الزنار، وقد برز بطنه الضخم، وتصبّب وجهه عرقاً.

كان على مالانيا ونستازيا أن تحملا الكلأ، مثل زميلاتهما وكان عليهما بعد ذلك أن تصعدا العربات التي كان الفلاحون يلهون بتدويرها ليوقعوهما، لذلك كان يجب أن تُسرعا في النزول وإلا سقطتا أرضاً وتتالى الضحكُ عليهما. وإذ أن مالانيا لم تكن نشيطة فقد أَلْفت نفسها ذات مرة في المرج وكان أندروشا يحمل الكلأ، بجنبها في الظلمة. كان المسكين متعباً وخجلاً لأنه لم يتعوّد هذه الأشغال. لكنه لم يشأ أن يُظهر دونيّته، ولاسيما أمام النساء. كان ينحني ويلمّ أغماراً من الكلأ أثقل من قدراته، وعندما كان يمشي كانت ساقاه لا تكادان تحملانه، وكانت عساليج من العشب اليابس تلصق بوجهه الذي يسيل عرقاً. وكان الفلاحون يتبارون حميَّة: أيهم أكثر نشاطاً، أيهم يحمل أضخم كومة، كانوا يعملون وسط الضجة والضحك، وكانوا كلهم كالمجانين.

كان مديرُ الأعمال يحث الفلاحين على بذل الجهد، اقتربت الغيوم وكان يود لو يضغط على الفلاحين أكثر، فالخيراتُ خيراته وقد حذا الفلاحون حذوه إلى آخر حدود قوتهم، عند الظهر كان أحدُ الأكداس قد حُمِّل فربطتْه النسوةُ بحبل ثم نزلن عن العربة، ابتعد أندروشا. لقد فقد إحساسه بذراعيه، لم يُتَحْ لأحد أن يستريح. وحُمِّل الكدسُ الثاني. سار كلُّ شيء في البداية سيراً حسناً. صعدت النساء إلى أعلى من ذي قبل وهن يَغُصْن في الكلأ، لكن الغيوم مع الأسف كانت لاتني تزداد قرباً.

- أيها الأخوة، القوا، بسرعة، بسرعة أكبر!.

لم يكن مديرُ الأعمال يستقرّ في مكانه، وأخذت الغيومُ تزداد وضوحاً، وهبّ الهواء. علا مديرُ الأعمال الكدسَ، وأخذوا يلقون إليه الكلأ كانت لحيتُه ترتعش، كان يجد مشقةً في التكديس، وظل العمالُ يلقون إليه بالكلأ حتى تغطّى به تخلّص من الكلأ لكنهم لم يلبثوا أن غطّوه به.

– هيا، تابعوا!

– هيا، يانساء! ارصصْن الأكوام رصاً أشد، اسحبْ من فوق! هل بقي الكثيرُمنها؟

– كدسان خلف الأدغال.

أُمرت النساء بالذهاب إليهما. فأجبن أنهن لا يعرفن أين هما. وكان آندروشا، الذي ضعف ضعفاً شديداً، وهو يقاوم التعب يرتجف مثل ورقة.

– اذهب إليهما، أنت تعرف المكان.

– هبت الريح هبوباً أقوى، وظّلت الغيوم تركض، وكانت لحية مدير الأعمال وسترته الخارجية كأنهما تختلجان، وكأنهما فوق مدفأة.

مسح آندروشا وجهه الذي تبلل بالعرق وصعد العربة وصاح:

– لتصعد معي امرأةٌ.

أرسلت مالانكا إليه، تناولت مالانكا المقود. كان جسمها يهتزّ بفعل الرجّات. وكان أندروشا يرتجف مثل كيس من القصب، وصلا

الأدغال. نزل أندروشا. مدّ الكلأ إلى المرأة التي ظلّت على العربة فتناولتْه وكانت تضحك وهي تنظر إلى الفتى الصامت الذي يكدّ نفسه ليُسرع في عمله.

أراد أن يحمل حملاً أثقل، فتخاذلت ساقاه وخانته قواه ووقع: لقد أسرف في العمل وتوقفّ عن التحميل.

– مابك؟ هل تنام؟

– سأقتلكِ، يالكِ من قاتلة، من امرأة شريرة! نعم سأقتلك ثم أقتل نفسي.

كان باهتَ اللون، وكانت المرأة ما تزال تضحك. ثم نزلت من العربة ومضت إليه.

– مابك، آندروشا؟ أأنت مجنون؟ مَنْ غيّركَ هكذا؟

لا تعذّبيني مانيوشكا فقد نفذت قواي. اطرديني من عينيك الصافيتين، لا تدعيني أعيش في هذه الدنيا أو كوني معي على شيء من اللطف. أعلمُ أنْ ليس لي الحق في ملاحقتك ومعلمك فلاح شهم. لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي. أنا أموت من الحب الذي أكنّه لك، أنتِ ضيائي!

كانت تمسك بيديه وتنتحب انتحاباً.

– عجباً! ليس لك قدرةٌ على التحميل، لكنك تتشّبث بيّ مثل نبتة الأرقطيون، دعْني ماذا تتصّور، دعْني وإلا شكوتك للمعلم.

– لكنك أنتِ نفسكِ... لماذا قبّلتِني أمس؟

– أمس كنت أشتهي ذلك. أما الآن فيجب أن نعمل، انهضْ، كفى سيكونُ اللَيلُ لنا.

– حقاً تقولين، مانيوشكا؟

– ماذا؟ أتظن أنني أكذب؟ نعم سيأتي الليل. آه! المطر يهطل... حقاً؟

– حقاً.

وضحكت.

لم تكد العربةُ تُحمّل حتى هطل المطر. فلجأ الجميع إلى تحت العربات. توقّف العمل. لقد جُمع كلأُ مدير الأعمال، لكن كلأ الفلاحين نُسيَ. لم يبق مجالٌ للعمل. عاد الشغيّلة إلى بيوتهم. ظلت مالانيا تراوغ.

وبينما بقي آندروشا في العربة، عادت هي وامرأة الجندي مشياً على الأقدام. لكنهما عندما دلفا إلى الطريق، لقيهما «نيسيفور» عشيق نستازيا، فحادا عن الطريق، وعادت مالانكا وحدها إلى بيتها.

توقف المطر، وعادت الشمسُ إلى الظهور. كان لابد من اجتياز الغابة. نزعت مالانكا حذاءها، وضعت الصرّة على رأسها، وتابعت مسيرها، كانت قدماها بيضاوين، متناسقتين جداً، وكان وجهها متألّقاً، كانت جميلة أبداً، أيّاً كانت زينتُها: كانت تملك الجمال الحقّ.

حينئذ جازاها الله على جميع سخرياتها وعلى أنها تصّرفت مع أندروشا ذلك التصرّف.

كان مديرُ الأعمال قد باع كلاً لتاجر مواشٍ دعاه إلى المجيء، في هذا اليوم إلى مرجه.

كانت مالانيا تعبر فُرحةً في الغابة، وكانت تفكر، والله أعلم فيم كانت تفكر، لعلها فكّرت في امرأة الجندي وفي نيسيفور، وربما في آندروشا، رجعت لكنها ندمت لأنها تركت آندروشا وحده، ظّلت تمشي. وفجأةً شاهدت فارساً يأتي إليها. كان يرتدي سترة تاجر وكان قميصه تحت السترة، حديث الزي وكان يحتذي جزمة من جلد الجدي، ويمتطي جواداً بديعاً، وكان هو مهيب الطلعة كأنه نسر: كان قوياً، ممتلئاً عافيةً، ذا حاجبين أسودين، وشعر أسود مجعّد، ولحية دقيقة، وشاربين لم يكادا يطرّان. كان يسير وفي فمه غليون مزخرف، ويده تعالج سوطاً من الجلد. كان جميلاً. مَنْ ذا الذي لم يكن يعرفه!

بيد أن مالانيا لم تره من قبل، ونحن أنفسنا لم نعرفه إلا منذ زمن قليل: إنه «متّى رومانوفيتش» تاجر الماشية وهو نصّاب حقيقي ليس في المقاطعة مَنْ هو أسوأ منه، سواء أكان ذلك من جهة النساء أو الفتيات أو من جهة الماشية المريضة بالطاعون التي كان يصرّفها، وكانت الخيول موضوع مضارباته الوقحة، والعمولات المأجورة والغابات المعدّة للبيع كان نصاباً تاماً، واضحاً، مع أنه لا يزيد عن العشرين إلا قليلاً. وكان أبوه مثله وغداً.

- مرحباً، أيتها العمة الصغيرة! إلى أين يأخذ الله بيدك؟

واعترض طريقها.

- إلى البيت. لم تسدّ طريقي؟ سأغيّر طريقي.

ثنى عنان فرسه وتبعها. نظرت إليه المرأة وفكرت: «ليس هذا من جنس آندروشا، إنه نسرٌ».

- ما اسمكِ، يا سيدتي الصغيرة؟

- هل هذا من شأنك؟

- ذلك كي أعلم لمن هذه المرأة الجميلة.

- هي لِمن هي له. ولا علاقة لك بذلك. لا فائدة من هزئك مني.

- أنا أعطي كل ماعندي لأمتلك امرأة مثلك. مااسمك؟

- مالانيا. ماذا تريد فوق ذلك؟

- حذار!

وهددته بمذراتها.

- وما اسم أبيك؟

- روديون.

سار إلى جنبها

- مالانيا روديونوفنا، ينبغي لك أن تستريحي دقيقة، لقد أعجبتني جداً.

أحسّت مالانكا بالخطر. خافت لكنها ارتاحت لمدحه في الوقت نفسه.

وحثّت خطاها.

- امضِ في طريقك وسأتابع طريقي. هاهم الفلاحون وراءنا، طريقُكَ من هنا وطريقي من هنا.

قال:

- مالانيا روديونوفنا، كل منُاي أن أتبعك

وأخرج من جيبه منديلاً أحمر ومدّه إليها.

- لا حاجة لي إلى منديلك، دعني وشأني.

استأنف كلامه:

- يا حلوتي، سأفعل كل ماتريدين. لكن أحبّيني قليلاً. رأيتك، ولا أدري ماذا أصابني، ياحلوتي الرقيقة، أحبّيني! الله أعلم ماذا حلَّ بتلك المرأة التي لم يستطع رجالٌ كثيرون أن يَغْلبوها. كانت صامتة كأنها فقدت فجأةً عادةَ الكلام، لم تَفُهْ بكلمة واحدة. أخذها من يدها.

- ياحسنائي، يا حسنائي التي لا تُثمّن، مالانيا روديونوفنا، أحبك إلى حدّ أن قواي تلاشت. منذ عشرة أشهر لم أَربيتي.

كان شاحباً مثل ميت، وكانت عيناه تلتمعان. - لم تبقَ فيَّ قوةٌ. - وصالب بين يديه - . أسألك بالله عليك - ارتجف صوتُه - ابقي معي لمدة ساعة، لنتركْ الطريق، ماريا روديونوفنا، خففّي ألَم جسدي. أنا غريب، وسأحمل خجلك معي.

فقدت رشدها، وهمستْ فقط:

- أنت غريب، ولستُ أعرفك...

وأمسك بها الفلاحُ الشديدُ الأَسْرِ بقوّة، وحملها إلى الغابة الكثيفة...

سألها عما يُحبّ أن يعرفه عنها: أين بيتُها وأين تنام، ثم أخرج محفظته وتناول منها روبلاً وأعطاها إياها.

انتحبت المرأة:

- اشفق عليّ، ولا تخجلْني.

- خذيه ذكرى مني. غداً عندما يهبط الليل سآتي إلى قدّام بيتك وسأصفر. رافقها حتى مخرج الغابة وعاد إلى امتطاء جواده...

هكذا كان يتصرف.

- ٥ -

عادت مالانيا إلى بيتها. لم يخامر الشك في شأنها لا العجوز ولا امرأته. ومع ذلك فقد غدت المرأةُ شيئاً آخر. لم تعد تعمل، وكانت تقضي وقتها في التجوال خارج البيت. وصار أندروشا أشد حزناً من ذي قبل.

جاء ذات يوم ليكلّم مالانيا لكنها قابلته وكأنه مسيء. صرخت وردت عليه بخبث، ثم بكت.

- لا تحاولْ أن تكلمني بعد الآن، إنك تتشبث بي، يالك من شيطان! لم يعد بوسعي أن أمزح! إنك لا تحمل إليّ سوى الحزن! وانخرطت في البكاء.

تضاعف حزنُ آندروشا. لم يكن يفهم لماذا كان معها هكذا، لكنه لم يكن يقوى على فراقها. عرض عليه الأب أن يذهب ليَعْمل في غير هذا المكان، في مكان يستطيع أن يكسب فيه أجراً أكبر. لكنه رفض وقال:

- أفضّل أن أعيش هنا، حتى بلا أجر ولن أذهب إلى الناس الغرباء.

منذ الحصاد الأكبر، تغيّر الطقسُ وكان المطر يهطل باستمرار، تعفّن كلأُ الفلاحين في المروج، و لم يكن قد جُفّف منه سوى جزء طفيف.

كان المطر يهطل من الصباح إلى المساء، ولا سبيل إلى حراثة الأرض الوحلة. كان المحراث يُفلت من اليدين في الأرض المستنقعية، لم تبْق من حيلةٍ، لم يعد ممكناً لمُ الكلأ أو أي شيء.

قصد آندروشا ذات يوم مخزن السيد الإقطاعي، كان يَخْبط في الوحل وينزلق في مناقع الماء شاهد فجأة مالانيا، وقد غطّتْ رأسها بمنديل وفي يدها غصن، كانت تسير في الوحلِ حافية القدمين بحثاً عن بقرة. كان المطر قد هطل طوال النهار مدراراً و لم تستطع الماشية أن تبقى في المرج. رأى آندروشا بغتةً تاجرَ الماشية يدنو من المرآة الشابة. قال:

- الآن.

خفضت مالانيا رأسها.

فكر آندروشا:

- وإذن فهذا هو وعاد واضطجع، لكنه لم يستطع النوم، كان يصغي. سمع أحدهم يَصْفر خلف الملحق ومالانكا تهرعُ. ذهب آندروشا إلى الملحق. كان فيه فلاحٌ لا يعرفه.

- مَنْ أنت.

- عامل

- هيّا، خذْ عشرين كوبيكاً، ولا تقلْ لأحد إنك رأيتني. لكن

آندريه لم يكن وحده الذي رآه. فقد لاحظ أهلُ القرية أن التاجر كان كثيراً ما يأتي، كانت امرأة الجندي تلاحق «متى».

مَنْ يعلم ماذا يجري، لم يكن أحدٌ يعرف الحقيقة...

عاد «اوسترات» أثناء الليل. هل سمع شيئاً أم لا؟ لم تكن زوجته هنا. قيل له: كانت في البيدر. فقصد البيدر. أصوات... ارتجف بكل كيانه. نظر إلى الحظيرة فرأى جزمة.

- مَنْ هنا؟

وضرب الباب بعصاه ضربةً قوية. هرب التاجر راكضاً. ظهرت مالانكا، كانت ترتدي قميصاً طويلاً نازلاً إلى قدميها.

- لمن الجزمة؟

- أنا مذنبة.

- طيب. عودي إلى الكوخ

أخذ الجزمة ونام وحده.

في الصباح، هيّأ سوطاً، أمام آندريه، جاء بامرأته إلى الملحق وأخذ يجلدها جلداً لايني يشتدّ، وهو يصرخ ويحدّق، ممزّقاً قلب الفتى الذي كان يسمع كل شيء.

- لن تتجوّلي بعد الآن، لن تتجولي بعد الآن وسحبها من شعرها، فرماها أرضاً، ضارباً إياها على وجهها. وفكرت مالانيا: لن تطرد ما في أحشائي».

طلبت الأمُ الرحمة لمالانيا لكن ابنها رفض بقسوة.

- ليس لأحد أن يعلّمني كيف ينبغي أن أتصرّف مع امرأتي ارتبكت الأم واعتذرت.

بعد أن قَرَن «اوسترات» جواده، ذهب إلى الحراثة بصحبة «آندريه» فسأله عن الأمر. فأجابه الخادم:

- لا أعرف شيئاً.

عاد إلى البيت، وفك الجواد. كانت مالانيا تعد الطعام، بنشاط كبير حتى كانت تبدو كأنها تطير، لا تمشي، كانت قد اغتسلت، وازيّنت بعناية. كانت البقع الخضراء واضحة لكن زوجها لم ينظر إليها. تعشّيا، ثم ذهب العجوزان إلى الملحق. ونام «اوسترات» على طرف السرير، دون أن يفوه بكلمة.

اطفئي الضوء.

فعلت مالانيا ما أَمرَ به. وتساءلت: «ماذا سيفعل؟» كان يصغي إليها. خلعت ثيابها. ورآها تمرّ قرب النافذة.

كان غائباً منذ ستة أشهر، وقد ضربها. كانت رقيقة معه. تحركت قربه بصمت. رفعت غطاء الفرو. واندفعت إليه مثل عنزٍ، بقميصها، وعانقته، وكادت تخنقه.

- لن تعودي إلى ذلك؟

- لا تذكرني بما فعلتُ

منذ ذلك الزمن، لم تفكّر بتاجر الماشية. باع أوسترات الحذاء بخمسة روبلات. كان يَضْحكُ ويقول:

- لقد أفلت مني، وإلا كنت سآخذ منه معطف الفرو أيضاً.

ظل آندروشا عندهم حتي عيد شفاعة السيدة العذراء[٣]، ثم عاد إلى أمه. وظل زمناً طويلاً دون أن يستطيع نسيان مالانيا. تلقّى أهله قطعة أرض له وزوجوه.

بعد تسعة أشهر من مغامرة مالانيا، وضعت طفلاً هو صورة دقيقة لتاجر الماشية، كان هذا ابنها البكر، ابنها الحبيب بطرس اوستراتييفتش».

***

٣ - يقع هذا العيد في أول تشرين الأول.

حاجّان

١٨٧٠

كان رجلان يسيران على الطريق المغبّرة بين موسكو وتولا، وجرابُ كل منهما على ظهره. كان أحدهما شاباً يرتدي معطفاً من جلد الخروف وبنطالاً من المخمل. وتحت قبعته الفلاّحية الجديدة نظارتان تحجبان عينيه. وكان الآخر رجلاً في نحو الخمسين، ذا جمال لافتٍ للنظر، وذا لحية طويلة دبّ فيها الشيب وكان يرتدي ثوب راهبٍ شدَّ عليه زناراً وعلى شعره الطويل الأشيب قبّعة مدورّة سوداء كالتي يضعها خدمُ الأديرة.

كان الشاب أصفر شاحباً مغطى بالغبار، يبدو وكأنه يجر نفسه على ساقيه جراً. وكان الشيخ يمشي بجسارة مقدمّاً صدره إلى أمام، خاطراً بيديه، وكأن الغبار لم يكن يجرؤ على تغيير وجهه الجميل، وكأن جسده لم يُكتَبْ عليه أن يعرف التعب.

كان الشاب، «سيرج فاسيلييفتش بورزين»، دكتوراً في جامعة موسكو. وكان الشيخ ملازم مشاة متقاعداً، خدم في زمن الكسندر[١]، وراهباً قديماً طُرد من الدير لسوء سيرته، لكنه حافظ

---

١ - الكسندر الأول ١٨٠١ - ١٨٢٥.

على عادة لبس الثوب الديني، وكان يُدعى نيكولا بيتروفتش سيربوف.

وإليك كيف التقى هذان الرجلان. بعد أن انتهى سيرج فاسيلييفتش من رسالته، وكتب بضع مقالات في مجلات موسكو، ذهب إلى الريف لكي يغوص في نهر حياة الشعب، كما كان يقول وليبترد في أمواج التيار الشعبي، وبعد شهر قضاه في الريف في عزلة مطلقة، كتب إلى زميله في الأدب ومدير مجلّته، الرسالة التالية:

«سيدي العزيز وصديقي إيفان فينوغييتش».

«لا ينبغي لنا ولسنا نستطيع أن نحل المسألة التي يكمن حلّها في الأعماق الخفيّة لحياة الشعب الروسي، ولا أن نتنبّأ بها، ومن الضروري أن ندرس بعمق عدداً من الجوانب المختلفة للفكر الروسي وتجليّاته. التجرّد عن الحياة... إصلاحات بطرس الأكبر، ألخ...».

ومعنى هذه الرسالة أن سيرج فاسيلييفتش، بعد أن نفذ إلى حياة الشعب، اقتنع بأن مشكلة مصير الشعب الروسي أعمقُ وأصعب مما تصوّر. ومن ثمَّ فلكي يحلّ هذه المشكلة كان يعتقد أن من الضروري القيام برحلة مشياً على الأقدام عبر روسيا كلها، وكان يطلب من صديقه أن ينتظر نهاية الرحلة ليتصدّى لهذه المشكلة، واعداً إياه بأن يعرض حينئذٍ في سلسلة من المقالات الطويلة ما يكون قد تعلّمه.

ما إن كتبَ سيرج فاسييليفتش هذه الرسالة حتى اهتم بأهبة السفر المادية، وكان لابدّ له أن يفكر أيضاً بتفاصيل لباسه، وإن شقّ ذلك عليه. أمّن لنفسه معطفاً من جلد الخروف، وجزمة بمسامير وقبّعة ونظر طويلاً إلى المرآة، وهو يحتجب عن خدمه، ولم يكن بوسعه

التخلّي عن نظارتيه لأنه كان قصير النظر جداً. وجزءٌ آخر من أهبة السفر كانت تقوم على تأمين المال اللازم للطريق، أي ٣٠٠ روبل على الأقل، لم يكن في المكتب مال. استدعى سيرج فاسيلييفتش القيّم والوكيل، ووجد في دفاتر الحساب ١٨٠ مكيالاً من الشوفان فأمر ببيعها. ونبّهه القيّم على أن هذا الشوفان إنما تُرك للبذار. وحينئذ تصفّح سيرج فاسيلييفتش سجلَّ الشيلم، فوجد فيه ١٦٠ مكيالاً. سأل إن كان هذا الشيلم كافٍ للبذار، فردّ عليه القيّم بسؤالٍ هو إن كان يريد أن يأمر ببذر الشيلم القديم؟ وكانت نتيجة الحديث أن القيّم أدرك أن سيرج فاسيلييفتش يفهم في الاستثمار أقل مما يفهم الطفل، وفهم سيرج فاسيلييفتش أن الشيلم قد بُذر وأن البذار عادة يكون من حَبّ المحصول الجديد، بحيث أنه يمكن بيع ال١٦٠ مكيالاً. قبض سيرج فاسيلييفتش المال وتهيّأ للسفر، عندما سمع ذات مساء، في غرفة الخدمة صوتاً مجهولاً، ودخل خادمُ أبيه العجوزُ ستيبان وأعلن:

- نيكولا بيتروفيتش سيربوف!

مَنْ، نيكولا بيتروفتش.

كيف! نيكولا بيتروفتش، ذاك الذي كان يأتي أباك كراهب،

لا أذكر. ماذا يريد مني؟

يحبّ أن يراك، يبدو كالمخبول.

دخل نيكولا بيتروفتش الغرفة وحيّا تحيّة طويلة وهو يضرب بقدمه، مدّ إليه يده:

- أيها المسافر سيربوف، الجهل في كل مكان، عبثاً تعظُ في

روسيا، لا تعلم فيها... روسيا غبيّة...الفلاح نشيط... روسيا غبية... أليس كذلك، سيرج فاسيلييفتش؟ عرفتُ أباك، كان يقول لي أحياناً: «سيَمْضي هذا بعيداً». لمَ تلبس هذا اللباس؟ أنا أحب طريقة سوفوروف[٢]. لماذا؟

– سأسافر

– أنا أيضا، أسافر، أنا مسافر. ذهبتُ إلى اليونان، إلى جبل آثوس، لكنني لم أر أفضل وأعدل من الفلاح الروسي.

جلس نيكولا بتروفيتش، وطلب ماءَ الحياة، ثم نام. دهش سيرج فاسيلييفتش دهشة شديدة. في اليوم التالي، كان نيكولا بتروفيتش يصغي، وكان سيرج فاسيلييفتش يتكلم. سمع محدثه كل نظرياته وفهم الغاية من سفره. وافق على كل شيء، وعرضَ نفسَه رفيقَ سفر، قَبِل سيرج فاسيلييفتش لأنه لم يكن يستطيع أن يتخلص منه من جهة، ومن جهة ثانية لأن نيكولا بيتروفيتش، بالرغم من خبله، يُحسن التملّق، ولاسيما لأن سيرج فاسيلييفتش كان يرى في هذا الراهب تجليّاً لطبيعة الإنسان الروسي، وهي طبيعة كريمةٌ على نحوٍ ملحوظ لكنها غير منظمة.

سافرا. وفي اللحظة التي صادفناهما فيها على الطريق الرئيسية كانا قد وصلا إلى الاستراحة الأولى من خط سيرهما، بعد مسيرة اثنين وعشرين فرسخاً.

شرب نيكولا بيتروفيتش كأساً على دفعات. كان مرحاً.

***

٢ – سوفوروف: سيربوف يتكلم باقتضاب مثل المارشال المشهور سوفوروف.

المنَاقشة

١٨٧٥

كان نيكولا نيكولايفتش مدعواً إلى بيت جاره، كان واضحاً أن هذا الجار إيفان.ب.ف. كان يَعُدّ نيكولا نيكولايفتش رجلاً فائق الذكاء والثقافة، وكان يعتبر زيارة «المعلم» خطوةً. كان يريد أن يجمعه بأستاذ تاريخ في جامعة موسكو، وصل قبل قليل. وقد توسّل إليه ألا يتهرّب. كان ككل القليلي الذكاء يُسرُّ بسماع أحاديث ذوي الفكر الرفيع وإن يفهمهم إلا قليلاً. مضينا إلى هذا العشاء.

كان الأستاذ، وهو رجل عظيم اللحية، جالساً بجنب نيكولا نيكولايفتش. وكان أصحاب البيت يبذلون جهداً مضنياً ليقيموا بين الشخصين تياراً من المودة ولاشك أن معلمي نيكولا نيكولايفتش قد لاحظ الجانبَ المضحك من هذه المباراة العامة، لكنه كان مستعداً، لكي يخيّب أمل مضيفه، لأن يشرع في المناقشة، فسعى إلى أن يحادث الأستاذ الذي بدا، على كل حال، ميالاً جداً إلى التحمّس. لكنه كان يبدو الآن محترساً مع شيء من التعالي. كان واحداً من هؤلاء الباحثين الذي يزّينون كلامهم بعبارات مثل: «ماذا تريد أن أفعل به...» «إنه فكر متطور»، «هذا شريف..». إلخ، كان ذا وجه ذكي. حازم، هادئ. وكان واضحاً كل الوضوح أنه يحس تمكنه ولاسيما في ميدانه.

بعد العشاء، بدأ الحديث عن التاريخ وعن قانون التقدم.

كان معلّمي يقول: إن قانون التقدّم، وهو الخيط الهادي الوحيد في الدراسات التاريخية، لم يُثْبتْ قط حتى الآن، أنه لا يقوم على قاعدة صلبة. وقد ردّد عدة مرات:

- كيف يُمكن الإيمان بقانون التقدم في التاريخ العام، عندما نلاحظ أن تسعة أعشار البشرية: الصين، آسيا، إفريقيا، تسير وفق قانون مضاد.

ردّ الأستاذ بأن قانون التقدّم قد دلّلت عليه جميعُ الشعوب التاريخية، وأنْ ليس للعلم أن يُعنى بالشعوب التي لا تاريخ لها. ظل نيكولا نيكولايفتش صامتاً لحظة، وقد بدا عليه الضيق.

- وإذن، فأنت تتجاهلها تماماً؟

فيجيبه الأستاذ:

- إنها لا تدخل ميدان العلم.

لزم نيكولا نيكولايفتش الصمت أخيراً.

عُدْنا إلى البيت، وفي الطريق تدفّق فكُر معلمي البطيء الجواب. وأنا أذكر بدقّة ملاحظاته التي بدت لي شائعة حقاً.

أخذ يردّد مستعيداً ألفاظ الأستاذ.

- ليست جزءاً من ميدان العلم! لا تخصُّ العلمَ! هل سمعتَ نقاشي؟

- نعم، جزئياً.

قال لي بابتسامة عذبة ومتفهمّة:

- لاحظ كم يُضحك ذلك كله، ليس في التاريخ من هام حقاً سوى الفكرة الفلسفية التي نستخلصها منه، أي القانون الذي زعموا أنهم عثروا عليه في التاريخ نفسه والذي بموجبه ستعيش البشرية. ولايهمني أن أعلم ما الشعوب التي غلبها هانيبال، ومَنْ هنّ عشيقات لويس الرابع عشر! مايهمني هو القانون، أي ما ينتج من الأحداث. إنه يتحدث عن قانون التقدم، وعندما يُعمَد إلى التحقق من هذا القانون، يقول لي: «تحققّوا منه بحسب معطيات علمنا القائمة على هذا القانون». وبعبارة أخرى، لو أنني أنكرتُ أن في الهكتار عشرة آلاف متر مربع، لأجاب: «قِسْهُ بمتري لا بمترك، وستجد أن فيه حقاً عشرة آلاف متر مربع. أنا نفسي قسْتُه».

إنهم يؤكدون قبل أن يتساءلوا إن كان علمهم معصوماً من الخطأ، إنهم يأمرونك: «آمِنْ بهذا العلم! ادرسْه! إنهم يعظون كما يعظ المبشرون: ادرسْ، اعملْ، كرسْ له عشر سنوات كاملة، افقدْ شَعْرَكَ كله في هذا الجهد وتكون قد أعطيتَ أكثر». وطبعاً أنتَ لن تشك لأنك تكون قد قدّمت مجهودات عشر سنوات من حياتك. وكذلك هو، لن يكون رأيه كرأيي: يلزمه من أجل ذلك أن يُنكر عشر سنوات طويلة من العمل. ليحفظْه الله من ذلك!

- لكن الأهم هو أن نلاحظ أن طريقة التخويف الجديدة هذه، طريقة التخويف لا التناقض، اختُرعت وطُبِّقت في جميع العلوم. إن ذلك لماكرٌ حقاً. بالنسبة إلي، إن الأهمية الأولية للعلم التاريخي تكمن في معناه الفلسفي، أي إن بي فضولاً لمعرفة الحقائق التي برهن عليها. أريد أن أعلم ما الذي ينتج من أنه قد كانت حروبٌ قرطاجية، أو حروب أخرى... أريد أن أعلم ما الذي ينتج من أن للعصب ردود

فعل باتجاه ما، وأن للكبد وظيفة لتكوين السكر... أريد أن أعلم نتائج نظريات هذا القانون العام أو ذاك...

أنا أسأل: هل تسير الإنسانيةُ إلى الكمال؟ هل الروح خالدة؟ هل العقابُ مُسَّوغ؟ ألخ.

يردوّن عليّ: «أنت خارج المسألة، لقد خرجت من ميدان العلم». ذلك كما لو أن عضواً أخرق سأل بغته، أثناء اجتماع مجلس الإدارة للتشاور في موعد الوليمة المقبلة، سأل عمّا فعله المجتمع. «أنت خارج المسألة، خارج ميدان العلم».

قديماً، لم يكن أي علم يُنحّي المسائل الفلسفية المرتبطة به. أما الآن فإن علم التاريخ يقول لنا بصراحة إن المسائل المتعلّقة بغائية الإنسانية وقوانين تطورها تظل خارج ميدانه. إن الفيزيولوجيا تؤكد أنها تعرف عمل الأعصاب، لكن مسألة حرية الإنسان أو خضوعه ليست من ميدانها. إن القضاء يؤكد أنه يعرف مصادر هذه المادة القانونية أو تلك أما أن يعلم إلى أي حد تستجيب لمثلنا الأعلى عن العدل فذلك خارج عن ميدانه. أكثر من ذلك! يُعلن الطب: «ليس مرضكَ من اختصاص العلم». كيف، إذن! بئس علومكم! أَفْضلُ من ذلك اللعبُ بالشطرنج! ليس للعلوم مسوَغ وجود إلا إذا أجابت عن أسئلتي. وأنتم جميعاً، إنما تدرسون لأن ذلك يسلّيكم، مع يقينكم بأن ذلك لا يُفيد كثيراً...

سألتُ:

– ما العمل غير ذلك؟

– لاحيلة لنا في شيء. والخطأ لا يقع على أحد. إنه عجز العلم، إنه المنع الذي فُرض على الإنسان، منعه من تذوق شجرة معرفة الخير

والشر. هذا هو قانون الإنسانية الذي لا يتبدل، يجب أن تعترف بذلك، ولا داعي للتفاخر بذلك، وبأي شيء يمكنني أن أفخر؟ ألأنني أستطيع أن أفك رموز أدنى تفصيل في أي نقش هيروغليفي، دون أن أتوصل إلى النفاذ إلى معنى النقش الهيروغليفي.

قلت:

- إنهم يأملون أن يفهموه، ذات يوم.

- إنهم يأملون!... آن الأوان لأن ندرك أن هذا الأمل يحيا منذ ثلاثة آلاف سنة من التاريخ، وأننا لم نتقدم شعرةً في ميدان معنى العدل والحرية والحياة الإنسانية!

اللعب بالشطرنج شغلٌ مُسلٍّ، لكن لا داعي للافتخار بذلك، ولا داعي فوق ذلك لاحتقار الذين لا يعرفون اللعب.

***

مذكرات مجنون

١٨٨٤

٢٠ تشرين ١٨٨٣

اقتادوني اليوم إلى الإدارة الإقليمية ليفحصوني. انقسمت الآراء. وبعد أن تناقشوا قرّروا أنني لستُ مجنوناً. لكنهم إذا اتخذوا مثل هذا القرار، فلأنني استنجدتُ بكل قواي لكي لا أبدي رأيي. لم أقل شيئاً لأنني أخاف مصحّ المجانين. أخاف أن يمنعوني هناك من القيام بأعمالي كمجنون. أقرّوا أني إصابات وأشياء أخرى أيضاً، لكنني أملك مع ذلك قدراتي العقلية. أقرّوا أن بي هكذا، لكنني أعلم أنني مجنون. وصف لي الطبيب علاجاً مؤكداً لي أنني إن تقيّدتُ به تقيّداً دقيقاً فإن مرضي سيزول. كل ما يقلقني سيزول. أوه! كم أعطي لكي يزول ذلك المرض. إن المرء ليتألم كثيراً منه. وسأروي بالتفصيل كيف جاء هذا الإثبات. ومن أين جاء، وكيف صرت مجنوناً، وكيف كشفتُ عن جنوني.

عشتُ ثلاثاً وخمسين سنة كما يعيش الناس جميعاً، و لم يُلاحَظ فيّ أيُّ شيء خاص. كانت تُصيبني بعضُ المتاعب الشبيهة بما أنا فيه حالياً. في طفولتي قبل أن أبلغ العاشرة كانت تصيبني نوباتٌ، لكنها لم تكن

تأتي بانتظام كما تأتي الآن، وكان تترجمُ عن نفسها في طفولتي على نحوٍ مختلف، أذكر أنني ذهبتُ ذات يوم لأنام، وكان عمري خمس سنوات أو ستّاً، نزعت مربّيتي «أوبراكسي» وكانت طويلة، هزيلة، ترتدي فستاناً بلون الغرفة وعلى رأسها قبعة وذقنها مفلطحة، نزعت ثيابي وقادتني إلى سريري. قلتُ:

- أنا نفسي، أنا...

وتخطّيتُ القضبان. قالت لي وهي تشير إلى أخي:

- هلا نمتَ، يا «فيدنكا». انظر إلى «ميتيا» ما أعقله. لقد نام. قفزت إلى سريري وأنا أمسك بيدها. ثم أرخيتُ يدها. حرّكتُ رجليّ تحت الغطاء ثم تدثّرت به. وهكذا كنتُ أحسّ بالهناء، كنت هادئاً وكنتُ أفكّر: «أحبُّ مربيتي، إنها تحب «ميتيا» وتحبني، وأنا أحبُّ «ميتيا»، وميتيا يحب المربية ويحبني. والمربية تحب «تاراس» وأنا أحب «تاراس»، وميتنكا يحبه. وتاراس يحب المربية ويحبني، وماما تحب المربية وتحبني. والمربية تحب بابا وماما وتحبني. وكل الناس يحبون، وكل واحد يحسّ بالهناء.

فجأة، سمعتُ أمينة الصندوق تدخل وتقول بقوة شيئاً بصدد آنية السكر فتجيبها المربيةُ بقوة أنها لم تأخذها، وأحسُّ بالألم والخوف، لستُ أفهم ويستولي علي إحساسٌ من الرعب، فأغرق رأسي تحت الغطاء، لم تخفّف الظلمة ممّا بي. وتذكرت كيف أن صبيّاً ضُرب أمامي وكيف كان يصرخ وكم كان وجه «فوكا» شنيعاً وهو يضرب هذا الصبي. كان يصيح به: «آه! لن تعود إلى ذلك؟ لن تعود إلى ذلك؟» وظل يضربه والصبي يجيب: «لن أعود إلى ذلك». لكن «فوكا» كان يردد: «لن تعود إلى ذلك» واستمر في ضربه.

أثاروني ذلك. وبدأتُ أنتحبُ وأنتحبُ. ولم يستطع أحدٌ لزمنٍ طويل أن يُهدّئني. هذا النحيب وذلك الأسى كانا بالضبط أول تجلٍ لجنوني الحالي.

أصابتني مرةً أخرى نوبةٌ لأن عمتي كانت تتكلم عن يسوع. أذكر ذلك. كانت تريد أن تنصرف، لكننا قلنا لها:

- حدّثينا أيضاً عن يسوع.

- لا، ليس لدي وقتٌ الآن.

- بلى، بلى، حدّثينا.

وكان ميتنكا يطلب هو أيضاً أن تروي وبدأت مرة أخرى القصةَ نفسها. روتْ أنه صُلبَ، وأنه ضُربَ وعُـذِّب، وأنه لم يكفّ عن الصلاة، ولم يلمْ حتى جلاّديه.

- لِمَ عذّبوه. ياعمتي؟

- كان الناس أشراراً

- لكنه هو كان صالحاً؟

- آه! تجاوزت الساعة الثامنة. أتسمعون؟

- لِمَ ضربوه؟ لقد صفح. فلم ضربوه إذن؟ هل توجّع؟هل توجع، يا عمتي؟

- آه! الآن سأتناول الشاي

- لعل ذلك غير صحيح! لم يُضرب؟

- آه! الآن...

- لا لا، لا تذهبي.

ومن جديد، أصابتني نوبةٌ. انتحبتُ. ثم أخذتُ أضربُ رأسي بالجدار.

هكذا كانت الأشياء تمرُّ في طفولتي. لكن منذ سن الرابعة عشرة، عندما استيقظتْ فيّ العاصفة الجنسية وأخلدتُ إلى الرذيلة، هدأ فيّ كلُّ شيء وصرت فتى كسائر الفتيان، مثلنا جميعاً نحن الذين نُغذّى على نحو وافر ودسم، والذين تخنّثنا بسبب نقص التموين الجسدي ولأننا معرّضون لكثير من الإغراءات التي تُلهب شهوانيتنا. ألفيتُ نفسي هكذا وسط أولاد فاسدين مثلي أنا نفسي. وقد لقَّنني فتيان من لِداتي الرذيلة التي مارستُها. ثم حلّت رذيلةٌ أخرى محل هذه الرذيلة: تعلمتُ معرفةَ النساء وعشت حتى سن الخامسة والثلاثين باحثاً عن الملذات عاثراً عليها دائماً. كنتُ سليماً و لم يظهر أي عرض من أعراض الجنون علي.

انقضت السنون العشرون التي كنتُ فيها صحيح الجسم على نحوٍ لم أكدْ احتفظ بذكراها، وأنا أتذكرها بمشقة، وأفكر فيها باحتقار. وككل فتيان وسطي المتزنين أنهيت دراستي الثانوية وانتقلت إلى الجامعة حيث درستُ القانون وأنهيت دراستي. ثم تعرّفت على التي هي امرأتي وتزوجتُ وتوظّفتُ في القرية، كما يقال: ربيّتُ الأولاد، ودبّرتُ شؤوني الاقتصادية، وكنت قاضي صلح.

بعد عشر سنوات من زواجي، أصبتُ بأول نوبة جنون منذ طفولتي.

كنّا، امرأتي وأنا قد ادّخرنا مالاً جاءنا من إرث ورثته، ومن شهادات الاسترداد التي لي، وقرّرنا أن نشتري ملكيّةً. ومن الواضح أن مسألة التنمية العقلانية لثروتنا، وهي تنمية تحققت أفضل مما لو كانت عن طريق الآخرين، كانت تشغلني كثيراً. كنت أستعلم في كل مكان لأعلم أين يبيعون الأملاك، وكنتُ أقرأ كل الإعلانات في الصحف. كنتُ أبحثُ عن ملكية يمكن لثمن شرائها أن يُغطّى بعائداتها أو بثمن الخشب فيها، بحيث لا يكلّفني شراؤها شيئاً. كنتُ أبحث عن غبيّ، محروم من الحسّ السليم، وخُيّل إلي أنني عثرت عليه.

كانت في مقاطعة بنزا، ملكية تُحيط بها غابةٌ عظيمة معروضةٌ للبيع، وبحسب المعلومات المجموعة، كان مُباحاً الافتراض بأن البائع كان غبياً حقاً، وأنني كنتُ أستطيع أن أغطّي ثمن الشراء، مبيع الغابة وحدها. فقصدت تلك الملكية.

ركبنا، خادمي وأنا القطار أولاً، ثم عربةً بريدية، وقد سرّتني الرحلةُ كثيراً، وكان خادمي الشاب الطيبُ مرحاً هو أيضاً. كنا نطالع أمكنة جديدة ووجوهاً جديدة. كنا نسافر ونتسلى. كان علينا أن نقطع نحو مئتي كيلو متر. وقرّرنا ألا نقف إلا لنغيّر الجياد.

هبط الليل، ونحن ما نزال على الطريق. كنا ننعسُ. نمتُ لكني استيقظتُ فجأة وأنا فريسةٌ للخوف. وكما يقع ذلك كثيراً أفقتُ خائفاً، مهتاجاً، خُيِّل إلي أنني لن أنام أبداً بعد ذلك.

تساءلتُ: «لَمَ أسافر؟ أين أمضي؟ إن مشروعي لشراء ملكية بسعر رخيص كانت تسرني، لكنْ خطرت لي بغتة فكرة وهي أنني لاً ينبغي أن أذهب بعيداً، وأنني سأموت في هذه المنطقة المجهولة. وبدا لي ذلك مخيفاً. استيقظ «سيرج» الخادم. انتهزت يقظته لأخاطبه. كلّمتُه عن

هذه المقاطعة، كان يجيب وهو يمزح. وضجرتُ، فحدثته من جديد عن ذويَّ، وقلت له كيف سنشتري. ودهشتُ من أنه كان يجيب بمرح. كان كل شيء يبدو له ساراً ومسليّاً، بينما كان كل شيء يثير اشمئزازي. ومع ذلك فقد كنتُ أحسُّ بالتخفّف وأنا أكلّمه. وإضافة إلى ضجري، كنت أشعر بالخوف وكان التعب ينهكني. وددتُ لو أن الرحلة تنتهي، وكان يبدو لي أن كل شيء سيسير سيراً أحسن لو دخلتُ بيتاً ورأيت الناس وشربتُ الشاي ونمتُ، على الخصوص، كنّا نقترب من مدينة «آرزاماس[1]».

- لو بقينا هنا؟ سنستريح قليلاً

- لِمَ لا؟ اقتراح حسن

- أما تزال المدينة بعيدة؟

- نحو سبعة كيلو مترات

كان الحوذي منظّماً، دقيقاً، وصموتاً. كان يقود عربته ببطء وحزن.

كنا نتقدم. صمتُّ. كنت أحسُّ أنني أحسن لأنني كنتُ أتوقع الراحة، وكنتُ آملٍ أن كل شيء هناك سينجح. ظللنا نسير في الظلمة، وبدا لي ذلك طويلاً إلى حدّ رهيب، بلغنا مدخل المدينة، كان السكان نائمين. وكانت تُشاهدُ في الليل بيوتٌ صغيرة، وتُسمَع بوضوح أكبر كدفاتُ الخيل. وبين الحين والآخر كنا نحاذي بيوتاً بيضاء كبيرة. كان ذلك كله حزيناً. كنت أود لو أعثر على نزل وعلى سماور وعلى الراحة، وأنام.

---

١ - ارزاماس: مدينة صغيرة في مقاطعة بنزا.

وقفنا أخيراً أمام بيت كان أمامه عمود. كان هذا البيت أبيض. لكنه بدا حزيناً للغاية، حتى خفتُ. خرجتُ ببطء. أنزل سيرج كلّ ما نحتاج إليه بخفة ورشاقة، وفي الوقت نفسه كان يدقّ الباب. كان ضجيج أقدامنا يثُير فيّ الغثيان. دلفتُ إلى البيت، كان فيه رواق صغير. دلّنا حارسُ الليل الذي كانت على وجنته بقعةٌ - بدت لي هذه البقعة رهيبةً - على غرفة. كانت الغرفةُ مظلمةً. دخلتها. أحسست بخوفي ينمو.

- هل عندكم غرفةٌ جاهزة؟ أودّ لو أنام

- نعم، هذه

كانت غرفةً مربّعة ومبيّضة بنظافة. ما أكثر ما أذكر ذلك! ماآلمني هو أن الغرفة كانت مربعة وكان فيها نافذة عليها ستارة حمراء. وكانت الطاولة من خشب البتولة الكاربلي، وكانت الأريكة مدوّرةً عند جوانبها. دخلنا، وضع «سيرج» السماور، وصبّ الشاي. وأنا أخذت وسادة ونمتُ على الأريكة. لم أكن أنام. سمعتُ سيرج يشرب الشاي ويناديني. خفتُ أن أنهض، أن أمنع النوم من المجيء وأرعبني أن أظلّ في هذه الغرفة. لم أنهض وتثاءبت. والحق أني تثاءبتُ لأنني عندما استيقظتُ لم يكن في الغرفة المظلمة أحد. كنتُ مهتاجاً كما كنتُ في الغرفة. وكنتُ أحس أن ليس هناك إمكانٌ للنوم بالنسبة إلي... «لمَ أنا هنا؟ أين أُجرجر نفسي؟ لماذا وإلى أين أمضي؟ أريد أن أهرب من شيء رهيب، لكني لا أقدر على ذلك فأظل دائماً مع نفسي وأظل أنا نفسي سبباً لآلامي. أنا؟ هأنذا. أنا هنا كليّاً. لا الذي من بنزا ولا غيره، وغداً سأصير كاليوم لا أكثر ولا أقل، وأنا نفسي أضجر، لستُ أطيقُ نفسي، أنا مصدر آلامي، أريد أن أنام وأنسى فلا أستطيع. لم أتوصل إلى الانفصال عن أناي.

حينئذ ذهبتُ إلى الرواق. كان سيرج ينام على المقعد الضيق، ويده مُلقاةٌ إلىً الخلف، لكنه كان ينام نوماً هادئاً كان الحارسُ ذو البقعة ينام هو أيضاً. ذهبتُ إلى الرواق لأتخلّص مما يؤلمني. لكن ذلك كان يتبعني حيثما ذهبت، وحزنتُ وقلتُ في نفسي: «آه! ماهذا الغباء؟ لمَ أنا حزين، وممّ أخاف؟».

أجابني صوتٌ داخلي، صوتُ الموت: «مني أنا، أنا هنا».

تملكني بردٌ قارس. نعم، من الموت. سيأتي الموت إنه هنا، لكن ما كان ينبغي له أن يكون هنا. إن كان عليّ حقاً أن أجابه الموت، لما أحسستُ بما أَحسُّ به في هذه اللحظة. إذنْ لخفتُ. أما الآن فليس خوفاً ما أشعربه، كنتُ أرى، كنتُ أحس أن الموت يأتي، لكنني كنتُ أحسّ في الوقت نفسه أن ذلك لا ينبغي أن يكون. كان شخصي كله يشعرُ بضرورة الحياة، بحق الحياة، لكنني كنتُ أرى الموت يتمّ في الوقت نفسه. وكان هذا التمزّق الداخلي رهيباً. حاولتُ أن أطرد هذا الرعب. وجدتُ شمعداناً نحاسياً كانت فيه شمعةٌ ذاب نصفُها فأشعلتُها. كان ضوء الشمعة الأحمر وطولها، وهو أقصر من طول الشمعدان، يقولان الشيءَ نفسه، لا شيء في الحياة سوى الموت، لكنه لا ينبغي أن يوجد.

كنتُ أحاول أن أفكر فيما كان علي أن أهتم به: الشراء وزوجتي، كلُّ ذلك بدا لي أنه العدم، بدلاً من أن يفرحني. أردتُ أن أقتل القلق الذي كان يضغط علي وأنا أظن أنني سأفقد الحياة.

كان لابدّ من النوم. تمدّدتُ، لكنني وثبتُ على الفور من الأريكة مرعوباً. كان القلق هنا، كان قلقاً نفسياً، كالذي ينتابنا قبل التقيّؤ، لكنه نفسيٌّ مرعبٌ رهيب. يبدو أننا نخشى الموت، لكنا عندما نعمل

الفكر ونفكّر في الحياة نتبيّن أننا لا نخشى إلا الحياةَ التي تموت. كأن الحياة والموت شيءٌ واحد. كان شيءٌ يحاول أن يشقّ نفسي إلى جزأين، لكنه لا يُفلح.

كنتُ سأرى النائمين، وحاولت أن أنام أنا نفسي، أبداً هذا القلق الأحمر، الأبيض، المربع. كان شيء يحاول أن ينفجر فلا ينفجر.

كنت أتألم ألماً جافاً وخبيثاً، لم يكن فيّ أية ذرة من الصلاح، وإنما هو خبيثٌ متساوٍ. هادئ، إزاء نفسي وإزاء ما خلقني. مَنْ خلقني؟ الله، يُقال إنه الله...

فكرتُ في الصلاة، منذ زمن طويل منذ عشرين سنة لم أصلِّ ولم أكن أومن بشيء، مع أني أعترفُ كلّ عام. أخذتُ أصلّي، «إلهي، ... أبانا... يا أم الإله..». كنتُ أخترع الصلوات، وأرسمُ علامة الصليب وأركع، وأنا التفت ورائي في الغالب، لأنني كنت خائفاً أن أرى. لأن ذلك كان سيصرفني عن الصلاة ونمتُ. وما إن تمدّدتُ وأغمضتُ عيني حتى عاودني شعورُ الرعب نفسه، واستولى عليّ. لم أقدر على تحمّله فأيقظت الحارس الليلي وأيقظتُ سيرج وأمرتُه بتربيب الحقائب، وسافرنا.

وما إن تحركنا في الهواء الطلق حتى أحسستُ أني تحسّنت. لكني أحسستُ بشيء جديد يستولي على نفسي، سمّم ذلك كل حياتي الماضية...

وصلنا إلى الملكيّة عند المساء. استقبلنا مديُر الأعمال وهو شيخ، استقبالاً حسناً، وإن كان حزيناً - كان يأسف لبيع الملكية. كانت هناك غرفٌ مريحةٌ مؤثّثة بأثاث مريح. وفيها سماور جديد متلألئ، وآنية

للشاي ثمينة، وعسل مع هذا الشاي. كان كل شيء حسناً. لكني كنتُ أطرح عليه، وكأنني ألقي درساً أسأتُ حفظه، بدون حماسة، أسئلةً عن الملكيّة. كان كل شيء يبدو لي حزيناً. نمت مع ذلك أثناء الليل بدون حزن. وعزوتُ هذا إلى الصلوات التي تلوتُها قبل النوم.

ثم إني عدتُ إلى الحياة كما كنت أحيا من قبل، لكن الخوف من الحزن ظلّ معلقاً فوق رأسي، منذ ذلك الوقت. كان ينبغي لي أن أعيش، ولاسيما في الشروط المعتادة، كان عليّ أن أحيا حياةً تمنعني من السقوط مرة أخرى تحت سيطرة هذا الحزن الرهيب الذي استولى عليّ لأول مرة من «آرزاماس»، مثل طالبٍ تعوّد أن يُلقي آلياً درساً حفظه عن ظهر قلب.

عدتُ إلى البيت سالماً معافىً، دون أن أشتري الملكيّة، لم يكفِ المبلغُ المقترحُ، واستأنفتُ حياتي القديمة، مع هذا الفرق تقريباً وهو أني صرتُ أذهب الآن إلى الكنيسة وأصليّ. كان يبدو لي أن كل شيء كان كما كان قديماً. لكني عندما أفكر في ذلك الآن مرةً أخرى، يتبيّن لي أن الأشياء لم تكن كما كانت قديماً. كنتُ أعيش على ما كنتُ قد شرعتُ فيه من قبل، كنت أسير على سِكّة موضوعة من قبل، وأتقدّم بقوة الزمن الماضي، دون أن أشرع بشيء جديد. كانت طاقتي أقل حتى للاستمرار فيما كان قد سيِّرَ من قبْل. كنتُ حزيناً وصرتُ مؤمناً، ولاحظت ذلك امرأتي فوبّختني، وضايقتني بسبب ذلك. لم يعد إليّ قلقي مدة بقائي في البيت.

لكنني سافرت ذات يوم إلى موسكو بسرعة، أعددتُ العدّة لسفري أثناء النهار وسافرتُ مساءً. كانت لي فيها دعوى قضائية، كنتُ مبتهجاً حين وصولي إلى موسكو. أثناء الطريق تحدثتُ مع إقطاعي

من خاركوف عن الاقتصاد والمصارف والمسرح والفندق الذي ننزل فيه، وقررنا أن ننزل نحن الإثنين في فندق موسكو، الواقع في شارع «مياسنتسكايا»، وأن نذهب لسماع فاوست.

وصلنا، أخذتُ غرفة صغيرة. شممتُ في الرواق رائحة نفّاذة. حمل الحاجب حقيبتي، وأشعلتْ خادمةٌ الشمعة. لمع الضوء ثم تناقصَ اللهبُ، كما يحدث ذلك دائماً. في الغرفة المجاورة، سعل أحدهم، شيخٌ بدون شك. خرجت الخادمة وبقي الحاجبُ فسألني إن كان يجب أن تُفرغ الحقائب. انتعش اللهبُ وأضاء سجادة الجدار التي كانت زرقاء مع حواش صفراء، والحاجز وطاولةً عرجاء وأريكة صغيرة ومرآةً، والنافذة، والغرفة الصغيرة كلها، في نهاية الأمر. وفجأةً أحسستُ برعب «آرزاماس» يعود إليّ.

- يا الهي، كيف سأنام هنا؟

وقلت للحاجب كي أستبقيه:

- أَخْرج الأغراضَ من الحقائب، وسأرتدي ثيابي بسرعة وأذهب إلى المسرح.

أفرغ الحاجب الأغراض

- اذهبْ من فضلك، إلى الرقم ٨ وقل للسيّد الذي وصل معي إنني جاهزٌ، وسآتيه في الحال.

خرج الحاجبُ، أخذت أرتدي ملابسي على عجل، وكنت أخاف من النظر إلى الجدران.

فكرتُ: «ما أغباني! ممّ أخاف، كما يخاف الطفلُ؟ لستُ أخاف

من رؤيا. من رؤيا؟ الأفضل لي أن أخاف من الرؤيا ولا أخاف ممّا أخاف منه الآن. ممَّ؟ من لا شي. من ذاتي؟ آه! غباء».

بالرغم من كل شيء ارتديتُ قميصاً منُشى، قاسياً، بارداً، وزرَّرتُه، ثم ارتديتُ سترتي، واحتذيت حذائي الجديد، وتوجهت إلى غرفة السيد الذي من خاركوف. كان جاهزاً ذهبنا لنشاهد «فاوست». وفي الطريق دخلنا إلى محل الحلاق، وكان فرنسياً. قصّ لي الحلاق شعري، وثرثرتُ معه، واشتريت قفّازين. كان كل شيء يسير سيراً حسناً، لدى خروجنا من المسرح، اقترح علي السيّد أن نذهب للعشاء. لم يكن ذلك من عاداتي، لكن عندما اقترح عليّ هذا الاقتراح خطرت ببالي غرفتي والحاجز، فقبلتُ عَرْضَه.

عدنا في نحو الساعة الثانية. شربتُ كأسين من الخمر، وهي كمية لم أكن قد تعوّدتها، وكنتُ مرحاً. وما إن دخلت الرواق ذا المصباح المستور حتى هاجمتني رائحةُ الفندق، وسرتْ في ظهري رعشةٌ من الخوف. لم تبق لي حيلةٌ في الأمر. شددتُ على يد رفيقي ودخلتُ غرفتي.

قضيت ليلةً رهيبة، أرهب من ليلة «آرزاماس». في الصباح فقط، عندما عاد الشيخُ إلى السعال في الجهة الأخرى من الباب، نمتُ، لافي سريري، لكن على الأريكة. تألمتُ طوال الليل، على نحو لا يُطاق. أخذت روحي تنفصل من جديد عن جسدي، انفصالاً مُوجعاً، أنا أعيش، وقد عشتُ، ولابد أن أعيش، وفجأةً، الموت، اختفاء كل شيء. ما جدوى الحياة؟... أموت؟... أأقتل نفسي؟ أنا أخاف انتظار الموت، أنتظر أن يأتي الموت. ازداد خوفي إذن. يجب أن أعيش. ولماذا؟ كي أموت؟ لم أستطع الخروج من هذه الدائرة. أخذتُ كتاباً

قرأتُه، نسيت لحظة نم، مرةً أخرى، السؤال نفسه، القلق نفسه. لزمتُ الفراش وأغمضتُ عيني، ساءَ الأمرُ.

الله أراد ذلك. لماذا؟ يُقال: «لا تطرحْ أسئلةً، صَلِّ»، حسناً. صلّيتُ. أنا أصلّي الآن كما صليتُ في آرزاماس. صليت حينئذ وفيما بعد كما يصلي طفلٌ...«إذا كنتَ موجوداً فأنرْني: لم أنا كائن؟» جثوتُ، وتلوتُ صلوات أعرفها، وألفتُ صلوات جديدة وأضفت: «أنرْني، أجبني، افتح لي عينيّ» صمتُّ بانتظار الجواب. لكنْ لم يأتني جوابٌ، كأن الذي عليه أن يجيبني غير موجود. وبقيت وحدي مع نفسي، أجبتُ عن أسئلتي، مكان الذي لم يشأ أن يجيبني، أحببت نفسي: «لكي تكون لك الحياة الآتية». لماذا هذا الالتباس، هذا الألم؟ لستُ أومن بحياة آتية. كنتُ أومن بها عندما لم أكن أسأل من كل نفسي، أما الآن فلم أعد أستطيع، لا أستطيع. لو كنتَ موجوداً لأعلنت ذلك لي، للناس. آه! ليس هناك أنتَ. ليس هناك سوى اليأس. لكني لا أريده، لا أريده.

كنتُ خانقاً. طلبتُ إليه «هو» أن يكشف لي عن الحق، أن يُظهر نفسه لي، فعلتُ ما يفعله الآخرون. لكنه لم يكشف نفسه. « اطلبوا وسوف تُعطون». تذكرتُ ذلك وطلبتُ. وفي هذا الطلب لم أجد العزاء، وإنما وجدت التخلّي. لعلي لم أطلب، ولعلي تأبيّتُ عليه. «أنت بعيد عنه وهو قريب منك» لم أكن أومن به، بيد أني سألته أن يُنيرني، لكنه لم يُنرني. كنتُ أحسبُ حسابه، كنتُ أحكم عليه، لم أكن أومن به بكل بساطة.

في اليوم التالي، بذلتُ جهداً كبيراً لأنجز أعمالي أثناء النهار، وأتحاشى الليل في الفندق، لم أفلحْ في تسوية كل شيء، لكنني عدتُ

إلى غرفتي في المساء. هذه الليلة الموسكوفيه بدّلتْ حياتي أكثر من ليلة «آرزاماس». غدوتُ بليداً وقلّ اهتمامي بشؤوني شيئاً فشيئاً. وأخذت صحتي تضعف. وطلبتْ امرأتي أن أتّبع علاجاً. كانت تؤكد أن نظرياتي عن الله والدين، جاءت من مرضي. أما أنا فكنتُ أعلم أن ضعفي ومرضي جاءا من هذا السؤال الذي ظلّ بلا جواب - حاولتُ أن أحول دون أيّ توسع لهذا السؤال، وعندما كنتُ أجد نفسي في ظروف عادية، كنت أحاول أن أَشْغل حياتي. كنت أذهب إلى الكنيسة نهار الأحد وفي أيام الأعياد، وكنتُ أعترف، حتى لقد صُمْتُ، وكنتُ أصلي أكثر من ذي قبل، منذ رحلتي إلى بنزا، لم أكن أرجو شيئاً من وراء ذلك، مثل سفتجة لم تُوفَ في وقتها، مع العلم سلفاً بأن الدفع مستحيل. كنتُ أفعل ذلك في جميع الحالات. كنتُ أشغل حياتي، لا بالمشاغل المنزلية، - التي لم أكن أحبها بسبب الصراع الذي تفرضه في حين لم يبق فيّ طاقةٌ - بل بقراءة الصحف والمجلات والروايات أو باللعب بالورق، كان المظهر الوحيد لطاقتي هو الصيد الذي كان عادةً قديمة لي، فأنا صياد منذ نعومة أظفاري.

جاءني جارٌ ذات يوم، وهو صياد أيضاً، مع كلابه قاصداً صيد الذئب، فرافقتُه وذهبنا في الزلاجة، لم نحصل على نتيجة: كانت الذئابُ تهرب أثناء الحَوْش. سمعت ذلك من بعيد، وتقدّمتُ في الغابة متتبّعاً أثراً حديثاً لأرنب، قادني ذلك بعيداً في الحقول حيث اكتشفت الأرنب، لكنه هرب بسرعة شديدة حتى غاب عن نظري. فعدتُ على أعقابي عبر الغابات. كان الثلج عالياً، وكانت الزلاّجةُ تغرق فيه، كان كلّ شيء يتّشح بالصمت أكثر فأكثر. تساءلتُ أين أنا. كان الثلج يُعطي كلّ شيء مظهراً غير معتاد.

فجأة أحسستُ أنني تهتُ. كان الصياد والبيت بعيدين. لو بقيت مكاني لجمّدني البرد، أأتقدم؟ ضعفتْ قواي، صرخت فأجابني الصمتُ وحده. رجعتُ القهقهرى، لكني لم أعثر على الطريق الصحيحة، نظرت حولي، لم يكن من سبيل لتمييز الشرق من الغرب. عدت أدراجي من جديد، تعبت ساقاي وخفتُ وتوقفتُ واستولى عليّ قلق موسكو وآرزاماس مُضاعَفاً مئة مرّة.

كان قلبي يدقّ دقاً مجنوناً، وكانت يداي ورجلاي ترتجفان. أكان الموتُ هنا؟ لم أكن أبتغيه، لمَ أموت؟ ما الموتُ؟ أردت أن أسأل الله، كما سألتهُ من قبل، وأن أوجّه إليه لومي، لكني أحسست بغتةً أنني لا أجرؤ على ذلك، وأنني لا ينبغي أن أفعل ذلك، وأننا يجب ألا نحسب حساباً له، لما يقول، لما يجب، وأنني أنا وحدي المذنب. وأخذت أتضرّع إليه أن يصفح عني، وحاكمتُ نفسي بنفسي، وبدوتُ لنفسي سيّئاً.

لم يطلْ قلقي، عاد إليّ هدوئي وتمالكتُ نفسي، واتجهتُ اتجاهاً آخر، و لم ألبثْ أن صرتُ خارج الغابة، لم أكن بعيداً عن طرف الغابة. عثرتُ عليه كما عثرتُ على الطريق. كانت أعضائي ما تزال ترتجف وقلبي يخفق خفقاناً سريعاً، لكني كنتُ فرحاً. لقيتُ الصيادين وعدتُ معهم إلى البيت. كنتُ مبتهجاً وكنتُ أعلم أن لي الحق في أن أبتهج وقلتُ في نفسي إنني سأفحص ذلك كله فيما بعد، عندما أكون وحدي. هكذا مرَّ كل شيء. بقيت وحدي في مكتبي وصليتُ طالباً الغفران متذكراً ذنوبي. خُيِّل إلي أنها ليست كثيرة. بيد أني فكرتُ في كنُه هذه الذنوب، فبدت لي حقيرة.

منذ ذلك الوقت، صرتُ أقرأ الكتابات المقدّسة. لم تكن التوراةُ

مفهومةً، بالنسبة إلي، لكنها كانت تجتذبني وكان الإنجيل يحرّك مشاعري، لكنني كنت أفضّل سيرة القديسين على جميع القراءات، لأنها كانت تعزّيني حين تُقدّم لي قدوةً يمكن احتذاؤها تماماً، ومنذ هذه اللحظة غدا كل ما يتعلق بتدبير الاقتصاد أو بإدارة المنزل أقل إثارة لاهتمامي، بل أخذ ينفّرني، لم أكن أرى الأشياء بوضوح دائماً. كيف أتصرف، وماذا أفعل؟ لاحظتُ ذلك مرة أخرى بصدد شراء الملكية.

كانت تُباع ملكيةُ، غير بعيد منا، بشروط ملائمة. كان كل شيء حسناً، مرضياً في ظاهره. كان الفلاحون الذين يملكون أرضاً لا تكاد تكفي لبستان الفاكهة، مضطرّين في مقابل حق الرعي أن يحصدوا حقول السيد الإقطاعي مجّاناً، فكرت في ذلك كله، وكان يرضيني بحسب عادات تفكيري القديمة. لكني ذهبتُ إلى الملكية، ولقيت فيها الفلاحة العجوز التي تملكها، وسألتُها عن الطريق وشرعتُ في الحديث معها. حدّثتني عن صعوباتها. وعند عودتي إلى البيت، بيّنتُ لامرأتي المزايا التي ينطوي عليها هذا الشراء. خجلتُ. وأحسستُ أني حقير. وأعلنتُ أنني لا أستطيع أن أشتري هذه الممتلكات لأن أرباحي ستقوم فقط على شقاء الآخرين ومصائبهم. أعلنتُ ذلك وبدت لي بجلاء ومباشرة صحةُ ما أعلنتُ. ولاسيما أن الفلاحين يطمحون إلى أن يعيشوا مثلنا، وأنهم بشرٌ، إخوةٌ، أبناء الأب، كما قيل في الإنجيل.

وفجأة، انفصل عني شيءٌ كان يعذبني منذ زمن، وكأن ولادةً حدثت. غضبت امرأتي ووبّختني، وأنا كنتُ سعيداً.

كان ذلك بداية جنوني، لكني لم أصبح مجنوناً كلياً إلا بعد شهر.

ذهبتُ إلى الكنيسة لحضور القدّاس، وكنت أصلّي بحرارة وأصغي وأنا منفعل. قُدِّم إليّ القربانُ، ثم ذهب المصّلون إلى الصليب وهم

يتدافعون، وكان عند المخرج متسوّلون. وفهمت بوضوح شديد أن ذلك كله ما كان يجب أن يوجد. ليس هذا كل شيء: ليس فقط أن ذلك كله لا يجب أن يوجد، بل وأيضاً أن ذلك كله غير موجود بالفعل وإذا كان غير موجود، فالموت غير موجود أيضاً وكذلك الخوف و لم يبق فيّ تمزّق داخلي، و لم أعد أخاف شيئاً بدءاً من هذه اللحظة.

حينئذ تمَّ النورُ فيّ وصرت إلى ما أنا عليه.

وإذا كان ذلك الشيء التافه غيركائن، فهو حينئذ وقبل كل شيء غيرُ كائن فيّ. عند الخروج من الكنيسة، عند عتبتها، وزّعت ما كان معي - خمسة وثلاثين روبلاً - على المتسولين، وعدتُ إلى البيت على قدمي وأنا أُحدّث الشعب.

***

الشيطان

١٨٨٩

«أما أنا فأقول لكن: إن كل من نظر إلى امرأة حتى يشتهيها، فقد زنى بها في قلبه، فإن عثرتك عينك اليمنى فاقلعها، وانبذها عنك بعيداً، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يُلقى جسدك كله في جهنم. وإن عثرتك يدك اليمنى فاقطعها، واطرحها بعيداً، فإنه خير ألف مرة أن يهلك أحد أعضائك، ولايذهب جسدك كله إلى جهنم».

كان يستطيع «أوجين ايرنينييف» أن يؤمِّل في مركز مرموق. كان يملك كلَّ شيء من أجل ذلك: لقد عني ذووه بتربيته عناية حسنة، وقد أنهى بنجاح باهر دراسته في كلية الحقوق في بطرسبرج، وكان له بواسطة أبيه الذي مات حديثاً، علاقات بأرقى فئات المجتمع، حتى إنه دخل الوزارة برعاية الوزير نفسه، كانت لديه أيضاً ثروة عظيمة، لكنها كانت معرّضة للخطر. لقد عاش الأبُ في الخارج وفي بطرسبرج، وكان يخصّص لكل من ولديه «أوجين»، والبكر «آندريه»، وهو ضابط في حرس الفرسان، معاشاً سنوياً مقداره ٦٠٠٠ روبل، وكان هو وامرأته ينفقان بسعة. كان يأتي في الصيف ليقضي شهرين في الريف، لكنه لم يكن يُعنى باستغلال أرضه، وكان

يوكل أمرها إلى مدير أعماله المتخم الذي لم يكن هو أيضاً يُعنى بها كثيراً، لكن سيّده قد منحه ثقة كاملة.

عندما مات الأبُ وعمد الوالدان إلى تصفية الإرث، تبيّن أن ديوناً كثيرة كانت تثقل الإرث حتى أن المحامي نصحهما بأن يحتفظا فقط بملكية جدتهما التي تُقدَّر بمئة ألف روبل، وأن يتخليّا عن الإرث. لكن جاراً ريفياً، وهو ملاك أيضاً كانت له صلات عمل مع العجوز ارتينييف، أي أنه كان بحوزته سند لأمره من العجوز، وقد جاء من بطرسبرج لهذه الغاية، أفهمهما أنهما يستطيعان أن يتخلّصا من الديون وأن يبنيا ثروةً عظيمة، كان يجب لأجل ذلك بيع الغابة وبضع قطع من الأراضي البور مع الاحتفاظ بالأساسي، وهو منجم ذهب، أي أملاك «سيميونوفسكوي» ذات الـ ٤٠٠٠ هكتار، ومصفاة و٢٠٠٠ هكتار من المراعي الخصبة، لكن لابّد للنجاح، من التفرّغ التام لهذه المهمة، والإقامة في الريف، والإدارة بذكاء وتدبير.

قصد «أوجين» أملاكه، في الربيع (كان الأب قد مات في الصوم الكبير)، وبعد تفتيش دقيق صمّم أن يقدّم استقالته، وأن يقيم مع أمه في الريف ليستثمر بنفسه الأملاك الرئيسية. أما أخوه الذي لم يكن على وجه الدقة، صديقاً له، فقد سوّى الأمور معه على النحو التالي: تعهّد بدفع ٤٠٠٠ روبل سنوياً أو أن يعطيه ٨٠٠٠ روبل دفعة واحدة، وعلى هذا الأساس يتخلّى الأخ عن حصته في الإرث.

وهذا ماجرى. فما إن استقر هو وأمه في البيت الكبير، حتى أخذ يستغلّ أملاكه بحماسة وبحذر، في آن واحد. يظنّ الناسُ عادة أن الشيوخ هم المحافظون الجامدون وأن الشباب هم المجدّدون. ليس هذا صحيحاً تماماً. فالمحافظون هم عادةً شبابٌ يشتهون أن يعيشوا،

لكنهم لا يفكرون وليس لديهم وقتٌ للتفكير في الطريقة التي يجب أن يعيشوا بموجبها، ولهذا السبب يتخذون الحياة كما هي نموذجاً لهم.

تلك كانت حال «أوجين»، لقد كان حلمه، مثله الأعلى، منذ أن أخذ يعيش في الريف، أن يستعيد لانمطَ الحياة في زمن أبيه (كان أبوه ملاّكاً سيئاً) بل نمط الحياة في زمن جدّه. ففي البيت والحديقة وفي جميع أملاكه، بطبيعة الحال، سعى إلى أن يبتعث الروح العامة لذلك الزمن، مع بعض التعديلات التي فرضها الزمن، ليرى رضا الجميع والنظام والرفاهية تسود من حوله. كان عليه الكثير من العمل. كان لابد من إرضاء مطالب الدائنين والمصرف، ومن أجلِ ذلك كان لابد من بيع الأراضي، وتأجيل الاستحقاق ولابد فضلاً عن ذلك من تأمين المال للاستثمار، بالزارعة حيناً، أو باستثمار أراضي أملاك «سيميونوفسكوي» الواسعة المحروقة ومصفاتها، على أيدي خدمه. كان لابد من العمل بحيث لا يبدو البيت والحديقة مهملين، خربين.

كانت المهمة عسيرة، لكن «أوجين» كان مملوءاً بالقوى الجسدية والمعنوية. كان عمره ستة وعشرين عاماً، وكان متوسط القامة، ذا بنية قوية، وعضلات نمّتها الرياضةُ، وكان دموياً، وجنتاه ملوّنتان، أسنانه وشفتاه لامعة، شعره غير كثيف لكنه ناعم وجعد. كان عيبه الوحيدُ قصرَ نظره وقد زادته النظارة وضوحاً فحفرت أثرها على كل من جانبي الأنف. هذا جسدياً، أما معنويا، فقد كان إنساناً كلما عرفتهَ ازددت حبّاً به. وقد آثرته أمُه دائماً، ومنذ موت زوجها، لم تحوّل إليه كل حنانها فحسب، بل ركّزت فيه كلّ حياتها، و لم تكن أمه وحدها تحبّه هذا الحب. إن رفاقه في المعهد والجامعة هم أيضاً لم يكونوا يحبّونه

حبّاً خاصاً فحسب، بل كانوا يقدّرونه أيضاً. وكان يترك في جميع الغرباء الأثر نفسه. لم يكن كلامه موضعاً للشك، لم يكن يتصوّر أحدٌ أنه قادر على الرياء والكذب، وله مثل هذا الوجه المنفتح، الشريف، ومثل هاتين العينين.

على العموم، كان شخصاً يخدمُه الآخرون في أعماله، كان الدائنون يثقون به ويمنحونه ما يمنعونه عن أي إنسان آخر، إن مستخدماً أو قيّماً أو فلاحاً، قادرين على شيء من النذالة أو الغش نحو الآخرين، كانوا ينسون أن يخدعوه، لفرط ما كان ساراً الإحساسُ بعلاقتهم مع رجل بهذا الطيب وتلك الصراحة الخاصة.

ولقد سوّى أوجين في المدينة، بطريقة ما، رَفْعَ الرهن عن أراضيه غير المزروعة وباعها لتاجر، ثم اقترض مالاً من التاجر نفسه، لتجديد خيراته أي الخيل والثيران والعربات، وقبل كل شيء للبدء في بناء ضيعة صغيرة. وأخذت أمورُه تَصْلح. نُقل الخشب وباشر النّجارون عملهم ونُقلت ثمانون نقلة من الزبل، لكن كل شيء مع ذلك كان واهياً.

- ٢ -

في وسط هذه الهموم، وقع لأوجين حادثٌ آلمه كثيراً وإن كان طفيف الأهمية. لقد عاش شبابه كله كما يعيش الشبابُ الأصحّاء، العزّب، أيْ إنه كانت له علاقات مع نساء من جميع الأنواع، لم يكن ماجناً، لكنه لم يكن أيضاً راهباً، كما كان يقول. وكان يعترف أنه كان يلهو بقدْر ما كان ذلك ضرورياً لصحته الجسدية ولحرّيته الفكرية.

بدأ منذ السادسة عشرة، وحتى الآن مرّ كل شيء بسلام، أي أنه لم يستسلم للمجون ولم تستخفّه الحماسة ولم يكن مريضاً قط. في

بطرسبرج، صاحَبَ أولاً خيّاطة لكنها مرضتْ، فدبّر أمره على نحو آخر، وانتظم كل شيء من هذه الجهة، و لم تصبْ حياتُه بأي اضطراب.

أما في الريف، وبعد إقامة شهرين، فلم يكن يعرف البتّة كيف يدبّر أمره. أخذ التعفّف اللاإرادي يضايقه. هل يجب عليه من أجل ذلك أن يذهب إلى المدينة؟ وأين؟ وكيف؟ كدّره ذلك، وبما أنه كان مقتنعاً بأن ذلك الشيء ضروريٌ له، فقد كان يحس بالحاجة إليه، وكان مشغولاً به وكان بالرغم منه يُلاحق بعينيه كلَّ امرأة شابة.

كان يستنكر أن يرتبط في بيته في الريف بامرأة أو فتاة. كان يعلم، من الحكايات، أن والده وجدَّه كانا يتميّزان من هذه الجهة تميّزا تاماً عن ملاّكي زمنهم، فلم تكن لهما أية مغامرة غرامية، في البيت مع أقنانهم، فصمّم أن يتصرّف كما تصرّفوا. لكنه إذ أحسّ فيما بعد أن قلقه يزداد، ثم إذ تصوّر مستفظعاً ما قد يقع له، وأخيراً إذ حدّث نفسه قائلاً: الآن لم يبق أقنانٌ، قرّر أنه يستطيع أن يؤمّن لنفسه امرأةً هنا كما يفعل في أي مكان آخر، لكن بحيث لا يعلم أحدٌ شيئاً من ذلك، لا للمجون، بل من أجل صحته كما كان يقول، وحين أزمع على ذلك، أحسّ بقلق أكبر وعندما كان يتحدّث مع القيّم، أو مع الفلاحين، أو مع التجار، كان يسوق الحديثَ إلى النساء. فاذا استقرّ الحديث عليهن مدّه بارتياح. أما النساء فقد أخذ ينظر إليهن بانتباه متزايد.

– ٣ –

لكن اتخاذ القرار شيء وتنفيذه شيء آخر. أن يُخاطب امرأةً كان شيئاً مستحيلاً، أية امرأة؟ وأين؟ ينبغي أن يتصرّف بطريق إنسان آخر، بطريق مَنْ؟

حدَثَ مرةً أنه دخل يشرب عند حارس الغابة، وكان الحارس صياداً قديماً لأبيه. أخذ أوجين ايرتينييف يحادثه. روى له الحارس قصصاً قديمة عن حفلات الزواج ورحلات الصيد، وفكّر: «أوجين ايرتينييف» على الفور أن من الملائم أن يرتّب شيئاً هنا، في كوخ الحارس، وسط الغابة. لكنه لم يكن يعلم كيف ينظر دانيلو العجوز إلى هذا الشيء. «لعله سيغتاظ من مثل هذا العَرْض، وسوف أخجل... لكنه ربما قبل بكل بساطة» هكذا كان يفكر وهو يصغي إلى العجوز دانيلو، وكان هذا يروي كيف أنه جاء ذات مرة، بامرأة إلى بريانيتسنيكوف.

فكّر «أوجين»: «يمكن أن أجازف بنفسي».

- كان أبوك، لتكنْ له مملكةُ السماء، لايهتم بهذه الحماقات... قال «أوجين» في نفسه: «لايمكن»، لكنه قال لكي يجسّ النَبضَ:

- وكيف كنت تهتم بهذه الأمور الحقيرة؟

- باه! أين السوُء في ذلك؟ كانت مسرورة، وكذلك «فيدور زاكاريتش» كان مسروراً جداً أيضاً، وكان يعطيني روبلاً. كيف نستطيع أن نفعل غير ذلك؟ إنه كائن حي، على كل حال وهو يشرب خمراً... فكرَ أوجين: «نعم، يمكن أن أكلمّه»، وفي الحال بدأ كلامه:

- أتعلم، يادانيلو - وأحسّ بحمرة الخجل حتى أذنيه - أنني فقدت صبري! - ابتسم دانيلو - لستُ راهباً، على كل حال، فلي عاداتي... كان يحسّ أن كلماته غبية، لكنه كان مسروراً لأن دانيلو كان يوافقه.

- ماذا، كان ينبغي أن تقول ذلك منذ زمن بعيد. هذا ممكن، قلْ فقط، أيهّن تريد؟

- اوه! لافرق عندي، أيّاً كانت على ألا تكون بشعة جداً وأن تكون معافاة.

قال دانيلو:

- مفهوم. أوه! عندي طريدةٌ بديعة - احمّر أوجين مرةً أخرى - حلوة جداً، تزوجت منذ الخريف فقط.

همس دانيلو شيئاً لأوجين، فاحمرّ خجلاً وقطب بين حاجبيه. وقال:

- لا، لا، ليس هذا ما يلزمني. أفضّل العكس. (أيَّ عكس يمكن أن يكون المقصود؟) يلزمني العكسُ تماماً، على أن تكون معافاةً وأقل مشاكل، امرأة جندي أو شيءٌ من هذا القبيل.

- مفهوم. «ستيبلنديا» هي التي تلزمك، زوجها يعمل في المدينة، هي بالضبط مثل زوجة الجندي. وهي امرأة جميلة، ونظيفة جداً، ستكون مسروراً. قلتُ لها مرة: «تعالي، وهي...».

- متى إذن؟

- غداً إذا شئتَ. سأذهبُ لأُحضر تبغاً، وسأمرُّ ببيتها، تعال إلى هنا ظهراً، أو إلى البستان قرب الحمّام، في هذا الوقت يكون المكان خالياً من الناس، لأنهم يكونون في القيلولة، بعدَ الغذاء. حسنٌ.

استولى على «أوجين» انفعالٌ غير عادي وهو راجعٌ إلى بيته. ماذا سينجم عن ذلك؟ ماالفلاّحة؟ مخلوق كريه، منفّر؟ وقال في نفسه وهو يتذكّر اللواتي اجتذبْن نظراته: «لا، إنهن جدّ جميلات. ماذا سأقول وماذا سأفعل؟».

أحس بالضيق طوال اليوم، وفي اليوم التالي، ظهراً، قصد بيتَ الحارس. كان دانيلو واقفاً على الباب، بادي الوقار، دون أن يفوه بكلمة، فأومأ برأسه صوب الغابة. تدفقّ الدمُ إلى قلب أوجين واتجه نحو البستان. لا أحد. فتّش حوالي المكان، وكاد يَنْأى لولا أن سمع فجأة تقصّفغصن مكسور. التفت. كانت هي في أيكة، تصلها حفرةٌ عنه، فوخزتْه قرّاصةٌ لم يلاحظها، وسقطت نظارته لكنه بلغ أخيراً الجانبَ الآخر. كانت امرأةً رَخْصة، جميلة، بقميص أبيض، وتنورة حمراء قاتمة، وخمارٍ أحمر فاتح على رأسها، تنتظرُ وتبتسم وهي حافية القدمين.

قالت له:

– الأفضل أن تمرّ بهذا الدرب الضيّق.

اقترب منها، وبعد أن ألقى حوله نظرةً دائرية، ضمّها وبعد ربع ساعة افترقا. عثر على نظارته، وعرّج على دانيلو، ورداً على السؤال الذي طرحه عليه دانيلو:

– حسناً، ياسيدي، هل أنت مسرور؟

أعطاه روبلاً واستأنف طريقه إلى البيت. كان مسروراً.

لم يحسّ أولاً إلا بالخجل، ثم زال الخجلُ، وأحسّ بأنه ناعم البال. الشيءَ والحسنُ أنه يحسّ بنفسه الآن خفيفاً، هادئاً، شجاعاً. أما هي فلعلهً لم يرها جيداً، تذكرّ أنها كانت نظيفة، غضّةً، غير بشعة، لا تتكلّف. تساءل: «من هي؟ اسمها «بيتسنيكوف»، لكن هناك أسرتين بهذا الاسم، لعلها كنة ميشيل العجوز. نعم، بالتأكيد. ابنها يعمل في موسكو. سأسأل عن ذلك».

منذ هذا الوقت اختفى ذلك الغمّ الذي كان كبيراً من قبل، من الحياة في الريف، تلك العفّة اللاإرادية، وإذ تحرّر اوجين من هذا الهم صار يستطيع أن يُعنى بشؤونه وهو حرّ الفكر. والمهمة التي اضطلع بها أوجين لم تكن يسيرةً، كان يبدو له أحياناً أنه ستنقصه القوى الضرورية لإنجاز تلك المهمة، وأنه سُيضطر إلى بيع أملاكه، وأن عمله كله سيذهب هباءً. وما كان يُحزنه قبل كل شيء في هذا الوضع، هو أنه لم يستطع أن ينجز المهمة التي شرع بها. هذا ما كان يعذبه العذاب الأكبر. فما أن يتيسّر له أن يسد ثقباً، حتى ينكشف فجأةً ثقبٌ آخر.

وفي الوقت نفسه، كان يُفاجأ كل يوم بديون جديدة على أبيه لم تكن معروفة من قبل «ومن الواضح أن الأب قد استدان من حيث أمكنه أن يستدين. وفي لحظة تقسيم الميراث ظنّ أوجين أنه عرف جميع الديون، لكنه بُلغ فجأة، في منتصف الصيف، برسالة، أن هناك ديناً قدره اثنا عشر ألف روبل للأرملة «ايسيبوف». لم يكن هناك سندٌ لأمرها، وإنما كان هناك مجرّدُ إيصال قابلٍ للنزاع، حسب قول المحامي. لكن أوجين ما كان يخطُر له أن يرفضَ دفعَ دين أبيه، لمجرّد أن الوثيقة تفسخ المجال للنقاش، أراد فقط أن يعلم إن كان موضوع الإيصال ديناً حقاً

سأل أمه أثناء العشاء:

– ماما، مَنْ «ايسيبوف» هذه، «فاليري فلاديميروفنا ايسيبوف؟».

– «ايسيبوف»؟ لكنها القاصرة التي كان جدّك وصياً عليها، لمَ هذا السؤال؟

روى أوجين لأمه قضية الإيصال.

- كيف لا تخجلُ! لقد أعطاها أبوك كثيراً من المال.

- لكن ألم يكن مديناً لها بشيء؟

- يَعْني... كيف أقول لك... ليس ديناً... إن أباك الذي كان لاحدّ لطيبته...

- نعم، لكن هل كان أبي يعتبر ذلك ديناً؟

- لا أستطيع أن أقول لك ذلك. أجهل ذلك. أعلم أن عندك من الهموم غير هذا ما يكفيك.

رأى أوجين أن ماري بافلوفنا لم تكن هي نفسها تعلم ما تقول.

قال الابن:

- أرى من ذلك كله أنه يجب الدفعُ، سأذهب إليها غداً وأسألها إذا لم يكن ممكناً استمهالها.

نصحته أمّه بعد أن هدأت، وهي فخورةٌ بقرار ابنها:

- اوه! كم أرتي لك! لكن هذا أفضل. اطلبْ إليها أن تنتظر

لقد غدا وضعُ أوجين أشد صعوبة لكون أمه التي تعيش معه، لم تكن تفهم هذا الوضع البتّة. لقد عاشت حياتها كلها بلا حساب حتى إنها لا تستطيع أن تتصوّر الوضع الذي كان فيه ابنها، والذي بلغ حداً قد يغدوان فيه بين يوم وآخر مُعدميْن، فيُضطران إلى بيع كل شيء، حتى لا يبقى لهما سوى رواتب أوجين التي تبلغ، على الأكثر، ألفي روبل، لم تكن تفهم أنه، للخروج من هذا الوضع، لابد من إنقاص النفقات في كل شيء، وكانت تدهش حين ترى أوجين يوفّر من نفقة البستاني والحوذي بل ومن نفقة المائدة.

فضلاً عن ذلك، كانت تكنّ لذكرى زوجها، كمعظم الأرامل، شعوراً من العبادة يتجاوز كثيراً كل ما تعرف به في حياته، و لم تكن تقبل فكرةً أن مافعله زوجها يمكن أن يكون سيئاً أو أن يُعدَّل.

كان أوجين يتعهد، بصعوبات كبيرة، الحديقة والبيت الزجاجي مع بستانيين، وكان له حوذيان للاصطبل، لكن ماري بافلوفنا لأنها لم تكن تشكو الطعامَ الذي يُعدّه الطاهي العجوز، ولا كونَ الممرّات لم تمشط بعناية، ولا لأنه لم يبق، بدلاً من الخدم الفرّاشين سوى وصيف واحد، كانت تعتقد بسذاجة أنها تفعل كل ما تستطيع أن تفعله أم تضحّي بنفسها في سبيل ولدها.

وكذلك بالنسبة إلى هذا الدين الجديد الذي رأى فيه أوجين ضربةً قد تدمّر كليّاً جميعَ مشاريعه، لم تكن ماريا بافلوفنا ترى فيه سوى مناسبة لأوجين كي يُظهر كرمه. هناك أيضاً اعتبارٌ آخر كان يدعو ماريا بافلوفنا إلى أن تهتم أقلّ اهتمام بوضع أوجين المادي، وهو أنها كانت واثقةً من أنه سيتزوج زواجاً باهراً يسوَي كل شيء. كان يمكنه أن يتزوج زواجاً من أروع ما يكون. كانت تعرف نحو عشر أسر ستكون سعيدة لو أعطته بناتها، وكانت ترغب لو تفعل ذلك بأسرع وقت ممكن.

– ٤ –

أوجين كان يحلم هو أيضاً بالزواج، لكن لا كأمه. إن فكرة زواجه لتسوية شؤونه كانت تثير نفوره. كان يريد أن يتزوج بشرف، عن حب، وكان يفحص الفتيات اللواتي يعرفهن أو يصادفهن، ويقارن بينهن، لكنه لم يكن يصمّم.

بيد أن علاقاته مع «ستيبانيدا» استمرت، وهو شيءٌ لم يكن ينتظره البتّة، بل إنها اتخذت طابع شيء ثابت. فبعد لقائهما الأول، كان أوجين يأمل ألا يراها بعد، لكنه أحسّ مرة أخرى بعد زمن بقلق حدَّد سببه، والقلق هذه المرة لم يكن شخصياً، لكنه كان يَستْرجع بالتحديد ذكرى العينين السوداوين اللامعتين ذاتهما، والصوت الخفيض ذاته، ورائحة الكائن النضر والقوي ذاته، وذلك الصدر البارز ذاته الذي كان يرفع قميص النوم، كل ذلك في غابة أشجار الجوز والدُلْب التي تغمرها الشمس.

وأيّاً كان الخجل الذي استشعره، فقد توجّه مرةً أخرى إلى دانيلو. ومرة أخرى حُدِّد الموعدُ ظهراً في الغابة وقد فحصها أوجين هذه المرة أيضاً أكثر من المرة الماضية، فبدا له كل ما فيها جذّاباً. حاول أن يبادلها الحديث، وكلّمها عن زوجها. لقد كان زوجها بالفعل ابن ميشيل، وكان يشتغل حوذياً في موسكو.

أراد أوجين أن يسألها لماذا كانت تخدع زوجها:

- حسناً... كيف يجوز أنكِ أنتِ...

قالت:

- ماذا؟ كيف؟

لقد كانت ذكية بدون أدنى شك

- نعم، «كيف يجوز أن تأتي معي؟».

قالت بمرح:

- آه! أظن أنه لا يحرم نفسه من ذلك هناك.

وإذن فلماذا لا أفعل مثلما يفعل؟

كان واضحاً أنها تبذل وسعها لتتباهى بجسارتها وقحتها، وبدا ذلك لأوجين رائعاً، على أنه لم يحدّد لها موعداً: وحتى عندما اقترحت عليه أن يتلاقيا بمعزلٍ عن دانيلو الذي بدا أنها لا تحبّه كثيراً لسببٍ غيرمعلوم، رفض أوجين. كان يأمل أن يكون هذا اللقاء آخر لقاء. كانت تعجبه وكان يعتقد أن مثل هذه العلاقة ضرورية له، وأنه لابأس من ذلك، بيد أن قاضياً صارماً في أعماق نفسه، كان يستنكر ذلك، وكان يأمل أن تكون هذه المرة الأخيرة. وإذا لم يكن يأمل ذلك، فقد كان يأبى على الأقل أن يضع فيه تصميماً مسبقاً وأن يهّيىء مسبقاً لقاءً جديداً.

هكذا مرّ الصيفُ كله، وقد التقيا فيه نحو عشر مرات، ودائماً بواسطة دانيلو. وفي إحدى المرات، لم تستطع أن تأتي لأن زوجها وصل، فاقترح دانيلو امرأة ثانية، فرفض أوجين باشمئزاز ثم سافر الزوج، وعادت اللقاءات إلى ما كانت عليه، بواسطة دانيلو أولاً، ثم حدد هو نفسه اليوم، وكانت تأتي مع امرأة، «بروكوروفا»، لأن المرأة لا تستطيع أن تذهب وحدها.

ذات يوم، في نفس اللحظة المحدّدة لموعد اللقاء، استقبلت ماري بافلوفنا أسرة فتاة كانت تريد تزويجها لابنها، وكان يستحيل على «أوجين» أن يخرج، وما إن استطاع أن يتملّص، حتى تظاهر بأنه ذاهب إلى مخزن الحبوب، ثم جرى إلى الغابة موضع اللقاء بدرب ضيّق. لم تكن هناك، لكن كل شيء تطوله اليد، في الموضع المعهود، كان محطّماً أشجار الجوز، أشجار كرز الطير، حتى شجرة قبقبٍ فتيّة، لقد انتظرته، وثارت أعصابها وغضبت وكسّرت كلَّ ذلك لكي

يتذكّر. بقي لحظةً هنا، ثم ذهب إلى دانيلو وطلب إليه أن يأتي بها غداً. فجاءت في الموعد المحدّد بدقة و لم تتبدّل.

هكذا مرَّ الصيف. كانت اللقاءات تجري دائماً في الغابة إلا مرة واحدةً، عند اقتراب الخريف، فقد التقيا في مخزن الحبوب، قرب البيت.

لم يخطر ببال «أوجين» أن هذه العلاقات يمكن أن تكون ذات أهمية ما بالنسبة إليه، أما فيما يخصّها، فلم يكن يفكر قط. كان يعطيها مالاً، لا أكثر لم يكن يفكر أن القرية كلها على علم بعلاقتهما، وأن الناس كانوا يحسدونها، ويبتزّون منها المال، ويشجّعونها وأن مفهوم الخطيئة قد اختفى تماماً بتأثير المال ونصائح الأهل. كان يبدو لها أن الناس إذا غاروا منها فلأن ما تفعله حسن.

كان أوجين يفكّر: «لابدّ من ذلك للصحة فقط، ولنسلّمْ بأن ذلك غير حسن... ومع أن أحداً لا يقول شيئاً إلا أن الناس جميعاً لابد أن يعرفوا... المرأة التي ترافقها تعلم... وإذا كانت تعلم فلاشك أنها حدّثت الآخرين. لا، إنني أتصرف تصرّفاً سيئاً، لكنْ ما العمل، لن يدوم ذلك طويلاً».

ما كان يضايق «أوجين» بخاصة هو الزوج، تصوّر في البدء أن الزوج بشعٌ جداً، وكان ذلك يبدو مسوِّغاً لسلوكه. لكنه رأى الزوج وذُهل: كان فتى جميلاً، أنيقاً، ليس أقلّ منه بالتأكيد، بل إنه أحسن كثيراً، في أول لقاء بعد ذلك، قال إنه رأى زوجها وأعجب بهذا الفتى الجميل.

قالت باعتزاز:

- ليس له مثيل في القرية!

أدهش ذلك أوجين، ثم لم تُؤرقّه فكرةُ زوجها بعد ذلك، وذات مرة بينما كان عند دانيلو بكل بساطة أثناء الحديث:

- سألني ميشيل في أحد الأيام القريبة إن كان حقاً أن المعلم يصاحب امرأته، فأجبتُه إنني لا أعلم شيئاً من ذلك. فقال: «باه! على كل حال، لأَنْ تكون مع سيّد خيرٌ من أن تكون مع فلاح».

ثم ماذا قال أيضاً؟

- لاشيء. سوى أنه أضاف: «انتظرْ، سأعرف الحقيقة، وسأريه...».

- إن عاد الزوجُ فسوف أتركها.

لكن الزوج ظلّ في المدينة، واستمرت علاقاتهما. وفكّر: «عندما يحين الوقت سأقطع صلتي وسينتهي كل شيء». وبدا له ذلك أكيداً، ولاسيّما أن عدة أشياء شغلتْه في هذا الصيف: بناء الضيعة الجديدة، جني المحصول، العمارات، وقبل كل شيء، دفع الدين وبيع جزء من الأراضي. كانت هذه الأشياء تستغرقه كليّا، وكان يفكر فيها من الشروق إلى الغروب. كلُ ذلك كان الحياة، الحياة الحقيقية، في حين أن صلاته مع ستيباندیا (لم يكن يُسمي ذلك علاقة) عديمة الأهمية. الحقّ أن الرغبة في رؤيتها حين كانت تظهر تلك الرغبة، كانت تظهر بكثير من العنف حتى لم يكن بوسعه أن يفكر في شيء آخر، لكن ذلك لم يكن يدوم طويلاً: لقاءٌ ثم ينساها من جديد لأسابيع، وأحياناً لشهر.

حين جاء الخريف، تردّد أوجين كثيراً على المدينة، وهناك تعرّف

على أسرة آننسكي. في هذه الأسرة كانت فتاةٌ خرجت منذ فترة قصيرة من المدرسة الداخلية، ولقد أثار حزن ماريا بافلوفنا أن أوجين باع نفسه - حسب تعبيرها - بثمن بخس. لقد أُغرم «بليز» وطلب يدها. ومنذ هذه اللحظة، توقفتْ صلاتُه مع «ستيبانيشا».

- ٥ -

لماذا اختار أوجين «ليز آننسكي؟» ليس بوسعنا تفسير ذلك. كما أنه ليس بوسعنا أبداً لم يختار الرجل هذه المرأة لا تلك. لقد كان لاختياره طائفة من الأسباب الإيجابية والسلبية. وأحد الأسباب أنها لم تكن الفتاة الغنية التي كانت أمه تحلم بها، وأنها كانت ساذجة ومؤثّرة في علاقاتها وأنها لم يكن لها ذلك الجمال الذي يجذب الانتباه، دون أن تكون مع ذلك بشعة، والسبب الرئيسي أنه تعرّف عليها عندما بدأ ينضج للزواج. كانت ليز آننسكي تُعجبُ أوجين في البداية، لا أكثر، أما عندما صمّم أن يتّخذها زوجة له، شعر نحوها بعاطفة أكثر حدّةً وأدرك أنه عاشق، كانت ليز نحيفة، طويلة. كان كل شيء فيها طويلاً: الوجه، والأنف الذي لم يكن محدّبا لكنه يمتدّ طولاً على الوجه، واليدان والقدمان. كان جلد الوجه ناعماً، أبيض مع بعض النقاط المصفرّة وشيء من الحمرة، كان شعرها طويلاً أشقر حريرياً جعداً، كانت عيناها جميلتين، صافيتين، عذبتين وواثقتين وقد راعت عيناها بخاصة أوجين، وعندما كان يفكر في ليز، كان يتصوّر دائماً عينيها الصافيتين، العذبتين، الواثقتين.

هذه الناحية الجسدية. أما معنوياً فل يكن يعلم شيئاً عنها، لم يكن يرى سوى عينيها، وكانت عيناها كأنما تقولان كل ما يجب أن يعرفه، فمنذ المدرسة الداخلية منذ الخامسة عشرة كانت ليز مغرمةً بجميع

الرجال الذين يملكون بعض المحاسن. لم تكن منتعشة كانت تشغف بجميع الشباب الذين تصادفهم، وبطبيعة الحال فقد أُغرمت بأوجين حالما تعرفت عليه. كانت هذه الحالة الغرامية التي تَهبُ عينيها ذلك التعبير الخاص الذي سحر أوجين.

في هذا الشتاء نفسه، كانت مغرمةً بشابين في آن واحد، وكانت تحمَرُّ خجلاً وتضطرب لا عندما يدخلان الغرفة التي تكون فيها فحسب، بل عندما يُلفَظ اسماهما. لكن منذ أن لمّحت لها أمها بأن «ارتينييف» يبدو كأن له نيَّة جادة، كبر حبُّها له بنسبة كبيرة حتى إنها غدت غير مبالية بالاثنين الآخرين. وعندما بدأ ارتينييف يزورها وعندما راقصها في الحفلات الراقصة والسهرات أكثر مما راقص غيرها، و لم يكن يسعى فيما يظهر، إلا أن يعرف إن كان محبوباً، حينئذ شُغفت به على نحو مَرَضيّ تقريباً. كانت تراه في الحلم، بل كانت تعتقد أنها تراه في الواقع، عندما تكون في مكان مظلم، و لم يعدْ غيرُه موجوداً بالنسبة إليها. وبعد طلب الزواج ومباركة الأهل، وعندما تعانقا وأصبحا خطيبين، فإنَّ فكرة واحدة، رغبة واحدة، حلَّتْ محلّ جميع الأفكار الأخرى، وجميع الرغبات الأخرى: أن تبقى معه، أن تحبّه، وتكون محبوبة. كانت فخورةً به: كانت تتحنّن عليه وعلى نفسها، وكان حنانها على نفسها يُذيبها حباً له. أما أوجين فكلما ازداد معرفة بها ازداد حباً لها. لم يكن يتوقع أن يلقى مثل هذا الحب، وكان هذا الهوى يزيد من عاطفتها.

- ٦ -

قبل الربيع، يمّم شطر سيميو نوفسكوي ليرى أملاكه، ويبلّغ أوامره، وقبل كل شيء، ليُعدّ البيت الذي سيعود للإقامة فيه بعد الزواج.

كانت ماري بافلوفنا مستاءةً من اختيار ابنها. لا لأن هذا الزواج ليس الزواج المتألق الذي يمكن أن يطمح إليه، ولكن لأن حماة ابنها لم تكن تعجبها أيضاً. أكانت خيّرة أم شرّيرة، كانت تجهل ذلك ولا تنشغل به، لكن ماري بافلوفنا لاحظت عند أول لقاء، أنها لم تكن امرأة متميّزةً، سيّدة راقية، كما كانت تقول، وكان ذلك يحزنها. كان ذلك يحزنها لأنها كانت تقدّر التميّز، وكان ذلك عادة فيها، وإذ كانت تعلم أن أوجين شديد الحساسية من هذه الناحية، فقد كانت تخشى أن يتألم منها. أما الفتاة فكانت تعجبها قبل كل شيء لأنها تعجب أوجين، كان يجب إذن أن تُذعن لحبها، وكانت ماري بافلوفنا مستّعدة لذلك، بصدقٍ تماماً.

وجد أوجين أمه سعيدة، مسرورة. كانت ترتّب كل شيء في البيت، وكانت هي نفسها تتهيأ للسفر حالما يأتي أوجين بزوجته. فرجاها أن تبقى، وظلت هذه المسألة معلّقة.

في المساء بعد الشاي، لعبت ماري بافلوفنا، على عادتها، لعبة الصَبْر بالورق، وكان أوجين جالساً قربها، يساعدها، كانت اللحظةُ لحظةَ الأحاديث الحميمة، وعندما انتهت من لعبتها، لم تبدأ لعبةً أخرى، ونظرت إلى أوجين، وبدأت كلامها، وهي متردّدة قليلاً، على النحو التالي:

- إليك ياأوجين ما أحببتُ أن أقوله لك. لاشك أني لا أعلم شيئاً، لكن نصيحتي على العموم، هو أنك يجب أن تنتهي تماماً من مغامرات العزّب حتى لا ينشغل بالك فيما بعد ولا بال امرأتك (حفظها الله). أتفهمني؟

لقد فهم أوجين بالفعل وعلى الفور، أن ماري بافلوفنا تُلمّح إلى

علاقاته مع سبيبانيدا، وهي علاقات قطعها منذ الخريف وأنها مثل معظم النساء اللواتي يعشن وحيدات، كانت تعلّق على هذه العلاقات من الأهمية أكثر ممّا لها، أحمرّ أوجين، غيظاً أكثر منه خجلاً، حين رأى ماري بافلوفنا الطيّبة تتدخّل - حباً به في الحقيقة لكنه تدخّلٌ - في أشياء لا تفهمها ولا تستطيع أن تفهمها. وأكد لها أنْ ليس من شيء يدعو إلى الخوف لأنه تصرف دائماً تصرّفاً لا يمكن أن يُعيق الزواج.

قالت ماري بافلوفنا:

- هذا حسنٌ جداً. لاتَغْتظْ، أوجين.

لكن أوجين لاحظ أنها تُنه كلامها وأنها لم تقلْ ما أرادت أن تقوله. وكان ذلك شيئاً حسناً. وبعد قليل أخذت ترو له أنها قد طُلب إليها أثناء غيابه أن تكون اشبينة عند... آل بيتشنيكوف. أحمّر أوجين من جديد، لا من غيظ أو خجل هذه المرة لكنْ من شعور غريب، من الشعور بأهمية ما سوف يُخبَرُ به، من الشعور بشيء مختلف كلياً عن محاكماته. وبالفعل، وقع ما توجّس خيفةً منه. لقد روت ماري بافلوفنا، بلا قصْد سيء ظاهر، أن هذه السنة لم يُولدْ فيها سوى الصبيان، وأن ذلكً ربما من علامات الحرب. فالمولود الأول عند آل غاسين وعند ال بيتشيكوف كان صبيّاً أيضاً. أرادت ماري بافلوفنا أن تروي ذلك دون أن يبدو عليها أنها تمسّ ذلك، لكن الخجل انتابها أيضاً عندما رأت حمرة وجه ابنها، وحركاته العصبية بنظارته وطرائقه العجولة في إشعال السجائر. فصمتت، ولم يعرف كيف يقطعُ هذا الصمت، وظلاّ كلاهما مقتنعين بأن كلاًّ منهما فهم الآخر.

- نعم، الشيء الأساسي في الريف هو العدل، حتى لا يكون هناك مُفضَّلون، كما هي الحال عند عمك.

قال أوجين فجأة:

- ماما! أعلم لماذا تقولين ذلك كله. لكنْ لا جدوى من ذلك. إن حياتي العائلية الآتية شيءٌ مقدّسٌ عندي، ولن أمسّها بأذى، في أية حال من الأحوال. كل ما كان في حياتي كفتىً قد انتهى تماماً، لم يكن لي قط علاقةُ دائمة، وليس لأحدٍ حقٌّ علي.

قالت الأم:

- هذا حسنٌ، وأنا سعيدة بذلك، وأنا أعرف عواطفك النبيلة. قبل أوجين كلام أمه وكأنه ضريبة مستحقة وسكت.

في صباح اليوم التالي ذهب إلى المدينة. كان يفكر في خطيبته، في كل شيء في العالم ما عدا ستيبانيدا، ولكن، عندما اقترب من الكنيسة صادف ناساً عائدين منها مشياً وفي العربات وكأن ذلك كله أراد عمداً أن يردّه إلى نفسه، كان بين الناس «متّى» العجوز مع «سيميون»، وأولادٌ، وفتيات، ثم امرأتان إحداهما مُسنّةٌ، والأخرى أنيقةٌ، في خمار أحمر قانٍ، وبدا له أنه يعرفها، كانت المرأةُ الشابة تمشي بخطوات خفيفة، واثقة، وتحمل طفلاً بين ذراعيها. وعندما وصلتا بحذائه، حيَّته المرأةُ المسنة على الطريقة القديمة وقد توقفّت أما المرأةُ الشابةُ فقد حيّته بانحناءة من رأسها فقط. ومن تحت الخمار حطّتْ عليه عينان مرحتان، باسمتان كان يعرفهما. «نعم، إنها هي، لكن كل شيء انتهى، ولا داعي للنظر إليها. والولد؟..». وخطر بباله «لعله ابني. لا، هذا غباء. كان زوجها هنا».

كان مقتنعاً كل الاقتناع أن المسألة كانت بالنسبة إليه مسألة صحة فقط، وأنه لم يعدْ مديناً بشيء بعد أن أعطى المال، وأنه ليس بينه وبينها

أي رابط، لم يكن ولن يكون بينهما أي رابط لا لأنه كان يخنق صوت الضمير، بل بكل بساطة لأن ضميره لم يكن يقول له شيئاً، وبعد حديثه مع أمه وبعد هذا اللقاء لم يفكّر فيها لمرةً واحدة و لم يصادفها.

بعد الفصح، احتُفل بالزواج في المدينة، وفي الحال سافر أوجين مع امرأته الشابة إلى الريف، كان البيت مّرتباً كما يُرتبُ البيت عادة للعريسين. أرادت ماري بافلوفنا أن تسافر، لكن أوجين وليز على الخصوص، رجواها أن تبقى. فبقيت لكنها استقرّت في جناح المبنى.

هذه السنة الأولى من الحياة المنزلية كانت سنةً صعبةً جداً. كانت صعبةً لأن الأعمال التي أجّلها أثناء الخطبة، قد جاءته كلُّها معاً، لقد تحقّق مُجبراً أن من المستحيل عليه التخلّص من الديون.

بيعَ شطرٌ من الملكيّة لتسديد الديون الأكثر إلحاحاً، لكنْ كانت هناك ديونٌ أخرى، وكان يظلّ بلا مال. كانت الأملاكُ تعطي مردوداً حسناً، كان لابد من إرسال المال إلى الأخ، وكانت هناك نفقات الـزواج، بحيث أن المال كان يعوزه، بل إنه اضطر لإيقاف عمل المصفاة. لم يكن له سوى وسيلة واحدة ليتخلص من ورطته وهي: استخدام مال زوجته. وإذ أدركت «ليز» وضع زوجها، طلبت إليه أن يفعل ذلك.قبل أوجين، لكن بشرط أن يسجل نصف ملكيته باسم زوجته، بصك بيع وفعل ذلك طبعاً لا من أجل امرأته التي تأذت من ذلك، بل من أجل حماته.

إن الوضع الحرج لأعماله كان أحد الأشياء التي سممّت حياةَ أوجين أثناء هذه السنة الأولى. الشيء الثاني كان مرض زوجته. ففي هذه السنة نفسها وبعد زواج بسبعة أشهر. في الخريف، وقع حادثٌ لليز، لقد سافرت في عربة ذات مقاعد للقاء زوجها العائد من

المدينة. وأخذ الجواد الهادئ جداً يثب، فخافت ليز ورمت بنفسها من العربة، كان سقوطها سليماً نسبياً، إذ استطاعت أن تتشبّث باحدى العجلات، لكنها كانت حبلى، وعند الليل جاءها المخاض وأجهضت و لم تُبلَّ إلا بعد زمن طويل.

إن فقدان الوليد المنتظر ومرضَ زوجته والتعقيدات المادية التي نجمت عن ذلك، ولاسيما حضور حماته التي هُرعت لتُعنى بليز، كل ذلك أسهم في جعل هذه السنة الأولى أشقّ على أوجين.

ومع ذلك وبالرغم من هذه المناسبة الحزينة، أحس أوجين في أواخر السنة الأولى، بأنه في وضع حسن جداً. أولاً لأن فكرة تجديد حياة جدّه بأشكال جديدة وإن كانت ببطء وعلى نحو مختلف، أخذت تتحقّق، لم يعدْ وارداً الآن بيعُ الأملاك لتسديد الديون. فالملكية الأساسية التي انتقلت إلى اسم زوجته قد أُنقذتْ، ومع محصول وفير من الشمندر الذي بيع بسعر جيد، وكان رخاءً مؤكداً بالنسبة إلى السنة المقبلة، بدلاً من الوضع الموقّت في هذه السنة.

هذا شيء، وشيءٌ آخر هو أنه وجد في امرأته ما لم يكن ينتظر أن يجده فيها، وإن كان قد انتظر الكثير. لم يكن ذلك هو ما أمله، كان أفضل كثيراً من ذلك. لم يكن الحنان ولا الحماسة الغرامية، وإنْ كان يسعى إلى إثارتهما، لا لم يكن ذلك، كان شيئاً مختلفاً تماماً لم يجعل حياته أكثر بهجة ومسرّة، بل جعلها أسهل بكثير، لم يكن يعلم إلى أي شيء يعزو ذلك، لكن الأمر كان كذلك، كان الأمر كذلك لأن «ليز» قرّرت، بعد زواجها على الفور، أن اوجين ليرتينييف كان الأفضل، بين الرجال جميعاً والأنقى والأنبلَ، ومن ثمّ، فإن من واجب الجميع أن يفعلوا كل شيء ليرضوا ارتينييف هذا، ولكنّ بما أنه لا يمكن إجبار

جميع الناس على هذا التصرّف، فلابد حينئذ من أن تستخدم جيمع قواها لهذا الغرض. وكانت تفعل ذلك. كانت جيمع قواها المعنوية متّجهة إلى استشفاف ميوله ورغباته، ثم إلى إرضائها، مهما يكن ذلك صعباً. كان فيها ما يصنع السحر الرئيسي في مخالطة المرأة المُحبة. كان تستطيع أن تقرأ في نفس زوجها، بفضل حبِّها له، كانت تشعر - أفضل منه نفسه، كما كان يبدو لها - بحالته النفسية، بأدنى ظل من ظلال العواطف، وتتصرّف على هذا الأساس. ولذلك لم تكن تصدم عواطفه أبداً، لكنها كانت تُلطف إحساساته المؤلمة وتوسّع إحساساته الفرحة. ولم تكن تفهم عواطفه فحسب، بل وأفكاره أيضاً. وقد غدت أغرب الأشياء عليها كالزراعة والمصفاة، وتقييم الناس، سهلة التناول دفعة واحدة، وأصبحت تُحسن أن تكون محدّثة له، بل ومُشيرة نافعة لا غنى عنها. كانت لا تنظر إلى الأشياء والناس وإلى كل شيء في الدنيا، إلا بعينيه. كانت تحب أمها، لكنها حين رأت أن حَشْرَ أنفها في حياتهما كان يغيظ أوجين، انحازت على الفور إلى صفّ زوجها وبحزم شديد حتى اضطر إلى التخفيف من غلوائها.

وفضلاً عن ذلك، كانت تملك كثيراً من الذوق والحصانة والرقة. وكل ما كانت تفعله كانت تفعله دون أن يلاحظها أحد، لم تكن تُرى سوى نتيجة ما تفعل، وكانت تحمل النظافة والنظام والأناقة إلى كل شيء. أدركت ليز رأساً ما المثل الأعلى لزوجها وبذلت وسعها كي تبلغه، وحقّقت ما كان يرغب فيه، كان ينقصها الأطفال، لكن الأمل كان موجوداً. وفي أثناء الشتاء، ذهبا إلى بطرسبرج لاستشارة اختصاصي، فأكدّ لهما أن ليز صحيحة الجسم ويمكنها أن تضع أطفالاً. وقد تحققت هذه الرغبة. ففي آخر العام كانت ليز حاملاً.

شيءٌ واحد كل يهدّد سعادتهما: غيرتها، وهي غيرة كبتتْها، و لم تظهرها، لكنها كانت تتألم منها، في الغالب، لم يكن أوجين يستطيع أن يحب امرأة، لأنْ ليس في الدنيا امرأة جديرة به، (أما إن كانت هي جديرة به أم لا، فلم تكن تتساءل عن ذلك) ليس هذا فحسب بل لأنْ ليس من امرأة تجرؤ أن تحبه. كان كل شيء يسير سيراً حسناً. كانا يعيشان في الريف، وحدهما. وحتى أمها التي كانت تعكّر صفوهما قليلاً، سافرت، وظلت ماري بافلوفنا وحدها، التي كانت ليز صديقتها، على وجه الخصوص، تأتي وتقيم أسابيع كامله. كانت حياتهما كأسعد وأعذب ما تكون الحياة، وكانت أعمال أوجين تسير على نحو رائع، وكانت صحة ليز، برغم حملها، ممتازةً وكان الرابط بين الزوجين يزداد توثّقاً دون أن يعوقه عائق.

كانت حياتهما مرتّبة على الطريقة التالية: كان أوجين ينهض مبكراً دائماً، ويقصد الحقول أو المعمل، وفي نحو العاشرة يأتي يتناول الشاي على السطح، حيث تنتظره ماري بافلوفنا التي يسكن في بيتها، وليز. بعد حديث نشط في الغالب، أثناء تناول القهوة، كانا يفترقان حتى الغذاء، وكان كلٌ منهما ينشغل على هواه، في القراءة أو الكتابة. أو أي شغل آخر، ثم يقومان بنزهة على الأقدام أو في العربة. وفي المساء، عندما كان أوجين يعود من مكتبه، كانا يتناولان الشاي، وربما قرأا، في وقت متأخر، بصوت مرتفع، كانت ليز تعمل، أو تعزف الموسيقا، أو تشارك في الحديث عندما يزورهما الأصدقاء وعندما كان أوجين يتغيّب، كان يتلقى رسالةً كل يوم من امرأته، وكانت أحياناً تصحبه، وكان ذلك، مبهجاً وفي عيدها أو عيده، كانا يجمعان المدعوّين، وكان شيئاً ممتعاً أن يُرى كيف تُحسن ترتيب كل شيء بحيث تُسَرُّ الناسُ

جميعاً، كان يرى ويسمع أن الجميع يُعجبون بزوجته الشابة والفاتنة، فيزداد حبُّه لها.

كل شيء كان على ما يرام. كانت تتحمّل حَمْلها بسهولة وبدأ كل منهما يبني المشاريع، ولو بتخوّف عن طريقة تربية الوليد القادم. وكان أوجين هو الذي يقرر نمط التربية وطرائقها. أما هي فلم يكن لها سوى رغبة واحدة: أن تتصرف بحسب إرادته، وأخذ أوجين يقرأ كثيراً من كتب الطبّ، ويمنّي نفسه بأن ينشّىء ولده وفقاً لجميع قواعد العلم، وبالطبع فقد كانت موافقةً، ومستعدة لكل شيء. على هذه الحال، جاءت السنة الثانية من زواجهما، ربيعهما الثاني.

- ٩ -

كان ذلك في عيد الثالوث، كانت «ليز» حاملاً في شهرها الخامس، ومع أنها اتَخذت الكثير من الاحتياطات، فقد كانت مرحةً وكثيرة الحركة. وكانت الأمّان، أم ليز وأم أوجين، اللتان تعيشان في البيت، بحجة السهر على ليز، لا تنيان تضايقانها بخصامهما، وكان أوجين يهتمّ بحماسة خاصة، بالزراعة الجديدة الواسعة للشمندر.

عند اقتراب عيد الثالوث، صّممت ليز أن تشرع في تنظيف البيت من أساسه، وهو تنظيف لم يكرّرْ منذ عيد الفصح، ولكي تساعد خدمها، استقدمت امرأتين مياومتين لتنظّفا أرض البيت، والنوافذ والأثاث، ولكي تنفضا السجاد، ولكي تضعا أغطية الأثاث، وفي الصباح الباكر، جاءت المرأتان وهيَأتا دِلاء الماء وعكفتا على عملهما، كانت إحدى هاتين المرأتين «ستيبانيدا» التي فطمت قبل فترة وجيزة ابنها، وشغّلت نفسها، بطريق أحد المستخدمين: لقد أرادت أن ترى

عن كثب السيدة الجديدة. وكانت ستيبانيدا تعيش كالسابق، بدون زوجها، وتتابع مجونها كالسابق، مع دانيلو العجوز الذي فاجأها مرة تسرق الحطب، ثم مع السيّد المالك، ثم مع مستخدم شاب في المكتب.

لم تعد تفكّر في السيد المالك. كانت تقول نفسها: «إن له امرأته الآن، لكن من الممتع لي أن أرى السيّدة وبيتها. يقال إن بيتها مرتّب ترتيباً حسناً».

لم يرها أوجين بعد أن لقيها هي وصبيّها، لم تكن تشتغل مياومة، لأنها كانت تلازم ابنها، وكان هو قلّما يذهب إلى القرية.

في هذا الصباح، قبل عيد الثالوث بيوم، نهض أوجين في الساعة الخامسة صباحاً، وذهب إلى الحقول التي سيُوضع فيها الفوسفات، خرج من البيت قبل أن تدخله المرأتان، كلنهما كانتا في المطبخ قرب فرن تسخين الماء.

عاد أوجين لتناول الطعام وهو سعيد، مسرور، شديد الجوع. ترجّل عن جواده قرب باب العربات، وبعد أن سلّم جواده إلى البستاني الذي كان مارّاً من هنا، اتجه إلى البيت، وهو يضرب بسوطه العشب العالي، مكّرراً جملة واحدةً، كما يقع له أحياناً، والجملة التي كان يرددها هي: «الفوسفات سيغلّ» ماذا؟ ولمن؟ لم يفكر في ذلك البتّة. كان السجادُ يُنفض في الفناء. وقد أُخرج جميع الأثاث، فقال في نفسه: «ياإلهي، ماهذا التنظيف الذي باشرته ليز! سيغلّ الفوسفات. إنها لربة بيت حقيقية! نعم. أية مدبّرة هي! وتصورّها بحرارة، بثوبها الأبيض، وبوجهها الذي يشعّ سعادةً، سعادةً كان يراها كلما نظر إلى وجهها. «نعم، يجب أن أغيرّ جزمتي، وإلا... الفوسفات سيغلّ، أي ستنتشر رائحة السماد، وصاحبة البيت في مثل هذا الوضع... لم هي في مثل

هذا الوضع؟... نعم، هناك يكبر ارتينييف صغيرٌ، نعم الفوسفات سيغلّ» دفع باب الغرفة وهو يبتسم لأفكاره. لكن الباب في اللحظة نفسها، انفتح مشدوداً من الداخل، وألقى نفسه وجهاً لوجه مع امرأة خارجة وبيدها دلوٌ، مشمّرة تنورتها، حافية القدمين، مرفوعة الكمين. تنحّى ليفسح المجالَ للمرأة، وتنحّت هي أيضاً، وهي تُصلح بيدها المبلّلة خمارها الذي انزلق، بدأ أوجين يقول:

امضي، امضي. لن أمرّ إذا...

لكنه توقف عن الكلام فجأة: لقد تعرّفها.

ابتسمت بعينيها، ونظرت إليه بمرح وخرجت وهي تسحب تنورتها، قال اوجين في نفسه وهو يقطّب حاجبيه: «ماهذه المسخرة! ما معنى هذا؟ هذا غير ممكن!» وطرد بيده فكرة مضايقةً، كما تُرد الذبابةُ، وقد استاء من رؤيتها. كان مستاءً من رؤيتها، لكنه لم يستطع في الوقت نفسه أن يرفع عينيه عن جسدها الذي كان يتهادى بمشيته الواثقة، ورجليها الحافيتين، وذراعيها، وكتفيها، والطيات الرشيقة لتنورتها الحمراء المرفوعة فوق ربلتيها البيضاوين.

قال في نفسه وهو يخفض بصره لكي لا يراها: «لكن لماذا أتطلّع، نعم، يجب مع ذلك أن أدخل واحتذي حذاءً آخر». واتجه إلى غرفته، لكنه لم يسر خمس خطوات حتى التفت إلى الوراء ليراها مرة أخرى، وهو لا يعلم كيف وبأية قوة التفت، كانت تنعطف عند الزاوية، وفي اللحظة نفسها التفتت هي أيضاً من جهتها. قال في نفسه: «آه! ماذا أفعل؟... نعم، لاشك أنها فكّرت في ذلك!».

دخل الغرفة المبلّلة. كانت فيها امرأةٌ مسنّةٌ هزيلةٌ، تغسلها. تقدّم

أوجين على أصابعه بين النقع الصغيرة الموحلة حتى بلغ الجدار حيث نزع جزمته، وكان سيخرج عندما خرجت المرأة أيضاً. «ذهبت هذه وستأتي الأخرى، ستيباندا، وحدها». هكذا كان يفكّر فيه إنسانٌ آخر.

«ياإلهي! فيم أفكر؟ ماذا أفعل!» وأمسك بجزمته، وركض في البهو، وهي بيده، ووضعها هناك، ونفض الغبار عن نفسه، وخرج إلى السطح حيث جلست الأمّان وهمان تتناولان قهوتهما، كانت ليز بطبيعة الحال تنتظره. وظهرت على السطح من باب آخر، في الوقت الذي ظهر فيه. وفكّر: «ياإلهي! وهي التي تظنني شريفاً جداً، نقيّاً جداً، طاهراً جداً، لو كانت تعلم!».

قابلتْه «ليز» على عادتها مشرقة الوجه. لكنها بدتْ له هذا اليوم شاحبْة، صفراء، طويلةً وضعيفة.

- ١٠ -

جرى، أثناء القهوة وكما يجري دائماً، حديثٌ بين النساء أُبعدَ عنه كلُّ رابط منطقي، لكنه ظلّ مع ذلك مرتبطاً بشيء، لأنه امتدّ بلا انقطاع. كانت السيدتان تترامیان بسهام الكلام. وكانت ليز التي تعوّدت ذلك تحاول أن تخفّف من حدة لَذْعها.

قالت لزوجها:

- أنا آسفة لأنني لم أستطع أن أنهي غرفتك قبل عودتك، بي رغبةٌ شديدة لأن يُرتّب كلُّ شيء ترتيباً حسناً.

- حسناً! وأنتِ؟ هل نمت بعد ذهابي؟

- نعم، نمتُ. وأحسُّ أني بحالة حسنة.

قالت فارفارا الكسيفنا، أم ليز:

- كيف يمكن لامرأة أن تكون حسنة في هذا الموضع، وفي هذا الحرّ الذي لا يطاق، وبنوافذ معرضة للشمس، وبدون ستائر ولا مظلات، فوق ذلك؟

فعّلقت ماري بافلوفنا:

- لكن الظلّ هنا يبدأ منذ العاشرة صباحاً

قالت فارفارا الكسيفنا دون أن تفطن إلى أن ما تقوله الآن يناقض تماماً ما أكدته من قبل:

- لذلك نجد الحمّى... الرطوبة... يقول طبيبي دائماً إنه لا يمكن تحديد المرض دون معرفة مزاج المريض، وهو يعلم ما يقول لأنه أول طبيب، ونحن ندفع له مئة روبل. كان المرحوم زوجي ضد الأطباء، لكنه لم يكن يبالي بالنفقة، في سبيلي.

- لكن كيف يمكن للزوج أن يقتّر عندما تكون حياة زوجته وابنه منوطتان به؟ نعم، عندما يتوفّر المال، تستطيع المرأة أن تستقل عن زوجها.

قالت فارفا الكسيفنا:

- المرأة الصالحة تطيع زوجها. لكن ليز ما تزال بالغة الضعف بعد مرضها.

- كلا، يا ماما، أحسّ أنني بحالة حسنة، ألمْ يقدّمْ لك بعدُ شيءُ من القشدة المطبوخة.

- لا حاجة لي إليها، أستطيع أن أكتفي بالقشدة الطازجة، قالت ماري بافلوفنا وكأنها تبرّر نفسها:

- سألت فارفارا الكسيفنا فرفضت:

- لا لا أريد.

وكأن فارفارا الكسيفنا أرادت أن تنهي حديثاً كريهاً، مستسلمة بشهامة، فخاطبت أوجين:

- حسناً! وهل وضعتم الفوسفات؟

جرت ليز لإحضار القشدة.

- لكني لا أريد! لا أريد قشدة!

صاحت ماري بافلوفنا:

- ليز! ليز! لا تسرعي هكذا! هذه الحركات السريعة ضارة بها.

فأعلنت فارفارا اليكسيفنا وكأنها تُلمحّ إلى شيء، مع أنها تعلم هي نفسها أن هذه الكلمات لا يمكن أن تلمحّ إلى شيء:

- لا شيء يضرّ إذا توفر الهدوء النفسي

عادت ليز حاملة القشدة.

كان أوجين يتناول قهوته ويصغي بصمت. لقد تعوّد مثل هذه الأحاديث، لكن غباوة هذه الأحاديث، غاظته اليوم، على وجه الخصوص. كان يريد أن يفكّر فيما جرى له لكن هذا الهذر منعه من ذلك. وعندما انتهت فارفارا الكسيفنا من قهوتها انصرفت وهي معتكرة المزاج. وحين أصبح اوجين وليز وماري بافلوفنا وحدهم، غدا

الحديث بسيطاً وممتعاً. لكن ليز التي شحذ الحبّ حدسها، لاحظت على الفور أن شيئاً ما كان يُعذّب أوجين فسألته إن لم يكن قد وقع له ما لا يُحبّ، لم يكن مُهيّأً لهذا السؤال، فارتبك قليلاً وهو يجيب بأنه لم يقع له شيء. ودفع هذا الجوابُ ليز إلى مزيد من التفكير. إن شيئاً كان يعذّب أوجين، يعذبه كثيراً، إن ذلك كان واضحاً كوضوح ذبابة تسقط في الحليب. لكنه لم يكن يريد أن يقول ما به. فما به؟

- ١١ -

افترق الجميع بعد الفطور. ذهب أوجين على عادته إلى مكتبه. لم يعمد إلى القراءة أو إلى كتابة الرسائل، لكنه جلس وأخذ يدخّن سيجارة بعد سيجارة، وهو يفكر. ماكان يدهشه ويحزنه، على نحو فظيع، هو هذا الإحساس السّيء الذي تبدّى فيه بغتةً والذي كان يحسب نفسه قد تخلّص منه بعد الزواج. وبالفعل فهو لم يحس مرة واحدة هذا الإحساس، منذ الزواج، لاتجاه ستيباندا، ولاتجاه أية امرأة أخرى، ماعدا زوجته. ولقد ابتهج، في أعماق نفسه، عدة مرات، لهذا الخلاص، وإذا بهذا الإحساس يبدو من جديد فجأةً وعَرَضاً، ويَظهر له أنه لم يتحرّر منه. كان معذّباً الآن، لا من الهيمنة الجديدة لهذا الإحساس، لا من الشهوة - فهو لم يشأ أن يفكر في ذلك - لكن لكون هذا الإحساس ظلّ حيّاً فيه، وأنه يجب أن يأخذ حذره منه، و لم يراوده الشكُ نفسه في الانتصار على هذا الإحساس.

كان عليه أن يكتب رسالة ويحرّر وثيقة. جلس أمام طاولة الكتابة وأخذ يعمل. فلما انتهى من عمله، ونسي تماماً ما أدْخل الاضطرابَ على نفسه، خرج ليمرّ على الإصطبل، وما كاد يخرج إلى درج المدخل حتى ظهرت من جديد التنورة الحمراء والخمار الأحمر،

وكأن ذلك حدثٌ متعمدّ أو مصادفةً مشؤومة، ومرّت أمامه وهي تخطر بذراعيها وتتمايل. لم تمرّ مروراً فحسب، لكنها ركضت ركضاً وتجاوزته، وكأنها تلاعبه، ولحقت بزميلتها، ومن جديد طاف بخياله الظُهُر المتألق، وشوك القراص، ودانيلو، وكوخ حارس الغابة، والفم المبتسم الذي يُعضضّ الأوراق، في ظل أشجار الدلب.

قال في نفسه: «مستحيل أن أدع الأمر هكذا» وإذ انتظر أن تغيب المرأتان عن عينيه، ذهب إلى المكتب. كان الوقت ظهراً، وكان يأمل أن يلقى مدير أعماله. كان هنا. لقد استيقظ قبل هنيهة، كان يتمطّى ويتثاءب وينظر إلى حارس الماشية الذي كان يقول له شيئاً.

فاسيلي نيكولايفتش!

- ماذا تريد؟

- أريد أن أكلمك

- بأمرك

- لكن انتهِ من حديثك، قبل ذلك

سأل فاسيلي نيكولايفتش حارس الماشية

- ألن تحمله؟

- هو ثقيل، يا فاسيلي نيكولايفتش.

سأل أوجين:

- ما الأمر؟

- القضية... أن بقرة وضعت مولوداً في الحقول.

- لا بأس، سآمر بقَرْن حصان. قُلْ لنيكولا أن يأخذ عربة الأثقال.

خرج حارس الماشية

بدأ أوجين كلامه وهو يحمّر خجلاً ويُحسّ بذلك:

- اعلمْ، يافاسيلي نيكولايفتش... إنني عندما كنت عزباً... كانت لي علاقة... لعلك سمعت...

ابتسم فاسيلي نيكولايفتش بعينيه، وأخذتْه الشفقةُ من غير شك على سيدّه، فقال:

- ذلك بصدد ستيباندا؟

- نعم، هو كذلك... إذن، اسمعْ... أرجوك... أرجوك... ألا تشغّلها بالمياومة في البيت... فهمت، هذا يسوءني كثيراً.

- لعل إيفان المستخدم هو الذي أمر بذلك.

- اتفقنا، إذن...

ثم قال أوجين ليخفي ارتباكه:

- حسناً! ما رأيك، هل نضع ما تبقى من الفوسفات.

- سأذهب إلى هناك في هذه اللحظة.

- لننهِ ذلك إذن

وهدأ أوجين آملاً أنه قضى عاماً دون أن يلقاها، فسوف يستمرّ الأمـرُ كذلك. «فضلاً عن ذلـك فسيكلّم فاسيلي ينكولايفتش المستخدم، وسيكلّم المستخدم «ستيبانيدا»، وستفهم أنني لا أريد

لقاءها» هكذا كان أوجين يحدث نفسه، وابتهج لأنه أوتي الشجاعة على مصارحة فاسيلي نيكولايفتش، وإن كان ذلك صعباً عليه. «نعم، كل شيء أفضل، كل شيء أفضل، كل شيء ولا هذا الشك وهذا الخجل». وارتعش لمجرد تذكّر تلك الجريمة بالفكر.

- ١٢ -

إن المجهود النفسي الذي بذله أوجين للتغلّب على خجله وليقول لفاسيلي نيكولايفش ما قاله، قد هدّأ خاطره وبدا له الآن أن كل شيء انتهى، ولاحظت «ليز» على الفور، أنه قد عاد إلى ما كان عليه من هدوء بل لقد صار أكثر فرحاً من العادة وفكّرت ليز: «لعله كان محزوناً من هذا الخصام بين أمَّينا... وبالفعل، فإن من الأمور الشاقة جداً عليه، وهو بتلك الحساسية وذلك الطبع النبيل، أن يسمع دائماً هذه التلميحات التي تنّم على العداء وسوء الذوق».

كان الجوّ جميلاً، النساء الذاهبات إلى الغابة ليضفرن أكاليل من الزهور، اقتربن بحسب العادة من درج مدخل الإقطاعي، وأخذن يرقصن ويغنين، خرجت ماري بافلوفنا وفارفارا اليكسيفنا في فساتين أنيقة، وهما تحملان مظلتيهما إلى درج المدخل واقتربتا من حلقة الرقص وكان العم وهو ماجنٌ سكّير يقضي الصيف في منزل أوجين، يتبعهما وهو يرتدي سترة صينية قصيرة.

وكالعادة، كان هناك حلقةً كبيرة مبرقشةً بالألوان الزاهية، من النساء الشابات ومن الفتيات، وكانت هذه الحلقة مركز كل شيء. فحول هذه الحلقة من جميع الجهات، وكالنجوم التي انفصلت عن الكوكب الرئيسي وأخذت تدور حوله، بناتٌ صغارٌ تماسكن بالأيدي

وأسْمعن حفيف تنانيرهن الحريرية الهندية الجديدة حيناً، وحيناً آخر صبية يضحكون يطارد بعضهم بعضاً ويُدرك بعضهم بعضاً، أحياناً أخرى صبية أكبر سناً بستر زرقاء وسوداء، وقبعات وقمصان حمراء يمرّون وهم يفصمون بلا انقطاع بزر عباد الشمس، وفي بعض الأحيان الخدم أو الغرباء الذين ينظرون إلى الحلقة من بعيد.

اقتربت السيدتان من الحلقة نفسها، وبعدهما ليز بفستانها الأزرق وفي شعرها شريط باللون ذاته، وبرزت ذراعاها الطويلتان، البيضاوان، وقد برز المرفقان، من الكميّن الواسعين، لم يكن أوجين يرغب في الخروج، لكنْ كان من السخف أن يغيب عن الأنظار. خرج إذن إلى درج المدخل، وسيجارُته بين شفتيه، وحيّا الصبْية والفلاحين، وتحدّث مع أحدهم، وكانت النساء، أثناء هذا الوقت، يغنّين بملء حناجرهن ألحان الرقصة، ويصفقن بأيديهن ويرقصن.

قال خادمٌ وهو يدنو من أوجين الذي لم يسمع امرأته وهي تناديه:

- السيدة تناديك!

نادتْه ليز لتريه رقصة امرأة أعجبتها رقصتُها، على وجه الخصوص. كانت ستيبانيدا. كانت بتنّورة صفراء، وصدَّراهُا بلا كمين، وبخمار حريري، ممتلئة الجسم قوية حمراء، مبتهجة. كانت تجيد الرقص من غير شك، لكنه لم يلاحظ شيئاً.

قال وهو يرفع نظارته ويعيدها:

- نعم، نعم، نعم، نعم...

فكّر: «هكذا فأنا لا أستطيع التخلّص منها»، لم يكن ينظر إليها،

لأنه كان يخاف سحرها، وكان ما يشاهده منها خلسةً يبدو له بسبب ذلك، على وجه التحديد، شديد الجاذبية وفضلاً عن ذلك، لقد خمّن من نظرتها البّراقة أنها كانت تراه وتعلم أنه معجبٌ بها. بقي فقط المدة اللازمة لكي لا يبدو قليل التهذيب، وحين شاهد أن فارفارا الكسفنا تناديه وتنعته بتكلّف وتزييف. «ياعزيزي»، أدار ظهره، وانصرف، انصرف عائداً إلى البيت، انصرف لكي لا يراها بعدُ، لكنه عندما صعد إلى الطابق العلوي، دنا من النافذة دون أن يعلم لماذا وكيف، وظل قربها مدة بقاء النسوة قرب درج المدخل، وهو ينظر إلى «ستيباندا» ويشربها بعينيه، ثم هرب قبل أن يلمحه أحد، وخرج إلى الشرفة وهناك أشعل سيجارةً، وذهب إلى الحديقة وكأنه يريد أن يتنزّه في الاتجاه الذي اتّجهت إليه. ولم يَخْطُ خطوتين في الممر. حتى لمحَ خلال الأشجار، الصدار بَلا كمين على أرضيّة ورديه، والخمارَ الأحمر. كانت ذاهبة إلى جهة ما مع امرأة أخرى. أين كانت تذهب؟ وفجأة استبدت بقلبه شهوةٌ رهيبةٌ محرقة وكأن للشهوة يدٌ. وكأنما كان يخضع لإرادة غريبةٍ عنه، عاد إلى الوراء واتّجه إليها.

سمع أوجين خلفه صوتاً يقول:

- أوجين ايفانوفتش! أوجين ايفانوفيتش! إن بي حاجة إلى معروفك.

شاهد أوجين العجورَ ساموكين، وهو مستخدم يحفر بئراً عنده. تمالك نفسه واستدار فجأة واتجه صوبه، وعندما انتهيا من الحديث، التفت وشاهد المرأتين في الأسفل متجهتين بوضوح نحو البئر أو متخذتين هذه الوجهة ذريعة لهما، لكنهما لم تبقيا طويلاً وعادتا إلى الحلقة.

عندما ترك «أوجين» العجوز ساموكين، رجع إلى البيت مهدوداً وكأنه ارتكب جريمة. أولاً لقد فهمته، وفكّرت أنه يرغب في أن يراها، وكانت ترغب في الشيء نفسه، ثانياً إن المرأة الأخرى، آنا يروكوروفا، كانت تعلم بطبيعة الحال ذلك كله والشيء الرئيسي أنه كان يحسّ نفسه مهزوماً. كان يعلم أنه لم يعدْ مالكاً لإرداته، وأنه كان مدفوعاً بقوة أخرى، وأنه نجا اليوم بأعجوبة وأنه سيسقط غداً أو بعد غد.

نعم، لقد هلك لم يكن يفهم الأمور على نحو مختلف، إنه يخون زوجته المُحبّة في الريف مع فلاحة، وبمعرفة الجميع! أليس هذا الهلاك، الهلاك الرهيب. الذي لا حياة بعده. «لا، يجب أن أتُخذ التدابير المناسبة. قال في نفسه: «إلهي! إلهي! ماذا يجب أن أفعل؟ أأموت هكذا؟ أليس من وسيلة لردّ ذلك؟ لابد مع ذلك من عمل شيء لئلا أفكّر فيها».

ألاّ يفكّر فيها! وفي الحال كان يفكر فيها، كان يراها أمامه، في ظل أشجار الدلب.

تذكّر أنه قرأ قصة شيخ أراد أن ينجو من إغواء امرأة كان عليه أن يباركها بيده ليشفيها، لقد كان يضع يده الأخرى على نار حامية. «نعم، أنا مستعد لأن أحرق يدي ولا أسقط». ونظر حوله فرأى أنه وحده في الغرفة، فأشعل عود كبريت وقرّب عود كبريت وقرّب أصابعه منه، وقال في نفسه ساخراً: «حسناً! فكر فيها الآن. وعندما أحسّ بالحرق، سحب أصابعه المسوَدّة، ورمى علبة الكبريت وضحك من نفسه: ياللغباء! ليس هذا ما يجب فعلُه. يجب أن أتخذ تدابير لكي لا أراها بعد.. أن أسافر أو أن أبعدها.. نعم أبعدها، أعطي مالاً

لزوجها كي يقيما في قرية أخرى. سيعلم الناس ذلك... وسيتحدثون عنه... طيّب! هذا أفضل! كلّ شيء ولا هذا الخطر. نعم يجب أن أفعل ذلك». كان يقول ذلك في نفسه دون أن يرفع عينيه عنها، وتساءل فجأة: «إلى أين تذهب؟» خُيِّل إليه أنها شاهدته قرب النافذة، وبعد أن رمته بنظرة، انصرفت متأبطة ذراع امرأة، واتجهت إلى الحديقة، هي تخطر بيدها الأخرى.

سار أوجين نحو المكتب، وهو لا يعلم لماذا. كان فاسيلي نيكولايفتش، بسترته الرسمية الجديدة، وبشعره المدهون، يتناول الشاي مع امرأته ومدعّوةٍ في خمار سميك.

– قلْ لي، فاسيلي نيكولايفتش، أأستطيع أن أحدّثك لحظة

– أرجوك. لقد انتهينا

– لا، الأفضل أن نذهب إلى الخارج

– على الفور. أعطني قبعتي، تانيا، وغطّى السماور.

قال ذلك لامرأته وخرج وهو مبتهج النفس.

ظن أوجين أنه لاحظ أن فاسيلي نيكولايفتش قد شرب قليلاً، لكن ذلك لا يهم، بل ربما كان ذلك أفضل هكذا، ولعله سوف ينظر إلى وضعه بتعاطف أكبر.

– يافاسيلي نيكولايفتش... أود أن أحدّثك عن هذه المرأة من جديد.

– ما الأمر؟ لقد أمرت بعدم تشغيلها بعد الآن.

- كلا... فكّرت، على العموم... وعن ذلك أردتُ أن أحدّثك وأطلب مشورتك... ألا نستطيع أن نُبعد الأسرةَ كلها؟

سأل فاسيلي نيكولايفتش سؤال امرئٍ خُيِّل إلى أوجين أنه لاحظ عليه الاستياء والتهكّم:

- نُبعدهم إلى أين؟

- لكني فكرتُ... يمكننا أن نُعطيهم مالاً أو أرضاً في «كولتوفوسكوي» ... بشرط ألا تكون هنا..

- لكنْ كيف نبعدهم؟... كيف نقتلعهم من أرضهم؟...

وماذا يهمّك من ذلك؟ في أي شيء هي تضايقك؟

- آه؟ فاسيلي نيكولايفتش! افهمْ أن الأمر سيكون رهيباً لو عرفت امرأتي.

- لكنْ منْ سيقول لها ذلك؟

- وكيف أعيش مع هذه الفكرة... على العموم هذا شاقّ...

- ممّ تَقْلقُ؟ مَنْ يتذكّر أخطاءً قديمة فستُقلع عينُه، ومن لم يُخطئْ أمام الله ليس مذنباً أمام القيصر،

- ومع ذلك من الأفضل إبعادهم، ألا يمكنك أن تحدّث زوجها بذلك؟

- لكن، لا داعي للتحدّث... أوه! أوجين إيفانوفتش، لماذا تحشو رأسك بذلك كله! ذلك ماض، منسيٌّ!... كل شيء يقع... أما الآن فمن يجرؤ أن يطولك بسوء؟

- بالرغم من ذلك... تكلّمْ...

- طيّب. سأكلّمه مع أنني مقتنع أنْ لا نتيجة من ذلك.

هدّأ هذا الحديث أوجين قليلاً، ولاسيما لإحساسه بأنه عظّم الخطر بسبب انفعاله، أكان ذاهباً إلى موعد معها؟ كلا، كان ذاهباً ليتنزه في الحديقة، وجاءت هي إليها مصادفة.

- ١٣ -

في يوم عيد الثالوث، بعد الغذاء كانت ليز في الحديقة وإذْ أرادت أن تقطع حفرةً صغيرة لتمضي إلى المرج، حيث أراد زوجُها أن يريها النَفَل، زلّت قدمُها ووقعت. وقعتْ بهدوء على جنبها، وقالت آه! وعلى وجهها لم يلمْح زوجُها تعبيراً عن الخوف فحسب بل وعن الألم أيضاً، أراد أن يُنهضها، فنحّتْه بيدها.

قالت وهي تبتسم بضعف وتنظر إليه كما خُيِّل إليه، كالمذنبة:

- لا، أوجين، انتظر قليلاً، ليس هناك سوى أن قدمي انفتلتْ

لامتها فارفارا الكسينفنا:

لقد أفْهمتُك منذ زمن بعيد: هل يمكن أن نثبَ فوق الحفر في مثل هذا الوضع!

- لا، ماما، ليس هذا شيئاً ذا بال. سأنهض في الحال.

نهضت بمساعدة زوجها، لكنها شحبتْ، في اللحظة نفسها، امتقع وجهها وارتسم الرعبُ عليه. وهمست إلى زوجها لكي لا تسمع أمها:

- نعم أشعر أنني لستُ بحالة حسنة.

صاحت فارفارا اليكسيفنا:

- آه! ياإلهي! ماذا فعلت؟ كنتُ أنصحكِ بعدم المشي. انتظري! سأرسل ناساً. يجب ألا تمشي. يجب أن تُحمَلَ.

قال أوجين وهو يطّوق خصرها بذراعه اليسرى:

- ألستِ خائفة، ليز؟ سأحملكِ، تعلقّي بعنقي، امسكيني، هكذا.

انحنى ووضع ذراعه تحت ساقيها ورفعها. لن أنسى أبداً تعبير الألم والسعادة الذي انعكس في هذه اللحظة على وجهها.

سألته وهي تبتسم:

- ألستُ شديدة الثقل، ياعزيزي، أمي تركض وتتطّلع.

انحنت عليه وقبّلته. كانت ترغب رغبة واضحة في أن ترى أمُّها كيف يَحْملها، صاح أوجين بفارفارا الكسيفنا كي لا تستعجل، قائلاً أنه سيحملها حملاً أميناً، فوقفتْ فارفار الكسيفنا واشتدّ صراخها:

- ستوقعها، هذا مؤكّد! تريد أن تقتلها! لا ضمير لك!

- لكني أحملها جيداً.

- لا أريد... لا أريد أن أرى كيف ستقتل ولدي!

وهربت عبر الممرّ.

قالت ليز وهي تبتسم:

- لا قيمة لذلك، كلُّ ذلك سيزول.

- بشرط ألا يكون هناك آثارٌ سيئة، كالمرة الماضية.

- لا، لم أقصدْ هذا، قصدُتُ ماما. أنت متُعْب، استرحْ.

مع أن حمل أوجين كان ثقيلاً، فإنه حملها بفرح مليء بالاعتزاز، حتى البيت، وأبى أن يتركها للخادمة الفرّاشة وللطاهي اللذين أرسلتهما فارفارا الكسيفنا للقائهما. وحملها إلى غرفة نومها وحطّها على سريرها.

قالت:

- حسناً! انصرفْ. سنتدبر الأمر مع آنوشكا.

وجذبت يده فقبّلها.

هُرعت ماري بابلوفنا أيضاً من جناحها، عُريت لنير من ملابسها ووضعت في سريرها. كان أوجين جالساً في الصالون ينتظر وفي يده كتاب. مرّت فارفارا الكسيفنا أمامه وقد بدت كئيبةً، تتدفق لوماً حتى ارتعب منها، فسأل:

- وما الأمر؟

- الأمر؟ لماذا تسألني الأمرُ لعلك رغبتَ فيه عندما أجبرتَ امرأتكَ على القفز فوق الحفرة.

صاح:

فارفارا الكسيفنا! هذا غير مقبول! إذا كنتِ تريدين أن تعذّبي الناس وأن تسمّمي حياتهم...(كان سيقول: هيّا اذهبي إلى مكان آخر! لكنه تمالك نفسه). كيف لا تخجلين من التصرّف هكذا...

- فات الأوان، الآن!

واجتازت الباب وهي تنفض قبعتها بحركة انتصارية، كان السقوط بالفعل سيئاً جداً، لقد انفتلت القدم على نحو غيرمستقيم، وكان يُخشى من الإجهاض، كان الجميع يعلمون أن لا حيلة لهم في الأمر، ومن الواجب أن يتركوها تستريح بهدوء، ومع ذلك فقد أرسل من يُحضر الطبيب.

كتب أوجين إلى الطبيب:

«جزيل الاحترام نيكولا ستيبانوفيتش، كنتَ دائماً عظيم الطيب بالنسبة إلينا، فآمل ألا ترفض مدّ يد المساعدة إلى زوجتي، إنها... ألخ».

فلما انتهى من كتابة الرسالة، ذهب إلى الاصطبل ليلقي أوامرة بصدد الجياد والعربة، يجب إعداد جياد لإحضار الطبيب، وجياد أخرى لإعادته، كل ذلك يجب أن يكونً مرتّباً ترتيباً حسناً. ولما نفَّذ كلّ شيء وأرسل الحوذي، عاد إلى البيت. كانت الساعة نحو العاشرة مساء. كانت امرأته مضطجعةً، وكانت تقول إنها بخير، وهي لا تشكو شيئاً وكانت فارفارا الكسيفنا جالسةً أمام المصباح تحجبها عن ليز كومةٌ من الدفاتر الموسيقية، تحوك غطاءً كبيراً أحمر، وبدا عليها كأنها تقول بوضوح إن السلام لا يمكن أن يستتبّ بعد أن جرى ما جرى. «يستطيع الآخرون أن يفعلوا ما يحلو لهم، أما أنا فعلى الأقل قمتُ بواجبي».

رأى أوجين ذلك لكنه تظاهر بأنه لم يَلحْظه، وروى بلهجة مرحة، طلقة، أنه بعث بالجياد وأن الفرس كافوجكا ممتازة وكذلك جواد العارضة في الجهة اليسرى.

قالت فارفارا الكسيفنا وهي تنظر بانتباه خلال نظّارتها، إلى حياكتها التي قرّبتها من المصباح:

– طبعاً، الوقت مناسبٌ لتجريب الجياد، عندما نكون بحاجة إلى إسعاف مباشر. ولعل الطبيب سيُرمى أيضاً في حفرة.

– لكنْ، على كل حال، كان لابّد من إحضار... فعلت ما اعتقدتُ أنه أحسنُ ما يُفعل.

– نعم، وأنا أذكر كيف أن جيادك كادت ترميني على درج المدخل...

كان ذلك من اختراعها الذي يعود إلى زمن بعيد، لكن أوجين هذه المرة، تغافل وقال إن الأمور لم تجر تماماً كما تزعم.

لم يكن عبثاً ما قلتُه دائماً... وكم من مرة قلتُ للأمير أنْ ليس شيء أشقّ من أن يعيش المرءُ مع ناس ظالمين ومزيّفين. أتحمّل كلَّ شيء، لكني لا أتحمل هذا.

قال أوجين:

– إن كان هذا شاقاً على أحد، فهو علي قبل غيري.

– نعم، هذا واضح.

– ماذا؟

– لا شيء، إني أعدّ قُطَب الحياكة.

في هذه اللحظة، كان أوجين قرب السرير، كانت ليز تنظر إليه، كانت تمسك يده وتشدّ عليها بإحدى يديها النديتين كانتا فوق الغطاء.

وكانت نظرتها تقول: «تتحمّلها من أجلي لن تمنعنا من أن يحب أحدنا الآخر».

همس إليها وهو يقبّل يدها الطويلة الرطبة، ثم عينيها الجميلتين اللتين أغمضتا تحت قبلته:

- لن أفعل شيئاً.

وسأل:

- هل سيصيبك الشيُء نفسه، كيف تشعرين؟

- إنه لشيءٌ رهيب أن يخدع الإنسانُ نفسه لكنني أشعر أنه يحيا وأنه سيحيا.

قالت ذلك وهي تنظر إلى بطنها.

- آه! إنه لشيء رهيب، إنه لشيء رهيب، حتى التفكير في ذلك!

ورغم إلحاح ليز لكي يذهب، إلا أنه قضى الليل بجنبها، ولم تغمض عينُه إلا لماماً، وكان مستعداً، في كل لحظة للعناية بها. لكن الليل كان مريحاً، ولو لم يكونا ينتظران الطبيب فربما كانت ستنهض. وصل الطبيب أثناء الغذاء. وشرح لهم أنه إن أمكن لحوادث مشابهة أن تسبّب الخطر، فليس هناك مع ذلك إشارات إيجابية، وأنه لا يمكن افتراض هذه الفرضية أو تلك من ثمّ في غياب الإشارات المضادة، والنتيجة أن من الواجب بقاؤها مضطجعة وأن تناول هذا الشيء أو ذاك، هذا مع أن الطبيب قد صرح بأنه عدو العقاقير، وفضلاً عن ذلك، ألقى على فارفارا الكسيفنا محاضرة حقيقية عن تشريح المرأة، وكانت تصغي إليه وهي تهز رأسها بوقار.

وبعد أن تلقّى أجرته التي دُسّتْ في راحة كفه، كالعادة، رجع، وظلّت المريضة أسبوعاً في سريرها.

- ١٤ -

كان اوجين يقضي معظم وقته قرب سرير امرأته، يُعنى بها ويحدّثها ويقرأ لها ويتحمّل، وهو شيء أجدر بالتقدير، غمزات فارفارا الكسيفنا، دون أن يفوه بكلمة، عارفاً كيف يحوّلها إلى موضوع للمزح.

لكنه لم يكن بوسعه أن يلزم بيته، أولاً كانت امرأته تَصْرفُه قائلة إنه سيصاب بالمرض إن ظلّ قربها طوال الوقت، ثم إن الاستثمار كان يُحتّم في الغالب حضوره، لم يكن يستطيع أن يبقى في البيت، فتارةً يذهب إلى الحقول، وتارة أخرى إلى الغابة، وحيناً إلى الحديقة، وحيناً آخر إلى مخزن الحبوب، وكانت صورة ستيبانيدا الحَيَّة لا الفكرة وحدها تلاحقه حيثما ذهب، حتى إنه لم ينجح في نسيانها إلا نادراً. ولم يكن هذا شيئاً ذا بال، فلربما كان سيتغلّب على هذا الإحساس، الأسوأ من كل شيء هو أنه كان يلقاها الآن في كل لحظة، وهو الذي كان يقضي شهوراً دون أن يراها. لاشك أنها أدركت أنه يرغب أن يُعيد علاقاته القديمة فأخذت تسعى إلى لقائه. ولكن بما أنهما كليهما لم يقولا شيئاً، فإنهما لم يضربا موعداً، واكتفيا بما صارا إليه من تلاقٍ.

كانت الغابة خير مكان لذلك، فإليها كانت النساء يذهبن، ومعهن أكياسٌ، ليبحثن عن العشب لأبقارهن. كان أوجين يعلم ذلك، وكان يمرّ كل يوم أمام الغابة، كان يقول في نفسه كل يوم إنه لن يذهب وكان يتّجه، كل يوم، نحو الغابة مصغياً إلى رنين الأصوات، ومتوقّفاً، خفّاق

القلب خلف دغل مترصداً أن تكون هي. ماحاجته إلى أن يعرف إن كانت هي؟ لم يكن يعلم ذلك. وحتى لو كانت هي، وحتى لو كانت لوحدها، لما ذهب إلى ملاقاتها - على ما اعتقد - ولهرب منها، لكنه كان بحاجةٍ إلى أن يراها.

لقيها ذات مرة، فبينما كان يهمّ بدخول الغابة، خرجت هي معِ امرأتين أخريتين، وعلى ظهرها كيسٌ ثقيل مملوءٌ بالعشب، ولو قَبْل لحظة، فلربما كان قد لقيها في الغابة، أما الآن فكان مستحيلاً عليه، أمامَ النساء الأخريات، أن تعود إلى الغابة وبالرغم من هذه الاستحالة التي أدركها، اختبأ طويلاً وراء دغل أشجار الجوز، معرّضاً نفسه لخطر إثارة انتباه النساء الأخريات. لم تعد هي، طبعاً، لكنه ظل هنا زمناً طويلاً. إلهي! بأية جاذبية كان خياله يَعْرضها عليه! و لم يكن ذلك مرة واحدة، بل خمس مرات، ست مرات، وفي كل مرة على نحو أقوى، لم تَبْدُ له جذّابة قط كما هي الآن، و لم تمْلك عليه نفسه بأكملها قط كما ملكتها الآن.

كان يشعر أنه لم يعد مالكاً لنفسه، وأنه يكاد يصبح مجنوناً، لم تَخفْ قسوتُه نحو نفسه، على العكس، لقد أدرك بشاعة رغباته، بل وأفعاله: لأن انتظاراته في الغابة أفعال، كان يعلم أنه يكفيه أن يلقاها في مكان ما، في مكان مظلم، وأن يمسّها ليستسلم إلى هواه. كان يعلم أن الذي يكبحه هو خجله أمام الناس وأمامها، وربما أمام نفسه. وكان يعلم أنه يبحث عن الشروط التي لا يُلاحظُ فيها ذلك الخجل: الظلام أو مداعبةٌ تَخْنق فيه هذا الخجل بالشهوة الحيوانية. كان ينظر إلى نفسه إذن على أنه مجرم قذر، فيحتقر ذاته ويكرهها بكل قوى نفسه. كان يكره ذاته لأنه لم يستسلم بعد. وكل يوم يدعو الله أن يقوّيه، وأن ينقذه

من الهلاك، كان كل يوم يصمّم ألا يخطو خطوةً أخرى، ألاّ ينظر إليها، أن ينساها، كان كل يوم يتخيّل سبلاً للخلاص من هذا الحصار ويضعه موضع التطبيق.

لكن كل شيء كان بلا جدوى.

كان أحد السبل أن يشغل نفسه بلا انقطاع، سبيلٌ آخر: العملُ الجسدي والصيام، سبيلٌ ثالث: التحليلُ الواضح للخجل الذي سينصبّ على رأسه عندما يعرف الجميع ذلك، بما فيهم امرأته وحماته. كان يفعل ذلك كله، ويبدو له أنه انتصر، لكن ما إن يأتي الظهر، موعد لقاءاتهما القديمة، الساعة التي يلقاها فيها حاملة كيس العشب، حتى يمضي إلى الغابة.

هكذا انقضت خمسة أيام شاقة، لم يكن يراها إلا من بعيد، و لم يقترب منها مرةً واحدة.

- ١٥ -

تعافت ليز شيئاً فشيئاً، وبدأت تمشي، وأخذت تقلق من التغيّر الذي أصاب زوجها والذي لم تفهمه.

سافرت فارفارا الكسيفنا لبعض الوقت، و لم يبق عندها سوى العم وماري بافلوفنا.

كان أوجين في حالةٍ من نصف الجنون، عندما هطلت أمطارٌ امتدت أياماً، كما يحدث بعد عواصف حزيران، شوّشت هذه الأمطار جميع الأعمال، لم يَعدْ ممكناً جمع السماد بسبب الرطوبة والوحل، ولزم الفلاحون بيوتهم، ولقي الرُعاةُ كثيراً من المشقة لإعادة

القطعان إلى الإصطبلات، وشردت بقرات وخراف إلى شتى الأقنية، وكانت النساء المختمرات بخمرهن يخبطن في الوحل حافيات بحثاً عن بقراتهن الهاربات، وتشكّلت على الطرقات المجاري، وتبلّل أوراق الأشجار والعشب، وفاضت الأنهار والمستنقعات.

كان أوجين في بيته، مع امرأته التي كانت متضايقة في هذا اليوم تضايقاً شديداً، وسألت زوجها عدة مرات عن سبب تغيّر مزاجه، وفي كل مرة كان يجيبها بحنق أنْ ليس به شيءٌ. كفّتْ عن سؤاله، لكنها كانت حزينة، كان الجميع جالسين في الصالون بعد الغذاء. كان العم يروي للمرّة المئة قصصاً من اختراعه عن مغامراته الاجتماعية، كانت ليز تحوك صدريةً وتتنهّد وتشكو من رداءة الطقس ومن وجع الكلى، نصحها العم أن تنام وطلب هو خمراً، كان يدّخن ويقرأ كتاباً دون أن يفهم شيئاً، قال في نفسه: «نعم، يجب أن أذهب لأرى ماذا يجري». ونهض ليخرج.

- خذ مظلّتك.

- لا، عندي المعطف الجلدي، ولن أذهب بعيداً.

احتذى جزمته، وارتدى معطفه الجلدي، ومضى إلى المصنع. لكنه لم يقطع عشرين خطوة حتى برزتْ للقائه، رافعةً تنّورتها فوق ربلة ساقيها البيضاوين. كانت تسير وهي تمسك بيديها الخمار الذي كان يغطي رأسها ويديها.

سألها لأول وهلة دون أن يتعرفّها:

- مابكِ؟

فلما عرفها كان الأوان قد فات. توقفّت، ونظرت إليه طويلاً وهي تبتسم.

- أبحث عن عجل صغير، أين تذهب في هذا الطقس الرديء؟ سألته وكأن كلاً منهما يرى الآخر كل يوم.

قال فجأة دون أن يعلم كيف، وكأن إنساناً آخر لفظ هذه الكلمات:

- تعالي إلى الضيعة.

أشارت بعينيها إشارة القبول ومضت إلى الحديقة، نحو الكوخ فتابع هو طريقه وبنيّته أن يدور حول أجمة الليلك وأن يلحق بها.

صاح أحدُهم من خلفه:

- ياسيدي! السيدة تطلب أن تأتي للحظة.

كان ميشيل خادمهم.

فكّر أوجين: «يا إلهي! أنقذْتني للمرة الثانية» فاستدار من فوره إلى البيت. أرادت ليز أن تذكره بالدواء الذي وعد به امرأةً مريضة، ورجته أن يأخذه.

أثناء البحث عن الدواء وتحضيره، انقضت نحو خمس عشرة دقيقة وحين خرج بعد ذلك لم يجرؤ أن يذهب مباشرة إلى الضيعة خوفاً من أن يُلمَح من البيت. لكنه ما إن اختفى عن النظر حتى دار دورة واتّجه إليها. كان يراها في خياله وسط الضيعة مبتسمة بفرح. لكنها لم تكن هناك ولم يدلّ شيءٌ على أنها أتت إليها. أخذ يفكر في أنها لم تأت، أنها لم تسمع أو تفهم كلماته التي همسها همساً بين شفتيه خوفاً من

أن تسمعها أو لعلها لم تشأ أن تأتي. «ولماذا ترتمي على عنقي؟ إن لها زوجها، أنا وحدي الحقير إلى هذا الحد: إن لي امرأة طيبة، وأنا أركض وراء أخرى». هكذا كان يفكّر وهو جالسٌ في الضيعة، في موضع يسيل فيه الماء. ما كان أسعدني لو جاءت! كما سنكون وحدنا هنا في المطر. أمتلكُها مرة واحدة على الأقل وليكنْ، بعد ذلك، مايكون! وتذكّر «آه! نعم، لو جاءت لتركت آثاراً». نظر إلى العشب إلى موضع درب صغيرة لا عشب فيه ولمح أثراً حديثاً لرجل حافية. نعم لقد جاءت» الآن، انتهى الأمر. سألقاها أيّاً كان المكانُ، سأذهب إليها. سأذهب إلى بيتها ليلاً».

ظل جالساً في الكوخ زمناً طويلاً وخرج منه مضطرباً ومنهوكاً، أوصل الدواء وعاد إلى البيت ونام في غرفته في انتظار العشاء.

- ١٦ -

قبل العشاء جاءت ليز إليه، محاولة أبداً أن تعثر على ما يمكن أن يكون السبب في انزعاجه. قالت له إنها قرّرت أن تظل هنا وأنها لن تذهب إطلاقاً إلى موسكو حيث يُراد لها أن تذهب للولادة، وذلك خوفاً من أن يزعجه سفرها. كان يعلم مدى خوفها من الولادة وخشيتها من عدم وضع ولدٍ جميل، فرقَّ حين تبيّن السهولة التي بها تضحّي بكل شيء في سبيل حبها له. كان كل شيء طيّباً جداً، فرحاً جداً، نقياً جداً في البيت، أمّا في نفسه فكان الكثير من الوحل والجبُن والفظاعة! تألّم أوجين طوال المساء وهو يفكّر في أنه، بالرغم من اشمئزازه الصادق إزاء ضعفه، وبالرغم من عزمه الثابت على الانتهاء ممّا هو فيه، سيعود غداً إلى الشيء نفسه. قال في نفسه وهو يذرع غرفته طولاً وعرضاً: «لا، هذا مستحيل! لابدّ أن توجد وسيلةٌ ما ضدّ ذلك. ياإلهي! ماالعمل؟

دقّ الباب أحُدهم على نحو غير معتاد. كان يعلم أنه عمه، قال:

- ادخل

دخل العم مبعوثاً عند نفسه ليحدّثه عن ليز.

- أتعلم أنني لاحظت بالفعل تغيّراً فيك، وأنا أدرك أن ذلك يُعذّب امرأتك، طبعاً من الشاقّ عليك أن تترك تلك القضية الحلوة التي بدأتَها، لكن ماذا بوسعك أن تفعل، أنا أنصحُك بالسفر. ستكونان أهدأ بالاً كلاكما. لكن، أتعلم إني أنصحك بالسفر إلى «القرم»، فالطقس فيها جميلٌ جداً وهناك مُولُد قدير وستكونان هناك في إبّان العنب بالذات.

قال أوجين فجأة:

- ياعم! هل تَحفظ سرّاً... سرّا مُخجلاً، رهيباً بالنسبة إلي؟

- ماذا تقول؟ أيمكن أن تشكّ فيّ...

- يا عم، تستطيع أن تساعدني، لا أن تساعدني فقط بل وأن تنقذني - وفكرةُ إزاحة الستار عمَّ سرَّهُ لعمه الذي لم يكن يحترمه، وأنه سيظهر أمامه في أحقر مظهر، أن يذلّ أمامه، هذه الفكرة بدت ممتعةً له. كان يحسّ أنه جبانٌ، مذنبٌ، وكان يريد أن يُعاقب نفسه.

قال العم وقد ظهر عليه السرور من هذه المناسبة التي سيُسَر فيها إليه بسرٍّ، سرٍ مخجل، والتي يمكن أن يكون نافعاً فيها:

- تكلّمْ، يا صاحبي، أنتَ تعلم كم أحبّك.

- قبل كل شيء، ينبغي أن أقول لك إنني فاسق، نذل، جبان، حقير...

قال العم، وهو ينفخ حنجرته:

- ماذا تقول؟

- كيف لا أكون حقيراً عندما أريد أنا، زوج ليز، ليز - يجب أن نعرف نقاءها وحبّها - عندما أريد أنا، زوجها، أن أخدعها مع فلاحة؟

- يعني... لماذا تريد... لم تخنها بعد...

- آوه! فإنني قد خنتُها. وإذا لم أكن قد فعلتُ ذلك فليس الخطأ مني... كنت مستعدّاً... حيلَ بيني وبين ذلك، وإلا لما عرفتُ الآن... ماذا كنتُ سأفعل.

- لكن، هيّا، أوضحْ.

- حسناً، اسمْع، عندما كنت عزباً. ارتكبتُ حماقةً وأقمت علاقةً مع امرأة من قريتنا... أي إننا كنا نتلاقى في الغابة، في الحقول.

سأل العم:

- أهي جميلة؟

قطّب أوجين حاجبيه عند هذا السؤال، لكنه كان بحاجة شديدة إلى العون، فتظاهر بأنه لم يسمع وتابع:

- حسناً، كنتُ أظن أن ذلك لا أهمية له، وأن كل شيء سينتهي عند الانقطاع عنها، وبالفعل انقطعت عنها قبل زواجي، ومضت سنةٌ لم أرها فيها و لم أفكر فيها (دهش أوجين حين سمع نفسه يصف حالته النفسية هكذا). ثم رأيتُها من جديد، ولا أدري كيف، وأنا أعتقد في بعض الأحيان بالسحر حقاً، رأيتها وانسلّ الدود إلى قلبي وأخذ يَقْرضه.

فشتمتُ نفسي وأدركت فظاعة عملي، أي فظاعة ما كنتُ مستعداً لارتكابه في أول فرصة، وبالرغم من ذلك، فما أزال مستمرّاً في البحث عن هذه الفرصة، كنت ذاهباً للحاق بها عندما وعتني «ليز».

- كيف، أثناء المطر...

- نعم، أنا منهوك، ياعم، وقد عَزمْتُ على الاعتراف وعلى طلب عونكَ

- نعم بلا شك... الأمر غير مقبول، في قريتك... سيعلم الناس ذلك... وأنا أدرك أن ليز ضعيفة وتحب مداراتها... لكن لم في أملاكك.؟

- ومن جديد، حاول أوجين ألا يُصغي لما يقوله العم وأن يَصل إلى لبّ القضيّة.

- لكنْ، أنقذْني من نفسي، هذا ما أطلبه منك. المصادفة هي التي منعتني اليوم من السقوط، لكنها تعلم الآن. لا تتركني وحدي أبداً.

قال العم:

- نعم، لكنْ هل أنت عاشقٌ إذن.

- أوه! ليس هذا هو الأمر. لا، إنها قوة تملّكتْني وهي تكبلّني. لا أدري ما أفعل. ولعلي عندما أصبح أقوى حينئذ...

قال العم:

- حسناً، دونك العونَ، لنذهب جميعاً إلى القرم.

- نعم، نعم لنذهبْ، وريثما يحين موعد الذهاب، سأبقى وسوف نتحدّث...

إن كون أوجين قد أفضى بسره إلى عمه، وقبل كل شيء بعذاب الخجل الذي قاساه بعد يوم المطر ذاك، رد إليه الهدوء. حُدِّد موعُد السفر إلى «يالطة» في الأسبوع التالي. أثناء هذا الأسبوع ذهب أوجين إلى المدينة ليحصل على مال السفر، وألقى أوامره المتعلّقة بالبيت والأوامر المتعلقة بالاستثمار في المكتب ومن جديد أصبح مرحاً مطمئناً إلى زوجته. كأنَّه يُبعَثُ نفسياً.

سافر مع زوجته إلى «القرم»، دون أن يرى ستيباندا مرةً واحدة، منذ يوم المطر وقضيا شهرين بهناءة وقد تجمّع لدى أوجين الكثير من الانطباعات الجديدة حتى بدا له الماضي كله وكأنه اختفى من ذاكرته إلى الأبد. ولقيا في «القرم» معارف قديمة، وارتبطا بهم ارتباطاً أوثق، وأنشأا أيضاً علاقات جديدة. كانت الحياة هناك عيداً مستمراً، في نظر أوجين وكانت فضلاً عن ذلك واعظةً له ومفيدة جداً، عقد علاقة مع مارشال النبلاء القديم في مقاطعتهما، وهو رجل متحرّرٌ ذكي، أحبّ أوجين وحاول أن يشدّه إلى نفسه.

في أواخر آب وضعت ليز بنتاً جميلة. صحيحة الجسم وكانت الولادة غير منتظرةٍ وسهلةً جداً، وفي أيلول عاد الزوجان إلى بيتهما وقد اصطحبا معهما طفلة ومرضعاً، لأن ليز لن تستطع أن تُرضع. عاد اوجين إلى بيته سعيداً كليّاً بعد أن تخلّص تماماً من الهموم القديمة، وبعد أن مرَّ بالرعب الذي يمرّ به الأزواج أثناء وَضْع نسائهم وأخذ يمسكه بين ذراعيه، فكان إحساساً جديداً كل الجدّة، لذيذاً شبيهاً بالإحساس عند الدغدغة، والجديد الآخر في حياته أن اهتماماً آخر انضاف إلى مشاغله في أملاكه - وبالفعل، فبفضل صداقته الحميمة مع «دومشين» (مارشال النبلاء القديم) أخذ يهتم الآن بالحكومة الذاتية

في الإقليم، بسبب الغرور وفي الوقت المناسب بسبب ما كان يظنه واجباً. كان مُقرَّراً أن تدعى الجمعية العامة الاستثنائية، التي سيتم فيها انتخابُه. وبعد عودته من «القرم» ذهب مرةً إلى المدينة ومرة أخرى إلى بيت «دومشين». كفَّ عن التفكير في آلام الخجل والصراع، بل كان يجد صعوبة في تخيّلها. كان يبدو له ذلك ضرباً من نوبات الجنون التي لعله أصيب بها، أحس أنه متحرّرٌ إلى حد لم يحسن معه الاستعلام عنها في أول مناسبة حين ألفى نفسه ذات مرة وحيداً مع وكليله، وكما كلّمه قديماً عنها، لم يخجل من السؤال عنها. سأله:

– حسناً! ماذا يفعل «بيشنيكوف»، يا سيدور، أما يزال في بيته؟

– لا، إنه ما يزال في المدينة.

– وامرأته؟

– ياه! إنها لا تصلح لشيء. وهي مستسلمةٌ للملذات الآن مع «زينوفي لقد ضلت سبيلها كلياً».

وقع كل ما كان يرغب فيه أوجين: ظلّت الملكيّه له، وكان المصنعُ يسير سيراً حسناً، وكان محصول الشمندر رائعاً، وكان يمكن الاعتماد على عائدات وفيرة، وقد كانت ولادة زوجته سعيدة وسافرت الحماة، وانتُخب بالإجماع.

عاد أوجين إلى بيته بعد الانتخابات، هُنّئَ. وكان حريصاً على شكر المهنئين وعلى العشاء وشرب خمسة أقداح من الشمبانيا. وقد أخذ يبدو لعينيه تنظيمٌ جديدٌ تماماً لحياته.

كان يعود إلى البيت وهو يفكّر في خططه. كان الوقت أوج الصيف

والطريق جميلة والسماء صافية. عندما اقترب من بيته خطَر له كيف أنه سيشغل بين الشعب، بفضل هذا الانتخاب، الوضع الذي تمنىَّ دائماً أن يحصل عليه، أي أنه يستطيع أن يخدم الشعب لا بالمحصولات التي يعطيها العملُ فحسب، بل بالتأثير المباشر أيضاً. كان يتصوّر كيف سيُحكَم عليه بعد ثلاث سنوات، كيف ستحكم عليه زوجتُه وسيحكم عليه الفلاحون، هذا الفلاح قبلاً فكّر كذلك عندما مرّ بالقرية وتطلّع إلى فلاح مشتْ إلى لقائه امرأةٌ تحمل دلو ماء، توقفا ليدعا المركبة تمرّ. كان الفلاح هو العجوز بيتشنيكوف، والمرأة هي ستيباندا.

نظر إليها أوجين، وتعرّفها وأحسّ بفرح أنه ظلّ هادئاً تماماً، كانت جذابة جداً، لكنها لم تثره. وصل البيت.

كانت امرأته تنتظره على درج المدخل. كانت الأمسية رائعة. سأل العم:

- حسناً! هل نستطيع التهنئة؟

- نعم. لقد انتُخبتُ.

- بديع، يجب أن نشرب الآن نخب النجاح

في صباح اليوم التالي ذهب أوجين إلى أملاكه التي أهملها قليلاً، في الضيعة كانت تعمل آلات جديدة لدراسة القمح. كان أوجين يتجوّل بين النساء ليفحص العمل، محاولاً ألا ينتبه إليهن. لكنه لمح بالرغم من مجهوده، عيني سبيبانيدا السوداوين وخمارها الأحمر مرّتين وكانت تحمل القش ونظر إليها خلسة مرتين، ومن جديد أحس بشيء، بماذا أحسّ لم يستطع أن يتبيّنه.

لكنه عندما عاد من جديد في اليوم التالي إلى الضيعة حيث بقي ساعتين بلا ضرورة ودون أن يكفّ عن مداعبة الصورة المعروفة والجميلة بنظره، صورة المرأة الشابة، أحس أنه هالكٌ، هالك إلى الأبد ومن جديد كانت الآلام ومن جديد كان ذلك الرعب و لم يبقَ من سبيل إلى الخلاص.

وقع ما كان يخشاه في مساء اليوم التالي ودون أن يعرف هو نفسه كيف، ألقى نفسه قرب سياج فنائه، في مواجهة مخزن الكلأ، حيث كان بينهما لقاءٌ ذات مرة في الخريف، توقّف هنا وكأنه آتٍ للنزهة وأخذ يدخن سيجارة. شاهدته جارة وحين عادت إلى الموضع نفسه سمعها تقول لامرأة: «اذهبي، إنه ينتظرك منذ ساعة. هيا اذهبي يا حمقاء!» لم يكن بوسعه أن يعود أدراجه لأن فلاحاً كان مقُبلاً عليه، لكنه لمح امرأة كانت تركض نحو مخزن الحبوب.

- ١٩ -

وعادت القصةُ القديمة، لكن بقوة مضاعفة عشر مرات وفي المساء كان يفكّر، كان يفكّر في أشياء رهيبة. كان يفكّر أنَّ حياته فارغةٌ، مُضجرة وأن الحياة الحقيقية هناك مع تلك المرأة الصلبة، القوية، المرحة أبداً. أيأخذها ويضعها في عربة أو قطار ويتوارى في السهوب أو في أميركا... وأفكارٌ أخرى متشابهة خطرتْ له. عندما دخل الصالون بدا له كل شيء غريباً غير طبيعي.

في الصباح أيضاً نهض شجاعاً مصمّماً أن ينسى، ألا يسمح لنفسه بالتفكير لكنه قضى الصبيحة دون أن يلحظ، غيرَ مبالٍ بعمله، جاهداً في التخلّص منه. ما كان يبدو له من قبل مهماً، ما كان يُبهجه بدا له

تافهاً. لقد كان يسعى لا شعورياً إلى الإفلات من عمله، بدا له ضرورياً أن يتخلص من هموم الأشغال ليتفرّغ للتفكير في كل شيء. ولذلك تخففّ منها وظل وحده. لكنه حالما بقي وحده ذهب يطوّف في الحديقة والغابة. وكانت جميع هذه المواضع مدنّسة بالذكريات، الذكريات التي استأثرت به كلّه. كان يمشي في الحديقة ويقول في نفسه إن عليه أن يقرّر شيئاً، لكنه لم يكن يفكر في شيء وكان ينتظرها بجنون ولا شعورياً كان يأمل أن تشعر بمعجزة من المعجزات، كم يشتهيها فتأتي إلى هذا المكان أو إلى مكان آخر لا يراهما فيه أحد، تأتي في الليل عندما يغيب القمر والناس، أن تأتي في مثل هذه الليلة فيمتلك جسدها.

قال في نفسه: «نعم، نعم، هو ذاك، لقد لهوتُ من أجل الصحة مع امرأة سليمة صحيحة الجسم...لا، بالطبع، لا نستطيع أن نلعب هذا اللعب معهاً، كنتُ أظن أنني ملكتُها فإذا بها هي تملكني، تملكني ولا ترخيني. كنتُ أظن نفسي حراً و لم أكن كذلك، خدعتُ نفسي بنفسي عندما تزوجتُ، كان كل شيء غباءاً وكذباً. فمنذ اللحظة التي ملكتها فيها أحسستُ بشعور جديد... الشعور الحقيقي للزوج، نعم لابد أن أعيش معها... أي حماقة أفكر فيها!» وهتف فجأة: «لايمكن لذلك أن يكون يجب أن أفكر بوضوح في كل شيْ».

قصد الحقول وأخذ يفكّر. «نعم، هناك حياتان ممكنتان، بالنسبة إلي: إحداهما تلك التي بدأتُها مع ليز، المهمات العامة، الاستثمار، الولد، احترام الناس. ولكي أكمّل هذه الحياة، يحب ألا تكون ستيبانيدا يجب إبعادُها كما كنتُ أقول أو يجب أن تختفي على نحو ما. الحياة الأخرى هي التالية: انتزاعها من زوجها، وإعطاؤها المال وتحدّي الخجل والعيش معها... لكن ينبغي حينئذٍ ألا تكون ليز ولا ميمي (الطفلة)

موجودتين... لا، لماذا... الولد لا يُعيق... لكن يجب أن تختفي ليز، أن تذهب، أن تعلم، أن تلعنني وتذهب...أن تعلم أنني تخليّت عنها من أجل فلاحة، وأنني خادعٌ، جبان... لا، إن هذا لشديد الفظاعة! لا، ذلك لا يمكن أن يكون!...نعم، لكن ذلك يمكن أن يُدبّر بطريقة أخرى، يمكن أن تقع ليز مريضة... وتموت... فاذا ماتت صار كل شيء على ما يرام. «طيب!... شقيّ! لا، إذا كان لابد أن تموت إحداهما فلتكن الأخرى. وإذا ماتت ستيبانيدا سيكون الأمرُ حسناً... نعم، هكذا تُسمّمُ تُقتلُ النساء العشيقات. أتناول مسدّساً، وأستدعيها، وبدلاً من القبلات... بان في الصدر وينتهي كل شيء... إنه الشيطان! نعم الشيطان حقاً. لقد امتلكتني بالرغم من إرادتي...أقتلُها! نعم... وماذا سيجري لو تركتُ الأشياء كما هي؟ سيجري أنني سأعاهد نفسي من جديد ألاّ أراها بعدُ، أن اتخلى عنها، لكنني سأقول ذلك قولاً فقط. وفي المساء سأنتظرها وستعلم وتأتي... إما أن يعلم الناس بذلك ويخبرون امرأتي، وإما أن أنبئها أنا نفسي لأنني لا أستطيع أن أكذب ولا أعيش هكذا. لا أستطيع... سوف يُعلَم كلّ شيء... كل الناس سيعلمون، «باراشا» والحداد...فهل يمكن العيشُ هكذا؟ لا يمكن... ليس هناك سوى مخرجين: أن أقتلها أو أن أقتل امرأتي... أو أيضاً... نعم... هناك مخرجٌ ثالث: «أن أقتل نفسي» قال ذلك بصوت منخفض، وفجأة سرتْ على جلده قشعريرةٌ. نعم أنتحرُ، وحينئذٍ لا تبقى حاجةٌ لقتلهما.

كان يرتعش من الهول، وذلك لأن هذا الحل بالذات كان الحل الممكن الوحيد.

«كان عندي مسدّس... أأقتلُ نفسي؟ هذا شيء لم أفكّر فيه قط... كم سيكون ذلك غريباً..».

رجع إلى البيت، إلى غرفته، وسرعان ما فتح الدرج الذي فيه مسدّسه، لكن قبل أن يتسنّى له إخراجه من غلافه دخلت امرأتُه.

- ٢٠ -

ألقى صحيفةً على المسدّس. قالت، وهي تنظر إليه قلقةً:

- الشيء نفسه دائماً؟

- ماذا؟ أي شيء هذا؟

- التعبيرُ الرهيب الذي كان قديماً، عندما أبيتَ أن تقول لي... قلْ لي، ياحبيبي، ما بكَ... أرى أنك تتألم، تكلّمْ هذا يخفّف عنكَ... كل شيء ولا آلامك. أعلم أن ذلك لا يمكن أن يكون شيئاً سيئاً...

- تعتقدين ذلك؟

- تكلّم، تكلّم

ابتسم ابتسامة حزينة:

- أتكلّمُ؟... لا، هذا مستحيل... على كل حال، ليس عندي ما أقوله.

ربما كان سيقول لها كل شيء، لكن المرضع دخلت في هذه اللحظة وسألت إن كان ممكناً أن تذهب للنزهة.

خرجت ليز لتُلبس الطفلة:

- ستقول لي إذن... سأعود حالاً

- نعم... ربما...

لن تنسى أبداً تلك الابتسامة الأليمة التي تفوَّهَ معها تلك الكلمات.

خرجت على عجل، خروج المسيئة، تناول الغلاف وأخرج المسدّس «أهو معبّأ؟ لكن منذ زمن طويل.. أطلقتْ منه رصاصةٌ... حسناً! فليكنْ ما يكون!

أسند المسدس إلى صدغه، تردّد لحظة لكنه سرعان ما تذكّر ستيباندا، وتصميمه على ألاّ يراها، والصراع والتجربة والسقوط، والصراع من جديد فارتعش من الهول؟ «لا، هذا أفضل» وضغط على الزناد.

عندما هُرعت ليز إلى الغرفة، ولم يكن يتسنى لها النزول من الشرفة... كان ممدداً على بطنه، والدم الأسود الكثيف يسيل بغزارة من جرحه وكان جسمه ما يزال ينفض.

أجريَ تحقيقٌ. لم يستطع أحدٌ تفسير سبب الانتحار. أما العمّ، فلم يخطر بباله البتّة أن شيئاً مشتركاً يمكن أن يكون بين الانتحار والاعتراف الذي أسرَّ به إليه أوجين قبل شهرين.

أكَّدت فارفارا ألكسيفنا أنها قد تنبّأت دائماً بذلك: «كان يُرى ذلك عندما يُناقش».

لا ليز ولا ماري بافلوفنا كانتا تستطيعان أن تفهما كيف وقع ذلك، ولا أن تتبينّا، بخاصة رأي الأطباء الذين زعموا أنه كان مضطرب الشخصية، نصف مجنون، ما كان بوسعهما أن يقبلا ذلك لأنهما كانتا تعلمان أنه أصح عقلاً من معظم الناس الذين عرفوهم.

وبالفعل، فلو كان أوجين أرتينييف مريضاً نفسياً لكان جميع الرجال مرضى أيضاً، ولكان أشدهم مرضاً بين هؤلاء، أولئك الذي يرون علامات الجنون لدى الآخرين ولا يرونها في أنفسهم.

***

للأم

١٨٩١

مَدخَل

كنتُ أعرف ماري ألكسندروفنا منذ طفولتها. وقد قامت بيننا علاقاتٌ ودية كالتي تقوم في الغالب بين الشباب. لكن لم يكن بيننا قط شيءٌ شبيه بالمغازلة، ما عدا مرة واحدة في أمسية عندنا حضرتْها أسرةُ ماري ألكسندروفنا كلها، ولعب فيها الحاضرون لعبة «السيدات والفرسان». كانت آنذاك صبيّة في الخامسة عشرة، ذراعاها ضخمتان حمراوان، وقد أحدثت فيّ، بعينيها السوداوين الجميلتين وجديلتها الطويلة السمراء انطباعاً قوياً، حتى لقد تصورتُ في هذا المساء أني مغرمٌ بها. لكن ذلك لم يدم سوى هذه الأمسية. و لم يكن بيننا، منذ ذلك الزمن، طوال أربعين عاماً من تعارفنا، سوى تلك الصلات الودية الطيبّة بين الرجال والنساء الذين يُقدّر بعضُهم بعضاً، الصلات اللطيفة لأنها غريبة عن الحب تماماً.

تلك كان صلاتي بماري ألكسندروفنا، ولقد عادت عليّ هذه الصداقة بالكثير من اللحظات السارّة وعلّمتني الكثير من الأشياء، كانت قد أقامت في جناح ملاصق لدير رهبان، وحدها مع طاهيتها

«بارب»، وكانت تعيش هنا، كان غريباً أن نرى هذه الأم لثمانية أولاد والتي كان لها مايقارب من خمسين حفيداً، تعيش وحدها لأنها صممت تصميماً لا رجعة عنه، بالرغم من إلحاح أولادها الصادق صدقاً يقل ويكثر، أن تنهي أيامها في العزلة.

بدت لي أولاً إقامتُها قرب الدير مستعصية على التفسير. كنتُ أعرف طريقتها في التفكير، ولا أقول تفكيرها المتحرر من الدين، فلم تكن تباهي به، لكن جرأتها وحسها السليم. إن فيض الحب الذي كان يملأ قلبها لم يترك مكاناً لأية خرافة، كنتُ أعرف اشمئزازها من كل نفاق، كل نزعة فريسيَّة، وفجأة جناحٌ بقرب الدير، والممارسات الدينية، والأب «نيكوديم»، الذي أسْلمت قيادها لمشيئته. كل ذلك كانت تفعله بتواضع وباعتدال وكأنها كانت تخجل منه قليلاً.

عندما ذهبتُ لزيارتها، رأيتُ أنها تتحاشى الكلام عن سبب اختيارها هذه الحياة. لكنني أعتقد أني فهمتُ الأمر. كانت امرأةً رقيقة ذات فكر متشكك تماماً. لكنها حين بقيت بلا أولاد وبلا شاغل بعد أن كانت أسرتها هي همها أثناء أربعين عاماً، كانت بحاجة إلى أن تُنفق طاقتها على نحو من الأنحاء. لم تجد عند أبنائها المتزوجين ما كانت تبحث عنه، ولذلك صمّمت أن تعيش في العزلة، راجيةً أن تجد العزاء حيث وجده آخرون في الدين. لاشك أنها كانت مغتمّةً، لكنها كانت ذات كبرياء فلم تدعني أتكهّن بوضعها إلا تلميحاً.

عندما استفسرتُ عن أبنائها الذين أعرفهم جيداً، أجابتني جواباً متملّصاً دون أن تلومهم. لكني فهمتُ أنها لا تخفي في قلبها مأساة واحدة، لكنْ مآسي كثيرة.

قالت لي:

– نعم، «فولوديا» شقّ طريقه بنجاح وهو رئيس غرفة الأملاك وقد اشترى أرضاً. نعم الأولاد يكبرون، ثلاثة صبيان وبنتان، صمتت وقطّبت حاجبيها الأسودين، كابحةً من غير شك فكرتها وطاردةً لها.

– حسناً، وباسيل؟

– باسيل؟ لم يتغيّر، أنت تعرفه جيداً.

– إذن، هو مايزال يعيش حياته الاجتماعية.

– طبعاً.

– وله أولادٌ أيضاً.

– نعم، ثلاثة.

تحدّثنا هكذا عن سائر الأولاد. لكنها كانت تُؤثر الكلام على «بيتيا»: كان ابن الأسرة الذي لم ينجح، لقد أنفق كلَّ ما يملك و لم يكن يسدّد ديونه، وكان موضوعاً للعذاب بالنسبة إلى أمه. لكنها كانت تفضّله على الآخرين، بالرغم من عيوبه جيمعاً بسبب «قلبه الذهبي» كما كانت تقول.

لم تَنشْط للحديث إلا عندما قادنا الكلام إلى العهد الخليّ الذي يتذكّره دائماً بسحرٍ خاص مَنْ عانوا آلاماً لا يبوحون بها. لكن موضوع الحديث الذي كانت تستسيغه والذي كان يؤثر فيها ويرقّق نفسها، كان الموضوع الذي يتعلّق ببطرس نيكيفوروفيتش، وهو مجازٌ من جامعة موسكو، المربّي الأول لأولاده ورجل مرموق، مات مسلولاً في بيتهم، وقد أثّر فيها تأثيراً عظيماً، الرجل الوحيد الذي كان يمكن أن تحبّه بعد زوجها، أو التي أحبّته دون أن تعلم.

تحدّثنا عنه، عن أفكاره حول الحياة، وهي أفكار كنت أعرفها وأشاركه فيها. لا يمكن القول إنه كان معجباً بروسو، مع أنه عرفه وأحبّه. لكن كانت له الطرائق الذهنية نفسها. كان من هؤلاء الرجال كما تتصور الفلاسفة القدماء. وإلى جانب هذا كان يملك لا شعورياً رقة المسيحي وتواضعه. كان مقتنعاً أنه كان يكره المذهب المسيحي، بيد أن حياته كلها لم تكن سوى تضحية. كانت الحياةُ تبدو له حزينةً لو لم يمكن له أن يضحّي بشيء ما لإنسان ما، ثم إنه كان يتمنى أن تكون التضحية صعبةً وشاقة التحقيق. حينئذ فقط كان يسعد، وفضلاً عن ذلك، فقد كان نقياً مثل طفل، رقيقاً مثل امرأة.

يمكن أن يَشَكّ في أن تكون قد أحبّته لكن، مما لاشك فيه أنها كانت حبّه الأوحد، على الأقل بالنسبة إلى الذين يرونهما معاً. كان يجب أن نرى عينيه الزرقاوين المدوّرتين عندما كانتا تنظران إليها، وتتابعان كلاً من حركاتها وتعكسان كل تعبير على وجهها. كان يجب أن نرى شخصه الضعيف كله، سترته القصيرة غير المتقنة، وهو يَنتعش حين كان ينحني إلى الجهة التي كانت فيها. كل من يراه لم يكن يداخله أدنى شك.

كان ألكسي نيكولايفتش، زوجها المرحوم، يعلم ذلك أيضاً، وكان يتركهما بلا خوف أمسيات كاملات وحدهما، أي مع الأولاد الذين كانوا يعلمون ذلك أيضاً. كانوا يحبّون مربّيَهم وأمهم ويجدون من الطبيعي أن يحب أحدهما الآخر.

الاحتياط الوحيد الذي اتّخذه ألكسي نيكولايفتش إزاء بطرس نيكيفوروفيتش كان أن دعاه «بطرس الحكيم». كان الكسي نيكولايفتش يحب ويقدّر بطرس نيكيفوروفيتش، لم يكن بوسعه إلاّ

أن يقدّره، نظراً لحبّه غير العادي ولإخلاصه للأولاد، وبسبب صفاته الأخلاقية العظيمة، لكنه لم يكن يسلم بإمكان الحب بين زوجته وبينه. ومع ذلك فأنا أميل إلى الاعتقاد بأنه كان يحبها. وقد كان موته بالنسبة إليها مصاباً عظيماً، بل وفراغاً عظيماً. فما إن مات حتى اختنقت بعض مطامح روحها، أفضل مطامحها وأوّلها.

كنا نتحدّث عنه إذن، عن أفكاره حول الحياة التي كان يلخّص أخلاقيّتها بما يلي: أن نأخذ من الآخرين أقل ما يمكن، وأن نُعطي أكثر ما يمكن من ذاتنا، من روحنا. ولكي نأخذ أقل ما يمكن، كان النوم على لوح خشبي، ارتداء الملابس ذاتها صيفاً وشتاءً، الاغتذاء بالخبز والماء، ثم شرب الحليب على أنه غاية الترف. لقد عاش هكذا وكانت ماري الكسندروفنا تعزو إلى ذلك ضياع صحته ومن جهة أخرى فلكي يتمكن المرءُ من العطاء يجب أن يُنمّي في ذاته القدرات الأخلاقية وأعظمها الحب. الحب الفاعل: خدمة القريب، وتحسين حياته. كان يود أن يربّي الأولاد هكذا، لكن مطالب الأقل الخاضعين للتقاليد، كانت مختلفة ونتج عن ذلك شيءٌ وسطٌ، بيد أن ذلك كان شيئاً حسناً، ومن المؤسف أن ذلك لم يدم زمناً طويلاً. فلم يبق عندهم سوى أربع سنوات...

قالت لي: «نعم، تصوّرْ أنني كثيراً ما أذهب الآن إلى سماع الموعظة، وأنا أستمع إلى الأب نيكوديم، فهل تصدّق؟ - وحطّت علي عينيها الباسمتين فتذكّرتُ جسارة أحكامها المعتادة - إن جميع مواعظه هي أدنى كثيراً مما كنت أسمع بطرس نيكيفوروفتش يقوله. الشيء نفسه لكنه أقل جودة، والشيء الأساسي أنه هو كان يقول ويفعل. وكيف كان يقول؟ كان يلتهب التهاباً، ومن جراء ذلك

مات... أتذكر عندما أُصيب «ميتيا» و«فيرا» بالحصبة؟ وصلتَ أنت في هذه اللحظة. كان يقضي الليل قرب المريضين، وفي النهار كان يهتم على عادته بالأولاد الكبار. كان ذلك عملاً مقدّساً عنده. ثم لما مرض ابن «بارب» فعل الشيءَ نفسه، وغضب لأننا لم نشأ نقل الولد إلى البيت، وقد ذكّرتني «بارب» حديثاً أن «فانيا» (الخادم) كسر له تمثالاً نصفيا لحكيم ما، فوعظه، لكنه لم يعلم بعد ذلك كيف يجعله يطلب الصفح منه، فطلب هو صفحه واشترى له بطاقات للسيرك. كان رجلاً يستحق الإعجاب. كان يقول: إن الحياة لا تستحق أن نحياها إذا كنا نحيا هنا على هذا النحو، وكان يقترح علينا أن نعمل. كان ألكسي نيكولايفتش يضحك، لكنه هو كان ينصح بذلك جاداً، معتبراً ذلك واجباً عليه. وكان الحقُّ معه. لكننا عشنا كما يعيش سائرُ الناس، وماذا تريد أن نفعل؟ خذْ أولادي مثلاً، في السنة الماضية ذهبتُ لأراهم جميعاً، ماعدا «بيتا» فهل هم سعداء؟ على كل حال لايمكننا أن نَقْلب كلَّ شيء كما كان يريد. وليس عبثاً أن أول إنسان قد سقط وأن الخطيئة دخلت العالم.

كان هذا آخر حديث بيننا. وأضافت:

- لقد فكّرتُ كثيراً في عزلتي. لم أفكّرْ فحسب، بل كتبتُ وابتسمتْ ابتسامة منزعجة أسبغت على وجهها الطاعن في السن تعبيراً فاتناً حزيناً.

- لقد سجّلتُ أفكاري بهذا الصدد، أو على الأصح ما تعلّمتُه بالتجربة قديماً منذ زمن بعيد، عندما كنتُ فتاةً، ثم عندما تزوجتُ فيما بعد، دوّنتُ مذكراتي. وبعد ذلك، عندما بدأ منذ عشر سنوات هذا...

ما الذي بدأ؟ لم تقله لي، لكني فهمتُ أنها تقصد صِلاتها بأكبر أولادها وخلافاتهم وصراعاتهم فعند موت زوجها آلت الثروة إليها.

- لقد انقطعتُ عن كتابتها. وقد وجدتُ تلك الدفاتر حديثاً، وأنا أرتّب أغراضي. فأعدتُ قراءتها. إن فيها الكثير من الأشياء السخيفة، لكن فيها أيضاً الكثير من الأشياء الحسنة والمفيدة، وحقاً - وهنا ابتسمت مرة أخرى - إني تردّدت أأحرقها أم أدَعها. استشرتُ الأبَ فأشار بإحراقها. لكنه لا يدرك، شيءٌ سخيفٌ لم أحرقها.

وجدتُ في هذه الكلمات طريقتها الخاصة، اللامنطقية في التفكير. إنها تُطيع الأب نيكوديم في كل شيء، وقد استقرّت هنا لتسترشد به، وفي الوقت نفسه تستسخفُ ما يقرّره ولا تنصرف إلا على هواها.

- لم أُحرقْ شيئاً، ومنذ ذلك الوقت، كتبتُ دفترين أيضاً. ليس لي هنا ما أفعله، وأنا وحدي. وقد كتبتُ رأيي بذلك كله. واعلمْ أنني عندما أموت - أود أن تنتقل إليك هذه الدفاتر. ستقرؤها وتقرّر إنْ كان فيها شيءٌ نافع، فإذا رأيتَ أن فيها شيئاً من ذلك فَلْيستفدْ منها الآخرون. لا يعلم المرء شيئاً، نتعذّب ونتألم من أجل الأولاد منذ الحَمْل إلى اللحظة التي يعتدّون فيها بحقوقهم، كل تلك الليالي المسهدة، وتلك الآلام، وذلك القلق والأسى، كل ذلك كان سيكون حسناً لو وُجد الحبُّ، لو كانوا سعداء، لكن ذلك غيرُ موجود. كل ما تُريده غير هذا... لقد كتبتُ كل شيء... ستقرأ ذلك بعد موتي، أليس كذلك؟

وعدتها بذلك، مع أني لا أتوقع أن تموت قبلي، وافترقنا.

علمتُ بعد شهر أنها ماتت. فأثناء صلاة العصر أحّست بالألم، فجلست على كرسي يُطوى حملتْه معها، واستندت إلى الجدار

وماتت. كانت تشكو من مرض القلب. ذهبتُ إلى الجنّاز. كان جميعُ الأولاد تقريباً هنا، ما عدا «هيلين» التي كانت في الخارج، و«ميتا» الذي أصيب بالحصبة، لم يستطع أن يأتي لأنه كان في هذه الفترة، يداوي الزُهري في القوقاز.

فرضَتْ جنازتُها العظيمة على الرهبان احتراماً أكبر من الاحترام الذي أبدوه لها في حياتها.

كل ما تركته قُسِّم ووُزِّع كهدايا للتذكرّ. ونظراً لصداقتنا فقد أُعطيتُ ثقّالة الورق وهي من حجر الدهنج، وستة دفاتر قديمة مجلّدة وأربعة دفاتر جديدة، دفاتر مدرسية، كُتبت في الدير «حول ذلك كله»، كما كانت تقول. وتحتوي هذه الدفاتر على كل القصة المؤثرة والمفيدة لهذه المرأة الطيبة والمرموقة.

وبما أنني عرفتها طوال أربعين عاماً هي وزوجها، أولادها وُلدوا وكبروا وتزوجوا على مرأى مني، فقد تمّمتُ بذكرياتي الخاصة ما كان ناقصاً في المذكرات، حيثما بدا لي ذلك ضرورياً، من أجل وضوح السَرْد.

- ١ -

اليوم ٣٠نيسان ١٨٥٧، أبدأ مذكّرات جديدة، فمنذ زمن بعيد أوقفتُ المذكرات القديمة، وما كتبتُه لا يُرضيني: ففيها الكثير من الحشو الذي لا خير فيه من ذاتي، الكثير من العاطفة، وأشياء سخيفة بسذاجة: حب ايفان زاكاريتش، الرغبة في الافتخار، في الذهاب إلى الدير...

أعدتُ منذ هنيهة قراءة أشياء رائعة كتبتها في الخامسة عشرة أو

السادسة عشرة، الأمر الآن مختلف. فعمري عشرون عاماً وأنا أحب، أحبّ حقاً وأعجبُ بنفسي، أحب دون أن أحرّض نفسي بالخوف من أن هذا الحب ليس الحب الحقيقي، وأننا لا نحب حباً حقيقياً بهذه الطريقة، وأنني لا أحب بما يكفي، على العكس، أحبُ مع خوفي من أنه حقيقي، محتوم، وأحبّ حبّاً مفرطاً، ولا أستطيع، لا أستطيع... ألاّ أحبّ... وأنا خائفة. ففيه، في وجهه، في نبرة صوته، في كل كلماته، شيءٌ جادٌ، روحيٌ، ومضحك. مضحك للجميع ولي. مضحك ومهيب في الوقت نفسه. إن أعيننا تلتقي التقاءً يزداد عمقاً، وأنا خائفة، وأرى أنه خائف هو أيضاً.

لكن لنشرعْ في الحديث بنظام.

هو ابن آنا بافلوفنا لوتكوفسكي، أسرته نسيبةُ لأسرة «اوبلونسكي» وأسرة «ميكاشني». أخوه البكر، «لوتكوفسكي» المشهور، وهو، كانا في سيباستوبول، لكي لا يبقيا في بيتهما، عندما كان الناس يتقاتلون هناك. وهو فوق كل غرور. وبعد الحرب رأساً قدّم استقالته وخدم في مصلحةٍ ما في بطرسبرج. وهو يعيش الآن في مقاطعتنا وهو عضو في لجنة، هو شابٌ، لكن الناس يقدّرونه ويحبّونه، وميشيل هو الذي جاء به إلى بيتنا. وفي البيت ما لبث أن صار كالقريب فقد استقبله بشيء من البرودة، كما يُستقبل جميع الشباب الذين يمكن أن يكونوا خُطّاباً لبناتهم. وسرعان ما أخذ يغازل «نادين» كما تُغازَل فتاةٌ في السادسة عشرة، لكنني أحسستُ في أعماق قلبي أنه كان يأتي من أجلي، لكنني لم أجرؤ على القول لنفسي بذلك. كان يأتي كثيراً إلى البيت. ومنذ اليوم الأول، ومع أننا لم نتبادل كلمةً واحدة، كنتُ أعلم أن كل شيء قد تقرّر، وأنه كان فتاي.

بالأمس، شدَّ علي يدي وهو ينصرف. التقينا على سطح درج المدخل، لا أدري لِمَ أحسست أنني أحمر. نظر إلي واحمّر أكثر مني، لقد انزعج من ذلك كثيراً واستدار وركض إلى الأسفل، أسقط قبعته والتقطها وتوقّف عند درج المدخل. صعدُت ونظرت إلى درج المدخل. كان واقفاً هناك، لا يريد أن يصعد إلى العربة، وهو يعضّض لحيته. خفتُ أن يلتفت فابتعدتُ عن النافذة، لكنني سمعت في اللحظة نفسها خطواته في الممر. كان يصعد بخطوات سريعة، واثقة، لا أعلم كيف عرفتُ خطوته، لكنني دنوتُ من الباب ووقفتُ أنتظر. كفّ قلبي عن الخفقان، كان الفرحُ والألم يضغطان عليَّ. كيف حَزرتُ، لا أعلم لكنْ لم يداخلْني أدنى شك. كان يمكن حقاً أن يقول وهو يدخل: عفواً، نسيتُ سيجاراتي، أو شيئاً من هذا القبيل. كان يمكن أن يقع ذلك. بم كنت سأشعر لو كان الأمرُ كذلك؟ كلا، ذلك غير ممكن، وقع ما كان لابد له أن يقع. كان وجُهه متحمّساً وخجلاً، وعيناه تبرقان بالعزم والفرح، ووجنتاه ترتجفان. كان يرتدي معطفاً وقبّعته بيده. لم يكن أحدٌ هنا، والجميع كانوا على السطح، قال وهو يقف على آخر درجة.

– فارفارا نيكولايفنا، الأفضل أن أقول كل شيء بدلاً من أن أتألم وممّا قد أسبّبه من اضطراب لك أنت أيضاً...

كم كان ذلك شاقاً علي، ومُفرحاً في الوقت نفسه، هاتان العينان الساحرتان، هذه الجبهة الجميلة، هاتان الشفتان اللتان تعودّتا الابتسام واللتان كانتا ترتجفان، هذا الخجل في هذا الرجل المتين والقوي! أحسستُ بالزفرات تصعد إلى حنجرتي. ربما لاحظ تعبير وجهي.

- فارفارا نيكولايفنا، تعلمين ما أنوي أن أقوله لكِ، نعم؟

بدأتُ أقول:

- لا، لا أعلم... لا، لا أعلم

قال:

- بلى، تعلمين ما أنوي أن أقوله لكِ، ولا أجرؤ أن أسألك.

اضطربَ، وفجأة انزعج من نفسه.

- ليكنْ ما يكون! أتستطيعين أن تحبينّي كما أحبك؟ أيمكنك أن تكوني زوجتي؟ لا؟ نعم؟

لم يكن بوسعي أن أتكلم. كان الفرح يضغط حنجرتي؟ مددتُ إليه يدي. أخذها وقبّلها.

- أهي «نعمٌ» حقاً؟ نعم؟ أنت تعلمين إذن. إني أتألم منذ زمن طويل. لن أنصرف إذن. لا، لا...

قلت له إني كنتُ أحبّه، وتعانقْنا.

شيء غريبٌ، هذه القبلة كادت تكون كريهة. خرج وصرف العربة، وذهبت أنا أبحث عن ماما. لقد ذهبت إلى غرفة البابا.

تمّ كل شيء، لقد عقدنا خطبتنا. انصرف في الساعة الثانية صباحاً. سيأتي غداً وسنحتفل بزواجنا بعد شهر، كان يريد أن يكون الزواج بعد أسبوع، لكن ماما أصرّتْ.

- ٢ - [١]

كان ذلك في سنة ١٨٥٧، كانت الحرب قد انتهت قبل فترة وجيزة. في منزل «فورونوف» كان الاستعدادُ يجري للاحتفال بزواج البنت الثانية «بارب»، على «اوغراف لوتوكين». لقد عرف كلٌ منهما الآخر وهما طفلان، وقد لعبا ورقصا معاً، وهو يعود الآن من سيباستوبول ملازماً، في أثناء الحرب، قدّم استقالته إلى الوزارة حيث كان يخدم، ليدخل الجيش كأحد النبلاء. أما الآن، بعد أن انتهت الحرب، فلم يكن يعلم ماذا يقرر. كان يشعر بالاحتقار للخدمة العسكرية ولاسيما الخدمة في الحرس، و لم يكن يحب أن يظل فيها، في زمن السلم. وقد أحضره عمّاه ليكون مرافقاً عسكرياً في كييف. وعرض عليه ابن عم له مركزاً في القسطنطينة، وكان رئيسه القديم يطلبه. كان لـ «اوغراف لوتوكين» أقارب ومعارف كُثرٌ، وكانوا جيمعاً يحبّونه، أو على الأصح لم يكونوا يحبّونه حباً خاصاً، لكنهم كانوا يلاحظون غيابه، كانوا يحبّونه على نحو يقولون معه إذا ظهر في مكان ما: «آه! هو ذا اوغراف! حسنٌ جداً» لم يكن يُثْقلُ على أحد لكنه كان مُستلطفاً لدى الكثيرين وبشتّى الوسائل. كانت له موهبة المحدّث الحقيقية، كان يغني، ويغزف على القيثارة، وقبل كل شيء، لم تكن له مطامع. كان ذكياً، جميلاً، سريع الفهم، وكان باشّاً أبداً.

في هذه الأثناء، كان يفكّر في المكان الذي سيبقى فيه، بالرغم من لا مبالاته، فقد كان يفحص بجدٍّ فُرصَ هذه الخدمة أو تلك. وفي هذه الأثناء، تعرّف إلى آل فورونوف الذين دعوه إلى زيارتهم في الريف.

---

١ - في هذا المقطع تناقض وتغير للأسماء.

فقبل وأقام أسبوعاً ثم انصرف. وبعد أسبوع، عاد وتقدّم بطلبه، فقبلوه بفرح. لقد كان خطيباً مناسباً. وتمّت الخطبةُ.

قال الأب نورونوف لزوجته التي كانت قريبة من طاولته تنظر إليه بحزن:

- لكن ليس فيه شيء غير عادي. هو طيب، هو طيب! ليست القضيّة قضيّة طيب... لقد عاش عيشة لاهية من قبل! إني أعرف جيداً سلالة «لوتوكين»... ثم إنه لا يملك شيئاً، ماعدا النيّات الحسنة، وخدمته. والمهر الذي سيعطيه لن يكفي...

قالت برقة وحزن:

- لكن كلاً منهما يحب الآخر، وقد تصرّفا بإخلاص.

- نعم، بلا شك، إنهما متشابهان... لكني أنا كنت أتمنّى لـ «بارب» مَنْ هو أفضل. إن طبيعة باستقامة طبيعتها ورقتها... يحق لنا أن نأمل لها بمَنْ هو خير. لكن ما العمل؟ هيّا.

وخرجا.

في البداية بدا بابا مستاءً، لم يَستْأ كثيراً، لكنه كان حزيناً، غير طبيعي. أنا أعرفه. يبدو عليه أنه لا يعجبه. وهذا ما لم أستطعْ فهمه، لا لأنني خطيبته، لكنه يتّصف بكثير من النبل، وهو قبل كل شيء، عظيم الاستقامة والنقاء. هذا مكتوبٌ على وجهه. فنحن نرى أنه لا يخفي شيئاً وأنْ عنده ما يُخفيه. وهو لا يخفي سوى السمات الرفيعة من طبعه. لا يجب أن يتحدّث عن حرب سيباستوبول. هو لا يحب أن يتحدّث عن ذلك، ولا عن ميشيل، وعندما سألتُ أحمّر. أشكركَ، يا إلهي، لست أبقي شيئاً فوق ذلك.

سافر «نوتوكين» إلى موسكو، حيث سيهتم باستعدادات الزواج. توقّف في فندق «الفارس»، وعلى الدرج صادف زميله «سوستشوف».

- آه! غراشا! أصحيح أنك ستتزوج.

- نعم، صحيح

- حسنا! أهنّئكَ. أنا أعرفهم، أسرة رائعة. وأعرف أيضاً خطيبتك، جمالُ حقّ. سنتعشّى معاً، إذن!

تعشيّا وشربا زجاجة بعد زجاجة.

- حسناً! لنذهبْ ونتنزه قليلاً.

ذهبا إلى «الأيرميتاج» الذي افتتح قبل وقت وجيز. وعندما بلغا المسرح، التقيا «آنيت». لم تكن هذه تعلم أنه سيتزوّج، على كلٍ حال لو أنها علمت لما تغيرّ سلوكها، ولا ابتسمت بفرح أكبر حافرةً غمازيَتها.

- آه! كم أنت مُرهق، هيّا!

وتأبّطت ذراعه.

همس سوستشوف من خلفه:

- احترسْ

- في الحال، في الحال.

صحبها لوتوكين حتى المسرح، وهناك أسْلمها إلى باسيل الذي لقيه.

«لا، ليس هذا حسناً، سأعود إلى الفندق... و لِمَ جئت إلى هنا؟».

لكنه انصرف بالرغم من محاولة استبقائه، وعاد إلى الفندق. وفي غرفته شرب كأسين من المياه المعدنية وجلس إلى الطاولة ليُجري حساباته. وفي الصباح، ذهب لينهي أعماله ويبحث عن المال. رفض أخوه أن يعطيه مالاً، فاقترض من عند مرابٍ. كان جالساً يُجري حساباته ويتذكر بشعورٍ مزعج «آنيت» التي عليه أن يتخلّى عنها. تناول صورة «بـارب»: الأنيقة الحمراء، القوية، الجمال الروسي الحقيقي. وبعد أن تأملها، وضعها أمامه وتابع عمله. وفجأة سمع في الرواق صوت «آنيت» وصوت «سوستشوف».

– غراشا، ماذا تفعل؟

ودخلوا غرفته...

في صباح اليوم التالي، ذهب «لوتوكين» ليتناول الشاي عند سوستشوف ووجّه إليه اللومَ:

– أنت تفهم، هذا يمكن أن يُحزنها بعمق.

– كيف، أهدأْ. لن أنْبس بكلمة.

٧نيسان. عاد غراشا من موسكو. النفس الطفولية الصافية ذاتها. أرى أنه منزعجٌ لأنه ليس غنياً، من أجلي، من أجلي فقط، في المساء، تحدّثنا عن الأطفال، عن أطفالنا المقبلين. لا يمكنني أن أصدق بأن سيكون لي أولاد، حتى ولد واحد، ذلك غير ممكن، ستكون سعادة عظمى. وإذا جاءني أولاد فكم سأحبّهم، هو وهم؟ لا يمكن للمرء أن يملك كل شيء؟

بعد شهر، احتُفل بالزواج، وفي الخريف حصل «اوغراف لوتوكين» على عمل في الوزارة، وذهبا يسكنان بطرسبرج، وفي أيلول أحسّت أنها حامل، وفي آذار وضعت فارفارا دميتريفنا ولدها الأول.

كانت الولادة، كما يحدث دائماً في الولادات الأولى، غير منتظرة، و لم يكن أيَّ شيء جاهزاً، لأن الجميع كانوا يريدون أن يتأهبّوا للأمر، لكن بالعكس بالضبط هو الذي كان، في الواقع...

***

مكتبة
t.me/t_pdf

سهرة القيصَر الشاب
في ليلة عيد الميلاد

١٨٩٤

استولى على السلطة منذ فترة قصيرة، فمنذ خمسة أسابيع بدأ يعمل عمله كقيصر يستمع إلى التقارير، ويوقّع الأوراق، ويستقبل السفراء أو كبار الموظفين، ويَسْتعرض الجند. كان يحس أنه مُتْعبٌ، وكما يحنّ المسافر الذي أنْهكه الحر إلى الماء والراحة، كذلك كان يشتاق إلى يوم بدون استقبال، ولا خُطب، ولا استعراض، إلى بضع ساعات من الحريّة، ومن الحياةِ الإنسانية البسيطة التي يمكن أن يقضيها بجنب امرأته الشابة، الذكية والجميلة والتي تزوّجها منذ شهر فقط.

جاء يوم العيد وقد تدبّر القيصر الأمر لتكون أمسيتهُ حرّة، لقد استغل ليلة أمس إلى وقت متأخر في الليل لتصريف الشؤون الوزارية. وفي الصبيحة حضر قدّاساً، ثم حضر بدون فاصل زمني حفلةً عسكرية، تبعتها بعضُ الاجتماعات، ثم استمع بعد ذلك إلى تقرير أربعة وزراء، ووافق على بعض النتائج. لقد اقنعه وزير المالية بقبول تعريفة جديدة للرسوم الجمركية، وهي تعريفةٌ ستزيد الدخلَ بضعة ملايين، كما أقنعه الوزير نفسه بالتوقيع على مرسوم يمنح امتياز الكحول لبعض بلدان الإمبراطورية، وكذلك حق بيع المشروبات الروحية في القرى الكبيرة،

ممّا يزيد عائدات الدولة، وأخيراً سمح بقرض ذهبي جديد، ضروري للتحويل.

وقد عرض عليه وزير العدل قضيةً معقّدة متعّلقة بإرث بارونات «شائن - شنيدر»، وكذلك النظام الخاص بتطبيق القانون على التشرّد.

ومع وزير الداخلية وافق على النشرة المتعلقّة بالضرائب المجبيّة، ووقّع حول التدابير التي يجب أن تتّخذ ضد أصحاب البدع، وقراراً آخر حول التدابير لحماية أمن الدولة.

وأخيراً جاء وزير الحرب الذي طلب إليه أن يؤشّر على تعيين جنرال قائداً لفيلق، وكذلك على نظام متعلق بدعوة المجندين وبتدابير تأديبية أخرى.

لم يُعْطَ حريته إلا للعشاء، لكنها لم تكن سوى حرية جزئية، لأنه استقبل عدداً من الموظفين الذين لا يستطيع أن يتحدّث معهم عما يهمّه، لكن عمّا هو ضروري فقط.

ولما انتهى العشاءُ المُضْجر، انصرف المدعوون، مضت امرأة القيصر إلى جناحها لتخلع ثوب الاستقبال، ووعدت بالعودة في الحال للقاء زوجها.

مرّ القيصر إلى غرفته بين صفين من الخدم الواقفين وقفتهم المستقيمة كالأوتاد، وخلع رداءه الثقيل، وارتدى سترةً، واستشعر مع فرح التحرير ما يشبه الحنان الذي يجيئه من حياة سعيدة، هانئة، وسليمة، ومن شباب حبّه.

استلقى على أريكة، وقد أسند رأسه إلى يده، وتأمل الزجاج المتخشّن الذي يحمي المصباح.

وما لبث أن أحسّ بما لم يشعر به منذ طفولته: الإخلاد إلى النوم.

وفكر: «لا، لا أريد، لأن امرأتي ستأتي».

ثم وضع خدّه على راحته، وتمدّد وأحسّ براحة عظيمة حتى إنه لم يتمنَّ سوى شيء واحد: ألاّ يأتي أحدٌ ليُزعجه. وقع له ما يقعُ لكل واحد منا،

أغفى دون أن يعلم، ماراً، بالرغم من إرادته، من اليقظة إلى النوم.

هل نام طويلاً؟ لم يكن يعلم. لكن يداً وُضعت على كتفه أيقظته فجأة.

إنها هي، حبيبتي، لكن من المخجل أنني نمتُ هكذا.

ومع ذلك فلم تكن هي، فأمام عينيه اللتين أخذتا ترّفان كان يقفُ «هو»، لا التي كان ينتظرها ويشتاق إليها، لم يكن القيصر الشاب يعرفه، و لم يره من قبل قط، لكنه لم يدهش لرؤيته، كان يشعر أنه يعرفه منذ زمن بعيد، وأنه كان يحبه ويؤمن به كما يؤمن بنفسه.

انتظر امرأته المحبوبة، وجاء مكانها مَنْ لم يره من قبل قط. بيد أن الشاب، بدلاً من أن يخاف أو يحزن اعتبر ذلك شيئاً طبيعياً تماماً.

قال «المجهولُ» بصوته الذي لا جَرْس فيه:

- لنِمْضِ.

قال القيصر الشاب الذي كان يعلم أنه يجب أن يُطيع دون أن يعلم أين يذهب.

- نعم، لنمضِ.

وسأل:

- وكيف نفعل لنخرج.

- الأمر بسيط.

وإذْ وضع «المجهول» يده على رأس القيصر، فقد القيصُر على الفور وعيه بنفسه.

وحين استيقظ رأى نفسه في الريف المترامي الأطراف، إلى اليمين كانت تتراص حقولُ البطاطا والشمندر المتجمد والمكوّم، وبذار الشتاء الجديد، وفي الأفق البعيد برزت سقوف قرية حمراء على سماء رمادية. وإلى اليسار امتدت حقولٌ من قمح الخريف ومن القنّب. ثم صفٌ طويل من إشارات الحدود. وعلى طول هذا الصف يتمشى طيفٌ أسود لرجلٍ بندقيّته على كتفه، وكلبه يتبعه.

وقريباً من المكان الذي كان فيه القيصر وعند قدميه تقريباً جلس جندي روسي. كان يرتدي البزة الموشاة باللون الأخضر لحراس الحدود، ولاشك أنه لم ير القيصر ولا رفيقه. كان يلفّ سيجارةً وبندقية بين ساقيه.

سأل القيصر:

- أين نحن؟

أجاب الآخر:

- على حدود بروسيا.

دوّت من بعيد طلقة بندقية، عنيفةً، انتصبَ الجنديُ ورأى طيفْي رجلين محنّنين يصلان وهما يركضان، ويَسْعيان إلى أن يغيبا عن النظر. دسّ بعجلةٍ في جيبه ولحق بالهاربيْن. صاح:

- قفا وإلا أطلقت النار.

ولمّا لم يتلقّ جواباً سوى الشتيمة، وقف وقدّم رجله اليسرى وصوّب وأطلق النار:

فكر القيصرُ الذي لم يسمع صوتاً وراح ينظر إلى أحد الهاربْين وهو يزداد انحناءً، ويسقط على وجهه ويزحف ثم يقف أخيراً. أما رفيقه فانحنى وأخذ شيئاً واستأنف جريه.

سأل الملكُ:

- ما هذا؟

- هؤلاء هم حرّاس الحدود الذين يفرضون على التهريب التقيّد بالقانون، فهذا الرجل قُتل لأنه سبّب خسارة في أرباح الدولة.

- وهل مات؟

لمس المجهولُ مرةً أخرى رأس القيصر. وعندما استيقظ من جديد، رأى نفسه في غرفة صغيرة، ووسطها، على أرضها الخشبية ترقد جثةُ رجل. كان أنفه المعقوف، ولحيته الصغيرة المائلة إلى الشيب تنتصب في الهواء. وكانت عيناه الشديدتا الضخامة تنفخان جفنيه المغمضين. وكانت يداه المتصالبتين، وقدماه الحافيتين بإبهامهما الضخمتين الوسختين، كل ذلك أحدث أثراً جديداً في القيصر. وكان جنبه جرحٌ فاغرٌ فاه، وكان ثوبه الممزّق وقميصه الأزرق مغطّيين بالدم المتجمد. وكانت تقف بحذاء الجدار امرأة تغطي وجهها كله تقريباً بخمار، وتحدّق بعينيها الجامدتين في الأنف المعقوف والإبهامين الوسختين البارزة في الهواء، وفي جفني الجثة الضخمين. وكانت صبّيةٌ في الثالثة

عشرة، مرموقة الجمال، تفغرفاها، وصبي أصغر منها يتشبث بتنورة الأم، وهو ينظر إلى عينيه المخبولتين.

حينئذ، ظهر عند العتبة، بضعةُ رجال. كان أولهم موظفاً ببزته الرسمية، ثم جاء ضابط، ثم طبيبٌ. وكان يسير بعدهم كاتبٌ يُمسك برزمة من الأوراق. وخلف هؤلاء جميعاً الجنديَّ الشاب الذي قام بالقَتْل قبل قليل. دخل بخطوات ثابتة، لكنه شحبَ عندما رأى الجثة، وأطرق رأسه وصمت.

عندما سأله الموظف إن كان هذا حقاً هو الرجل الذي أراد أن يَعبُر الحدود. لم يستطع أن يجيب إلا غمغمةً. ارتجفت شفتاه وقال: «نعم»، حتى دون أن يضيف الكلمات الجوهرية «ياصاحب النبالة».

وهذه هي النتائج اللامعة للقضية.

في غرفة فخمة، لكن لا ذوق فيها، جلس رجلان أمام زجاجة، أحدهما عجوز أشيب، والآخر يهودي شاب. كان الشاب يساوم، وفي يده رزمةٌ من الأوراق المالية، ليحصل بسعر منخفض على السلعة المهربة. قال وهو يبتسم:

- إنها لم تكلّفك غالياً، مع ذلك

- أنت تحسبها بدون مخاطر...

قال المجهول:

- لِنمْضِ.

في هذه المرة، كانت الغرفة صغيرةً يُضيئها مصباح له كمّةٌ. وقد

جلست إلى الطاولة امرأة تخيط، كان صبيٌّ صغير يرسم، وطالبٌ يقرأ بصوت مرتفع

دخل الغرفةَ الأبُ والبنتُ...

قال المجهول:

- لقد وقعت قبل مرسوم الامتياز.

قالت المرأة:

- ما رأيك:

- لا أعتقد أنه سيعيش

- لكن ماذا

- لقد أسِكرَ بماء الحياة

قال الطالب:

- مستحيل، فليس له سوى تسع سنوات

سألت المرأة

- ماذا وضعتَ؟

- فعلتُ ما أستطيع فعله، وضعتُ له مُقيّئاً، ووضعتُ له كمّادات من طحين الخردل. لكنّ به أعراض التسمّم الفاتك.

قالت البنت:

- كانوا جميعهم سكارى في البيت

قال الطالب:

- وجمعيّتُك، جمعية مكافحة الكحول.

- ماذا تريد أن تفعل؟ كان بابا يريد إغلاق الخمّارة، لكن القانون يعارض ذك، كما يبدو: وأكثر من ذلك، أجابني هرميلين عندما قلت له: إنه من العار أن نُسكر هكذا الشعب بأسره، أجابني بافتخار، أمام جميع الناس. «وبراءة الاختراع وعليها نسر جلالته. لو كانت القضيةُ سيئة لما كان هناك قرارٌ قيصري».

- شيء رهيب: فمنذ ثلاثة أيام والقرية ثَمِلة. إنها في قَصْفٍ!

ومن المخيف التفكير في أن كل من له سلطة، الموظفين والقيصر ينشرون إدمـان الخمر. الناس يشربون في كل مكان ويتبادلون الأنخاب: «إنني أشرب نخبَ الكتيبة!».

الكهنة والمطارنة يشربون...

... ومن جديد، النسيان...

كوخٌ خشبي. فلاح في الأربعين، الوجه يكاد يكون بنفسجياً، والعينان منقلبتان، يضرب بجنون وجه شيخ، الشيخ كان يغطّي وجهه بيد، ويتشبّث بلحية الآخر، لايريد أن يرخيها.

- أنت تضرب أباك!

- سيّان عندي. سأذهب إلى سيبيريا، لكني أريد أن أقتلكَ. كانت النساء يزعقن. والسلطات الثملة أيضاً، كانت تدخل الغرفة لتفرّق بين المتقاتلين.

انتُزعت لحيةُ أحدهما، وكُسرت ذراع الآخر. وعند المدخل أسلمت البنتُ السكرى نفسها لفلاح عجوز أشدّ سكراً منها.

قال القيصر الشاب:

- لكن هؤلاء حيوانات مفترسة.

- لا، هؤلاء أولاد.

تغيّر المشهدُ. رأى القيصر الشابُ نفسه في محكمة قاضي الصلح. كان القاضي ضخماً، أصلع، في عنقه سلسلة ذهبية، وكان يقرأ حكماً على امرأة نصف غافية...

ثم كان جَلْدٌ في أحد سجون سيبيريا وهو النتيجة المباشرة للقرار القيصري حول التشرّد.

أسرةٌ تُطرد من مكان إقامتها لأنها فقيرة، بينما تُتْرك أسرة أخرى غنية أعطت رئيس الشرطة مالاً.

ثم حضر القيصرُ الشاب جبايةَ الضرائب، عند بيع بقرة فلاح فقير، بينما يتخلص التاجر الغني الذي لا يدفع الضرائب، برشوة الجابي...

... ثم المحكمة الريفية، وكانت نتيجة جَلْد فلاح عجوز.

- ايلي فاسيليفتش، ألا يمكن تأجيل عقابي؟

- لا

بكى الفلاح العجوز

- المسيح تألم وأَمرنا أن نتألم

... ثم كانت مطاردة أصحاب البدع، والأمر المتعلق بسفر القيصر: الفلاحون الذين يظلّون ساعات كاملة في الوحل والثلج بلا طعام، ليهللّوا له.

... والمرسوم الخاص بالمؤسسات الخيريّة للإمبراطورة ماري التي كانت نتيجتها غير متوقعة الحث على فسق وعلى الانحراف المنتشرين بين الفتيات...

وكم من المشاهد الأخرى رأى القيصرُ الشاب: القرعة التي تحرم الأسرة من سندها، نساء الجنود بفسادهن، الجنود مع ما فيهم من زهري، كتائب الانضباط حيث يتم الجلدُ حتى الموت وحيث يُصَبُّ الملحُ على الجراح، الضباط الذين يسرقون مال الجنود ويخسرونه في القمار... مستوى بؤس الشعب، الأطفال المصابون بداء الخنازير، قبَائل بأسرها من السكان الأصليين تختفي، في الكوخ الحيوانات تختلط بالناس، العمل المستمر، والخضوع والوهن! وهاهم الوزراء. والحكام، الاختلاس، والكبرياء والحسد، ورغبتهم في أن يُرْهبَوا.

سأل القيصر:

- وأين الناس؟

- هاهم في المنفى، وحيدين وغضاباً، في الأشغال الشاقة حيث تُجلد النساء في الزنزانات حيث يصابون بالجنون وحيث تُتركُ الفتيات البالغات للجنود.

«إنهم كذلك بمئات الآلاف الخاطئة، ومن أفضل الناس ضلَّ بعضهم بسبب التربية والبعضِ الآخر أُفسدوا عن عَمْد، لأن الدولة بحاجة إلى الفاسدين، لكن ويلٌ لمن يضحّي بكل هذه الشبيبة الصافية!

وكل ذلك على ذمتكَ، فباسمك يُفْسد ملايين البشر الذين تمتدُّ عليهم سلطتُك.

صاح القيصر آسفاً

- ماذا ينبغي أن أفعل؟ مع أني لا أريد أن يُعّذب الناسُ ولا أن يُجلدوا ويُقتلوا ويُفسدوا. أريد خيرهم. وإذا كنتُ أطمع إلى السعادة فلست أقل رغبة فيها للآخرين. أأنا حقاً مسؤول إذن عن كل ما يُفعل باسمي؟ ما العمل؟ ماالعمل؟ وكيف أنْعتق من هذه المسؤولية؟ لو أحسست أني مسؤول ولو بجزء من مائة فقط عن كل هذه الجرائم المتّصلة بالسلطة التي بين يدي لقتلتُ نفسي. ياإلهي ما العمل؟

عند هذه الكلمات استيقظ والدموع تنهمر من عينيه.

وكانت أول أفكاره: «ياللسعادة، لم يكن ذلك إلا حلماً!».

لكنه عندما تذكّر ما رآه وقارنه بالواقع رأى أن المسألة لا تقلّ أهمية، ولأول مرة اتّضح الشعور بالواقع الذي يبهظه بكل بشاعته.

نهض، وهو في قلقه، ودخل غرفة مجاورة، رأى عجوزاً من رجال الحاشية، صديق المرحوم أبيه، يحدّث امرأة القيصر الشابة.

دنا القيصر أنبأ الشيخَ بحلمه وبشكوكه.

- كان ذلك ممتازٌ، وهو يبرهن على العظمة اللانهائية لنفسك. لكنْ أرجوك أن تعدني إن صارحتك ولم أداور، أنت أطيبُ من أن تكون قيصراً، وأنت تبالغ في مسؤوليتك. أولاً ليس كل شيء كما تتصوره: فالشعب ليس فقيراً، على العكس، إنه يعيش في البحبوحة، ومَنْ كان فقيراً فلا يلومَنَّ سوى نفسه. ويُعاقَبُ المجرمون، فاذا كان

هناك أخطاء، فكما تقع الصاعقة أو المصادفة أو مشيئة الله، ما عليك إلا أن تنفّذ واجبك بشجاعة محتفظاً بالسلطة التي أُعطيتَها. أنت تبغي خير رعاياك والله الذي يرى الخير سيقود ويغفر لك الأخطاء اللاإرادية. ولا يبقى شيء للمغفرة، لأن رجالاً يملكون مثل هذه الفضائل الرفيعة كما تملك أنت ووالدك المبجّل غيرُ موجودين، ولن يوجدوا أبداً. ومن أجل ذلك نسألكَ هذا الشيءَ: عشْ واستجبْ لحبنا وإخلاصنا اللذين لا حدود لهما، وحينئذ سيكون الجميع سعداء، ما عدا الأنذال الذين لا يستحقّون السعادة.

سأل القيصر امرأته:

- وأنتِ، مارأيكِ؟

أجابت المرأةُ الذكية التي نشأتْ في بلد حرٍ:

- لستُ أرى رأيه. أنا سعيدةٌ أنك حلمت هذا الحلم. لأنني أشعر مثلك بكل فظاعة مسؤوليتك، وهذه الفكرة تعذبني بقسوة. ويبدو لي أن هناك وسيلة، إن لم تخلّصْك من هذا العبء كله، فانها ستخلّصك على الأقل من كل ما يتجاوز قواك. ينبغي أن تُسلّم جزءاً من سلطتك إلى الشعب وممثّليه، مع احتفاظك بهذا الجزء الصغير من السلطة الذي تتطلبه إدارة الأمور العامة.

وماكادت تنهي كلامها حتى بادر رجلُ الحاشية إلى معارضتها، شارعاً في نقاش مضبوط لكنه عنيف.

أعارهما القيصر، في أول الأمر انتباهه ثم لم يسمعهما بعد أن أخذ الصوتُ الوحيد، صوتُ رفيق حلمه يتكلّم عالياً في قلبه.

كان هذا الصوتُ يقول:

- لستَ قيصراً فحسب، ولكنك إنسانٌ أيضاً، أي إنك كائن جاء إلى الدنيا اليوم وقد يختفي غداً، وفضلاً عن واجبات القيصر التي حدّثك عنها هذان، إن لك واجباً أكثر مباشرة، ولا اعتراض عليه، ليس واجب القيصر أمام رعاياه، وهو واجب عرضي وإنما الواجبات الأبدية: الواجب أمام الله والواجب أمام روحك يجب أن تخدم الله وتُسهم في إقامة ملكوته في هذه الدينا. لا يمكنك أن تتصرّف بحسب ما كان وما سيكون، بل بحسب كلام الله فقط.

حينئذ استيقظ حقاً ورأى امرأته بجنبه. وسيقال لنا بعد خمسين عاماً أيّ الطرق الثلاث... اختار القيصرُ الشاب.

***

الأب سيرج [1]

١٩٠٤

حدثت في بطرسبرج، نحو سنة ١٨٤٠، حادثةٌ أثارت الدهشة العامة: إن الأميرَ الساحر آمر مفرزة في كتيبة كيراسيرسكي، الذي كان يتنبّأ له جميع الناس رتبة مرافق عسكري وحياةً لامعة في عهد الإمبراطور نيكولا الأول، «تقاعد قبل شهر من زواجه بوصيفة جميلة كانت تتمتع بحظوة خاصة لدى الإمبراطورة، وفسخ خطبته معها، ووهب أخته أملاكه الصغيرة، وقصد الديَر وبنيّته أن يُصبح راهباً.

كان هذا الحدث يبدو غير عادي وغير قابل للتفسير بالنسبة إلى جميع الذين لا يعرفون أسبابه العميقة، لكن ذلك كله كان بالنسبة إلى الأمير «ستيبان كاساتسكي» طبيعياً جداً حتى إنه لم يكن يتصوّر إمكان اتخاذه موقفاً آخر.

عندما مات والد «ستيبان كاساتسكي»، وكان عقيداً في الحرس متقاعداً، كان عمرُ ابنه اثني عشر عاماً، وقد اتبعت أمه مشيئه زوجها الأخيرة، بالرغم من الأسف الذي استشعرته، إذ أعلن في وصيته عن

---

١ - هذه الحكاية التي نقحت جانباً عدة مرات، تعكس الانطباعات عن حياة الرهبان في دير اوبتينا الذي زاره تولستوي عدة مرات.

رغبته في عدم بقاء الولد في البيت، وفي دخوله مدرسة أبناء النبلاء العسكرية، وذهبت الأرملةُ بنفسها لتسكن بطرسبرج، لكي تكون حيث يكون ابنها، ولكي يظلّ بقربها أثناء العطل، وفي أيام الأعياد.

كان الفتى اليافع يمتاز بقدرات باهرة، وبحبٍّ وافرٍ للذات وبفضل ذلك كان الأوّل في صفه، في العلوم والرياضيات بخاصة، وكان يهواها هوى حقيقياً، وكذلك الفروسية وبالرغم من قامته البالغة الكبر فقد كان جميلاً ورشيقاً. وحتى بسلوكه كان يمكن أن يكون طالباً نموذجياً لو لم يكن سريع الغضب، لم يكن يشرب الخمر ولايستسلم إلى المجون، وكان رائعاً جداً باستقامته. الشيء الوحيد الذي كان يحول بينه وبين الكمال هو نوبات الغضب التي كان يَفْقد خلالها رقابته على نفسه، ويصبح شبيهاً بحيوان مفترس، وذات يوم أوشك أن يرمي أحد الطلاب من النافذة، لأنه سخر من مجموعة المعادن التي يملكها. وفي مرّة أخرى كاد يحطّم حياته: فقد رمى المشرفَ بضلع خروف، وفي يوم آخر انقضَ على ضابط وضربه لأن هذا الضابط حلف زوراً، وكذب عليه جهاراً، وكان سيُطرد من المدرسة لولا أن المدير أَخفى الحادث وصَرَف المشرف.

في الثامنة عشرة، رُفّع إلى مرتبة ضابط في كتيبة الحرس الأرستقراطية، وقد عرفه الإمبراطور نيكولا بافلوفيتش شخصياً منذ أن كان في المدرسة، بل ولحظه في الكتيبة، ولهذا السبب تنبّأ الناس لكاساتسكي برتبة مرافق عسكري، وكان الشاب يحرص أعظم الحرص على ذلك، لا بسبب طموحه فقط، بل لأنه على وجه الخصوص، عندما كان في المدرسة كان شديد الإعجاب نيكولابافلوفيتش. فعند كل زيارة من الإمبراطور لمدرسة الضباط - وكان الإمبراطور كثيراً ما يأتي إليها،

فيدخل بخطوات قوية» نافخاً صدره، وأنفه الأفقي يعلو شاربيه، وقد قصّ عارضيه قصاً خفيفاً، مرتدياً سترة عسكرية، وراداً على تحية الطلاب بصوت قوي كان كاساتسكي يشعر بحماسة العاشق، وهو الشعور نفسه الذي شعر به فيما بعد عندما صار عاشقاً حقاً، لكن حماسته لنيكولا بافلوفيتش كانت أيضاً أشد تأجّجاً، كان يريد أن يُظهر له إخلاصه الذي لا حدود له، وكان مستعداً أن يُقدم من أجله على أية تضحية، حتى التضحية بحياته. وكان نيكولا بافلوفيتش يعلم أنه موضوع لهذه الحماسة التي كان يُثيرها، كان يلعب مع الطلاب، يعاملهم حيناً كزملاء وأصدقاء، ويخاطبهم حيناً آخر بفخامة ومهابة، وعندما علم بآخر مأثرة لكاساتسكي لم يقل شيئاً، لكن عندما دنا الشاب منه، نحّاه بحركة مسرحية، وبدت عليه الصرامةُ، وهددّه بإصبعه، ثم قال وهو ينسحب:

- أنت تعلم أنني أعرف كلَّ شيء، هناك، مع ذلك، أشياء لا أريد أن أعرفها... لكنها هنا.

وأشار إلى قلبه.

وعندما قُدِّم إليه الطلاّبُ الضباط، بعد الترقية، كان قد نسي ذلك الحادث فردّ عليهم، كعادته، أنهم يستطيعون أن يتوجهوا إليه مباشرة، ليخدموه بأمانة هو والوطن، وأنه سيبقى أبداً صديقهم الأول. ولقد تأثّر الجميع، كما هي الحال دائماً، وبكى كاساتسكي دموعاً حارّة وهو يفكر بماضيه، وأقسم أن يخدم القيصر بكل قواه.

بعد تعيينه في الكتيبة، سافرت أمه وأخته على الفور إلى موسكو أولاً، ثم إلى الريف. أعطى كاساتسكي أخته نصف أملاكه، وما بقي له كان لايكاد يكفيه لكي يعيش في قلب هذه الكتيبة الرائعة التي كان

متعلّقاً بها، كان جسدياً، ضابطاً شاباً ولامعاً في الحرس يسير في مهنته، أما في قرارة نفسه، فقد كان في تطوّر، وفقاً لمسيرة معقّدة وعنيفة، وذلك منذ طفولته. ومن الوهلة الأولى، كان هذا التطوّر يبدو كظاهرة متعدّدة الوجوه، لكن الواقع أن ذلك كان ينحصر في مطمع واحد هو الوصول إلى الكمال في جميع المسائل التي سيتصدّى لها طوال حياته، وهو كمال سيبتعث ثناءَ الجميع ودهشتهم، وسواء أتصدى للعلوم أم لأية دراسة أخرى، فقد كان يَقفُ نفسه عليها ويعمل فيها حتى يثير الإعجاب العام، وحتى يُضْرَب به المثل للجميع. فإذا بلغ غايته، حدّد لنفسه غايةً أخرى. وهكذا فبعد أن كان الأول في العلوم تبيّن، وهو ما يزال في المدرسة العسكرية لأبناء النبلاء، الصعوبات التي يلقاها في التعبير باللغة الفرنسية، فتوصّل إلى الكلام بهذه اللغة وبطلاقة الروسية، وفيما بعد، أكبّ على الشطرنج وأصبح لاعباً من الطراز الأول.

وإلى جانب متطلبّات الحياة الجارية التي تقوم على خدمة القيصر والوطن، كان يضع لنفسه دائماً هدفاً آخر وحتى لو كان ذلك الهدف تافهاً، فان كاساتسكي كان يعكف عليه بكليته، حتى يبلغه، ولكنْ ما إن يبلغ هذا الهدف حتى ينشأ في فكره هدفٌ آخر يحلّ محل السابق. وكانت تلك الرغبة في التميّز، وبلوغ الهدف الذي وضعه نُصْبَ عينيه في سبيل ذلك التميّز، تملأ حياته كلها.

مثلاً، عندما عُيِّن ضابطاً، وضع نصبَ عينيه أن يعرف شؤون الخدمة حتى الكمال، وسرعان ما أصبح ضابطاً نموذجياً، مع أن عيبه القديم، طبعه الغضبي كان يجّره في كثير من الأحيان إلى قصص شقيّة ومؤخّرةٍ لترفيعه. وفيما بعد أدرك أثناء حديث اجتماعي أن ثقافته

العامة ناقصة، فقرر أن يكمّلها وأخذ يقرأ وبلغ أهدافه. ثم قرّر أن يلمع في المجتمع الراقي، وأخذ يُتقن الرقص، وتوصّل بسرعة إلى أن يُدعى إلى جميع الحفلات الراقصة، إلى جميع السهرات الراقية، لكن ذلك لم يكفه. لقد تعوّد دائماً أن يكون الأول، لكنه كان بعيداً عن أن يكون الأول في هذه الحالة ذلك أن المجتمع الراقي إذ ذاك كان يحتوي - وأرى أن الأمر كذلك دائماً في جميع المجتمعات - على فئات من الناس:

١ - الأغنياء المرتبطون بالقصر.

٢ - الذين لم يكونوا أغنياء لكنهم وُلدوا في القصر ونشؤوا فيه.

٣ - الأغنياء الذين كانوا يتعلّقون بأذيال الذين في القصر.

٤ - الذين لم يكونوا أغنياء والذين كانوا يتعلّقون بأذيال الفئة الأولى والفئة الثانية.

لم يكن كاساتسكي ينتمي إلى الفئة الأولى: وقَبِله رأساً أعضاءُ الفئتين الأخيرتين. وعندما قرّر إن يُصبح من المجتمع الراقي وضع نُصبَ أعينه أن يرتبط بامرأة من ذلك المجتمع، وتوّصل إلى ذلك بسرعة عظيمة، خلافاً لتوقّعه، وتبيّن بسرعة أيضاً أن الأوساط التي يتردّد عليها ليست رفيعة، بالنسبة إليه على المستوى الاجتماعي. كان فيها من أعلى الناس، لكنه في هذه الأوساط ولاسيّما في الأوساط التي تدور حول القصر، كان يظل غريباً عنها وإن قُبِلَ فيها. وبرغم كل الاحترام الذي كان يلقاه، كان يشعر بوضوح أنه لا ينتمي تماماً إليها.

وأراد كاساتسكي أن يُقْبَلَ فيها وبلا نزاع. وكان لابد لذلك من أن يصبح مرافقاً عسكرياً ـ وهو ما كان يتوقعّه، على كل حالٍ أو أن

يتزوج امرأةً من هذا الوسط. وصمّم أن يصل إلى ذلك. ووقع اختياره على فتاة رائعة الجمال، وصيفة شرف من وصيفات الإمبراطورة، لم تكن تنتمي فقط كل الانتماء إلى المجتمع الذي كان كاساتسكي يرغب في أن يكون فيه بلا نزاع، لكنها كانت فوق ذلك مطلباً ينشده رجالٌ هم في أعلى مكانة في هذه المجتمع وأكثرها توطدّاً. كانت الكونتيسة «كوروتكوفا» لم يكن كاساتسكي يغازلها فقط من أجل هدف خاص. وإنما كانت جذّابة على نحوٍ مدهش، وقد أُغرِمَ بها كاساتسكي بسرعة فائقة. في البداية، بدت الكونتيسةُ لامبالية تماماً، لكن موقفها تغيرّ بعد ذلك، أصبحتْ ملاطفةً، ودعت أمُها كاساتسكي بإلحاح. وطلب الضابط يد الفتاة فقُبل طلبُه. وقد أدهشته السرعةُ التي استولى فيها على سعادته، وكذلك الموقف الغريب الذي اتّخذته الأم والبنتُ. أعماه الحب، ولم يلاحظ أن المدينة كلها تعلم أن خطيبته كانت قبل سنةٍ عشيقةَ نيكولا بافلوفيتش.

قبل أسبوعين من اليوم المحدّد للاحتفال بالزواج، كان ساساتسكي يَصْطافُ في «تسارسكوي سيلو» عند خطيبته، كان اليوم حاراً من أيام أيار. وبعد أن تنزّه الخطيبان في المدينة، جلسا على مقعد في ممرّ ظليل. كانت «ماري»، في فستان من الموسلين الأبيض، جميلةً هذا اليوم جمالاً خاصاً، فكأنها تجسيد النقاء والحب. كانت جالسةً وعيناها تحدّقان في الأرض تارةً، وتارةً في الرجل الساحر الذي كان يحدّثها بحيطةٍ لاحدّ لها، وكأنه كان يخشى أن يدنّس بحركة أو بكلمة نقاء خطيبته الملائكي.

كان كاساتسكي ينتمي إلى جيل ١٨٤٠ الذي اختفى اليوم، إلى هذا النوع من الرجال الذين يبيحون لأنفسهم الفوضى الجنسية التي

لا يدينها فكرهم، ويتطلّبون من نسائهم نقاءً مثالياً، نقاء سماوياً. وكانوا يَنْسبون هذا النقاء نفسه إلى جميع فتيات وسطهم ويتّخذون حيالهن موقفاً مطابقاً لهذا الرأي.

كان هذا الرأي مشوباً بكثير من الأخطاء، وكان يتضمّن الكثير من المخاطر بسبب الانحلال الذي يُبيحه الرجالُ لأنفسهم. لكن هذا الحكم إزاء النساء، وهو يعارض على طول الخط حكم شباب اليوم الذين يرون في كل فتاة صديقةً أنثى، كان، برأيي نافعاً، إن الفتيات اللواتي كنّ غرضاً لهذا التأليه كن يحاولن أن يتّهربن على نحو ما من ذلك التأليه كذلك كان رأي كاساتسكي، وكان يطبّقه على خطيبته، كان في هذا اليوم أكثر عشقاً من أي يوم مضى، و لم يكن يشعر نحو خطيبته بأية عاطفة جسدية، على العكس كان ينظر إليها بانفعالٍ، وكأنها مخلوق يتعذّر الوصول إليه.

نهض بقامته المديدة ووقف أمامها، مستنداً إلى سيفه، وقال وهو يضحك برفق:

- الآن أدركتُ السعادة العريضة التي يمكن أن يشعر بها إنسان. أنتِ، أنتِ... أعطيتني إياها.

لم يحن الوقتُ بعد ليخاطبها بضمير المفرد، وكان يشقّ عليه وهو ينظر إليها بولع من تحت إلى فوق، أن يُخاطِبَ بضمير المفرد هذا الكائن الملائكي.

تعلّمتُ أن أعرف نفسي بفضلكِ، تعلّمتُ أني أفضل ممّا كنتُ أحسبُ.

- أعلمُ ذلك منذ زمن بعيد. ولذلك أحبكَ.

طار عندليبٌ بالقرب منهما. وارتعشتْ أوراقُ الأشجار اللامعة في الريح التي هبّتْ.

أخذ يدها وقبّلها وتلألأت دموعٌ في عينيها. وأدركت أنه يشكرها على قولها إنها تحبه. خطا خطواتٍ بصمت، وعاد إليها وجلس.

- تعلمين... إيه! مهما يكن! عندما ارتبطتُ بك كان لي قصدٌ خفيٌّ. كنت أسعى إلى دخول المجتمع الراقي، لكن هذا الطموحَ، منذ أن عرفتكِ صار تافهاً عندي، و لم يبق سواك. لن تحقدي علي؟

لم تجب، لكنها حطّت يدها على يده، وأدرك أن هذه الحركة تعني أنها لم تكن غاضبةً.

- وأنتِ، قلتِ لي...(وتوقّف مرتبكاً، وبدا له أنه تجاوز الحدَّ في وقاحته). قلتَ لي إنك كنتِ تحبينني، عفواً، ما يزال هناك شيءٌ يشوّشك ويمنعك... ما ذلك الشيء؟

فكّرتْ: «الآن أوّلا. سيعلم الأمرَ مع ذلك. الآن لن يفارقني. آه! لو فارقني لكان ذلك فظيعاً...» نظرتْ بحنان إلى وجه خطيبها القوي والنبيل، وجهه الذي تحسّ نحوه الآن بكثير من الحب. ما كانت لتبادل ذاك بهذا، لو لم يكن ذاك امبراطوراً.

- اصغ إلي، لستُ أبغي أن أخفي عنكَ شيئاً، ينبغي أن أقول لكَ كل شيء. سألتَني عمّا يشوّشني. ذلك أني أحببتُ من قبل.

وضعت يدها على يده في حركة ضارعة.

صَمتَ

- أتريد أن تعلم مَنْ؟ نعم، إنه هو، الإمبراطور.

- نحن نحبّه جميعاً، أتصورك أنكِ، في المعهد...

- لا، فيما بعد. كان ذلك في البداية نـزوةً، ثم مضى ذلك. بعيداً... لكن ينبغي أن أقول...

- وما جرى حينئذٍ؟

- إنما لا...

أغمضتْ عينيها.

- وهل سلّمتِ نفسك له؟

لزمتْ الصمتَ

- هل كنتِ عشيقته؟

لم تجبْ

نهض فجاةً، شاحباً كالميت، مرتجفاً، وظل واقفاً أمامها. تذكّر الآن، بأية بشاشةٍ هنّأه نيكولا بافلوفيتش عندما صادفه على جادة «نيفسكي».

- آه! يا إلهي، ماذا فعلتُ؟ ستيفا! لا تلمسْني، لا تلمسني! آه! كم أتألم.

استدار واتّجه إلى البيت.

صادف أمُّ خطيبته.

- ما بكَ، ياأمير؟ أنا...

صمتت وهي تنظر إلى وجهه الذي تدفقّ إليه الدمُ

صاح وهو يرفع عليها قبضةً مهدّدةً:

- كنت تعلمين ذلك وكنتِ تريدين أن تضعي على ظهري كلَّ شيء! آه! لو لم تكونا امرأتين!

ثم أدار ظهره وهرب.

لو كان عاشق خطيبتي شخصاً عادياً لقتلته، لكنه كان القيصر المؤلّه.

في اليوم التالي طلب إذناً كما طلب التقاعد، وأعلن، لكي لا يرى أحداً، أنه مريضٌ، وذهب ليقيم في قريته.

قضى الصيف ورتّب حاجاته. وعندما جاء الخريفُ، ولم يعدُ إلى بطرسبرج، قصدَ ديراً، وأراد أن يصبح راهباً.

كتبتْ إليه أمه، محاولة أن تصرفه عن اجتياز هذه الخطوة الحاسمة. فأجابها بأن نداءَ الله فوق كل شيء وأنه يعي ذلك، أخته وحدها وهي أبّيةُ النفس مثله، وممتلئة بحب الذات مثله، فهمتْه.

كانت تعلم أن أخاها أراد أن يترهّب ليُظهر أنه أعلى من جميع الذين أرادوا أن يسيطروا عليه. وكانت ترى بوضوح ما حدث فيه. فهو عندما يرتدي مِسْحَ الراهب يُعلن احتقاره لكل ما يعلّق عليه الآخرون وهو نفسه، حين كان في الجيش، أهمّية كبيرة، أما الآن، فسوف يحتل مكاناً مفرط الارتفاع يستطيع منه أنْ يُشرف من فوق على الذين حسدَهم فيما مضى من الزمن. لكنْ ليس هذا هو الشعور الوحيد الذي كان يقوده، كما تظنّ أختُه فارنكا.

كان فيه شعورٌ آخر لم تميّزه فارنكا فيه كان فيه إيمان صادق.

وكان هذا الإيمان الذي انضاف إليه طموحُه ورغبته في أن يكون

الأول، يقودُه. إن خيبة الأمل التي سبَّبتها ماري، وقد ظن أنه يرى فيها ملاكاً، والإهانة التي عاناها كانتا عظيمتين جداً فقادتاه إلى اليأس، وهذا اليأس إلى أين قاده؟ إلى الله وإلى إيمان طفولته الذي ما زال متأصلاً فيه.

- ٢ -

في يوم عيد شفاعة السيدة العذراء، قُبِل كاساتسكي في الدير، وكان رئيس الدير، الشيخ نبيلاً كاتباً بحّاثةً ينتسب إلى سلالة الرهبان الذين جاؤوا من «فالاشيا»، والذين يقدّمون الطاعة العمياء لرئيسهم المكلّف بتعليمهم والذي انتخبوه بأنفسهم. وكان هذا الرئيس تلميذاً للشيخ «امبراواز» المشهور، الذي كان تلميذاً هو نفسه لـ «ماكير»، أما هذا الأخير فكان تلميذاً لـ «ليونيد» تلميذ بايسي فيليشكوفسكي».

إلى هذا الرئيس، كان على «كاساتسكي» أن يقدّم الطاعة، باعتباره تلميذاً له. وإضافةً إلى يقينه بأنه يتجاوز الرهبان الآخرين بقيمته، فقد كان يشعر بفرح عظيم، كما كان في كل ما يباشره، في أن يَنْزع إلى الكمال، حتى في الدير.

عندما كان في الكتيبة، كان ضابطاً لاعيبَ فيه، وكان يفعل دائماً أكثر مما يُطلب منه، ليتقرّب أبداً من الكمال المنشود. فلما غدا راهباً، كان يطمح إلى هذا الكمال نفسه: كان يعمل بلا انقطاع، ويبدو بسيطاً، هادئاً، مطيعاً، مهذّباً وتقياً، لا في أعماله فحسب بل وفي أفكاره أيضاً. وكانت طاعته بخاصة هي التي تُسهِّل حياته، إذا بدت له أحياناً مقتضياتُ الحياة الرهبانية الكثيرة ثقيلةً، وإذا ما وقع له أن تعرّض للتجربة في أحيان أخرى، في هذا الدير الذي ليس بعيداً جداً

عن مدينة مأهولة، فقد كان كل ذلك يمّحي لأنه كان يُحسن الطاعة، كان يقول في نفسه: «ليس لي أن أصدر حُكمي، ليس علي إلا أن أفعل ما قرّره الآخرون: إن كان تأملاً أمام زفات القديسين، أو ترتيلاً في الجوقة، أو مسك دفتر حسابات النزل». وبفضل طاعته للرئيس اسُتبعد أيُّ إمكان للشك في أي شيء كان، ولو لم تكنْ فيه هذه الطاعةُ لأحسّ بالضجر، وبالرتابة في تلك الفروض الدينية التي لا نهاية لها، ولتألّم من ضوضاء الزائرين ومن أخطاء الإخوة الرهبان. و لم يكن يتحمل ذلك كله بلا امتعاض، بل إن ذلك غدا عزاءً له أيضاً، وسنداً لحياته. «إني أجهل لماذا يجب أن أستمع عدة مرات في النهار للصلوات نفسها، لكني أعلم أن الأمور يجب أن تكون كذلك، وإذ كنتُ أعلم ذلك، فإني أجد فيه شيئاً من الفرح».

قال له الرئيس: إن الروح تطلب غذاءَها - الصلوات في الكنيسة - وهو غذاء روحي لا غنى عنه، كما أن الجسد بحاجة إلى الغذاء ليعيش. كان كاساتسكي يؤمن بذلك، وكان القدّاسُ الذي يحضره في الصباح، بصعوبة أحياناً، يملؤه بثقة قطعيّة لا جدل فيها، وبالفرح. وكان هذا الفرحُ يُولِّد فيه بدوره شعوراً بالسلام وباليقين، اليقين بأن رئيسه على حقّ في كل ما يأمُر به. كانت أهمية حياته تكمن فقط في كسر إرادته، على نحو يزداد عناداً، ولا تكمن فقط في أن يتشبّع تدريجياً بالشعور بضعته، ولكن بالحصول على الروح المسيحية التي كان قد ظنها سهلة المنال. وَهبَ أختَه أملاكه و لم يأسف، لم يكن كسولاً، و لم يكن التحلي بالإحسان نحو الفقراء شيئاً سهلاً فقط، بل كان يوفّر له الفرح، ولقد قتل فيه وبلا صعوبة روح المجون فماتت كل شهوة، وكذلك كل فكرة داعرة، وقد حّذره الرئيس، من هذه الخطيئة الأخيرة بخاصة وكان كاساتسكي يبتهج لأن كان قد تحرّر منها.

ذكرى خطيبته وحدها هي التي تؤلمه. الذكرى، وأكثر من ذلك، تفكيره فيما كان أن يكون. كان يستعيد دون قصد صورة امرأة شهيرة (محظيّة القيصر) تزوّجت وغدت زوجةً وأماً لأسرة نموذجية. وكان زوجها يشغل مركزاً هاماً، كان قديراً، يحترمه الجميع، ويملك فضلاً عن ذلك امرأة طيبةً وشريفة.

في بعض اللحظات، لم يكن ذلك يشوّش فكر كاساتسكي، وكان يغتبط لأنه تخلّص من كل هذه التجارب. لكنْ كانت تأتيه دقائق تتكدّر فيها جميع ينابيع الحياة التي كان يستقي منها، لم يكن يفقد الإيمان بكل ما يُحييه: لم يكن يراه وكان عاجزاً عن أن يُعلّق فكره به، حينئذ كانت تجتاحه الذكرى، ويستولي عليه - ومن المؤسف وجوبُ قول ذلك - الندمُ لأنه ترّهب.

و لم يكن يُفلح في الخلاص، في مثل هذه الظروف، إلا بالصلوات والطاعة والعمل. كان يصلي وهو راكع، كالعادة وقتاً أطول من العادة. لكن جسده وحده كان يُصلي، أما روحه فكانت غائبة. كانت هذه الحالة تدوم يوماً، وأحياناً يومين ثم تنتهي فجأة، لكن ذلك اليوم، أو تلك الأيام، كانت رهيبة. كان كاساتسكي يُحس، في هذه اللحظات، أنه لم يعد يملك نفسه، و لم يعد ملكاً لله، لكنه كان خاضعاً لسيطرة غريبة. كان يفعل ما استمرّت هذه الحالة، ما يأمره به الرئيس المحترم فقط: عدم الشروع بشيء، أثناء هذه الأيام، لكي يستطيع المقاومة، والانتظار، لم يكن كاساتسكي يعيش قط بحسب مشيئته بل بحسب مشيئة الشيخ الرئيس، وقد آنسَ في هذه الطاعة، سكينة نفسية واضحة.

هكذا عاش كاساتسكي سبع سنوات في الدير الذي تبنّاه. في آخر

السنة الثالثة رُسمَ كاهناً باسم «سيرج»، وكان تسلّمُ الثوب الكهنوتي، بالنسبة إليه، داخلياً، حدثاً ذا أهمية عظيمة، وكان يشعر من قبل عند اعترافه بعزاء عميق وبسمُو روحي قوي. وعندما أخذ يخدم القدّاس بنفسه، غَمرتْه تقدمةُ القربان بنشوة مؤثّرة. لكن هذه النشوة أخذت تتقلّص شيئاً فشيئاً، وعندما اضطر ذات يوم أن يُخْدم، وكان يمرّ حينئذ بفترة من الهبوط، أحسّ أن هذه الحالة لن تدوم. وكذلك كان، بالفعل، لكن العادة بقيت.

بعد إقامة «سيرج» سبع سنوات في هذا الدير، أخذ يضجر بشكل عام. تعلّم ما كان عليه أن يتعلّمه، و لم يبق من شيء يعمله.

وبالمقابل فإن حالة الخمود أخذت تّشتدّ. لقد علم بموت أمه وبزواج ماري. وتلقى هذين الخبرين بعدم اكتراث. كان انتباهه كله، واهتمامه كله يتركزان حول حياته الداخلية.

في أثناء السنة الرابعة من حياته في الدير، أثْنى عليه الرئيسُ، ونبّهه إلى أنه لا يحب أن يرفض إذا عُيِّن في مركز أعظم أهمية، وحينئذ استيقظ فيه حبّه لذاته كراهب، وهو نفسه الذي شعر باحتقاره من قبل. عُيِّن في دير حوالي العاصمة. كان يود أن يرفض، لكن أمر الرئيس كان قاطعاً. قَبِلَ كاساتسكي تعيينه، وودّع الشيخ وسافر إلى الدير الآخر.

كان هذا التغيير حدثاً رئيسيّاً في حياة سيرج، وقد عَرضتْ له تجاربُ لا حصر لها، لكنه بذل كل قواه لكي لا يسقط فيها. في الدير الأول، لم يكن عليه أن يُجابه الإغراء الأنثوي، لكنْ في الدير الذي هو فيه، في الوقت الحاضر، اتّخذ هذا الخطر حدّة بلغت من الأهمية حدّاً أنها كانت تُتَرْجَم إلى شكل واضح جداً، أخذت امرأةٌ معروفةٌ بسوء سلوكها تُلاحق سيرج، وأثناء حديث لها معه، طلبتْ إليه أن

يزورها. رفض الراهب رفضاً باتّاً، لكنه ارتعب حين لاحظ أن في نفسه رغبةً محدّدة. وكان خوفُه عظيماً حتى لقد كتب إلى معلمه رئيس الدير السابق، وأكثر من ذلك، فلكي يتأكّد من صموده، استدعى أحد تلامذته الشباب، وتحدّى خجله فاعترف له بضعفه، وطلب إليه أن يراقبه وألا يدعه يذهب إلى أي مكان خارج قدّاسه واعترافاته.

وفضلاً عن ذلك، كان سيرج يُغرى إغراءً شديداً بالخطيئة، لكون رئيس الدير، وهو رجلٌ ماهرٌ واجتماعيٌ يمتهن الرهبانية، كان كريهاً عليه. كان يعترض أحياناً على سكينته التامة، لكنه ظلّ في أعماق نفسه يحكم حكمه على رئيسه، وكان هذا الشعور السيء لايني ينمو.

أثناء السنة الثانية التي تلتْ وصوله إلى الدير الجديد، حدث حادثٌ في الظروف التالية:

في يوم شفاعة السيدة العذراء، تلا الرئيس صلاة العصر التي أقيمت في الكنيسة الكبرى. وكان الأب سيرج يصلي في مكانه المعتاد. لكنه كان نهبْاً لصراع داخلّي، كما يحدث ذلك، في كل مرة لا يخدمُ فيها هو نفسه. غضب من حضور الزوار، ولاسيما حضور النساء، فكان يحاول ألا يَلحظهنّ، ومع ذلك فقد كان يلحظ كل ما يجري حوله، كان يصحبهن بنفسه، مثل جندي، ويرد الناسَ ليشقّ لهن طريقاً، وكان يسمع السيدات بوضوح وهنّ ينبّهن بعضهن بعضاً ويُشرن إلى الرهبان الجميلين، وعدَّ هو نفسه بين هؤلاء وكان يحاول، وكأنه يضع كمّامة على انتباهه، ألا يرى سوى ضوء الشموع أمام المذبح، والأيقونة وخدم القدّاس، كان يحاول ألا يسمع سوى التراتيل أو كلمات الطقوس، وأن يطرد من فكره كُل شعور آخر ما عدا نسيان نفسه، في شعوره بواجبه، وهو شعور كان يعانيه في كل

مرة كان يصغي فيها، أو يهمس فيها سلفاً الصلوات التي يعرفها عن ظهر قلب.

هكذا كان واقفاً يصلّي، ويرسم علامة الصليب عندما يلزم ذلك، كان يُصارع، باذلاً وسعه تارةً ليُحاكم محاكمة باردة، ومستسلماً تارةً أخرى لضَرْب من الخدر، عندما اقترب منه الأبُ «نيكوديم»، الذي كان سيرج يُعرى بالخطيئة من جرائه، لأنه كان يتّهمه بالنفاق وبتملّق الرئيس، حيّاه الأبُ نيكوديم منحنياً بشدّة وأنبأه أن الرئيس ينتظره في دار الضيافة، خلع الأب معطفه، وخفض غطاء رأسه، واجتاز الجمهور باحتراس، واتّجه إلى مخرج الكنيسة.

قال صوتٌ أنثوي:

- ليز، انظري إلى اليمين هذا هو.

- أين؟ أين؟... إنه ليس جميلاً إلى هذا الحدّ.

كان يعلم أن الحديث يدورُ عليه. كان يَسْمع ما يُقال، فيكرر، في كل مرة يتعرّض فيها للتجربة: «ولا تُدخْلنا في التجربة»، مرّ أمام المنبر مطرقاً رأسه، خافضاً عينيه، ودار حول المرتلين الذين كانوا يمرّون أمام المذبح، ودخل من الباب الشمالي. رسمَ علامةَ الصليب، وانحنى بعمق أمام الأيقونة، ثم رفع رأسه واستدار نحو الرئيس. لم يكلّمْه لكنه شاهد بطرف عينه، إلى جانب الراهب، قواماً متألّقاً.

كان الرئيس يرتدي حلّته الكهنوتية، وكان أمام الجدار، لقد أخرج من غفّارته يديه بأصابعهما القصيرة والسمينة، كانت تحطّان على جسده السميك، على بطنه، عابثةً بتطريزات درعه. كان يتكلم وهو يضحك مع عسكري يرتدي سترة جنرال تزيّنها مشبكاتٌ وزخارف.

وبصفته ضابطاً قديماً تعرّف على الفور، في هذا الجنرال، الآمر القديم للكتيبة التي خدم فيها هو نفسه. ولاشك أنه يشغل الآن مركزاً هاماً. «وإنما سُرَّ الرئيسُ إلى هذا الحد لأنه يعلم ذلك». كذلك فكر سيرج وهو ينظر ترم، لقد هجرتُ العالم اتّقاءً للتجارب. فلماذا أتعرض لها هنا، في بيت الله، وفي وسط الصلوات؟

أَمَرَ الرئيسُ بصوتٍ مليءٍ بالغضب، وهو يقطّب حاجبيه:

- امضِ، امضِ.

في اليوم التالي، طلب الأبُ سيرج صفحه وصفح إخوته الرهبان، لأنه انساق وراء الكبرياء. وأثناء الليل الذي قضاه في الصلوات، قرّر أنه يجب عليه مغادرة هذا الدير، وكتب إلى رئيس الدير الآخر الذي عاش فيه، يسأله أن يُرجعه، قال عن نفسه إنه ضعيفٌ، عاجزٌ عن متابعة النضال ضد التجارب بدون معونته، وندم على أنه كان متكبراً.

تلقّى البريد باليوم التالي رسالةً من الشيخ يقول له فيها إن كبرياءه كانت بالفعل السببَ في كل ما وقع له: وأضاف أن انفجار الغضب ذاك إنما حَدثَ لأنه لم يَعْتنقْ التواضع حباً بالله، بل لأنه استسلم للحياة الروحية إرضاء لتكبّره، ليظهر بمظهر الرجل الذي لا حاجات له. ولذلك لم يستطع تحمّل سلوك الرئيس، قال له الشيخ في الرسالة: «تقول: إنني احتقرتُ كلَّ شيء من أجل مجد الله، ثم أعرضُ كالحيوان، لو كان عملكَ من أجل مجد الله لتحمّلتَ ذلك السلوك. إن تكبرك الاجتماعي لم ينطفئْ فيك. لقد فكرتُ فيك يا بني سيرج، صلّيتُ، وإليكَ ما ألهمني به الله بشأنكَ. في صومعة «تامبسك» مات الناسكُ «هيلاريون» بقداسة، بعد أن عاش فيها طوال ثمانية عشر عاماً، وقد سأل رئيس «تامبسك» إن كان يوجدُ أخٌ يبغي أن يذهب

ليعيش في تلك الصومعة. طيّ هذه الرسالة رسالة لك، فاذهبْ إلى الأب «بايسي» في صومعة «تامبسك»، وسأكتب إليه أيضاً: اسأل عن حجرة هيلاريون. ليس معنى ذلك أنك تستطيع أن تحلّ محله! لابدّ لك من العزلة لتهدئة تكبرك. يباركك الله.

قبل سيرج نصيحة الشيخ، أرى الرئيسَ الرسالة، وبعد أن حصل على الإذن بالانصراف، ترك أغراضه كلها في الدير، وسافر إلى صومعة «تامبسك».

استقبل الرئيس، وهو تاجر قديم، ورجلٌ في غاية الطيبة، استقبل سيرج ببساطة، وفي جوٍّ من الهدوء، وأعطاه حجرة هيلاريون. ودّله على أخ راهب، ثم تركه وحده، بناءً على رغبته، ها هنا كان يرقد جسدُ هيلاريون، وفي غرفة مجاورة، اتّخذت غرفة النوم، كان يوجد فراشٌ من القش، وطاولةٌ صغيرة، ولوحة من الخشب تحتل عدداً من الكتب والأيقونات. وعلى الوجه الداخلي للباب الذي كان يُغْلقُ، كانت طاولةٌ صغيرة يضع عليها راهبٌ، مرةً كل يوم، طعاماً آتياً من الدير.

وأصبح الأب سيرج ناسكاً.

- ٣ -

كان سيرج ناسكاً منذ ست سنوات، وفي ذات يوم من الأسبوع، في السنة السادسة من تنسّكه، عمدت جماعةٌ من المدعوين، من قرية مجاورة للصومعة، إلى التنزّه بالزحّافات، بعد أن أكلت سمكاً وشربت كمية كبيرة من الخمر المسكر. كان بينهم محاميان، وإقطاعي غنيّ، وضابطٌ وأربع نساء. كانت إحدى النساء زوجة الضابط، والثانية زوجة الإقطاعي، والثالثة أخت الأقطاعي وكانت فتاة، أما الرابعة

فكانت مطّلقةً غنية وطريفة، وكان سلوكها يُدهش المدينة بأسرها. كان الجو بديعاً، وكان الدربُ أملس مثل أرض الغرفة، وبعد أن ابتعد المتنزهون عن المدينة نحو عشرة كيلو مترات، توقّفوا وتساءلوا إن كانوا يرجعون أو يتابعون طريقهم.

سألت المطلقة الجميلة، السيدة «ماكوفكينا»:

- أتعرفون إلى أين يؤدي هذا الدرب؟

أجاب المحامي الذي كان يُغازلها:

- إلى «تامبينو»، على اثني عشر كيلو متراً من هنا.

- ومن ثَمَّ؟

- من ثَمَّ إلى .... مروراً بالدير.

- حيث يعيش الأب سيرج؟

- نعم

- كاساتسكي؟ الناسك الجميل؟

- نعم.

- سيداتي، سادتي، لنذهبْ إلى زيارة «كاساتسكي». سوف نستريح وسوف نتغذّى في «تامبينو».

- لكن لن يتسنّى لنا أن نعود إلى البيت لننام.

- لا يهمُ، سننام عند «كاساتسكي».

- هذا غير ممكن! لكنّ في الدير «داراً للضيافة» رائعة. أقمتُ فيها عندما دافعتُ عن «ماكين».

- لا، سأقضي الليل عند «كساساتسكي».

- آه! لكن ذلك غير ممكن، حتى مع قدراتك غير المحدودة.

- غير ممكن؟ لنتراهنْ!

- موافق. إذا قضيتِ الليل عنده فسأعطيكِ... ما تطلبين!

- على الطلب؟

- وأنتِ أيضاً؟

- بلا شك. لنذهبْ

أعطوا الحوذيين خمراً. أما هم فأخرجوا صناديق تحتوي على الحلوى والخمر والسكاكر... وتدثّرت السيدات بمعاطف من جلد الكلاب. وأخذ الحوذيون يتنازعون المكانة الأولى على الدرب، التفت أحدهم وهو شاب وصرخ وهو يصفق بسوطه، وسُمع رنينُ الجلاجل، وأخذ محورُ الزحافة يَصرُّ، كانت الزحافات تنزلق بلا عوائق، كان الجواد معقود الذيل يخبّ مرحاً بخطاً منتظمة وكان الدربُ الأملس، مثل سطح الزيت، سرعان ما ترتد عليه الزلاجات إلى الوراء، وكان الحوذيُّ المتهّور يُرخي العنان باستخفاف لجواده، وأخذ المحامي والضابط، وقد تقابلا، يرويان الأكاذيب على جارة السيدة «ماكوفكينا»، وكانت هذه متدثّرة بمعطف الفرو، لا تفارق جمودها. وكانت تفكّر: «كل ذلك متشابهٌ أبداً، بشعٌ أبداً، إنها الوجوهُ الحمراء اللامعة ذاتها التي تفوح منها رائحة التبغ والخمر، والأحاديث ذاتها، والأفكار ذاتها، وكل ذلك يدور حو الدناءة ذاتها. وكلّهم مقتنعون بأن الأمور يجب أن تكون كذلك، وأنهم يستطيعون

أن يتصرّفوا هكذا حتى الموت. لم أعدْ قادرة على التحمّل. أنا دائمة الضجر. أنا بحاجة إلى التجديد الذي يدمّر كل ذلك ويهدمه. إذا أصابنا ما أصاب أشخاص «ساراتوف» الذين خرجوا مثلنا وتجمّدوا؟ ماذا سيفعل أصحابُنا؟ كيف سيتصرّفون؟ بجبن دون أدنى شك بأنانية، وأنا أيضاً. سأتصرف بحقارة. لكني أنا على الأقل طيّبة. وهم يعلمون ذلك. أمن الممكن أن هذا الراهب لا يفهم ذلك. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً. هم وحدهم الذين لا يفهمون ذلك. كما كانت الحال، في الخريف، مع ذلك الطالب العسكري.

ما كان أغباه!

قالت:

- ايفان نيكولايفتش؟

- أنا بأمركِ.

- كم عمرُه؟

- مَنْ؟

- كاساتسكي.

يبدو لي أنه تجاوز الأربعين.

- وهل يستقبل حقاً جميع الناس؟

- جميع الناس، لكنه لا يستقبلهم دائماً؟

- غطِّ لي قدميَّ. لا، ليس كذلك! لكن لا حاجة إلى شدّ قدميَ...

وصلوا إلى الغابة التي كان يعيش فيها الناسك.

نزلت السيدة «ماكوفكينا» وأمرت الآخرين أن يتابعوا طريقهم.

استأنفت الزلاجاتُ جريها، بينما مضت هي على الدرب، متدّثرة بمعطف الفرو، نزل المحامي أيضاً ليلاحظها.

كان الأب سيرج يعيش عيشة الناسكين منذ ست سنوات. كان على وشك بلوغ الخمسين. وكانت حياته ملأى بالمصاعب. لا بسبب العمل والصلوات أو الصيام، فهذه المصاعب لم تكن تنجُم عن الجهود التي عليه أن يبذلها، لكنْ من الصراع الداخلي الذي لم يكن ينتظره. وكان له سببان: الشك والشهوة. وما إن يختفي الشك حتى تختفي الشهوةُ أيضاً. لكنه ظل مقتنعاً بأنهما شيطانان مختلفان وكان يحاربهما كلاً على انفراد.

فكّر: «إلهي، إلهي، لماذا لا تمنحني الإيمان؟ آه! هذه الرغبة في الشبَق؟ كان على القديسين أن يحاربوها مثل «انتوان»[٢]...

لكنهم لم يفقدوا الإيمان قط. كانوا يملكون الإيمان، أما أنا فالإيمان يهجرني أحياناً طوال دقائق وساعات، بل وأيام، لَمَ يُوجدُ العالمُ وكلُّ بهائه، إن كان موسوماً بالخطيئة وإن كان لابدّ من إنكاره؟ لَمَ خلقتَ التجربة؟ التجربة؟ أليست تجربةً أن أعمد إلى ترك الأفراح الأرضية وأن أعدَّ نفسي لحياة ثانية لم يكن فيها شيء». هذه هي أفكار سيرج التي كانت تبدو له فظيعة.

دمدم مخاطباً ذاته: «لستَ سوى شخصية حقيرة وتريدُ أن تكون قدّيساً. وأخذ يصلّي. لكنه ما كان يبدأ حتى بدتْ له صورتُه كما كان في الدير: بثوب الراهب وقلنسوته، متباهياً بذلك المظهر المهيب». لا

---

٢ - القديس انتوان المعروف بتجاربه في الصحراء.

ليس هذا هو المطلوب، هذا كذبٌ - فكر في ذلك وهو يهزّ رأسه - يمكنني أن أخدع الآخرين لكن لا يمكنني أن أخدع الله ولا نفسي. لستُ رجلاً مهيباً أنا رجلٌ جديرٌ بالرثاء، رجل مضحكٌ». وكشف عن لباسه ورفع أطراف جبته ونظر إلى رجليه الجديرتين بالرثاء وابتسم.

ثم أرخى جبتّه، وبدأَ قراءة صلواته وهو يرسم علامةَ الصليب وينحني، قرأ: هذا الفراشُ، هل سيكون نعشاً لي؟ وهمس صوتٌ شيطاني. «السرير المصنوع لشخص واحد نعش. كذب». وأظهرَ خيالهُ لعينيه كتفي أرملة عاشَ معها. ثم تمالك نفسه وتابع قراءته. فلما انتهى من قراءة القواعد تناولَ الإنجيل وفتحه، فوقع على مقطع يحفظه عن ظهر قلب لفرْط ما رددّه: «أؤمن، يارب، ساعدني على الإيمان» وطرد من ذهنه جميع الشكوك التي ظهرت. وكما تُثبّت الأشياء التي فقدت توازنها ثبتَ من جديد إيمانه وابتعد على ساقيه المترنحتين لكي لا يسبب سقوطَ ذلك الإيمان إن مسّه. وإذ وضع الكمادتين على عينيه مرةً أخرى، هدأ. وتلا صلاةً حفظها في طفولته: «إلهي، خُذْني، خُذني!» ولم يحسّ فقط بأنه تعزّى، لكنه امتلأ بفرح يمتزج به الحنانُ، رسم علامةَ الصليب، ومهّد فراشاً له على مقعد ضيِّق، وتمدّد، وكان رأسه يستند إلى جبّة الصيف. أغفى. وخلال النوم الخفيف الذي نستغرق فيه، بدا له أنه يسمع صوت جلاجل. لم يكن يعلم إن كان يحلم أو إن كانت هذه الأصوات حقيقيةً. لكنه أوقظ فجأةً بقرعات على بابه. نهض وهو ما زال يشك. ثم قُرع بابه، على مقربةٍ منه من جديد وتَعالى صوتُ امرأة.

«إلهي، ما قرأتُه في «حياة القديسين» أيكون حقيقياً؟ أيكون حقيقياً أن الشيطان يتّخذ أحياناً مظهرَ امرأة؟ نعم، إنه صوتٌ أنثوي

حقاً، صوت عذبٌ، خجلٌ، ساحرٌ. تفو...». وبصق. وأضاف وهو يتجه إلى زاوية مخفيّة، فيها المقْرأ: «كلاّ، يبدو لي ذلك»، جثا على ركبتيه، في حركة معتادة محدّدة، يجد في تنفيذها عزاءً وفرحاً حقيقياً. خفض رأسه. غطّى شعرُه ووجهه، وحطّ جبهته العارية على خرقةٍ للغسيل مثلّجة كانت على الأرض.

كان يقرأ المزامير التي أوصاه بقراءتها الأبُ «بيمين» والتي كانت تساعده على مقاومة التجربة. قوّمَ بسهولةٍ جسده الضعيف وأراد أن يتابع قراءته لكنه لم يكن يقرأ. كان يُصيخُ السمعَ. كان يرغب في أن يسمع. كان الصمتَ كلّياً. كانت قطراتٌ تسقط من السقف في إناء موضوع في زاوية من الغرفة. لم يكن في الخارج سوى الضباب والظلمة والثلج. كان الظلامُ يسود. وفجأة سمع صيحة أمام النافذة وصوتاً، نفس الصوت الخائف، الساحر، العذب، الذي لا يمكن أن يكون سوى صوت امرأة فاتنة. قال الصوتُ:

– دعْني أدخل. محبةً بالمسيح...

خُيِّل إلى الأب سيرج أن دمه كله يتدفّق إلى قلبه. انقطع نَفَسُه. «لِيُقيم الله، وليتبددْ هذا السراب..».

– لستُ شيطاناً (وأحسّ أنها قالت هذه الكلمات وهي تبتسم). لست شيطاناً. أنا مجرّد خاطئة ضلّت سبيَلها، بالمعنى الحقيقي والمعنى المجازي لهذه الكلمة. (ضحكت) أنا أرتعدُ وأنا أطلب ملجأ.

أسند وجهه إلى زجاج النافذة. كان ضوء المصباح ينعكس عبر الزجاج، وضع يده في جانبي وجهه ونظر. وخلال الضباب والظلمة، إلى يمين الشجرة رآها، هي. نعم هي امرأة ترتدي معطفاً طويلاً من

الصوف الأبيض وعلى رأسها قبّعة وعلى وجهها الفاتن كانت تُقرأ الطيبةُ والخوف كانت هنا على بضع سنتمترات من هذا الوجه لأنها وَثبتْ نحوه عندما شاهدته خلف الزجاج. التقت نظراتُهما وتعرّف أحدهما الآخر. لا لأنهما كانا متعارفين من قبل، إذ لم يلتقيا قط من قبلٍ، لكن النظرات التي تبادلاها خَيّلتْ إليهما (إليه على الخصوص) أن كلاً منهما يعرف الآخر ويفهم الآخر. كان مستحيلاً بعد هذه النظرات التفكيرُ بأنها قد تكون شيطاناً لا مجرد امرأة، طيبة، ساحرة وخجلة.

قال الأب سيرج:

من أنتِ؟ لماذا؟...

أجابت بعناد ونزوة:

هلا فتحتَ! لقد جمدتُ. قلت لك إنني ضللتُ سبيلي.

لكنني راهب، ناسك.

نعم، افتحْ! أتريد أن أتجمد أمام نافذتك وأنتَ تصّلي؟

لكن كيف، أنتِ...

لن آكلك. دعْني أدخل، محبّة بالله، إني أرتعد.

كانت هي نفسها خائفة. وقد لفظت الكلمات الأخيرة وهي تبكي. ابتعد عن النافذة، ونظر إلى أيقونة يسوع بإكليل الشوك وقال وهو ينحني ويرسم علامة الصليب:

إلهي، ساعدني، إلهي ساعدني.

ثم توجّه إلى باب المدخل ليرفع المزلاج الذي كان يُغلقه. سُمعتْ في الخارج خطواتٌ تقترب، ذهبتْ من النافذة إلى الباب، وفجأة أطلقت

صرخةَ «آيي» من الألم، فأدرك الناسك أنها سقطت في الحفرة التي أمام العتبة، كانت يداه ترتجفان و لم يُفْلح في رفع مزلاج الباب.

لكنْ ما بكَ؟ دعنْي أدخل. أنا كلّي مبلّلة بالماء. أنت تنوي أن تخلّص نفسك وأنا متجمدة.

وإذْ رفع المزلاجَ دفعَ الباب إلى الخارج بكثير من القوة حتى صدم الزائرة.

قال باللهجة نفسها التي كان يخاطب بها النساء قديماً:

آه! سامحيني.

ابتسمت وهي تسمع هذه الكلمة، فكّرت: «إنه ليس مُرعباً إلى هذا الحد».

قالت وهي تمرّ إلى قربه:

لا يهمّ، لايهمّ، اعذرْني ما كنتُ لأجرؤ لو لم تكن حالةً غير عادية.

قال لها وهو يسمح لها بالمرور إلى جنبه:

تعالي.

كانت معطّرة جداً، وهذا العطر الذي لم يشمّه منذ زمن بعيد بدا له غريباً، اختارت الممر ودخلت الغرفة، ذهب سيرج ليغلق باب المدخل دون أن يُعيد المزلاج إلى وضعه، ثم عاد إلى الحجرة وهو يهمس بلا انقطاع متجهاً إلى الله من كل نفسه بالكلمات التي كانت تلفظها شفتاه.

كانت سوط الحجرة وكانت قطراتٌ من الماء ينساب من ثيابها. نظرت إليه ضاحكةَ العينين:

سامحْني، أزعجتُ عزلتك. لكنك ترى حالتي. كل ذلك وَقعَ بينما كنا ذاهبين في جولة من المدينة، راهنتُ، أن أصلَ وحدي من «فوربيوفكا» إلى المدينة، لَكنني عندما وصلت هذا المكان تْهتُ، ولو لم أكتشف حجرتكَ...

اندفعت في الكذب، لكن وجه الأب سيرج أثّر فيها إلى حدّ لم تستطع معه أن تتابع وتوقفّت. تَصّورته على نحو آخر. لم يكن جميلاً كما قدّرتْ، لكن عينيه كانتا متألقتين، وكان شعرُه الوافر ولحيتُه أميل إلى الشيب، وكان أنفه مستوياً ودقيقاً، وقد بهرتْها عيناه المتّقدتان كالجمر عندما كان ينظر إليها مواجهةً.

رأى أنها تكذب فقال وهو يُحدِّد نظرته فيها:

آه! الأمرُ هكذا؟

ثم خفض عينيه وأضاف:

سأذهب إلى الحجرة الأخرى، وما عليك إلا أن تستريحي هنا

رفع المصباح وأشعل شمعةً ومرّ إلى الجهة الأخرى من الحاجز، وهو ينحني أمامها. سمعتْهُ ينقل شيئاً من مكانه.

وفكّرت: «لعله سيَحْبسُ نفسه من أجلي. نزعتْ وهي تبتسم، معطفها الفروي الأبيض الواسع، وقبعتها التي علق شعرها بها ووشاحاً محوكاً كان يحيط بشعرها، لم نتبلّل وهي واقفة أمام النافذة، لكنها تذرعت بهذه الحجة ليُسمْح لها بالدخول. لكنها سقطت حقاً في النقعة أمام العتبة، وتبلّلت قدمها اليسرى، وامتلأ حذاؤها بالماء. جلست على ما كان يستخدم كأريكة - وهي لوحٌ مغطّىً ببساط -

وأخذت تخلع ثيابها. بدت لها الحجرةُ بديعةً: كانت بعرض مترين، وبطول ثلاثة أمتار، رائعة النظافة وفضلاً عن المقعد الذي جلستْ عليه والذي كان يعلوه رفٌّ مُحمّل بالكتب، كان هناك مقْرأ في زاوية من الحجرة حيث كانت أيضاً أيقونة تمثّل يسوع مكلّلاً بالشوك وقنديل. وكانت تسود المكان رائحةٌ غريبةٌ من الزيت والعرق والتراب، كان كلُ شيء يُعجب المرأة الشابة حتى هذه الرائحة. تضايقت لإحساسها بأن قدميها مبللّتان، القدم اليسرى بخاصة وأخذت تحلّ سيور حذائها كانت تضحك فرحةً لا لأنها بلغت هدفها، بل لأنها استطاعت أن تلمس هذا الرجل البهي، الجذّاب، المدهش، الطريف.

وفكرت:

من الواضح أنه لم يردّ علي. لكن هذا لا قيمة له.

نادتْه: أيها الأب سيرج، الأب سيرج! هذا اسمك حقاً أليس كذلك.

أجابها صوتٌ هادئ:

ماذا تريدين؟

أرجوك سامحني لأنني أدخلتُ الاضطراب على خلوتك. لكني لم أكن أستطيع في الواقع أن أفعل غير ذلك، أنا متأكدة أنني سأمرض، لا أعلم بعد أنا مبللّة وقدماي متجمدّتان.

قال الصوتُ الهادئ:

اعذريني. ليس بوسعي أن أكون نافعاً لكِ.

لستُ أَبغي إزعاجك على الإطلاق... سأبقى حتى الفجر فقط.

لم يجب. وسمعته يَهْمس. لا شك أنه كان يصلّي.

سألت وهي تبتسم:

ألن تأتي إلى هنا؟ سأخلع ثيابي لأجفّف نفسي.

لم يردّ، وتابع همسه قارئاً صلواته.

فكّرت وهي تحاول نزع حذائها بمشقّة: «هذا الرجل». جَذبت حذاءها لكنها لم تستطع أن تنزعه، فأضحكها ذلك ثم اشتدّ ضحكهُا لأنها كانت تعلم أنه يسمعها، وكانت على يقين من أن هذا الضحك سيُحدث فيه الأثر المنشود. وبالفعل فان هذا الضحك المفعم بالمرح الصرع، دليل الطيبة أثّر فيه كما تمنّت بالضبط...

وعادت إلى التفكير: «نعم، يمكن أن نحبّ كائناً مثله، يمكن أن نحب عينيه البسيطتين والنبيلتين ومع أنه يتمّتم دون انقطاع بالصلوات فإن وجهه يفيض بالهوى، نحن النساء لا ننخدع فعندما رآني أيقنتُ أنه فهم على الفور. في نظرته لمعَ ضياءٌ لم يخْتف. أحبّني وأشفق علي نعم أشفق..». توصّلتْ أخيراً إلى خلع حذائها وأخذتْ تخلع جوربيها. لكن كان عليها أن ترفع جبتّها، وكانت متضايقة.

قالت:

لا تدخل.

لم يصلْها أيُّ جواب. كانت تسمع فقط همسَ صلوات يرّتلها صوتٌ متساوٍ، وتسمع أحياناً ضجّة. إنسان ينتقل من مكانه.

قالت في نفسها: «لعله راكعٌ، لن يمكنه أن يتخلّص. إنه يفكّر فيّ كما أفكر فيه، وهو يفكر في ساقيّ بالإحساس نفسه.. ».

بعد أن خلعت جوربيها، صعدت إلى الأريكة وجلست مطويّة الساقين. أمسكت ركبتها بين يديها، وظلّت في هذا الوضع، تنظر أمامها وهي تفكّر.

نعم هذه الحجرة هذا الهدوء. ولن يعلم أحد أن...

نهضت وعلقت جوربيها أمام باب المدفأة، باب خاص جداً، أغلقته ثم عادت بخطوات خفيفة حافية القدمين إلى مكانها ووضْعها على الأريكة.

خلف الحاجز لم يكن يعكّر الصمتَ شيءٌ، نظرت إلى الساعة الصغيرة التي تتدلى من عنقها. الساعة الثانية:

«ربما جاؤوا في نحو الساعة الثالثة».

مازال أمامها ساعةٌ.

ماذا، هل سأبقى وحدي هنا؟ سيكون ذلك سخيفا! لا أريد. سأناديه...

أيها الأب سيرج! الأب سيرج! سيرج ديميتريفتش! أمير كاساتسكي!

كان الصمتُ يخيم أبداً خلف الحاجز.

اسمعْ، هذا فظيع! ما كنتُ لأناديكَ لو لم أكنْ بحاجة إليك، أنا مريضةٌ، ولا أعلم ما يحلّ بي... (كان صوتها صوت إنسانٍ يتألم) آه! آه!

تنهدت وتهالكت على الأريكة.

شيءٌ غريب، أحسّت فعلاً أنها مُنْهكةٌ، موجوعةٌ في كل موضع من جسمها، وكانت ترتعد من الحمّى.

اسمعْ، ساعدني لا أعلم ما بي... آه! آه!...

فكت أزرار فستانها كاشفةً عن صدرها، وشمّرت كمَّيْها حتى المرفقين.

آه! آه!...

لم يكفّ الناسك في حجرته عن الصلاة لحظةً واحدة، تلا صلوات المساء كلها. كان جامداً، محدّقاً أمامه، يكرّر من كل نفسه صلاةً: «أيها السيد، يسوع المسيح، ابن الله، ارحمْني!» لكنه لم يكن يسمع ما كان يقول، ما كان يسمعُه، هو الصوت الآتي من المرأة الشابة وهي تخلع ملابسها، حفيف النسيج الحريري، صوت حفيف الخطوات على الأرض، والصوت الذي ينبعث منها وهي تجفف قدميها الحافيتين.

شعر بضعفه وأدرك أنه قد يَهْلك بين لحظة وأخرى، ولذلك لم يكفَّ عن الصلاة. كان يحس بإحساس شبيه بإحساس بطل الأسطورة الذي كان يلزمه أن يرجع دون أن يستطيع إلقاء نظرة إلى الخلف. وكان سيرج يحس بالطريقة نفسها أن خطر هلاكه ماثلٌ هنا، عليه ومن حوله، وأن السبيل الوحيد للخلاص هو ألا ينظر ثانية إلى المرأة الشابة، لكن الرغبة في تأملها استولت عليه بغتةً. في هذه اللحظة بالذات سمعها تقول:

اصغ إلي، هذا غير إنساني، قد أموتُ ...

قال في نفسه: «نعم سأذهب إليها لكني سأفعلُ مثلما فعل ذلك

الأب الذي بارك بإحدى يديه مُغويته، ووضع اليد الأخرى على كانون مشتعل.

لكن الأب سيرج لم يكنِ لديه كانون. نظر حوله فرأى المصباح، وضع إصبعاً على اللهب وقطّب حاجبيه وأعدّ نفسه للألم، ظلّ زمناً. بدا له أن يحسّ بشيء، لكن قسمات وجهه تشنّجت فجأة، فسحَب إصبعه دون أن يتأكد من أنه توجّع وقال:

لا، لا أستطيع هذا! هلكتُ إذنْ؟ لا، لا أريد أن أهلك!...

فتح الباب، وقال للمرأة الشابة دون أن ينظر إليها،

أنا آتٍ على الفور.

عبر الحجرة ودخل الممر ولمس بيده الأرومة التي كان يقطع الخشب عليها، والفأس الموضوع بحذاء الجدار. وردّد:

على الفور.

تناول الفأسَ بيده ووضع سبّابته اليسرى على الأرومة، ثم رفع الفأس وأَوْقعها بقوة على اصبعه، تحت السُلامى الثانية. انفصلت الإصبع على نحو أسهل مما لو كانت قطعة من الخشب بالثخانة نفسها، دار على نفسه ولمس حافة الأرومة وسقط أرضاً.

سمع سيرج الصوتَ الخفيف الذي أحدثه ذلك، قبل أن يتألم. لكنه دهش لأنه لم يتوجع بعد، عندما أحسّ، على حين غرة، بألم مبرّح، ورأى خيطاً من الدم يسيل. لفّ ما بقي من إصبعه بطرف جبّته، وحطّها على صدره، ودلف إلى الحجرة، سأل المرأة بهدوء، وهو واقف أمامها، خافض العينين:

مابك؟

رأت وجهه الممتقع، ووجنته اليسرى ترتجف، وفجأة خجلت، ارتعدت، وتناولت معطفها وتغطّت به.

نعم، تألمتُ... بردتُ... لكن... أيها الأب سيرج... أنا...

رفَعَ إليها عينيه الملتمعتين بضياء من الفرح الهادئ وقال:

لماذا حاولت يا أختي أن تهلكي روحك الخالدة؟ لابدّ من التجارب في هذا العالم، لكن الويل لمنْ يُولّدها، صلّي لكي يغفر الله لنا.

كانت تصغي إليه وهي تنظر إليه. وفجأة سمعتْ سائلاً يسيل قطرةً قطرةً. ورأت أن جبة الناسك اصطبغت بالدم.

ماذا فعلت بيدك؟

تذكّرت الصوت الذي سمعته، فتناولت المصباح وجرت إلى الداخل فرأت في الأرض إصبعاً دامية.

عادت إلى الحجرة أشدّ شحوباً منه، وأرادت أن تكلمه، لكنه عاد إلى الحجرة وأغلق البابَ وراءه، قالت:

سامحني. كيف يمكنني أن أكفّر عن ذنبي. -

اذهبي.

دعنْي أضمّد جرحكَ.

اذهبي.

لبست ثيابها على عجل، دون أن تنبس بكلمة. وعندما تهيأت للذهاب وارتدت معطفها، انتظرتْ. ومن بعيد سُمع رنين الخلاخل.

سامحْني، أيها الأب سيرج.

اذهبي، الله يسامح.

أيها الأب سيرج، سأعيش حياة مختلفة، لا تتركني.

اذهبي.

سامحني وباركني.

ومن الجهة الأخرى من الحاجز لُفظتْ الكلمات الطقسية:

باسم الأب والابن والروح القدس... اذهبي».

غادرت الحجرة وهي تنتحب.

أقبل المهندس عليها:

آه هالكٌ، لا محالة... أين تريدين أن تجلسي.

لا أهمية لذلك.

اتخذت مكانها في الزحافة، و لم تَفُهْ شفتاها بحرفٍ طوال الطريق، بعد سنة ترهّبتْ وعاشت بتقشف في الدير، و لم يكن مديرها، الناسك «رسيني» يقابلها إلا نادراً.

– ٤ –

ظلَ الأب سيرج ناسكاً سبع سنوات أخرى، في البداية كان يَقْبَل كلَّ ما يُحْمَلُ إليه: الشاي والسكر والخبز الأبيض والحليب والحطب.

ومع الزمن جعل حياته تزداد قسوةً، فأخذ يرفض كل ما بدا له فائضاً عن الحاجة. وأفضى به الأمر ألا يقبل لنفسه إلاّ الخبز الأسود

ومرةً في الأسبوع فقط. وكلُّ ما كان يُقدَّم له غير ذلك، كان يوزّعه على الفقراء، الذين يأتونه، وكان يكرّس وقته كله للصلاة في حجرته أو للحديث مع الزائرين الذين كان عددهم يتزايد أبداً، و لم يكن يترك حجرته إلا ليذهب إلى الكنيسة، ثلاث مرات في السنة، وإلا ليحُضر الماء والحطب عندما يكون ذلك ضرورياً.

أثناء السنة الخامسة من هذه الحياة، تلقّى زيارة السيدة «ماكوفكينا» كانت هذه الزيارة حدثاً لقي ذيوعاً واسعاً، وقد أحدثت أيضاً تغيّراً عميقاً في تلك التي جعلت الزيارة غرضاً لها، وسبّب دخولها الدير. ومنذئذ كان مجدُ الأب سيرج لا ينى يتعاظم، وأخذ الزوار يتكاثرون، واستقرّ رهبانٌ غير بعيدين عن حجرته، ثم قامت كنيسةٌ وفندق.

وكما يحدث دائماً، بالغ الناسُ في مآثره، وانتشرت شهرتُه أكثر فأكثر، كان الناسُ يقصدون الأب سيرج من أمكنة بعيدة مُحْضرين إليه المرضى إذْ كانت تُنسب إليه مواهب الشافي.

أول شفاء تمّ على يديه كان في السنة الثامنة من حياته في الصومعة. وكان المريضُ طفلاً في الرابعة عشرة جاءت به أمُه إلى سيرج. سألت الناسكَ أن يضع يده على الولد. لم يفكر الراهبُ قط أنه يستطيع أن يشفي المرضى، فمثل هذه الفكرة كانت تبدو له مشوبةً بالكبرياء، لكن الأم لم تكفّ عن التوسل إليه، وارتمت على قدميه قائلةً له بلا انقطاع إنه يستطيع حتماً أن يشفي ابنها، لأن شفى من قبل مرضى آخرين. تضرّعت إليه باسم يسوع، وبما أن سيرج كان يؤكد لها أن لله وحده القدرة على أن يشفي، كانت تُجيبه بأنها تسأله فقط أن يضع يده على المريض، وأن يَتْلو صلاةً، رفض سيرج وانسحب إلى حجرته، لكنه رأى في اليوم التالي (كان ذلك في الخريف وغذت الليالي باردةً)

وهو ذاهب لإحضار الماء، رأى الأم ثانية والولدَ بوجنتيه الشاحبتين، وسمع منها التوسّلات ذاتها. تذكر سيرج مَثَلَ القاضي المزيّف، وحلّ الشك محل القرار الحازم الذي اتّخذه، قرار الرفض، وقاده الشك إلى الصلاة، صلّى حتى اللحظة التي أحس فيها بأنه ينبغي أن يستسلم للأم: وإنه قد يُنقذ الولد، وهو نفسه ليس سوى أداة اختارها الله.

وإذ وضعَ يده على رأس الصبي، أخذ يصلّي، ثم انصرفت الأمُ وابنها. وبعد شهر شفي الفتى اليافع. وما لبثت تلك القوة المقدسة والشافية للأب سيرج، كما كانت توصف الآن، أن عُرفتْ في المنطقة كلها. ففي كل أسبوع كان المرضى يصلون، كان بعضهم يأتون وحدهم، وكان لابد من نَقْل الآخرين. ولم يكن الأب سيرج يستطيع أن يأبى على البعض ما قبله للآخرين كان يضعُ يده عليهم ويصلّي. وكان المرضى يشفون بكثرة. وكان مجدُ الأب سيرج ينتشر ويَتعِد في الانتشار.

هكذا انقضت سبعُ سنوات من الحياة الرهبانية وثلاثة عشر عاماً من حياته كناسك. بدا الأب سيرج الآن بهيئة شيخ حقيقي: كانت له لحية بيضاء، لكن شعره الذي غدا أقلّ وفرةً من ذي قبل، كان ما يزال أسود جعداً.

– ٥ –

منذ بضعة أسابيع كان الأب سيرج منهمكاً في فكرة لا تُفارقه. أكان يحسن التصرّف وهو يقبل الخضوع للموقع الذي يشغله، لا بإرادته وحدها، بل بفضل الرئيس والأرشمندريت؟ هذا السؤال طرحَ نفسه عليه بعد شفاء الفتى اليافع، شفاءه الأول. منذئذ أحسّ أن حياته الداخلية أخذت تميلُ إلى الاختفاء مخليةً مكانها للحياة الخارجية، أحسّ أنه وُجِّهَ إلى الخارج.

رأى سيرج أنه أصبح وسيلةً لاجتذاب الحجاج وأصحاب الهبات، ولهذا السبب مكنته إدارة الدير من أداء أكبر قدر ممكن من الخدمات. وهكذا مُنع من العمل، ووُفِّر له كلِّ ما قد يحتاجُه، طُلبَ إليه فقط أن يستقبل الحدّ الأقصى من الزُوّار وألاّ يحرمهم من حسناته، وتسهيلاً لمهمته، حُدِّدت أيامُ الزيارة. وهُيِّئت صالةُ استقبال للرجال، وأخرى للنساء، ووضع فيها حاجزٌ لمنع الزائرات من الارتماء عليه، من صَدْمه. هنا كان يَمْنح مباركته. كان يقال له إنه نافع للناس وأنه ظلّ أميناً لشريعة المسيح: المحبّة، وأكّدوا له أنه لا يجوز له أن يردّ الذين يريدون مقابلته وأنه إذا أَبعدهم عنه فسيكون ذلك فظيعاً.

كان سيرج مضطراً إلى أن يشاطر غيره هذه النظرات، لكنه كان كلما أخلد إلى هذه الحياة، أحسّ أن حياته الداخلية تتراجع شيئاً فشيئاً لحياته الخارجية، وكأن ينابيع الحياة أخذت تنضب فيه، لأن كل ما كان يفعله صار يفعله أكثر فأكثر للناس، لا لله.

أكان يعطي التوجيهات أم كان يمنح فقط مباركته، أكان يصلي للمرضى أم يغدق نصائحه حول الطريق التي يجب أن تُسْلك، أكان يُصغي إلى الكلمات المعترفة بالجميل من أولئك الذين ساعدهم بشفائه - كما كانوا يؤكدون له - أم بمواعظه فقد كان مستحيلاً عليه ألاّ يبتهج، ألا يفكّر في النتائج التي بلغها، في تأثيره في المخلوقات البشرية. كان يرى نفسه مثل مشعل محترق، وكلّما اتّضحت الصورة أحسّ بضعفه ينمو: إن نور الحقيقة الإلهي الذي أناره قديماً، كان ينطفئ فيه.

«إلى أي حدّ أنا أعمل للناس، وإلى أي حد أنا أعمل لله؟» هذا هو السؤال الذي كان يثير ألمه والذي لم يُجبْ عنه قط. لا لأنه كان عاجزاً

عن ذلك دائماً، بل لأنه لم يكن يجرؤ أن يفعل ذلك دائماً. كان يشعر في أعماق نفسه أن الشيطان أراد أن يُتمّم من أجل البشر ما كان يتمّمه من أجل الله. كان يحسّ ذلك بوضوح أعظم ولا سيّما أنه مثلما كان يشقَ عليه من قبل أن يهجر من عزلته، فإن العزلة هي التي غدت شاقّةً عليه الآن. كان زوّارُه يُضجرونه ويتعبونه أحياناً، لكنه كان، في أعماق نفسه سعيداً بأن يراهم ويسمع مدحهم الذي كانوا يغدقونه عليه.

بل جاء وقت قرر فيه أن يفرَّ ويتوارى. استعرض كلَّ ما كان ضرورياً لتحقيق مشروعه، وإذ حصل على قميص وسراويل وسترة وعمرة فلاحيّة، وهي ملابس كان بحاجة إليها كما أوضح ليوزّعها على الفقراء الذين كانوا يطلبونها منه، احتفظ بها عنده، باحثاً عن الطريقة التي يرتدي بها هذه الملابس، والتي يقص بها شعره وينصرف. سيركب القطار أولاً ويقطع ثلاثمئة كيلو متر فيه ثم يهبط ويسير ماشياً مارّاً بالقرى. حتى إنه سأل جندياً ليعلم كيف كان يتنقّل، ماذا كانوا يعطونه وكيف كانوا يتركونه يسافر، فأوضح له الجندي أين كانوا يعطونه أكثر، وأين كانوا يتركونه يسافر، وبموجب هذه الآراء أراد الأب سيرج أن يتصرّف.

ذات ليلة لبس ثيابه وأراد الهرب. لكنه لم يكن يعلم إن كان يفعل خيراً. أيبقى أم يهرب؟ تذبذب أولاً، ثم ما لبث أن فارقه تردّدُه، قدّم الطاعة للشيطان كما تعّود. ومنذ هذه اللحظة لم تذكّره ثيابُ الفلاح إلا بأفكاره وعواطفه في الزمن الماضي.

كان يستقبل كلَّ يوم زواراً أكثر، وتناقص وقتُه الذي يتسنّى له فيه أن يُقوّي روحه وأن يُصلّي، كان يشبّه نفسه، في بعض لحظات الصفاء، بالمكان الذي يوجد فيه المفتاح: «كان هناك مفتاح ضعيف

والماء الحي كان ينساب مني ببطء، عبري أنا. كانت هناك الحياةُ الحقيقية عندما (وتذكّر بانفعال تلك الليلة كما تذكرها هي نفسها التي أصبحت الأمَّ «آنييس»). جرَّبتْ أن تغويه، لقد تذوّق ذلك الماءَ النقي الذي لم يستطع منذ ذلك الوقت أن يُشكل طبقةً مائيةً: وَصلَ العطاشُ وهم يتدافعون ويردّ أحدُهم الآخر، فجففّوا كل شيء، ولم يبق سوى الوحل». كذلك كانت أفكار الأب سيرج في اللحظات النادرة التي يُضيئه النور فيها. لكن حالته الطبيعية كانت التعب وكان يشفق على نفسه من هذا التعب.

كان ذلك في الربيع، عشيّةَ عيد العنصرة، كان الأب يخدمُ صلاة المساء في كنيسة الصومعة، حضر الصلاة عشرون مؤمناً، كان ذلك ما تستطيع أن تتّسع له الكنيسة. كان الحضور تجّاراً أو سادة إقطاعيين أثرياء. كان الأب سيرج يقبل جميع الناس، لكن الرهبان المتمركزين في المدخل، والذين بعثَ بهم الديُر، كانوا يختارون الحضور. وفي الخارج كان نحو ثمانين شخصاً من الشيوخ والفلاحين والفلاحات بخاصة ينتظرون خروج الأب سيرج ومباركته، في منتصف القدّاس ترنّح الأب سيرج كان سيقع لو لم يسنده تاجرٌ وراءه بمساعدة الشمّاس.

هتفت النساء وقد شحبن شحوباً شديداً:

ما بك أيها الأب سيرج؟ الأب العزيز! ياربّ!...

لكن مع أن الأب سيرج كان شديد الضعف، فقد انتصب على الفور ونحّى التاجرُ والشماس وتابع تراتيله.

توسّل إليه الأبُ «سيرابيون» والشماس وخدم القّداس وامرأةٌ هي

«صوفيا إيفانوفنا» كانت تسكن قرب الصومعة وتُعنى بالأب سيرج، أن يقطع القدّاس.

قال وهو يرسم على وجهه ابتسامة دون أن يكفّ عن خدمة القدّاس:

لا يهمّ، لا يهمّ، «هكذا يفعل القدّيسون».

تَمْتم التاجر الذي سنده وصوفيا إيفانوفنا، وكانا خلفه:

إنه قدّيس، ملاكٌ من الله

لم يُصغ إلى نصائحهما، وتابع الخدمة وأنهى صلوات المساء مُقصّراً إياها.

بعد ذلك مباشرة، بارك المؤمنين ثم قصد الفسحة الترابية عند مدخل الحجرة، ودَّ لو يستريح، لو يتنفس الهواء العليل، كان يحسُّ بالحاجة إلى ذلك، لكنْ ما كاد الجمهور يلمحه حتى اندفع إليه، طالباً مباركته ونصائحه. وكان هناك حجاج ينتقلون بلا كللٍ من مكان مقدّس إلى مكان آخر، من راهب إلى آخر، يتأثرون أمام أية قَداسة، أمام أول راهب يصادفونه. كان الأب سيرج يعرف جيداً هذا النمط من الحجّاج المنتشرين جداً، الذين لا يملكون الفكر الديني، والذين هم باردون ومماحكون. كان هؤلاء الحجاج جنوداً متقاعدين بخاصة، فقراء، مسنين، يحبون الشراب حباً مفرطاً، هجروا حياتهم المستقرّة، وتشرّدوا من دير إلى دير لكي يحصلوا على الغذاء، وكان هناك أيضاً فلاحون وفلاحات بخاصة يتقدّمون بطلبات أنانيةً للشفاء، أو يطلبون نصائح تتعلق بمسائل مادية من مثل زواج البنت، تأجير دكان، شراء أرض، أو كيف يمكن التكفير عن الخطيئةُ إذا كانت الخطيئة خنق طفل أثناء النوم، أو نَسْل ولدٍ.

كان الأب سيرج يعرف ذلك كله، ولم يكن ليعلم شيئاً جديداً، وكان هؤلاء الناس جميعاً لا يكادون يثيرون اهتمامه. لم يكن يوسعهم أن يوقظوا فيه أيّ شعور ديني، لكنه كان يحبُّ أن يراهم، كان يحب هذا الجمهور الذي يحتاج إلى مباركته ويُغْرَم بكلامه، ولذلك كان حريصاً عليه، وإذا كان مُتْعباً من جميع هؤلاء فإنهم كانوا يوفّرون له أيضاً في الوقت نفسه ضروباً من الارتياح.

حاول الأب «سيرابيون» تفريق الحضور بقوله لهم إن الأب مُتعب، لكن الأب سيرج تذكر كلمات الإنجيل: «دعوا الأطفال يأتون إليّ، وتأثرّ بهذه الكلمات، فطلب أن يُترك الناس ليأتوا إليه.

نهض واتّجه نحو الحاجز الذي تجمّعوا خلفه وأخذ يباركهم ويجيب عن أسئلتهم. كان ضعفُ صوته يثير انفعاله، وبالرغم من رغبته في استقبالهم جميعاً إلا أنه كان عاجزاً عن ذلك، وتشوَّش نظرُه من جديد، وترنّح وتمسّك بالحاجز، وأحسّ مرة أخرى بالدم يتدفّق إلى رأسه، ثم شحب فقال:

نعم، لا أستطيع الآن، هذا أكيد ... إلى الغد

حرك يده مباركاً الجمهور، ثم اتّجه إلى مقعد.

– يا أبانا، يا أبانا، لا تتركنا، نحن بدونك تائهون.

بعد أن ساعد التاجرُ الأبَ سيرج على الجلوس تحت شجرة دردار، تكفّل بدور الشرطي وأخذ يفرّق الناس بفظاظة، كان يتكلم بصوت خافتٍ لكي لا يسمعه الأب سيرج، لكن كلماته كانت قاطعة وقاسيّة.

– اذهبوا عنيَ! انصرفوا. لقد باركَكم فماذا تريدون أكثر من ذلك؟ امشوا! وإلا فككت أعناقكم. أنتِ أيتها العمة الصغيرة ذات

الجورب الأسود، انصرفي، انصرفي... وأنتَ أين ذهبتَ تحشر نفسك؟ كل شيء قيل، وانتهى الأمرُ! سنرى ما الذي سيأتينا به ربُّنا غداً، أما الآن فانتهى الأمرُ.

قالت العجوز:

يا أبت، نظرة إلى وجهه، مرة واحدة فقط

رأيتك، أين تحشرين نفسك.

ولما رأى الأب سيرج أن التاجر يبالغ كثيراً طلب بصوت ضعيف إلى راهب مساعد ألا يطردوا الناس، مع علمه الأكيد بأنهم لن يفعلوا ذلك، كان يتمّنى أن يظل وحده ويستريح، وإذا كان قد أرسل مع ذلك، الراهب المساعد، فإن ذلك كان يرمي إلى هدف واحد وهو التأثير في الجمهور.

أجاب التاجر:

طيب، طيب! على كل حال، أنا لا أطردهم وإنما أحاول أن أقنعهم اعلمْ أنهم سعداء حين يجهزون على إنسان، هل فيهم شفقة؟ إنهم لَا يفكرون إلا في أنفسهم... لا حيلة لنا في ذلك. انتهى الكلام. انصرفوا. سنرى غداً.

طرد التاجرُ الناسَ جميعاً.

إذا كان التاجرُ يُظهر كل هذا الإخلاص فلأنه يحب فقط النظامَ، لأنه يجد لذةً في مطاردة هذا الجمهور، هذه المخلوقات التي أصبح بعضها كبش الفداء. وكان مبعث جهوده قبل كل شيء أنه كان بحاجة إلى الأب سيرج. كان أرمل وأباً لابنةٍ وحيدةٍ مريضةٍ وعذراء، وقد

قطع ألفاً وأربعمئة كيلو متر ليأتي بها إلى الأب سيرج لكي يشفيها. وكان يعتني بصحة ابنته قبل سنتين من مرضها الحقيقي وتوجّه من أجل العناية بها إلى عدة أشخاص، أخذها أولاً إلى مستوصف في مدينة جامعية، عاصمة المقاطعة، فلم يصل إلى أية نتيجة. ثم أخذها إلى مقاطعة «سامارا» إلى فلاح خفّف ألمها. وأخيراً لجأ إلى طبيب في موسكو وأنفق كثيراً من المال، لكن لم يطرأ أيُّ تحسّن، وعلم أن الأب سيرج يشفي المرضى الآن فجاء بابنته إليه.

بعد أن فرّق الجمهور اتّجه رأساً إلى الأب سيرج، وارتمى على قدميه، وقال له بصوت قوي، دون أية مقدمة:

أيها الأب القديس، امنح ابنتي الآن مباركتك، خلِّصها من مرضها، من عاهتها. إني أجرؤ على الركوع عند قدميك المقدّستين. وضمّ راحتْي يديه.

عمل ذلك وقال كأنه يتّبع قواعد مقرّرة بالقانون أو التقاليد، وكأنه ينبغي أن يلتمس شفاءَ ابنته بهذه الطريقة المحدّدة، لا بطريقة أخرى وبدا مقتنعاً أشدّ اقتناع بأن الأب سيرج أحسّ أن بركاته وكلماته كانت بالضبط ما ينبغي أن تكون. لكنه أمره مع ذلك بأن ينهض وأن يقص عليه لبَّ القضيّة.

أوْضح له التاجرُ أن ابنته التي تبلغ الثانية والعشرين قد مرضت قبل سنتين، بعد وفاة أمها التي ماتت فجأة، تحسّرت - على حد تعبيره الذي استخدمه - ثم أصبحت منذ ذلك الوقت ذات عاهة. وها هو يقطع ألفاً واربعمئة كيلو متر ليأتي بابنته، إنها تنتظر في النزل أن يأمر الأب سيرج بمثولها بين يديه. لم تكن تخرج طوال النهار وكانت تخاف النور ولا تذهب إلى الخارج إلا بعد الغسق.

سأل الأب سيرج:

- كيف، أهي حقاً ضعيفة إلى هذا الحد؟

لا، إنها ليست ضعيفة على العكس هي بدينة، لكنها منهكةٌ عصبياً، كما قال الطبيب، ولو أن الأب أمرني بأن آتي بها على الفور فستغمرني السعادة، أيها الأب القديس، أعد الحياةَ إلى قلبين اشفِ ذرّيتي، أنقذْ بصلواتك ابنتي المريضة.

وركع التاجر مرةً أخرى فجأة وجسمه مائل ميلاً خفيفاً إلى جانبه، ورأسه بين يديه، وهو صامت. فأمر الأب سيرج أيضاً بالنهوض، وفكّر في الوضع المؤلم الذي يعيش فيه التاجر الذي كان يتحمّله بشجاعة هو يتنهد تنهداً عميقاً، ثم بعد أن ظل صامتاً بضع ثوان قال:

طيّب، جئني بها هذا المساء، سأصلّي من أجلها. الآن أنا متعب.

وأغمض عينيه.

سأرسلها إذن.

ابتعد التاجر على أصابع قدميه وهو ما جعل جزمته تصرّ صريراً أشد، وظلّ الأب سيرج وحده.

كانت حياته كلها ملأى بالزوار والخدمة. لكن هذا اليوم كان قاسياً شديد القسوة. فأثناء الصباح، استقبل موظفاً كبيراً حجزه زمناً طويلاً، ثم جاءت امرأة إقطاعي ومعها ابنها، كان ابنها استاذاً ملحداً، وكانت أمه مؤمنة ومخلصة لسيرج، فجاءت بابنها لكي يكلّمه سيرج. وأعلن أنه مُتّفق معه، وكأنه لم يشأ أن يعارض رجلاً ضعيفاً. وكان الأب سيرج يرى بوضوح أن الشاب لا يؤمن وأنه يحسّ رغم ذلك

بالسعادة، كان كل شيء سهلاً عليه، وكان هادئاً. فاستاء الأب سيرج عند تذكّر هذه المحادثة...

قال له راهب مساعد:

يجب أن تأكل

نعم، ائْتني بشيء ما

قصد الراهب المساعد الحجرة، على خطوات من سيرج، وظل سيرج وحده.

مضى الزمنُ الذي كان يعيش فيه حياةً منعزلة، يصْنعُ فيها كل ما كان يحتاج إليه، ويغتذي بالقربان والخبز، فلقد برهنوا له أنه لا يملك الحقَّ في إهمال صحته، وكان يُحمَل إليه غذاءٌ لا لحم فيه ولا دهن لكنه صحّي. كان يأكل قليلاً، أكثر من الماضي مع ذلك وكثيراً ما كان يأكل بلذّة، لا بقرف وبإحساس بالذنب كالسابق، كان الآن يتغذّى بهذه الطريقة. أكلَ برغلاً، وقليلاً من الخبز الأبيض، وشرب فنجاناً من الشاي، انصرف الراهب المساعد، وظل الأب سيرج جالساً تحت شجرة الدردار وحده.

كان مساءً بديعاً من أيار، فأشجار البتولة والسنديان والدردار وكرز الطير تغطّت بالأوراق، وخلف القصب، كان كرز الطير في تمام ازدهاره، كان عندليبٌ يغرّد بأعلى صوته قريباً منه، وثلاثة أُخر أبعدُ منِ ذلك في الدغل على حافة الماء. وكان يُسْمَع غناء خلف الغابة، وأرسلت الشمس أشعتها المائلة عبر الخضرة، كان المشهدُ أخضر فاتحاً من جهة، ومعتماً خلال أشجار الدردار، وكانت الجعلان تُرفرف وهي تصفق بأجنحتها ثم تسقط.

بعد الطعام أخذ الأب سيرج يصلي ارتجالاً من عند نفسه: «ياسيدي، يسوع المسيح، ابن الله، اغفرْ لنا» ثم أخذ يتلو المزامير، وبغتةً في وسط القراءة، خرج دوريٌّ من الدغل ومضى إليه وهو يُنطنط ويزقزق ثم خاف فجأة وطار. كان الأب سيرج يتلو صلاةً تتكلّم على الانفصال عن هذا العالم، كان يستعجل لإحضار التاجر وابنته المريضة: كانت تثير اهتمامه أولاً لأنه حريصٌ على أن يراها، ثم لأن الموضوع يدور على إنسان لم يره من قبل قط»، وأخيراً لأن الأب والبنت كانا يعتبرانه قديساً تُستجاب صلواتُه. كان يُنكر هذا لكنه في أعماقه، كان يعدُّ نفسه كذلك.

لم يكن يشك في أنه أصبح قديساً مع دهشته العميقة لذلك، وأنه يستطيع أن يأتي هو ستيبان كاساتسكي، بالعجائب الخارقة، لم يكن بوسعه ألاّ يؤمن بالعجائب التي شاهدها هو نفسه، منذ شفاء الطفل الذي كان فاقداً لقواه إلى شفاء المرأة العجوز التي استردّت بصرها بفضل صلواته.

مهما يكن ذلك مذهلاً فقد كان! مع ذلك أمراً لا جدال فيه، وكانت ابنة التاجر تثير اهتمامه لأنها كانت موضوعاً جديداً للتجربة، لأنها كانت تؤمن به، وأيضاً لأن مواهبه كشاف ستتأكد وسيصبح مجدهُ أعظم أيضاً، «الناس يقطعون ألف كيلومترٍ ليأتوا إليّ، وهم يتحدّثون عني في الصحف، القيصر يعلم، وأوروبا - أوروبا الجاحدة - تعلم». كذلك كان يفكّر. وفجأة، بكته ضميُره على كونه مزهّوا إلى هذا الحدّ، واستأنف صلاته:

«أيها الرب، إله السماء المعزّي، روح الحقيقة، تعال وابقّ فينا، طهّرنا من كل رجسٍ، وخلّص نفوسنا برحمتك، طهّرني من الخسّة

والغرور البشريين اللذين هما فيَّ...» ردّد ذلك وهو يفكر في أنه طالما تلا هذه الصلوات وأنها ظلّت غير مُثمرة، كانت صلاته تفعل العجائب للآخرين، لكنه لم يتوصّلْ أن يَحْصل لنفسه، على أن يحرّره الله من عواطفه الحقيرة.

تذكّر الصلوات التي كان يقوم بها في بداية حياته كناسك ليمتلك النقاء والتواضع والحب، وتذكّر أيضاً أنه كان يُخيّل إليه أن الله كان يسمعه، كان نقياً واستطاع أن يقطع إصبعه. وحين رفع إصبعه المبتورة لأن «الكلمةَ» أراد ذلك، قبّلها. كان يخيل إليه أنه متواضع في حين كان في حالة الخطيئة، كان يُخيل إليه أن قلبه مليء بالمحبة، عندما كان يفكر بالبشاشة التي لقي بها ذلك الشيخ الذي جاء ليراه، أو ذلك الجندي السكران الذي طلب مالاً والذي عامله برفق، والآن؟ كان يتساءل إن كان ما يزال يحب أحداً. أهو يحب صوفيا ايفانوفنا، الأب «سيرابيون»، أيشعر بشيء من المحبة لجميع الذين يأتون إليه، لذلك البحاثة الشاب الذي حدّثه أحاديث تقليدية، تعليمية لا هدف لها إلا إظهار قدرة فكره، وعمق معارفه، وأنه مطّلع على الحياة العملية؟ كان يلذّ له أن يعلم أنه محبوبٌ من جميع زائريه. لكنه هو لم يكن يشعر بشيء نحوهم. كان في الوقت الراهن خالياً من كل تواضع، من كل نقاء، من كل حب.

كان مسروراً أن تكون ابنةُ التاجر في الثانية والعشرين، كان يوّد لو يعلم إن كانت جميلةً، وحين استعلم عن ضعفها، كان الأمل أن يعلم إن كانت تملك جميع مفاتن جنسها أم لا.

تساءل: «هل سقطتُ إلى هذا الحضيض؟ «ربي ساعدْني على النهوض، ربي، إلهي!..». ثم ضمّ يديه وعاد إلى الصلاة.

كانت العنادلُ تغرّد، طار جعلٌ من حوله وحطّ على رقبته، فحناه.

هل هو موجود؟ إني أقرع باباً مقفلاً من الداخل، القفلُ في الباب وأستطيع أن أراه عبر القفل. القفل هو العنادل والجعلان والطبيعة من يدري، لعل ذلك الشاب مُحقّ؟

عاد إلى صلواته، بصوت مرتفع، وصلى حتى اللحظة التي تخلّص فيها من أفكاره، واستردّ هدوءه وثقته، حرّك جرساً صغيراً وطلبَ إلى الراهب المساعد أن يستدعي التاجر وابنته.

قاد الأب ابنته إلى الحجرة وانصرف من فوره.

كانت الفتاة شقراء، ناصعةَ بياض البشرة، شاحبة، قوية، رقيقة جداً، ذات وجه متخوّف وطفولي، وكانت أشكال جسدها كامرأة نامية جداً، ظلّ الأب سيرج جالساً على سريره، عند المدخل. وعندما مّرت أمامه باركها، لكنه ارتعب إذ لاحظ كم كان ينظر إلى جسدها بلجاجة. مرّت وخُيِّل إليه أنه قد عُضَّ. وحين راقب وجهها تبيَّن أنها كانت شهوانية وأنها تبدو متخلّفة، نهض ودخل حجرته.

كانت جالسةً على منضدة، تنتظره.

عندما رأته هبّت واقفة. قالت:

أريد أن أذهب إلى بابا

لا تخافي! أين تتوجعين؟

الوجع في كل موضع مني.

فجأة أضاءت وجهه ابتسامةٌ. قال:

ستصحيّن. صلّي.

مكتبة
t.me/t_pdf

ما جدوى الصلاة. صلّيتُ كثيراً فلم يُسعفني ذلك (ظلّت تبتسم) اتْلُ أنتَ صلواتٍ لي وباركْني. رأيتكَ في الحلم.

كيف رأيتني؟

رأيتك تضع يدك على صدري، هكذا... (وأخذت يده ووضعتها على صدرها) انظرْ، هنا!

أعطاها يده اليمنى.

سأل وهو يرتجف بكل كيانه، وهو يشعر كلّياً بهزيمته: أحسّ بأنه لم يعدْ سيداً لرغبته الجسدية:

ما اسمك؟

قبلت يده، ثم طوّقت خصره بيدها، وجذبته إلى القرب من جسدها. قال:

ماري، ما بكِ؟ أنتِ شيطانٌ!

ربما! لا بأس...

قبلته، وجلست بقربه على السرير، عند الفجر، خرج إلى العتبة.

هل وقَعَ كل ذلك حقاً؟ سيأتي أبوها وستروي له كلَّ شيء. إنها شيطان. ماذا سأفعل؟ هذه هي الفأسُ التي قطعت بها إصبعي...

أمسك بالفأس واتجه إلى حجرته. وصل الراهب المساعد في هذه اللحظة بالذات:

أمرْتني بقطع الحطب. أَعطني الفأس ...

أعطاه إياها ودخل حجرته. كانت الفتاة مضطجعةً نائمة. نظر

إليها برعب. مضى إلى خلف الحاجز، وتناول ثياب الفلاح فارتداها، وأخذ مقصاً فقصّ شعره. ثم مضى على الدرب النازل من الجبل إلى النهر الذي لم يره منذ أربع سنوات.

وعندما جاء المساءُ، اتّجه إلى قرية تقوم على جانب الماء، لكنه لم يدخل هذه القرية، وقصد النهر، حيث كانت توجُد هوّةٌ.

كان ذلك عند الفجر، قبل شروق الشمس بنصف ساعة. كان كلّ شيء رمادياً وحزيناً. ومن الغرب كانت تهب الرُيح الباردة التي تسبق الفجر...

نعم، يجب أن أنتهي من ذلك. الله غيرُ موجود. كيف أنتهي من ذلك؟ أألقي بنفسي... أنا أعرف السباحة، ولن أغرق. أأشنقُ نفسي؟ هذا هو الزنار...

لكن ذلك كلّه كان قريباً جداً منه حتى لقد خاف. أراد أن يصلي، لكن لِمَنْ يُصلّي؟ له، الله لم يكن موجوداً. كان مضطجعاً، ورأسهُ مستنّد إلى يده وفجأة أحس بحاجة ماسة إلى النوم حتى إنه لم يقدر أن يسند رأسه، سحب يده فنام مباشرةً، حلم حلماً ورأى نفسه ولداً في المنزل الأبوي في الريف، وإذا بعربة تصلُ وينزل منها عُمه نيكولا سيرغيفتش بلحيته السوداء حاملاً رفشاً ضخماً، وبصحبته فتاةً نحيفة جداً، وجهها يدعو إلى الرثاء، وجه متخوّف تضيئه عيناه كبيرتان جداً، وديعتان جداً. هذه الفتاة، «باشنكا» [٣] وصلت ذات يوم، وكانت العنصر الأنثوي الوحيد في جماعة الصبية، وانتهى ذلك بهزء الجميع منها، لأنها كانت غبيّةً. لقد دفعوها إلى أن تُريَهم كيف تسبح فانبطحت

---

٣ - باشنكا تصغير «براسكوفي».

على الأرض وقامت بالبرهنة على ذلك. قهقه الجميع وجعلوها هُزأةً، وإذ لاحَظت ذلك تغطّى وجهها بالبقع الحمراء وكانت تدعو حقاً إلى الرثاء، وهي في هذه الحالة حتى لقد خجل الصبيةُ، كان مستحيلاً أن ينسى بَسْمتها المائلة، الملأى بالطيبة والطاعة.. وتذكّر سيرج اليوم الذي لقيها فيه بعد ذلك. لقيها بعد ذلك بزمن طويل، قبل أن يصبح راهباً. كانت متزوجةً من إقطاعي ملاك كان يضربها وقد بدّد كل ثروتها. كان لها ولدان، بنت وصبي مات وهو فتى صغير.

تذكر سيرج أيضاً أنه عاد فلقيها وهي بائسة جداً وأرملة، حين كان في الدير، لم تكن قد تغيّرت، لم تكن معدومة الذكاء تماماً، لكن لم يكن لها أي ميل وبقيت تافهةً جديرة بالرثاء. كانت تصحبها ابنتُها ومعها خطيبها. كانوا فقراء. وسمع سيرج فيما بعد أنها كانت تسكن في مكان ما، مركز المنطقة وأنها لم تصبح أغنى.

تساءل: «ولِمَ أفكّر فيها؟ لكنه لم يتوصلْ إلى عدم التفكير فيها، أين هي؟ كيف حالُها؟ أما تزال مسكينة كما كانت في ذلك اليوم الذي أعطتْ فيه درساً في السباحة على أرض الغرفة؟ ما جدوى التفكير فيها؟ ما بي؟ يجب أن أنتهي من ذلك!».

وخاف مرةً أخرى، ولكي يتخلّص من ذلك الخوف عاد إلى التفكير في «باشنكا»، التي كان يرى فيها خلاصه، وأخيراً أغفى. وحينئذ رأى ملاكاً يأتي إليه ويقول له: «اذهب إلى باشنكا، وستعرف عندها ما عليكَ أن تفعله، وما قِوامُ خطيئتك، وأين خلاصك».

استيقظ سيرج، وبدا له أن هذه الرؤيا قد أرادها الله، فابتهج بذلك. وقرر أن يفْعَل ما أُمر به في الحلم، كان يعرف المدينة التي تعيش فيها «باشنكا» على بعد ثلاثمئة كيلومتر، فقصدها.

لم تَعدْ «باشنكا» هي نفسها منذ زمن بعيد كانت تُسمّى الآن «براسكوفي ميكا يلوفنا» وغدت عجوزاً متيبّسة، ملأى بالتجاعيد. كانت تسكن المدينة التي شغل فيها صهرُها، وهو موظّف فاشلٌ مضاعَفٌ بسكيّر، آخر مركز له، وكانت تعول الأسرة كلها: ابنتها، وصهرها المريض والمنهك عصبياً، وخمسة أولاد صغار. ولكي تُطعمهم، كانت تعطي دروساً في الموسيقا لبنات التجار، أربع أو خمس ساعات في النهار، وكان ذلك يدرّ عليها شهرياً نحو ستين روبلاً، كانوا جميعاً يعيشون بهذا المبلغ ريثما يحصل صهرها على مركز ما. ولكي تعثر له على هذا المركز، كتبت إلى جميع معارفها تلتمس منهم ذلك، بما فيهم الأب سيرج. و لم يتلقّ رسالتها.

كان ذلك يوم السبت، وكانت «براسكوفي ميكايلوفنا» تعجن هي نفسها الخبز بالزبيب الذي كان يتقن صنعه الطاهي قنُّ أبيها. كانت تريد أن تدعو أحفادها إلى الاحتفال بالعيد في اليوم التالي.

كانت ابنتُها «ماشا» تُطعم الأصغر. وكان الكبار، بناتاً وأطفالاً في المدرسة، وكان صهرها المصاب بالأرق أثناء الليل، مستغرقاً في النوم، الآن و لم تنم «براسكوفي ميكايلوفنا» كثيراً أيضاً: لقد حاولت تهدئة ابنتها الغاضبة على زوجها. كانت تعلم أن صهرها مخلوق لا إرادة له، وأنه كان عاجزاً عن الكلام أو التصرف على نحو مختلف عمّا يفعله، وكانت تعلم أيضاً أن لوم ابنتها لا يجدي شيئاً وكانت تستخدم جميع السبل للتخفيف منه، لكي لا يكون لومها مُرهقاً وخبيثاً.

لم تكن تستطيع تحمّل الخصام، كان ذلك شيئاً جسدياً تقريباً عندها. كان يبدو لها جليّاً أن العلاقات المتوتّرة لا تحسّن الوضع،

لكنها على العكس تزيده سوءاً، لم يكن ذلك عن محاكمة عقلية عندها، بل إنها كانت تتألم فقط من كل مهر للخبث، كما تتألم من الرائحة الخبيثة أو من ضجّةٍ بلا صدى أو من ضرباتٍ أصابتها في جسدها.

كانت مسرورةً من نفسها، تعلّم «لوكيريا» طريقةَ صنع الحلوى، عندما هُرع إلى المطبخ مذعوراً حفيدُها «ميشا» ابنُ السادسة كان يرتدي وزرة وقد بلي كعبُ حذائه ورُتق جورُبه.

ياجدتي، ها هنا شيخٌ مُرعبُ الهيئة، يبحث عنك،

نظرت لوكيريا من النافذة:

كأنه حاجٌ، ياسيدتي.

فركت «براسكوفي ميكايلوفنا» ساعديها النحيلين أحدهما بالآخر، وجفّفت يديها بوزرتها، ثم اتجهت إلى الغرفة لتأتي بخمسة كوبيكات من محفظة نقودها، لكنها تذكّرت أنْ ليس في المحفظة قطعة أقل من عشرة كوبيكات، حينئذ نوت أن تعطيه خبزاً، لكن الندم انتابها فجأةً واستحت من نفسها، وأمرت «لوكيريا» أن يقطع خبزاً، وصعدت إلى الغرفة لتأتي بعشرة كوبيكات. وقالت في نفسها: «هذا جزاؤكِ، ستدفعين الضعف» مدّت يدها إلى الشيخ بالخبز والمال وهي تعتذر. لكنها عندئذ لاحظت هيئته المهيبة خجلت من أن تعطيه مثل هذا العطاء القليل.

لم يفقد سيرج شيئاً من هيئته الجليلة، ومظهره المهيب الذي يجذب إليه، مع ذلك فقد قطع باسم المسيح، طريقاً من ثلاثمئة كيلو متر، وكانت ثيابه ممزقة، وقد هزلَ ولوّحته الشمس وكان شعره مقصوصاً وقد اعتمر بعمرة الفلاح واحتذى جزمته، حيّا بتواضع، لم تتعرّفه

«براسكوفي ميكايلوفنا»، وكيف تتعرّف إنساناً لم تره منذ عشرين عاماً.

لاتتحرّج، يا أَبتَ! لعلك تريد أن تأكل؟

تناول المال والخبز، لكنْ شدّ ما أدهش « براسكوفي ميكايلوفنا» أنه ظلّ في مكانه ينظر إليها.

«باشنكا»، جئتُ إليكِ، استقبليني!

كان يتوسل إليها بنظرته، وهو يحدّق فيها بعينيه السوداوين البديعتين حيث التمعت الدموع، وكانت شفتاه ترتعشان ارتعاشاً بائساً تحت شاربيه الأشيبين.

ضربت براسكوفي ميكايلوفنا صدرها ونظرت إلى وجه الزائر وظلت كالمشدوهة:

هذا غير ممكن! ستيبا! سيرج! الأب سيرج!

قال بهدوء:

نعم، هو بعينه، لكنه ليس سيرج ولا الأب سيرج إنه الخاطئ الكبير «ستيبان كاساتسكي» الذي هلك، الخاطئ الكبير، اقبليني، ساعديني!

هذا غير ممكن! كيف سقطت إلى هذا الحضيض؟... نعم ادخلْ

مدّت يدها إليه، فلم يمسك بها، لكنه تبع «باشنكا».

أين ستضعه؟ كان المسكن مفرط الصغر. كان عندها قديماً غرفةٌ صغيرة، كالسقيفة تقريباً، وكان يمكن أن تصلح له، لكنها اضطرّت فيما بعد، أن تعطيها ابنتها. والآن كانت ماشا تَشْغلها.

قالت وهي تشير إلى مقعد في المطبخ:

اجلس هنا، في هذه الأثناء.

جلس سيرج رأساً، وبحركة أصبحت عادية لديه، رفع الكيسين المعلّقين على كتفيه الواحد بعد الآخر.

يا إلهي، يا إلهي، كيف سقط إلى هذا الحضيض، الأب! كلُّ ذلك المجد وبغتةً...

لم يجب سيرج، ابتسم برفق واستمر في إنزال كيسه إلى جنبه.

ماشا، أتعلمين مَنْ هو؟

وأخبرت «براسكوفي ميكايلوفنا» ابنتها بصوت منخفض إنه سيرج، رفعت المرأتان من السقيفة مَرْقد الطفل والسرير اللذين كانا فيها ليتمكّنا من إيواء الشيخ، وقادته الجَدّةُ إليها، من فورها.

استرحْ! لاتتحرّج. سأنصرف.

إلى أين؟

إني أعطي دروساً. أستحي من أن أقول لك ذلك، إني أعلّم الآخرين الموسيقا.

حسنٌ، لكني جئتُ، يا براسكوفي ميكايلوفنا، إليك لأمرٍ خطير. متى أستطيع أن أكلّمكِ؟

سأكون سعيدة لأسمعكَ. هذا المساء، أيلائمك هذا؟

نعم، لكنّ لي طلباً أيضاً: لا تتحدّثي عني، لا تقولي مَنْ أنا. يجب أن تكون الأمور كذلك.

آه! قلتُ ذلك لابنتي.

قولي لها إذن ألا تذكر شيئاً.

نزع سيرج جزمته، واضطجع وأغفى في الحال: كان قد قضى ليلةً مسهّدةً ومشى أربعين كيلو متراً.

عندما عادت براسكوفي ميكايلوفنا إلى بيتها، كان سيرج ينتظرها في غرفته التي لم يغادرها. أكل الحساء والبرغل اللذين حملهما «لوكيريا» إليه.

قال سيرج:

عُدتِ بأسرع مما وعدتِ، أأستطيع أن أكلّمك؟

لأن السعادة قد زارتْني بزائرٍ مثلك، فقد ألغيتُ درساً... وبعد... حلمتُ دائماً أذهب إلى هناك، فكتبتُ إليك، والآن مثل هذه السعادة!

باشنكا، أرجوكِ، اعتبري الكلمات التي ستسمعينها مثلَ اعتراف، كأنني أقولها أمام الله، في لحظة الموت. «باشنكا»، لستُ قدّيساً، لستُ رجلاً عادياً، أنا خاطئ، مُلطّخٌ، سيءٌ، ضالٌ، خاطئ رهيب، لا أدري إن كنتُ أشقى الناس، لكنني لا أُساوي رجلاً سيئاً.

نظرت «باشنكا» إليه بعينيها الكبيرتين وصدّقتْه. ثم إنها لما قبلتْ كلَّ شيء على أنه صحيح، لمست يده وقالت بابتسامه شفقةٍ:

ستيفا! لعلك تبالغ قليلاً؟

لا، باشنكا، أنا فاجرٌ، قاتل، مُجدِّف، غشّاش.

هتفت براسكوفي ميكايلوفنا:

يا إلهي! ما هذا كله؟

لكن يجب أن أستمر في الحياة، وأنا الذي كان يَحْسبُ أنه يعرف كل شيء، وكان يعلّم الآخرين كيف يجب أن يعيشوا، لا أعرف شيئاً من ذلك، وأطلب إليك أن تعلميني ذلك.

ما بكَ؟ ستيفا، أنتَ تمزح! لمَ تهزأ مني دائماً؟

طيّب، لنفرضْ أنني أمزح، لكن أروي لي كيف عشتِ وكيف تعيشين.

أنا؟ حياتي بشعة، سيئة، والربّ الصالح يعاقبني الآن وأنا أحيا حياةً رديئة جداً، رديئة جداً...

كيف تزوجتِ؟ وكيف كانت حياتكِ مع زوجكِ؟

كان كل شيء سيئاً، عشقتُ بطريقة حقيرة. كان أبي ضدّ زواجي. فلم أكترث له تزوجتُ. وبعد ذلك، آلمتُ زوجي بغيرتي التي لم أستطع التغلّب عليها.

سمعتُ أنه كان يشرب.

نعم، فإذا شرب لم أفلحْ في تهدئته. كنتُ أرهقه باللوم. الشربُ مرضٌ. أليس كذلك؟ لم يكن يستطيع الامتناع عن الشراب. أذكر أني كنت أمنعه منه، وكانت بيننا مشادّاتٌ رهيبة.

كانت تنظر إلى «كاساتسكي» بعينيها البهيتين والحزينتين.

تذكّر أن الناس أكّدوا له أن الزواج كان يضر باشنكا. خُيِّل إليه وهو يلاحظ هذه المرأة بعنقها الهزيل والجاف، وبعروقها المنتفخة

خلف أذنيها، وبشعرها الذي تناثر فيه بياضٌ مائلٌ إلى الصهبة، أنه يرى بوضوح كيف جرت هذه الحياة.

وتابعت:

ثم بقيتُ مع ولدين محرومين من جميع وسائل الحياة!

لكن كانتْ عندك أملاك.

كنّا قد بعناها قبل موت «فاسيا»... وأنفقنا كل شي، كان لابد من أن نعيش، وكنتُ لا أحسنُ عمل شيء ككلّ بنات الإقطاعيين، كنتُ أنا أردأهنّ، إذْ لم تكن لي أيةُ كفاءة. وهكذا استنفدنا جميع مواردنا، وقد حصلتُ على بعض المعارف وأنا أعلّم أولادي ثم مرض «ميتيا» واختاره الله إليه، وأغرمتْ «ماشا» بـ «فانيا» صهري. هو طيّب، لكنه يائس، مريض.

قاطعتها ابنتها:

ماما، خذي ميتا، لا أستطيع أن أشطر نفسي شطرين.

انتفضت براسكوفي ميكايلوفنا، وهبّتْ واقفة، وانتعلت حذاءها المتهرّئ الكعب وخرجت وعادت بعد لحظات، حاملةً بين ذراعيها طفلاً في الثانية علّق يديه الصغيرتين بخمارها لكي لا يقع إلى الخلف.

نعم. أين توقّفت؟... وكان لفانيا وضعٌ حسنٌ هنا، لكنه لم يستطيع أن يستمرّ، فتقاعَدَ.

ممّ يتألم؟

من الإنهاك العصبي، إنه مرضٌ فظيع. تشاورْنا، كان يحب أن

يسافر، لكن الوسائل أعوزتنا. وأنا أثق بشفائه حتى لو بقي هنا. إنه لا يحس بالآلام، لكنه...

صاح الصهرُ بصوتٍ ضعيف:

لوكيريا، أرسليه إليّ، أنا بحاجة إليه.

أجابت براسكوفي ميكايلوفنا:

- لحظة، لم يتناولْ غذاءه بعد، إنه لا يستطيع أن يتناول طعامه معنا.

خرجت وانهمكت في الخارج بعمل ما ثم عادت وهي تجفّف يديها المُشمّرتين والهزيلتين.

هكذا أعيش. نحن نشكو، نحن مستاؤون، لكن أحفادي والحمد لله في صحة حسنة وهم أقوياء، لطاف، وما يزال عندنا ما نعيش به. لكني لا أتكلّم إلا عن نفسي.

ومَّ تعيشين؟

إني أكسب شيئاً من المال. كانت الموسيقا تُضْجرني وهي نافعةٌ جداً لي في الوقت الحاضر.

وضعتْ يدها على صُوانٍ صغير كان بجنبها وأخذت تُنقّل أصابعها الضعيفة عليه وكأنها تمرّنها.

كم تطلبين بالدرس؟

قد أعطى روبلاً، في بعض الأحيان، أو خمسين كوبيكا، وثلاثين في أحيان أخرى. كل طلابي كرماء معي.

سأل كاساتسكي وفي عينيه ابتسامةٌ خفيفة:

وهل هم في تحسّنٍ؟

لم تَدْرِ «براسكوفي ميكايلوفنا» إن كان يجب أن تحمل سؤاله على محمل الجِدّ، فنظرت إليه نظرةً مُستفهمةً.

نعم، منهم مَنْ يتحسّن، عندي طالبةٌ فاتنةٌ، ابنةٌ لحام، بنتٌ طيّبةٌ، شهمةٌ... نعم، لو كنتُ امرأةً مقتدرة، لعثرتُ على مركزٍ لصهري، بفضل علاقات والدي. لكني لا أجيد عملَ شيء. ولذلك نحنُ في هذه الحالة.

سأل كاساتسكي وهو يُطرق رأسه:

نعم، نعم... وهل تقومين بواجباتكِ الدينية؟

آه! لا تَلمْني في ذلك، شيءٌ رهيب، فأنا أهملها إهمالاً شديداً! إني أذهب للاعتراف مع الأولاد، لكني قد أبقى شهراً في البيت دون أن أذهب إلى الكنيسة. لكني أرسل الأولاد إليها.

ولم لا تذهبين أنت نفسكِ؟

الحقيقة: (واحمرّت) أَستحي أمام بنتي وأحفادي أن أذهب إلى الكنيسة بثياب ممزقة، وليس لدي ثياب جديدة، ثم إني بكل بساطة، أتكاسل.

هل تصلّين في البيت؟

نعم، لكنْ أية صلوات! شيءٌ آلي. أعلم أنني لا يجب أن أصلي هكذا، لكني لا أملك الإيمان الحقيقي، الشيء الوحيد الواضح هو أنني أعرف حقارتي الحقيقة.

قال كاساتسكي بلهجة الموافقة:

نعم، نعم، هذا صحيح.

ردّت «باشنكا» على نداء من صهرها:

في الحال، في الحال.

وتركت الغرفة بعد أن وضعتْ خماراً على رأسها. طال هذه المرة غيابُها. وعندما عادت، كان «كاساتسكي» ما يزال جالساً في مكانه يطرق الرأس، ومرفقاه متّكئان على ركبتيه، لكنّ كيسيه كانا معلّقين في ظهره.

حملت قنديلا من الحديد، بدون كمّة. رفع كاساتسكي عليها عينيه البديعتين والمملوءتين بالتعب وتنّهد بعمق.

قالت بخجل:

لم أقلْ لهم مَنْ أنتَ، قلتُ لهم فقط إنك حاج نبيل وأنني كنت أعرفك. هيا إلى صالة الطعام لشرب الشاي.

لا...

إذن، سأحمل الشاي إلى هنا.

لا، لا يلزمني شيءٌ، ليحفظك الله، باشنكا أنا منصرفٌ. إن كنت تشفقين عليّ فلا تقولي لأحد إنك رأيتني. بجاه الله، أتوسّل إليك، لَا تقولي لأحد، شكراً أود أن أجثو عند قدميك، لكني أعلم أن ذلك يكدّركِ، شكراً. اعذريني محبةً بالمسيح.

باركني.

الله يباركِ، اعذريني، محبّة بالمسيح.

هم بالذهاب فاستوقفتْه، وحملتْ إليه خبزاً ولحم خروف وزبدة فأخذها، ثم انصرف.

كانت الظلمة حالكة، ولم يكدْ يخطو بضع خطوات حتى غاب عن بصرها. لكنها كانت تعلم أنه يبتعد لأنها سمعتْ كلب «بروتوبوبوف» يَعْوي.

«هكذا ما كان يعنيه حلمي حقاً: إن باشنكا هي مثلما كان ينبغي أن أكون ولم أكنْهُ، كنت أحيا للناس وأنا أَحسَبُ أنني أحيا لله. وهي تحيا لله وتتصوّر أنها تحيا للناس».

«نعم إن كأساً من الماء يُقدَّم دون أمل بالجزاء عملٌ صالحٌ أعلى من الحسنات التي قدّمتُها إلى الناس. لكنْ أليس فيّ أدنى رغب في خدمة الله؟» هكذا كان يتساءل كاساتسكي، وكان الجواب يأتي من ذاته: «كل ذلك كان فاسداً، مغموراً بالزهو، نعم، إن مَنْ يعيش لهذا الزهو البشري، كما عشتُ، لن يجد الله».

ومضى في طريقه، كما فعل حين قَصَدَ «باشنكا»، ذاهباً من قرية إلى قرية، وحيداً حيناً، ومُنضمّاً حيناً آخر إلى الحُجّاج والسائلين باسم المسيح ملجأً أو خبزاً. وكان يقع له أحياناً أن تطرده مضيفةٌ شريرةٌ، أو أن يسبّه فلاحٌ سكران، لكنه على العموم، كان يُعطى ما يأكله وما يشربه، بل قد كان يُعطى مؤناً للطريق، كان مظهره الارستقراطي يُهّيء بعضهم لمساعدته، وكان الآخرون سعداء وهم يرون إقطاعياً يتردّى في مهاوي الشقاء.

كانت دماثتُه المتواضعة تتغلّب على الجميع، وكان إذا وجد الإنجيل في بيت يمرُّ به، قرأه وكان الحضور يحسّون بالتأثير ويدهشون، كانوا

يصغون إليه وكأنهم يسمعون هذه القراءة للمرة الأولى. وإذا سنحت له الفرصةُ في أن يساعد الآخرين بنصائحه. أو برسائله، أو حين يصْلح بين الخصوم المتشاجرين، كان يفعل ذلك دون أن ينتظر الاعتراف بالجميل، لأنه كان ينصرف على الفور، وشيئاً فشيئاً أخذ الله يتجلّى له.

كان يسير ذات يوم بصحبة امرأتين عجوزين وجندي. أوقفتْهم جماعةٌ لتوِّها: كانت تتألف من إقطاعي وابنته وكل منهما على جواد، وفي عربة مقرونة بحصانين بديعين زوجةُ الإقطاعي وفرنسي مسافر من غير شك.

أوقفتْهم هذه الجماعة لكي يروا الفرنسيَّ الحجاج الذين يتنقلون، بموجب اعتقاد الشعب الروسي، من ناحية إلى ناحية بدلاً من أن يعملوا، كان أفراد الجماعة يتكلّمون الفرنسية، وهم واثقون أنْ لن يفهمهم أحدٌ.

قال الأجنبي:

اسألوهم إن كانوا على يقين من أن حجَّهم يُرضي الله

سُئل الحجاجُ، فأجاب العجوزان:

كما يشاء الله.

ولما سُئل الجنديُّ بدوره أجاب أنه وحده على الأرض وهو لا يعلم أين يذهب.

ثم سئل كاساتسكي منْ هو:

خادم لله.

ماذا يقول؟ لا يريد أن يجيب؟

يقول إنه خادم لله.

لابد أن هذا ابن كاهن إنه أصيل... أمعك نقود صغيرة؟

كان مع الفرنسي نقود، فأعطى كلَّ حاج أربعة فلوس، وسأل:

قل لهم أنني لا أعطيهم هذا المال ليشتروا شموعاً ما لكن لكي يستمتعوا بالشاي، الشاي الشاي لكم، يا صاحبي.

أضاف الجملة الأخيرة بابتسامة وهو يربت كتف كاساتسكي بيده المقفّزة.

أجاب هذا وهو يَحنْي رأسه العاري الأصلع:

لِيَحْمِكَ يسوع.

وأحسّ في نفسه برضى عظيم لأنه كان يحتقرُ الرأي العام، وبحركة مترفّعة، أخذ الفلوس الأربعة التي مُدّتْ إليه وأعطاها أحد رفاقه وكان أعمى. وكان كلما علّق قيمةً أقل على رأي الناس فيه، كان يحسّ بقوّةٍ أن الله كان فيه.

مشى كاساتسكي هكذا مدة ثماينة أشهر، وفي الشهر التاسع، بينما كان في مركز المقاطعة، قُبضَ عليه في الملجأ الذي كان يقضي الليل فيه مع حجّاج آخرين، وبما أنه لم يكن يحمل بطاقةً شخصيته، أُدْخل السجن. وعندما سُئل عن هويّته وأوراقه أجاب أنه لا يملك أوراقاً تثبت شخصيّة وأنه خادمٌ لله، واعتُبر متشرداً فحُكم ونُفي إلى سيبيريا.

استقر في ملكيّة فلاح ثري، وعاش فيها يقوم بأعمال البستنة لسيدة، ويعلّم الأولاد، ويُعنْى بالمرضى.

***

الحاج مراد

١٩٠٢

كنت عائداً إلى بيتي عَبْر الحقول. وكان ذلك في أواسط الصيف وقد حُشّت المروج، واستعد الناس لحصاد الشيلم.

كانت الأزهار تعْرضُ ضروباً عجيبةً من ألق الألوان: حقولٌ من النقل المغشّى بالزغب، الأحمر والأبيض والوردي يمتدّ على مدى البصر؛ الأقحوان «يحبّني، لا يحبّني»، بقلبه الأصفر الفاقع وبعطره الذكي الطيب؛ السَّلْجم الأصفر برائحة العسل؛ والجُريْسُ الخبازي والأبيض الشبيه بالخُزامى والذي يعلو الأزهار الأخرى؛ والبقل المُعرّش ذو العطر؛ وأزهار الجلبية الصفراء والحمراء والوردية؛ وآذان الجدي المخملية ذات الرائحة الذكية التي لا تكاد تُشَمّ؛ والترنشاه الرخص ذو الألوان الزرقاء الفاتحة في الشمس، والرمادية والمائلة إلى الحمرة في المساء، عند ساعة الذبول؛ والمحموديّة برائحة اللوز الناعمة، وهي زهور تذوي حالما تُقطَف.

كنت قد جمعت باقة ضخمة من الأزهار المختلفة الألوان، عندما شاهدتُ في مجرى ماء أرْقِطّيونةً في تمام إزهارها، من نوع يُسمى عندنا «تتار». وهي نبتةٌ تُخلّص منها الحقول بعناية، وإذا ما حصدت عَرَضاً،

فإنها تُرفع من الكلأ المحصود لكي لا تجرح أيدي الشغيلة. هبطتُ إلى المجرى، وطردتُ نحلةً طنانة كانت تنام في وسط الزهر، وأخذت أقتلعها. لكن ذلك كان صعباً جداً: لم تكن أغصانها الصغيرة تخزُ، وتخرق المنديل الذي غطّيت به يديّ فحسب، بل إن النبتة كانت أيضاً مقاومة جداً حتى إني اضطررتُ لمجاهدتها طوال خمس دقائق لكي انتزع جذورها تباعاً. وعندما توصلتُ أخيراً إلى اقتلاعها بكاملها، كان ساقها ممزقاً تماماً. ولم تكن الزهرة جميلةً وغضة إلى حد كبير، وكان تمازج ألوانها الخالي من النعومة يدمّر تناسق باقتي. وأسفت لأنني أتلفتُ بلا جدوى هذه الزهرة التي كانت جميلة جداً في الحقل، ورميتها.

فكرتُ وأنا أتذكّر مجهودي لاقتلاعها: «يا لها من قوة، ويا لها من حيوية خارقتين للعادة! وبأية قوة دافعت عن ذاتها، وما أغلى الثمن الذي باعت به حياتها!».

كانت الطريق الذاهبة إلى البيت تجتاز حقلاً حُرثتْ حديثاً أرضُه المائلة السواد: كنتُ أتسكع على طول الطريق المغبر. وكان هذا الحقل الواسع ملكاً لإقطاعي.

كان حقلاً مترامي الأطراف حتى إني حين كنت أنظر إلى جانبي، وأمامي نحو الجبال لم أكن ألمح سوى الأراضي المستريحة السوداء والمستوية. وكانت الحراثة متقنة فلا يُرى في الحقل عشب أو نبتٌ، كان كل شيء أسود.

«آه! إن الإنسان لكائن مدمر حقاً! وكم من الحيوانات والنباتات يضحّي بها من أجل وجوده؟». فكّرت في ذلك وأنا أبحث بالرغم مني عن شيء حي على هذه المساحة القاتمة والكئيبة.

أمامي، إلى يمين الطريق، كانت تنتصب شجيرة صغيرة. وعندما دنوتُ منها عرفت أنها «تتار» أخرى، شبيهة بالتي اقتلعتها من غير فائدة، ورميتها، وكان لهذه ثلاثة أفنان صغيرة ناشئة. وكان أحد الأفنان المكسورة معلّقاً مثل يدٍ مقطوعة، وكان كل من الآخرين يحمل زهرة كانت حمراء وغدت سوداء. وظل فنن آخر مكسور معلّقاً، وفي طرفه زهرة ملوّنة. وكان الثالث مقطوعاً أيضاً وملطّخاً بالتراب، إلا أنه ظل منتصباً، ومن الجليّ أن هذه النبتة قد سحقتها عجلةُ عربة لكنها عادت إلى انتصابها. مالت إلى جنبها لكنها ظلّت واقفة، مثل محارب انتزعت منه مزقةٌ من جسده، وانقلبت أحشاؤه، وقطعت ذراعه، وبقرت عيناه. لم تشأ أن تخضع للإنسان، الإنسان الذي يدمّر أخواتها من حولها.

فكرت: «يا لها من شجاعة! الإنسان يخضع كل شيء، يستأصل ملايين الأعشاب، لكن هذه تظل تقاوم».

إني أتذكر قصة قوقازية قديمة. وقد عشت جزءاً منها، وروى لي شهودُ عيان جزءاً آخر، أما الباقي فقد تخيلتُه أنا نفسي. هذه القصة التي تُبْعثُ في ذاكرتي وخيالي هي التالية:

– ١ –

كان ذلك في سنة ١٨٥١. كان الحاج مراد عائداً إلى قريته التشينشينية من «ماشنت»، وكانت غارقة في دخان الجلّة[١]. كانت القرية في حالة استنفار: ذلك أن الجيوش الروسية كانت على عشرين كيلومتراً منها.

---

١ – الجلة: بالفرنسية Argo، وبالتترية «كيزياك»، هي فضلات الحيوانات المجففة التي تستعمل وقوداً في القوقاز.

توقّف أذانُ المؤذن الشجي؛ وفي هواء الجبال النقي، المشبع برائحة الجلّة، كانت تُسمع بجلاء، بين خوار البقر وثُغاء الخراف المتفرّقة في البيوت، اللابدة بعضها بجنب بعض مثل تخاريب النحل، أصواتُ الرجال الحَلقيّة، وهم يتناقشون وأصوات النساء والأطفال وراء العين. ما كان الحاج مراد، أحد ملازمي شامل، المشهور بمآثره، ليخرج قديماً، دون أن يحمل رايته ودون أن يصحبه نحو عشر رجال من الحرس الخاص يثبون على خيولهم من حوله. أما في هذه اللحظة فكان يسير بصحبة فارس واحد، متدثّراً بمعطف من الصوف، مغطياً رأسه بعصابة. وغدّارتُه تحت معطفه؛ كان يتحاشى أن يلحظه المارة ويحدّق في كل من يلقاه بعينيه السوداوين والحادتين.

ما إن وصل الحاج مراد إلى وسط القرية حتى ترك الشارع الرئيسي المؤدي إلى الساحة الكبرى، ودلَف إلى زقاق فرعي، وتوقّف أمام بيت صغير محفور في الهضبة ونظر حواليه. لم يكن تحت الطنف أحد. وكان رجل متدثّر بمعطف من جلد الخروف ينام على السطح، بجنب مدخنة مدهونة بالغضار الرطب. لمسه الحاج مراد بمقبض سوطه وصفقَ بلسانه. نهض الشيخ الذي كان يضع على رأسه قلنسوة الليل، ويرتدي صدارة ممزقة، كانت عيناه بلا رموش، حمراوين ورطبتين ولازقتين، وكان يحرّك جفنيه باستمرار وكأنه يحاول فتحهما. ألقى الحاج مراد التحية التقليدية: «السلام عليكم»، وكشف عن وجهه.

أجاب الشيخ وقد تعرّف الحاج مراد:

- وعليكم السلام.

وابتسم له بفمه الأدرد.

وقف على ساقيه الضعيفتين وانتعل حذاءً كعبُ من الخشب، كان بجنبه، وارتدى معطفه الذي من جلد الخروف، وكان مثقوباً ومقشراً، ثم نزل السلم المستند إلى السطح، دون أن يستعجل، وظهره إلى الأمام وطوال الوقت الذي قضاه في لبسه ونزوله، كان يهز رأسه فوق عنقه الهزيلة، المجعّدة، السمراء، ويُزأزئُ بفكه الأدرد. فلما بلغ الأرض، أمسك بجواد ضيفه من لجامه وركابه، لكن مرافق الحاج مراد ترجّل بسرعة ونحّاه وأخذ مكانه.

نزل ملازم شامل عن جواده، ومضى وهو يعرج ليجلس تحت الطنف. فُتح الباب، وخرج من البيت فتى في الخامسة عشرة؛ حدّق في القادمين بعينيه السوداوين مثل كشمشتين ناضجتين، لامعتين ومدهوشتين. أمره الشيخ:

- اجرِ إلى المسجد وأحضرْ أباك بسرعة.

ثم تقدّم الحاج مراد وفتح الباب الخفيف الذي صرّ. في اللحظة التي كان الحاجُ مراد يَعبُر فيها العتبة دخلت الغرفة من باب داخلي امرأة في سن الكهولة، طويلة هزيلة ترتدي بُلوزة صفراء، وسترة حمراء، وسروالاً أزرق؛ كانت تحمل الوسائد.

قالت وهي تنحني:

- ليكن قدومك سعيداً.

وأخذت تنضّد الوسائد بقرب الجدار الذي سيجلس فيه الضيف.

أجاب الحاج مراد:

- مدّ الله في عمر أولادك.

وخلع معطفه الصوفي، ونزع غدارته وسيفه وسلّمهما إلى الشيخ الذي علّقهما بالمسامير إلى جانب سلاح رب البيت، بين دَسْتين من النحاس كان يلمعان على الحائط الذي كلّس حديثاً، رد الحاج مراد مسدسه إلى الوراء. ودنا من الوسائد المفروشة، ورد أطراف جبّته الطويلة وجلس.

قرفص الشيخ بجنبه، وأغمض عينيه. ثم رفع يديه وراحتيهما إلى الأعلى، فعل الحاج مراد مثله. ثم بعد أن قرأ الفاتحة، مَسَحا بالأيدي وجهيهما وضَماها عند طرف اللحية.

سأل الحاج مراد:

- ما الخبر؟

أجاب الشيخ وهو يحدق بعينيه الحمراوين الحرينتين في صدر الحاج مراد، لا في وجهه.

- لا جديد.

- إني أسكن قرب المناحل. وقد وصلتُ قبل قليل لأرى ابني، إنه يعلم.

أدرك الحاج مراد أن الشيخ لا يريد أن يقول ما كان يعرفه وما كان يرغب هو نفسه في معرفته. أطرق رأسه قليلاً ولم يطرح بعد ذلك أسئلته.

استأنف الشيخ:

- لا جديد ولا ما يثير الاهتمام. الجديد هو أن الأرانب تتشاور

لتعثر على وسيلة تطرد بها النسور. والنسور تفترس هذه مرةً، وتلك مرةً أخرى. وفي الأسبوع الماضي، أحرقت كلاب الروسي كلأ ميتشيتسكي.

وأضاف الشيخ بشراسة:

- لتُصبح وجوههم طُعمةً للطير!

دخل رفيق الحاج مراد وهو يضع برفق، قدميه الكبيرتين والقويتين في الغرفة؛ وخلع معطفه الصوفي، مثل رئيسه، ومثلهُ نزع سيفه وغدارته، ولم يُبق معه سوى مسدّسه وخنجره. وعلق هو نفسه سلاحه بالمسامير التي عُلِّقت بها سلاح الحاج مراد.

سأل الشيخ الحاج مراد وهو يشير إلى القادم الجديد:

- مَنْ هذا؟

- اسمه ايلدار. وهو مُريدي[٢].

قال الشيخ:

- حسنٌ.

وأشار إلى موضع على الأريكة قرب الحاج مراد.

جلس ايلدار مصالباً ساقيه دون أن ينبس بكلمة. وحدّق بعينيه الجميلتين والوديعتين جداً في وجه الشيخ. وكان هذا الأخير يروي أن رجالاً جبليين شجعاناً قبضوا على جنديين، في الأسبوع الماضي؛

---

٢ - مريدي: بالتترية حارسي الخاص.

وقد قُتل أحدهما واقتيد الآخر إلى شاملِ في «فيدنيو». كان الحاج مراد يستمع وهو شارد اللب، ناظراً بلاَ انقطاع إلى الباب، متنبّهاً إلى الأصوات الآتية من الخارج. وتحت الطنف. أمام البيت، سُمعتْ خطوات، وصر الباب ودخل رب البيت.

كان يُدعى سعدو وكان عمره أربعين عاماً؛ كانت له لحيةً صغيرة، وأنفٌ طويل، وعينان سوداوان ولامعتان مثل عيني ابنه الذي في الخامسة عشرة والذي أُرسل إليه وعاد معه. جلس الفتى أمام الباب. ترك الأب حذاءه في العتبة، وردّ قلنسوته البالية إلى قذاله الذي لم يُحلق منذ زمن بعيد والذي كان مغطّى بالشعر الأسود، وجلس بإزاء الحاج مراد. وكما فعل الشيخ، أغمض سعدو عينيه، ورفع يديه وراحتيهما إلى الأعلى، وتلا الفاتحة، ثم أمرّ يديه على وجهه، وبعد ذلك أخذ يتكلّم. وروى أن شامل أمر بإحضار الحاج مراد إليه ميتاً أو حياً؛ وقد ترك أنصاره القرية عشية البارحة، وخاف الأهالي انتهاك أمرٍ آتٍ منه، ونصح بالحذر الشديد. وأضاف سعدو:

– لن يصاب ضيفي بأذى، في بيتي، ما دمتُ حياً. أما خارج البيت فلابد من التفكير في ذلك.

كان الحاج مراد يُصغي بانتباه شديد ويحني رأسه دلالةً على الموافقة. وعندما انتهى سعدو من كلامه، قال:

– طيّب، يجب أن نرسل الآن رسولاً إلى الروس. سيذهب مرافقي. لكن لابد له من دليل.

وقال سعدو:

– سأرسل أخي «باتا».

وأمر ابنه:

- اذهب وناده.

وثب الفتى على ساقيه الرشيقتين والسريعتين، وكأنه يتحرّك بنابض، وخرج من البيت وهو يخطر بذراعيه. وبعد عشر دقائق، عاد بصحبه رجل تشيتشيني أسمر، بارز العضلات، قصير الساقين، يرتدي جبّة طويلة صفراء، بالية، ممزقة الكمين؛ وكان ينتعل جزمة رخوة الساق. بادله الحاج مراد السلام التقليدي، وأعرض عن لغو الكلام. وقال:

- أتستطيع أن تقود مرافقي إلى الروس؟

أجاب باتا:

- أستطيع. كل شيء ممكن. لا يمكن لتشيتشيني سواي أن يمر. ولو حاول غيري فلن يستطيع أن يفي بوعده، وإن وعد. قال الحاج مراد:

- حسن جداً. وستنال ثلاثة جزاء أتعابك.

وأراه ثلاث أصابع.

حنى «باتا» رأسه وكأنه يزيد أن يقول إنه فهم قصده، لكنه أردف أن المال لا يهمه وأنه مستعد أن يخدم الحاج مراد بشرف؛ فالجبل كله يعلم أي ضربات يُنزلها بالخنازير الروس.

قال الحاج مراد:

- طيب، إن قيمة الحبل تزيد كلما طال الحبل أما قيمة الحديث فتزيد كلما قصر الحديث.

قال باتا:

- طيب، سأسكت.

- في الموضع الذي ينعطف فيه النهر، في مقابل حافته كوسان. أترى؟

- نعم، عرفت.

قال الحاج مراد:

- ثلاثة من رجالي ينتظرونني هناك.

قال باتا هازاً رأسه:

- فهمت!

- اسأل «خان ماغوم»، وهو يعلم ما يجب فعله وقوله. يجب أن توصله إلى القائد الروسي، الأمير فورونتزوف[٣]، أتستطيع ذلك؟

- نعم.

- أوصلهُ وُعد إلى الغابة. سأكون هناك.

قال «باتا».

- سأفعل ذلك كله.

نهض ووضع يده على قلبه وخرج.

قال الحاج مراد لسعدو عندما خرج باتا:

---

٣ - الأمير فورونتزوف: الكونت ميشيل فورونتزوف (والأمير من١ ١٨٤٥)، نائب ملك القوقاز من ١٨٤٥ إلى ١٨٥٤.

- يجب أن نُرسل أيضاً رجلاً لشيخي.

بدأ كلامه وهو يلمس بيده جعبة جبّته:

- إليك ما يجب فعلَه هناك...

لكنه أسبل يده وصمت حين رأى امرأتين تدخلان البيت. كانت إحداهما امرأة سعدو، وهي نفسها تلك المرأة الهزيلة التي رتّبت الوسائد. وكانت الأخرى امرأة فتية ترتدي سترة خضراء وسروالاً أحمر؛ وكان صدرها مغطى بنسيج مزدان بقطع ذهبية، وفي أطراف ضفائرها الطويلة، الكثيفة، السوداء والمتراصة التي كانت تتدلى بين كتفيها الهزيلتين، عُلِّقت روبلات فضية. وكانت عيناها السوداوان واللامعتان مثل كشمشتين ناضجتين، واللتان هما كعيني أبيها وأخيها، تلتمعان بفرح في وجه يحاول عبثاً أن يبدو صارماً. لم تكن تنظر إلى الضيفين لكن من الجليّ أنها كانت تحس بحضورهما. حملت ربة البيت طاولة مدورة صغيرة كان عليها شاي وفطائر بالزبدة وجبن وعسل وحلوى الذرة، وكانت الفتاة تحمل إبريقاً بعروة ووعاء فيه ماء ومنشفة.

لزم سعدو والحاج مراد الصمت طوال الزمن الذي كانت المرأتان تتحركان فيه بلا ضجة بحذاءيهما الخفيفين الجلديين الأحمرين اللذين لا كعب لهما، وترتّبان الأشياء المحمولة أمام الضيفين.

ظل إيلدار الذي كان يُحد النظر في ساقيه المتصالبتين جامداً كالتمثال مدة بقاء المرأتين هنا. وعندما خرجتا وانطفأ وقع الخطوات الخفيفة خلف الباب، تنهد كمن تخفّف من الألم. حينئذ سحب الحاج مراد من جبّته خرطوشة فألقى برصاصتها وأخرج من ظرفها ورقةً ملفوفة.

قال لسعدو وهو يمدّ إليه الورقة:

- أعط هذه لابنك.

سأل سعدو:

- والجواب لمن؟

- لك أنت، ثم تحمله أنت إلي.

أجاب سعدو:

- سأفعل ذلك.

وضع الورقة في جعبة خرطوشه. ثم أخذ الإبريق ووضع الطشت أمام الحاج مراد الذي شمّر كميه إلى ما فوق معصميه الأبيضين العاضلين، وصبّ عليهما الماء البارد، الصافي. وبعد أن نشّف الحاج مراد يديه بمنشفة نظيفة شرع يأكل. وفعل «إيلدار» مثله. وبينما كان الضيفان يجددان بالطعام قواهما، ظل سعدو في مواجهتهما، وقد شكرهما أكثر من مرة لزيارتهما. وكان الفتى الجالس قرب الباب يحدق بعينيه السوداوين اللامعتين في الحاج مراد، ويبتسم كأنه يوافق على كلمات أبيه.

مع أن الحاج مراد لم يأكل شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة، إلا أنه لم يتناول سوى القليل من الخبز والجبن، ثم إنه أخرج سكينه الصغير من غلافه، خلف غمد خنجره، ومد على الخبز قليلاً من العسل.

قال الشيخ وقد سُرّ كثيراً لأن الحاج مراد أكل من عسله:

- عسلنا لذيذ. وقد كان وافراً هذا العام، وكان أفضل عسلٍ منذ سنوات عديدة.

قال الضيف بعد أن جدد قواه:

- شكراً.

كان «إيلدار» ما يزال جائعاً، لكنه فعل مثل قائده، فابتعد عن المائدة، وتناول الإبريق ووعاء الماء وحملهما إلى الحاج مراد.

كان سعدو يعلم أنه يُعرّض حياته للخطر باستضافته للحاج مراد. فمنذ النقاشات التي حدثت بين شامل والحاج مراد، حرّم شامل على الشعب، تحت طائلة الإعدام، إيواء عدوه. وكان سعدو نفسه يعلم أيضاً أن أهالي القرية يمكن أن يعلموا، في كل لحظة، بوجود الحاج مراد في بيته، وأن يطلبوا تسليمه. لكن ذلك لم يكن يخيفه، على العكس، كان مبتهجاً بذلك. كان يعتبر أن من واجبه الدفاع عن ضيفه حتى لو كان ذلك سيكلّفه حياته، وكان مسروراً بأنه يتصرف كما ينبغي له أن يتصرّف.

وكان يردد للحاج مراد:

- مادمت في بيتي، ومادام رأسي فوق كتفي فلن يمسّك أحد. اقتنع الحاج مراد بصدق سعدو ونظر إلى عينيه اللامعتين، وقال برصانة:

- لتطل حياتك وليكثر فرحك.

وضع سعدو بصمت يده على قلبه، دليلاً على امتنانه لهذا الدعاء.

ثم أغلق المصاريع، وأضاف أغصاناً يابسة إلى ما في المدفأة، وخرج من الغرفة التي كان فيها ضيفاه. لم تكن النساء قد نامت بعد. وكن يتكلّمن عن الزائرين الخطرين اللذين سيقضيان الليل عندهما.

أثناء هذه الليلة نفسها، وعلى عشرين كيلومتراً من القرية التي كان ينام فيها الحاج مراد، كان ضابط صف وثلاثة جنود يغادرون قلعة «فوزد فيجتسكايا» من باب «شاه غيرين». وكان الجنود مرتدين ستراً مبطنة بالفرو، وقد اعتمروا بقلانس من الفرو أيضاً. كانوا يحملون معاطفهم العسكرية ملفوفة على ظهورهم، وكانت جزمة الواحد منهم تعلو إلى ما فوق الركبة؛ هكذا كان يُجهّز الجنود الروس في القوقاز. سار هؤلاء الجنود نحو ثلاثمائة متر من الطريق، وبنادقهم على أكتافهم، ثم انعطفوا إلى اليمين، واجتازوا حقلاً أخذت أوراقه الجافة تتقصف تحت أقدامهم. وقفوا أخيراً قرب شجرة دلب مقطوعة ميّزوا غصناً منها في الليل. هنا كان الراصدون يتلاقون عادة.

كانت النجوم التي خيّلت للجنود السائرين أنها تتبعهم من قمة إلى قمة، قد تجمّدت هي أيضاً، وكانت أشعتها المضيئة تتسرب عبر الأغصان الجرداء.

قال ضابط الصف «بانوف» بجفافٍ، وهو يسند بندقيته التي رُكِّبت حربتُها إلى الشجرة:

- شكراً.

وفعل الجنود الثلاثة مثلما فعل.

دمدم بانوف:

- نعم، وهو كذلك، لقد أضعته أو نسيته أو لعله سقط من جيبي على الطريق.

سأله أحد الجنود بصوت رجولي ومرح:

- عمّ تبحث...

- غليوني، الشيطان يعلم أين أضعته.

استأنف الصوت ذاته:

- وهل القضية سليمة؟

- ها هي ذي.

- إذن علي بالتراب رأساً!

- وكيف ذلك؟

- سيتمّ ذلك بسرعة.

كان محظوراً على الحرس أن يدخّنوا، لكن هذا المكان كان مركزاً للرصد يُوضَع فيه رجال مهمتهم منع الجبليين من التسلل ومهاجمة القلعة مفاجأة، كما فعلوا ذلك كثيراً من قبل.

لهذا السبب لم يكن «بانوف» يرى من الضروري أن يحرم نفسه لذة التدخين وقبل اقتراح جنديه المرح.

أخرج الجندي مدية من جيبه، وثقب ثقباً صغيراً في الأرض، وركّب القصبة في الثقب. ووضع فيه تبغاً وحشاه، وكان الغليون جاهزاً. أشعله، وأضاءت النار فجأة وجه الجندي ذا الوجنتين البارزتين، وكان منبطحاً على بطنه. أصدرت القصبة صفيراً خفيفاً وشم «بانوف» الرائحة اللذيذة للتبغ المحترق.

سأل وهو ينهض:

- هل هو جاهز؟

- طبعاً.

- مرحى لك، «آفدييف»، أيها الساحر الصغير.

- أرأيت؟

استلقى «آفدييف» على ظهره، ونفث الدخان من فمه، ثم أخلى المكان لـ «بانوف».

انبطح هذا على بطنه، وبعد أن مسح القصبة بكمّه، دخّن بدوره.

اخذ الجنود بعد ذلك يثرثرون. قال أحدهم:

- يُقال إن آمر الفوج يغترف المال من الصندوق، وقد خسر في القمار.

قال بانوف:

- سيدفع.

فوافقه «آفدييف»:

- طبعاً، فهو ضابط حسن.

قال الجندي الذي بدأ الحديث، بشراسة:

- نعم، نعم، وبرأيي أن الكتيبة يجب أن تقول له: بما أنك أخذت هذا المال، قل على الأقل، كم أخذتَ، ومتى ستردّه.

قال بانوف وقد توقّف عن التدخين:

- نعم، وستكون الأمور بحسب ما يُقرّر الفوج.

أضاف «أفدييف»:

- من المؤكد أن الآمر رجل له قيمته.

فأصرّ الجندي المستاء:

- لابد مع ذلك من شراء العلف وإصلاح الأحذية للشتاء، ولابد لذلك من المال الكثير، فإذا كان قد أخذ المال...

ختم «بانوف» الكلام:

- قلت لك إن الأمور ستجري كما يُريد الفوج. ليست هذه أول مرة يقع فيها ذلك. وسيرد ما أخذه.

في هذه الحقبة، في القوقاز، كان كل فوج يُدير شؤونه الإدارية التي ينظّمها رجال اختيروا لهذه الغاية. وكان يقبض من الخزينة ستة روبلات وخمسين كوبيكاً عن كل رجل ويقوم بتموين نفسه بنفسه، فيزرع الملفوف، ويَحشّ الكلأ، ويملك العربات والخيول الفارهة. وكانت أموال الفوج في صندوق يحتفظ الآمر بمفاتيحه. وكثيراً ما كان يفترض من الصندوق؛ وقد فعل ذلك قبل حين، وعن ذلك كان يتحدث الجنود. كان الجندي الشرس بنكيتين يود لو أن الفوج أجبر آمره أن يرد الحسابات مباشرة، بينما كان «بانوف» و«آفدييف» يريان أنه لا يجب الوصول إلى هذا الأسلوب بهذه السرعة. دخّن «بنكيتين» بعد «بانوف»، ثم جلس على معطفه، وأسند ظهره إلى الشجرة. وصمت الجنود. ولم تكن تُسمع سوى الريح التي تهز رؤوس الأشجار، فوق رؤوسهم. وفجأة، سُمعت، في الصمت، صرخات بنات آوى، وضباحها وبكاؤها وضحكها.

قال «آفدييف»:

- اصغ إلى هذه الحيوانات الملعونة، لقد بُحّت من الصراخ.

همس الجندي الرابع الذي هو من أصل أوكراني، بصوت نحيف:

- إنها تهزأ منك، لأن فمك أعوج.

ومرة أخرى، هدأ كل شيء؛ الريح وحدها ظلت تهزّ الأغصان التي كانت تخفي النجوم تارة، وتكشف عنها تارة أخرى.

سأل آفدييف المرح «بانوف» فجأة:

- وأنت، «آنتونيتش»، أتحزن أحياناً؟

فاستفهم «بانوف» بلا مبالاة:

- كيف هذا، أحزن؟

- أنا أحزن أحياناً، أحزن كثيراً حتى إني لا أعرف ماذا أصنع بنفسي.

قال «بانوف»:

- غريب!

- في ذات يوم غير بعيد، شربتُ بكل ما معي من مال، وذلك لأنني كنت حزيناً، بهظني الحزن، ففكرت! «سوف أسكر، سيُخفف ذلك من حزني».

- لكن الحزن يريد أحياناً عندما نشرب.

- هذا ما حدث. ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك.

- ما الذي أحزنك؟

- كان ذلك بسبب البيت.

- ماذا؟ أكنتم تعيشون عيشة الأغنياء؟

- لا لأننا كنا أغنياء، لكن لم يكن ينقصنا شيء. كنا نعيش عيشة هانئة.

وقص «آدييف» مرة أخرى ما سمعه بانوف كثيراً.

- ذهبت إلى الجيش متطوّعاً، بدلاً من أخي. كان له خمسة أولاد، وكنت حديث العهد بالزواج. طلبت أمي مني ذلك. وفكرتُ: «ماذا يضيرني من ذلك. وسيُقرّون بفضل هذه البادرة، كنت عند السيد الإقطاعي، كان رحيماً جداً، وقال لي إنني فتى شهم، وتركني أذهب. وهكذا صرتُ جندياً بدلاً من أخي.

لاحظ بانوف:

- لكن هذا شيء حسن.

- صدّقني، يا آنتونيتش، أنني حزين الآن، وأنا حزين لأنني ذهبت مكان أخي. هو يعيش الآن كالملك، بينما أتألم أنا. وكلما فكرت في ذلك ازددت إحساساً بالشقاء. لعلي أدفع ثمن أخطائي.

صمت آدفييف. وسأل:

- ليتنا نشعل غليوناً آخر.

- لابأس، هيء مايلزم.

لكن لم يتسنَّ للجنود أن يدخّنوا. كان آدفييف قد نهض ليركّب القصبة في الثقب، عندما سُمعت، في حفيف الريح، خطوات خفيفة

على الطريق. أمسك «بانوف» ببندقيته. وصدم بقدمه نيكيتين الذي نهض وتناول معطفه. ووقف «بوندارنكو» أيضاً.

بدأ يقول:

- أتعرفون، يا أصحاب، أي حلم حلمت؟...

لكن «آدفييف» قَرَصه فخيم الصمت، أخذ يشتد وقع الخطوات الصامتة التي يخطوها رجال من المؤكد أنهم لم يكونوا ينتعلون أحذية روسية ثقيلة. وغدا تقصّف الأوراق والأغصان الجافة التي تُداس أشد وضوحاً. ثم سُمع همس حديث يجري بلغة «التشيتشين» الحلقية.

الآن، لم يعد الجنود يسمعون فقط، بل إنهم استطاعوا أن يميّزوا شبحين ينسلان بين الأشجار. كان أحد الشبحين أصغر من الآخر. وعندما وصلا إلى مستوى الجنود، نهض بانوف، وبندقيته بيده، ورفاقه يتبعونه واعترض الطريق، وصاح:

- مَن القادم؟

أجاب أصغر الشبحين، وكان «باتا».

- «تشيتشين»، سلام:

وأضاف وهو يحبس نفسه:

- لا بندقية معنا ولا سيف. نريد مقابلة الأمير.

لم يقل أكبر الشبحين شيئاً وظل جامداً بجنب رفيقه. وهو لم يكن معه سلاح أيضاً.

أوضح «بانوف» لرفاقه:

- هذا يعني أنهما يرغبان في مقابلة العقيد.

- الأمير فورونتزوف. نريد الأمير فورونتزوف. قضية خطيرة. لابد من الأمير.

- طيب، طيب، سنقودكما إليه.

قال «بانوف» ذلك، وأمر «آفدييف» و«بوندارنكو»:

- خذاهما إلى الحرس، وعودا في الحال. كونا حذرين، مشّوهما قدّامكما.

فتفاخر «آفدييف» وهو يشير إلى بندقيته، ويقلّد حركة إطلاق النار:

- وهذه؟ أضغط على الزناد مرة واحدة فأسحقهما سحقاً.

قال بوندارنكو:

- ما نفعهما إذا قتلتهما.

- إلى الأمام، سر!

وعندما تلاشت خطوات الجنديين والرسولين، عاد بانوف ونيكيتين إلى مكانهما.

قال نيكيتين:

- لَمَ، يا تُرى، يأتيان، في الليل؟

أجاب «بانوف».

- ربما كان لابد من ذلك! بدأ الجو يبرد.

قال ذلك، وبسط معطفه الملفوف وارتداه وجلس قرب الشجرة.

عاد «آفدييف» وبوندارنكو، بعد ساعتين.

- ماذا، هل سلّماهما؟

- نعم، و لم يكن الآمر نائماً، فاقتيدا رأساً إليه... كم هما جميلان، هذان الفتيان الجسوران. لقد كلّمتهما، قسماً بالله.

قال نيكيتين مستنكراً:

- آه، نعلم ذلك، فأنت ثرثار.

- كأنهما من عندنا حقاً. أحدهما متزوج.

سألته:

- «امرأة، ألك امرأة؟ قال: لي. «وأولاد، ألك أولاد؟».

قال: لي. «ولدان؟ قال: ولدان».

تكلمنا كثيراً، إنهما فتيان طيبان.

قال نيكيتين:

- تظن أنهما طيّبان؟ جرّبْ أن تلقاهما وحدك؛ سينتزعان أحشاءك.

قال بانوف:

- عمّا قريب يطلع الفجر.

أضاف «آفدييف» وهو يجلس:

- نعم، أخذت النجومُ تبهتُ.

وصمت الجنود.

لم يكن يتسرب الضوءُ من ثكنات الجنود ومساكنهم. نوافذ أجمل بيوت القلعة التي كان يسكنها ابن القائد العام، المرافق العسكري وقائد فوج «كورا» [٤]، الأمير سيميون ميكايلوفتش فورونتزوف[٥]، كانت وحدها منورة. كان الأمير سيميون وزوجته ماري فاسيلفنا، وهي إحدى جميلات بطرسبرج الشهيرات، يعيشان في هذه القلعة القوقازية الصغيرة بأبهة غير معهودة بعد في هذه المنطقة. وكان فورونتزوف وزوجته بخاصة مقتنعين مع ذلك أنهما بعيشان حياةً متواضعة فيها الكثيرُ من الحرمان. لكن جميع أهالي المكان قد بهرهم ذلك الترفُ الذي أظهره الزوجان.

كان الوقت منتصف الليل. كان الأميران وضيوفهما في الصالون المؤثث بفخامة، بالسجاد، والطافس الجدارية، مجتمعين حول طاولة تضيئها شموعٌ أربع، يلعبون بالورق.

كان أحد اللاعبين ربّ البيت بذاته، كان وجُهه بيضوياً، وشعره أشقر، وكان يرتدي بزّة المرافق العسكري التي تزينّها المقصبات والبنود. وكان في مقابلته، مرشّحٌ لجامعة بطرسبرج، وقد وصل حديثاً بناءً على طلب الأميرة ليكون أستاذاً معيداً لابنها الذي جاءها من زواج سابق، وهو شاب حزينٌ وسقيم. وكان خصماهما ضابطين، احدهما «بولتورانسكي» وهو ذو وجه مدوّر وقرمزي، وكان ضابطاً

---

٤ - كانت الكتيبة تعسكر في القوقاز الشمالي.

٥ - سيميون فورنتزوف هو الابن الوحيد لنائب الملك. كان عقيداً في سنة ١٨٥١. وانتخب فيما بعد عمدة لمدينة اوديسا (١٨٦٤ - ١٨٧٦) تزوج الأميرة «تروبتزكوي».

في الحرس، وهو الآن عقيد؛ والآخر هو مساعد الفوج، وكان وجهه منسجماً لكنه قليل التعبير.

كانت الأميرة «ماري فاسيلييفنا» طويلة، واسعة العينين؛ سوداء الشعر، جالسةً قرب بولتورانسكي؛ كانت تمسّ بتنورتها ساقيه وتنظر في ورقة. كانت كلماتها ونظراتها وبسماتها، وكل حركة من حركات جسدها، وعطرها، كان كل ذلك يحمل «بولتورانسكي» على نسيان كل شيء، سوى أنها بقربه، وكان يُراكم أخطاءه، ويثير أكثر فأكثر عصبية شريكه في اللعب.

هتف المساعد وقد احمّر من الغيظ، عندما رمى بولتورانسكي بآسه:

- لا، هذا غير ممكن، لقد احتفظ بآسه مرةً أخرى.

أخذ الضابط يُحدق في المساعد، نظرته الملأى بالرقة، وكأنه خارجٌ من حلم، ودون أن يفهم سبب غضب المساعد.

قالت ماري فاسيلييفنا وهي تبتسم:

- هيّا، سامحه.

وأضافتْ مخاطبةً بولتورانسكي:

- أترى، لقد أنذرتُكَ.

فأجاب هذا:

- لكنك قلت لي شيئاً مختلفاً كلَّ الاختلاف.

- حقاً؟

وابتسمت من جديد.

أفرحت هذه الابتسامة بولتورانسكي حتى لقد احمرّ؛ وتناول الورق فأخذ يخلطه.

لاحظ المساعد بسخطٍ:

- ليس الدور دورك.

ووزّع بيده البيضاء التي لمع فيها خاتمٌ، الورقَ بعجلة، وكأنه بريد أن يترك هذه الجماعة بأسرع ما يمكن. دخل خادمٌ الصالون وأنبأ الأمير أن الحرس يطلبه.

قال الأمير بالروسية وبنبرة انكليزية:

- المعذرة، يا سادة. ماري، العبي مكاني.

سألت الأميرة وقد انتصبت على طولها بكل رشاقة، ناشرةٌ حفيف حرير فستانها، وضاحكةً ضحكة مشرقة لامرأة سعيدة:

- أأنتم موافقون؟

أجاب المساعد وقد سُرّ بأن تكون الأميرةُ خصماً وهي تجهل كل شيء في اللعب:

- أوافق دائماً وعلى كل شيء.

فرّج بولتورانسكي بين ذراعيه وابتسم. كادت الجولةُ تنتهي عندما عاد الأميرُ إلى الصالون، وقال:

- أتعرفون ما أقترحه عليكم؟

- ماذا؟

- أن نشرب الشمبانيا.

أجاب بولتورانسكي:

- أنا دائماً موافق.

فزاد المساعد:

- نعم. وسيكون ذلك ممتعاً جداً.

أمر الأمير:

- فاسيلي، قُم بالخدمة.

سألته ماري فاسيلييفنا:

- لماذا نادوك؟

- كان حارس الليل ومعه رجل.

فأردفت الأميرة بحيوية:

- ومن هو؟

أجاب زوجها وهو يهزّ كتفيه:

- لا أستطيع أن أقول مَنْ.

فقالت الأميرةُ أيضاً:

- لا تستطيع أن تقول، حسناً! سنرى!

قُدِّمت الشمبانيا. شرب كلٌّ واحد كأساً. توقّف اللعب، وصُفيّت الحسابات، وهمّ الضيوف بالانصراف.

سأل الأميرُ بولتورانسكي:

- هل سيذهب فوجُك إلى الغابة، غداً؟

- نعم، لماذا؟

أجاب الأمير وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- سنتحدث عن ذلك غداً.

قال بولتورانسكي دون أن يفهم ما الموضوع:

- بكل سرور.

على كل حال، المسألة التي كانت تشغل باله دون غيرها هي كيف سيستأذن الأميرة بالانصراف.

صافحته ماري بقوة هزّت يده طويلاً؛ وذكرته بالخطيئة التي ارتكبها وهو يلعب الديناري، وابتسمت له بطريقة بدت لبولتورانسكي فاتنة، ملاطفةً وذات معنى.

دخل بيته مغموراً بالنشوة، وهي حالة يفهمهما فقط الذين ولدوا ونشؤوا في أحضان الارستقراطية، والذين صادفوا من جديد، بعد أن عاشوا الحياة العسكرية في العزلة، امرأة من عالمهم، امرأة مثل الأميرة فورونتزوف.

عندما وصل بولتورانسكي إلى البيت الصغير الذي كان يشاطره إياه زميلٌ له، دفع الباب فوجده مغلقاً، وقرعه، لكن بلا جدوى.

وعيلَ صبرهُ فأخذ يطرطقُ عليه، بقدميه وبسيفه. وأخيراً سمُعت خطواتٌ وانفتح البابُ أمام «فافيلو»، خادم «بولتورانسكي».

- كيف خطرَ لكَ أن تغلق الباب بالمفتاح؟

- أمن الممكن، ياالكسي فلا ديميروفيتش...

- آه! سكرتَ من جديد، سأعلّمك كيفَ..

كاد بولتوراتسكي يضربه، لكنه غيّر رأيه فجأة:

- انقلعْ! أشْعل الشمعة.

- في الحال.

لقدَ شرب «فافيلو» فعلاً، شرب لأنه احتفل بعيد ميلاد مراقب مخزن الأسلحة. وعندما عاد إلى البيت فكرّ فيما كانت عليه حياتُه وقارن بينها وبين حياة هذا المراقب: إيفان ماتفيفتش. كان لهذا الأخير دخل، وكان متزوجاً، وكان يأمل أن يُصبح حراً في مدى سنة، أما فافيلو فقد انخرط في خدمة سيّده حين كان طفلاً. وعمرُه الآن أربعون عاماً و لم يتزوّج، وظلّ يعيش في الريف، عند سيّد فوضويّ. كان سيّده طيباً، ونادراً ما كان يضربه، لكن ما أجدر هذه العيشةَ بالرثاء!

«وعدني بالحرية ما إن يعود من القوقاز، لكن ماذا سأفعل بحرّيتي؟ حياة كلب! هكذا كان يفكر «فافيلو». وقد نعس كثيراً حتى إنه أغلق الباب خوفاً من أن يدخل أحد ويسرق.

دخل بولتورانسكي الغرفة التي كان ينام فيها مع زميله «تحونوف».

سأله هذا وهو يستيقظ:

- ماذا، هل خسرت أيضاً؟

- لا، ربحتُ سبعة عشر روبلاً، وشربنا زجاجةً.

- هل تأملت الأميرة جيداً؟

- نعم، أعجبتُ بها.

قال تيخونوف:

- يجب أن ننهض بعد قليل. ففي السادسة يجب أن نكون في التدريب.

نادى بولتورانسكي فافيلو:

- فافيلو، انتبهْ، أيقظني غداً في الساعة الخامسة.

- كيف أوقظك؟

- قلتُ لكَ: أيقظني هل سمعتَ؟

- بأمركَ.

خرج فافيلو وهو يحمل جزمةً سيده وثيابه.

اضطجع بولتورانسكي، وأشعل سيجارة وهو يبتسم، ونفخ على الشمعة.

وفي الظلمة، رأى أمامه وجهَ الأميرة المشرق.

كانت الأضواء ما تزال تلمع في بيت آل «فورونتزوف». وعندما انصرف الضيوف، اقتربت «ماري فاسيلييفنا» من زوجها، ووقفت أمامه، وسألته بلهجة قاسية:

- حسناً! ستقول لي ما الأمرُ؟

- لكن، يا عزيزتي...

- لا تقل «يا عزيزي»! هو رسول، أليس كذلك؟

- ومع ذلك، لا أستطيع أن أقول لك..

- لا تستطيع؟ إذن أنا سأقول لك.

- أنت؟

قالت الأميرة:

- الحاج مراد أليس كذلك.

لقد علمتْ قبل أيام بالمحادثات التي بدأها معه، وقدّرت أنه جاءَ بذاته ليرى زوجها. لم يستطع فورونتزوف أن ينْكر بعد ذلك. لكنه خيّب ظنّها مع ذلك حين قال لها أن مبعوث الحاج مراد هو الذي جاء، لا الحاج مراد. وأضاف أن لقاءً مع الحاج مراد حُدد في اليوم التالي، في الموضع الذي كان يُقطع فيه شجر الغابة.

فتَن هذا الحادثُ الزوجين الشابين اللذين تعبا من حياة القلعة الرتيبة. وبعد أن تحدثا عن الفرح الذي سيسببّه هذا النبأ للقائد العام فورنتزوف نام الأمير وزوجته في الساعة الثالثة.

- ٤ -

بعد الليالي المسهّدة الثلاث التي قضاها الحاج مراد هارباً أمام فرسان شامل الذين أرسلوا لملاحقته، نام حالماً غادر سعدو الغرفة متمنيّاً ليلةً سعيدة. نام بثيابه كاملة ورأسُه على يده، غارقاً في الوسائد

الناعمة الحمراء التي حملتها ربة البيت. وكان «إيلدار» نائماً بجنبه، قرب الجدار، مضطجعاً على ظهره، وأطرافه الفتية والقوية مسترخيةً استرخاءً عريضاً؛ وكانت جعبته خطاً أسود يعترض جبتّه البيضاء، على صدره، أعلى من رأسه المخلوق حديثاً والذي زحل عن الوسادة. وكانت شفته العليا، التي لم تكد تتغطّى بزغب خفيف، تنخفض وترتفع، وهو نائم، مثل شفة الطفل. وكان مثله الحاج مراد، ينام بكامل ثيابه، ومسدسُه وخنجره في زناره. وكان الحطبُ، في المدفأة يشتعل ببطء، بينما كان مصباح الليل يلمع في مشكاة الفرن الصغيرة.

صرّ الباب، في وسط الليل. نهض الحاج مراد وأمسك بمسدسه. دخل سعدو الغرفة، وهو يمشي بحذر.

سأل الحاج مراد وكأنه لم ينم لحظة واحدة:

- ماذا يلزمك؟

قال سعدو وهو يجلس:

- يجب أن نفكّر. رأتْكَ امرأةٌ كانت على عتبتها. وأنت تمر فقصّت ذلك على زوجها، وكلّ القرية تعلم الآن. وقد نبّهت جارةٌ لنا، قبل قليل، امرأتي وقالت لها إن الشيوخ اجتمعوا في المسجد وهم يريدون توقيفك.

قال الحاج مراد:

- يجب أن أنصرف.

أعلن سعدو:

- الجوادان جاهزان، وخرج من البيت رأساً.

همس الحاج مراد.

- إيلدار.

عندما سمع إيلدار اسمه وصوت قائد، وثب على ساقيه القويتين، ووضع قلنسوته. تقلّد الرجلان سلاحهما وارتديا معطفيهما، وغادرا الغرفة بصمت واتجها إلى العتبة. اقتاد الفتى ذو العينين السوداوين، الجوادين.

وعلى الصوت، من باب مشقوق في منزل محاور، لِمُحَ رأسٌ، ثم رجل يطقطق قبقابه بصخب، وهو يركض نحو المسجد في الجبل.

كان القمر غائباً، وكانت النجوم تلمع وحدها في السماء المظلمة التي برزت فيها، في العتمة، البيوت التي كان يُشرف عليها، في الجزء الأعلى من القرية، المسجدُ ومئذنته. وكان هدير الأصوات البهيم يأتي من المسجد.

تناول الحاج مراد بندقيته بسرعة، ووضع قدمه في الركاب، ووثب بخفّةً إلى السرج.

قال لسعدو وهو يضع، على نحو آلي، قدمه الأخرى في الركاب:

- أحسن الله جزاءك.

ولمس بسوطه الفتى الذي كان يمسك بالجواد لمساً خفيفاً لينحيّه. وكأن الجواد كان يعلم ما يجب عليه فعله، فقد ترك الزقاق، بخطاً ثابتة، إلى الطريق الرئيسية.

كان إيلدار يتبعه، وكان سعدو بمعطف الفرو، يخطر بذراعيه،

ويتقدّم وهو يتعثر في الزقاق الضيّق. وعند مدخل الطريق الرئيسية، انتصب شبحٌ آخر. وصاح صوتٌ:

- قف! مَنْ الآتي! قفْ!

واعترض بضعةُ رجال الطريق.

وبدلاً من أن يقف الحاج مراد، فقد هزّ مسدّسه، وأغَذَّ السير، واتجه بجواده رأساً على الذين سدّوا الطريق، فتفرقوا، وانحدر الفارسُ إلى الطريق، وهو يجري بسرعة، دون أن يَلوْي رأسه. وفجأة صفرت طلقتان عند آذانهما. فلم يُصَبْ أحدٌ منهما، وتابع الحاج مراد سيره. وأبعد من ذلك بثلاثمائة متر، أوقف حصانه الذي كان يلهث لهاثاً خفيفاً، وأصاخ السمعَ. كان تيّار النهر يهدر أمامه، وخلفه، في القرية، كان الديك يصيح، وميّز خلال هذه الأصوات صوت حوافر جواد وأصوات رجالٍ يقتربون. فأرخى العنان لجواده.

سرعان ما أدرك المطاردون، بعد أن أسرعوا في جريهم، الهاربين. كانوا نحو عشرين فارساً من القرية قرّروا إيقاف الحاج مراد، أو على الأقل، أرادوا أن يظهروا أنهم حاولوا إيقاف الحاج مراد، ليُبرئوا أنفسهم أمام شامل. وعندما صاروا في متناول البصر، في الظلمة، أوقف الحاج مراد جواده، ولدى عنانه، وسحب بيده اليسرى غدّارته من غلافها وأمسكها بيمينه. وفعل «إيلدار» مثله.

صاح الحاج مراد:

- ماذا تريدون؟تريدون إيقافي؟ هيّا أوقفوني!

وهزّ غدّارته. توقّف المطاردون. اقترب الحاج مراد من الوادي، وسلاحُه مصوّبٌ إليهم أبداً. كان الفرسان يتبعونه، لكنْ على مسافة.

قطع الحاج مراد الوادي إلى جهته الأخرى، فاقترح عليه المطاردون أن يُصغي إلى ما يرغبون أن يقولوه له. وكان جوابه أن أطلق طلقةً من غدارته، وأطلق جواده بكل سرعته. وعندما توقّف، لم يكن يُسمْع لا ضجيج المطاردة ولا صياح الديك؛ هديرُ انحدار الماء من الجبل ونعيب البوم هما اللذان كانا وحدهما يُسمعان.

غدا الحاج مراد على مقربة من كتلة الغابة المظلمة. هنا كان رجالُه ينتظرونه. وعندما بلغ أطراف الغابة توقّف، وتنفسّ بعمق، وصفر، وأصاخ السمع. وبعد دقيقة، جاوبه الصفيرُ نفسه، آتياً من الغابة. دلف الحاج مراد إلى الغابة، وبعد أن سار نحو مائة خطوة، لمح، خلال الأغصان، أشباح رجال قاعدين قرب النار التي كانت تُضيء، إلى النصف، حصاناً مقيّداً ومسرجاً.

كان هنا ثلاثة رجال. نهض أحدُهم بسرعة ودنا من الحاج مراد وأمسك بعنان الجواد وركابه. كان هذا أخاه من الرضاع ومدير أملاكه.

أمَر الحاج مراد وهو يترجّل عن جواده:

- أطفئوا النار.

نثر الرجالُ الحطب المشتعل وداسوا الجمر.

سأل الحاج مراد وهو يدنو من معطف مفروشٍ على الأرض:

- أكان «باتا» هنا؟

نعم، لكنه ذهب، هوو «خان ماغوم» منذ زمن طويل.

- أية طريق سلكا؟

أجاب حنيفي:

- هذه الطريق.

وأشار إلى الطريق التي وصل منها الحاج مراد.

قال الهاربُ الذي نزع غدّارته ليعبّئها:

- طيّب...

وأضاف مخاطباً الرجل الذي أطفأ النار:

- يجب أن تحترسوا. لقد طوردتُ.

كان هذا الرجل هو التشيتشيني «حمَزالو». اقترب من المعطف المفروش، وأخرج غدّارته من غلافها واتجه، دون أن يفوه بكلمة، إلى تخوم فُرجة الغابة التي أقبل منها الحاج مراد.

ربط إيلدار، قبل كل شيء، جواد قائده بشجرة، ومضى، وغدارتُه على كتفه، إلى الطرف الآخر من الفرجة.

خمدت النارُ، و لم تكن الغابةُ المحيطةُ تبدو مظلمة كما كانت من قبل. وكانت النجوم، في السماء، تلمع لمعاناً ضعيفاً.

رفع الحاج مراد عينيه. كان الدبُّ الأكبر في كبد السماء، فعلم أن الليل قد تجاوز منتصفه كثيراً، وأن موعد صلاة الفجر قد حان.

طلب من «حنيفي» أن يعطيه الإبريق الذي كان يحمله دائماً في جرابه، وذهب إلى الماء، فتوضّأ وصلى.

عاد إلى مكانه الذي كانت فيه الأكياسُ والفرسان فجلس وصالب بين ذراعيه وأخذ يفكّر.

كان الحاج مراد يثق ثقةً عميقة بقدره. كان مقتنعاً سلفاً بأنه سيبلغ غاياته، مهما يفعل، وبالفعل فقد كان موفقاً في كل شيء وقد.تُوِّجت حياتُه العسكرية بالنجاح.

كان يثق الثقة نفسها الآن، تصور أنه سيأسر «شامل» بالجند الذي سيقدّمهم له فورونتزوف، وأن قيصر روسيا، إذا انتقم من شامل فسوف يكافئه، وسيغدو لا سيّد بلاد «الآفار»[٦] وحدها بل سيّد التشيتشين الذين سيخضعون له. أغفى وهو غارق في أفكاره. ورأى نفسه في الحلم، على رأس أنصاره الشجعان الذين كانوا يغنّون ويصيحون «الحاج مراد» وقد طار إلى شامل فسجنه وهو وجميع نسائه اللواتي سمع بكاءهن ونحيبهن. استيقظ، وبدلاً من أن يسمع الأغاني، ودعاء: «لاإله إلا الله»، «وصل الحاج مراد» وبكاء النساء وشامل، سمع بكاء بنات آوى التي أيقظته، وضباحها وضحكها.

رفع الحاج مراد رأسه، ونظر إلى السماء وهي تستنير في الغرب، وسأل أحد مريديه بصدد خان ماغوم؛ فلما علم أنه لم يعد بعدُ أطرق رأسه وأغفى من جديد.

قطعَ نومَهُ صوتٌ فرحٌ هو صوت «خان ماغوم» عائداً من مهمته مع «باتا». جلس المبعوث أمامه وروى له كيف استقبله الجنود واصطحبوه إلى منزل الأمير، كما حدّثه عن الحديث الخاص الذي جرى بينهما؛ وأخبره أيضاً كم بدا الأمير مسروراً، واخبره عن وعده بلقائه غداً صباحاً في المكان الذي كان فيه يقطعون أشجار الغابة – في فُرجة شالتسك – وراء ميتشين.

---

٦ – الآفار: قبيلة صغيرة في الشمال الشرقي من القوقاز.

كان «باتا» يقطع أحياناً تقرير زميله ليضيف إليه بعض التفاصيل. سألهما الحاج مراد سؤال المدقّق، رغبة منه في معرفة العبارات التي عبّر بها فورونتزوف بصدد عرضه الانتقال إلى صفوف الروس. أجمع المبعوثان في جوابهما على أن الأمير وعد باستقباله كضيف، وأنه سيبذل كل ما في إمكانه ليكون في أحسن حال. وأراد الحاج مراد أن يعرف بعض التفاصيل عن الطريق الذي يجب أن يسلكه إلى موعد اللقاء، ولمّا أكّد له «خان ماغوم» أنه يعرف هذه الطريق معرفة كاملة وأنه يستطيع أن يصطحبه إليه مباشرةً، أعطى «باتا» الروبلات الثلاثة التي وعده بها؛ ثم أمر رجاله بأن يخرجوا أسلحته المرصّعة وعمامته، ورجا مريديه أن يُعنوا بلباسهم كي يظهروا والسروج وعُدّة الخيل، وينظفون الجياد، انطفأت النجوم، وكسح النورُ الظلمات، وهبّت نسائم الفجر الخفيفة.

- ٥ -

غادرت القلعة، باكراً قبل طلوع الفجر سرّيتان مسلحتان بالفؤوس، تحت إمرة بولتورانسكي، من باب «شاه غيرين»، وسارتا أكثر من عشرة كيلو مترات؛ وما إن انبلج الصبُح حتى شرع الرجالُ في قطع الأشجار، بعد أن أقاموا شريطاً من الحرس. وفي نحو الساعة الثامنة، أخذ الضباب يرتفع ويتحد بالدخان العطر، دخان الأغصان الرطبة التي كان تفرقع في مكان احتراقها. وأخذ الحطّابون الذين لم يكونوا يميّزون شيئاً أبعد من خمسة أمتار والذين لم يكن يتعرّف بعضهم بعضاً إلا من أصواتهم، يتبينون النيران والطريق الغاصة بالأشجار المقطوعة التي تُفضي إلى الغابة. وكانت الشمسُ تبدو حيناً في الضباب مثل بقعة مضيئة، وتختفي حيناً آخر.

في فرجة الغابة، كان بضعة ضباط جالسين على طبول:

بولتورانسكي ومرؤوسه «تيخونوف»، وثلاثة ضباط من السرية الثالثة، والبارون فريزر، وهو صديق قديم لبولتورانسكي في هيئة الوصفاء، وضابط في فرسان الحرس نُقل بسبب مبارزة. وعلى الأرض تبعثرت أوراق غلّفت وجباتهم الخفيفة، وأعقابُ سجائر دُخنّت إلى نصفها، وزجاجاتٌ فارغة. شرب الضباطُ «الفودكا»، وأكلوا، وهم يتذوقون الآن «البورتو». وفتح ضارب الطبل زجاجةً ثالثة. وكان بولتورانسكي، في حالة حسنة متحمساً، ومرحاً ولا مبالياً على الخصوص، مع أنه لم يكدْ ينام؛ كذلك كان يحسّ بنفسه دائماً وهو بين جنوده ورفاقه، حيثما يكون الخطر مائلاً.

كان النبأ الذي بلغهم قبل حينٍ عن موت الجنرال «سليبتزوف»[٧] موضوعاً لنقاشات حادة بين الضباط. لم يكن أحدٌ يفكر، وهو يتحدث عن هذا الموت، في جانب المسألة الرئيسي وهو: نهاية حياة في هذا العالم ورجوعها إلى النبع الذي صدرتْ عنه؛ كانوا معنيّين فقط بعدم اكتراث هذا الضابط الباسل الذي انقضّ على الجبليين وأراد أن يبيدهم.

ومع ذلك، فجميع الناس يعلمون أو يمكنهم أن يعلموا، وأكثر من أي إنسان آخر الضباط الذين شاركوا في حرب القوقاز، أن ذلك القتال الهوميري، تلك المعارك بالحراب أو السيوف التي تنتهي بالإبادة لم تقع قط و لم تقع في أي مكان (وحتى لو وقعتْ مثل هذه المعركة التي يتقاتل فيها المتحاربون، فإن الهاربين بخاصة هم الذين يُعْمَل فيهم السيفُ). أن قصة المعركة بالسلاح الأبيض قد قبلها الضباط، وهم

---

٧ - سليبتزوف: الشاب نيكولا سليبتزوف (١٨١٥ - ١٨٥١) قتل في إحدى المعارك.

مشربون بكبرياء هادئة ومرحة؛ كانوا يمزحون بعضُهم بلهجة متصنّعة، وبعضهم الآخر بصورة طبيعية، وهم يدخنون ويشربون، دون أن يفكّروا أن الموت قد يصرعهم في كل لحظة، مثل الجنرال سليبتزوف.

وبالفعل فقد تناهى إلى الأسماع دويُّ طلقة غدارة، جافٌ وقصير، على الطريق، إلى اليسار؛ انغرزت الرصاصةُ الصغيرةُ في شجرة وهي تصفر جذلةً في الهواء الضبابي، فأجابت طلقة العدو طلقاتٌ أشدّ صخباً منطلقة من بنادق الجنود.

صاح بولتورانسكي بصوت فرح:

- إيه! إن هذا في داخل صفوفنا.

وأضاف مخاطباً «فريزر»:

- آه! يا صاحبي، كوستيا، هذه فرصتُكَ. التحق بسريتك. فسوف نشرع مباشرة في معركة رائعة. وسيكون المشهد جميلاً.

نهض البارون الفاقد حظوته وثباً، وقصد بسرعة الموضع الذي أطلقت النارُ منه، حيث كانت سريته.

جيء بجواد بولتورانسكي الكميت الغامق، فامتطاه، وصفّ سريته للقتال وقادها إلى الموضع الذي انطلقت منه الطلقة. وكان شريط الحرس في طرف الغابة أمام الوادي الشديد الانحدار كانت الريح تهبّ باتجاه الغابة. وكان منحدرا الوادي مرئييّن بوضوح. وظهرت الشمسُ من خلف الغيوم في اللحظة التي وصل فيها «بولتارنسكي» إلى الحرس، ورأى بوضوح بعض الفرسان من الجهة الأخرى للوادي، عند أطراف غابةٍ، على مئتي متر منه.

هؤلاء كانوا التشيتشين الذين طاردوا عشيّة البارحة الحاج مراد والذين أرادوا، من غير شك، أن يشهدوا وصوله إلى الروس. وقد أطلق احدهم النار على حارس. فردّ عليه بعضُ الجنود... فانسحب التشيتشين وتوقّف إطلاق النار. ومع ذلك فقد أمر بولتورانسكي بفَتْح النار، وهو أمرٌ تبعه مباشرةً رميٌ متواصل، جذلٌ ومشجّع، صحبه دخانٌ كان يتبدّد بلطف. وكان الجنود الذين سعدوا بهذا اللهو يطلقون النار بلا انقطاع. فخرج التشيتشين الذين استولى عليهم الغضب، من الغابة، وأطلقوا النار الواحد بعد الآخر بضع طلقات نحو الجنود. وأصيب أحدهم. وكان المصاب «آفدييف» نفسه، الذي كان حارساً عشية البارحة. وعندما اقترب رفاقُه منه، كان ممدّداً على ظهره، ويداه متشنّجتان على بطنه الجريح، وهو ينتفض ويئن بهدوء.

روى الجنديُ الذي كان بجنبه:

– أخذ يعبئ بندقية... سمعتُ صوتاً... التفتُّ؛ كان قد أرخى بندقيته.

لم يكن آدفييت يجيب.

وردّد الجندي نفسه:

– بدأ يعبئ بندقية، يا صاحب العزّة، سمعتُ صوتاً، التفتُّ! كان قد أرخى بندقية.

– أبك ألمٌ، آدفييف؟

– لا ألم بي، لكني لا أستطيع أن أتحرك، لو كان عندي شيء من الخمر، يا صاحب العزّة!

حُملتْ إليه الفودكا، أو على الأصح الكحول التي يشر بها جنود القوقاز. قدّم «بانوف»، الذي بدا الهمُّ على وجهه، شيئاً منها للجريح في كوز. لكن آدفييف كان عاجزاً عن الشرب، فردّ الكوز بيده. وقال:

- نفسي لا تطلبه. اشرب أنت نفسك.

شرب بانوف. وحاول آدفييف أن ينهض، لكنه سقط من جديد.

مُدَّ معطفٌ على الأرض وأضجعَ عليه الجريح.

أعلن عريفٌ لبولتورانسكي:

- يا صاحب العزّة، وصل العقيد.

- طيّب، تولِّ القيادة.

صفق سوطه، وأرسل جواده خبباً للقاء فورونتزوف. وكان هذا يمتطي مهراً انكليزياً أصيلاً، ويتبعه ملازمه وقوزاقي ومترجم تشيتشيني.

سأل بولتارنسكي:

- ماذا يجرى هنا؟

أجاب بولتورانسكي:

- هاجمتْ جماعةٌ من فرسان العدو شريط حرسنا.

- لا، لا، أنتم بدأتم.

قال بولتورانسكي متنهداً:

- لا، أنا لم أبدأ. كانوا يحاولون التسلّل.

- سمعتُ أن جندياً جرح.

نعم، وهو أمر محزنٌ جداً. كان جندياً حسناً.

وهل جُرح جرحاً مخطراً.

يبدو لي. في البطن.

سأل فورونتزوف:

أتعرف، إلى أين أنا ذاهب؟

لا، أجل ذلك.

حقاً، ألم تحزرْ؟

لا.

الحاج مراد آت إلينا. وسألقاه بعد بضع لحظات.

غير ممكن.

تابع فورنتزوف، وهو يكبت بصعوبةٍ ابتسامة الفرح:

استقبلتُ أمس مبعوثه. ولعه ينتظرني الآن في فرجة الغابة، في «شالنسك».

ضع حرسك حتى هذه الفرجة، والحقْ بي بعد ذلك.

قال بولتورانسكي وهو يحييّه:

بأمرك.

واتّجه إلى سريته.

صفّ جنود على الجناح الأيمن وعهد بمهمة الجناح الأيسر لعرينه. في هذه الأثناء نقُل الجريحُ على أيدي الجنود إلى القلعة. كان بولتورانسكي عائداً إلى فورونتزوف عندما رأى فرساناً يقتربون منه. توقّف وانتظرهم.

كان، على رأسهم، فارسٌ مهيب الطلعة، سلاحه مرصع بالذهب، يمتطي جواداً أبيضن ويرتدي جبّةً بيضاء، ويضع على رأسه قلنسوة تعلوها عمامةٌ. كان هذا هو الحاج مراد. اقترب من بولتورانسكي، وقال له شيئاً بالتترية. قطب بولتورانسكي حاجبيه، وابتسم، وأعلمه بحركة من يده أنه لا يفهم التترية. أجاب الحاج مراد بابتسامة ملأى بالطيبة الطفولية التي أدهشت الضابط؛ إذ لم يتصور بولتورانسكي قط ذلك الجبلي الرهيب بهذا المظهر. كان يتوقّع أن يرى رجلاً صارماً، جافاً، غريباً، وإذا به يرى أمامه مخلوقاً بسيطاً، ضاحكاً، بهيئة ملأى بالطيبة، وكأنه صديق قديمٌ له.

شيءٌ واحدٌ كان غير عادي فيه. كان ذلك، الشيء عينيه المفتوحتين بكل اتساعهما وهما تتفحصان بانتباه وهدوء وقوة عيون محدّثيه. كانت حاشيةُ الحاج مراد من أربعة أشخاص: «خان ماغوم»، وهو أحمر، وجهه مدوّر ومتألّق من الحيوية، تضيئه عينان سوداوان بلا رموش؛ الثاني كان رجلاً طويلاً وافر الشعر، وقد تلاقى حاجباه، كان هذا «حنيفي» مدير أملاك الحاج مراد. كان يقود جواداً محّملاً بخرج معبأ جيداً. أما الرجلان الآخران المرافقان فكانا يلفتان النظر حقاً. كان أحدهما شاباً. عريض المنكبين، قامتُه فيها نعومةٌ أنثوية، وله شارب أحمر خفيف، وعينان ممتلئتان رقةً؛ كان جميلاً جداً؛ كان هذا «إيلدار»؛ والآخر أحول بلا حاجبين ولا رموش، ذو لحية حمراء

مقصوصة. ووجهُه وأنفُه مغطيان بالندب. كان هذا هو التشيتيشيني «حمزالو».

ظهر فورونتزوف على الطريق. نبّه بولتوراتسكي الحاج مراد بأن أشار إليه، فاتجّه نحوه. وعندما وصل قبالته. وضع يده اليمنى على قلبه، ولفظ بضع كلمات بالتترية ووقف. ترجم الترجمان التشيتيشيني:

إني أضع نفسي تحت تصرف قيصر روسيا الذي أرغب في خدمته. كنتُ أريد ذلك زمن طويل، لكن «شامل» كان يحول بيني وبين السفر.

بعد أن استمع فورونتزوف إلى المترجم مدّ يده المهتّزة إلى الحاج مراد الذي نظر إليه، وتردّد لحظة، ثم شدّ عليها أخيراً بقوة؛ وقال بضع كلمات وهو يحدّق في الضابط تارةً وفي الترجمان تارةً أخرى الذي ترجم:

هو يقول إنه ما كان ليستسلم لأحد غيرك، لكنه يثق بك لأنك ابن القائد العام. وهو يقدّرك كثيراً.

حتى فورونتزوف رأسه علامة الامتنان. أضاف الحاجُ مراد وهو يشير إلى حاشيته:

هؤلاء هم مُريديّ، وهم مثلي يرغبون في أن يخدموا روسيا. نظر إليهم فورونتزوف أومأ إيماءة الرضا.

حنى رأسه التشيتيشيني المرح «خان ماغوم» ذو العينيين السوداويين بلا حاجبين، قال لفورونتزوف بضع كلمات، مازحاً من غير شك، لأن الآفاري ذا الشعر الوافر ابتسم مظهراً أسنانه اللامعة. رمى حمزالو الأصهب فوورنتزوف بنظرة خاطفة، ثم نقل بصره إلى أذني جواده.

بينما كان فورونتزوف والحاج مراد يتوجهان إلى القلعة. تجمع الجنود الذين بُدِّلوا، في جماعات صغيرة وتبادلوا انطباعاتهم.

قال أحد الجنود.

كم من نفسٍ أهلكَ هذا اللعين، وسترى الآن آيات التكريم التي ستقدَّم إليه.

بالتأكيد، ولا تنس أنه كان الآمر الأول عند شامل، والآن؟

لكن هذا الفارس من حاشيته لافت للنظر.

وهذا الفارس الآخر الأشقر شديدُ الشقرة مثل حيوان مفترس، وهو أحول.

آه! لا بد أنه مثل كلب.

كلهم أخذوا بمنظر الأشقر بخاصة.

هُرع الجنود الذين كانوا يقطعون الأشجار ليروا ما الذي كان يجري، أراد الضابط أن يمنعهم من ذلك، لكن فورونتزوف اعترض عليه:

دعهم يتطلّعون إلى معارفهم القديمة.

سأل فورونتزوف جندياً قريباً، وهو يتكلم ببطء، بلهجته الانكليزية:

أتعلمُ مَنْ هذا؟

كلا، يا صاحب السيادة.

الحاج مراد، أتسمع؟

كيف لا أسمع، يا صاحب السيادة، لقد كسرناه أكثر من مرة.

نعم، لكنه طالما أدّبكم.

أجاب الجندي معتزّاً بأنه تكلم مع القائد.

صحيحٌ، يا سيدي. أدرك الحاج مراد أنهم يتحدّثون عنه، وارتسمتْ في عينيه ابتسامةٌ فرحه. رجع فورونتزوف إلى القلعة، وهو شديد الرضا عن نفسه.

كان فورونتزوف سعيداً أعظم السعادة لأنه توصل إلى اجتذاب أكبر عدو لروسيا بعد شامل، ووضع اليد عليه.

شيءٌ واحد كرهه: لقد كان القائد العام في «فوزد فيجنسكايا» هو الجنرال ميشيل زاكوملسكي[٨]، وكان الاهتمام بهذه القضية يقع على عاتقه، بموجب النظام العسكري. وبالفعل، فإن فورونتزوف هو الذي أنجح جميع المساعي دون أن يُخطر رئيسه، وكان هذا الإخلال بالأنظمة يكدّر فرحة قليلاً.

عندما بلغ فورونتزوف القلعة، أدخل الحاجَّ مراد مسكنه الخاص، بينما عهد بحاشيته لمساعد الفوج.

استقبلت الأميرةُ ماري فاسيلييفنا، وهي مرتدية ثيابها بأناقة ومبتسمة، الحاجَّ مراد في الصالون؛ وكان يقف بجنبها ابنها الجميل

---

٨ - زاكوميلكسي: الجنرال جان ميلز من أصل ألماني، وقد لمع في الحرب ضد الترك، ونال في سنة ١٧٨٨ لقب بارون؛ وكان حفيده يقود في سنة ١٨٥١ اللواء الذي كان منه فوجا «مورا» و«كاباردا».

الجعد الشعر الذي بلغ السادسة. أعلن الجبلي للأميرة، بواسطة الترجمان الذي تبعهما، ويدُه اليمنى على قلبه، بلهجة رسمية، أنه يعتبر نفسه ضيف الأمير الذي استقبله، وأن أسرته كلها غدت مقدّسة عنده مثله هو نفسه.

أعجبَ مظهرُ الحاج مراد الخارجيُّ وتصرّفاته الأميرة ماري فاسيلييفنا أيّما إعجاب.

وكونُه تنهد واحمّر عندما مدّت إليه يدها الطويلة البيضاء زاد أيضاً من عواطف الأميرة في مصلحة الجبليّ. عَرَضت عليه مقعداً، وسألته إن كان يرغب في شرب القهوة، وأمرت الخادم بتقديمها. لكن عندما قُدِّمت إليه لم يمسّها. كان يفهم الروسية قليلاً، لكنه لم يكن يحسن التعبير، وعندما لم يكن يفهم كان يبتسم، وكانت ابتسامته تروق لماري فاسيلييفنا ولبولتورانسكي.

ظلّ «بولكا»[٩]، كما كان يُدعى فورونتزوف الصغير، بجنب أمه، ولم يرفع بصره عن الحاج مراد الذي سمع عنه أنه محارب خارقٌ للعادة.

قصد «فورنتزوف» مكاتبه ليبعث إلى رئيسه، قائد الميسرة، الجنرال «كوزلوفسكي»، بنبأ خضوع الحاج مراد. كما أرسل رسالةً إلى أبيه، ثم عاد مسرعاً إلى بيته، وهو يخشى أن تكون امرأته مستاءة من أنه فرض عليها حضور رجل رهيب يجب أن يعامل باحترام، لكن دون ملاطفة مبالغ فيها.

كان خوفه بلا أساس؛ فقد كان الحاج مراد جالساً على مقعد مريح،

---

٩ - بولكا: (الرغيف الصغير المدور) لقب مازح أطلق على الصبي..

وعلى ركبتيه جلس «بولكا»، وقد أطرق رأسه قليلاً، وأصغى بانتباه إلى الترجمان الذي كان يترجم كلام ماري فاسيلييفنا المبتسمة. كانت الأميرة توضح للجبلي أنها لو قدَّمتْ لكل شخص أحد الأغراض التي كانت تلبسها وكان يُثني عليها فلن تلبث طويلاً حتى تتجوّل كما خلقها ربُّها...

عندما رأى الحاجُ مراد فورونتزوف يدخل الصالون، أنزل الطفلَ إلى الأرض؛ نهض الطفلُ مستاءً ومدهوشاً من هذه الحركة، وغدا تعبيرُ وجهه البشوشُ رصيناً.

لم يعد إلى مكانه إلا عندما جلس فورونتزوف، وتابع حديثه مع الأميرة، فأوضح لها أن من حق الضيف، بحسب التقاليد الجليلة، أن يلقي ما يسرّه. قال بالروسية، وهو يداعب الشعر الجعد للصبي الذي تسلق ركبته من جديد:

- ابنُكِ صديقي.

قالت ماري فاسيلييفنا لزوجها بالفرنسية:

- رائعٌ، قاطع طريقكَ.

كان «بولكا» يتأمل خنجره فأهداه إياه.

عرض «بولكا» الخنجر على أبيه. فقالت ماري فاسيلييفنا:

- هذا شيءٌ ثمين.

- أجاب فورونتزوف:

- يجب أن نعثر على المناسبة التي نقدّم له فيها هدّية.

كان الحاج مراد جالساً، خافضاً عينيه، مداعباً أبداً شعر الصبي الجعْدَ. وكان يقول بالتترية:

- الفارس الباسل! الفارس الباسل!

قال فورونتزوف وهو يستل شفرة الخنجر المحزّزة من غمدها:

- آه! ياله من خنجر رائع! اشكرْهُ.

وأردف مخاطباً الترجمان:

- اسألْهُ فيم يمكن أن أكون نافعاً له.

أجاب الحاجُ مراد مباشرة أنه لا يحتاج إلى شيء، لكنه يطلب أن يُؤْخذ إلى موضع يستطيع أن يصلّي فيه.

أمر الضابطُ خادمه أن يفعل ما يرغب فيه الضيفُ.

ما إن وجد الحاج مراد نفسه وحيداً في الغرفة التي وضعت تحت تصرّفه، حتى تغيّر وجهه، أضحى مهموماً بعد أن كان صافياً، رقيقاً، راضياً كان الاستقبال الذي رتبّهُ لهُ فورونتزوف، فوق ما أمل، مما أضعف ثقته به وبضباطه. كان يتوقّع كلَّ شيء، ولا سيما أن يوُقف، أو يقيّد، أو يبُعث إلى سبيريا، أو بكل بسطة أن يُقتل، وكان يحرصُ على أن يظلَّ محترساً.

وصل «أيلدار»، في هذه الأثناء، فسأله على الفور ليعلم أين كان مريدوه وجيادُه، وهل جُرِّد رجالُه من سلاحهم.

أوضح «إيلدار» أن الجياد كانت في اصطبل الأمير، وأن رجاله في عنبر المؤن، وأن سلاحهم معهم، وأن الترجمان قدّم لهم الطعام والشاي.

هزّ الحاج مراد رأسه علامة على عدم الفهم، ثم بدأ صلاته. وطلب أن يُحمل إليه خنجره الفضّي، ولبس ثيابه، وجلس على الأريكة، متصالب الساقين، منتظراً الأحداث.

في نحو الساعة الخامسة، دُعي إلى العشاء في منزل الأمير.

أثنا الطعام، لم يأكل سوى البرغل من الصحفة التي أكلت منها ماري فاسيلييفنا.

قالت الأميرة لزوجها:

- يخاف أن نسمّمه. تناول البرغل من الصحفة التي تناولته منها.

سألت الحاج مراد عن موعد الصلاة القادمة.

رفع الحاج مراد أصابعه الخمس وأشار إلى الشمس.

أخرج فورونتزوف ساعته، وضغط النابض، فرنّ جرسها؛ سأل الحاج مراد مضيفه، وهو مدهوش، أن يجعلها ترنّ من جديد وأن يُريه إياها.

فاقترحت ماري فاسيلييفنا على زوجها:

- هاهي ذي المناسبة المنشودة أهدهِ هذه الساعة.

وقدّم فورونتزوف التحفة للحاج مراد. فوضع هذا يده على قلبه. وضغط مراتٍ على النابض واستمع برضا ظاهر وهو يهزّ رأسه بإعجاب.

بعد الطعام، طلب الملازم «ميلرزاكوملسكي» مقابلة فورونتزوف وأبلغه أن الجنرال استاء جداً، عندما علم بخضوع الحاج مراد، من

أنه لم يُطْلَعْ على ذلك، وكان يطلب أن يُرسل إليه الحاج مراد مباشرة. أجابه فورونتزوف أن أمره سينفّذ على الفور، وأوضح للحاج مراد رغبة رئيسه، فطلب إليه أن يصحبه إلى الجنرال ميلر. وخشيتْ ماري فاسيلييفنا أن يقع خصام بين الجنرال وزوجها فأرادت أن تنضمّ إليه، مع أنه كان يعارض ذلك.

- الأفضلُ لك أن تبقي، القضيّة قضيتي لا قضيتكِ.

- وأنت لا تستطيع أن تمنعني من الذهاب لرؤية الجنرالة.

- تستطيعين أن تزوريها في وقت آخر.

- لا، أريد أن أذهب إليها الآن.

استقبل الجنرال «ميلر» الزوّار، وصحب بأدب بارد «ماري فاسيلييفنا» إلى زوجته، وعهد بالحاج مراد إلى ملازمه وكلّفه أن يأخذه إلى صالة الانتظار وأن يراقبه حتى إشعار آخر.

وقال لفورونتزوف وهو يفتح باب مكتب عمله ويُدخلُ الأمير قبله:

- أرجوك.

وفي مكتبه، وقف أمام فورونتزوف، وقال له دون أن يقدّم له مقعداً:

- أنا القائد الأعلى هنا، ومن ثمَّ فجميع المحادثات مع العدو يجب أن تنال موافقتي. فَلِمَ لم تخبرني بعَرْض الحاج مراد لخضوعه.

أجاب فورونتزوف الذي كان يتوقع هذا الموقف الفظّ من الجنرال الهائج، وقد شحب من عصبيّته، وأحسّ بالغضب يستولي عليه.

- سألتكَ لم لم تُخطرني.

- أردتُ ذلك، بارون، لكن...

- لستُ «بارونًا»، أنا صاحب السيادة.

وكان منه انفجارٌ حقيقي بالمطاعن التي تجمعت حتى الآن والتي كانت تغلي في قلبه.

- لم أخدمْ مليكي منذ سبع وعشرين سنة ليأتي مبتدئون يستغلون علاقاتهم العائلية، ليهتموا على مرأى ومسمع مني بأشياء لا تخصّهم.

قاطعة فورونتزوف:

- يا صاحب السيادة، أطلب إليك ألا تؤكّد ما ليس صحيحاً.

فدمدم الجنرال الذي كان غضبهُ يتزايد:

- لستُ أقول سوى الحقيقة، وأنا أمنعكَ..

لكن ماري فاسيلييفنا دخلت، في هذه اللحظة، في حفيف الحرير، تصحبها امرأة قصيرة القامة، وهي الجنراله. وقالت:

- آه! هدّىء نفسك، يا بارون، فسيمون لم يَنْو أن يسبّب إزعاجك.

- أنا، يا أميرة، لم أكلّمه عن...

- أتعلم، الأفضل أن تكفّا عن ذلك كله، إن خصاماً بدون أساس خيرٌ من خصام يقوم على أساس، أؤكّدُ...

وأخذت تضحك.

استسلم الجنرال النزق لابتسامة الحسناء الفاتنة. وارتسمت تحت شاربه ابتسامةٌ خفيفةٌ.

قال فورونتزوف:

- أعترف بأني أخطأتُ، لكن...

مكتبة
t.me/t_pdf

فاعترف ميلر:

- وأنا أيضاً أسلمتُ نفسي للغضب...

ومدّ إليه يده.

انتصر الصلحُ، وقرّر الخصمان المتصالحان أن يَدَعا الحاج مراد عند الجنرال في الوقت الحاضر، وأن يُرسلاه بعد ذلك إلى آمر الميسرة.

تنّبأ الحاج مراد بطلُ القضية الذي كان في الغرفة المجاورة أن النقاش يخصّه، مع أنه لم يكن يفهم ما يقال؛ كان يعلم أنه موضوع النقاش، وأن الروس يعلّقون أهميّة كبرى على انفصاله عن شامل، وأنه، من ثَمَّ، إن لم يُنْفَ أو يُقتل فبإمكانه أن يقدم للروس مطالب جادة. وفضلاً عن ذلك، فقد أدرك أن «ميلر» وإن كان القائد العام، ليس له التأثير الذي لمرؤوسه «فورونتزوف» وأن هذا يمكنه أن يلعب دوراً أهم من «ميلر زاكوميلسكي».

ولذلك فعندما دعا الجنرالُ الحاج مراد ليسأله، لم يتخلَّ هذا عن مظهر الجلال والكبرياء وأكد أنه ترك الجبال ليخدم القيصر الأبيض[١٠].

---

١٠ - القيصر الأبيض: لقب أطلقه المسلمون على قيصر روسيا. وأبيض هنا بمعنى «حر» و«عالي التربية».

وأضاف أنه سيُعلم القائد العام المقيم في «تفلبس» وحده، بأعماله كلها.

نُقِلَ الجريحُ «آفدييف» إلى المشفى الواقع في بيت صغير مستوى السطح، عند مدخل القلعة. وأضجع في الصالة العامة. وكان فيها أربعةُ مرضى وكان أحدهم يتخبّط، فريسة للحمى التيفية؛ وكان الثاني شاحباً أزرق الجفون، يتألم من نوبات الملاريا ويتثاءب باستمرار؛ أما المريضان الآخران فقد جُرحا في غارة للتشيتيشين قبل ثلاثة أسابيع؛ جُرح الواقف منهما في معصمه، وجُرح الآخر، الجالس على سريره، في كتفه.

أحاط الجميعُ، ماعدا المصاب بالحمى التيفية، بالقادم الجديد، وألقوا عليه الأسئلة. قال أحد حاملي المحمل:

– قد ينهمر الرصاصُ أحياناً ولا يحدثُ شيءٌ، ولم يرموا هذه المرة سوى خمس طلقات.

– كل واحد له قدره.

صرخ آدفييف من الألم المبّرح عندما وضُع على سريره وعندما مُدد عليه، غمرَ الحزنُ وجهه؛ كفَّ عن التوجّع، لكن قدميه كانتا تتحركان بلا انقطاع. كان يُمسك جرحه بيديه المتشنجتين، ويحدّد النظر أمامه. طلب الطبيب أن يمدّد الجريح على بطنه ليرى إن كان الرصاصةُ لم تخترق الظهر أيضاً.

سأل وهو يشاهد ندبتين كبيرتين على ظهره وعجزه:

– ما هذا؟

أجاب آفدييف وهو يتنهدّ:

- هذا قديمٌ، يا صاحب العزّة.

كانت الندبتان من آثار العقاب الذي ناله بعد أن اقترض المال من صندوق الفوج.

قُلبَ آفدييف على ظهره من جديد. سبر الطبيب الجرحَ زمناً طويلاً، واكتشف الرصاصة، لكنه لم يتمكّن من استخراجها. ضمّد الجرح بضماد من نسيج القطن الشفاف، وغادر الغرفة. في أثناء هذا الوقت كله، كان آدفييف مغمض العينيين يكزّ على أسنانه؛ وما أن ذهب الطبيب حتى رفع جفونه ونظر حواليه وقد بدا مدهوشاً. كانت عيناه مثبتتين في المرضى والممرّض. لكنه لم يكن يراهم، في الواقع، وكانت نظرته تتأمل شيئاً آخر أذهله.

وصل رفيقاه «بانوف» و«سيريوغين». كان آدفييف في الوضع نفسه ينظر أمامه. وظلّ دون أن يستطيع تعرّف رفيقيه مع أنهما وقفا بجنبه.

سأل بانوف:

- ألا تريد أن تبعث بأخبارك إلى ذويك؟

حدّق «آدفييف» في رفيقه. لكنه لم يجب.

ألحَ «بانوف» وهو يلمس يد المريض الباردة والعريضة:

- سألتك إن كنت تريد أن تكتب إلى أهل بيتك؟

وفجأة استعاد حواسّه:

- آه! آنتونيتش!

- نعم، لقد جئتُ.ألا تريد أن ترسل بضع كلمات إلى البيت؟ سيكتب سيريوغين.

قال آفدييف وهو يُدير نظره إلى هذا الأخير:

- سيريوغين؟ أتريد أن تكتب؟ أكتبْ إذن: «ابنك بطرس يتمنى لك حياةً طويلة. كان يغار من أخيه. وقد قلتُ لك ذلك من قبل. أنا الآن مسرورٌ له. ليعشْ زمناً طويلاً. ليحفظه الله. أنا مسرورٌ له. أكتبْ هذا..

بعد أن لفظ هذه الكلمات، حدّق آدفييف في بانوف، وصمت فترةً طويلة. ثم سأل فجأة:

- هل عثرت على الغليون؟

لم يجب بانوف.

فألح آدفييف:

- قلتُ الغليون، الغليون، هل عثرت عليه؟

- كان في خرجي.

- صحيح، صحيح.والآن أعطوني شمعة. سأموت. في هذه اللحظة دخل بولتوراتسكي. جاء يعودُ الجنديَّ.

فسأله:

- حسناً! أيها الأخ، أليست الأمور على ما يرام؟

أغمض الجريح عينيه، وأجاب بحركة نافية من رأسه. كان وجهه

شاحباً وحزيناً. ودون أن يجيب الضابط جواباً آخر، توجّه إلى الجندي مرة أخرى:

- أعطني الشمعة، سأموت.

مُدّتْ إليه الشمعة، لكن يده كانت قد تصلّبت، فُوضعت بين أصابعه، وسوعد على الإمساك بها. خرج بولتوراتسكي بعد خمس دقائق، وضع الممّرض أذنه على قلب آفدييف، ثم نهض وأعلن أنه قد مات.

كُتب التقرير الذي أرسل إلى تفليس بصدد آفدييف على النحو التالي: «في ٢٣ تشرين الثاني خرجت سريتان - وهما من فوج كورا - من القلعة لقطع الأشجار. ونحو الظهر، هاجمنهما فجأةً تشكيلة كبيرة من الجبليين. استسلم المركز المتقدّم، لكن السرية الثانية قامت بهجوم مضاد وشتّتْ الجبليين. وقد كلفّتنا هذه المعركة جريحين جرحُهما خفيفُ، وقتيلاً. وقد فقد الجبليون نحو مائة رجل بين قتيل وجريح».

- ٨ -

في اليوم الذي مات فيه بطرس آفدييف في مستشفى «فوزدفنجنسكايا»، كان أبوه العجوز، وزوجةُ أخيه الذي من أجله تطوّع في الجيش، وابنة أخيه المخطوبة، كان كل هؤلاء منهمكين في دراسة الشيلم في البيدر المتجلّد. لقد سقط الثلج بغزارة عشية البارحة، وتجمد عند الفجر.

استيقظ العجوزُ عند صيحة الديك الثالثة، وهبّط من حجرة السلّم،

واحتذى حذاءه، وارتدى معطفه، وتناول قبّعته، ومضى إلى البيدر، فاشتغل فيه ساعتين، ثم رجع إلى البيت فأيقظ ابنه والنساء.

عندما وصلت النساءُ والفتاة، كانت أعمال التنظيف قد انتهت. وعلى الثلج المغبّر أُلقي برفش أبيض إلى جنب مكنسة من شجر البتولة. وكانت حزم الشيلم مصفوفةً في صفين، ومربوطة بحبل طويل، فكّ الشغيلة العُرى وأخذوا يدقّونها، وكان العجوز يضرب بمدقّة ضرباً قوياً لتكسير القشّ. وكانت الفتاة تدق السنابل والحماة تقلب الحزم. انطفأت أشعةُ القمر في ضوء النهار، كان العجوز يُنهي حزمته عندما وصل ابنه البكر «آكيم» واضعاً قبعته، ومرتدياً معطفاً قصيراً.

صاح به أبوه وقد توقّف عن الدق واستند إلى مدقّته:

آه! أنت تتكاسل!

أجاب آكيم:

لكن لابد من العناية بالخيل.

آه الخيل! العجوز كان يمكنها أن تفعل ذلك. خذ المدقّة. أصبحتَ شديد السمنة، يا سكيّر!

فدمدم الابن:

لستَ أنتَ الذي يقدم لي الشراب.

سأل الشيخ وقد بدت عليه الصرامة وهو يضرب بمدقته في البيدر:

ماذا؟

تناول آكيم المدقة، دون أن يضيف شيئاً، وسار العملُ بأربعةٍ سيراً أسرع.

عندما انتهت الحزمة أخذت النساء يرفعن القش بالمذري.

بطرس، ياغبي! كيف أصبحت؟

وخاطب آكيم:

لو كنتُ جندياً لاستُئصِل الغباءُ منك، بينما كان يساوي هو خمساً منكَ.

قالت الفتاة الحفيدةُ وهي ترمي الحزم:

كفى، بابا.

يجب أن تأكلوا، ولا أحد يقوم بالعمل لذلك. كان بطرس يشتغل عن اثنين، لم يكن مثلكم...

على الدرب الذي مهّده المارّة على الثلج، بين البيت والبيدر، ظهرت العجوز، كان خفّها الجديد الملفوف بقماش يبعث بالصرير على الثلج المتجمّد. جمع الرجالُ الحبّ في السلال، بينما كانت المرأة والفتاة تكنسان:

قالت العجوز:

- جاء مدير أعمال السيد الإقطاعي. ينبغي أن نذهب جميعاً إلى أملاكه لنحمل إليها الآجر. هيّأت فطوركم. تعالوا!

قال العجوز:

طيّب. آكيم، أنت، اربط العربة وانصرف. لكن إياك أن يقع ما وقع في المرة الماضية، وأن أُضطر إلى أن أضمنك عند السيد اقتد ببطرس.

عندما كان في البيت كان هو الذي يوبّخ، فلما ذهب الآن صرت أنا الذي أُلامُ.

قالت الأم وقد بدت مستاءةً:

ربما كنت تستحق ذلك، فلست أنت من يستطيع أن يحل محل بطرس.

قال الابنُ:

طيّب، طيّب.

استأنف الشيخُ:

طبيعي أن من السهل القول: طيّب، طيّب، بدأت تشرب بالمال الذي قبضناه من أجل الطحين، وأنت تقول الآن: طيّب، طيّب!

تدخلت الحفيدة:

لا يجوز الكلام مرّتين على الأخطاء الماضية!

ووضع الجميع مدقّاتهم وعادوا إلى البيت.

بدأت المخاصمات بين الأب والابن منذ ذهاب بطرس إلى الجيش. وكان الأب قد أحسّ إذ ذاك أنه بادل وقواقاً بصقر، حقاً كان على الابن الذي لا أولاد له أن يخدم مكان أخيه الذي كان له أربعة أولاد، وذلك بموجب القانون، كما كان يفهمه العجوز، لكن بطرس كان يشبه أباه شبهاً عظيماً في طريقة العمل... كان ماهراً، جسوراً، قوياً، مقاوماً، وكان بخاصة مجتهداً.

كان لا يترك العمل، وعندما كان يمرّ أمام الشغيلة، كان يقتدي بأبيه فيساعدهم، كان مُستعداً أبداً لأداء خدمة للآخرين: كان يحصد صفين من حزم القمح، ويُحمّل العربة، ويقتلع شجرة، أو يقطع الحطب. كان الأب يأسف على بطرس، لكن ماذا كان بوسعه

أن يفعل؟ فالجندية كالموت لا مفرّ منها. كان سفرُ بطرس إلى الجيش بالنسبة إلى أبيه شبيهاً بقطع يده. كان حين يفكر فيه يتوجع، لكن لم يكن ذلك يُجدي شيئاً، ولذلك لم يكن يتكلّم عن الغائب إلا نادراً، ولغرضٍ واحد هو أن يَجْرح ابنه البكر، كما فعل قبل هنيهة.

أما الأم فكان اسمُه، في الغالب، على لسانها، ومنذ سنة أخذت تطلب إلى زوجها أن يرسل إليه شيئاً من المال المخّبأ، فكان يجيب بالصمت. كان أقنان «كارنكوف» أغنياء، وكان العجوز «آفدييف» يملك شيئاً من المال المخبأ، لكنه كان لا يريد أبداً أن يمسّ ما وفّره من مال وحين سمعتْ الأم الآن زوجها يذكر بطرس، أرادت أن تنتهز الفرصة لتلحّ مرة أخرى على زوجها كي يرسل إلى ابنهما روبلاً واحداً على الأقل، بعد بيع الشيلم.

بعد أن ذهب الشبابُ للعمل عند السيّد الإقطاعي، وبقي العجوزان وحدهما وجهاً لوجه، عادت إلى شكواها وحصلت على الوعد المنشود وعندما حُمِّل القمحُ الخالصُ على ثلاث زحافات وغُطى في صندوق من الخشب بعناية، جلس الأب على الزحافة، فأعطته امرأته رسالةً إلى بطرس أملتها على شماس الكنيسة، ووعد العجوزُ أنه سيضيف، حين وصوله، روبلاً إلى الرسالة ويرسلها إلى الابن.

ارتدى معطف فرو وبلوزةً جديدين، وانتعل جزمةً من اللباد جدّ دافئة، وضع الرسالة في بلوزته، وتلا صلاةً، واتّجه إلى المدينة. كان هو على الزحافة الأولى، وكان حفيدُه يتبعه في الثانية، حتى إذا وصل المدينة طلب بواب أن يقرأ له الرسالة وأصغى بانتباه وهو بادي الموافقة. في هذه الرسالة، كانت الأم تبعثُ أولاً بمباركتها لابنها، ثم بذكريات جميع أصدقائه ومعارفه، وأعلمته بموت اشبينه، وأضافت في النهاية

أن «آكسينيا» (زوجة بطرس) لم تشأ أن تسكن عندهم وأنها سافرت. وقد رُوي أنها تعيش عيشة حسنةً وشريفة. وذكرت الأمُ، فوق ذلك، الروبل المرسل هديةً، ثم نقل الشماسُ الكلمات التي أمْلتها الأمُ كلمةً كلمةً، وعيناها طافحتان بالدموع «يا بني الحبيب، يا باترشكا المعبود، جفّت عيناي من فَرْط البكاء، الشمس لم تعد تلمع بالنسبة إليّ. لماذا تركتّني؟» عند هذه الكلمات، بكت العجوزُ، وانتحبت وقالت: «هذا كافٍ».

كاف أن الرسالة قد كُتبتْ، لكن القدر أراد ألا يتلقّى بطرس هذه الأخبارَ الأخيرة، وأن يعلم أن زوجته قد هجرت البيت، وأن يتسلّم الروبل وكلمات أمّه الأخيرة.

رُدّت الرسالة مع الروبل ومع نبأ قتل بطرس في الحرب «من أجل القيصر، والوطن، والديانة الارذثوكسية». هذه هي الكلمات التي استخدمها أمين السر العسكري الذي كتب الرد. عندما تلقّت الأم النبأ بكتْ طويلاً، ثم استأنفت عملها. وفي الأحد التالي، ذهبت إلى الكنيسة وأقامت له قدّاساً وجنّازاً، وسجّلت بطرس بين المرحومين، ووزعت القربان على المصلين عن روح الذي كان عبداً لله.

انتحبت «آكسينيا» أيضاً حين علمت بموت زوجها الحبيب الذي لم تعش معه سوى سنة. وتأسّفت على زوجها وعلى حياتها المحطمّة، وفي حزنها العظيم تذكّرت شعْر بطرس الأصهب، وأحسّت كم كانت تحبّه، بل وجهت شيئاً من اللوم له لأنه أشفق على أخيه و لم يشفق عليها فتشرّدت بين الغرباء.

لكن «آكسينيا» كانت مسرورة، في أعماقها، من ترمّلها. والواقع أنها كانت حاملاً من مدير الأعمال الذي كانت تسكن عنده، وليس

لأحد الحق الآن في أن يلومها. وربما تزوّجها عشيقها، كما كان يقول لها في اللحظات التي كان يحاول أن يستدرّ عواطف الحبّ فيها.

- ٩ -

تربّى ميشيل سيميونوفيتش في انكلترا، كان ابن السفير الروسي في لندن، وكان أحد القلائل، بين كبار الموظفين، الذين تلقّوا تربيةً جادة. كان طموحاً، رقيقاً، لطيف التصرفات، ولم يكن يتخلى، في علاقاته مع مرؤوسيه، عن ضربٍ من النعومة. لم يكن يتصوّر الحياة دون تطبيق مبادئ السلطة والطاعة لهذه السلطة، وقد نال أعلى الدرجات والأوسمة، واشتُهر بأنه عسكري ذو شأن كبير، غالب نابليون في كراسنوي. تجاوز السبعين، لكنه ظل شديد القوى، يمشي بمرونة، وظلّ بخاصة مالكاً تماماً لقدراته العملية، وكان يستخدم جميع صفاته بذكاء، من أجل البقاء في السلطة وتوطيد شهرته وتوسيعها، وكان يملك ثروةً طائلة، كان إسهام زوجته، الكونتيسة برانيشكا، كبيراً فيها، وفضلاً عن ذلك، كان يقبض، بصفته نائباً للملك مرتباً عالياً ينفقه بسعة ليبني لنفسه مسكناً فخماً في جنوبي القرم.

في مساء ٧ كانون الأول، وصل البريد في عربة تجرها ثلاثة جياد وقفت أمام قصر تفليس، أَقْبل ضابط مغطّى بالغبار، يبدو مُتعباً، حاملاً لرسالة من الجنرال كوزلوفسكي بصدد خضوع الحاج مراد، فمّر أمام الحرس ودخل الأروقة العريضة في قصر نائب الملك، كانت الساعة السادسة، كان فورونتزوف يتهيأ للذهاب إلى الغذاء حين أُبلغ بوصول حامل البريد. استقبله مباشرةً، فأخّره ذلك بضع دقائق، وعندما دخل الصالون التفت إليه مباشرةً نحو ثلاثين مدعواً، بعضهم كان يحيط بالأميرة اليزابيت، وبعضهم الآخر كان مجتمعاً قرب النوافذ. كان

فورونتزوف يحمل في قبته صليباً أبيض، ويرتدي سترة سوداء بدون كتفيّة مع رقعتين صغيرتين على الكتف، كان أصلع، وكان وجهه الحليق حديثاً يبتسم بلطف، بينما كانت عيناه تستعرضان الحاضرين، دخل بخطى سريعة، ورجا السيّدات أن يعذرنه على تأخره، وحيّا الرجال ووقف أمام الأميرة الجيورجية ما نان اوربيلياني، وهي امرأة مرموقة الجمال، بالرغم من سنيها الخمس والأربعين، شرقية الطراز، مهيبة القوام، قادها إلى المائدة مقدّماً لها ذراعه، وتعلّقت الأميرة اليزابيت كزافيريفنا بذراع جنرال أصهب الشعر، منتعش الشارب، وهو قادمٌ جديد إلى هذا المجتمع، وقاد أميرٌ جيورجي الكونتيسة «شوازيل» صديقة الأميرة. وكان الدكتور اندريفسكي والمرافقون العسكريون والمدعوون الآخرون يسيرون خلف الزوجين بعضهم بصحبة السيدات وبعضهم الآخر وحدهم. وكان الخدم بخلعهم الرسمية وجواربهم وأخذيتهم يسحبون الكراسي ويقربونها ليتيحوا للمدعويين الجلوس، بينما كان مديرُ الخدم بهيئته الجلية، يصبّ حساءً كثيفاً تصاعد بخاره من صَحفة فضيّة. جلس فورونتزوف وسط المائدة الطويلة، كانت الأميرة إزاء، وكانت زوجته بجنب الجنرال، وكانت جارتُه إلى اليمين الأميرة الجميلة اوربيلياني، وإلى يساره أميرةٌ جيورجية، رائعة القامة، سمراء متورّدة الخدين، ازيّنت بزينة الثراء، وأخذت تبتسم لهما.

أجاب فورونتزوف الأميرة التي سألته ما الأخبار التي حملها الرسول:

ممتازة، يا صديقتي العزيزة.

كان سيمون محظوظاً

وروى بصوت عالٍ، لكي يتمكّن جميعُ الحاضرين من سماع النبأ المُثير - و لم يكن مفاجئاً له لأنه كان على علم بالمساومات التي كانت تجري منذ زمن طويل - وهو انتقال ملازم شامل، إلى الصفوف الروسية، الحاج مراد، المحارب البطل الذي سيصل إلى تفليس بعد يوم أو يومين.

جميعُ المدعوين، حتى الشباب والمرافقين العسكريين والموظفين الجالسين على طرف المائدة والذين كانوا يضحكون وهم يتحدثون، لزموا الصمت وأصاخوا السمع.

عندما سكت نائب الملك، سألت الأميرةُ جارَها الأصهب ذا الشارب المنفوش:

وأنت، يا جنرال، هل لقيتَ الحاج مراد من قبل.

أكثر من مرّة، يا أميرة.

وروى الجنرال كيف أن الحاج مراد هاجم بغتةً التشكيلات التي يقودها الجنرال «باسيك»، بعد احتلال الجبليين! لـ «غيرغبيل»، وكيف قتلَ، أمام أعينهم، العقيد «زولوتوكين». كانَ فورونتزوف يصغي إلى ما يقوله الجنرال وهو ظاهر الابتسام والرضا، لكن سرعان ما تبدّلت سيماءُ وجهه، وغدا شارداً، مشغول البال.

كان الجنرال يتحدث عن لقائه الثاني للحاج مراد:

لعلك تذكر ذلك، يا صاحب السيادة، كان ذلك أثناء حملة الإنقاذ التي نظّمتها.

سأل فورنتزوف وهو يَطْرف بعينيه:

أين؟

إن المعركة التي دعاها الجنرال الطيّب «عملية إنقاذ» تنحصر في عملية مشؤومة في «دارغوا». كاد جميع الجند يهلكون بالفعل، بما فيهم قائدهم الأمير فورونتزوف، لولا وصول الجند النشيطين الذين أنقذوهم. كان الجميع يعلمون أن حملة «دارغوا» هذه، التي نُفذت بقيادة «فورونتزوف»، والتي كلّفت الروس عدداً كبيراً من القتلى والجرحى وبعض المدافع، كانت عملاً عسكرياً جنونياً، ولذلك كان كل من يتحدث عن هذه الحملة بحضرة فورونتزوف، يُظهرها بالمظهر الذي أظهرها فيه فورونتزوف في تقريره للقيصر، أي كمأثرة رائعة للجيوش الروسية، وكلمة إنقاذ تشير بوضوح، مع ذلك، إلى أن المقصود ليس مأثرة باهرة، بل إنها على الأصح خطيئة كلّفت الكثير من الحيوات البشرية، الجميع فهموا فكرة الجنرال، لكن بعضهم بدا كمَنْ لم يدرك معنى كلامه، وكان بعضُهم ينتظرون، قلقين، أثر كلامه، وآخرون نظر بعضُهم إلى بعض وهم يبتسمون. الجنرال الأصهب وحده لم يلحظ شيئاً. أجاب بهدوء، وهو مندفع في سرده:

في الإنقاذ، يا صاحب السيادة.

استرسل في موضوعه المفضّل فروى بالتفصيل كيف أن الحاج مراد قطع بمهارة فائقة التشكيلة الروسية إلى قسمين، ولو لم يجئ لإنقاذ الجن – وشدّد بنبرة خاصة على كلمة إنقاذ – لهلكوا جميعاً، لأن...

لم يتسنّ للجنرال أن يتمّم جملته: لقد قاطعت الخطيبَ مانان اوربيلياني، بعد أن تنبّأت بالنتائج التي قد تنتج عن هذه القصة، وطرحت عليه أسئلة عن الشقة التي كان يسكنها في «تفليس». دهش الجنرال ونظر إلى مَنْ حوله وحدّق في مرافقه العسكري الذي كان

على طرف الطاولة يحدّق بدوره فيه تحديقاً رصيناً له دلالته: ففهم، لم يرد على الأميرة، وتجهّم وجهه، وأخذ يزدرد بصمت المآكل الفاخرة التي لم يرها قط والتي كان يجهل طعمها، أحسّ الجميع بالضيق، لكن الأمير الجيورجي الذي كان جالساً قبالة الأميرة فورونتزوف أنقذ الموقف، لم يكن ذكياً، لكنه تعوّد حياة البلاط، فكان متزلفاً مرهفاً، فروى بصوت قوي، وكأنه لم يلاحظ شيئاً، كيف أن الحاج مراد اختطف أرملة «أحمد خان» من «ميكتولين».

هاجم القرية أثناء الليل، وأخذ ما شاء، وتوارى مع غنيمته.

سألت الأميرة:

ولماذا أراد اختطاف هذه المرأة بالذات؟

لأنه كان عدوّ زوجها الذي كان يأمل حتى موته أن يلقاه.

فلما مات انتقم من أرملته.

ترجمت الأميرة كلماته إلى الفرنسية، من أجل الكونتيسة «دي شوازيل» التي كانت جالسة بجنب الأمير الجيورجي.

هتفت الكونتيسة وهي تغمض عينيها وتهزّ رأسها:

ياللفظاعة!

قال فورنتزوف مبتسماً:

كلا. لقد أكدّوا لي أن الحاج مراد وقف من أسيرته موقفاً فروسياً وأنه أطلق سراحها.

لكن بفدية؟

طبعاً، لكنه مع ذلك تصرّف بنبل معها.

كانت كلمات فورونتزوف مُنطَلقاً لطائفةٍ من الحكايات عن الحاج مراد.

أدرك رجال القصر أنهم عندما يضخّمون قيمة الحاج مراد فإنهم يبعثون فيه رضاً ظاهراً.

هذا الرجل يملك شجاعة مدهشة! كائنٌ عظيمُ الشأن...

مثلاً في سنة ١٨٤٩، اقتحم، في وضح النهار مدينة «تمير - خان - شورا» ونهب جميع المخازن.

وروى هذه الحكايةَ أرمنيٌ جالسٌ على طرف المائدة كان في المدينة في الفترة التي حدث فيها هذا العمل الباهر. وعلى الإجمال، كُرّس الغذاءُ كله لهذه الحكايات عن الجبلي، كلهم أثْنوا على شجاعته وذكائه ونبله. وذكّر أحدُهم بأن الحاج مراد أمر بقتل ستة وعشرين أسيراً. فكان الجواب على هذه الحكاية الجملة المبتذلة: «ماالعمل؟ الحرب حربٌ».

هذا رجلٌ عظيم.

قال الأمير الجيورجي الذي كان معدوم الذكاء لكنه بارعٌ في فنّ التملّق:

لو ولد في أوروبا فلربما كان نابليون جديداً.

لقد كان يعلم أنه عندما يذكر اسم نابليون الذي نال الأميرُ فورونتزوف صليبه الأبيض في قتاله له، فانه سيُدخل السرور إلى نفسه.

وأوحى فورونتزوف:

لنقلْ جنرالاً كبيراً في الخيّالة، لا نابليون.

إن لم يكن نابليون، فعلى الأقل «مورا».

واسمه الحاج مورا

قال أحدهم:

غادر الحاجُ مراد الجبلَ، هذه نهايةُ شامل.

أضاف مدعوٌ آخر:

- هم يحسّون في الوقت الحاضر (إن كلمة: الوقت الحاضر لها دلالتها عند فورونتزوف) أنهم لا يستطيعون أن يصمدوا.

قالت «مانان اوربيلياني:

كل هذا بفضلكَ.

حاول الأمير فورونتزوف أن يُخفّف من موجة التملق التي أوشكت أن تغمره، ومع ذلك فإنه أحسّ بالرضا، وقد صحب جارته إلى الصالون بعد انتهاء الغذاء، في أحسن حالاته.

قُدّمت القهوة، وبدا الأمير كثير البشاشة نحو مدعويّه، وحين حدّث الجنرال ذا الشارب المنتفش، حاول أن يُدلِّل له أنه لم يلاحظ خُرْقه.

وبعد أن بادل كلٌّ واحد بعد كلمات، أخذ يلعب بالورق. و لم يكن يلعب سوى تلك اللعبة القديمة المسماة «لومبر». وشاركه في اللعب الأمير الجيورجي، وجنرال أرمني علّمه فرّاشُ نائب الملك اللعبة، والدكتور اندريفسكي، وهو إحدى القمم الطبية، وبعد أن وضع

فورونتزوف بجنبه علبة السجائر الذهبية التي عليها صورةُ الاسكندر الأول، همّ بتوزيع أوراق اللعب عندما دخل خادمٌ ايطالي، جيوفاني، يحمل رسالةً على طبقٍ فضّي.

رسالة أخرى، يا صاحب السيادة.

فضّ فورونتزوف الغلاف، وهو يعتذر، وأخذ يقرأ، كانت الرسالة من ابنه الذي كان يذكر تفاصيل خضوع الحاج مراد، وتفاصيل نقاشه مع «ميلر - زاكوملسكي». اقتربت الأميرة وأرادت أن تعرف ماذا يكتب ابنهما.

وهذه أيضاً في الموضوع ذاته. حدثت له بعضُ المزعجات مع آمر الموقع.

أخطأ سيمكون. لكن كل ما ينتهي نهاية حسنة فهو حسنٌ.

وناول امرأته الرسالة.

ثم عاد إلى الطاولة نحو شركائه في اللعب الذين كانوا ينتظرونه باحترام، ودعاهم إلى تناول أوراقهم من جديد.

وبعد أن وزّع فورونتزوف أوراق اللعب، فتح علبة التبغ، وتلك علامة على أنه كان رائق المزاج جداً، وتناول بيده البيضاء المغضّنة قبضةً من التبغ الفرنسي، وحملها إلى منخريه واستنشقها.

- ١٠ -

عندما مثل الحاج مراد بين يدي فورونتزوف في اليوم التالي، كان البهو غاصاً بالناس، وقد جاء الجنرال ذو الشارب المنتقش، في أفخم

بزّاته، وبكل أوسمته، ليستأذن بالانصراف، وكان حاضراً هناك أيضاً آمرُ الفوج المهدّد بالملاحقة بسبب اختلاسات في التموين، وثريٌّ أرمني يحمل رخصة امتياز تجاري يريد هذه الرخصة، محتمياً بالدكتور «آندريفسكي»، وأرملة ضابط قُتل حديثاً جاءت تطلب معاشاً وأن تكون تربية أولادها على نفقة الدولة. وكان هناك أيضاً أمير جيورجي مفلسٌ، يرتدي بزةً وطنية برّاقةً، وكان يسعى إلى الحصول على أملاك تخصّ الكنيسة.

وكان هنا أيضاً مفوّض شرطة يحمل ملفاً كبيراً من الورق الذي يحوي خطةً لحمله، وطرائق جديدة لاحتلال القوقاز بسرعة، وأخيراً «خانٌ» جاء ليروي في بيته أنه قابل نائب الملك.

كان كل واحد ينتظر دوره للمقابلة، وكان مرافقٌ عسكري شاب جميلٌ وأشقر، يُدخل الزائرين إلى مكتب الأمير، الواحد بعد الآخر، وعندما دخل الحاج مراد إلى غرفة الانتظار، وهو يسير بخطوات ثابتةً، وإن كان يعرج قليلاً، سمع اسمه يتردّد همساً من جميع الجهات.

كان يرتدي جبّة بيضاء، طويلة، لبس تحتها صدارةً بلون قرميدي تزينها شريطةٌ فضية دقيقة، وكان يحتذي جزمةً من قطعتين، ساقها أسود، وجزؤها الأسفل يشدّ قدمه شدّاً، وقد اعتمر بقلنسوة لُفت عليها عمامةٌ، هي نفسها التي سبّبت توقيفه على يد الجنرال «كلوجينو»، بناء على وشاية «أحمد خان» مما حمله على الخضوع لشامل.

اجتاز الحاج مراد قاعة الانتظار، وقد مال جسمه قليلاً إلى الجهة التي يعرج فيها، وكانت عيناه المفتوحتان بكل اتساعهما تنظران بهدوء أمامه، لكن كمَنْ لا يرى أحداً. حيّاه المرافقُ العسكري الوسيمُ واقترح عليه أن يجلس ريثما يُبلغ نائب الملك بوصوله، قبل الحاج

مراد عرضه، وظلّ جامداً في مكانه، ناظراً إلى الحاضرين، ويده على خنجره، وقد قدّم إحدى ساقيه إلى الأمام. قدم الترجمان، الأمير «تاركانوف» نفسه إليه وأخذ يحدثه. أجابه الحاج مراد كارهاً وباقتضاب. خرج من مكتب نائب الملك الأمير «كوميكس» الذي تقدّم بشكوى على مفوّض الشرطة.

أدخل المرافق العسكري الحاجَّ مراد رأساً. استقبله نائب الملك واقفاً إلى جنب طاولته، لم يكن وجهه الشاحب المغضَّن باسماً، جذلان كما كان البارحة، لكنهُ كان صارماً ورسمياً.

عندما دخل الحاجُ مراد الغرفة الواسعة التي كانت توجَد فيها هذه الطاولة المهيبة، والتي كانت تنيرها نوافذ كبيرة عليها ستائر خضراء، وضع يديه النحيفتين المسمرّتين على صدره، في الموضع الذي تتصالب فيه جبّتُه، وقال بوضوح، وباحترام، باللغة الكومبكية التي يتقّنها:

إني أضع نفسي تحت الحماية العالية للقيصر العظيم، وتحت حمايتك، وأعدُ بخدمة القيصر الأبيض بأمانة وحتى آخر قطرة من دمي، وآملُ أن أكون نافعاً في الحرب ضد شامل عدوّي وعدوكم.

كان المتحدّثان يُحدان النظر، أحدهما في الآخر، وهما يتكلمان. وكانت نظراتهما، وهي تتلاقى، تَعْني الكثير من الأشياء التي لا سبيل إلى التعبير عنها، وفي جميع الأحوال تَعْني شيئاً آخر غير ما ترجمه الترجمان. لم تكن هذه النظرات تكذب، كانت عينا «فورنتزوف» تؤكدان بوضوح أن الجنرال لا يصدِّق كلمة ممّا كان يقوله له الحاجُ مراد، وأن الحاج مراد هو عدو الروس اللدود، وأنه سيبقى أبداً كما كان، وأنه إن خضع فلأنه لا يملك مخرجاً آخر. وكان الجبلي يتكهّن بأفكار الجنرال، لكنه مع ذلك كان يُعلن عن أمانته، وكانت عينا الحاج

مراد تقولان أن على هذا الشيخ أن يفكّر في موته بدلاً من الحرب، وأنه محتال بالرغم من شيخوخته، وأن المهم أن يكون حذراً معه، وكان فورونتزوف، من جهته، يستشف أفكار محدّثه، وكان يكلّمه لأن ذلك يبدو له أنفع لنجاح جيوشه.

أمر فورونتزوف الترجمان:

قلْ له (كان فورونتزوف يخاطب الضباط الجدد بضمير المفرد) إن إمبراطورنا رحيم جداً لكنه قويّ جداً أيضاً، وأرجو أن يلتفت إلى طلبي وأن يضعه في خدمته.

وسأل الترجمانَ الأميرَ «تاركانوف» وهو يُحدق في الحاج مراد:

هل ترجمت؟

وريثما يَردُ جواب سيدي الأعلى، فاني سأمنحه ملجأً وسأسعى إلى أن أجعل إقامته هنا ممتعة.

وضع الحاج مراد يده على قلبه ولفظ بسرعة بضع كلمات. كان يقول، كما ترجم الترجمان، إنه ما كان ليخون لولا أن عدوه «أحمد خان» وشى به إلى الجنرال «كلوجينو».

أجاب فورونتزوف:

أعلمُ ذلك، أعلم ذلك. (كان على علم بهذه القضيّة، لكنه نسيها منذ زمن طويلٍ) أعلم ذلك.

ردد ذلك وهو يجلس ويشير إلى الأريكة الموضوعة أمام الجدار ليجلس عليها الحاج مراد.

لكن الحاج مراد ظل واقفاً وأسبل كتفيه القويتين وكأنه لم يكن يستطيع أن يعزم على الجلوس بحضور مثل هذه الشخصية القديرة.

قال الحاج مراد وهو يقطب حاجبيه ويزّم فكيه:

- أحمد خان وشامل كلاهما عدوٌّ لي. مات أحمد خان قبل أن يتسنى لي الانتقام منه، لكن «شامل» حيّ ولن أموت دون أن أستوفي منه ديني:

قال فورونتزوف بهدوء:

نعم، نعم.

وسأل الترجمان:

لكن كيف سينتقم من شامل؟

وأضاف:

قل له إنه يستطيع الجلوس.

رفض الحاج مراد الجلوس وأجاب عن سؤال فورونتزوف بأنه جاء إلى الروس ليساعدهم على تدمير شامل.

قال فورونتزوف:

حسنٌ، حسنٌ. وماذا ينوي أن يفعل. اجلسْ، اجلسْ.

جلس الحاج مراد وأعلن أنه إذا ما أُعطيَ جنداً، وأُرسل على بلاد «الليسغين»، فهو يضمن أن يتمكن من تحريض شعب داغستان على العصيان، وأن «شامل» لن يستطيع الصمود.

قال فورونتزوف:

هذا حسن، هذا ممكن، سأفكر في ذلك.

عندما تُرجمت هذه الكلمات للحاج مراد بدا مشغول البال:

قل للقائد العام أن أسرتي أسيرة أعدائي، وأنها ما دامت في الجبال فستظل يداي مكبلتّين ولن أستطيع أن أؤدي خدمة. سيقتل شامل امرأتي وأمي وأولادي إن مشيتُ ضدّه، لكن إذا استنفذ الأميرُ أسرتي بمبادلتهم بأسرى، حينئذٍ سأبيد «شامل» أو أموت.

ردد فورونتزوف عندما تُرجمت له هذه الجمل:

حسن، حسن، سأفكر في ذلك كله، والآن فليذهب إلى رئيس الأركان وليعرض له بالتفصيل وضعه ونياته ورغباته.

هكذا انتهت المحادثة الأولى بين الحاج مراد وفورونتزوف.

في مساء اليوم نفسه، في المسرح الجديد ذي الطراز الشرقي، كانت تُقدَّم اوبرا ايطالية. كان فورونتزوف في مقصورته. ظهرت فجأةً قامةُ الحاج مراد اللافتة للنظر، في ردهة المسرح، وقد اعتّم بعمامته، ومشى وهو يعرج عرجاً خفيفاً، بصحبة «لوريس ميليكوف»، المرافق لعسكري لفورونتزوف، وجلس في الصف الأول، استمع إلى الفصل الأول وهو جالسٌ جلْسةً ملأى بالوقار الخاص بالشرق وبالمسلمين، دون أن يُبدي أدنى دهشة، بل بلا مبالاة تامة على الأصح، ثم نهض واستعرض بهدوء المشاهدين، وخرج من القاعة بعد أن استرعى بشخصه الانتباه العام، في اليوم التالي، الاثنين، أُقيمت سهرةٌ في قصر فورونتزوف. كانت تُسمع في القاعة الكبرى التي أضيئت بالأنوار

الباهرة، موسيقا اوركسترا متوارية «في حديقة الشتاء». كانت السيدات، الفتيّات منهن ومَنْ كنّ أكبر سناً، في فساتين مقوّرة تكشف عن الأذرع والنحور، يرقص مع رجالٍ في بزات رسمية فاتحة. وقرب المقصف، كان الخدم بخلعهم الحمراء والجوارب البيضاء والأحذية الملّمعة يصبّون الشمبانيا ويجوبون القاعة ويقدّمون الحلويات للسيدات. وكانت زوجة نائب الملك، في زينة المساء هي أيضاً، مع أنها لم تعد شابةً، تتجوّل في الصالون باسمةَ الوجه. بل إنها ذهبت بصحبة ترجمان لتبادل الحاج مراد بضع كلمات لطيفة، وكان يتأمل المشهد باللامبالاة نفسها التي أبداها البارحة، وبعد ربة البيت، بادرت سيّدات أخر، دون تحرّج إلى التجمع حول الحاج مراد، كنّ جميعاً يُلقين عليه السؤال نفسه، كنّ كلهن يسألنه عن رأيه فيما يراه حوله.

فورونتزوف نفسه الذي وضع كتفيتين ذهبيتين وبنوداً وعلّق الصليب الأبيض في قبته، وتوشح بأرفع الأوسمة، ذهب أيضاً إلى الحاج مراد وسأله السؤال نفسه، مقتنعاً، من غير شك، أن ما يراه قد أعجبه، أجابه الحاج مراد، كما أجاب الآخرين، بأن ذلك كله غير موجود في البلد الذي جاء منه، دون أن يبدي رأياً، على كل حال، لا خيراً ولا شراً.

عندما دقت الساعة إحدى عشرة دقةً، تحقق من الوقت في الساعة التي أهدته إياها ماري فاسيليفنا وسأل «لوريس ميليكوف» إن كان يستطيع أن ينصرف، فأجابه هذا بالإيجاب، لكنه أضاف أن من الأفضل مع ذلك ألا ينصرف على الفور، بيد أن الحاج مراد لم يشأ أن يظل زمناً أطول، فصعد العربة التي وضعت تحت تصرفه وعاد إلى مكان إقامته.

استقبل الحاج مراد، بعد خمسة أيام من وصوله تفليس، المرافق العسكري للقائد العام نائب الملك.

قال الحاج مراد بنعومته المعتادة، وهو يحني رأسه ويحمل يده إلى قلبه:

يغتبط رأسي ويداي بلقاء نائب الملك.

وأضاف ببشاشة وهو ينظر إلى لوريس ميليكوف[١١] في عينيه:

مُرْ.

جلس لوريس ميليكوف في مقعد، قرب الطاولة، وجلس الحاج مراد على الأريكة، واضعاً مرفقيه على ركبتيه، مطرق الرأس، واستمع بانتباه إلى لوريس ميليكوف الذي كان يتكلم التترية بطلاقة.

أعلن المرافقُ العسكري أن الأمير يرغب أن يسمع الحاج مراد يروي بنفسه حياته، مع معرفته به.

ستتكلم وسأسجل ما تقوله، وسأترجم ما تقوله إلى الروسية، وسيُرسل الأمير ما ترويه إلى الإمبراطور.

لزم الحاجُ مراد الصمت (لم يكن يمتنع عن مقاطعة محدّثيه فحسب، لكنه كان ينتظر دائماً ليجيب، وليعلم إن كانت ستنضاف بعض الكلمات إلى ما قيل)، ثم رفع رأسه، ورد قلنسوته إلى الخلف، وابتسم

---

١١ - لوريس ميليكوف: (١٨٢٥ - ١٨٨٨) من أصل أرمني، أصبح جنرالاً فيما بعد، وبرز في الحرب ضد الأتراك، وأصبح «كونتاً» ورئيس وزراء جد ليبرالي (١٨٨٠ - ١٨٨١).

تلك الابتسامة الطفولية التي خلبت ماريا فاسيلييفا، وقال، وقد فتنته، على نحو ظاهر، فكرةُ أن الإمبراطور سيقرأ ترجمة حياته.

ارو لي حياتك (خطاب المفرد بضمير الجمع لا يوجد في اللغة التترية) منذ البداية، ودون أن تستعجل.

قال لوريس ميليكوف ذلك وأخرج من جيبه دفتراً صغيراً لتسجيل الملاحظات.

- إني أقبل راضياً، لكن هناك الكثير ممّا يُروى. فقد وقعتْ في حياتي حوادثُ كثيرة.

إن كنتَ لا تستطيع أن تنتهي في يوم، فستُتمم في اليوم التالي،

هل ينبغي أن أبدأ من البداية؟

نعم، منذ البداية، أين وُلدتَ، وأين عشتَ.

أطرق الحاج مراد رأسه من جديد، واستغرق في التأمل فترةً من الزمن، ثم أمسك بعصا كانت قرب الأريكة، وأخرج من تجويف خنجره ذي المقبض العاجي المزدان بالذهب، سكيناً صغيراً من البولاد، شفرتُه قاطعة كشفرة موس الحلاقة، وبدأ يتكلم وهو ينجر القضيب.

اكتبْ: ولدتُ في «تسيلميس» وهي قرية صغيرة، كرأس الحمار، كما نقول عندنا، في الجبل، وغيرَ بعيد عنها، على مرميَيْن من بندقية، تقوم «خون زاخ» مقر الخان، كانت أسرتنا مرتبطة بأسرته ارتباطاً حميماً، وعندما وُلد أخي الأكبر، عثمان، أرضعته أمي في الوقت نفسه الذي أرضعت فيه ابن الخان: «أبو نوتزال خان»، ثم أرضعت

ابنَ الخان الثاني واسمه «أمّه خان»، الذي أَنْضب حليبها، ومات أخي الثاني «أحمد» بسبب ذلك، حينئذ أبت أمي أن تكون مرضعاً، أمرها أبي لكنها رفضت، قالت: «سأجوّع ولدي، ولن أذهب»، وحينئذ طعنها أبي بخنجره - وكان عصبيّ المزاج - وكاد يقتلها لو لم تردّه عن ذلك، وهكذا فإنها لم تتركني، بل إنها ألّفت لي، حينئذ، أغنية...

لكن ربما كان من غير المجدي أن أروي ذلك؟

قال لوريس ميليكوف:

لا، لا، اروِ كل شيء.

استغرق الحاج مراد في ذكرياته، تذكّر عندما كانت أمه تضعه في السرير بجانبها، تحت معطف من جلد الخروف، على سطح بيتهم، وعندما كان يطلب إليها أن تُريه آثار الجرح الذي جُرحتْه في جنبها، تذكّر الأغنية وتلا كلماتها: «خنجركَ الذي من البولاد خرق صدري الأبيض، لكني وضعتُ على صدري شمسي، ولدي، غسلتُه بدمي الدافئ فاندمل الجرحُ بلا أعشاب ولا جذور، لم أخشَ الموتَ، ولن يخشى الموتَ ابني الباسل أيضاً».

وأضاف الحاج مراد: «وهذه الأم، أمي، موجودةٌ عند شامل ويجب إنقاذها».

تذكر البئر تحت الجبل، حيث كان يصحب أمه متشبثاً بثوبها، وهي ذاهبة لتستقي الماء، وتذكّر أيضاً المرة الأولى التي حلقتْ له أمهُ فيها رأسه، وتذكر أيضاً دهشته حين رأى، في حوض من النحاس اللمّاع معلّق في الجدار، رأسَه المدوّر المائل إلى الزرقة، تذكّر كلبه الهزيل الذي كان يلحس له وجهه، والرائحة الخاصة، رائحة الدخان والحليب

الطازج، والفطاير التي كانت تُعدها أمه، تذكّر يوماً ذهبت فيه أمُّه إلى بيت جده وحملته على ظهرها في سلة، تذكّر جدَّه، المتغضّن، بلحيته البيضاء، وهو ينقش الفضّة بيديه البارزتي العروق، والذي كان يحفّظه الصلاة.

أردف وهو يهزّ رأسه:

نعم، رفضت أمي أن تعطي حليبها ولداً آخر. فوظفت امرأة الخان مرضعاً آخرى، لكنها ظلّت تحبّ أمي، وظلّت أمي تقودنا إلى بيت الخان حيث كنا نلعب مع أولاده، وكانت امرأة الخان تحبّنا جميعاً. كان هناك ثلاث خانات: أبو نوتزال خان، أخو أخي عثمان من الرضاع، أمّه خان الذي كان سيكون أخي من الرضاع، والأصغر «بولاتش خان» الذي رماه شامل ف هوّةٍ.

لكني سأروي ذلك فيما بعد. كان عمري خمسة عشر عاماً عندما وصل المريدون القرية. كانوا يضربون الحجارة بسيوفهم الخشبية ويصيحون: «أيها المسلمون، الغزوات[١٢]! انتقل التشيتشين إلى صفوف المريدين، وأخذ «الآفار» يحذون حذوهم. في هذه الحقبة، كنتُ أعيش في القصر. كان الخان يعتبرني أخاً له، كنتُ أفعل ما أشاء، وأصبحتُ غنياً، كانت لي خيولٌ وأسلحةٌ ومالٌ أيضاً. كنتُ أعيشُ للذّة، و لم أكن أفكر في شيء، عشتُ هكذا حتى مقتل «غازي ملاّ» وحلول «حمزة» محله.

أرسل هذا إنـذاراً إلى جميع الخانات يأمرهم فيه بالاعتراف بالغزوات، وإلا دمّر مقرّهم، كان ذلك يتطلّب التفكير، كان الخانات

---

١٢ – الغزوات في التترية: الجهاد في سبيل الله.

يخشون الروس ولا يريدون أن يقبلوا بالغزوات، أرسلتنا امرأةُ الأمير، أمه خان وأنا، إلى تفليس، للحصول على حماية القائد الروسي لنا من حمزة، كان القائد هو البارون «روزن» الذي أبلغنا، دون أن يستقبلنا، أنه سيساعدنا، لكنه، في الواقع، لم يفعل شيئاً، و لم يكن ضباطُه يأتون إلينا إلا ليلعبوا بالورق مع «أمّه الخان». كانوا يسقونه الخمر، ويقودونه إلى أماكن سيئة السمعة، ففقد في القمار كلّ ما كان يملك. كان أمّه خان قوياً مثل ثور، شجاعاً مثل أسد، لكن نفسه كانت سيّالةً مثل الماء، ولو لم آت به لأضاع آخر جياده، وأسلحته. هذه الإقامة في «تفليس» غيرّت فكرتي، وما إن عدتُ إلى الوطن حتى حاولتُ أن أقنع امرأة الأمير وأولادها بقبول الغزوات.

سأل لوريس ميليكوف:

لماذا غيّرت فكرتك؟ ألم يعجبك الروسُ؟

صمت الحاج مراد لحظة. ثم قال بلهجة حاسمة:

نعم، لم يعجبوني.

أغمض عينيه وأضاف:

وسببٌ آخر دفعني إلى اعتناق الغزوات.

وما هو؟

التقينا، الخان وأنا، بالمريدين قرب تسيلميس، فرّ اثنان منهم، وقتلتُ الثالث بمسدّسي، وعندما اقتربتُ منه لأنزع سلاحه، كان ما يزال حيّاً، حدّق في وقال: لقد قتلتَني، لا بأس لكنك مسلم شاب وقوي اعتنقْ الغزوات، الله يريد ذلك.

ثم ماذا؟ هل قبلتَ؟

أجاب الحاج مراد:

لم أقبل، لكنني أخذت أفكرّ.

وتابع:

عندما دنا حمزة من «الخوزناخ»، ندبْنا إليه الشيوخ ليعلنوا له قبولنا للغزوات، وطلبنا منه أن يرسل إلينا عالماً قادراً على أن يشرح لنَا كيف نمارسها، أمر حمزة بقصّ شوارب الشيوخ، وثَقْب مناخيرهم وتعليق الحَلق فيها، ثم أعادهم إلينا، ورووا أن حمزة وافق على إرسال شيخ ليعلّمنا الغزوات، لكن بشرط أن تُرسل إليه امرأةُ الخان ابنها الثاني رهينةً، احتفى حمزة بـ «بولاتش خان» ثم طلب أن يُؤتَى بأخويه الأكبرين، وفضلاً عن ذلك أعلن أنه سيستخدم الخانات كما فعل أبوه من قبله، كانت امرأةُ الخان ضعيفة وغبيةً وقاسية، ككل النساء المستقلاّت، على كل حال... بيد أنها ارتابت فلم ترسل سوى واحد من أبنائها هو «أمّه خان»، فصحبتُه، في الطريق وعلى كيلو متر من بيت حمزة، أقبل علينا المريدون: كانوا يغنّون ويطلقون النار ويلعبّون خيولهم حولنا، وعندما وصلنا، استقبل حمزة بنفسه «أمّه خان» بالرسميات التي يُستقبل فيها الخانُ، وقال له:

لم أسئْ إلى بيتكم قط، ولا أرغب في الإساءة إليه، لستُ أطلب منكم سوى شيء واحد، ألاّ تقتلوني وأن تسمحوا لي بتجنيد الناس في سبيل الغزوات، وأنا سأخدمكم بجيوشي، كما خدم أبي أباكم، دعوني أعيشُ في بيتكم، سأساعدكم بنصائحي وأفعل ما يحلو لكم.

«كان «أمه خان» ضعيف التعبير، فلم يَدْر ماذا يقول، وصمت،

أعلنتُ أنّه إذا كان الأمرُ كذلك فينبغي لحمزة أن يذهب إلى «خوزناخ»، وأن الخان وزوجته سيستقبلانه بكل مظاهر التكريم التي يستحقها، لكنهم قطعوا عليّ كلامي، وحينئذ كان لي أول صدام مع شامل الذي كان يقف بجنب الإمام[١٣] قال لي:

لم نكلّمك أنتَ، وإنما كلّمنا الخان.

سكت، قاد حمزة هذا الأخير إلى خيمته.

عدت إلى البيت، حاول الرسل إقناع زوجة الخان بإرسال ابنها الأكبر إلى حمزة، وإذ توجستُ المكيدة بوضوح، حذّرتها من ذلك، لكن جميع الناس يعلمون أن المرأة تملك في رأسها من العقل بقدر ما على البيضة من شعر، اقتنعت زوجة الخان وأمرت ابنها بالمسير إلى حمزة. كان «أبو نوتزال» كارهاً للذهاب، لكن أمه زعمت أنه خائف. آه! كانت تستطيع أن تلسع كالزنبور، في الموضع الحسّاس، جُرحَ ابنُها، فصمت وأسرج الخيلَ، صحبتُه، استقبله حمزة أفضل مما استقبل «أمه خان». جاء بنفسه إلى لقائنا على مرميين للبندقية من خيمته، كان يَحفّ به فرسانه، حاملين شعار الغزوات والفرسان البواسل، وعندما وصلنا المعسكر، اقتاد حمزة الشاب إلى خيمته، بينما بقيتُ مع الخيول.

كنتُ في سفح الهضبة عندما سمعتُ طلقات نارية تدوي في هذه الخيمة، دخلتُها راكضاً، كان «أمّه خان» راقداً على الأرض، ورأسه يسبح في بركة من الدم، كان أخوه يتشاجر مع المريدين، كان يمسك بيده اليسرى وجهه الذي جُرح بوحشية، بينما كانت يَدُه اليمنى

---

١٣ – كان حمزة هو الإمام ثم خلفه شامل في الإمامة.

مسلّحة بخنجر تطعن كلّ من يقترب منه. قتل بمرأى مني أخا حمزة، ثم انقضّ على الآخر، لكن المريدين في هذه اللحظة أطلقوا النار فسقط.

سكت الحاج مراد ورُئيَ الدمُ يتدفق إلى وجهه الأسمر وتحتقن عيناه به، وأردف:

استولى علي الخوف فولّيتُ هارباً.

قال لوريس ميليكوف:

آه! آه! كنتُ أظنّ أنك لم تخف قط!

لم أخف بعد ذلك قط. لم أنس الخجل الذي أحسستُ به حينئذٍ، وكنتُ كلما فكّرتُ فيه لم أَعدْ أخشى شيئاً.

- ١٢ -

قال الحاج مراد:

كفى الآن، حان موعدُ الصلاة.

وأخرج من جيبه ساعة فورونتزوف، ضغط برفق على النابض، مُميلاً رأسه قليلاً إلى جانب الساعة، واستمع وهو يبتسم ابتسامته الطفولية التي تعودّها، دّقت الساعة الثانية عشرة وربعاً.

قال:

هذه هدية من صديقي فورونتزوف.

فلاحظ لوريس فيليكوف:

صحيح؟ جميلةٌ جداً ساعتُكَ، اذهب إلى صلاتك، وسأنتظرك.

أجاب الحاج مراد وهو يأوي إلى غرفة النوم:

طيّب!

سجّل لوريس ميليكوف في دفتره أهم المقاطع في الحكاية التي سمعها، ثم أشعل سيجارة، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، وعند اقترابه من الغرفة المجاورة، سمع نقاشاً حامياً باللغة التترية، وفهم أنهم حُراس الحاج مراد، ففتح الباب ودخل الغرفة.

كانت الغرفة ملأى برائحة الشحم الزنخة التي ترافق الجبليين. كان «حمزالو» الأصهب جالساً قرب النافذة، على ثوب من الصوف، مرتدياً معطفاً من جلد الخروف ممزقاً ووسخاً.

كان يُصلح رسناً، وهو يفيض في الحديث متلظِّياً، بصوته المبحوح، عندما دخل لوريس ميليكوف صمت وتابع عمله دون أن يعير القادم المجهول انتباهاً، وكان «خان ماغوم» ذو الأسنان البيضاء والعينين اللامعتين، جالساً إزاءه، كان يكرّر أبداً الشيءَ نفسه.

وكان «إيلدار» الجميل مشمِّراً كمّيه عن ذراعيه العبلتين، يصقل سرجاً معلّقاً بكلاّب صغير، و لم يكن «حنيفي» في الغرفة، بل كان يُعد الطعامَ في المطبخ.

سأل لوريس ميليكوف «خان ماغوم» بعد أن حيّاهم:

فيمَ كنتم تتناقشون؟

أجاب «خان ماغوم» وهو يشدّ يد الضابط:

ما انفكّ يمجد «شامل».

وفي رأيه، أن «شامل» رجلٌ عظيم، عالم، وليّ من الأولياء، أبيٌّ.

إذن لماذا تركه؟ تركه وما زال يمجّده؟

تركه وما زال يمجّده.

ماذا، أتعتبره وليّاً حقاً؟

أجاب «حمزالو» بلهجة مقتضبة:

لو لم يكن وليّاً لما تبعه الشعبُ.

أجاب «خان ماغوم»:

ليس «شامل» الولي، وإنما «منصور» هو الذي كان ولياً، وليّاً حقيقياً، وعندما كان إماماً، كان الشعبُ غير ما هو عليه اليوم، كان يطوف القرى فيتلقاه الجمهور، ويقبّل الناسُ أطراف جبته ويتوبون عن ذنوبهم ويقسمون ألا يأتوا منكراً بعد الآن، ويروي الشيوخُ أن الناس في هذه الحقبة كانوا يعيشون بقداسة، لم يكونوا يُدخنّون ولا يشربون، ولا يتخلّفون عن الصلاة، ويغفر بعضُهم لبعض إهاناتهم، وحتى ولو كان بينهم دمٌ، وعندما كان الناس يعثرون على مال أو على أشياء ثمينة كانوا يعلّقونها على عمود موضوع في الطريق، وفي ذلك الزمان، كان الله يرعى الشعب، كانت الأمور جدّ مختلفة عما هي اليوم.

أجاب حمزالو:

الناس حتى اليوم لا يدخّنون ولا يشربون، في الجبال.

ردّ «خان ماغوم»، وهو ينظر إلى لوريس ميليكوف:

شاملُكَ «لاموروي»[١٤].

ردّ حمزالو حاسماً النقاش:

وهو «لاموروي» يعيش في الجبال مثل النسور!

قال «خان ماغوم» وهو يكشف عن أسنانه اللامعة وقد ظهر عليه الرضا بالرد الحاذق الذي ردّه خصمُه:

مرحى، لقد أحسن الردَّ.

وإذ شاهد بين يدي «لوريس ميليكوف» علبَة سجائر، طلب أن يدخّن، فنبهه الضابط إلى أن ذلك ممنوع، لكن «خان ماغوم» غمز بعينه، وأشار إلى غرفة الحاج مراد وأجاب بأن ذلك مسموح ما دام لم ير ذلك، وضع بغير حذق السيجارة بين شفتيه الحمراوين، وأخذ يدخّن بسرعة وينفخ كل نفس.

قال حمزالو هو يغادر الغرفة:

ليس هذه حسناً.

رماه «خان ماغوم» بنظرة سريعة، وظل يدخّن، وسأل لوريس ميليكوف أين يستطيع أن يشتري بسعر زهيد بلوزةَ وقلنسوة بيضاء.

ماذا، أمعك مال كثير.

معي ما يكفي.

---

١٤ - لاموروي: لقب للتحقير يطلق على الجبليين.

قال إيلدار الذي ابتسم وهو يلفت وجهه الجميل نحو لوريس ميليكوف:

اسأله من أين له مثل هذا المال.

أجاب «خان ماغوم» بحدّة:

ربحتُه في الرهان.

وروى كيف أنه وقعَ أمس، وهو يتنزّه في تفليس، على جماعة من الروس والأرمن يتراهنون في لعبة «الوجه والقفا». كان الرهان عظيماً، الكثير من القطع الفضيّة وثلاث قطع ذهبية، لقد فهم «خان ماغوم» كنه اللعبة مباشرة، وخشخش بالقطع النقدية النحاسية التي في جيبه، فدخل حلقة اللاعبين معلناً أنه يراهن على المبلغ المطروح كله.

سأل الضابط:

كيف على المبلغ كله؟ أكان معك كل هذا المال؟

أجاب خان ماغوم ضاحكاً:

كان معي اثنا عشر كوبيكاً.

وإذا خسرتَ؟

معي هذا!

وأشار خان ماغوم إلى مسدّسه.

لماذا أعطيه؟ كنتُ سأفرّ، وإذا ما لحق بي أحدٌ قتلته هذا كل شيء.

وهل ربحتَ؟

لممتُ كل شيء وانصرفتُ.

فهم لوريس ميليكوف فهماً جيداً «خان ماغوم» و«إيلدار»، كان الأول إنساناً مرحاً، محباً للهو لا يدري كيف يصرف فيض نشاطه وحيويته، خفيف العقل، فرحاً أبداً، مقامراً بحياته وبحياة الآخرين، هذا الميلُ إلى المخاطرة هو الذي قاده الآن إلى الروس، وقد يردّه، غداً، إلى شامل، أما «إيلدار» فكان هادئاً، قوياً، حازماً ومخلصاً لسيده، ومنطقياً مع نفسه لكونه في «تفليس»، لكن «حمزالو» يكّون لغزاً، لم يكن مخلصاً كل الإخلاص لقضية شامل فحسب، لكنه كان أيضاً مُشبعاً بشعور لا يُقهر من الاحتقار والاشمئزاز إزاء كل ما هو روسي، ولم يفهم لوريس ميليكوف لماذا انتقل «حمزالو» إلى صفوفهم، والفكرةُ التي كان يشاطره إياها الكثيرُ من رؤسائه، وهي أن خضوع الحاج مراد، وعداوته لشامل لم يكونا إلا كذبةً، كانت تنضج في رأسه، وكذلك الفكرةُ التي مفادُها أن حليفهم الجديد جاءَ ليكشف نواحي الضعف لدى الروس، وقال الضابط في نفسه: «فإذا تمّ له ذلك فرّ ووجّه قوى الجبليين نحو أقل التقاط حمايةً، وكان العداء الذي أظهره «حمزالو» يُدعّم رأيه.

- فكر لوريس ميليكوف: إن هؤلاء والحاج مراد نفسه يحسنون إخفاء نياتهم الحقيقية، لكن هذا يفضح نفسه بالاحتقار الذي يجاهر به تجاهنا.

حاول أن يبدأ الحديث مع «حمزالو» بأن سأله إن كان لم يضجر هنا.

حدجه الرجلُ دون أن ينقطع عن عمله، ودمدم بصوتٍ مبحوح:

لا، لستُ أضجر.

وبهذه الطريقة أجاب عن جميع الأسئلة التي أُلقيتْ عليه، كان لوريس ميليكوف ما يزال هنا حين دخل حارسُ «الحاج مراد» الرائع، حنيفي وكان يغطي وجهه وعنقَه وصدرَه شعرٌ كثيف، كان رجلاً قوياً، قليل الكلام، منكباً على شغله، لا يبقى أبداً بلا عمل وينفّذ أوامر معلّمه دون أن يفوه بلكمة، سأله لوريس ميليكوف من أين هو ومنذ متى دخل في خدمة الحاد مراد:

أجاب حنيفي:

منذ خمس سنوات، نحن، من القرية نفسها.

وأضاف بهدوء وهو ينظر إلى وجه الضابط:

أبي قَتَلَ عمّه، وأرادوا أن يقتلوني أيضاً، حينئذ طلبت إليه أن يقبلني كأخ.

ماذا يعني القبول كأخ؟

تركتُ شعري وأظافري تنمو مدّة شهرين، وحينئذ ذهبتُ إلى بيتهم، فاستقبلوني وقادوني إلى أمهم، فأرضعتني من حليبها: وهكذا صرت أخاً لهم.

تناهى صوتُ الحاج مراد من الغرفة المجاورة، كان ينادي إيلدار، فمضى هذا إلى الصالون بخطوات سريعة.

قال للوريس ميليكوف وهو يعود:

أنه يطلبُكَ.

بعد أن أعطى لوريس ميليكوف «خان ماغوم» الفَرِحَ سيجارةً، قصد غرفة الجبلي.

- ١٣ -

عندما دخل لوريس ميليكوف الصالون، استقبله الحاج مراد وهو يجلس على الأريكة:

أنتابع؟

بالتأكيد. لقد تحدثتُ إلى حرسك، وأحدهم فتى جسورٌ مرحٌ.

بالفعل هذا «خان ماغوم».

وقد أعجبني كثيراً الفتى الجميلُ.

آه! ايلدار؟ إنه شاب، وهو رجلٌ حديدي.

لزم كلاهما الصمتَ بضع دقائق.

هل ينبغي أن أتابع.

نعم، نعم.

رويتُ كيف قتل الخانات، بعد مقتلهم دخل حمزة خوزناخ واحتل قصر الخان.

ظلت زوجتُه تسكن فيه، وذات يوم دعاها حمزة ليكلّمها، وأثناء الحديث، وبإيماءة منه لحارسه الشخصي، قتلها هذا بطعنة خنجر في ظهرها.

سأل لوريس ميليكوف:

لكن لماذا قتل هذه المرأة.

أكان يمكن أن يتصرّف على نحو آخر، عندما نخطو الخطوة الأولى،

فيجب أن نخطو الخطوات الآخرى، كان يجب أن يستأصل النسل وقد فعل ذلك، وقتل شامل بنفسه الابن الأصغر بأن رماه في هوّة، وخضع جميع «الآفار» لحمزة إلا أنا وأخي فقد رفضنا أن نطيعه، أردنا الانتقام لمقتل الخانات، تظاهرنا بالخضوع لكننا لم نكفّ عن التفكير بالثأر، وبعد أن حدّثنا جدّنا بذلك، قررنا أن نختبئ وراء أسوار القصر لنقتل حمزة عند خروجه، لكن أحد الناس شعر بمؤامرتنا فوشى بنا إليه، استدعى جدّنا وقال له: «خذْ حذرك، إذا كنت حقاً قد عزمت على العمل ضدي فإن أحفادك وأنت ستعلّقون في المشنقة، إني لا أفعل شيئاً سوى خدمة الله ويجب ألا تقفوا في وجه عملي، والآن عُدْ إلى بيتك، ولا تنس ما قلتُه لكَ».

عندما عاد جدي إلى البيت، ردّد علينا كلمات حمزة، حينئذ صممنا أن نحقق مشروعنا بلا تريّث، في أول أيام العيد في المسجد، رفض رفاقنا ذلك، وبقينا وحدنا، أخي وأنا.

تسلح كلٌّ منا بمسدسين، وارتدينا معطفينا الصوفييّن، وقصدنا المسجد، وصل حمزة بصحبة ثلاثين حارساً، سيوفهم مسلولة، وكان «إيلدار»، الأثيرُ عنده، إلى جانبه، عندما رآنا أمرنا أن نخلع معطفينا، واقترب مني، كانت يدي على خنجري، استللته ورميتُ بنفسي على حمزة، لكن أخي عثمان كان قد أصابه بطلقة مسدّس، جُرح حمزة جرحاً فقط وانقضّ على عثمان، فقتله، كان المرافقون ثلاثين وكنا اثنين، قتلوا أخي، أما أنا فقد تمكّنت من الإفلات، قفزتُ من النافذة وهربتُ.

عندما شاع نبأ موت حمزة، ثار الشعبُ، وفرّ المريدون، والذين لم ينجوا بأنفسهم أبيدوا.

تنفس الحاج مراد الصعداء.

واستأنف:

كان كل شيء، حتى هذه اللحظة، يسير سيراً حسناً، لكن كل شيء ساء بعد ذلك، تولّى شامل مكان حمزة، وأعلمني بواسطة رسله، بأنني يجب أن أزحف على الروس، وإذا رفضت فسوف يدمّر «خون زاخ» ويقتلني، أجبتُه أنني لن أذهب إليه ولن أدعه يأتي إليّ.

سأل لوريس ميليكوف:

ولماذا أبيتَ أن تذهب إليه؟

تجهم وجه الحاج مراد وأجاب بعد وقفة قصيرة:

كان ذلك مستحيلاً، لقد أراق شامل دم أخي عثمان ودم «أبو نو تزال خان»، رفضت الانصياع لأمره، عيّنني الجنرال روزن برتبة ضابط ومنحني لقب محافظ «آفاريا».

كان ذلك ممتازاً، لكن «روزن» بعد أن عهد بحكومة «آفاريا» لخان «كازيكوميك» «محمد ميرزا»، سلّمها بعد ذلك لأحمد خان، وكان هذا الأخير يكرهني أراد أن يخطب لابنه ابنةَ خان آخر، لكن طلبه رُفضَ، وظن أن ذلك كان بسببي، ومنذ ذلك الحين كرهني، وكلّف حرّاسه قتلي، فنأيتُ في هذه الحقبة، وشى بي إلى الجنرال «كلوجينو»، زاعماً أني منعتُ الآفار من تزويد الجنود بالجطب، وزعم أيضاً أنني أضع هذه العمامة - أشار الحاج مراد إلى العمامة التي يعتُّم بها للدلالة على أني انتقلتُ إلى صفوف شامل، لم يصدّقه الجنرال ومنع أن يمسّني أحدٌ، لكنه سافر إلى تفليس بعد قليل، وأصبح أحمد خان حراً في أن يتصرف على هواه، أمر سريةً من الجنود بتطويقي فأُسرتُ وقيّدتُ وربطتُ

بمدفع، وبقيت كذلك ستة أيام، وفي اليوم السابع، فُكَّ رباطي وقادوني إلى «تامر - خان - شور»، كان يحرسني أربعون جندياً بنادقهم معبّاة، وقد تلقّوا أمراً بإطلاق النار علي إذا حاولتُ الهرب، علمتُ ذلك، وكانت يداي مقيّدتين، اقتربنا من «موكسوخ» في الموضع الذي يضيق فيه الطريق والذي يوجد فيه واد عمقه نحو مئة وخمسين قدماً، تمكنتُ أن أدنو من جهة الواديين وأردتُ أن أقفز إليه، حاول جندي منعي من ذلك، لكني جررتُه معي، مات الجنديُ وبقيتُ حياً، وقد جُرح رأسي وأضلعي وذراعاي وساقاي، أدرتُ أن أتسلّق، لكني لم أقْو، خارت قواي لحظة وأغفيتُ، أفقتُ، فإذا بي غارقٌ في دمائي، اكتشفني راع فطلب النجدة، وحمُلت إلى القرية، وشفيتْ الجراح في أضلعي ورأسي، وشفيت ساقي أيضاً، لكنها ظلت أقصر...

ومدّ الحاج مراد ساقه التي جُرحت.

هذا لا يمنعني من الخدمة.

وتابع حكايته:

علم الشعبُ بذلك كله، وكثيراً ما عادني الناس، وعندما أحسست بأني استعدتُ عافيتي أقمتُ في «تسيلميس»، أضاف باعتزاز هادئ وواثق:

وطلب الآفارُ أن أعود إليهم وأحكمهم، فقبلتُ.

نهض فجأة، وأخرج من محفظته رسالتين اصفرتا من طول الزمن، وسلم لوريس ميليكوف إحداهما، فأخذ يتصفحها بسرعة، كانت من الجنرال كلوجينو، وقد حُرّرتْ على النحو التالي:

الملازم الثاني الحاج مراد

«لقد كنتَ في خدمتي، وكنتُ مسروراً منك واعتبرتك دائماً أحد البواسل، ومن زمن غير بعيد، أكدَ لي الجنرالُ الركن أحمد أنك كنتَ خائناً، وأنك كنتَ تضع العمامة، وكنت على صلة مع شامل، وكنتَ تدفع الشعب إلى عصيان الإدارة الروسية، أمرتُ بإيقافك وسوقك إليّ، ففررتَ، لا أدري إن كان ذلك خيراً أم شراً، لأنني أجهل إن كنتَ مذنباً أم لا، واصغِ إليّ الآن: إذا كان ضميرك نقيّاً أمام القيصر العظيم، وإذا لم تكن مذنباً في شيء، فلا تخف شيئاً وسوف أحميك.

لن يفعل بك الخان شيئاً، وهو نفسه مرؤوسي، وهكذا فليس لك أن تخشى شيئاً».

وأضاف الجنرال أنه لن ينكث بوعد قطعه على نفسه، وأنه عادل، وألحّ على الحاج مراد بالمجيء.

وبعد أن انتهى لوريس ميليكوف من قراءته، أخبره الحاج مراد، قبل أن يسلّمه الرسالة الثانية، كيف ردّ على الأولى.

كتبتُ إليه أنني أضع العمامة، لا لأرضي شامل ولكن لأخلص روحي، لأنني لست أبغي الانتقال إلى صفوف شامل فحسب بل إني لا أستطيع ذلك، فعلى يده قُتل أبي وإخوتي وأهلي، وكتبتُ إليه أيضاً أنني لا أستطيع العودة إلى الروس لأنهم حقّروني، فعندما كنتُ مقيّداً في «خون راخ»، جاء وغدٌ وبصقَ عليّ، ولا أستطيع أن أعود إليكم ما دام هذا الوغد حياً، أعلمت الجنرال كلوجينو بذلك وأضفت: إني أخشى غدر أحمد خان.

وقال الحاج مراد وهو يمدّ ورقة صفراء أخرى: «حينذاك كتب الجنرال إلي رسالة ثانية: «لقد أجبتني عن رسالتي، وأنا أشكرك، قلت

لي إنك لا تخشى العودة، لكن الإهانة التي وجهها إليك مسيحيٌ تمنعكَ من ذلك، اعلمْ أن القانون الروسي عادل: سترى بعينيك عقابَ الذي أهانك، وقد أمرتُ بالتحقيق في هذا الصدد، اصغ إلي، يا حاج مراد، إن لي الحق في أن استاء منكَ، لأنك لا تصدّقني وتضع وعد الشرف موضع الشك، وأنا أغفر لك، على كل حال، لأنني أعرف تشككك معظم الجبليين.

«إذا كان ضميرُك مرتاحاً، وإذا كنتَ لا تضع العمامة إلا لخلاص روحك، فالحق إذن معك وتستطيع أن تواجه روساء الحكومة وأنا نفسي، مَنْ أهانك فسوف يعاقبْ، صدِّقني، وستُعاد إليك أملاكك، وسترى ما قانونُنا، ولا سيّما أن الروس ينظرون إلى الأشياء خلافاً لما تنظر أنت، ففي نظرهم أنك لم تَصْغُر لأن حقيراً أهانك.

أنا نفسي أذنتُ «للقمريز»[١٥] أن يضعوا العمامة، لأنني أنظر نظرة صحيحة بهذا الصدد، ومن ثمّ، فأنا أكرّر لك أَنْ ليس عليك أن تخشى شيئاً، تعال إلي مع الرسول الذي أُرسله إليك، إنه مُخلص لي وليس عبداً لأعدائي، إنه صديق الرجل الذي يحظى بتقدير الحكومة الخاص».

وأنهى الجنرال رسالته بحث الحاج مراد على العودة إلى الروس.

قال عندما انتهى ميليكوف من قراءة الرسالة:

لم أصدّقْه، ولم أذهبْ إليه، ولو كنتُ عند الروس لما استطعتُ الانتقام من أحمد خان، ففي هذا الوقت بالذات، طوّق «تسيلميس»، وحاول قتلي، كان حولي القليل من الرجال، ولم أتمكن من فكّ الطوق، تلقّيت رسالةً من شامل، كان يعدني بالمساعدة على أحمد

---

١٥ – قوم جبليون قليلو العدد خضعوا للروس.

خان ويعيّنني حاكماً لبلاد الآفار، وأضاف إنه سيقتل أحمد خان، عدّوي، وبعد أن فكّرتُ طويلاً، انتقلتُ إلى صفوف شامل ومنذئذ قاتلتُ الروس بلا هوادة.

وأخذ الحاج مراد يعدّد مآثره الحربية، كانت كثيرةً و لم يكن لوريس ميليكوف يعرف سوى القليل منها، كانت غاراتٍ سرعتُها وجسارتها خارقتان للعادة، وقد كُلّلت جميعها بالنجاح.

لم تكنْ بيني وبين شامل صداقة، لكنه كان يخافني ويحتاج إلي، سألني أحدهم من سيخلف «شامل» في الإمامة، فأجبتُ: سيكون إماماً ذاك الذي يجيد استعمال السيف أكثر من غيره، ونُقلتْ أقوالي إلى شامل فقرّر التخلص مني، وأرسلني إلى «تاباساران»، فقصدتُها واستوليتُ على ألف خروف وثلاثمائة جواد، عند ذاك أعلن شامل أنه لم يرسلني إلى «تاباساران» من أجل ذلك، وعزلني من منصبي، كملازم وأمرني بإرسال كل المال الذي بحوزتي، فبعثتُ إليه بألف قطعة ذهبية.

«و لم يكن ذلك كل شيء: لقد جاء حرسُه إليّ وصادروا جميعَ أملاكي، ثم استدعاني إليه، لكني لم أجب دعوته، لعلمي أنه يريد قتلي، فأمر رجاله بإلقاء القبض علي، فهربتُ وقصدتُ فورونتزوف، و لم أستطع أن آتي بأسرتي معي، إن أمي وامرأتي وابني ما يزالون عند شامل، قل لنائب الملك إني لا استطيع أن أفعل شيئاً ما دامت أسرتي هناك.

أجاب لوريس ميليكوف:

سأقول له ذلك.

نعم، حاولْ أن تفعل ذلك، ما يخصني لك، لكن ساعِدْني عند الأمير أنا مربوط وطرف الحبل بين يدي شامل.

هكذا أنهى الحاج مراد سيرة حياته.

- ١٤ -

في ١٢ كانون الأول أرسل نائبُ الملك «فورونتزوف» إلى وزير الحرب «تشير ينشيف»[١٦] الرسالة التالية، مكتوبةً بالفرنسية:

لم أكتب إليك، في البريد الأخير، يا أميري المحبوب، لأنني كنتُ أود أن أتخذ قراراً بشأن الحاج مراد، قبل أن أكتب إليك.

منذ ثلاثة أيام وأنا شديدُ الضيق، لقد أعلمتكَ، في رسالتي الأخيرة، بوصول الحاج مراد إلى تفليس في ٨ من هذا الشهر، في اليوم التالي تعرَّفتُ إليه، ومنذ ذلك الوقت تحدثت معه مرات كثيرة، لكي أعلم ما الذي يستطيع أن يفعله لنا فيما بعد، ولا سيّما ما نستطيع أن نفعله نحن منذ الآن، لأن الهموم أرهقتْه بصدد أسرته، وهو يعلن بكل صراحة، وأنا أصدّقه، أنه يحس بنفسه مشلولاً ما دامت هذه الأسرة بين يدي شامل، وأنه ليس قادراً على خدمتنا والبرهنة على امتنانه للاستقبال الذي خصصناه به والعفو الذي مُنحه، والشكُّ المخيّم بشأن مصير أسرته يملؤه بحزن محموم، وقد قال لي الأشخاص الملحقون به أنه لا ينام أبداً، وأنه لا يكاد يأكل، وأنه مستغرق أبداً في الصلاة، وأنه لا يطلب سوى شيء واحد: أن يتنزّه على جواد وبصحبته بعض القوزاق، وهي تسليةٌ ضرورية حتماً لجسمه الذي تعوّد هذه الرياضة منذ سنوات.

---

١٦ - تسيرنيتشيف: كونت ثم أمير، وزير الحرب من ١٨٣٢ إلى ١٨٥٥.

وهو يأتي إليّ كل يوم مستخبراً ليعلم إن كان لدي أخبار بشأن أسرته، وهو يطلبُ إلي أن أجمع الجبليين الأسرى عندنا، وأن أردهم إلى شامل بدلاً من أسرته، وسيضيف إلى ذلك شيئاً من المال، وهناك مَنْ يعطيه المال مساعدةً له كي يبلغ هدفه.

وهو يردد علي بلا انقطاع: «أنقذوا أسرتي، وامنحوني إمكانَ خدمتكم (في رأيي أنه صالح كي يُندب إلى الجبهة الليسغية)، وإذا لم أؤدّ لكم في غضون شهر، خدمةً جُلّى، فعاقبوني كما تشاؤون».

أجبته أن ذلك كله يبدو لي صحيحاً جداً وأن الكثيرين سيعاملونه ككذّاب إن ظلّت أسرته في الجبال، بدلاً من أن تكون رهينةً عندنا، وقلتُ له إنني سأفعل كل ما بوسعي لأجمع الأسرى وأنني إن لم أستطع، بموجب قوانيننا، أن أعطيه مالاً يخص الدولة، فأني أرجو أن أعثر على مبالغ أخرى لمساعدته، وأضفتُ، بلا مجاملة، أن «شامل» لن يطلق سراح أسرته، ولعله سيذهب بعيداً إلى حدّ أن يَعدُه بردّ حظوته إليه، إذا عاد إلى مكانه بين رجاله، وإذا رفض الحاج مراد فسيكون، بلا شك، هلاكُ أمه وامرأته وأولاده الستة، وقد سألته صراحةً ماذا ينوي لو أن هذا العرض قدِّم إليه.

رفع الحاج مراد ذراعيه وعينيه إلى السماء وأجابني بأن مصيره بين يدي الله، لكنه يأبى أن يعود إلى عدوه، لأنه كان مقتنعاً أن شامل لن يغفر له أبداً، وأنه إذا عاد إليه من جديد فلن يُقدَّر له أن يعيش طويلاً.

وفيما يتعلق باستئصال أسرته، يعتقد الحاج مراد أن شامل لن يعزم على ذلك بدون تروٍ:

لأن ذلك يجعل عدوه أشد ضراوةً وخطراً.

لأن في داغستان شخصيّات بارزة ستحذّره من هذا الاستئصال.

وأخيراً كرّر الحاج مراد أن المستقبل منوطٌ بمشيئة الله، لكنه لا يفكر في الوقت الحاضر إلا بافتداء أسرته، وقد توسّل إليّ، باسم الله، أن أساعده، وأن أسمح له بالإقامة في مكان ما حوالي بلاد التشيتشين، حيث يستطيع، بإذن قادتنا، أن يتصل بذويه، وأن يحصل على معلومات عن وضعهم، وأن يعثر على وسيلةٍ لتحريرهم.

وفي رأيه أن كثيراً من الأنصار، وحتى بعض الملازمين، ظلّوا أمناءَ له، وسيقيم بسهولة وبمساعدتنا، بين هؤلاء السكان الذين احتلّهم الروس أو الذين بقوا على الحياد، صلات نافعة جداً لتحقيق الهدف الذي يلاحقه ليلاً نهاراً، فإذا بلغ هذا الهدف فسوف يحصل على الهدوء الضروري لكسْب ثقتنا وخدمة قضيتنا.

طلب إليّ أن أرسله إلى غروزنايا، بصحبة ثلاثين قوزاقياً مجرّبين يساعدونه على حماية نفسه من الأعداء، ويتيحون لنا، في الوقت نفسه، التحقّق من سلامة نياته: أنت تُدرك، يا أميري المحبوب، أن ذلك كله قد شغل بالي لأن اتخاذ القرار يستتبع مسؤولية كبيرة من جانبي، وإنه لمن التهوّر المفرط أن نبدي للحاج مراد أكثر مما ينبغي من الثقة، لكن لكي ننتزع منه كلَّ إمكان للهرب فيجب أن نسجنه، وسيكون ذلك، في رأيي خالياً من العدل ومن كل حسٍّ سياسي.

مثل هذا التدبير الذي لابُدَّ أن يُعرف في كل داغستان سيُسيء إلينا كثيراً لأن ذلك سيَحْمل على الحذر منا جميع أولئك الذين هم ضد شامل، وهم كثُرٌ، على نحو مكشوف أو دون ذلك، وجميع الذين يهتمون بالمصير الذي أعددناه لملازم الإمام الجسور المقداد الذي اضطُرّ إلى الانتقال إلى صفوفنا.

ولو أنا تصرّفنا مع الحاج مراد تصرّفنا مع أسير عادي، فسوف نضيّع ما في خيانته من عاقبة حسنة.

ولذلك أرى أنني لم أكن أستطيع أن أفعل غيرَ ما فعلتَ مع العلم أنني سأتّهم بالخطأ الجسيم لو هرب.

في زمن الحرب، وفي مثل هذه الظروف الصعبة، يستحيل علينا أن نتّبع الخط المستقيم دون تحمّل المسؤوليات، ودون أن نتعرض لارتكاب الأخطاء، لكنْ ما أن يرسم ذلك الخط المستقيم حتى يتوجب علينا أن نسلكه - وليكنْ ما يكون.

إني أطلب إليك، أيها الأمير العزيز، أن تعرض هذه القضية للفحص، على جلالته الإمبراطورية، وسأكون سعيداً إذا تكرم ووافق على قراري، وما عرضته عليك قد أُبْلغَه الجنرالان «زافادوفسكي» و«كوزلوفسكي» وهذا الأخير على اتصال دائم مع الحاج مراد الذي طلبتُ إليه ألاّ يُقدم على شيء دون الإذن المسبق لِـ «كوزلوفسكي».

وقلتُ له أيضاً أن من المُستحسن أن يُكثر الخروج بصحبة جنودنا، ممّا يمنع شامل أن يصبح بأننا نسجنه.

وقد وعدني، ألا يذهب إلى «فوزدفيجنسكايا» حيث خضع لابني الذي يعتبره صديقاً له، وقلت له إنه لم يعد آمراً لهذا الموقع، وأن قدومه قد يفسح المجال لسوء الفهم.

على كل حال، إن «فوزدفيجنسكايا» تقع على مقربة من عدة قرى عدوة، بينما «غروزنايا» أكثر ملاءمة لإقامة الاتصالات التي ينوي أن يقيمها مع مرؤوسيه القدماء.

سيصحب الحاج مراد عشرون قوزاقياً مختارين، بناء على طلبه، ولن يتركوه أبداً.

إن نقيب الخيّالة لوريس ميليكوف وهو ضابطٌ مرموق، ذكي، يتكلم التترية وثق به الحاج مراد، كما يبدو لي، سيصحبه، أثناء إقامة الحاج مراد في «تفليس» سكنٍ في بيت المقدّم الأمير «تاركانوف» آمر منطقة «شوشا» وهو رجلٌ باسلٌ يحظى بكامل تقديري، وهو أيضاً قد حاز ثقة الحاج مراد، وبواسطته - إنه يتكلم التترية ويتقنها كل الإتقان - ناقشنا أدق المسائل وأكثرها سرّيةً.

استشرت «تاركانوف»، الذي كان على اتفاق تام معي، فهو يرى أنه يجب إما أن نتصرّف كما تصرّفتُ، وإما أن نسجن الحاج مراد في إحدى القلاع وأن نراقبه بكثير من اليقظة، إذ لن يكون من السهل ضَبْطه، وإما أن نطرده خارج البلاد.

لكن الحلين الأخرين لا يلغيان فقط الفوائد الناجمة عن الخلاف بين الحاج مراد وشامل، بل إنهما سيحولان أيضاً دون اتساع استياء الجبليين من شامل.

لقد قال الأمير تاركانوف أنه مؤمن بصدق الحاج مراد وأن الحاج مراد لا يأمل أبداً في صَفْح شامل الذي سيقضي عليه حتى لو وعده بالصفح.

الشيء الوحيد الذي يشغل بال تاركانوف، هو التعلّق المتعصّب للحاج مراد بدينه، وهو يسلّم بأن شامل قد يؤثر فيه، من هذه الناحية، لكن شامل لن يتمكن، كما قلتُ لك، من إقناع الملازم المنشقّ بأنه لن يقضي عليه عاجلاً أم آجلاً، في حال عودته.

ليس عندي شيءٌ آخر أقوله لك، أيها الأمير العزيز، بصدد هذه الحلقة، من الأحداث التي تجري هنا.

- ١٥ -

أُرسلَ هذا التقريرُ بالبريد الخاص في ٢٤ كانون الأول ١٨٥١، وفي ٣١ سلّمه الرسولُ إلى وزير الحرب، تشير نيتشيف، بعد أن أهلك عشرات الخيول، وضرب عشرات الحوذيين حتى أدماهم بين تفليس وبطرسبرج.

وفي ١ كانون الثاني ١٨٥٢، قدمه وزير الحرب إلى الإمبراطور بين قضايا أخرى للبحث.

إن تشير نيتشيف هذا هو نفسه الذي «وشى به» «راستوبتشين»[١٧] أثناء اجتماع لمجلس الدولة، تحت ستار المزح، وكان موضوع الوشاية انتقال أملاك زاكاري تشير نيتشيف[١٨] الذي نُفي إلى سجن الأشغال الشاقة لانتمائه إلى منظمة الديسمبريين، انتقالها إلى الكسندر تشير نيتشيف المذكور، وزير الحرب.

لقد أدهشَ مجلس الدولة أن الوزير تشير نيتشيف الذي هو عضوٌ في المحكمة التي تهتم بهذه القضية بذل وسعه لإهلاك سميّه الضابط الديسمبري، بينما كان راستوبتشين يناصر انتقال أملاك المحكوم إلى الوزير، ولما سئل راستوبتشين عن أسباب موقفه أجاب

---

١٧ - راستوبتشين: حاكم موسكو في سنة ١٨١٢، ثم عضو في مجلس الدولة.

١٨ - زاكاي تشيرنيشيف: ضابط ديسمبري، مالك لإقطاعية البكر التي انتقلت مع ذلك إلى صهره «كروفليكوف» سنة ١٨٢٦ فلقب الكونت تشيرنيتشيف - كروغليكوف.

بأن التقاليد القديمة تقضي بأن يكون زنّار المحكوم بالإعدام وقبعته ملكاً للجلاّد.

كان تشيرنيتشيف يعرف هذه الحكاية ويعلم أنه لم يكن محبوباً، لكنه لم يكن يتصّور أن تكون هذه الحالة أساساً للعداء العام نحوه.

كان على العكس، يفسّر هذا العداء بخصائصه العظيمة التي أدّت إلى نجاحه وأيقظت الحسد... كان يفكّر لأنه هو نفسه كان يحسد الذين يشغلون مركزاً أعلى منه، ولهذا السبب كان يحسد فورونتزوف، لم يكن الوزير يحب نائب الملك لأسباب عدّة: للتقدير العام الذي حظي به، لأنه كان واسع الثراء، لأنه كان نبيلاً من أسرة عتيدة بينما لم يكن هو سوى وزير حديث النعمة، ولا سيّما بسبب العطف المستمر من الإمبراطور إزاءه، وكان تشير ينتشيف ينتهز كل مناسبة للإساءة إلى فورونتزوف، وقد نجح، بصدد تقريره المتعلّق بالحاج مراد، في أن يثير استياء الإمبراطور نحوه.

ذلك أن غفلة السلطات العسكرية التي أتاحت للجبليين أن يذبحوا تشكيلة روسية صغيرة بأسرها، قد عُزيتْ إلى فورونتزوف.

كان تشيرنيتشيف يستعد الآن لأن ينتقد بمهارة القرار الذي اتَخذه فورونتزوف بصدد الحاج مراد.

أراد إقناع الإمبراطور بأن الأمير حمى دائماً السكان المحليين على حساب الروس، وأنه أظهر تسامحاً مفرطاً بلغ الضعف نحو السكان القوقازيين.

كان ترك الحاج مراد في القوقاز، بنظر تشير نيتشيف، خطأً جسيماً، لأنه لم يكن ثمة مجال للشك، بأن ذلك الجبليّ لم يخضع إلا

بهدف مشاهدة وسائل الدفاع الروسية، وكان الأفضل، في اعتقاده، أن ينفى إلى أواسط روسيا، ولا يمكن استخدامه إلا عندما تترك أسرته الجبل وإلا بعد التحقّق من صدقه وإخلاصه.

فشل تشيرنيتشيف كلّياً في مشروعه وذلك لأن نيكولا الأول كان، في أول كانون الثاني متكدّر المزاج، ولأنه كان سيرفض أي عرض بروح المعارضة، مهما يكن مصدره.

لم يكن يوافق أبداً على قبول الحل الذي اقترحه تشيرنيتشيف، الذي تحمّله الإمبراطور لأنه كان يعتبره، في الوقت الحاضر، رجلاً لا يسدّ مسدّه أحد، كان على علم بالجهود التي بذلها تشيرنيتشيف لاهلاك زاكاي تشيرنيتشيف، بهدف الاستيلاء على أملاكه، وكان يعدّه رجلاً لئيماً.

إلى هذه الحالة الذهنية للإمبراطور يعود بقاء الحاج مراد في القوقاز، وبسببها لم يتغيّر مصيره، وهو شيء كان سيحصل لو أن تشيرنيتشيف قدّم تقريره للقيصر في وقت آخر.

كانت الساعة التاسعة والنصف صباحاً، عندما وقف أمام قصر الشتاء، حوذيّ ملتح، يضع على رأسه قبعة تنتهي برأس حاد، يقود، في الضباب، وفي جو بارد يبلغ عشرين درجة تحت الصفر، زحافةً صغيرة شبيهة بالتي كان يستخدمها نيكولابافلوفيتش لنزهاته، حيّا بود حوذيَّ الأمير «دولغوروكي» الذي جاء بسيده وهو الآن ينتظره عند مدخل القصر، ملقياً العنان على مقعده المحشو بالقطن، فاركاً يديه الخدرتين.

كان تشيرنيتشيف يرتدي معطفاً ليّناً قبتُه من جلد القندس الفضّي،

وكان يضع على رأسه قبّعة الضابط المثلثة الرؤوس، رمى بجلد الدب الذي كان يغطّي به ساقيه، وأخرج من الزحافة قدميه المتجمدتين، - كان حذاؤه بلا وقاء، وكان يباهي بأنه لا ينتعل وقاءً - ومشى مشية عسكرية مُسمعاً رنينَ مهمازيه، داس السجّادة، ومرّ من الباب الذي فتحه خادمٌ أمامه، ودلف إلى البهو، ألقى معطفه بين يدي الخادم الذي هُرع إليه، ونزع عن رأسه قبّعته المثلثة برفق، لأنه كان يضع شعراً مستعاراً، نظر إلى نفسه في المرآة، وبحركة مألوفة، مسّد عارضيه بيديه المغضّنيتن، وأصلح وضع وسامه وبنوده، وردَّ كتفيتّيه إلى مكانهما، وأخذ يصعد الدرج المغطى بالسجاد، بطيء الخَطْو، بساقيه المتعبتين اللتين لم تكونا تطيعانه طاعةً حسنة.

مرّ أمام الخدم وهمَّ بخلعهم، فحيّوه بخضوع شديد، ودخل قاعة الاستقبال، أقبل عليه بكل احترام، مرافقُه العسكري في الدائرة، ببزته العسكرية المتوهّجة، وقد وضع كتفيتيه وبنوده، وازدهى بشاربه الأسود الصغير، وعارضيه الطويلين جداً على وجه نضر ومتورد. كما حياه أيضاً الأميرُ فاسيلي دولغوروكي، نائب وزير الحَرب، بمظهره البليد الذي بان عليه الضجر، وبشاربه وعارضيه التي قلّد بقصّتها الإمبراطور نيكولا.

سأل تشيرنيتسيف المرافق العسكري وهو ينظر إلى باب مكتب العمل.

والامبراطور؟

أجاب الضابط وكأنه سعيد بسماع صوته نفسه:

عاد جلالته قبل قليل.

تقدم بخطوات رشيقة ومنتظمة إلى الحدّ الذي لو وُضع فيه كأس ماء على رأسه لما انقلب، دنا من الباب الذي فُتحَ وعبّر كيانُه كله عن الاحترام الذي توحي به الغرفة التي يدخلها، وتوارى فيها.

- فتح دولفوروكي محفظته وتفحصَّ الأوراق التي فيها.

كان تشيرنيتسيف يتمشى رزين الهيئة، بخطوات متّزنة، مستعرضاً في فكره كل ما سيعرضه على الإمبراطور.

كان قرب باب مكتب العمل عندما فُتح، تقدّم المرافق العسكري نحو تشيرنيتشيف ودولغوروكي، ومحيّاه أكثر طلاقة من ذي قبل، واصطحبهما إلى غرفة المليك.

لقد رمّم القصر الإمبراطوري تماماً بعد الحريق [١٩] الذي نشب فيه، كان نيكولا يشغل فيه الطابق الأعلى، وكان المكتب الذي يتلقّى فيه تقارير الوزراء وأصحاب المناصب في الإدارة العليا، عاليَ السقف، وله أربع فتحات كبار، وقد عّلقت فيه صورة كبيرة للإمبراطور الاسكندر الأول بارزةً للعيان، وبين النوافذ طاولتان، وقد صُفّتْ، قرب الجدار، وفي وسط الغرفة، بضع كراسي، وكان فيها طاولةٌ ضخمةٌ هي مكتب نيكولا الأول وأمامها مقعد له، وبعض المقاعد للزوار.

كان الإمبراطور مرتدياً سترةً سوداء بدون كتفين يزينها شريطان، كان جالساً قرب الطاولة إلى الوراء جسمه الذي كان ينمّ على سمنة لا يُستهان بها، وإن حُزَّم بثياب على قده، وكان يتفرّس في الزائرين بعينين الكئيبتين، دون أن يتحرك.

---

١٩ - أي الحريق الذي دمر قصر الشتاء سنة ١٨٣٩.

على وجهه الشاحب الطويل، ذي الجبهة العريضة، المائلة، برز عارضاه المملّسان اللذان اختلطا، على نحو حاذق، بالشعر المستعار الذي غطى رأسه الأصلع، كان هذا الوجهُ، في هذا اليوم، بارداً وصارماً، بوجه خاص، وكانت لعينيه المعكرتين أبداً، نظرةٌ أشد إبهاماً من العادة، وكانت شفتاه، تحت شاربه المنتفش، وجانبا وجهه الحليقان فوق قبته العالية والقاسية، واللذان يحف بهما عارضان معقوفان، وذقنه المضاعفة التي سحقتها القبةُ، كان كل ذلك يُسبغ على وجهه مظهر الاستياء بل والغضب.

كان التعب سبب انزعاج الإمبراطور، ومردّ هذا التعب حضورُه ليلة أمس حفلةً تنكريةً، كان يتجوّل بين المدعوّين الذين كانوا ينحنون بخشيةٍ أمام جسده الضخم، ومظهره المفعم اعتداداً بالذات، وهو يرتديٍ كعادته بزّة فارس الحرس بخوذته التي علتْها زينتُها، حين التقى متنكرةً كانت قد أيقظتْ فيه، أثناء الحفلة الراقصة الأخيرة، ببياضها، وجسدها البهيّ، وصوتها العذب، هوى الشيخوخة، كان قد وعد بأن يراها في الحفلة الراقصة التالية لكن المتنكرة اختفت.

مضى إلى المجهولة و لم يتركها، قادها إلى مقصورة هُيّئت خصّيصاً لمثل هذه المناسبة، وكان واثقاً من أنه سيجد الراحة فيها، عندما وصل نيكولا إلى باب هذه المقصورة، نظر حوله ودعا الخادم، لكنه لم يره، فدفع البابَ بنفسه وهو بادي الاستياء، وتراجع لكي يسمح بمرور المرأة المتنكرّة.

قالت وهي تتوقّف:

ها هنا ناسٌ.

وبالفعل، كانت المقصورة مشغولةً، وعلى الأريكة المغطّاة بالمخمل، جلس ضابط من الفرسان وامرأة شقراء وجميلة جداً جنباً إلى جنب، كانت متقنعةً فرفعت قناعها.

عندما رأت المرأةُ قامة الإمبراطور المهيبة والجامدة، أعادت القناع إلى وجهها بسرعة، بينما ظل الضابط الذي شلّه الرعبُ جالساً، متحجّراً، ينظر إلى نيكولا.

تعود الإمبراطور أن يثير الرعب لدى مرؤوسيه، وكان ذلك يسرّه.

كان يطيب له أحياناً أن يفاجئ، بموقف رفيقٍ أولئك الذين ملأهم أولاً بكثير من الخوف، وكذلك كان هذا المساء.

قال للضابط المذهول:

آه! يا أخ، أنت أصغر سناً مني، وتستطيع أن تتنازل لي عن مكانك.

انحنى الضابط بكل جسمه واحمر وشحب تباعاً، وغادر المقصورة مسرعاً بصحبة السيّدة.

ظل الإمبراطور وحده مع المتنكّرة.

كانت فتاة في العشرين، جميلة وبريئة، وهي ابنة مرّبية سويدية روتْ للإمبراطور كيف أغرمت به، وهي طفلة، من رؤية صورته، وكيف ألهته، وكيف صممت أن تجذب انتباهه مهما كلف الثمن.

حقّقت حلمها، ولم تكن تتمنّى شيئاً آخر، كانت الآن في مقصورة مخصّصة للقاءات نيكولا: ظلّت فيها أكثر من ساعة.

وعندما رجع، في هذه الليلة، إلى غرفته، اضطجع على سريره الضيّق والقاسي الذي كان يَفْخر به، وتغطّى بمعطفه الذي كان يعتقد

أنه صار مشهوراً مثل قبّعة نابليون، لكنه ظلّ زمناً طويلاً دون أن يغمض له جفن.

كان يفكر، تارةً في وجه الفتاة الأبيض والمتحمّس، وتارة أخرى بكتفي عشيقته صاحبة الحق نيليدوفا، كتفيها القويتين الممتلئتين، ويوازن بين المرأتين.

لم تخطرْ له الفكرة القائلة: إن سوء سيرة الرجل المتزوج جديرة باللوم، وسيُدهش كثيراً لو انتقد أحدهم حياته العاطفية.

ومع أنه كان مقتنفاً بأنه يتصرّف كما ينبغي له أن يتصرف، إلا أنه لم يتمكن من استبعاد شيءٍ من تبكيت الضمير، ولكي يخنق هذا التبكيت أخذ يفكر - كما كان يفعل دائماً، وكان هذا يُعيد إليه توازنه الداخلي - في أنه رجلٌ عظيم.

نهض في الثامنة، وإن لم ينمْ إلا في وقت متأخر، وباشر زينته كالعادة، وفرك جسده السمين بالثلج، وبعد أن تلا صلواته - وهي صلوات طفولته نفسها: «السلام عليك، يا أم الله» و«أومن باله واحد»، «أبانا» - دون أن تعطي هذه الكلمات التي لفظها آلياً أيّةَ دلالة - خرج من الباب الصغير، مرتدياً معطفه وواضعاً قبّعته.

تمشى على الجادة المحاذية للنهر، وفي وسطها لقي طالباً في مدرسة الحقوق ببزّة طلاب الحقوق، وبقامةٍ مهيبة كقامته.

عندما رأى نيكولا البزّة التي يرتديها طلاّب هذه المدرسة الذين لم يكن يحبّهم بسبب اشتهارهم بأنهم أحرار التفكير، قطّب حاجبيه، لكن علّو قامة الطالب وطريقته في الوقوف والتحية بّددتا استياءه.

سأله الإمبراطور:

ما اسمُكَ؟

بولوساتوف؟ يا صاحب الجلالة الإمبراطورية.

مرحى!

جمد الطالبُ ويده على عمرته، وقف نيكولا:

أتريد أن تمتهن الحياة العسكرية؟

كلا، يا صاحب الجلالة الإمبراطورية.

غبي!

أدار نيكولا ظهره، وتابع طريقه، وهو يدمدم عالياً بالكلمات الأولى التي كانت تخطر له.

وردّد بضع مرات:

كوبروين، كوبروين!

كان هذا هو اسم الفتاة التي التقاها عشية أمس.

لم يكن يفكر فيما يقول، لكنه كان يحاول أن يخنق عصبيته معيراً انتباهه للكلمات التي كان يقولها، قال وقد أحسّ أنه أخذ يستاءُ من نفسه:

ما الذي كانت ستصير إليه روسيا، دوني؟

وفكر في ضعف صهر ملك بروسيا وفي غبائه، وهزّ رأسه. عندما عاد، رأى عربة هيلين بافلوفنا[٢٠]، لقد وصلت إلى مدخل صالة بيكوف، يصحبها خادمٌ بخلعة حمراء.

---

٢٠ - هيلين بافلوفنا زوجة أخ نيكولا، أميرة ورتمبرغ بالولادة (١٨٠٦ - ١٨٧٣) وهي امرأة مثقفة ليبيرالية.

كانت هيلين بافلوفنا تجسّد، في نظره، جميع الناس التافهين الذين لا يتكلمون عن العلم والشعر وحدهما، بل وعن فن حُكم البشر، متصورين أنهم يستطيعون قيادتهم أفضل من نيكولا نفسه.

كان يعلم أن هؤلاء الناسِ كانوا يَطْفُون على السطح دائماً، بالرغم من محاولاته لسحقهم، وفكر في أخيه ميشيل بافلوفيتش الذي مات منذ زمن قريب، وأخذ يدمدم بالكلمات الأولى التي تخطر له، و لم يسْكتْ إلا عندما بلغ القصر.

صعد إلى غرفته وملّس عارضيه والشعرات القليلة الباقية على الصدغين، وسوى شعره المستعار، ورفع شاربه، ودخل مكتبه ليتلقّى التقارير.

كان تشيرنيتشيف أول من اجتمع به.

حين نظر الوزيرُ إلى الإمبراطور، ولاسيما عينيه، أدرك أن جلالته منحرف المزاج، لمّا كان على علم بحادث الأمس، فقد رأى فيه سبباً لهذا التكدّر، حيّاه الإمبراطور ببرودة، وعرض عليه الجلوس، حدّق فيه بعينيه الكئيبتين.

كانت القضية الأولى التي ستُعرض عليه سرقةً ارتكبها موظفو الإدارة، والثانية تُعالج إعادة تجمّع الجند على حدود بروسيا، ثم يأتي بعد ذلك اقتراح منح أوسمة لبعض الأشخاص المنسيين أثناء تكريم رأس السنة الجديدة، والقضية الرابعة تتصل بتقرير فورونتزوف بصدد الحاج مراد، وأخيراً تأتي قضية مؤلمة تتعلق بمحاولة اغتيال طالب في كلية الطب لأستاذه.

مرّ نيكولا، وهو صامت، بيديه الطويلتين البيضاوين اللتين في

بنصر يسراهما خاتم، على إضبارة السرقة، وحدّق بإصرار في جبهة تشيرنيتشيف وذؤابته.

كان الإمبراطور واثقاً من أن جميع الموظفين يسرقون، كان يعلم أنه ينبغي معاقبة هؤلاء الناس الذين خلْوا من الأمانة، وقرّر أن يجعل منهم جنوداً، لكنه كان يعلم أيضاً أن هذا التدبير لن يمنع البدلاء من التصرّف كالسابقين.

كانت السرقة في طبيعة الموظفين، وكان من واجبه أن يعاقبهم، وسيقوم بهذا الواجب بكل دقة، وإن كان متعباً.

قال نيكولا:

من الواضح أن ليس في روسيا سوى رجل واحد شريف.

فهم تشيرنيتشيف رأساً أن هذا الكائن النادر هو الإمبراطور نفسه، فابتسم ابتسامة الموافقة، وأجاب:

لعل الأمر كذلك، يا صاحب الجلالة.

قال نيكولا وهو يأخذ الإضبارة ويضعها على الجانب الأيسر من المكتب:

دعْ لي هذه الإضبارة، وسأبلغكم بنفسي قراري فيها.

عرض تشيرنيتسيف بعد ذلك مسألة الأوسمة وتنقّلات الجند.

استعرض الإمبراطور القائمة وشطب بعض الأسماء، ثم أمر، بلهجة حازمة، إرسال فرقتين جديدتين إلى حدود بروسيا.

لم يكن نيكولا يستطيع أن يغفر لملك بروسيا إدخال النظام الدستوري في سنة ١٨٤٨.

ولهذا السبب، وبالرغم من توكيده صداقته الشفهي أو الخطي لأخ زوجته[٢١]، فأنه كان يعتبر وجود جيش قوي على الحدود ضرورة، وقد يكون هذا الجيش مفيداً في حالة انتفاضة الشعب البروسي - وكان نيكولا يرى في كل مكان الاستعدادات للثورة - ويمكن أن يُرسل مباشرة لنجدة أخ زوجته، كما كانت الحال في النمسا ضد المجريين، ووجود القوات على الحدود تؤكد أيضاً وزن النصائح التي بذلها لملك بروسيا، وأهميتها.

«نعم، ما الذي كانت روسا ستصير إليه لو لم أكن هنا؟».

وسأل:

ثم ماذا؟

أجاب تشير نيتشيف الذي بدأ يعرض محتوى رسالة فورونتزوف بصدد الحاج مراد.

رسالة من القوقاز.

قال نيكولا:

آه! الأمرُ هكذا، إنها بداية حسنة.

أجاب تشير نيتشيف:

- من البديهي أن الخطة التي أعدّت على يدي جلالتكم قد بدأت تُؤْتي ثمارها.

---

٢١ - كان نيكولا الأول متزوجاً من الكسندرا أخت ملك بروسيا.

كان الثناء على قدرات نيكولا الاستراتيجية يسرّه على نحو خاص، لأنه يحسّ، في أعماق نفسه أنه محرومٌ من هذه القدرات. الآن بخاصة، كانت الأماديح المتنوعة تفتنه.

سأل:

- كيف تفهم ذلك؟

- عنيتُ أنه لو اتُّبعتْ خطة جلالتكم، منذ البدء، منهجياً، وبشيء من البطء، لو تقدّمنا نحن نجتثّ الغابات وندمرّ المستودعات، لكان القوقاز قد خضع، إلى ذلك، وإلى ذلك وحده، أعزو استسلام الحاج مراد. لقد فهم أن من المستحيل المضيّ في المقاومة.

قال نيكولا:

هذا صحيح.

مع أن خطة التقدّم البطئ على الأرض العدوة، باجتثاث الغابات وتدمير المؤن، خطةٌ أعدّها إيرمولوف» و«فيلياميتوف»، وهي مناقضة على طول الخط لخطة نيكولا الذي كان يريد الاستيلاء دفعةً واحدة على معسكر شامل وتدمير وكر قطاع الطرق - وهي طريقةٌ بموجبها نفذت حملة «دارغو» التي كلّفت الكثير من الحيوات البشرية - فان الإمبراطور أخذ يعزو لنفسه الخطة التي أعدّها الجنرالان.

ولإقناع الآخرين بأن فكرة التوغّل المنهجي صادرة عن الإمبراطور، كان لابد من التستّر على أنه هو بالذات الذي أصرّ، في سنة ١٨٤٥ على تنفيذ حملة دارغو، لكنه هو لم يكن يخفي ذلك وكان ينسب إلى نفسه الخطتين وإن كانتا متناقضتين.

إن التملّق المرائي والكاذب الذي كانَ يغدقهُ على الإمبراطور مَنْ حوله بلا انقطاع، قاده إلى درجة من العمى لم يكن يرى معها متى يناقض المنطق والعقل السليم، لم يكن يستوعب معنى كلماته ولا أفعاله، وقد أفضى به الأمر إلى الاعتقاد بأن جميع أوامره، حتى أشدها جنوناً ومخالفة للمنطق تغدو قرارات حكيمة لمجّرد أنها صدرت عنه.

كذلك كان الأمرُ بالنسبة إلى حالة الطالب في أكاديمية الطب الذي حدّثه عنه تشيرنيتسيف بعد أن انتهى من التقرير عن القوقاز.

عرضت القضيةُ على النحو التالي: إن الشاب الذي رسب مرتين في الامتحان، تقدّم للمرة الثالثة فرفضه الفاحص، اعتبر الطالبُ الذي كان ذا عصبية مرَضيّة أن القرار المتّخذ ظالمٌ، فتناول مديةً موضوعة على الطاولة، وانقضّ على الأستاذ وجرحه جروحاً خفيفة.

سأل نيكولا:

ما اسمه.

مكتبة
t.me/t_pdf

بريزوسكي.

بولوني؟

أجاب تشيرنيتسيف:

من أصل بولوني وكاثوليكي.

قطب نيكولا حاجبيه.

لقد آذ البولونيين كثيراً، ولكي يُسوِّغ موقفه كان بحاجة إلى الحصول على اليقين بأن جميع البولونيين أوغاد، كان يعتبرهم كذلك ويحتقرهم جميعاً، بمقدار الأخطار التي سببّها لهم.

قال وهو يغمض عينيه ويطرق برأسه:

انتظر قليلاً.

كان تشيرنيتسيف يعرف هذه الحركة من الإمبراطور، وطالما سمعه يردّد هاتين الكلمتين، ففي كل مرة كانت تُطرح نفسها عليه مسألةٌ هامة، كان عليه أن «يفكر مليّاً بضع ثوان»، ليعْمل فيه جهازٌ آلي فيأتي الحلُّ من ذاته، وكأن صوتاً داخلياً قد أملى عليه ما ينبغي أن يفعله، كان الآن يبحث عن الوسيلة التي يُشيع فيها احتقاره للبولونيين، الذي أيقظتْه حالةُ هذا الطالب.

أوحى إليه الصوتُ الداخلي بقرار سجّله على هامش التقرير بأحرف كبيرة «يستحق حكم الإعدام، لكنْ، الحمُد لله، أن حكم الإعدام غير موجود عندنا، وليس لي أن أُقيمه، يُطاف به اثنتي عشرة مرة على ألف رجل».

ووقع بخطه المسرف الضخامة وغير الطبيعي.

كان القيصر يعلم أن اثني عشر ألف جلدة ليست موتاً محقّقاً وفظيعاً، بل إنه كان يعلم أن خمسة آلاف جلدة كافيةٌ لقتل أقوى رجل، تنوف، لكنه كان يستسيغ أن يكون بهذه القسوة لتي لا تعرف اللين وأن يستطيع التفكير، في الوقت نفسه أن الحكم بالإعدام غيرُ موجود في إمبراطوريته.

بعد أن كتب حكمه، أعاد الإضبارة إلى تشيرنيتسيف

خذْ، اقرأ!

قرأ تشيرنيتسيف، وحنى رأسه، دلالة على دهشته المليئة بالاحترام أمام حكمة القرار المتّخذ.

أَحْضروا جميعَ الطلاب إلى الساحة لكي يشهدوا العقاب، سيكون ذلك مفيداً لهم، أريد أن أطرد الفكر الثوري، أريد أن أستأصله.

قال تشيرنيتسيف

بأمرك.

وبعد أن لزم الصمت بضع ثوانٍ وسوّى ذؤابنه، استأنف فحص التقرير الآتي من القوقاز.

ما الجواب الذي تأمُرني بإرساله إلى ميشيل سيميونوفيتش.

أجاب نيكولا:

اتِّباع تكتيكي بدقة، في سير الحرب: تدمير المساكن، تدمير المؤن زعزعة حياة التشيتشين بالحملات.

وماذا تأمرني بصدد الحاج مراد؟

لكن... فورونتزوف يقول إنه سيستخدمه في القوقاز.

قال تشيرنيشيف وهو يتحاشى نظرةَ نيكولا:

أليس رأيه مجازفاً؟ أخشى أن يبدو ميشيل سيميونوفيتش سريع التصديق.

سأله الإمبراطور بجفاف، وقد أحسّ أن تشيرنيتسيف يحاول أن يظهر تقرير فورونتزوف بمظهر غير ملائم.

ماذا كنتَ ستصنع أنت نفسك؟

سيكون أقرب إلى الفطنة أن ننفيه إلى داخل روسيا.

قال نيكولا هازئاً:

آه! تعتقد ذلك؟ أنا لا أعتقد ذلك، وأنا متّفق مع فورونتزوف.

اكتب إليه بهذا المعنى

قال تشيرنيتسيف الذي وقف:

بأمرك.

وبعد أن استأذن، رجع القهقري.

وكذلك استأذن «دولغوروكي» الإمبراطور، وقد حضَر فحصَ جميع هذه التقارير وتلفّظ ببعض الكلمات جواباً عن سؤال طرحه عليه نيكولا بصدد تنقلات الجند.

دخَل بعدهم شيخٌ منتفخ الوجه، قصير القامة جاء يحمل تقارير بشأن القوانين الجديدة التي تبنّاها مجلسُ الدولة كان اسمه «بلودوف»[٢٢] صديق الديسمبريين ووزير سابق، وكان يمارس في هذا الوقت مهمات مدير الشعبة الثانية في دائرة إعداد القوانين.

كانت تقاريره تتعلق بالقوانين الجديدة، وبلجنة الرقابة، وبرقيب قديم سُجن لأنه نشر مقالةً ينتقد فيها قراراً وزارياً.

كان بلودوف ينتمي بقناعة إلى جماعة تطمح إلى نشر واسع للتعليم وتشكو من المراسيم الإمبراطورية التي أرادت خنق هذا الاتجاه فقصرتْ عدَد الطلاب على ثلاثمائة طالب، ومنعت السفر من أجل

---

٢٢ - بلودوف: (١٧٨٥ - ١٨٦٤)، أديب ورجل دولة، وزير من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ نصب كونتاً، رئيس مجلس الدولة من ١٨٦٢ إلى ١٨٦٤.

الدراسة إلى الخارج، وأدخلت رقابةً صرامتُها غير معقولة، ويسرت الوشاية، وعاقبت بالنفي أو بضروب القصاص كل إعلان للرأي مكتوبٍ أو شفهي.

هذه التدابير كانت تحزن «بلودوف» الذي كان ينتقدها انتقاداً قاسياً بين خُلصائه، لكنه كان يخضع لها رسمياً، كان نيكولا يحسّ غريزياً بل كان يرى ميول بلودوف الذي كان يحتقره لهذا السبب، كان مقتنعاً أن السلطة كما يمارسها كانت ضرورية لروسيا وأن نظام حكمه لا يمكن أن يتعايش مع التعليم الذي أراد أن يُدخله إلى روسيا بلودوف، وهيلين بافلوفنا، وأساتذة كثُرٌ - هؤلاء الأدعياء المنافقون، كما كان يدعوهم، ولذلك لم يكن يسمّي ما يعتبره جميعُ الناس تعليماً، التعليم يجب أن يمتثل لسلطته ويرضيه، بهذا الاتجاه كان يعمل في وضح النهار.

كان يرى أن كثيراً من الملوك في أوروبا سهّلوا انتشار التعليم، مستسلمين للذين كانوا يطالبون بذلك، تنازل بعضُهم لكي يصبحوا شعبيين، مثل لويس فيليب الذي كان نيكولا يحتقره، وكان الآخرون يفعلون ذلك خوفاً من الرأي العام، مثل أخِ زوجته ملك بروسيا.

لكن روسيا لا تحتاج، برأيه، إلى التعليم.

ليس ما تحتاج إليه روسيا جامعات وصحفاً ومقالات وعلوماً وعلماء وتعليماً، بل إن ما يلزمها هو النظام، ولمّا كان هذا هو اعتقاده فانه لم يكن يطلب سوى شيء واحد: أن يطيعه الجميع دون أن يتفّوهوا بكلمة، لم يكن يلزم أيُّ شيء آخر، في رأيه، لتعمّ السعادةُ، - لا بالنسبة للروس فحسب، بل وأيضاً بالنسبة للألمان، والفرنسيين والترك وشعوب أخرى.

لذلك كان يحتقر «بلودوف» وأشباهه، هؤلاء الذين يستبسلون في الدفاع عن مبدأ التعليم العام، لكنهم يتمتعون بجميع المزايا التي تُوفّرها لهم ممارسه وظائفهم، وهو شيء غير ممكن إلا في بلد خال من أي تعليم، ومع ذلك كانوا متعصبين للتعليم.

كان نيكولا يزدريهم بعمق ولا يقبل أبداً الاقتراحات التي يتقدّمون بها إليه، وهذه المرة أيضاً، رفض طلبَ «بلودوف»، إطلاق سراح المراقب.

ثم أدخِلَ بعد ذلك الحاكُم العام لإدارات الغرب، الجنرال «بيبكوف»، وافق الإمبراطور موافقة تامة على الانتقامات التي أَمرَ بها بيبيكوف، من الفلاحين الذين رفضوا اعتناق الدين الارثوذكسي[٢٣]، - وأمر بمحاكمة العصاة في المحكمة العسكرية، وهذا يعني أنهم سيُحكمون بالطواف بين صفّين، كالطالب البولوني، وأمر أيضاً بتجنيد مدير الصحيفة الذي نشر معلومات بصدد بضعة آلاف من الفلاحين الأحرار الذين سيخضعون لنظام القنانة، لمصلحة الإمبراطورية.

فعلتُ هذا لأنني أرى أنه نافع ولا أسمح لأحد أن يناقش ذلك!

أدرك بيبيكوف قسوةَ الأمر الإمبراطوري بصدد البابويين، كما رأى الظلمَ في التدابير المتّخذة نحو الفلاحين، لكنْ لا ينبغي أن يُعارض الإمبراطور، إن مخالفة مشيئة نيكولا كانت تعني بالنسبة إليه فقدان منصب لامع حصل عليه بعد أربعين سنة من الخدمة، وكان يجني منه أرباحاً طائلة، حنى رأسه المائل إلى الشيب دلالةً على الخضوع

---

٢٣ - بعد إلغاء الوحدة الدينية مع روما سنة ١٨٤٩، لم يشأ كثير من المتمردين أن يتخلوا عن هذه الوحدة.

والموافقة، مستعداً لتنفيذ هذه التدابير القاسية، الرعناء اللئيمة، وإن كانت مطابقةً لمشيئة جلالته الإمبراطورية.

عندما عاد بيبيكوف إلى مركزه، نفذ منهجياً وبدقّة هذه الأوامر القاسية والظالمة، وإن لم يوافق في قرارة نفسه عليها، وهي أوامر لم تُقلق هدوءَ الناس فحسب بل إنها كلّفتهم حياتهم في بعض الأحيان، وأكثر من ذلك أنها ثبّطت عزائمهم، وأفقدتهم حساسيتهم، وأبادت فيهم أرفعَ الصفات الإنسانية.

عندما انتهى نيكولا من ذلك مع بيبيكوف، نظر إلى ساعته، وهو على يقين تام من أنه أدّى مهمته بنزاهة، وانسحب إلى غرفته ليبدّل ثيابه.

ارتدى معطفاً تزيّنه كتفيتان وأوسمة وشريط، ودخل قاعة الاستقبال حيث كان أكثر من مائة شخص رجال ببزاتهم الرسمية، ونساء بفساتينهن الفخمة المقوّرة، جامدين في أماكن عُيّنت لهم سلفاً، ينتظرون بخشيةٍ دخول جلالته.

أقبل الإمبراطور كلي النظرة، نافخاً صدره، وقد فاض بطنُه عن نطاقه، وأحسّ أن الأنظار كلها تنصبَ عليه، فاصطنع مظهراً أكثر جلالاً، طاف بنظرته على الوجوه المعروفة، كان يقف قرب المدعوين الذين يتذكرهم، فيخاطبهم ببضع كلمات، بالروسية أو الفرنسية ويصغي إلى ما يقولونه.

بعد أن تلقّى نيكولا تمنيات الجمع، قصد الكنيسة، كان الله، بلسان خدّامه، يحيّي ويمجّد نيكولا كما كان يحيّيه ويمجّده جميع رعاياه، وكان الإمبراطور الذي أخذ ذلك كله يُضْجره مع الزمن، يقبل مع ذلك التحية التي هي من حقّه، فكّر:

يجب أن تكون الأمور كذلك، لأن راحة الإنسانية وسعادتها منوطتان بي، ومع أنه كان متعباً من كل هذه الضعة تجاهه، فإنه لم يشأ أن يحرم العالم من مؤازرته، وعندما رتّل الشماس الذي رتّب شَعره، في نهاية القداس «حياة مديدة»، وردّد أفراد الجوقة بأصواتهم الرائعة كلمات الترتيلة، أدار نيكولا رأسه فلمح، قرب النافذة، نيليدوفا، أو بالأحرى لمح كتفيها، فَصَلَ في المشكلة التي طُرحت عليه عندما قارنها بالفتاة المتنكرة في سهرة البارحة، وحكم لمصلحتها.

عندما خرج من الكنيسة قصد منزل الإمبراطورة وبقي بضع دقائق، مازحاً مع زوجته وأولاده، ثم اجتاز «الايرميتاج» ومضى إلى وزير البلاط وأمره، من جملة ما أمره به، أن يدفع من أمواله الخاصة معاشاً سنوياً لأم الفتاة التي عرفها عشية البارحة، ومن هناك اتّجه إلى نزهته المعتادة.

في هذا اليوم جرى الغذاءُ في قاعة «بومبي»، وقد حضر الغذاءَ ابنا الإمبراطور الأصغران، نيكولا وميشيل، والبارون ليبفن، والكونت رزيوسكي، ودولغوروكي، والمرافق العسكري، والمبعوث فوف العادة لملك بروسيا، وأثناء انتظار وصول الإمبراطور وزوجته، نشب نقاشٌ، بصدد الأنباء المُقلقة من بولونيا، بين البارون ليبفن والمبعوث، البروسي، قال ليبفن:

بولونيا والقوقاز هما الحديدتان الكاويتان لروسيا، ففي كل منهما لابد من مائة ألف رجل.

تظاهر المبعوث بالدهشة لهذا النبأ، وقال:

ماذا قلت.

نعم، أوه! نعم، كانت ضربة معلم من ماترينخ، أنه ورطنا هذه الورطة.

قطع الحديثَ ظهورُ الإمبراطورة، مبتسمةً بلا فرح، ووراءها الإمبراطور.

على المائدة، تحدّث القيصر عن خضوع الحاج مراد وصرح أنه متأكد أن خطته خطة الحملة: التوغّل المنهجي، قطع الغابات، بناء الحصون، كل ذلك سيؤدي إلى نهاية سريعة لحرب القوقاز.

ألقى المبعوثُ نظرة سريعة على المرافق العسكري البروسي الذي كان يناقشه، في هذا الصباح بالذات، عن عَيْب نيكولا الذي كان يعدّ نفسه استراتيجياً كبيراً، وحين أصغى الآن إلى الخطة التي ذكرها الإمبراطور، ندم على انتقاده واعترف بقدرات القيصر فيما يتصل بقيادة الحرب،

بعد الغذاء، ذهب نيكولا إلى مشاهدة «الباليه»، كان نحو مئة امرأة، في ثياب مكشوفة، تتحرّك على خشبة المسرح، كانت إحداهن تحدّق في الإمبراطور، على نحو خاص، دعا نيكولا قائد الباليه وهنّأه وأمر أن تُهدى الراقصة خاتماً تزيّنه ماسةٌ،

وعندما قدّم له تشيرنيتشيف التقارير، في اليوم التالي، كرّر نيكولا أوامره المتعلقة بحرب القوقاز وأكدّ قراراته التي اتّخذها أمس والتي يجب أن يبلّغها فورونتزوف.

كتب الوزيرُ إلى نائب الملك بالمعنى الذي أشار إليه الإمبراطور، واندفع ناقل بريد عسكري آخر إلى نفليس، حاثاً الجياد على السير وضارباً الخوذيين.

لاحقاً لأمر نيكولا بافلوفيتش، نُظِّمت مباشرة غارةٌ على بلاد التشيتشين، في كانون الثاني ١٨٥٢.

كانت التشكيلة المخصّصة لهذه الحملة تحتوي على أربع سرايا من المشاة، ومئتين من القوزاق الخيّالة، وخمس مدافع.

كان الرتل يسير في طريق وعرة، وعلى كل جانب منه، كان الكشّافة بجزماتهم العالية، وسترهم المبطنة بالفرو، وقبّعات الفرو، يصعدون ويهبطون التلال، وبنادقهم على أكتافهم، وجعبهم ملأى في نُطُقهم، كان هذا الرتل يحاول، وهو يتقدّم في أرض عدوّة، أن يُحدث أقل قدر ممكن من الضجيج، كما كانت القاعدة دائماً، لمْ يكن يُسمع سوى هدير عجلات المدافع، وجمحمة الخيل التي تتمرد على النظام العسكري، وكان قائد الرتل المُستاءُ من رجاله، يطلق أحياناً صرخةً بصوت مبحوح وغاضب، وسبب تكدّر مزاجه أن الكشافة كانوا يسرفون حيناً في الاقتراب من معظم الجند، ويبالغون حيناً آخر في الابتعاد عنهم.

عكّر الصمتَ المنشود الظهورُ المفاجئ لعنزة بيضاء الصدر، رمادية الظهر، قرناها الصغيران معقوفان إلى الخلف، انظلقت من الدغل بين الرتل وحرس الجناح.

وأبعد من ذلك، اقترب من الرتل سربٌ مذعورٌ من هذه الحيوانات الجميلة على شكل سهم، بوثبات شديدة الاتساع، ودنتْ من الجنود إلى الحد الذي وثقوا معه بأنهم يستطيعون شك أجسادها بحرابهم فلحقوا بها وهم يرسلون الصراخ ويضحكون لكنها اجتازت صف الكشّافة، فطاردها فرسانُ السرية وكلابها، فتشتّتْ في الجبال كالطيور.

كان ذلك في الشتاء، لكن الشمس حميتْ، عند الظهر، وعندما أرسلت أشعتها المضيئة واللامعة، لم يكن الرتلُ قد سار منذ الفجر سوى أربع كيلو مترات، وكان يُؤذي العيون النظرُ إلى الحراب والمدافع التي عكست الضوءَ فتحولت إلى مثل عددها من الشموس الصغيرة.

خَلفَ الرتل، كان يجري النهر الصافي الذي اجتازوه قبل قليل، وأمامه تمتدّ الحقول المحروثة والمروج، في أعماق الوديان القليلة العمق، وأمام ذلك كله جبالٌ غامضة وقاتمة، مغطّاة بالغابات، ومن وراء الجبال السوداء تنتصب صخورٌ مهيبة، وفي الأفق كانت تتألق الثلوجُ الأبدية، بجمالها الذي لا يزول، متلوّنةً، متلألئةً كأنها الماسُ.

على رأس السرية الرابعة كان يسير «بوتلر» الجميل، وهو ضابطٌ قديم في الحرس، كان يرتدي معطفاً أسود، ويضع على رأسه قبّعةً من الفرو، وكان سيفه معلّقاً بحَمَّالته، كان «بوتلر» يعي أنه يشارك في عملية توجهها مشيئةٌ واحدة، وتخدم قضيةً كبرى، كان يحب الحياة كثيراً، لكنه لم يكن يخشى الموت، كانت هذه هي الحملة الثانية التي يُشارك فيها، وكان ينتظر، في كل لحظة، أن تُطلق عليه النار، كان مصمماً ألاّ ينحني أمام القنابل، وألاّ يعير صفير الرصاص انتباهاً، وكان يريد أن يفعل ما فعله في أثناء الحملة الأولى، كان يريد أن يواجه الخطر وجهاً لوجه، وأن يُشجّع رفاقه بفرح، وأن يكلمهم بصوت واثقٍ من كل شيء ماعدا الحرب.

كان الرتلُ الذي انحرف عن الطريق وسلك درباً في حقول الذرة، يقترب من الغابة، سقطت فجأةً، ودون أن يُعْلم من أين، قنبلةٌ تَصفر بخبث، وانفجرت على حافة الطريق، بين العربات.

قال «بوتلر» وهو يبتسم لزميله:

بدأت المعركةُ.

وبالفعل، فقد ظهر عند أطراف الغابة، رتلٌ من فرسان التشيتشين يحملون رايات خضراء، وفي وسط التشكيلة أمكن تمييز علم أكبر من الرايات جميعاً، أبلغ عريفٌ قديم ثاقبُ النظر «بوتلر»، وكان قصير النظر، أن العلم لابد أن يكون علم «شامل» نفسه، هبط الجبليون الهضبة وظهروا على حافة أقرب الوديان، إلى اليمين، كان الجنرال قائدُ الرتل، وهو رجل قصير القامة يرتدي معطفاً أسود دافئاً، ويضع على رأسه قبّعة من الفرو، يمتطي جواداً أبيض، اقترب من سرية بوتلر، وأمره بلقاء فرسان العدو، قاد بوتلر «بسرعة رجاله إلى الجهة المعيّنة، لم يكد يصل الوادي حتى سمع وراءه طلْقَتَيْ مدفع، بينهما وقفة بضع ثوان، التفت إلى الوراء فرأى سحابتين صغيرتين من الدخان الأزرق والأسود، تخرجان من فوهة المدافع وتنبسطان فوق الوادي، عادت التشكيلةُ العدوّةُ على أعقابها، ولعلها لم تكن تتوقع وجود المدافع، فتحت السريةُ الروسية النار، وغرق الوادي في دخان الانفجارات، ومن أعلى الوادي، كان الجبليون يُروْن بوضوح وهم ينسحبون بسرعة ويطلقون النار على القوازق الذين كانوا يطاردونهم، تحرّكت السرية بسرعة: ظهرت قرية على منحدر الوادي الثاني.

دخل بوتلر القريةَ التي هجرها أهلُها، على رأس جنوده، متابعاً القوزاق عن قرب، تلقى الجنودُ أمراً بإحراق مخازن الحبوب والأعلاف والبيوت، امتلأت القرية بدخانٍ حرّيف، كان الجنودُ يركضون فيه، مخرجين من البيوت كل ما يجدونه، ممسكين بالدجاج الذي لم يكن يتسنَّ للجبليين أن يحملوه معهم، استراح الضباط في ظل الدخان ليتناولوا طعامهم، حمل إليهم عريف آنيةً ملأى بالعسل، لقد اختفى

كلُّ أثرٍ للتشيتشين، وفي وقت مبكر، بعد الظهر، سلك الفوج طريق العودة، ووُضع بوتلر في حرس المؤخرة، وما إن تحرّك الجنودُ حتى ظهر التشيتشين من جديد وأخذوا يطاردونهم ويطلقون النار مناوشةً وحتى اللحظة التي انكشفوا فيها.

لم يُجرح أحدٌ في سرية «بوتلر»، أحسّ بنفسه مرتاحاً وباسلاً وعندما عبر الرتلُ النهر من جديد وانتشر في حقول الذرة وفي المروج، أخذ الجنود يغنّون، كانت الريح ساكنةً، وكان الجو النديُّ والنقي شفافاً جداً حتى أن الجبال المغطاة بالثلوج الأبدية، والبعيدة نحو مائة كيلو متر، كانت تبدو قريبة، وعندما كانت الأغاني تتوقفّ، كان يُسْمَع خَطْوُ الرجال الموقّع، واصطدام المدافع بالحجارة، اللحن الذي كانت تغنّيه سريةُ «بوتلر» ألّفه فارسٌ على شرف السرية بإيقاع راقص، وكانت اللازمة فيه:

شيءٌ آخر

شيءٌ آخر

قنّاصونا،

قنّاصونا!

كان «بوتلر» بجنب رئيسه، المقدم «بيتروف» الذي كان يقاسمه غرفته، كان سعيداً بعمق لكونه في القوقاز، والسبب الرئيس الذي دفعه إلى هذا القرار هو أنه خسر كل ثروته في القمار، في بطرسبرج، وأنه لم يعد يملك شيئاً، انتهت تلك الحياة الآص، وبدأت حياةٌ جديدةٌ نشيطةٌ ملأى بالمكائد، لقد نسي إفلاسه وديونه، كان القوقاز والحرب والضباط السكارى، في الغالب، والطيبون الشجعان، والمقدم بيتروف،

كل ذلك كان يعجبه في هذه الحياة أيّما إعجاب حتى كان يتردد أحياناً في التصديق بأنها حقيقية، كان يصعب عليه أن يتصور أنه لم يعد في بطرسبرج، في صالوناتها الملأى بالدخان، مقامراً ومحتقراً مدير القمار، نهباً لصداع مخيف، وأنه في منطقة رائعة بين القوزاق الشجعان.

كان الجنود يدندنون:

شيء آخر، شيء آخر

قنّاصونا، قناصونا

كان جواده يسير على إيقاع اللحن الرشيق، وكان «تريزوكا» جواد قائد الفوج، رمادياً، معقود الذيل، مهموم المظهر وكأنه القائد نفسه، يخب في المقدّمة.

كان «بوتلر» يفيض مرحاً وبسالةً، ولاشك أن الحرب تتضمّن مخاطر، لكنها كانت تتيح له أيضاً إمكان الحصول على أوسمة، وعلى تقدير رفاقه وأصدقائه الروس، أمّا الوجهُ الآخر للمعارك: الموت وجراح الجنود والضباط والجبليين، فلم تكن تخطر له على بال، مهما بدا ذلك غريباً، لكن «بوتلر» لم يكن ينظر إلى الجرحى ولا إلى القتلى، كان ذلك لا شعورياً وكأنه يريد أن يحافظ على الفكرة الشعرية التي كونها عن الحرب، تصرّف كذلك في هذا اليوم الذي قُتل فيه ثلاثة من الروس وجُرح اثنا عشر، وحين مرّ قرب جثة مضطجعة على ظهرها لم يكد يلاحظ وضع اليد الغريبَ والبقعة الرمادية الحمراء في الرأس، ولم يشأ أن ينظر عن قربٍ، كان الجبليون يمثلون بالنسبة إليه فرساناً يُخشى بأسُهم ويجب الاحتماءُ منهم.

قال المقدم أثناء توقّف الغناء:

الأمر عندنا هكذا، لا كما عندكم في بطرسبرج: «يساراً تراصفْ! يميناً تراصفْ»، نحن هنا، نقاتل ثم نرجع إلى بيوتنا.

ستقدم لنا «ماشوركا»[٢٤] الحلوى وسيكون الحساءُ لذيذاً، حياة حلوة أليس كذلك؟ هيّا الآن.

وطلب إلى الجنود أن ينشدوا أغنيته المفضلة: «طلع الفجر». كان المقدم يعيش عيشة زوج مع ابنة الممرّض التي كان يسميّها قديماً ما شكا والتي يسميها الآن «ماري دميتريفنا»، كانت جميلة شديدة الشقرة، مغطاة بالنمش، في الثلاثين من عمرها، وبلا أولاد، نسيتْ هذه المرأة ماضيها، وغدت صديقة وفيّةً للمقدم، تعتني به كما تعتني المرضعُ بابنها، وهو شيءٌ كان نافعاً جداً لهذا العسكري الذي كان يسكر حتى يفقد وعيه.

عندما عاد المقدّم إلى القلعة، تبيّن أن توقّعاته كانت صحيحة، فقد قدّمت ماري ديمتريفنا عشاءً لذيذ الطعم له ولبعض الضباط الذين دعاهم، وقد أكل وشرب حتى لم يعد يعرف ما يقول، وذهب لينام، وكان «بتلر» متعباً جداً أيضاً، لكن الخمر الجديدة جعلته مرحاً كثير الكلام، سريعه، ومع ذلك، فقد اتجه إلى غرفته، ووضع يده إلى رأسه الجميل ذي الشعر الجعد، وغرق في نوم عميق لم يعكّره أي حلم ولا أية إفاقة فظّة.

- ١٧ -

القرية التي دمّرتها غارةُ الروس هي نفسها القرية التي قضى فيها الحاج مراد ليلته عشيّة خضوعه للروس.

---

٢٤ - ماشوركا، ماشكا: تصغير ماري.

وعندما بدأ هؤلاء دخول القرية، التجأ سعدو الذي توقّف عنده الحاج مراد، إلى الجبل هو وأسرته، فلما جلا العدوُّ عن القرية، عاد إليها، كان بيته مهدّماً، لقد انهار السقف، واشتعلت الأبوابُ، وتلوث الداخلُ، وكانت جثةُ ابنه، اليافع الجميل ذي العينين اللامعتين الذي كان معجباً إعجاباً كبيراً بالحاج مراد، ترقد في المسجد الذي نُقلت إليه على جواد، معطاةً بمعطف صوفيّ، طُعن ظهرهُ بحربة اخترقته، وكانت المرأة ذات الوجه المفعم نبلاً والتي خدمت الحاج مراد عندما كان في بيتها، جالسةً بجنب جثة ابنها، وكانت صدارتها الممزّقة تشفّ عن ثدييها الذابلين، وكان شعرها مشعثّاً، كانت تنتحب وهي تلطم وجهها حتى أدمتْه، حمل سعدو رفشاً ومعولاً وذهب ومعه بعض الأقرباء، ليحفروا قبراً لابنه، وكان الجدُّ جالساً قرب جدار المنزل المهدّم أمامه وهو يُبْري قضيباً بصورة آليةٍ.

ذهب قبل قليل ليرى منحلته، كانت جميع الخلايا وجماعات النحل محروقةً، وكذلك كدسان من الكلأ، وقُطعت أشجارُ الكرز والمشمش وكُدّست وأصبحت جاهزةً للحَرق، كانت النساءُ تنتحبن، والصغار يزعقون. وأخذت الماشية الجائعة التي لم يبق ما تأكله تخور خواراً مُحزناً، وتوقّف الأطفال الكبار عن اللعب وأخذوا ينظرون إلى الكبار وقد بدا عليهم الخوف.

لُوثت الآبار لكي لا يجد السكان ماءً بعد ذلك، ودنّسَ المسجدُ أيضاً، وكان الملاَّ وخدمهُ ينظّفونه، لم يكن أحدٌ يقول شيئاً، ولا يظهر احتقاره للروس، إن الإحساس الذي أحسّه جميع التشيتشين، من أصغرهم إلى أكبرهم، كان، على كل حال، أقوى من الاحتقار، أو على الأصح، لم يكن احتقاراً، وإنما كان رفض الاعتراف بصفة الإنسانية

لهؤلاء الكلاب الروس، كان الاشمئزاز الذي استشعروه أمام الحقارة وأمام الجنون الذي قيدتْ به هذه الحملة، إن الرغبة في استئصال هؤلاء الملاعين كما تُستأصل الجرذان، والعناكب السامة والذئاب، غدت، عند التشيتشين شعوراً قوياً قوة غريزة البقاء، كان سكان القرية أمام أحد خيارين، إمّا أن يبقوا في قريتهم، وأن يحاولوا إعادة بناء ما كان قد كلّف الكثير من الجهود والمثابرة، وما هدمه الروس باستهتار، وأن يكونوا معرّضين في كل لحظة لمثل هذه الفظائع، وإما أن يخرقوا شرائع الدين ويخضعوا للروس متغلبين على احتقارهم واشمئزازهم.

بعد أن صلى الشيوخ، قرّروا بالإجمع أن يرسلوا رسولاً إلى شامل يطلبون عونه، وأخذ السكان مباشرة يرفعون الأنقاض.

- ١٨ -

وفي اليوم التالي لهذه الحملة الشهيرة، خرج «بوتلر» من منزله. في الصباح الباكر، قبل أن يتناول الشاي مع بيتروف كالعادة، ليتنزّه ويتنفس قليلاً من الهواء النقي، كانت الشمس، فوق الجبال، تُلقي أشعتها على الأكواخ البيضاء التي على يمين الشارع باهرةً جداً حتى ليشق على المرء أن يُبقي عينيه مفتوحتين، وفي مقابل ذلك، كان النظرُ يرتاح إلى تأمل الجبال المغطاة بالغابات، التي تبدو كأنما تتسلّق لغزو السماء، وإلى سلاسل رُكام الثلوج التي تبدو كأنما تريد أن تتغطّى بالغيوم، كان «بوتلر» يتأمل هذه الجبال وهو يتنفس بملء رئتيه، سعيداً بالحياة، سعيداً، على الخصوص، بأن يكون هنا، بأن يعيش في هذه المنطقة البديعة، وكان مغتبطاً أيضاً حين فكّر في أنه تصرّف تصرفاً شجاعاً أمس أثناء الهجوم، بل وأكثر من شجاع، أثناء الانسحاب، عندما حميتْ المطاردة، وقد ملأته ذكرى أمسية البارحة والاستقبال

البسيط والرائع الذي خصّتْ به ماري ديمتريفنا المدعوين جميعاً، وخصته به، على الخصوص كما بدا له، ملأته بالحبور أيضاً، كانت ماري ديمتريفنا بشعرها الغزير، وكتفيها العريضيتين، وصدرها المرتفع، وابتسامتها المشرقة، ونقط النمش على وجهها، تجذب بوتلر بالرغم منه، وهو شاب، قوي، عزب، وبدا له أنها تشتهيه، لكنه فكر في أنه بذلك يُسيء التصرّف مع رفيقه الطيب «بيتروف، ولذلك» حافظ على البعد بينه وبينها، وكان هذا الموقف يوقظ فيه الآن الرضا العظيم، تلك كانت أفكاره عندما سمع على الطريق الترابية جَرْيَ الخيل.

رفع رأسه ورأى جماعة من الفرسان تقترب، كان على رأس عشرين من القوزاق رجلان يتقدّمان، كان أحدهما يرتدي جبّةً بيضاء، وقلنسوة تعلوها عمامةٌ تشدّ رأسه، والآخر ببزّة الضابط الروسي، أسود الشعر، معقوف الأنف ويحمل أسلحةً محلاّةً بالذهب.

كان الفارس ذو العمامة يمتطي جواداً أشقر رمادياً صغير الرأس، بديع العينين، وكان جواد الفارس ذي البزة الروسيّة الذي من نسل كاراباك الشهير، كبيراً، أنيق السير، على الخصوص، ميّز «بوتلر» وهو خبير ماهر بالخيول، القوة الفتيّة في الجواد الأول، بنظرة عجلى، وتوقّف ليعرف هوية القادمين، سأل الضابط مخاطباً «بوتلر»:

هذا هو منزل القائد العسكري.

كانت صبغةُ جملته، ولهجتُه تنمّان على أنه ليس من أصل روسّي، ردّ «بوتلر» بالإيجاب، وسأل وهو يدنو من الضابط ويشير بنظره إلى الرجل ذي العمامة:

من هذا الرجل؟

هذا الحاج مراد، جاء بدعوة من القائد العسكري.

كان «بوتلر» قد سمع عنه وعن خضوعه للروس، لكنه فوجئ بأن يصادفه هنا، في هذه القلقة الصغيرة كان الحاج مراد ينظر إليه نظرةً ودّية.

قال «بوتلر» «صباح الخير» بالتترية وكان يعرفها، ردّ عليه الحاج مراد التحية بالتترية أيضاً حانياً رأسه، واقترب منه وشدّ يده بيده اليمنى التي عُلّق سوطه بإصبعيها الأخيرين.

سأل:

القائد.

لا، لكنه هنا، وسأبحث عنه.

واتجه «بوتلر» نحو منزل القائد، كان الباب الرئيسيُ مغلقاً، وبما أن أحداً لم يردّ على ندائه، دار حول المنزل ودخل من المدخل الخلفي، نادى الخدم فلم يجبه أحد، فقصد المطبخ حيث رأى ماري ديمتريفنا التي شمّرت كميّها وأخذت تقطّع العجين الأبيض لتصنع منه فطائر.

سأل بوتلر:

أين الخدم؟

أجابت المرأة:

ذهبوا ليسكروا، ماذا تريد منهم؟

يجب أن يفتُح البابُ، قدم الحاجُ مراد مع جماعة من الفرسان.

قالت ماري ديمتريفنا وهي تبتسم:

هذه مزحة أخرى تحكيها.

أتكلم جاداً، ها هم أمام الشرفة.

صحيح؟

و لَمَ أخترعُ ذلك؟ اذهبي وانظري، الحاج مراد أمام الباب.

قالت ماري ديمتريفنا بفرح:

يا للحظ الرائع.

نزعت وزرتها، وردّت كميّها، وأصلحت عقصتها، وأضافت:

سأوقظ إيفان ما نفيفيتش.

قال بوتلر:

لا، سأذهب أنا بنفسي.

حسناً.

قالت ذلك واستأنفت عملها.

كان القائد يعلم أن الحاج مراد في «غروزنايا» فلم يدهشه قدومُه فوق الحدّ، نهض وأشعل سيجارة وأخذ يرتدي ثيابه، كان يسعل ويسبّ رؤساءه الذين أرسلوا له هذا الشيطان، وبعد أن لبس، طلب إلى خادمه أن يحمل إليه دواءه، علم الخادم ما قصدُه فقدّم إليه «الفودكا».

قال القائد بعد أن ابتلع قدحاً من الفودكا وأكل قطعةً من الخبز الأسود:

ليس هناك ما هو أسوأ من مزج المشروبات بعضها ببعض، شربنا

أمس الفودكا والنبيذ الجديد، واليوم أصبتُ بالصداع، هيّا، أنا جاهزٌ الآن.

واتجه إلى الصالون حيث أدخل بوتلر الضابط ورفيقه، سلّمهُ الضابطُ أمرَ قائد الجناح الأيسر الذي يُبلغه فيه أن يستقبل الحاج مراد، ويسمح له باعادة الاتصال بالجبليين عن طريق الرسل، مشترطاً ألا يدعه يخرج من القلعة دون أن يلحق به حرساً قوياً من القوزاق.

قرأ القائد الأمرَ وأعاد قراءته منقّلاً نظره بين الحاج مراد والرسالة، وقال:

نعم، سيدي.

ليعش هنا، عندي، تَرْجم له أني تلقيتُ أمراً بألا أدعه يخرج وحده، والأمر شيءٌ مقدّس، أين نؤويه؟ ما رأيك، بوتلر؟ في المكتب؟

قبل أن يجيب بوتلر قالت للقائد، ماري ديمتريفنا التي هُرعت من المطبخ ووقفت في فرجة الباب:

لماذا؟ ضعْه هنا في الصالون، سيظل دائماً تحت بصرك.

لفظت هذه الكلمات ورمتْ الحاج مراد بنظره سريعة، لكنها حين لاقتْ نظرتَه، انثنتْ بسرعة.

قال بوتلر:

أعتقد أن ماري ديمتريفنا مُحقّة.

قال ايفان ماتفييفتش:

انصرفي، لا شأن للنساء هنا.

أثناء الحديث كله، كان الحاج مراد جالساً، ويداه محطوطتان على مقبض خنجره، مبتسماً بازدراء، ثم صرّح بأن المكان الذي يأوي إليه لا يهمّ كثيراً، وما يهمه هو أن تسهّل له اتصالاتُه بالجبليين وأن يتمّ له ذلك، وفقاً لإذن نائب الملك.

وعد القائد أن رغبة الحاج مراد سوف تُستجاب، ثم طلب إلى بوتلر أن يهتم بضيفيه أثناء الوقت اللازم لإعداد المسكن ولتهيئة الفطور، وقصدَ هو نفسه المكتب لإرسال بريد اليوم وإصداره أوامره.

منذ البدء، اتخذت علاقات الحاج مراد مع معارفه الجدد طابعاً شديد الوضوح، كان يشعر نحو القائد بالاحتقار والإزدراء، وأظهر ذلك في موقفه منه، وكانت ماري ديمتريفنا التي تُهيئُ الطعام وتقدّمه تُعجبه إعجاباً خاصاً ببساطتها وجمالها الخاص الذي يعود إلى كونها من عرق غريب، ولأنه كان - لاشعورياً - يجتذبها، كان يسعى جهده لبتجاهلها، لكن نظراته كانت تحدّق فيها، بالرغم منه، وتتبعها في حركاتها.

وأعجبه «بوتلر»، وقام بينهما تيّار من الصداقة، وكان الحاج مراد يُحدّثه راضياً، ويهتم بحياته، ويحكي له حياته.

كانت الأخبار سيئة، فمنذ أربعة أيام، منذ وصوله إلى القلعة، تلقى رسالتين، كلتاهما مثيرةٌ للقلق.

- ١٩ -

بعد خضوع الحاج مراد للروس مباشرةً، اقتيدت أسرتُه إلى قرية «فيدينو» حيث وُضعت تحت حراسة مشدّدة، ريثما يتّخذ «شامل» قراراً بشأنها.

كانت النساء - فاطمة العجوز، وامرأتا الحاج مراد - وخمسة أولاد في سنّ الحداثة يعيشون تحت المراقبة، في بيت إبراهيم رشيد، بينما يوسف ابن الحاج مراد، الذي بلغ الثامنة عشرة، كان مسجوناً في زنزانة مظلمة مع سبعة مجرمين ينتظرون الحكم عليهم.

تأخّر صدور القرارُ لأن «شامل» الذي كان يقود حملةً ضد الروس كان غائباً، وفي ٦ كانون الأول ١٨٥٢ عاد إلى «فيدينو» بعد أن خاض معركة، وزعم الروس أنه هُزم وولّى هارباً، لكن ملازميه وهو نفسه يعتقدون أنهم قد انتصروا وشتّتوا القوى المعادية، أما الواقع - ونادراً ما كان يقع - فهو أن شامل استخدم، في أثناء المعركة، بندقيته، ثم استلّ سيفه وانقضّ بجواده على الروس، تمكّن ملازموه من كبح جماحه، لكن اثنين منهم سقطا بجنبه.

كان الوقتُ ظهراً عندما دخل شامل مقرّه، يُحيط به فرسانه وهم يلعّبون خيولهم، ويُفرغون مسدّساتهم وبنادقهم ويهتفون: لا إله إلا الله.

كان سكان القرية الكبيرة «فيدينو» حاضرين، واستقبلوا قائدهم، مجتمعين في الشارع أو على السطوح، وكان عددٌ منهم يطلقون طلقات من بنادقهم ومسدّساتهم علامة على حبورهم، كان شامل يمتطي جواداً عربياً أبيض يهزّ عنانه مرحاً وهو يدنو من بيت صاحبه، وكانت عدّتُه بسيطة ليس فيها زينة ذهبية أو فضيّة، كان العنان من الجلد المتين الذي فُرضتْ فرضةٌ في وسطه، وكان اللجام والركاب المعدنيان يتلألان، وعلى السرج بدت سجّادة حمراء، وكان الإمام نفسه يرتدي تحت وشاح قرميدي اللون معطفاً أضيف الفرو إلى قبّته وكمته، ويشدّ خصره بزنّار عُكِف فيه خنجر، وكان يضع على رأسه

عصابةً عالية طرفها يخفق على عنقه، وقد انتعل حذاءً قديماً ولفّ ساقيه بساقيّتي جزمة مربوطتين ببريم.

كان شامل يأبى، على العموم أن يحمل في لباسه أو في سلاحه أية حلية لامعة.

كان التباين المقصود بين قامته العالية وملبسه البسيط وبين فرسانه بثيابهم البرّاقة وأسحلتهم المحلاة بالذهب والفضة، وهو في وسطهم، يُبرز مهابةً كان يحسن استخدامها للتأثير في الشعب، كان يجتاز القرى فيحسّ آلاف النظرات تتجّه إلى وجهه الشاحب، المزدان بلحية شقراء، قصيرة، لكن عينيه الصغيرتين الساكنتين، لم تكونا تنظران إلى أحد.

صعدت امرأتا الحاج مراد وكذلك جميع ساكني البيت إلى السطح ليروا دخول الإمام، ما عدا فاطمة العجوز أم الحاج مراد، فقد كانت جالسة على الأرض، وشعرُها الأبيض محلول، ممسكة ركبتها التي كانت تفرقع في الموقد، كانت، كابنها، تحتقر «شامل»، كانت تحتقره الآن أكثر من ذي قبل وتود ألاّ تراه.

ولم يرَ ابنُ الحاج مراد أيضاً دخول شامل، لكنه استطاع أن يسمع من قبوه المظلم والنتن الذي حُبسَ فيه الطلقات النارية والأغاني فتألم ألماً شديداً، كما قد يتألم الشبابُ الذين يفيضون بالحياة عندما يُحَرمون الحرية، كان يوسف محبوساً في هذا الحبس ذي الرائحة المثيرة للغثيان، لا يرى غير وجوه الناس البؤساء، المنفرّين من قذاراتهم، المُنْهَكين، الذين جعلهم الألمُ أشراراً يكره بعضهم بعضاً، وكان يَغْبط بشغف جميع الذين يتنفسون في الهواء الندي، وينعمون بالنور والحرية ويختالون الآن على جيادهم النشطة وهم يطلقون النار ويهتفون جماعياً: لا إله إلا الله.

بعد أن مرّ شامل بالقرية، دخل فناء كبيراً مشتركاً مع الفناء الذي فيه منزلُ حريمه، كان حارسان مسلحان يحرسان مدخل الفناء الأول الذي امتلأ بالرجال والنساء الآتين من الجبال البعيدة ليسوّوا قضايا شخصيّة، كانوا طلاّب حاجاتٍ، أو أشخاصاً دعاهم شامل للمثول أمام محكمته ليُبلغهم قراراته.

عندما دخل الإمامُ هذا الفناء، نهضَ جميعُ الحاضرين، وحيّوه باحترام، وهم يضعون أيديهم على قلوبهم، بل إن بعضهم جثوا وظلّوا في هذا الوضع طوال الوقت الذي قضاه في عبور الفناء.

عرف شامل بين الذين كانوا ينتظرونه زواراً غير مرغوبين، ومراجعين جاؤوا يطلبون حمايته، لكن وجهه ظل محتفظاً بهدوئه، ترجل عن جواده، بعد أن اجتاز الباب الداخلي، إن حملته الأخيرة على الروس لم تتعبْه جسدياً، لكن قلقاً من نوع معنوي اجتاحه، فبالرغم من إجماع الآراء على اعتبارِ هذه الحملة نجاحاً، إلا أنه كان يعلم أنها كانت أقرب إلى الفشل، لقد أحرق ونُهبَ الكثير من القرى، وأخذ التشيتشين، وهم قومٌ متقلبّون، قابلون للتأثّر، يتردّدون، وكان عددٌ منهم، ولاسيّما الذي يعيشون بجوار الخطوط الروسية، مستعدّين للخضوع للعدو.

كان ذلك كله يشغل بال شامل، وكان يعلم أن التدابير يجب أن تُتّخذ، لكنه لم يكن يريدُ في هذه الساعة أن يفكر في شيء، كان يتوق إلى الراحة وإلى مداعبات امرأته المفضلة أمينة التي كانت من أصل ليستي، وكانت في الثامنة عشرة، وكان يحب عينيها السوداوين وساقيها الرشيقتين.

ومع ذلك فلم يكن بوسعه أن يرى، في هذه اللحظة، أمينة مع أنها

كانت قربه، وراء الأسوار التي تفصل مسكن الرجال عن مسكن النساء، كان شامل يعلم أن أمينة وزوجاته الأخريات كنّ يرقبْنه بنظراتهن من وراء شقوف الحواجز، لم يكن يتعذّر عليه أن يزورهن فقط، بل لم يكن لديه الوقتُ أيضاً لأن يجلس على وسادة ويستريح من تعبه، كان عليه، قبل كل شيء، أن يصلّي صلاة الظهر، و لم يكن مُهيّأ لذلك البتَة، لكنه لم يكن يستطيع أن يتملص من هذا الواجب، كان ذلك، على كل حال، ضرورياً له كزعيم روحي، ضرورة الخبز اليومي، وبعد أن توضّأ، صلى صلاته، حتى إذا انتهى من ذلك، بدأ يستقبل زوّاره.

كان الزائر الأول حماه، وهو معلم مدرسة قديم، طويل ذو شعر أبيض، ولحية كالثلج وطلعة مهيبة، ووجه نضر بالعافية، كان يُدعى جمال الدين، بعد الدُعاء، سأل شامل عن حملته وذكر له الحوادث الرئيسية التي جرت في غيابه.

«وبين هذه الحوادث: الأخذ بالثأر، وسرقات الماشية، والتقصير في أداء الطريقة (استخدام التبغ وشرب الخمر)، لكن أهمّها كان أسر رجال الحاج مراد الذين كلفهم المجيء بأسرته إلى أرض الروس، وأضاف جمال الدين أن هذه المحاولة اكتُشفت في الوقت المناسب وأن الأسرة المذكورة نُقلت إلى «فيدينو» حيث تُراقبُ مراقبةً صارمة ريثما يصدرُ الإمام نفسُه قراره.

كان بعضُ الشيوخ مجتمعين في قاعة الاستقبال ليناقشوا كل هذه المسائل، ونصح جمال الدين «شامل» أن يهتم بأمرهم على الفور، لأنهم ينتظرونه منذ ثلاثة أيام.

تناول شامل غذاءه في بيته، وخدمتْه «زايدة» أكبر نسائه سنّاً، وهي امرأة سمراء، أنفها أقنى ووجهها كريه لم يكن يحبّه.

بعد أن استعاد قواه، دخل قاعة الاستقبال، كان المجلس يضمّ ستة شيوخ، شعرهم أبيض، وقد اعتمّ بعضُهم بعمامة، بينما وضع بعضهم قلانس من الفرو، وكانوا جميعاً يرتدون جُبباً جديدة، ويشدّون أوساطهم بنطقٍ تتدلّى منها خناجر، نهضوا عند دخول شامل الذي كان أطول منهم جميعاً.

مدّ المستشارون أيديهم، وراحاتُها إلى الأعلى، وأغمضوا أعينهم، وقرؤوا الفاتحة، ثم مسحوا وجوههم بأيديهم، وضمّوها عند أطراف اللحية.

- جلسوا بعد ذلك حول شامل الذي كان يجلس على أعلى الوسائد وأخذوا يتناقشون في المسائل التي تهمهم.

حُكم على القضايا الجنائية بموجب الشريعة، حُكم على سارقين بقطع اليد، وعلى قاتلٍ بضرب العنق، وعُفي عن ثلاثة متّهمين آخرين، اهتم المجلسُ بعد ذلكَ بالمشكلة الرئيسية، وهي خضوع التشيتشين للروس، وبحث عن الوسائل الكفيلة بتفاديها، وقُرّر، بين التدابير المتّخذة، أن يوجّه نداءٌ مؤثر إلى السكان، وهو تدبير يعتبر ناجعاً، وقد كتب جمال الدين البيان التالي: «السلام عليكم ورحمةُ الله القادر على كل شيء، علمتُ أن الروس يُداهنونكم ويدعونكم إلى الاستسلام، لا تصدّقوهم ولا تخضعوا لهم اصبروا، وإذا لم تُجْزوا على شجاعتكم في هذه الحياة الدنيا، فستجْزون في الحياة الأخرى، تذكّروا ما جرى قديماً عندما أخذوا ينزعون سلاحكم، ولو لم يردّكم الله إلى الصواب في سنة ١٨٤٠، لصرْتم جنوداً، ولسارت نساؤكم سافرات، وللحقَ بهن العار، انظروا إلى المستقبل وأنتم تتذكّرون الماضي، الأفضل لكم أن تموتوا وأنتم تقاتلون الروس من أن تحيوا تحت سيطرة الكفّار،

اصبروا، وسوف أجيء حاملاً القرآن والسيف، وأقودكم أنا نفسي ضد الروس، وأنا آمركم الآن بشكل صريح أن تطردوا من أذهانكم كل فكرة للخضوع».

وافق شامل على نص البيان، ووقعه، وقرّر الأمر بتوزيعه، تصدّوا بعد ذلك لقضيّة، الحاج مراد التي كان شامل يعلّق عليها أهميّةً خاصة، كان مقتنعاً أنه لو احتفظ بالحاج مراد قربه، لحال الحاجُ مراد حتماً، بمهارته وشجاعته وجسارته، دون التخاذل الذي أخذ يحدث في الوقت الحاضر بين التشيتشين، كانت رغبة شامل دائماً الصلح مع الحاج مراد والانتفاع بخدماته من جديد، وهذا الاحتمال مستبعدٌ الآن، لكن من غير المقبول أن يظل الحاج مراد في خدمة الروس، لابد من القضاء عليه، على كل حال، وللتوصّل إلى هذا لابدّ من إرسال رجل قدير إلى تفليس يقتله أو يقنعه بالعودة إلى الجبال، ولبلوغ هذه الغاية لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة للضغط: أسرته ولاسيما ابنه الذي كان يشعر نحوه بحب لا حدود له، كان شامل يعلم ذلك، ومن أجل ذلك أراد أن يُعطي ابن الحاج مراد دوراً يلعبه في هذه القضية، وعندما أدلى المستشارون بآرائهم في هذا الصدد، أغمض الإمامُ عينيه وظلّ ساكناً، كان الشيوخ يعلمون ما يعنيه هذا الوضع، كانوا يعتقدون أن زعيمهم كان يسمع، في هذه اللحظة، صوت النبي الذي يدله على السبيل الذي ينبغي أن يسلكه، بعد بضع دقائق، فتح شامل عينيه وقال:

ائْتوني بابن الحاج مراد.

أجاب جمال الدين:

إنه هنا.

وبالفعل كان يوسف استدعاه قرب الباب، هزيلاً، شاحباً، وإن كان ما يزال جميلاً، جذّاباً، بعينيه اللامعتين اللتين لأمّه.

لم يكن الشاب يُشاطر أباه عواطفه بالنسبة إلى شامل، ولعله لم يكن على علم بكل ما جرى، وحتى لو كان يعلم لما لعب أيَّ دورٍ في هذا النزاع، ولم يكن يفهم لماذا تفصله عن شامل هذه الخصومة العميقة، شيء واحد كان يهمه: أن يستعيد حياته الحرة، وكان يعتبر كل خصام مع شامل غير مجد البتة، وفضلاً عن ذلك، كان، بعكس أبيه، معجباً أشد الإعجاب بشاملٍ، يشارك كلياً في الشعور بالتقدير العميق وبالطاعة الذي يكنه الجبلُ للإمام، وبشعور الإعجاب الكبير هذا دخل قاعة الاستقبال، أحسّ، وهو واقف على الباب، بنظرة شامل الثاقبة، ظل ساكناً بضع لحظات، ثم دنا منه وقبّل يده الطويلة البيضاء ذات الأصابع النحيلة.

أأنت ابن الحاج مراد؟

نعم، أيها الإمام.

أتعلم ماذا فعل؟

أعلم، أيها الإمام، وأنا آسِفٌ لذلك.

أتعرف الكتابة؟

كنتُ أنوي أن أصبح ملاّ.

اكتب إذن إلى أبيك أنه إن رَجع قبل عيد الأضحى وخضع لسلطتي، فسوف أصفح عنه، وسيعود كل شيء كما كان في الماضي، وإلاّ، إن لم يُطع وظل عند الروس - وتخدّد جبينُ شامل بالتجاعيد - فسأسلّم أمّك إلى القرية وسأضرب عنقك.

لم يظهر التأثُر على وجه يوسف لكنه أطرق رأسه ليُرى أنه فهم جيداً ما قاله شامل.

اكتبْ بهذا المعنى وأعط الرسالة رسولي.

لزم شامل الصمت الطويل وهو يحدّق في الشاب.

اكتبْ له أني أشفق عليك وأني لن أقتلك، لكنْ ستُفقأ عيناك ككل الخونة، انصرف، الآن.

ظل يوسف هادئاً تماماً وهو في حضرة شامل، لكنه عندما ترك غرفته، ارتمى على مراقبه، واستّل الخنجر، وأراد أن يقتل نفسه، لكن المراقب قبض على يديه في الوقت المناسب فربطهما وقاده إلى زنزانته.

بعد صلاة العشاء وحلول الظلام، ارتدى شامل معطفه الفرويّ الأبيض، ودخل منزل الحريم واتجه نحو غرفة آمنة، كانت آمنة غائبة من غرفتها، وكانت بصحبة النساء الأخريات، وقف شامل الذي لم يكن يُحب أن يُرى، في داخل الغرفة قرب الباب، لينتظرها، كانت آمنة حاقدة على شامل لأنه أهدى النسيج الحريري «زايده» و لم يهدها إياه، رأت شامل يدخل غرفتها، لكنها أبت، وهي حاقدة، أن تأتي إليه، ظلّت زمناً طويلاً قرب باب غرفة زايده تنتظر مبتسمة إلى ذلك الشبح الأبيض العالي الذي يدخل غرفتها ويخرج منها، وأخيراً، بعد أن انتظرها شامل بلا جدوى، خرج ليصلي صلاة الليل.

- ٢٠ -

قضى الحاج مراد أسبوعاً في القلعة عند إيفان ماتفييتش (وكان يرافقه رجلان من رجاله فقط: حنيفي وإيلدار)، وقد تخاصمت

ماري دميتريفنا غير مرة وحنيفي الكثير الشَعْر وطردتْه غيَر مرة من مطبخها لأنه كاد يقتلها، لكنها كانت تُنمّي في نفسها عاطفةً من التقدير الحقيقي للحاج مراد، لم تكن تخدمه على المائدة، إذ أُوكلتْ هذه المهمة إلى إيلدار، لكنها كانت تنتهز كل فرصة لتراه ولتخدمه، وكانت تشارك أيضاً مشاركة فعالة في جميع المحادثات المتعلّقة بأسرته، وكانت تعرف عدد نسائه وأولاده، وأعمارهم، وكانت، كلما عاد أحد المبعوثين تسألهم لتعرف نتائج محاولاتهم.

كان «بوتلر» يشعر بصداقة خالصة للحاج مراد، وكانا يتبادلان الزيارات الكثيرة، كانا يتحدّثان أحياناً بواسطة التراجمة، وأحياناً أخرى بوسائلهما الخاصة: الحركات والبسمات، وكان واضحاً أن الحاج مراد يحب بوتلر كثيراً، وكان موقف «إيلدار» من «بوتلر» دليلاً على هذا الحب، فعندما يدخل بوتلر غرفة الحاج مراد، كان «إيلدار» يتلقّاه بفرح، مبتسماً بملء فمه، ويحيط مقعده بالوسائد، ويخلّصه من سيفه إن كان يحمل سيفاً.

وكان «بوتلر» منسجماً أيضاً مع حنيفي الكثير الشعر أخ الحاج مراد من الرضاعة، وكان يعرف عدداً كبيراً من الأغاني، ويحسن الغناء، وكان الحاج مراد يناديه ويأمره، لكي يُفرح «بوتلر»، أن يُسمعه ألحانه المفضلة، وكان صوت حنيفي صوتاً صادحاً قوياً، كان يغني بأداء متميّز تميّزاً خاصاً وبعاطفة عارمة، وإحدى أغنياته التي كانت تؤثر في الحاج مراد، قد أدهشت «بوتلر» أيضاً بنبراتها الحزينة والجليلة، وقد ترجم الترجمان كلماتها بناءً على طلب بوتلر، كانت تتحدث عن الثأر، الثأر الذي كان بين حنيفي والحاج مراد، كانت تقول مايلي: «سيجفّ الترابُ على قبري، وستنسيني يا أمي، سيتغطّى

قبري بالأعشاب، وستُخمد الأعشاب حزنكَ، يا أبي العجوز، الدموع ستنضب في عيني أختي، وسيطير الحزنُ من قلبها، لكنك أنتَ لن تنسى، يا أخي البكر، ما لم تثأر لموتي، وأنت يا أخي الثاني، لن تنساني أيضاً، ما لم تمدّدْ إلى جنبي.

«أيتها الرصاصة، أنت حاميةٌ وأنت تحملين الموت معك، لكنْ ألم تكوني أمّتي الأمينة، أيتها الأرضُ السوداء، ستُغطّيني، ألم تكوني أنت التي كان يدوسك جوادي بحوافره».

«أنتَ باردٌ، أيها الموت، لكني كنتُ سيّدَك، سوف تستولي الأرضُ على جسدي، لكنْ إلى السماء سوف تذهب روحي».

كان الحاج مراد يصغي دائماً إلى هذه الأغنية وهو مغمض العينين، وعندما كانت تنطفئ على نغمة هامة، كان يقول بالروسية: «أحبّ هذه الأغنية». لقد فتنت شعرّيةُ حياةُ الجبليين القويةُ «بوتلر» على نحو شديد منذ أن تعرّف إلى الحاج مراد ومَنْ معه، وقد حصل على معطف من اللباد وجبّة وجزمة قوقازية، كان يُخيّل إليه أنه أصبح هو نفسه جبلياً وأنه يعيشُ حياةَ الجبلي.

في يوم سفر الحاج مراد، جمع القائدُ الضباط ونظّم على شرفه استقبالاً صغيراً، كان بعضُ الضباط جالسين قرب الطاولة التي كانت ماري دميتريفنا تقدّم عليها الشاي، وكان الآخرون مجتمعين حول منضدة صغيرة مثقلة بزجاجات الفودكا والخمور الجديدة والطعام، وعندما دخل الحاجُ مراد الغرفةَ، بلباس السفر، ماشياً بخطوات ليّنة وسريعة بالرغم من ساقه المكسورة، نهض الجميعُ وذهبوا يشدّون على يده، عرض عليه القائدُ مكاناً على الأريكة، لكنه رفض شاكراً وجلس على كرسّي قرب النافذة، لم يكن الصمتُ الذي أثاره قدومُه

ليُخيفه، كان ينظر بتأنٍ في كل وجه، ويُلقى نظرةً غير مبالية على المائدة التي وضع عليها السماورُ وبعض الأطعمة، سأله الضابطُ الجريء «بتيروف» الذي يراه للمرة الأولى، بمساعدة الترجمان، إن كانت تفليس أعجبته، فأجاب:

أيّا!

ترجم الترجمان:

يقول: نعم.

وماذا فضّل؟

المسرح.

هل أحب الحفلة الراقصة التي قُدِّمت في منزل القائد العام؟

أجاب الحاج مراد بلهجة جادّة:

لكل شعب عاداته.

وأضاف وهو ينظر إلى ماري ديمتريفنا:

النساء عندنا لا يلبسن هكذا.

ما الذي لم يعجبه؟

عندنا مثلٌ يقول: «أراد الكلب أن يُطعم الحمارَ لحماً وأراد الحمارُ أن يطعم الكلب كلأً، فظل كلاهما جائعاً». لك شعبٍ عاداتُه

توقّف الحديث هنا، أخذ الضباطُ يأكلون ويشربون، قبل الحاج مراد فنجان الشاي الذي قُدِّم إليه ووضعه أمامه.

سألت ماري ديمتريفنا:

أتريد شيئاً من القشدة والحلوى.

حنى الحاج مراد رأسه.

قال «بوتلر» وهو يلمس لمساً خفيفاً ركبتي الحاج مراد:

آن الآوان للوداع. متى سنلتقي ثانيةً؟

قال الحاج مراد بالروسية وهو يبتسم:

- الوداع، الوداع. أنا صديقك الوفي.

وأضاف وهو يُدير رأسه إلى الجهة التي سيسير فيها:

حان موعدُ السفر.

ظهر إيلدار، قرب الباب، حاملاً معطفاً من اللباد وسيفاً، ناداه الحاجُ مراد، توجّه إليه إيلدار موسعاً خطاه وسلّمه ما يحمله، نهض الحاج مراد وقدّم لماري دميتريفنا المعطف الأبيض وقال لها بمساعدة المترجم:

لقد أعجبكِ، خذيه.

قالت ماري دميتريفنا محمّرةً:

لم ذلك؟

أضاف الحاج مراد:

هكذا، إني أقدّمه لكِ.

أجابت ماري ديمتريفنا وهي تتناول المعطف:

شكراً، ليُساعدك الله في إنقاذ ابنك، أتمنّى لهذا الرجل أن تُنقّذ أسرته كلها.

نظر الحاج مراد إلى ماري ديمتريفنا وحنى رأسه استحساناً، ثم تناول سيفه وقدّمه للقائد إيفان مانفييتش الذي قبله، وقال للترجمان:

قل له أنه يستطيع أن يتصرّف بأفضل جوادٍ عندي، ليس عندي شيءٌ آخر أقدّمه له.

أشار الحاجُ مراد بيده إشارة تَعْني أنه لا يحتاج إلى شيء، ثم أشار إلى الجبال وإلى قلبه، وخرج تبعه بعض الضباط.

الذين ظلّوا في الغرفة استلّوا السيف من غمده وتفحصوه، كان من الفولاذ الخالص.

تبع بوتلر الحاجَ مراد حتى الدرج، وفجأة، على حين غرّةٍ، حدث حادثٌ كان يمكن أن يَقضي على الحاج مراد لولا شجاعتُه، ورباطة جأشه، وسرعة بديهته.

إن سكان قرية «كوميك تل كاتشو» كانوا يقدّرون الحاج مراد تقديراً عظيماً، وكثيرٌ منهم جاؤوا إلى القلعة ليروا ملازم الإمام المشهور، وقبل ثلاثة أيام دعوه إلى مسجدهم، وبالمقابل فإن أمراء الكوميك الذي يقطنون القرية نفسها ويكرهون الحاج مراد بسبب ثأرٍ بينهما، ما إن علموا بهذه الدعوة حتى أعلنوا أنهم لن يدعوا الحاج مراد يدخل مسجدهم. أغضب هذا القرار شطراً من السكان وأثار صداماً دامياً بين أنصار الأمراء الكوميك وخصومهم، أعادت السلطات الروسيةُ النظام وطلبت إلى الحاج مراد ألاّ يقبل الدعوة التي وُجّهت إليه، فلم يذهب إلى المسجد، كان كل واحد يظن أن الحادث انتهى، لكنّ في اللحظة التي كان الحاج مراد يجتاز فيها عتبة بيت القائد الذي اقتيدت الجياد إليه، ظهر أمير الكوميك «أرسلان خان» الذي يعرفه بوتلر والقائد معرفةً حسنة.

عندما رأى الحاجَ مراد، أخرج مسدّسه وصوبه إليه، لكنه لم يكد يتهيأ لإطلاق النار حتى وثب عليه الحاجُ مراد كما يثب الهرُّ مع أنه يعرج، وحوّل فوهة المسدس، وأمسك بيد لجام الجواد وبيده الأخرى استلّ خنجره وصرخ بضع كلمات بالتترية.

هُرع «بوتلر» و«إيلدار» وفصلا بين المتخاصمين، كما وصل القائد، فقال بعد أن علم بالموضوع:

ماهذا، يا أرسلان، ترتكب هنا، في بيتي، مثل هذه الحقارة! لقد أسأت التصرفَ، يا أخي، عندما تكون في الخارج أنت حرٌّ في أفعالك، لكني لا أريد مذبحة عندي.

كان أرسلان خان قصير القامة، أسود الشاربين، ترجّل عن جواده، وهو شاحب يرتجف، ورمى الحاجَ مراد بنظرة احتقار، وتبعَ القائد..

تنفس الحاج مراد بعمق وعاد مبتسماً إلى الموضع الذي كانت فيه الجياد، سأله بوتلر:

لَمَ أراد أن يقتلك؟

ترجم الترجمان:

يقول إن هذا هو قانونهم، أرسلان خان يريد أن يثأر لدمه المسفوح.

سأله بوتلر:

وإن هاجمك على الطريق؟

ابتسم الحاج مراد:

إن قتلني فلا بأس، لأن تلك هي مشيئة الله!

وأضاف بالروسية، وهو يداعب غاربَ جواده ويتفرّس في الحاضرين:

الوداع.

والتقت نظرته نظرة ماري ديمتريفنا فقال لها:

الوداع! شكراً، شكراً.

ردّدت:

ليساعدك الله في إنقاذ أسرتك.

قال بوتلر:

إياك أن تنسى صديقَك.

أجاب الحاج مراد بواسطة الترجمان:

قل له إني صديقه الوفي ولن أنساهُ أبداً.

وبالرغم من رجله العرجاء، اعتلى السرج بمرونة، ولم يكد يمسك بلجام الجواد، جسّ مسدّسه وسيفه بحركة آلية، وابتعد عن منزل القائد بهذه الهيئة المفعمة بالإباء التي لا يملكها إلا الجبلي على متن جواده، وثب حنيفي وإيلدار على متني جواديهما، وبعد أن استأذنا ودّياً ربة المنزل والضابط، أخذا يخبّان في آثار قائدهما.

وكما يجري دائماً، دارت الأحاديث على الذين سافروا قبل حين:

يا لها من شجاعة! لقد انقضّ كالذئب على أرسلان خان. «تغيّر وجهُه تغيّراً تاماً».

قال بيتروفسكي؟

سوف يخدعنا، إنه ماكر شديد المكر.

قالت ماري ديمتريفنا ساخطة:

عسى أن يكون بين الروس الكثير من الماكرين مثله، قضى عندنا أسبوعاً و لم نلاحظ ما يمكن أن يُلام عليه، كان دائماً مهذباً عاقلاً ومُنصفاً

وكيف عرفت ذلك كله؟

هكذا، عرفته.

قال القائد الذي رجع:

آوه! هي عاشقة! هذا مؤكد!

لنفترض أنني عاشقة، فيمَ يخصُّك هذا؟ و لم تغتابون رجلاً خيّراً؟ إنه تتري، لكنه خيّر.

قال بوتلر:

هذا صحيح، ماري ديمتريفنا، مرحى! أنت محقّةٌ في الدفاع عنه، إن حياة السكان في الأماكن المحصّنة على خط «تشيتشنيا» لم تتغيّر، كان هناك أحياناً استنفارٌ يستدعي خروجاً سريعاً للسرايا والحرس الشعبي، لكن الجبليين كانوا يفرّون في الوقت المناسب، إلا أنهم تمكنّوا ذات يوم، وكان ذلك في «فورفيجنسكايا» من قتل قوزاقي واقتياد ثمانية جياد من مَوْردها، ومنذ تدمير قرية «مركه» لم تحدثْ توغلات روسية، كان معلوماً فقط أن هناك حملةً كبيرةً تُحضر، على بلاد التشيتشين،

بقيادة الأمير «باريانتنسكي»[٢٥] الذي عُين في منصب قائد الجناح الأيسر.

هذا الجنرال، صديق ولي العهد، والقائد السابق لفوج «كاباردا»[٢٦] ما إن باشر عمله ووصل إلى «غروزني» حتى قرّر، بعد أن أعاد تجميع القوات المسلحّة، أن يشرع في هجمات جديدة وفقاً للخطة الامبراطورية التي بلّغها تشيرنيتشيف نائبَ الملك فورنتزوف، وُجهت تشكيلةٌ عسكرية إلى «كارنسك»، كان الجنود يدمِّرون الغابات، وكان القائد الشاب فورونتزوف، يعيش تحت خيمة رائعة، وكانت زوجتُه، ماري فاسيليفيا تتردّد كثيراً على المعسكر وتقضي فيه الليالي، ولم تكن العلاقات القائمة بين باريانتنسكي والسيدة فورونتزوف سراً على أحد، وكانت زياراتها تُسخط الضباط والجنود الذين كانوا يذمّونها بكلمات فظّة بسبب حضورها إلى المعسكر، فقد كانوا، بالفعل، مضطرين إلى القيام طوال الليل بأعمال إضافية.

كان الجبليون يأتون بمدافعهم ويرمون على المعسكر، لكن قذائفهم لم تكن تصل الهدف قط، وعلى العموم، لم يكنْ يُتّخذ أيُّ تدبير ضد هذا الرمي، لكن عندما كانت ماري فاسيفلييفنا تحضر إلى المعسكر، كان القائد يضع حراساً إضافيين، ليجنّبها الخوف، كان إهانة للعسكريين أنهم أجبروا على الرصد، في كل ليلة من أجل تأمين راحة

---

٢٥ - باريانتنسكي: الأمير باريانتنسي (١٨١٤ - ١٨٧٩) قائد الجناح الأيسر في جيش القوقاز سنة ١٨٥٢، نائب الملك من ١٨٥٦ إلى ١٨٦٢، وهو الذي انتصر على شامل.

٢٦ - فوج كاباردا كان الفوج يعسكر في القوقاز الشمالي.

السيدة ماري فاسيليفا، كان الجنود، وكذلك الضباط الذين لم يُقبلوا في الدوائر العليا لا يجاملون في كلامهم.

حصل «بوتلر» على إذْنٍ، وجاء ليقضي بضعة أيام في هذا المعسكر، رغبةً منه في لقاء زملاء مدرسة النبلاء، وهم في الوقت الحاضر زملاؤه في السلاح، يخدمون في فوج «كورا»، كان في البدء مسروراً، كان يشارك بولتورانسكي خيمته، ويقضي وقته مع رفاقه الذين استقبلوه بفرح، وزار فوروتنزوف الذي خدم معه، استقبله هذا بترحاب، وقدّمه للأمير باريانتنسكي، ودعاه لحضور العشاء القادم على شرف الجنرال «كوزلوسكي»، القائد السابق للجناح الأيسر الذي خلفه عليه الأمير باريانتنسكي.

كان عشاءً رائعاً، نصبَتْ خيمٌ جديدة صفاً واحداً، وعلى طولها مُدّتْ المائدة التي وُضعت عليها الصحون وعددٌ لا يُستهان به من الزجاجات، كان كل ذلك يُذكّر بحياة الحرس في بطرسبرج، وفي وسط المائدة جلس كوزلوسكي من جهة، وباريانتنسكي من الجهة الأخرى، وكانت السيدة فورونتزوف على يمين كوزلوسكي بينما جلس زوجها إلى يساره، وكان يشغل المحال الأخرى ضباطٌ من فوجي «كاباردا»و «كورا». كان بوتلر إلى جنب بولتورانسكي: كانا يثرثران بمرح ويدقّان قدحيهما بأقداح جيرانهما، وفي نحو منتصف العشاء أخذ الخدم يملؤون كؤوس الشمبانيا، فقال بولتورانسكي لبوتلر، وقد بدا قلقاً، متحنناً بصدق:

سيتحلّل بالعار صاحبُنا، صاحب «كيف أقول».

و لِمَ ذاك؟

سيشرب نخباً، فكيف سيتخلّص من هذه الورطة؟ أيه! نعم، يا أخي، إن ذلك أصعب من الاستيلاء على خندق تحت وابل من الرصاص، ثم إن في جانبه امرأة، زيادةً في مصيبته، وكذلك الكثير من شخصيات البلاط الذين يستمعون إليه، الواقع أنه يستدر عطفي.

هذه الأحاديث التي تبادلها الضباط.

وجاءت اللحظة الجليلة أخيراً، نهض برياتننسكي، والكأس بيده، ووجّه بعض الكلمات لكوزلوسكي، فوقف هذا بدوره وأخذ يتكلم بصوت قوي:

- وفقاً لمشيئة صاحب الجلالة الإمبراطورية... كيف أقول... سأنصرف، سأترككم، أيها السادة الضباط... لكنْ اعتبروني دائماً... كيف أقول... وكأنني بينكم... أيها السادة، تعرفون... كيف أقول... هذه البديهية: في ساحة القتال ليس الرجل محارباً إن كان وحده، ولذلك فكل ما حصلتُ عليه أثناء خدمتي... كيف أقول... مركزي، شهرتي، كل شيء على الإطلاق، كل شيء... وتهدّج صوتُه - أنا مدينٌ لكم بذلك كله، لكم وحدكم، يا أصدقائي!

وازداد تجعّد وجهه، وانتحب وظهرت الدموعُ في عينيه.

من كل قلبي... كيف أقول... أعبّر لكم، من كل نفسي، عن امتناني الصادق.

لم يستطع «كوزلوسكي» أن يستمرّ فأخذ يقبّل الضباط، وغطت الأميرةُ وجهها بمنديلها.

كان الأمير فورونتزوف يطرف بجفنيه ويزمُّ شفتيه، الكثير من

الضباط انهمرت الدموعُ من أعينهم، و لم يتمكن بوتلر الذي لا يكاد يعرف كوزلوسكي من حَبْس عبراته، هزّ ذلك مشاعره بعمق، ثم أطلقتْ الأنخاب على شرف باريانتنسكي، وفورونتزوف، والضباط والجنود، وبعد ذلك ترك جميعُ المدعوين المائدة سُكارى، غرقوا جميعاً في حالة من الغبطة العسكرية وهي حالةٌ كانوا مُهيئين لها وإن لم يشربوا.

كان الجوّ مشرقاً، مشمساً، هادئاً، كان الهواء ندياً ومنعشاً، وكانت تُسمعُ، من كل جانب، الأغاني وفرقعة الحطب في المواقد، كان يبدو أن الناس في عيد، أحسّ بوتلر بأنه في أحسن حالاته، وقصد منزل بولتوراسكي الذي دعا جميع الضباط تقريباً، وهو سعيدٌ، وقد رقّت نفسه، وضع ملازمٌ جالسٌ قرب مائدة اللعب مئة روبل في الصندوق، رأى بوتلر هذا، فاتجه مرتين إلى مخرج الخيمة وهو يشد على نفسه من قبل، وبالرغم من وعد الشرف الذي وعد به إخوته، وأخذ يتحدّى صاحب الصندوق.

بعد ساعة، كان ما يزال جالساً إلى المائدة، يسجّل الأرقام التي راهن بها، وقد غدا قرمزياً، وبلّله العرق، وتبقّع وجهه بحوّار لوح التسجيل، وأسند رأسه إلى إحدى يديه، لقد خسر مبالغ طائلة لم يجرؤ أن يجمعها، ومع ذلك، فقد كان يعلم دون أن يتحقق من المجموع أنه لو دفع سلفاً كل مرتّبه الشهري - وكان يستطيع أن يقبضه سلفاً - ولو باع جواده لما استطاع أن يفي ما عليه من دين لهذا الملازم الذي لا يكاد يعرفه، كان يود لو يتابع اللعب، لكنَّ الملازم توقف، هو صارم الهيئة، عن توزيع أوراق اللعب وأخذ يجمع الأرقام الموجودة في خانة بوتلر، اعتذر بوتلر معلناً عجزه أن يدفع خسارته مباشرة، ووعد بارسال المبلغ

في حال عودته إلى البيت، أثارت هذه الكلمات الأخيرة، الشفقة نحوه لديهم جميعاً، وقد تبيّن هو ذلك، حتى بولتوراتسكي تحاشي أن يلاقي نظرته.

فكّر: كانت هذه آخر أمسياته، ما كان عليه إلا أن يمتنع عن اللعب، وأن يقصد فورونتزوف الذي دُعي إلى بيته، وحينئذ كانت الأمور ستمرّ بسلام، الأمور الآن تسير سيراً سيئاً، بل أكثر من سيء، كان كل شيء مبعثاً لليأس.

بعد أن استأذن رفاقه ومعارفه عاد إلى بيته، وأوى إلى سريره مباشرة ونام ثمانية عشرة ساعة متّصلة، كما يفعل جميُع اللاعبين، على كل حال، بعد أن يخسروا، وعندما رأت ماري ديمتريفنا التي اقترض منها خمسين كوبيكا حرص أن يعطيها القوزاقي الذي جاء به، حلواناً له، عندما رأت وجهه الشاحب و لم تتلقّ منه سوى أجوبه جافة ومقتضبة، أدركت أنه خسر فغاضبتْ ايفان ما تفيتيش وأنحت باللوم عليه لأنه تركه يلعب.

في اليوم التالي استيقظ بوتلر نحو الظهر، وفكّر مباشرة في تعاسة وضعه، تمنى أن يغرق ثانيةً في النسيان الذي خرج منه قبل قليل، لكن ذلك مستحيلاً، كان لابد من اتخاذ التدابير السريعة ليدفع أربعمئة وسبعين روبلاً استدانها من مجهول.

كتب مرة أخرى إلى أخيه نادماً على خطيئته، ومتوسلاً إليه أن يرسل للمرة الأخيرة خمسمئة روبل، على اعتبارها سلفةً عن حصته في المطحنة التي ما تزال على الشيوع بينهما، ثم كتب إلى قريبة بخيلة إلى أقصى الحدود يطلب منها خمسمئة روبل بأية فائدة شاءت، وبعد ذلك ذهب إلى ايفان ماتفيتيش لعلمه أنه يملك المال أو أن ماري ديمتريفنا تملكه، لكي يطلب قرضاً بخمسئة روبل.

- كنت سأعطيك إياها، في هذه اللحظة بالذات، لكن ماري ديمتريفنا لن تقبل، هؤلاء الإناث - قاتلهن الله! - يتمسّكن بالمال، ومع ذلك فلابد من العثور على مخرج صاحبُ مطعم الجند، ألا يملك المبلغ، هذا الشيطان!

لكنْ كان من العبث محاولة اقتراض أي شيء من صاحب المطعم، وهكذا فقد كان خلاص بوتلر منوطاً بأخيه فقط، أو بقريبته البخيلة.

- ٢٢ -

لم يتمكن الحاجُ مراد من بلوغ هدفه في بلاد التشيتشين، فرجع إلى تفليس، كان يحاول أن يرى فورونتزوف كل يوم تقريباً، وكان يُلح على مبادلة زوجته بالأسرى الجبليين، وكان يؤكّد أنه ما لم يتمّ هذا التبادل فسوف يظل يعتبر نفسه مقيداً وعاجزاً عن أن يخدم الروس، بالرغم من رغبته المضطرمة في ذلك، وأن يدّمر وكرشامل، كان فورونتزوف يجيب إجابةً متملّصة، ويؤجل جوابه النهائي حتى وصول الجنرال «آرغوتننيسكي»، بحجة أنه يجب أن يستشيره قبل ذلك، حينئذ طلب الحاج مراد من فورنتزوف أن يتمكن من الذهاب إلى «نوحا» ليعيش فيها بعض الوقت، وهي مدينة صغيرة وراء القوقاز يسهل عليه فيها، كما كان يعتقد، أن يتّصل بالجبليين الذين ظلوا أوفياء له، وأن يبدأ محادثاته مع شامل بصدد أسرته.

وفضلاً عن ذلك، فقد كانت هذه المدينة المأهولة بالمسلمين، تحتوى مسجداً ممّا يسهَل عليه أداءَ واجباته الدينية، وفقاً لقواعد الشريعة، كتب فورونتزوف بهذا الصدد إلى بطرسيرج، وسمح للحاج مراد أن يذهب إلى «نوحا»، دون انتظار الجواب.

كانت حالة الحاج مراد مثيرة للاهتمام في ذاتها، وكانت تبدو لفورونتزوف، وكذلك لسلطات بطرسبرج ولمعظم الروس، وكأنها رمز لمنعطف مؤاتٍ في حرب القوقاز، لكن هذا الوضع كان يبدو للحاج مراد نفسه، ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة، وكأنه منعطف رهيب في حياته، لقد ترك الجبال لأنه أراد أن ينجو من جهة، ومن جهة ثانية بسبب كرهه لشامل، وبالرغم من صعوبات هذا القرار فقد بلغ هدفه، كان هذا النجاح يُفرحه، وكان بالفعل يُعّد خطة للهجوم، على شامل، وأخذ إنقاذ أسرته الذي رجا أن يكون سهل التحقيق، يزداد إشكالاً، فقد هدّد شامل بأن يسلّم نساءه للقرية وأن يفقأ عيني ابنه، وقد اختار الحاج مراد مدينة نوحا، لأنه كان عازماً بثبات على أن يصنع المستحيل، بمساعدة أتباعه في داغستان، من أجل اختطاف ذويه، بالحيلة أو بالقوة، من براثن شامل، وقد علم من آخر رسول لقيه في «نوحا» أن «الأفار» الذين ظلّوا أوفياء له قرّروا أن يختطفوا ذويه وأن يأتوا إلى الروس للخضوع لهم، لكن عدد أتباعه كان غير كافٍ لإنجاح هذه المحاولة، كانوا يرجون أن ينفّذوا هذا المشروع في حالة نقل أسرة الحاج مراد إلى موضع آخر، كانوا يعتقدون أنهم سيبلغون غاياتهم بهجوم مباغت على قافلة في الطريق، سُرّ الحاج مراد بهذا النبأ، ووعد أنصاره، عن طريق أحد الرسل، بمكافأة قدرها ثلاثة آلاف روبل.

في «نوجا» وُضع منزلٌ صغير من خمس غرف، بجوار المسجد، وقصر الخان، تحت تصرف الحاج مراد، وكان يسكنه ضباط حرسه، والترجمان وحرّاسه، كان انتظار الرسل واستقبالهم والنزهات على الخيل، هو ما يملأ أيامه.

في ٨ نيسان، وهو راجع من نزهته المعتادة، أبلغ أن مبعوثاً لفورونتزوف قد وصل قبل حين، وبالرغم من نفاذ صبر الحاج مراد

لمعرفة الأنباء التي حُملت إليه، إلا أنه صعد إلى غرفته، قبل أن يذهب إلى الغرفة التي ينتظره فيها المبعوث، لأداء صلاة الظهر، ثم نزل إلى الصالون، أعلمه الرسول، وهو المستشار المدني «كريلوف» وبصحبته مفوّض الشرطة المحلية، أن فورونتزوف يرجوه أن يحضر في ١٢ نيسان إلى تفليس لمقابلة «آرغوتينسكي».

أجاب الحاج مراد بجفاف:

طيب.

لم يعجبه «كريلوف».

هل جئت بالمال؟

أجاب كريلوف:

نعم، جئتُ به.

أجاب الحاج مراد وهو يعدّ أصابع يديه العشر ثم أربعاً فوقها:

لأسبوعين، أليس كذلك؟ هاته.

أجاب الموظفُ وهو يُخرج صرّة النقود من جعبة السفر:

في الحال.

وأضاف بالروسية، مقتنعاً أن الحاج مراد لا يفهمه:

وماذا سيفعل بهذا المال؟

لكن الحاج مراد كان قد قبض المال ورمى «كريلوف» بنظرة صارمة، وقد حاول كريلوف وهو يضع الصرّة على الطاولة أن يبدأ الحديث معه، أراد أن يحصل على بعض الأخبار ليقصّها على سيّده

عند عودته إلى تفليس، سأله إن كان لم يضجر في «نوحا»، أجابه الحاج مراد بنظرة نمّت عن احتقاره، لكنه لم يفه بكلمة، وكرّر الترجمان السؤال.

قلْ له أنني لا أريد أن أكلمه.

قال الحاج مراد هذا، وجلس إلى الطاولة، وكأنه يريد أن يعدّ المبلغ الذي تسلّمه، أخرج كريلوف سبع كومات منضودة في كل واحدة عشر قطع ذهبيّة ودفعها نحو الحاج مراد (كان له خمس قطع عن يوم) فدسّها هذا في جيبي كمّي جبتّه، ونهض، وشدّ ما كانت دهشة الحضور أنه ضرب بيده كتفي المستشار المدني، غضب كريلوف ووثب وأمر الترجمان أن يفهم الحاج مراد أنّهُ وإن كان مدنياً إلا أن لهُ رتبة عقيد وأنّهُ لا يقبل أن يسمح الحاج مراد لنفسه بمثل هذه الحركات، وأيدّه مفوّض الشرطة على ذلك، فحنى الحاجُ مراد رأسه كأنه يريد أن يقول إنه يعلم ذلك كله، وغادر الغرفة.

قال المفوض:

كيف نتصرّف معه؟ سيستلّ خنجره وينتهي كل شيء...

لا سبيل إلى العثور على لغة مشتركة مع هذا الشيطان، لاحظت أنه بدأ يتلظّى من الغضب.

عند الغسق، وصل من الجبال رسولان عُصبت أعينهما بعصائب رأسيهما، كان أحدهما شاباً، أسمر وجسيماً، وكان الآخر شيخاً هزيلاً، كانا يحملان أنباءً محزنة، إن أصدقاء الحاج مراد الذين أقسموا أن ينقذوا أسرة الحاج مراد، مهما كلّف الثمن أحجموا الآن خوفاً من شامل الذي هدّد جميع الذين يحاولون مساعدة خصمه بأقسى العقوبات.

ظل الحاج مراد صامتاً زمناً طويلاً، ومرفقاه مستندان إلى ساقيه المتصالبتين، ورأسه بين يديه، كان يفكّر، كان يريد أن يتّخذ قراراً نهائياً، ثم رفع رأسه وأعطى كل واحد من الرسولين قطعةً ذهبية، وقال لهما:

انصرفا.

وما الجواب؟

الأمرُ لله، انصرفا.

نهض الرجلان وانصرفا، ظل الحاج مراد جالساً على السجادة ومرفقاه متكئان إلى ساقيه، ظل طويلاً يفكر: «ما العمل؟ أيصّدق شامل ويعود إليه؟ إنه ثعلبٌ، وسيخدعني، وحتى لو لم يخدعني، كيف يجوز لي أن أخضع له، هذا الكذّاب الأصهب! ثم إن العودة مستحيلة، لأنني انتقلت إلى صفوف الروس ولن يثق بي أحدٌ بعدها».

وتذكر حكايةً عن صقر «تافله» الذي قُبض عليه ودُجن وعاش بين الناس، ثم فرَّ وعاد إلى أشباهه، لكنْ كان في ساقيه أجراسٌ وسلسلةٌ، فدفعته الصقور عنها، وقالت له «طِرْ وعُدْ إلى حيث وضعوا لك أجراساً من فضّة، ليس لدينا أجراسٌ وليس لدينا سلاسل»، أبى الصقر أن يعود، لكن إخوته في العرق أوسعتْه نقراً بمناقيرها و لم تقبلْ به بينها».

«وأنا أيضاً سأُوسَعُ نقراً بالمناقير».

«أأبقى هنا؟ أأحتل القوقاز للقيصر؟ وأحصل على المجد والرتب والغنى؟ يجب أن أتخذ قراراً مباشرةً وإلا هلكتْ أسرتي».

كذلك كان يفكر الحاجُ مراد وقد تذكّر أحاديثه مع فورونتزوف وأقواله الخلاّبة التي حدّثه بها.

ظل الحاج مراد ساعاتٍ طوالاً مستغرقاً في أفكاره.

- ٢٣ -

في منتصف الليل، لم يكن قد اتّخذ قراره فحسب، بل إنه أعدّ خطّة، لقد صمم أن يعود إلى «آفاريا» وأن يهاجم «فيدنيو» على رأس أتباعه لينقذ أسرته أو يموت، وإذا نجح في هجومه فلربما عاد إلى الروس يتبعُه ذووه، أو لعله سيذهب إلى «خوزماخ» ليتابع من هناك صراعه مع شامل، لم يقرّر شيئاً بعدُ بهذا الشأن، ما كان يعلمه هو أن أول شيء يجب أن يعمله هو الفرار إلى الجبال، واتّخذ مباشرةً التدابير التي تمكنّه من تحقيق مشروعه، وأخذ صدارة القطن التي كانت تحت وسادته وذهب إلى حراسه، كان القمر يلمع في السماء المظلمة والنديّة وفي حديقة المنزل، بحّتْ بعضُ النعادل من الغناء، فَتَح الحاج مراد بابّ غرفة رجاله، كان القمر ينيرها إنارةً خفيفة، كان قرب الجدار طاولةٌ وكرسيّان، كان الجبليون الأربعة ينامون على السجّادة متدثيرين بمعاطفهم الصوفية، وكان «حنيفي» ينام مع الخيل في الاصطبل، هبَّ «حمزالو» من رقاده عندما سمع صرير الباب، لكنهُ عندما تعرّف الحاج مراد، عاد إلى النوم، وبالمقابل، وثب «ايلدار» على ساقيه، وأخذ يرتدي صدارته، وكأنه كان يتوقّع أن يتلقّى الأوامر.

وظلّ «قربان» و«خان ماغوم» نائمين، رمى الحاج مراد صدارته على الطاولة فسُمع صوت معدنيٌّ، هو صوت القطع الذهبية التي خيطتْ عليها البطانة.

قال الحاج مراد وهو يمدّ إلى إيلدار القطع التي تسلّمها في النهار:

خطْ هذه أيضاً.

تناول إيلدار الصدراة، وبحث عن ركنٍ في الغرفة يضيئها القمر أكثر من غيره وأخذ يحلّ قطبَ حاشية الصدارة بخنجره، ونهض «حمزالو» ثانيةً وظلّ جالساً، وساقاه متصالبتان.

وأنت، حمزالو، قلْ لرجالي البواسل أن يفحصوا غداراتهم ومسدّساتهم، تأكّدوا أيضاً من الخرطوش، سنسافر غداً، سنذهب بعيداً!

قال «حمزالو» الذي تنبّأ لم كان الحاج مراد يأمر بالتأكد من السلاح.

سيكون كل شيء جاهزاً، عندنا بارود ورصاص.

كانت تحدوه، منذ زمن بعيد، رغبةٌ أخذت تنمو من يوم إلى يوم، في قَتْل أكبر عدد ممكن من هؤلاء الكلاب الروس، وفي العودة إلى الجبال، وكان يعتقد أن الرغبة ذاتها حدثْ الحاج مراد، وكان سعيداً بذلك، عندما غادر قائدهُ الغرفة، أيقظ رفاقه، وبدأ الأربعة استعداداتهم، فحصوا الغدّارات والمسدّسات، والأحزمة شحّموا الزناد، وعبؤوا الخرطوش بالبارود الجاف الذي نشروه عل لوح من الخشب، ووضعوه في الجعب، وشحذوا السيوفَ والخناجر.

قبل طلوع الفجر، عاد الحاجُ مراد إلى الحديقة كي يأخذ ماء للاغتسال، كانت العنادل تغرّد تغريداً أصفى من قبل، انتظاراً لطلوع الضوء، وكان يُسمع صوت الجلخ المتميّز للشفرات وهي تُشْحذُ على المسنّ، آتياً من غرفة الجبليين.

بعد أن اغترف الحاجُ مراد ماءً، عاد إلى غرفته، فسمع صوت «حنيفي» يغني أغنية يعرفها جيداً، وكان الصوت آتياً من الغرفة التي يشغلها رجاله مغطيّاً صوتَ شحذ البولاد على حجر الجلخ، توقّف ليسمعها.

«إن الفارس الشجاع حمزة ورجاله استباحوا من الروس قطيعاً من الخيول البيضاء، لحق بهم الأميرُ الروسي وطوّقهم، خلف «تيريك» بجنده الكثيرين مثل أشجار الغابة، قتل حمزة ورجاله الخيول وجعلوا منها متراساً دامياً حاربوا الروس من ورائه ما بقي معهم رصاص، وما بقيت خناجرهم معلقةً بأوساطهم، ما بقي في عروقهم دمٌ، وقبل أن يموت حمزة رأى طيوراً في السماء، فصاح بها: «أيتها الطيور المهاجرة، طيري إلى بيوتها، وقولي لأمهاتنا ولأخواتنا ولبناتنا البيضاوات أننا متْنا جميعاً من أجل الغزوات»، قولي لهنّ أن أجسادنا لم تُوار القبور، لكن الذئاب المفترسة ستعرّي عظامنا من لحمها، وأن الغربان ستقتلع عيوننا».

عند آخر كلمات هذه الأغنية التي همسها بصوتٍ متعب وكئيب، هتف «خان ماغوم» «لا إله إلا الله» وأطلق صرخةً الفرسان الثاقبة، ساد الصمت لحظةً، ثم سُمع من جديد غناءُ العنادل المتقطّع، وصريرُ المعدن على حجر الجلخ، استغرق الحاج مراد في أفكاره ولم يلحظ أن الإبريق الذي بيده قد مال وأخذ ماؤه يسيل، فتمالك نفسه أخيراً، وهزّ رأسه وعاد إلى غرفته.

صلى صلاة الفجر، وفحص سلاحه وجلس في سريره، كان عليه أن ينتظر طلوع الفجر، وأن يذهب إلى المفوّض ليحصل إلى إذنه بالنزهة اليومية على الخيل مع رجاله.

ذكَّرتْه أغنية حنيفي بأغنية أخرى، الأغنية التي ألّفتها أمُّه: «خنجرك البولادي ثقب صدري الأبيض، لكني وضعت على صدري شمسي، ولدي، غسلته بدمي الحار فاندمل الجرح بلا أعشاب ولا جذور، وأصبح ابني فارساً باسلاً».

تذكر أمه أمامه حيّةً، لا كما تركها متغضّنة، درداء، غطّاها الشيب، بل شابة، جميلة وقوية، أمه عندما كان عمره خمس سنوات عندما كانت تقطع به الجبل وهي تحمله على ظهرها في سلّة، مع ثقله، لتذهب إلى جده، تذكّر جدّه أيضاً، مغضن الوجه، أبيض اللحية، ينقش الفضة بيديه النافرتي العروق، ويحفّظه صلواته، تذكّر البئر في سفح الجبل الذي كان يصحبها إليه متشبّثاً بثوبها حين تذهب لتستقي الماءَ منه، تذكَر كلبه الهزيل الذي كان يلحس وجهه، والرائحة الخاصة للدخان مع الحليب الطازج من الفطائر التي كانت تُعدها أمه، تذكّر أيضاً أول مرة حلقتْ له أمه فيها رأسه ودهشتَه عندما شاهد، في الحوض النحاسي المعلّق بالجدار رأسه المدوّر المزراقّ.

تذكّر طفولته وابنه يوسف الذي كان يحبّه حتى العبادة والذي حلق بنفسه له شعره لأول مرة، لقد غدا الآن فارساً رائعاً، وانتصت أمامه صورتُه التي رآها آخر مرة: جاءهُ يوسف بجواده واستأذن منه أن يصحبه، كان في كامل عدته، مسلّحاً، ممسكاً بعنان الجواد، وكان وجهُه الجميل وقامته الممشوقة - كان أطول من أبيه ينمان عن الشجاعة والشباب والفرح بالحياة، كان كتفاه العريضان، بالرغم من صغر سنه، وقامته النحيفة الرشيقة، ويداه الطويلتان والقويتان ومرونه حركاته، كان كل ذلك يملأ قلب والده فرحاً.

قال له الحاج مراد:

الأفضل أن تبقى هنا، ستظّل وحدك في البيت، اعتن بأمك وبجدّتك.

وتذكر التعبير الرجولي على ذلك الوجه الشاب، الفخور، المحمرّ من الفرح، وجه يوسف الذي أعلن له أنْ لن يستطيع أحدٌ أن يسيء إلى أمه أو إلى جدته ما دام حيّاً، بيد أن يوسف امتطى جواده ورافق أباه حتى النهر، وهناك انثنى راجعاً، ومنذ ذلك الزمن لم ير الحاج مراد لا أمه ولا امرأته ولا ابنه، وهذا الولد الذي كان شامل يريد أن يقلع له عينيه! و لم يكن يجرؤ على التفكير فيما سيفعلونه بنسائه.

هاجت هذه الأفكار الحاجَ مراد إلى الحد الذي لم يستطع معه أن يلزم مكانه، فنهض، ومضى بسرعة إلى الباب، وفتحه ونادى «ايلدار»:

اذهب وقلْ للمفوّض إنني أرغب في أن أقوم بنزهتي، وهَيِّئ الجياد.

لم تكن الشمسُ قد طلعت بعد، لكن الضوء كان طالعاً، وكانت العنادل ما تزال تغرّد.

- ٢٤ -

كانت الحياة العسكرية سلوى «بوتلر» الوحيدة، لا أثناء المناورات والتدريب فحسب، بل خارج الخدمة أيضاً، كان يرتدي دائماً لباس الجبليين، ويمتطي جواده، بل لقد ذهب مرّتين في مهمة مع «بوغدا لوفيتش» لكنْ لم يتسن له أن يلاقي العدو وأن يقتل واحداً منهم وكانت الصداقة التي تربطهُ ببوغدا لوفيتش تملؤه فرحاً، لقد سدّد دينه بأن اقترض مالاً من مراب بفائدة باهظة، وهو شيء كان يستبدل بالشرّ شراً أكبر! كان بوتلر يحاول ألا يفكر في هذا الوضع، ولكي يتمكن من ذلك، كان يسعى إلى أن يخدّر نفسه بالخمر، إضافة إلى تدريباته

العسكرية كان يشرب كلّ يوم أكثر من اليوم الذي سبقه، وكان كلما أمعن في الشرب تضاءلت قيمتُه المعنوية حتى في نظر ماري ديمتريفنا، حتى أنه لم يعد ذلك الرجل الرقيق الحاشية، وأخذ يغازلها باستمرار، ولشدّ ما كانت دهشته، عندما ردّته بقسوة.

في حوالي آخر شهر نيسان تلقّى «باريا نتتسكي» تعزيزات هامة خصّصها لحركات جديدة من التوغل داخل بلاد التشيتشين التي كانت تعتبر حتى الآن منيعةً لا تُنال، كان فيها من قبل فوجان من «كاباردا». وكانت التقاليد العسكرية للروس المقاتلين في القوقاز تقضي بأن تُعتبر الأفواج التي وصلت حديثاً إلى أحد المواقع ضيوفاً على الأفواج التي كانت فيها من قبل وزّع جنود التعزيز في المواقع التي كان يشغلها الجنودُ القدماء، بينما دعا الضباطُ القدامى الضباطَ الجدد، وقدمت لهم الفودكا، لا الطعام وحده، وانتهى العشاء بالسُكر العام وبالأغاني المخمورة، وكان القائد «ايفان ماتفييتش» مفرشخاً على كرسي يهزّ سيفه، كان يبدو تارةً كمن يمزّق العدو، وكان تارةً أخرى يجدّف أو يقبّل أصدقاءه، ثم يَنهْض ويغنّي أغنيةً يحبها:

ثار شامل في السنوات المنصرمة

ترايراي - راتاناي، السنوات المنصرمة...

كان بوتلر حاضراً، كان يحاول أن يرى في هذا المشهد تجليّاً للطابع الشعري العسكري، لكن شعوراً بالشفقة تولّد في أعماقه نحو ايفان ماتفيتش، أراد أن يهدئه، لكنه لم يتمكن من ذلك، وأحسّ بوتلر بالسكر ينفذ إلى رأسه، فخرج خلسةً وعاد إلى بيته.

كان البدر يغمر بأشعته الشاحبة البيوت البيضاء وأحجارَ الطريق،

كان الجو مضيئاً بحيث كان يُرى على الطريق كل حجرٍ وكل عود من قش، عندما دنا «بوتلر» من بيته، التقى «ماري ديمتريفنا»، ورأسها مغطى بشال، كان يتحاشى لقاءها منذ أن ردّت عروضهُ بقسوة، لكنه أراد، هذا المساء، أن يغازلها من جديد بعد أن تأثّر بضوءُ القمر وبالخمر، فسألها:

إلى أين تذهبين؟

أجابت مازحةً:

أنا ذاهبة لأرى صاحبي.

لقد رفضت بشرف وحزم عروض توتلر، لكنها مع ذلك تألمت لأنه صار يتحاشاها في هذه الآونة الأخيرة.

لا فائدة من إحضاره، سيأتي من ذاته.

أتظنُّ ذلك؟ من يدري إن كان سيرجع؟

إن لم يأتِ، فسنأتيك به.

صحيح! لكن هذا غيرُ حسن، إذن أنت تعتقد أنني لا يجب أن أذهب إليه.

لا، لاتذهبي إليه، والأفضل أن نعود معاً إلى البيت.

استدارت ماري ديمتريفنا ومشت بجنب بوتلر، كان ضوء القمر منيراً حتى إن ظليهما السائرين على الطريق أحاطت بهما حول الرأس هالةٌ منيرةٌ، نظر بوتلر إلى الهالة وأراد أن يقول لماري ديمتريفنا أنها تعجبه، لكنه لم يعلم كيف يبدأ، كانت هي أيضاً تنتظر هذه المكاشفة،

وصلا بصمت إلى قرب البيت، عندما ظهر، في زاوية الطريق، ضابط يصحبه بضعُ فرسان.

سألت ماري ديمتريفنا وهي تحيد عن الطريق:

مَنْ جاءنا به اللهُ؟

كانت أشعةُ القمر تسقط على ظهر الفرسان وتعرّفتهم ماري ديمتريفنا عندما وصلوا إلى سوّيتها، كان الضابط هو كامينيف الذي خدم مع ايفان ماتفييتش والذي كانت ماري تعرفه، قالت:

أهذا أنت، يا بطرس نيكولايفيتش؟

أجاب:

أنا نفسي، آه! بوتلر! صباح الخير، ألم تنمْ بعدُ؟ أتتنزّه مع ماري ديمتريفنا، إياك، سيقبض عليك ايفان ماتفييتش، بالمناسبة أين هو؟

قالت ماري ديمتريفنا وهي تشير إلى المكان الذي كانت تنبعث منه الموسيقا والأغاني:

ألا تسمع؟ إنهم يقصفون.

أهم من فوجك؟

لا، وصل آخرون من «هساف ايورت» وقد دعاهم الضباط القدماء.

آه! هذا حسنٌ جداً، سيتسنّى لي أن أشارك هناك، لن أبقى هنا أكثر من دقيقة لتسوية القضية التي جاءت بي.

سأل بوتلر:

حقاً!

قضية تافهة.

حسنة أم سيئة؟

هذا نسبيّ، بالنسبة إلينا هي حسنة، وهي سيئة بالنسبة إلى الآخرين وابتسم «كامينيف».

وفي هذه الأثناء، وصل المتحادثون إلى قرب بيت ايفان ماتفييتش، وهم يتحدثون.

صاح كامينيف بأحد القوزاق المرافقين:

تتشخيرييف! تعال.

ترك القوزاقيُّ المدعوُّ الصفَّ واقترب من رئيسه، كان يرتدي بزّة قوازق الدون التقليدية: الجزمة، المعطف الطويل، وقرابس ملقاةً على سرجه بالعرض، قال كامينيف:

أخرجه، لكي يضحك!

نزل الجندي عن جواده وأخرج كيساً من قربوسه، أمسكَ به كامينيف ودسّ يده فيه.

إذن، هل ينبغي أن أريكم تلك «القضيّة»؟ أنت، ماري ديمتريفنا، لا ترتعبي.

وممّ عساي أن أخاف؟

وأخرج من كيسه رأساً بشرياً، وعَرضه على ضوء القمر، قال:

انظروا، هل عرفتماه؟

كان الرأس خليقاً، بارز قوس الحاجبين، أسود اللحية والشارب مع دقة فيهما، كانت إحدى العينين مفتوحة، والأخرى نصف مغمضة، والرأس مدمى وفيه عدة جروح، وقد تخثر الدم الأسود عند المنخرين، وبالرغم من هذه الجراح كلها، فقد نمّت الشفتنان الممتقعتان عن تعبيرٍ من الطيبة الطفولية.

نظرت ماري ديمتريفنا ودخلت المنزل على عجل دون أن تتفوه بكلمة.

لم يستطيع بوتلر أن يرفع نظره عن هذا الرأس المرعب، كان رأس الحاج مراد نفسه الذي قضى برفقته أمسيات في أحاديث ودية، وقبل زمن جدّ قريب.

كيف جرى ذلك؟ منْ قتلَه؟ أين؟

أجاب كامينيف وهو يعيد الرأس إلى القوزاقي:

أراد أن يهرب فقبضنا عليه.

دخل الضابطان البيت:

قال كامينيف أيضاً:

لقد مات كما يموت الرجل الباسل.

لكنْ كيف جرى ذلك؟

اصبرْ قليلاً، سأروي القصة بتفاصيلها عندما يصل القائد، وإنما جئتُ، على كل حالٍ، لهذه الغاية، سأطوف برأس الحاج مراد، جميع القلاع والقرى وسأُريه الناس جميعاً.

أرسِلَ مَنْ يُحضر ايفان ماتفييتش الذي سرعان ما وصل البيت ومعه ضابطان ثملان مثله، فلما رأى كامينيف ضمّه بين يديه:

جئتك برأس الحاج مراد،

أنت تكذب! هل تَقْصد أنه قُتل؟

نعم، لقد أراد أن يهرب.

أرأيتم! لقد قلتُ إنه سيخدعنا، لكن أين هذا الرأس، أرني إياه!

نودي على القوزاقي الذي حمل الكيس الذي يحتوي عليه، أخرجه فتأمله القائد طويلاً بعينيه المخمورتين، وقال:

لكنه، كان باسلاً، على كل حال، أعْطني إياه لأقبّله.

فزاد عليه أحدُ الضباط:

نعم، لقد كان شجاعاً.

بعد أن أمعن الجميعُ النظر إلى الرأس، أُعيد إلى القوزاقي الذي أعاده إلى الكيس، ووضعه برفق باذلاً وسعه لكي يُحدث أقل ضجة ممكنة.

وأنتَ، كامينييف، ماذا تروي للناس عندما تُبرز هذه الغنيمة؟

تدخل القائد بعناد:

لا، لا، أعطني إياه، أودّ أن أقبله، لقد أهداني سيفاً.

خرج بوتلر من الغرفة فرأى ماري دميتريفنا جالسةً على الدرجة الثانية، شاهدت الضابط، لكنها أشاحت بوجهها فجأةً، كالثائرة:

مابكِ، ماري ديمتريفنا؟

فصاحت في وجهه وهي تنهض:

أنتم جميعاً قَتَلة، لا أستطيع تحمّلكم بعد الآن: قتلة حقيقيون!

قال بوتلر مكتئباً:

قد يقع ذلك بكل الناس، إنها الحربُ.

الحرب؟ أية حرب؟ أنتم قتلة، وانتهى الأمر، جسدُ الميت يجب أن يُعاد إلى التراب وهؤلاء الذين في الصالة لا يكفون عن القهقهة.

وكرّرت:

قتلة حقيقيون!

تركت الدرجَ، ودخلت غرفتها من باب الحديقة.

عاد بوتلر إلى الصالون وطلب إلى كامينييف أن يروي بالتفصيل كيف جرى ذلك كله، فروى كامينييف القصة كلها.

كان قد سمح للحاج مراد بالتنزه في أرباض المدينة، لكنْ فُرض عليه أن يصحبه بعض القوازق الخيّالة، كان عددهم الكلي في مدينة «نوجا» يبلغ خمسين، وكانوا موزعين في جماعات، كل جماعة من عشرة ليؤمنوا حراسة أماكن مختلف الإدارات، ولم يكن يبقى منهم إلا نحو عشرة لمرافقة الحاج مراد في طلعاته، وفي مدى خمسة أيام، نَقصَ هذا العدد إلى خمسة، لكن طُلب إلى الحاج مراد، ألا يأخذ معه كل حرسه، وعندما تهيّأ، في ٢٥ نيسان، للنزهة، كان رجُاله الخمسة جاهزين لاتّباعه، رآه القائد المحلي يمتطي جواده ورأى رجاله يفعلون مثله، فأبلغه أن ذلك ممنوع، لكن الحاج مراد تظاهر بأنه لم يفهم فدفع جواده، وتبعه الجبليون، لم يلحّ القائد أكثر من ذلك، كان على رأس

القوزاق المرافقين ضابط الصف نازاروف، الحائز على وسام فارس من رتبة القديس جاورجيوس، وهو شابٌ مضطرم وقوي، وهو الابن الأكبر لأسرة فقيرة أبوية، وقد فقد أباه وهو فتى، وكان يعيل أماً وثلاث أخوات وأخوين.

صاح به القائد:

انتبه، نازاروف، لا تدعْه يذهب بعيداً.

أجابه نازاروف وهو يعتلي السرج، وبندقيته في النجاد.

أمرك، سيدي.

وجرى الحصان الخصيّ، وهو حيوان رائع ضخم وشجاع، وكان يتبعه أربعة من القوازق: فيرابونتوف، وهو طويل، هزيل، يترّصد الغنيمة أبداً، كما أنه سارق معتادٌ على السرقة، وهو نفسه الذي باع «حمزالو» البارود، «واينياتوف» وهو متوسط العمر، وكان ينهي مدة خدمته، وهو فلاح قوي يتباهى دائماً بقوته الجسدية، و«ميشكين» وهو يافع ضعيف كان الجميع يهزؤون منه، و«يتراكوف» وهو شاب أشقر، ابنٌ وحيد، بشوش ومرحٌ دائماً.

كان الجو ضبابياً، طوال الصباح، لكن السماء صَفَتْ حوالي الظهر، وداعبت الشمسُ بأشعتها الأوراق النابتة، والعشب الغضّ، والسوقَ الطالعةَ في الحقول، ومُويجات النهر الذي يجري مسرعاً على يمين الطريق.

سار الحاج مراد سيراً بطيئاً حتى مخرج القلعة، وتبعه حرسهُ والقوازق عن قربٍ، ووصلوا هكذا إلى الطريق، وصالبوا نساءً يحملن سللاً على

رؤوسهن، وجنوداً على طنابر، وعربات تصرّ، تجرّها جواميس، وبعد أن قطع الحاج مراد نحو كيلو مترين حثّ حصانه الأبيض وأرسله حضراً، فصنع حرسُه والقوزاق، صنيعه.

قال فيرابونتوف.

آه! أنه يعتلي جواداً رائعاً، لو التقيتُه في الحرب ضدّه لأرديته قتيلاً من أجل جواده ليس غير.

نعم، فقد دَفع فيه، في تفليس، ثلاثمائة روبل.

قال نازاروف:

سأسبقه بجوادي.

أجاب فيرابونتوف:

إني أشك في ذلك.

أخذ الحاج مراد يزيد في سرعته، وأخذ نازاروف كذلك يحثُ جواده، فاقترب منه وناداه:

أيه! لا تفعل ذلك، يا صاحبي، خَفّفْ من سرعتك.

أدار الحاج مراد رأسه وتابع بالسرعة نفسها دون أن ينطق بكلمة.

قال اينياقوف:

انظر إليه! فيم يفكّر هذا الشيطان؟ إنه يطير!

وتقدموا كيلو متراً آخر نحو الجبل، لم يكن الحاج مراد يلتفت وراءه، و لم يكن يقول شيئاً، كان يحدّد نظره في الجبل وينقضّ عليه.

صاح نازاروف مغضباً:

أنت تخطئ إن حَسبتَ إنك تستطيع أن تسبقني.

ساط جواده قليلاً، وانتصب على ركابه، وانحنى على عنق الجواد اندفع في إثر الحاج مراد.

كانت السماء صافيةً، والهواء بليلاً، وكانت قوى الحياة تَغْلي بفرح في نفس نازاروف، كان يطير في إثر الحاج مراد، مشكلاً كلاً واحداً مع جواده القوي، دون أن يخطر بباله إمكان حدوث حادث محزن أو فظيع، وكان فرحه عظيماً حين رأى أنه كان يزداد قرباً من الحاج مراد لدى كل دعسة من جواده: أفْهَمَ طَرْقُ حوافر جواد القوزاقي الجبليَّ أنه سيُدْرَكُ بسرعة، فأمسك مسدّسه بيده اليمنى بينما كبح قليلاً جماح الجواد المندفع بيده اليسرى.

قال نازاروف وهو يمدّ يده ليمسك بلجام جواد الحاج مراد.

قلت لكَ إن ذلك ممنوع!

في هذه اللحظة انطلقت الطلقةُ.

صاح نازاروف وهو يرفع يده إلى صدره:

ماذا فعلتَ؟

وصاح أيضاً:

اذبحوهم، يا رجالي البواسل!

ثم ترنح وأنهار على السرج.

لكن الجبليين كانوا أسرع، فأطلقوا النار على القوازق وانهالوا

عليهم بالسيوف، وكان نازاروف الذي تشبّث بعنق جواده يدور حول رفاقه، وسقط جواد «اينياتوف وسحقَ له ساقه، وأنحى جبليان بالسيف على رأسه ويديه، دون أن ينزلا عن السرج، واندفع بيتراكوف لنجدته، لكن رصاصتين أصابتاه، إحداهما في ظهره والأخرى في خاصرته، وقضتا عليه، فسقط، مثل كيس، عن ظهر جواده، كان يرقد على الأرض، مفتوح البطن، لافتاً وجهه الفتيّ إلى السماء، فاتحاً ومغلقاً فمه، وهو يموت، ليبتلع الهواء، مختنقاً مثل سمكة ملقاة على الشاطئ، استدار ميشكين وجرى نحو القلعة، لحق به «حنيفي» و«خان ماغوم»، لكنهما حين رأيا أنه يسبقهما كثيراً عاد إلى رفاقهما، أجهز حمزالو بخنجره على اينياتوف وعلى نازاروف الذي سقط عن جواده، لمّ «خان ماغوم» جعب القتلى، أراد حنيفي أن يأخذ جواد نازاروف لكن الحاج مراد الذي استأنف جريه منعه من ذلك، واندفع رجاله وراءه محاولين أن يسبقوا جواد نازاروف الذي تبعهم، كانوا على الطريق، في وسط حقول الرز، على بعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن «نوجا»، عندما انطلقت من برج القلعة طلقة النفير.

هتف القائدُ وهو يمسك رأسه بين يديه عندما علم بهرب الحاج مراد:

اوه! يا إلهي! ماذا فعلتم!

وقال أيضاً وهو يستمع إلى رواية ميشكين:

تركوا هذا اللصّ يُفلت منهم!

استنفرت جميع المواقع المحيطة، وعُبِّئ جميع القوازق بل وجميع أفراد الجيش الشعبي في القرى الخاضعة، وطفقوا يلاحقون الفارّين،

واعدين بألف روبل لكل منْ يأتي بالحاج مراد ميتاً أو حياً، لم تمض ساعتان على المعركة الدامية، حتى اندفع مائتا فارس بدورهم تحت إمرة القائد، إلى الجبل.

بعد أن قطعَ الحاجُ مراد عدة كيلو مترات على الطريق الرئيسية، خفّف من جري جواده الأبيض الذي تسارع نفسه وتبلّل جسمُه بالعرق، إلى يمين الطريق كانت تُشاهدُ بيوتُ قرية «ببلاردجيك» ومئذنتها، وإلى اليسار امتدت حقول على أطرافها كان يجري نهرٌ، كان الدربُ المؤدي إلى الجبل ينعطف إلى اليمين، وقد أَملَ الحاج مراد أن يستمرّ المطاردون عليه، فاتّجه إلى اليسار، كان يريد هو ورجاله أن يخترق الحقول ويَعْبر النهرَ ويبلغ الطريق الرئيسية في موضع لا ينتظره فيه أحدٌ، وهكذا سيصلون الغابة، بعد أن يكونوا قد عبروا نهراً آخر، وسيبلغون الجبال.

ما إن اتّخذ هذا القرار حتى انعطف إلى اليسار، لكنه لم يصل النهرَ، ذلك أن حقول الرز التي كان سيجتازها قد غُمرت بالماء، ككل ربيع، وغدت مستنقعات حقيقية تغرق فيها الخيول إلى صدورها، وكان الحاج مراد ورجالُه الجبليون ينحرفون إلى اليسار تارةً وإلى اليمين تارةً أخرى مؤّملين أن يعثروا على أرض أصلب، لكن الماء كان قد توزّع في كل مكان من هذه الحقول، على نحو متساوٍ، حتى أشبعت الأرض به، وكانت الخيول تُخرج حوافرها من الوحل بمثل صوت الزجاجة التي تُنْزع سدادتها وتخطو بضع خطوات وهي تتنفس بمشقة وتتوقف.

وهكذا تخبّط الهاربون طويلاً، وأخذ الظلام يهبط، لكنهم لم يبلغوا النهر، كانت إلى اليسار تلّةٌ شبيهة بجزيرة صغيرة تغطّيها الأدغال قرروا أن يمنحوا خيولهم المنهكة وقتاً قصيراً للراحة فيها وأن ينتظروا

الليل فيها، ما إن بلغ الحاجُ مراد ورجاله هذه التلة حتى ترجّلوا، وبعد أن قيدّوا خيولهم تركوها ترعى، بينما كانوا هم يجدّدون قواهم بالخبز والجبن.

غاب القمر الذي أنار هذا المشهد بأشعته خلف الجبال التي غطّاها الليل بردائه القاتم، كان في «نوحا» الكثيرُ من العنادل، أما هنا فلم يكن سوى اثنين سكتا عند اقتراب الحاج مراد ورجاله، لكن عندما ساد الصمتُ من جديد، تجرّأا وأرسلا من جديد نغماتهما السريعة التي يتناجيان بها، كان الحاج مراد يصغي إليها، وكان يصغي أيضاً إلى أصوات الليل.

ذكّره تغريد الطير بأغنية حمزة التي سمعها أمس عندما ذهب يستقي الماء قد يجد نفسه هو أيضاً في الوضع الذي كان فيه حمزة، بل لقد خطَر له أنه سيكون كذلك، وفجأة أحسّ بنفسه مُثْقلة وثقيلةً، مدّ معطفه وصلّى، وعلى حين غرّة سمع ضجيجاً يدنو من الأدغال، وتبيّن أن الضجيج ضجيجُ خيولٍ كثيرةٍ تتقدّم في حقول الرز، انسلّ «خان ماغوم» إلى أطراف الدغلِ وميّز بوضوح أشباحاً سوداء لفرسان ومشاة، وتبيّن «حنيفي» أشباحاً مماثلة من الجهّة الأخرى، كان هؤلاء هم المطاردين يقودهم «كارغانوف» مفوّض الشرطة.

فكّر الحاجُ مراد: «ليكنْ، سنقاتل كما قال حمزة».

بعد النفير، كان كارغاتوف قد اندفع، على رأس فرسانه، في أعقاب الجبليين، لكنه لم يجد أي أثر للحاج مراد، وعند المساء انثنى يائساً عندما صادف شيخاً، فسأله إن كان قد شاهد رجالاً على خيولهم، أجاب الشيخُ بأن ستة فرسان تخبّطوا طويلاً في حقول الرز وأنه رآهم يدخلون الأدغال التي طالما جمع الحطب منها، جاء

به كارغاتوف واتجه إلى الموضع الذي أشار إليه، رأى مباشرة الخيول مقيّدة في الأدغال، وأيقن أن الهاربين لابدّ أن يكونوا هنا، فطوّقهم، وقرر أن ينتظر إلى الصباح حتى يقبض على الحاج مراد ميتاً أو حيّاً

أدرك الحاجُ مراد أنه مُحاصر، اكتشف قناة صغيرةً وسط دغل، فصمّم أن يتحصن بها وأن يقاوم فيها ما دام معه ومع رجاله طلقات وما دامت قواهم فيهم، أطْلع رفاقه على قراره وأمرهم بإعلاء حاجز ملجئهم، وبعد أن حفر الجبليّون الأرض بخناجرهم، قطعوا الأغصان ووضعوها على حافات خندقهم، ثم غطّوها بالتراب ليجعلوا منها متراساً.

عندما أرست الشمسُ أشعتها الأولى، اقترب القائد من الأدغال وصرخ:

أيه! حاج مراد! استسلمْ! نحن كثرةٌ وأنتم قلةٌ.

ورداً على ذلك ارتفع من الخندق خيطٌ من الدخال وضربت رصاصةٌ الجواد الذي ترنح ثم سقط سقوطاً ثقيلاً، فرفعت بنادقُ الجنود الذين ازدادوا قرباً من حافة الأدغال، واقتلع رصاصُها الأغصان والأوراق، وهي تصفر، وغاصت في متراس الخندق دون أن تصيب أحداً، لكنها جرحت رأس جواد «حمزالو»، لم يقع لكنْ قُطع قيده، وانطلق نحو الجياد الأخرى، والتصق بها، ودمُه يسيل على العشب الغضّ، كان الحاج مراد ورجاله يطلقون النار عندما كان العدو على مرأى منهم فقط، وقلّما كانوا يخطئون هدفهم، أصيب ثلاثةٌ من جنود الجيش الشعبي، و لم يجرؤ الآخرون على الاقتحام، بل إنهم ترجعوا إلى أبعد حدٍّ ممكن، وأخذوا يطلقون النار على التخمين.

دام القتال أكثر من ساعة، أخذت الشمس تلمع، كان الحاج مراد

يفكر في خرق الحصار وبلوغ النهر عندما رأى تعزيزات تصل، وتتألف من مئتي رجل يقودهم الحاج آغا من ميكتولي، كان الحاج مراد والحاج آغا (مرتبطين برباط الصداقة فيما مضى من الزمن قبل أن ينضم الحاج آغا إلى صفوف الروس، كما كان بين التعزيزات أحمد خان، ابن عدو الحاج مراد، أخذ الحاج آغا يصيح بالحاج مراد، كما صاح كارغانوف من قبل، أنْ لم يبْق عليه سوى الاستسلام، وكان جوابه لهم طلقة نارية كما فعل مع كارغانوف.

صاح الحاج آغا وهو يستلّ سيفه:

السيفَ، يا أولادي!

واندفع رجاله، وهم يصيحون لاقتحام الأدغال، وعندما وصل الجنود الأوائل إلى الدغل تلقتهم رصاصات البنادق فقُتل ثلاثةُ منهم، وتوقّف المهاجمون عند حافة الأدغال، ومن الجهة الأخرى من التلّة شُنّ هجوم آخر، كان المهاجمون يطلقون النار بلا انقطاع، ويتقدّمون من دغل إلى دغل، ويقتربون أبداً من الخندق، وقد نجح بعضهم في التقدّم، لكن الآخرين حصدهم رصاصُ الحاج مراد ورجاله، لم يكن الجبلي يخطئ هدفه، ولم يكن حمزالو أيضاً يحرق باروده عبثاً، وكلما رأى أن رصاصته أصابت كان يصرخ من الفرح، وكان «كوربو»، في الطرف الآخر من الخندق، يرمي بلا عجلة، وقلّما كان يمّس هدفه، وكان يهتف: «لا إله إلا الله»، وكان ايلدار يرمي بلا مرح بل على غير هدى، وخنجره بيده، منتظراً اللحظة التي يستطيع أن ينقضّ على المهاجمين، كان يدير نظره غالباً نحو الحاج مراد، ويبرز رأسه بلا اكتراث فوق الخندق، وكان حنيفي الكثير الشعر، مشمرّاً كميه، مستمراً في أداء مهماته كخادم، كان يعبئ بنادق الحاج مراد

و«كوربو» ويحشو باجتهاد، قصبات البنادق بسيخه الحديدي ويدس الرصاص في المؤخرة المشحمّة جيداً، وكان خان ماغوم كثيراً ما يترك الخندق محاولاً أن يضع الخيول في الأماكن الأقل تعرّضاً للرمي، ولا يكّف عن الرمي دون أن يتأنى ليسند البندقية إلى كتفيه، وهو أول من جرح، إذ أصابته رصاصةٌ في عنقه، فجلس وهو يبصق دماً ويجدّف، واخترقت رصاصةٌ كتف الحاج مراد، لكنه انتزع من صدارته قطعةً من القطن وحشا بها الجرح وتابع رميه.

سأل إيلدار للمرة الثانية:

أما آن لنا نقاتل بالسيوف؟

خرج من الخندق، وهو مستعدٌ للانقضاض على العدو، عندما أصابته رصاصةٌ، ترنّح وسقط عند قدم الحاج مراد، ووجهُه متلفتٌ إليه: كانت عينا ايلدار الوديعتان الرائعتان تحدّقان فيه بانتباه، أمّا فمه الذي شفتُه العليا متقدمة مثل شفة طفل، فقد كان يرتعش دون أن ينفتح، سحب الحاج مراد قدمه واستمرّ في رميه، هُرع حنيفي وانحنى على جسد رفيقه الميت وأخرج الرصاصات الباقية من جعبته، كان كوربو يغنّي أبداً، مُعبئاً بندقيته ورامياً بلا عجلة.

تابع العدوُّ تقدمه من دغل إلى دغل، وهو يصيح، وأخذ يدنو أكثر فأكثر، أصابت الحاج مراد رصاصةٌ في كتفه الأيسر جلس، وانتزع مرةٌ أخرى من صدارته مزقةً من القطن وأدخلها في الجرح، كان هذا الجرح منذارً بالخطر، وأحس بالموت يقترب، وأخذت الذكريات والصور تتابع في ذهنه بسرعة مدُوِّخة، رأى «أبو نزال خان» العملاق ينقض على قاتليه، ممسكاً وجهه المقطوع بيد، وخنجره بيد، رأى وجه فورونتزوف الشاحب المحتال وسمع صوته الرقيق، وكانت صورة

ابنه يوسف، وصورة امرأته صوفيّة، والوجه الشاحب لعدوه شامل، ولحيته الصهباء، وعينيه اللتين ترفّان، كانت هذه الصور تنتصب أمامه متناوبةً، وكانت كل هذه الذكريات التي تمرّ بذهنه لا توقظ فيه أيّ شعور بالشفقة والحقد والرغبة، كان كل ذلك يبدو بعيداً وتافهاً بالنظر إلى ما سيبدأ أو إلى ما لعله قد بدأ، انتقض جسمُه القوي، جمع آخر قواه، وخرج من الخندق، وصرع بمسدسه أول رجلٍ انقض عليه، ثم مشى إلى لقاء أعدائه، وهو يعرج عرجاً شديداً، وخنجره بيده، انطلقت بضعُ طلقات فترنّح وسقط، ارتمى الجنودُ على الرجل الصريع، وهم يصرخون صرخات النصر، لكن الجسد الذي بدا لهم بلا حياة، تحرك فجأةً، انتصب أولاً الرأسُ الحليقُ، ثم الجذع، ثم أنشب أظافره بشجيرة وتشبث بها فنهض، كانت اللوحةُ مرعبةً إلى الحد الذي تجمّد فيه الحاضرون في أماكنهم، لكنه تمايل فجأة، وترنّح وسقط ووجهُه على الأرض، وكأنه قد حُصد حصداً، ولم يتحرّك بعد ذلك.

لم يتحرك بعد ذلك، لكنه كان ما يزال حيّاً، عندما وصل الحاج آغا وطعنه طعنة عنيفة بالخنجر في رأسه، بدا له أنه يتلقى ضربة مطرقة خفيفة، لكنه لم يفهم لمَ يضربونه ومَن يضربُه، كان هذا هو آخر رابط قام بين جسده وفكره، لم يعد يحسّ بشيء، كان الأعداء يطؤون ويقطّعون جسده الذي لم يعدْ موجوداً بالنسبة إليه.

وضع الحاج آغا قدميه على صدر الحاج مراد، وقطع رأسه بضربتين من سيفه، ودفعه بقدمه جانباً، باحتراس، لكي لا يلوث جزمته، انبجس الدمُ الأحمر من عنقه، وأسود من رأسه، وسقى العشب، تجمّع كارغانوف والحاج آغا وأحمد خان وجميع الجنود، كما يتجمّع الصيادون أمام الحيوان القتيل، تجمّعوا حول الحاج مراد، ورجاله (قُيِّد

حنيفي وكوربو وحمزالو)، وفي دخان البارود الذي كان يتصاعد من الأدغال تكلموا بفرح واحتفلوا بانتصارهم.

عادت العنادل التي صمتت أثناء التراشق إلى تغريدها.

هذا الموت هو ما ذكّرتْني به تلك الزهرة المسحوقَة في الحقل المحروث.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد الحفلة الراقصة

١٩٠٣

- أنت تقول إن الإنسان لا يستطيع أن يفهم بذاته ما هو خيرٌ وما هو شر، وأن كل شيء منوطٌ بالوسط، وأن الوسط يصوغ الإنسان، وأنا أعتقد أن كل شيء وقفٌ على المصادفة...، اسمعْ، سأقصُّ عليك شيئاً جرى لي.

هكذا كان يتكلم الجزيلُ الاحترام ايفان فاسيلييفتش، بعد حديث موضوعهُ: أنه يجب، قبل كل شيء، تغيير الظروف التي يعيش فيها الناس، إذا توخيّنا الإصلاح الفردي، والحق أن أحداً منا لم يزعم أننا نستطيع أن نفهم بذواتنا ما هو خير وما هو شر، لكن عادة ايفان فاسيلييفتش أنه كاف يجيب عن أفكاره الخاصة التي يوحي بها الحديث، وأن يقصَّ، بهذه المناسبة، فصولاً من حياته الخاصة، وكثيراً ما كان ينسى نقطة انطلاقه، وينساق وراء قصته، ولا سيّما أنه كان يقص بكثير من الصدق والحقيقة.

وقد فعل الشيء نفسه هذه المرة.

سأكلمكم بحسب تجربتي الخاصة، لقد تأثّرت حياتي كلها، لا بالوسط، لكن بشيء آخر.

سألنا:

وبأي شيء، ترى؟

إنها قصة طويلة، ولكي تفْهم يجب أن أتحدّث طويلاً.

تحدّثْ

فكر ايفان فاسيلييفتش، ثم هزّ رأسه، وقال:

نعم، إن حياتي، اتخذتْ وجهةً أخرى، بسبب ليلة، أو على الأصح، بسبب صبيحةٍ.

سأل أحدنا:

وماذا جرى لك، يا ترى؟

ما جرى لي أنني كنتُ مشغوفاً... كنتُ عاشقاً عدة مرات لكن ذلك العشق كان شديد القوة... كان ذلك منذ زمن بعيد... إن لها الآن بنات متزوجات، كانت الآنسة ب... نعم فارنكاب... (لفظ ايفان فاسيلييفتش اسمها)، إنها ما تزال جميلة حتى في الخمسين، لكنها عندما كانت فتيةً، في الثامنة عشرة كانت رائعة: ممشوقةً، رشيقة، أنيقة ومهيبة، مهيبةً على وجه التحديد، كانت منتصبة القامة دائماً، وكأنها لم تكن تستطيع أن تفعل غير ذلك، رادّةً رأسها إلى الوراء ردّاً خفيفاً... وكان ذلك يُسبغ عليها مع جمالها وقامتها الطويلة، بالرغم من هزالها، مظهراً مَلكياً جديراً أن يبعد الناس جميعاً عنها، لولا ابتسامتها الملاطفة، كانت مرحةً أبداً، عيناها لامعتان ساحرتان، وكل كيانها الفتي يسرُّ الناظرين.

أوه! أوه! ما أحسن وصف ايفان فاسيلييفتش

مهما تكن الطريقةُ التي نصف بها فإننا لا نستطيع أن نعطي فكرة عمّا كانتْ عليه... لكن الموضوع ليس هنا... وما سأرويه يعود إلى الأربعينات، في هذه الحقبة كنتُ طالباً في جامعة من جامعات المقاطعة' لم يكن، في زمننا، حلقات ولا نظريات، ولستُ أدري إن كان هذا خيراً أم شراً، كنا شباباً ليس غير، وكنا نعيش كما يعيش الشباب، كنت مرحاً جداً، حيوياً جداً، وفوق ذلك، كنتُ غنياً، كان لديّ فرسٌ رائع، كنتُ أذهب إلى الجبال الروسية مع الآنسات (لم يكن التزلج شائعاً بعد) وكنتُ أمْجن مع رفاقي، (في هذه الحقبة لم نكن نشرب شيئاً سوى الشمبانيا، فإذا لم تكن موجودةً لم نشرب حينئذ شيئاً، و لم نكن نشرب قط ماء الحياة كما نشربه اليوم)، وكانت لذتي الكبرى السهرات وحفلات الرقص، كنتُ أجيد الرقصَ، و لم أكن بشعاً...

قاطعته سيّدةٌ:

لا تتصنّعْ التواضع، نحن نعرف صورتك على آلة «داكر»، لا ينبغي أن تقول إنك لم تكن بشعاً، لقد كنت جميلاً جداً.

حسناً، فليكنْ! كنتُ جميلاً، لكن الموضوع ليس هنا، في هذه الفترة التي بلغ فيها حبي أَوجَهُ، في آخر يوم من أعياد المساخر، ذهبتُ إلى الحفلة الراقصة في منزل مارشال النبلاء، وهو شيخ لطيف جداً، غنيٌّ، مضياف، وحاجب في البلاط، وكانت امرأته اللطيفة مثله هي التي تستقبل، كانت في فستان من المخمل، وعلى جبهتها قرطٌ من الماس، أما كتفاها وصدرها فكانت كتفي امرأة ناضجة وصدرها، كانت سمينة بيضاء، مكشوفةً كما في صور الإمبراطورة اليزابيت بيتروفنا، كانت الحفلةُ الراقصة رائعة: صالة باهرة، جوقات، اوركسترا،

مشهورة آنذاك، من أقنان أحد الملاّك الهواة، مقصف مدهش ونهر من الشمبانيا، ومع أني من هواة الشمبانيا، إلا أنني لم أذقها، لأنني كنت ثملاً، حتى بدون خمر... ثملاً من الحب، لكني، بالمقابل، رقصْتُ، الفالس والبولكا، حتى كدتُ أقع، وبالطبع مع فارنكا، ما أمكنني ذلك، كانت في فستان أبيض وزنار وردي، وكان في يديها قُفّازٌ يصل إلى مرفقيها الهزيلين المروّسيْن، وفي قدميها حذاء من الساتان الأبيض، وقد شلّحني أنيسيموف، المهندس، هذا البغيض، رقصةَ المازوركا، لم أغتفرها له بعد، دعاها إلى هذه الرقصة منذ وصوله بينما تأخرتُ قليلاً عند الحلاق الذي مررتُ عليه لأشتري قُفازاً، بحيث أني لم أرقص المازوركا معها، بل مع فتاة ألمانية كنتُ غازلتها قليلاً من قبل، لكني أعتقد أنني كنتُ قليل التهذيب معها هذا المساء: لم أكن أكلمها، لم أكنْ أنظر إليها، لم أكن أرى سوى قامة فارنكا الممشوقة وفستانها الأبيض، ذا الزنار الوردي، وجهها المنتعش بغمازتيه، وعينيها الرائعتين، الملاطفتين، لم أكن وحدي المعجَب بها، جميع الرجال كانوا ينظرون إليها ويعجبون بها، وكذلك جميع النساء، مع أنها بَزَّتهن، ولم يكن ممكناً ألا نُعجب بها، لم أكن، من حيث الشكل، أرقص المازوركا معها، لكنني، في الواقع، كنتُ أرقص معها طوال الوقت تقريباً، كانت تجتاز الصالة كلها، دون تحرّج، متّجهة رأساً إلي، وكنتُ أندفع دون انتظار الدعوة، وكانت تشكرني بابتسامتها لأنني فهمت، وعندما قُدّمنا إليها، ولم تكتشف صفَتي، اضطرت أن تمدّ يدها إلى المراقص الآخر، وهزّت كتفيها الهزيلتين، وابتسمت لي، على سبيل الآسف والتعزية، وأثناء حركات المازوركا المرقوصة كالفالس، راقصتُها طويلاً، وكانت تقول لي، وهي تبتسم، ونَفَسُها يتسارع: «ارقصْ أيضاً» وكنت أرقص الفالس وأرقصُ، دون أن أحسّ بجسدي.

قال أحدُ المستمعين:

كيف! لم تكن تحسّ بجسدك عندما كنتَ تطوّق خصرها؟ أعتقد أنك لم تكن تحس بجسدك فقط، لكن بجسدها أيضاً.

احمرّ ايفان فاسيلييفتش وهتف كالمُغضب:

آه! هذه هي شبيبة اليوم! أنتم لا ترون شيئاً سوى الجسد، كان الأمرُ مختلفاً، في عصرنا، فكلما كنتُ أزداد غراماً كانت تبدو أكثر تجرداً من المادة. أما الآن فأنتم ترون القدم والعرقوب ألخ...، كنتم تُعرّون النساء اللواتي تُغرمون بهن، أما أنا فكان موضوع حبي يرتدي ثياباً من البرونز، كما يقول ألفونس كار[1] (وكان كاتباً مبدعاً)، لم نكن نمتنع عن التعرية فحسب، لكننا كنا نحاول أن نستر العريَ، مثل ابن نوح الصالح... لكنكم لن تفهموا.

قال أحدنا:

لاتصغي إليهم... أخبرنْا ماذا حدث بعد ذلك.

إذن فاسمعوا: كنتُ أراقصها ولا أشعر بمرور الزمن، وكان الموسيقيون، بسبب إلحاح التعب، عندما تنتهي الحفلة الراقصة، - تعرفون ذلك -، يعزفون أبداً مقطع المازوركا الأساسي نفسه، وكان الآباء والأمهات، في الصالونات قد هجروا موائد اللعب، انتظاراً للعشاء، وكان الخدم يركضون مستعجلين، ويحملون شيئاً، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية، كان ينبغي انتهاز اللحظات الأخيرة لدعوتها مرةً أخرى أيضاً، وللمرة المئة درنا الصالون دورةً.

---

١ - ألفونس كار: أديب فرنسي.

قلتُ وأنا أرافقها إلى مكانها:

الرقصة الرباعية بعد العشاء، لي إذن؟

أجابت وهي تبتسم:

بلا شك، إذا لم يأخذوني.

قلتُ:

لن أسمح بذلك.

قالت لي:

أعطني مروحتي.

قلتُ وأنا أمد إليها مروحةً صغيرةً بيضاء، لا قيمة لها:

من المؤسف أن أعيدها إليك بهذه السرعة.

إذن خذ هذهِ لكي لا تأسف.

وانترعتْ من المروحة ريشةً صغيرةً ومدّتها إليّ.

تناولت الريشة، و لم أستطع أن أعبّر لها عن سعادتي وامتناني إلا بالنظر، لم أكن مرحاً، مسروراً فقط، كنتُ سعيداً، هانئاً، لم أكنْ أنا نفسي، لكني كنتُ كائناً لا أرضياً، ولا مادياً، جاهلاً الشر وقابلاً للخير وحده، أخفيتُ الريشةَ في قفازي، إذْ لم أقْوَ على الابتعاد عنها.

قالت لي وأشارت إلى شخص أبيها العالي والأنيق، العقيد، بكتفّيتيه الفضيتين، الذي كان يقف في فرجة الباب، مُحاطاً بالسيدات:

انظرْ، إنهم يطلبون إلى بابا أن يرقص.

وسمعنا صوتاً قوياً ينادي فارنكا:

فارنكا! تعالي إلى هنا.

كان الصوت صوت ربة المنزل ذات القرط الماسي والفستان المقوّر على نمط الامبراطور اليزابيت.

دنت فارنكا من الباب، فتبعتُها، قالت لها ربةُ المنزل:

ارجي أباك، يا عزيزتي، أن يجول جولةً معك.

وقالت للعقيد:

هيّا، أرجوك، بطرس فلاديسلافوفيتش[٢].

كان والد فارنكا شيخاً جميلاً، طويلاً، ممشوق القامة، نضراً جداً، غضّ الوجه، أبيض الشارب مبرومه، على نمط نيكولا الأول، ذا عارضين أبيضين يلتقيان شاربه عند الصدغين، وكانت ابتسامة ابنته نفسها في عينيه اللامعتين وعلى شفتيه، وكان متين البنيان على نحو معجب، لا تزينه الأوسمة إلا قليلاً، قوي الكتفين، طويل الساقين، أنيقهما، كانت له شخصية الخدم العسكريين من عهد نيكولا.

بينما كنا نقترب من الباب، كان العقيد يرفض زاعماً أنه لم يعد يعرف الرقص، بيد أنه نزع سيفه من نجاده بيده اليسرى، وهو يبتسم، وسلمّه شاباً كان بقربنا، ثم وضع قفّازه في يده اليمنى، وقال، وهو يبتسم:

يجب أن يتمّ كلُّ شيء بحسب القواعد.

وأمسك بيد ابنته ودار بها دورة وانتظر الموسيقا، لدى أول نغم

---

٢ - يشير اسم العائلة إلى أن العقيد من أصل بولوني.

للمازوركا، ضرب الأرض بقدمه ضرباً قوياً، وأرسل الأخرى أمامه، وأخذ يتحرّك حول الصالة، بشخصه الطويل، راقصاً برفق واتزان تارة، وتارة أخرى بصخب صاكاً قدميه إحداهما بالأخرى، وكانت فارنكا الرشيقة تطير بجنبه مادةً أو قاصرةً خطواتها بقدميها الصغيرتين في حذاء الساتان الأبيض، كانت الصالة كلها تتابع كل حركة من حركات هذين الراقصيْن، وأنا لم أكن أعجب به فحسب لكني كنتُ أنظر إليه بعطف حماسي، الجزمة بخاصّة أثارت العطَف في نفسي، كانت جزمةً متينة ليست من الزيّ الشائع المحدّد الرأس، لكنها كانت جزمةً من الزيّ القديم، مربّعة الرأس، بلا كعب، صنّعها من غير شك صانعُ الجزم في الفوج، وطرفُها المربّع أثار العطف في نفسي، على وجه الخصوص.

كان واضحاً أنه كان يُحسن الرقص قديماً، لكنه كان على شيء من الثقل الآن، و لم تكن ساقاه مرنين المرونة الكافية لتكل الخطوات الرشيقة والسريعة التي يبذل وسعه ليؤديها، بيد أنه جال جولتين، وعندما باعد بسرعة بين ساقيه ثم قرّب بينهما ليركع، وإن كان ذلك بشيء من الثقل، وعندما ابتسمت هي، وهي تسوّي تنورتها التي تشبَّث بها بلطف، ودارت حوله، صفّق الحاضرون لهما بصخب، ونهض بشيء من الجهد، وأمسك بحنان، وعلى نحو فاتن، ابنته من أذنيها، وطبع قبلة على جبينها، وعاد بها إليّ، ظاناً أنني كنتُ أراقصها، قلتُ له إني لم أكن مراقصها، فقال لي وهو يبتسم بحنان ويعيد سيفه إلى مكانه:

لا أهمية لذلك، دُرْ معها الآن دورة.

وكما أن محتوى الزجاجة يتدفق منها حالما تسيل قطرةٌ منها،

هكذا أطلق حبي لفارنكا كل قدرة على الحب مختبئة في نفسي، في هذه اللحظة كان حبي يعانق الكونَ كله، أحببتُ ربة المنزل بقرطها وفستانها المقوّر على نمط الامبراطورة اليزابيت، أحببتُ زوجها، وضيوفه، وخدمه، وحتى المهندس انيسيموف الذي كان يتجهّمني، أما أبوها، بجزمة الفوج، وببسمته الوادعة الشبيهة ببسمتها، فقد كنت أحسّ تجاهه بعاطفة حماسية ورقيقة.

بعد العشاء، رقصتُ معها الرقصة الرباعيّة التي وعدتني بها، ومع أني كنتِ سعيد إلى أقصى الحدود، إلا أن سعادتي كانت لاتني تعظمُ، لم نكن نتكلم عن الحب، لم أكن أسألها كما أسأل نفسي إن كانت تحبني، كان يكفيني أن أحبّها، كل ما كنتُ أخشاه أن يأتي شيءٌ يفسد سعادتي.

عندما عدت إلى البيت، خلعتُ معطفي، حسبتُ أنني أستطيع النوم، لكني سرعان ما لاحظتُ أن ذلك مستحيل، كنتُ أمسك بيدي ريشة مروحتها، وقُفّازها الذي أعطتني إياه حين ذهبتْ، في اللحظة التي ساعدتها فيها على صعود العربة بعد أن ساعدت أمها على الصعود، كنت أنظر إلى هذين الشيئين فأراها أمامي، دون أن أغمض عيني: تارة في اللحظة التي كانت تتنبأ بصفتي وهي تختارُ فيها أحدَ المراقصيْن، وأنا أسمع صوتها الساحر يقول: «الإباء، نعم؟» بينما كانت تمدّ يدها إليّ، وتارة أخرى، كنتُ أراها، في العشاء، تشرب الشمبانيا بجرعات صغيرة، وتنظر إلى خفية، بعينيها الملاطفتين، لكني كنتُ أراها بوضوح أكبر مع أبيها، عندما كانت تدور حوله برشاقة وتنظر إلى المتفرجين المعجبين بكبرياء وفرح لها ولأبيها على حد سواء، وبالرغم مني، كنتُ أوحّد بينهما في شعور ودود، رقيق.

كنتُ أعيش، في هذه الفترة، مع المرحوم أخي، و لم يكن أخي،

على العموم، يحب الاجتماع بالناس، و لم يكن يذهب إلى الحفلات الراقصة، وبما أنه كان يستعد، في هذه الآونة، لامتحانات الجامعة، فقد كان يعيش حياةً منتظمة، كان ينام، كنتُ انظر إلى رأسه الغارق في الوسادة والمغطّى إلى نصفه بالغطاء الصوفي فأشفق عليه، ذلك أنه لم يعرف و لمْ يحسّ السعادة التي استشعرها.

أراد خادُمنا، وهو القن بيتروشا، الذي أقبل علي بالشمعة، أن يساعدني على خلع ثيابي، لكني صرفتُه، وقد بدا لي منظر وجهه الغافي، وشعره المشعّث، جديراً بالرثاء، ومثيراً للعطف، دخلتُ غرفتي على رأس أصابعي، باذلاً جهدي كي لا أحدُث ضوضاء، وجلستُ على سريري، كنتُ سعيداً فوق الحدّ، و لم أكن استطيع النوم، وفضلاً عن ذلك، فقد أحسستُ بالحرارة في هذه الغرفة المحمّاة أكثر مما ينبغي فانتقلتُ إلى البهو، دون أن أخلع بزّتي، ووضعت فيه معطفي، وفتحت باب الشارع، وخرجتُ... تركتُ الحفلة الراقصة بعد الرابعة صباحاً، وانقضت ساعتان هما الوقت الذي استغرقه رجوعي إلى البيت والبقاء فيه قليلاً، بحيث أني عندما خرجت كان النهار قد طلع، كان ذلك في زمن عيد المساخر، كان في الجو ضبابٌ، وكان الثلج الرطب يذوب في الشوارع ويسيل من جميع السطوح، كان آل ب... يسكنون في طرف المدينة، قرب حقل واسع يقع في آخره المتنزه العامُ، ومن جهته الأخرى معهدُ الفتيات، قطعتُ شارعنا المقفر وخرجّت إلى الشارع العام حيث كان يسير المشاةُ، وسائقو الزلاّجات الذين ينقلون الحطب عليها، وكانت الخيول التي تُهزّز بانتظام رؤوسها المبلّلة تحت الأقواس اللامعة، وسائقو الزلاّجات الذين عطّوا ظهورهم بحصرٍ، واحتذوا جزمات ضخمة، وساروا بجنب خيولهم، والبيوتُ التي بدت مرتفعة جداً في الضباب، كان كل ذلك عندي مليئاً بالسحر والأهمية.

حين بلغتُ الحقل، قرب الموضع الذي يقع فيه منزلُهم، لمحتُ في الطرف الآخر، في اتجاه المنتزه العام، شيئاً كبيراً وأسود، وسمعتُ أصوات ناي وطبول تأتي من هناك، كان كل شيء يغنّي في نفسي، وكنتُ أسمع، بين الحين، لحن المازوركا، لكنّ ما سمعته الآ ن كان شيئاً مختلفاً، كان موسيقا وحشية، خبيثة.

فكرتُ: «ماهذا؟» سلكتُ، في وسط الحقل، الطريق الزلقة، واتجهتُ إلى المكان الذي كان منه الصوتُ، بعد أن قطعتُ نحو مئة خطوة خلال الضباب أخذت أميّز عدة أشخاص بثياب سوداء، كان هؤلاء، من غير شك، جنوداً قدّرتُ أنهم ربما كانوا يتدربون، اقتربت أكثر، بصحبة حدّاد يرتدي معطفاً من جلد الخروف الوسخ، ومئزراً، كان يحمل شيئاً ويمشي أمامي، كان جنودٌ في بزّات سوداء يقفون في صفين وجهاً لوجه، وبنادقهم بجنبهم، وخلفهم طبول وناي تكرّر بلا انقطاع نفس النغم الكريه، الحاد.

سألتُ الحداد الذي وقف بجنبي:

ماذا يفعلون؟

أجاب الحدادُ بتبرّم وهو ينظر إلى آخر الصف:

إنهم يجلدون تتريّاً لفراره.

نقلت نظراتي إلى الجهة نفسها، فشاهدت، بين الصفوف، شيئاً مخيفاً يتقدّم إلى جهتنا، كان هذا الشيء الذي يتقدّم إنساناً عارياً حتى زنّاره، مربوطاً ببندقيتي جنديين يجرّانه، وكان يمشي بجنبه عسكريٌ طويل القامة بمعطفه وعَمرته، ذكّرتني مشيتُه بانسان أعرفه، كان الرجلُ المُعاقَبُ يرتعشُ بجسده كله، وقدماه تخبطان في الثلج الذائب،

ويتقدّم إلى جهتي، تحت الضربات التي كانت تنهال عليه من الشمال ومن اليمين، مرتمياً إلى الوراء تارةً، وحينئذ كان ضابطا الصف اللذان يجرّانه ببندقيّتهما يدفعانه إلى الإمام، وتارةً أخرى يسقط إلى الأمام، وحينئذ كان ضابطا الصف يجرّانه إلى الوراء، كي لا يسقط، وبجنبه، كان الضابط المرتفع القامة يمشي مشيته الثابتة، كان هذا أباها بشاربه وعارضيه، كان الرجل المعاقَبُ، عند كل ضربة، كمن هو مدهوش، يُلْفتُ إلى الجهة التي تأتي منها الضربةُ وجهه المتشنّج من الألم، ويردّد شيئاً، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء لم يكن يتكلّم، لكنه كان ينتحب:

يا إخوتي، ارحموني! يا إخوتي، ارحموني!

لكن الإخوة لم يرحموا، وعندما وصل موكبُه إلى قربي، رأيت الجنديّ الذي بإزائي يتقدّم بحزم خطوةً إلى الإمام، ويلّوح بعصاه حتى جعلها تَصفْر في الهواء، وينهال بها بشدّة على ظهر التتري، تحرّك هذا حركة مباغتة إلى الأمام، لكن ضابط الصف أمسك به، فجاءته ضربة مماثلة من الجهة الأخرى... ثم ضربة من هذه الجهة وضربة أخرى من تلك... كان العقيد يسير دائماً في إثره، ناظراً إلى الأرض حيناً، وإلى المعاقب حيناً آخر، متنشّقاً الهواء بملء فمه مُخرجاً له ببطء من خلال شفتيه.

عندما تجاوز الموكبُ الموضع الذي وقفتُ فيه، شاهدتُ بين الصفّين ظهرَ السجين، كان شيئاً مبَرقشاً، مبلّللا بحمرةٍ غير طبيعية، لم أستطيع أن أصدّق أن هذا ظهر إنسان.

همس الحدّاد بجنبي:

اوه! ياالهي!

ابتعد الموكبُ، والضربات ما انفكّتْ تتساقط من الجانبين على الرجل الذي كان يتعثّر ويتلوّى، بينما كانت الطبول تقرع والناي يصفر، وكان يَتقدم أبداً بخطاً ثابتة، إلى جانب المعاقب، شخصُ العقيد الطويل والأنيق.

وفجأة وقف العقيد واقترب من أحد الجنود بسرعة، وسمعتُه يقول له بصوت غاضب:

سأعلمك... تخافُ أن تَلْمسه... سأعلّمكَ...

رأيته يضرب بيده القوية، المقفّزة، وجه الجندي المرتعب، الذي غار دمُه، لأن هذا الجندي لم يجلد ظهر التتري المدمّى بقوة كافية.

وصرخ:

اجلده جلداً مبرّحاً.

والتفت فشاهدني، تظاهر بأنه لا يعرفني، وقطّب حاجبيه بخبث، وتحوّل عني بسرعة، لقد خجلتُ كثيراً حتى لم أدر أين أنظر، وكأنني فوجئتُ وأنا آتي فعلاً يستحق اللوم، خفضتُ عيني وابتعدتُ مسرعاً.

كان يَرنّ في أذني، طوال الطريق، صوتُ الطبول حيناً، وصوتُ الناي حيناً آخر، وكلمات التتري في بعض الأحيان، «يا إخوتي، ارحموني»، وفي أحياناً أخرى صوتُ، العقيد الجهوري، الغاضب، وهو يصرخ: «سأعلّمك سأعلّمك» واستولى على قلبي غم، غمٌّ جسدي تقريباً يستدعي الغثيان، غمٌّ عظيم اضطُررتُ معه إلى الوقوف مرات مستعداً، كما خُيِّل إلي، لتقيؤ كل تلك الفظاظة التي نَشرَها فيَّ هذا المشهد، لستُ أذكر كيف رجعتُ إلى البيت وكيف نمتُ، لكني

ما كدتُ أغفي حتى سمعت ورأيت كلَّ شيء من جديد، فوثبت من فراشي.

فكرتُ في العقيد: «لا شك أنه يعلم شيئاً لا أعلمه»، ولو كنتُ أعلم ما يعلم لفهمتُ ما رأيت، ولما رُوِّعتُ من ذلك»، لكنْ عبثاً فكرتُ، إذْ لم أتمكن من فهم ما كان يعرفُه العقيد، و لم أستطع أن أنام إلا في المساء، وبعد أن زرتُ رفيقاً لي وسكرتُ على نحوٍ رهيب.

وبعدُ، هل تظنّون أن استنتاجي كان أن ما رأيتُه كان عملاً شريراً؟ كلاّ، لقد فكرتُ: إذ كانوا يفعلون ذلك بمثل هذه الثقة، إذا كان الجميع يرون ذلك ضرورياً، فذلك، بدون شك، إنهم يعلمون شيئاً لا أعلمه وحاولت أن أعرف ذلك الشيء، لكنْ بلا جدوى، إذ لم أستطع أن أتوصّل إليه، وبما أني لم أعرفه، فإني لم أستطع أن أدخل الخدمة العسكرية كما كنتُ قد عزمتُ من قبل، و لم أمتنع عن الخدمة في الجيش فحسب، بل عن الخدمة في أي مكان أيضاً، وكما ترون، فإني لم أكن صالحاً لشيء.

اعترض أحدنا:

نعم، نعلم كيف أنك لم تكن صالحاً لشيء، الأولى أن تقول كم من الناس سيكونون صالحين لشيء إذا لم تكن أنت صالحاً لشيء.

قال ايفان فاسيلييفتش بسخط:

أوه! هذه حماقات!

سألنا:

حسناً! والحب؟

الحب؟ منذ هذا اليوم، أخذ الحب يتضاءل، فعندما كانت تُخلد إلى التأمل، والابتسامة على وجهها، كما كان يقع لها ذلك غالباً، كنتُ أتذكر، على الفور، العقيد في مكان الجَلد، فأشعر بالضيق، وإذن فقد صرتُ أباعد بين لقاءاتنا شيئاً فشيئاً، واختفى الحبُ كلّياً.

وأنهى كلامه قائلاً:

وهكذا فأنتم ترون ما يقع وما يُغّير حياة الإنسان كليّاً، وأنتم تقولون...

***

القسم الأول

العملة المزيفة

١٩٠٤

- ١ -

كانت فيدور ميخايلوفيتش سموكوفنيكوف، رئيس ديوان المحاسبات[١]، والرجل ذو النزاهة التي لا غبار عليها، وهو شيء كان يعيه ويفخر به، مُلحداً، متعصباً، مفعماً باحتقار جميع المظاهر التي لها طابع ديني، وهي مظاهر كان يعتبرها من آثار الخرافات، وفي هذا اليوم، عند عودته إلى بيته، كان متكدر المزاج جداً، ذلك أنه تلقّى من والي مقاطعته رسالة تتضمن لوماً مبطّناً، وتلمّح إلى أحد أفعاله الذي تنعته الرسالةُ بعد الاستقامة، فاستشاط غضباً بألفاظ نابية ولاذعة.

خُيّل إلى سموكوفنيكوف، في البيت، أن كل شيء يسير سيراً سئياً.

كانت الساعة الخامسة إلا خمساً، كان يأمل أن تُقدَّم إليه وجبةٌ خفيفة، لكن لم يكن من شيء جاهزاً بعدُ، ثارت أعصابه فانسحب إلى غرفته وهو يصفق الباب.

---

١ - ديوان المحاسبات: دوائر المالية في المقاطعة.

قُرع البابُ، ففكّر: «من هذا الشيطان؟»، وصاح:

مَنْ الطارق؟

دخلَ الغرفة تلميذٌ في السنة الخامسة[٢]، عمره خمسة عشر عاماً

ماذا تريد؟

اليوم هو أول الشهر.

وماذا تريد، مالاً؟؟

في الواقع، كان الأب يُعطي ابنه في أول كل شهر ثلاثة روبلات مصروفاً لجيبه، بحث سموكوفنيكوف في محفظته، وهو رصين الوجه، وأخرج منها ورقةً بروبلين ونصف، ثم تناول محفظته ووضع على الطاولة خمسين كوبيكاً في قطع فضيّة صغيرة، فلم يمسّها ابنه وظلّ صامتاً.

بابا، أعطني سلفةً، إذا شئت.

ماذا؟

كنتُ أودُ ألا أطلب منك شيئاً، لكني اقترضت ووعدت بتسديدها، وأنا، كإنسان شريف، لا استطيع... أنا بحاجة أيضاً إلى ثلاثة روبلات... الحقيقة أني لم أكن أود أن أطلبها منك، لكنْ، إذا شئتَ، بابا...

أنتَ تعلم، مع ذلك...

نعم، بابا، لكن هذا شيءٌ استثنائي.

---

٢ - في السنة الخامسة: كانت تحسب الصفوف في روسيا ابتداء من الصف الأول.

أنا أعطيك ثلاثة روبلات، فيبدو لك ذلك قليلاً، عندما كنتُ في سنك لم أكن أحصل حتى على خمسين كوبيكاً.

لكن جميع رفاقي يملكون أكثر مما أملك بكثير، «بيتروف» و«ايفانيتسكي» يحصل كلٌّ منهما على خمسين روبلاً.

وأنا أقول لك إنك إذا تصرفتَ على هذا النحو فستصبح نصّاباً، هذا ما عندي.

نعم، أنتَ تقول لي دائماً الشيءَ نفسه، ولا تريد أبداً أن تفهم وَضعْي، تريد أن أنكث بوعدي، ألا يزعجك هذا.

انصرْف، يا تافه، اخرج من هنا!

وانقض فيدور ميخايلوفيتش على ابنه:

اخرجْ من هنا، أنت تستحق الجَلْدَ.

استولى الخوفُ على الولد، لكن إحساساً بالسخط تجاوز خوفه، فاتجه إلى الباب، مطرق الرأس، بخطىً سريعة.

لم يكن بنيَّة الوالد أن يضرب ابنه، لكن غضبه ملأه برضاً لا حدّ له، وتبعه خطواتٍ وهو يخاطبه بألفاظ فظّة، وبصوت قوي.

جاءت الخادمة لتُعلن له أن الطعام جاهزٌ.

أخيراً! لكني فقدتُ شهيتي.

قصد غرفة الطعام متجهّمَ الوجه، حاولت امرأتُه أن تكلّمه لكن أجوبته المقتضبة دمدم بها دمدمةً اسكتتْها، وحدّق الولد، طوال

العشاء، في صحنه، وظلّ صامتاً، أكلوا، ونهضوا دون أن يفوهوا بكلمة، وافترقوا.

بعد العشاء، عاد التلميذ إلى غرفته، وأخرج من جيبه ورقة العملة والقطع الفضية الصغيرة، وألقاها على الطاولة، ثم نزع معطفه ولبس سترته، وتناول كتاب قواعد لاتيني، في حالة سيئة، وأغلق الباب، ودسّ الورقة والقطع الفضيّة في الدرج، وأخرج منه أنبوباً للسجائر، ودفع فيه سداده من القطن، وبواسطة آلة، عمل سيجارة أشعلها.

استغرق في كتاب القواعد وفي دفاتره، مدةَ ساعيتين، دون أن يفهم شيئاً منها، ثم أخذ يتمشى في غرفته جيئةً وذهاباً، متذكراً مشاحنته مع أبيه، كان يسمع من جديد الكلمات الفظّة التي استخدمها أبوه، ويرى تعبير وجهه المنكر، وكأن النقاش كان يجري في هذه اللحظة نفسها، وكانت الكلمات: «نافه، أنتَ تستحق الجَلد» تعود إلى ذاكرته بلا انقطاع، وكذلك الاحتقار الذي استشعره نحو أبيه، وتذكّر أيضاً هذه الكلمات: «أرى أنك ستصبح نصّاباً» هكذا، اعلمْ ذلك».

آه! من السهل القولُ بأنني سأصبح نصّاباً، لقد نسيَ شبابه، وما جريمتي؟ الأمر بسيط، أردتُ أن أذهب إلى المسرح، ولم يكنْ معي مالٌ، فاقترضتُ المال من غروشيتسكي. ما الخطأ في هذا؟ لو كان أباً آخر لحاول أن يعْلم، أن يعْطف، لكن أبي أهانني، وذكّرني بشبابه، والأمر كذلك في كل مرة يكون فيها مهموماً، نراه يصرخ في البيت كله، وأنا نصّاب! لا، لستُ أحبّه، مع أنه أبي، لا أدري إن كان جميعُ الآباء هكذا، لكني لا أحب أبي.

قرعت الخادمةُ الباب وسلّمت التلميذ رسالةً، وقالت:

حامل الرسالة يطلبُ الجواب رأساً.

كانت الرسالة تحتوي هذه الكلمات:

«هذه هي المرة الثالثة التي أطلب إليك فيها أن تعيد إلي روبلاتي الستة، لكنك تتملّص، الشرفاء لا يتصرّفون هذا التصرّف، أرجوك أن تعيدها إليّ مع حامل هذه الكلمة، فأنا بحاجة ماسّةٍ إليها.

رفيقك الذي سيحتقرك أو يحترمك تبعاً لوفائك أو عدم وفائك لدينك».

«أرأيتَ إليه! ياله من خنزير! لا يمكنه الانتظار! سأحاول أيضاً».

قصد «ميتا» أمه، وكانت رجاءَه الأخير، إنها طيّبة، لا تعرف الرفض، ولعلها تستطيع إنقاذه، لكنها كانت مبلبلةً بسبب مرض ابنها بطرس الذي بلغ الثانية، فاستقبلتْ ميتا بالتوبيخ لأنه أحدث ضجّة عند دخوله، وقابلت طلبه برفضٍ صريح.

تَمْتم بضع كلمات بين أسنانه واتّجه إلى الباب، أشفقت الأمُ على ابنها ونادته:

اسمعْ، ميتا، ليس معي هذا المبلغ الآن، لكنك ستحصل عليه غداً.

أجاب الولد وهو يغلي حنقاً:

لستُ أحتاج إليه غداً، بل الآن، وفي الحال، اعلمي أنني سأذهب إلى رفيقٍ لي لأطلب هذا المال منه.

وخرج وهو يغلق الباب بصخب.

فكر ميتا وهو يجسّ ساعته في جيبه:

«لم تبق لي حيلةٌ، سيقول لي أني أستطيع أن أرهن ساعتي».

أخرج «ميتا» من الدرج ورقة العملة والقطع الفضيّة الصغيرة، وارتدى معطفه واتجه إلى المنزل الذي يسكن فيه صديقه «ماكين».

- ٢ -

كان ماكين تلميذاً بشارب، كان يلعب بالورق مع عشيقات ولم يكن يخلو من المال قط، كان يسكن عند عمّته، وكان ميتا يعلم أن ماكين شخصٌ سيء، ومع ذلك، ففي كل مرة كان برفقته، كان يطيعه دون قصْد.

عندما بلغ بيته، كان ماكين يستعدّ للذهاب إلى المسرح، وكانت غرفته الوسخة والخالية من النظام مشبعة برائحة الصابون المعطّر وماء الكولونيا.

أرى ميتا رفيقَه كلَّ ما يملكه، ورقة العملة والخمسين كوبيكاً، وأعلن له أنه بحاجة ماسة إلى تسعة روبلات.

قال ماكين بعد أن استمع إلى قصة الولد وعلم سبب حزنه:

هذه مشكلة بسيطة، وبالطبع فمن الممكن رهن الساعة.

وأضاف وهو يطرف بعينيه:

لكن هناك وسيلة أفضل.

وكيف ذلك؟

الأمر بسيط جداً. (وأخذ ماكين ورقة العملة)، يُوضع هنا ١ قبل ٢,٥ فتصبح هذه الورقة باثني عشر روبلاً ونصف.[٣]

وهل هذا الشيء ممكن؟

كيف لا؟ بل يمكننا أن نعمل أوراقاً بألف روبل، ولقد أفلحت في تصريف واحدة منها.

هذا لا يصدّق.

قال ماكين وهو يتناول ريشةَ كتابة ويملّس الورقة بأصابع يده اليسرى:

هيّا نفعل ذلك، أتريد؟

لكن هذا ليس حسناً مع ذلك.

يا للحماقة!

فكر ميتا وهو يتذكّر إهانة أبيه الذي نعته بالنصّاب: «هذا صحيح، ليكنْ، سوف أصبح نصاباً إذن؟

نظر إلى ماكين الذي كان يلاحظ بهدوء.

إذن، هيّا، هل تريد؟.

هيّا.

أكبّ ماكين ورسم الرقم ١.

---

٣ - كانت سلف الدولة تعطي خمسة في المائة، تدفع في قسائم كل ثلاثة أشهر. وكان لورقة المئتي روبل أربع قسائم كل قسيمة بروبلين ونصف ٢,٥ ولورقة الألف أربع قسائم كل واحدة باثني عشر روبلاً ونصف.

والآن هيا إلى المخزن القريب من هنا، في زاوية الشارع، عند بائع الأدوات التصويرية، فأنا بحاجة إلى إطار من أجل هذه الصورة.

وأراه صورة فتاة واسعة العينين، وافرة الشعر، رائعة الجسد.

ما ألطفها، أليس كذلك؟

نعم، نعم، لكن كيف...

الأمر بسيط جداً، هيّا.

ارتدى ماكين ثيابه وخرجا.

- ٣ -

فُتح الباب ودقت مجموعة أجراس، دخل التلميذان مخزن الأدوات التصويرية حيث كانت بعضُ الأشياء فقط معروضةً على الرفوف، وفي الواجهة الزجاجية وعلى مكاتب الصرافة، دخلت من الباب الخلفي، امرأة بشعة، لكن وجهها مفعم طيبةً، وقفت خلف أحد المكاتب وسألت الفتيين عما يريدان.

إطاراً جميلاً، يا سيدتي.

سألت وهي تنقّل بأصابعها المشوّهة بضع إطارات من أنماط مختلفة:

من أيّ سعر؟ هذه سعرها خمسون كوبيكاً، وهذه أغلى.

وهذه الإطارات الصغيرة من أحدث طراز تساوي روبلاً وعشرين.

أعطني واحداً منها، ألا يمكنك أن تخفضي لي السعر قليلاً، دّعيه لي بروبل.

قالت التاجرة باعتزاز:

الناس لا يكاسرون عندي.

قال ماكين وهو يضع ورقة العملة على المكتب:

طيّب، ليكن اللهُ معك، أعطيني الإطار، وردّي لي البقية بسرعة، نحن مستعجلان لأننا ذاهبان إلى المسرح.

قالت المرأةُ وهي تفحص الورقة بعينيها القصيرتي النظر:

ما يزال في الوقت متّسعٌ.

قال ماكين مخاطباً ميتا:

هذا الإطار يناسُبها، أليس كذلك؟

سألت البائعة:

أليس معكما ورقةٌ أخرى.

لا، مع الأسف، أعطاني إياها أبي، ويجب أن أصْرفها.

أليس معكما حقاً روبلٌ وعشرون،

معي خمسون كوبيكاً، أتخافين أن نعطيك ورقةً مزيّفة؟

لا، ابداً

إذن، اعطينا ورقتنا، سنصرفها في المكان آخر...

يبقى لكما...

أحد عشر روبلاً وبعضُ الروبل.

حسَبت البائعة، وفتحت الدرج، وأخرجت منه ورقة بعشرة روبلات، وفتّشت في كومة من العملة الفضية الصغيرة، وتناولت ستّ قطع من ذوات العشرين كوبيكاً، وقطعتين من ذوات الخمسة كوبيكات.

قال ماكين وهو يلمّ المال بسرعة:

أتريدين أن تصرّي لي هذا.

في الحال.

لفَّتْ التاجرة الإطار في ورقة وربطت الصرّة بخيط.

وعندما دقت أجراس المدخل، ووجد ميتا نفسه في الشارع مع ماكين تنفّس أخيراً بحرية.

هاك، خذْ عشرة روبلات ودَعْ لي الباقي، سأعيده إليك.

عند ذاك انصرف ماكين إلى المسرح، بينما ذهب ميتا إلى بيت غروشيتشكي وسدّد له دينه.

- ٤ -

بعد ساعة من ذهاب التلميذين، عاد صاحبُ المخزن ودقّق حسابات النهار، صاح بامرأته وهو يرى الورقة المزورّة.

آه! يا لك من حمقاء، يا لك من حمقاء، حقاً! لكنْ لماذا تقبلين الأوراق؟

أجابت المرأة مرتبكة، حزينة وهي توشك أن تبكي:

لكنكَ أنت نفسك كثيراً ما قبلتَ الأوراق، وأوراق الإثني عشر

روبلاً بالذات، وأنا نفسي لا أعلم كيف انخدعت بهذين التلميذين كان فتىً نحيلاً في مظهر لائق جداً.

دمدم زوجها وهو يحسب مال الصندوق:

وأنتِ أيضاً حمقاء «في مظهر لائق»، أنا أقبل الأوراق لأنني أرى بوضوحٍ وأعرف ما هو مكتوبٌ عليها، أما أنت فلم تكوني تنظرين إلا في وجهيْ التلميذين، في مثل سنّك!

حينئذ ثارت المرأة، ورمتْ زوجها بقولها:

أنت كالآخرين، تُنحي عليّ باللوم، لكنْ عندما تخسر في لعب الورق أربعةً وخمسين روبلاً، فليس ذلك شيئاً.

أنا، الأمر مختلف.

قالت المرأة:

لا أحب أن أسمع أكثر من ذلك.

وانسحبت إلى غرفتها.

عادت إلى ذاكرتها حياتُها الماضية كلها، تذكّرت أن أهلها عارضوا زواجها بهذا الرجل الذي كان وضعُه أدنى كثيراً من وضعها، وكم أصرّت لكي تتزوّج به، تذكّرتْ أيضاً موتَ ابنها واللامبالاة التي أبداها زوجُها حينئذ، تذكرت مدى احتقارها له بسبب هذه اللامبالاة حتى أنها فكرت في السعادة التي يمكن أن يوفّرها لها موتُ هذا الزوج.

أرعبتها كلُّ هذه الأفكار فأخذت ترتدي ثيابها بسرعة لتخرج، وعندما صعد زوجُها إلى الغرفة، لم يجدها فهي لم تشأ أن تنتظره،

وذهبت وحدها إلى منزل أستاذ اللغة الفرنسية الذي دعاهما إلى قضاء السهرة عنده.

- ٥ -

قدّم أستاذ الفرنسية، وهو من أصل بولوني، الشاي والحلوى لمدعوّيه، ثم تجمّع المدعوون حول بعض الموائد وأخـذوا يلعبون «الفنت».[٤]

جلست بائعة المواد التصويرية إلى طاولة جلس عليها رب البيت وضابط وسيدة عجوز صماء تضع شعراً مستعاراً، أرملة، صاحبة مخزن كبير لأدوات الموسيقا، مشغوفةٌ «بالفنت»، ومُتْقنةٌ لها، ساعدها الحظ هذا المساء بخاصة، فربحتْ جولتين، وكان قربها صحن ممتلئ بالعنب والإجاص، وبما أنها كانت تربح، فقد كانت ممتازة المزاج.

تُرى، ألن يأتي أوجين ميخايلوفتش؟

قالت ربة المنزل:

سوف نسجّله خامساً

أجابت زوجُ أوجين ميخايلوفيتش:

لعله مشغولٌ بحساباته بشراء المؤن والحطب.

عندما تذكّرت المشاحنة بينهما، أربدَ وجهها، وارتجفتْ أصابعها من الغضب.

---

٤ - الفنت: لعبة بالورق يلعبها أربعة أشخاص، شاعت في روسيا في القرن التاسع عشر، وقواعدها تشبه قواعد البريدج.

قال رب المنزل لاوجين ميخايلوفيتش الذي وصل لتوّه:

ذاكرتك قصيرةٌ، لقد تأخرت حقاً.

أجاب بمرح وهو يفرك يديه:

آه! كان علي أن أسوّي الكثير من الأشياء

ولشد ما دَهشت زوجُه حين اقترب منها وقال لها:

أتعلمين، تخلّصتُ من الورقة،

حقاً؟

نعم، أعطيتُها فلاحاً، في مقابل الحطب الذي سلّمني إياه.

وروى اوجين ميخايلوفتش للجميع بسخط - وكانت امرأته تضيف بدورها بعض التفصيلات - كيف أن تلميذين لئيمين خدعا امرأته.

وختم كلامه بقوله: وهو يّتخذ مكانه بين اللاعبين ويخلط الورق - والآن، لننتقلْ إلى أشياء أكثر جداً.

- ٦ -

سلّم اوجين ميخايلوفتش القيمة، بالفعل إلى فلاح هو ايفان ميرونوف.

وكان ميرونوف هذا يتاجر بالحطب، كان يشتري من مستودع المدينة ثلاثة أمتار مكعبة، ويبحث عن زبائن، ويبيع حطبه بعد أن يرّتبه بطريقة يربح معها في كل مرة قيمة خُمس المتر المربع، في هذا اليوم

خان الحظُّ ايفان ميرونوف فباع منذ الصباح ثلاثة أثمان المتر المكعب ثم عبّأ مرةً أخرى آملاً أن يجد زبوناً آخر، نقل بضاعته طوال النهار، فلم يجد مشترياً، ذلك أن جميع الذين كان يعرض عليهم عرفوا لعبته، وأبَوْا أن يصدّقوا أنه ينقل حطبه رأساً من القرية.

ولما كان يرتدي سترة مبطّنة بفرو بالٍ، ويحتذي جزمة ممزّقة من اللباد، فقد أصابه البرد بلباسه هذا، وأخذ الجوع يعضّه.

عند المساء نزل ميزانُ الحرارة إلى عشرين درجة تحت الصفر، وامتنع عن السير جواد الفلاح الذي لم يكن يرأف به، والذي كان ينوي أن يبيعه.

كان ايفان ميرونوف مستعداً لأن يسلّم خشبه حتى بالخسارة، عندما لقي اوجين ميخايلوفتش الذي كان راجعاً إلى بيته بعد أن اشترى تبغاً.

خذْ حطبي يا سيدي، سأتركه لك بسعر رخيص، فحصاني لم يعد قادراً على السير.

لكن، من أين أنتَ آتٍ؟

أنا من القرية حطبي جاف وجيّد.

نعم، نعم، كلانا يعرف الآخر، وكم تطلبُ به؟

حدد إيفان ميرونوف مبلغاً، وأنقصه، وأخيراً تنازل عن بضاعته بثمن الكلفة، وأضاف:

هذا حسنٌ لأنك أنتَ، يا سيدي، ولأنني لا يجب أن أحمله بعيداً:

بدا أوجين ميخايلوفيتش متساهلاً، مبتهجاً سلفاً بفكرة أنه سيصرّف الورقة المزيّفة.

ساعد إيفان ميرونوف جواده على دخول الفناء، وهو شيء لم يمرّ بلا صعوبة، وأفرغ الحطب في المستودع، كان البوابُ غائباً، تردّد الفلاح في قبول الورقة، لكن أوجين ميخايلوفتش كلّمه بلهجة جدّ مقنعة، وفرضتْ هيبتُه نفسها عليه فانتهى بأن أخذها، دخلا البهو مروراً بدرج الخدمة، ذابت قطع الثلج الصغيرة التي علِقت بلحية إيفان ميرونوف، ففكّ أزرار سترته، وأخرج من جيبه محفظة جلديّةً، وبعد أن أعاد للمُشتري ثمانية روبلات وخمسين كوبيكا، صرّ في محفظته الورقة، ورسم علامة الصليب.

شكر زبونه أحسن الشكر، وساط ببضع جلدات حصانه الذي حكم بيعه والذي كان يجرّ نفسه جراً يدعو إلى الرثاء، على قوائمه المجروحة والمضمّدة، واتّجه إلى حانة، طلب خمراً وشاياً بثمانية كوبيكات، ودفئ حتى عرق، وأخذ يحادث بمرح بواباً كان على طاولته، روى له أنه من قرية فاسيليفسكوي، على بعد اثني عشر كيلومتراً من المدينة، وأنه هجر أباه وإخوته أيضاً، وأنه يعيش مع زوجه وولديه اللذين أخذ أكبرهما يذهب إلى المدرسة وأنْ ليس له أحدٌ يساعده، وأضاف أنه سيقضي الليل هنا وأنه سيذهب في اليوم التالي ليبيع حصانه، وسيحاول شراء حصان آخر إن أمكن بل لقد بلغ به الأمر أنْ روى له أنه يحمل في جيبه خمسةً وعشرين روبلاً نصفها ورقٌ، وأخرجها من جيبه فأراها البوابَ، كان البوابُ أميّاً، لكنه كثيراً ما صرف مثل هذه الأوراق لمستأجريه، وكان يعلم أن الأوراق صحيحةٌ على العموم، وإن كان يوجدٌ منها ما هو مزور، ونصح الفلاح أن يدفع

إلى صاحب المقهى من هذه الورقة ليتحقّق منها إن كانت صحيحة أم مزورة.

فعل إيفان ميرونوف ما قيل له، لكن النادل لم يأته بالعملة الباقية، وجاء مكانه مدير الحانة، وهو رجلٌ ضخمٌ أصلع، أحمر الوجه، يحمل الورقة في يديه المفتولتين وقال وهو يُريه إياها، دون أن يردّها إليه:

ورقتُك غيرُ صحيحة.

الورقة صحيحة، وقد أعطاني إياها «سيّدٌ».

كلا، ليست صحيحة، إنها مزورة.

إن كانت مزوَّرة فأعدْها إليّ.

لا، يا أخي، يجب أن تتعلّم درساً، أنت مرتبطٌ بنصابين، لقد زورت ورقة عملة.

أعدْها إلي، بأي حقّ تتكلم هذا الكلام.

صاح المدير للنادل.

«سيدور»، ناد الشرطة بسرعة.

كان ايفان ميرونوف سكراناً ومهتاجاً جداً، قبض على المدير من رقبته وهو يصرخ:

أعد الورقة إليّ، سأذهب إلى بيت «السيد»، وأنا أعرف أين يسكن.

تمزّق قميص المدير وهو يجاهد للتخلص منه.

آه! الأمر هكذا! أوقفوه!

أمسك النادل بإيفان ميرونوف، وفي هذه الأثناء، وصل شرطيٌّ، فاصطنع الوقار وكأنه المفوّضُ بعينه، واستجوب إيفان ميرونوف واتّخذ قراراً:

إلى المفوّضية.

وضع الورقة في محفظته، وقاد إيفان ميرونوف إلى مركز الشرطة.

قضى إيفان ميروفوف الليل في المفوضية برفقة السكيّرين واللصوص.

وفي اليوم التالي، نحو الظهر، استدعاه مساعدُ المفوض الذي استجوبه وأرسله برفقة أحد أفراد الشرطة إلى بائع المنتجات التصويرية، وكان إيفان ميرونوف يتذكّر الشارع والمنزل.

استدعى الشرطيُّ أوجين ميخايلوفيتش، وقدّم له الورقة، وأراه إيفان ميرونوف الذي زعم أن هذه الورقة جاءت منه، بدا أوجين ميخايلوفيتش مدهوشاً جداً في أول الأمر، ثم اتّخذ مظهراً صارماً:

من الواضح أن هذا الرجل مجنون، إني أراه اليوم لأول مرة.

أخذ ايفان ميرونوف يردّد بلا كلل:

هذه خطيئةٌ، يا سيدي، سنموتُ جميعاً ذات يوم...

ما لهُ، يا ترى؟ كأنه ما يزال نائماً، لا شك أنك بعتَ حطبَكَ إنساناً آخر، على كل حال، انتظر، سأسأل امرأتي إن كانت قد اشترت حطباً أمس.

خرج اوجين ميخايلوفيتش ونادى بّوابه، وهو فتى جميل، قوي

مرح وماهر إلى أقصى حد، وقد أوصاه معلّمه أن يجيب، إذا ما سُئل من أين جاء الحطبُ، أنه قد اشتراه من المستودع لا من فلاح.

اعلمْ أن هذا الفلاح يُعلن أنني أعطيتُه ورقةً مزورة، إنه غبيّ جداً، والله أعلم بما يرويه، أنت رجل عاقلٌ وسوف تقول إننا اشترينا هذا الحطب من المستودع، كنتُ أريد أن أعطيك منذ زمن بعيد ما تشتري به سترةً جديدة.

ودسّ في يده خمسة روبلات.

أخذ فاسيلي المال، ونظر إلى الورقة ثم إلى وجه معلّمه، وهز شعره وابتسم ابتسامةً خفيفةً.

صحيح، الشعب، جبان ينقصُه التعليم، لا تقلقْ، أنا أعرف ما ينبغي أن أقوله.

توسل إيفان ميرونوف، والدموع في عينيه، إلى التاجر أن يعترف بورقته، وإلى البواب إن يثبّت أقواله، لكنهما أصرّا كلاهما على إفادتهما: لم يشتريا حطباً قطّ من الطنبر، عاد الشرطي بإيفان ميرونوف إلى المفوضية حيث اتُّهم بتزوير الورقة.

وبناءً على نصائح سكرتير سكران كان مسجوناً معه، حصل على إخلاء سبيله بخمسة روبلات دفعها لمساعد المفوّض.

وهكذا لم يبق له من الخمسة والعشرين روبلاً التي كان يملكها عشية أمس سوى سبعة روبلات، دخل حانةً وشرب بثلاثة روبلات، وعاد إلى زوجته سكران أشد السكر، متورّم الوجه، كانت حاملاً ومريضة، فأخذت تسبّ زوجها، دفعها بقسوة فضربته مرّات، لم يرّد عليها،

ونام على وجهه، وانتحبَ عالياً، في اليوم التالي فقط، علمت المرأة بما جرى لزوجها من حوادث، فصدّقته ولعنت طويلاً ذلك «السيّد» اللص، الذي خدع زوجها ايفان، أما هو فعندما صحا من سكره، تذكّر النصائح التي نصحه بها أحدُ الصُنّاع عشية أمس، عندما كان يشرب في الحانة، فقرر أن يذهب إلى محام ليقدّم شكوى.

- ٨ -

قبل المحامي القضية، لا من أجل المال الذي قد تحمله، بل لأنه كان يؤمن يصدق ايفان ميرونوف، لقد أثارته الطريقةُ الوقحة التي خُدع بها زبونُه، مثَلَ الطرفان المتخاصمان أمام المحكمة، وكان فاسيلي البواب شاهداً، حدث المشهد نفسه كما حدث سابقاً: استعان ايفان بالله مذكّراً أن جميع البشر فانون.

كان سموكوفنيكوف يعي حقارة فعلته، ويدرك الخطر الذي يتعرّض له، لكنه لم يكن يستطيع أن يتراجع عن إفادته السابقة وظل يُنكر والهدوء بادٍ عليه.

حصل البوابُ من معلمه على عشرة روبلات أيضاً، وكان يؤكد، وهو يبتسم، أنه لم ير أو يلمح ايفان ميرونوف قط، وعندما طُلب إليه أن يُقسم أمام الصليب والانجيل والكاهن القديم، ردّد بهدوء صيغة القسم:

أقسم أن أقول الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، وكل الحقيقة، وأصر على شهادة الزور، مع شعوره بخوف داخلي.

انتهت القضيةُ بحكم يردّ دعوى إيفان ميرونوف الذي حُكم، فضلاً عن ذلك، بدفع خمسة روبلات نفقات القضاء.

أخذ سمو كوفنيكوف على عاتقه دفع هذا المبلغ، كبادرة كريمة منه، ووجه رئيس المحكمة إلى إيفان ميرونوف توبيخاً شديداً، وحثّه بحدّة على عدم الافتراء على الأشخاص الشرفاء، وحمدَ كرمَ المتّهم الذي غفرَ له افتراءه إذ لم يلاحقْه أمام القضاء، وهو شيء كان سيؤدي إلى سجنه ثلاثة أشهر على الأقل، بل إنه لم يقتصر على ذلك، فقبل أن يتحمل نفقات القضاء.

قال ميرونوف بمذّلة وهو يطرق رأسه:

شكراً.

وغادر قاعة المحكمة.

كان يبدو إذن أن هذا الحادث قد انتهى نهاية حسنة لمصلحة سموكوفنيكوف وفاسيلي، لكن ذلك لم يكن سوى الظاهر، وبالفعل فقد نجم عنه أحداثٌ في منتهى الخطورة، أحداثٌ لم يكن يستطيع أحدٌ أن يتنبّأ بها.

كان فاسيلي قد ترك قريته منذ ثلاث سنوات وكان يعيش في موسكو، وكان ما يرسله إلى أهله من مال يتناقص من سنة إلى أخرى، وأبى أن يُحضر امرأته التي لم يكن يشتهيها.

وقد كان في المدينة من النساء بقدر ما يريد، نساء أجمل كثيراً من فلاحته، وأخذ ينسى تقاليد القرية ويتلاءم شيئاً فشيئاً مع الحياة البرجوازية.

كان يبدو له كل شيء، من جهة، فظاً، رمادياً، فقيراً، ورثاً ومن الجهة الأخرى كان كل شيء مرهفاً، جميلاً، غنياً ومنظّماً، وانتهى

فاسيلي إلى الاستنتاج أن القرويين محرومون من الذكاء البشري وأنهم يعيشون كالحيوانات المتوحّشة، كان يعتقد أن سكان المدينة وحدهم بشر، كان يقرأ روايات كتبها مؤلّفون مبدعون ويحضر أحياناً حفلات المسرح الشعبي، كل هذا غير موجود في الريف، حتى في الحلم.

في الريف، الشيوخ يأمرون ويقولون: «يجب أن تعيش مع زوجك، بموجب القانون يجب أن تعمل، يجب ألا تسرف في الطعام، ولا تكن مغروراً». أما في المدينة فالناس أذكياء، متعلّمون يعرفون القوانين، ويعيشون للذتهم، وكل شيء على مايرام.

كان فاسيلي، حتى جاءت الورقة المزيّفة، يرى أن البرجوازيين يرعون في الحياة قانوناً أخلاقياً ما، وكان يَحْسَب أن هذا القانون موجودٌ بالتأكيد، وإن يعرفه، لكن قضية الورقة المزوّرة ولا سيما شهادة الزور التي شهدها والتي لم تسبب له متاعب بل على العكس، وضع في جيبه عشرة روبلات - لكن ذلك ولّد في نفسه قناعةً بأن ليس هناك من قانون، وأن كل واحد يجب أن يعيش للذته، وهكذا بدأ يحيا حياةً كان يرغب في متابعة السير عليها، فهو أولاً قد اختلس مبالغ ضئيلة من جميع المستأجرين الذين عهدوا إليه ببعض المشتريات، لكن ذلك لم يُغطِّ نفقاته، وحينئذ بدأ يسرق المال والأشياء الثمينة حيثما وجدها، وقد بلغ به الأمر أن سرق محفظة سموكوفنيكوف، واكتشف سموكوفنيكوف السارق لكنه لم يبلّغ الشرطة، واكتفى بَصْرفه من العمل.

لم يشأ فاسيلي أن يعود إلى القرية، فذهب ليعيش عند عشيقته وبحث عن عمل، وأخيراً حصل على وظيفة بواب لدى صاحب دكان، وبعد شهرين من الخدمة لاحظ معلّمُه أنه كان يسرق الأكياس،

و لم يُلاحَقْ فاسيلي، هذه المرة أيضاً، أمام المحاكم، ضربه التاجر حتى أدماه ثم طرده، وظل زمناً طويلاً دون أن يعثر على عمل جديد، وفي هذه الأثناء أنفق كل ما يملك، وباع أفضل ثيابه، و لم يَبْق له سوى سترة بالية، وبنطال مثقوب. وقبعات. وبطبيعة الحال، تركتهُ عشيقته، بيد أن فاسيلي احتفظ بمعنويات حسنة، وعاد إلى مسقط رأسه مشياً، انتظاراً للربيع.

- ٩ -

نهض بطرس نيكولايفتش سفنتيتسكي، وهو رجل قصيرٌ لكنه قويٌّ، يضع نظّارة سوداء (كانت عيناه مريضيتن وكان مهدّداً بالعمى)، على عادته قبل الفجر، وشرب فنجاناً من الشاي، وارتدى سترة قبّتُها من جلد الخروف، وقصد أملاكه.

كان موظفاً في الجمارك، سنوات عديدة، ممّا أتاح له أن يدَّخر ثمانية عشر ألف روبل، وقد ترك وظيفته منذ اثنتي عشرة سنة، بالرغم منه، حينئذ اشترى ملكيّةً جميلة من ابن اقطاعي مبذّرٍ، كان قد تزوج وهو جمركي، وكانت امرأته قبل أن يتزوجها، يتيمةً، فقيرة مع أنها من طبقة النبلاء الصغيرة، وبعد سنين كثيرة من زواجها ظلّت جميلة، حسنة المظهر، و لم تُرزق أولاداً، وكان بطرس نيكولايفتش مثابراً وجدّياً في كل شيء وعندما اشترى ملكيته الكبيرة، لم يكن يعرف شيئاً في إدارة الأملاك (كان ابناً لنبيلٍ بولوني)، لكنه سرعان ما ألف حياته الجديدة، ونظم اقتصاده تنظيماً ممتازاً، وبفضل جهوده، غدت هذه الملكية التي تبلغ ثلاثمئة هكتار والتي كانت أيضاً أرضاً بائرة ملكيةً نموذجية في مدى عشر سنوات.

جميع الأبنية من الحظائر إلى مستودعات الحبوب وحتى المداخن

بُنيت بناء متيناً، وكانت السقوف من صفائح الحديد التي يُعاد دهنها في الوقت المطلوب، وكانت الطنابر والمحاريب والأقساط وعُدد الخيل الملمّعة مصفوفة بنظام في الحظيرة، وكانت جميع الخيول الصغيرة الغُبْر الخارجة كلها مِن مربط خيل بطرس نيكولايفتش كريمة الأصل، حسنة التغذية، وقوية، وكانت درّاسة الحبوب تعمل في المستودع المغطى، وكان الكلأ مكدّساً في حظيرة خاصة، وكان ماءُ الزبل يسيل من ذاته إلى حفرة موطّدة بالإسمنت، وكانت أبقار التربية صغيرة لكنها غزيرة الحليب، وكانت الخنازير من أصل انكليزي، وكان فناء الدواجن غنياً، ولا سيما بالدجاج البيّاض، أما الحديقة فقد غرسها بطرس نيكولايفتش بذاته، وكانت كل شجرة فيها مكلّسةً، كانت النظافة والنظامُ يسودان كل مكان في هذه الملكية، وكان كل شيء مطابقاً لمقتضيات الاقتصاد المتين الذي يُدار إدارةً حسنةً، كان بطرس نيكولايفتش سعيداً لهذه النتيجة وفخوراً بأنه توصّل إليها، لا باستغلال الفلاحين، لكن بتدليله على صرامة عادلة.

كان يَجْهر بآرائه المتحررة والمعادية للمحافظة بجلاء حتى بين النبلاء، ويدافع في كل مناسبة عن مصالح الشغيلة في نزاعهم مع الإقطاعيين.

كان يقول وهو يتحدّث عن الفلاحين:

كونوا طيّبين معهم، وسيكونون طيّبين معكم.

وصحيح أنه كان يقاوم هفوات عماله وأخطاءهم، وأنه كان يَفْرض عليهم نظاماً صارماً، لكنْ، بالمقابل، كان الغذاء والسكن اللذان يوفرّهما لهم ممتازين، وكان يدفع الأجرة بانتظام، وفي أيام الأعياد، كان يوزّع الفودكا.

كان سفنتيتسكي يسير باحتراس على الثلج الذائب، لأن الشهر كان شباط، متّجهاً إلى المساكن العمّالية، كان الجو ما يزال معتماً، وكان الضباب الكثيف يزيد من نصف العتمة، لكن النور كان يتسرب من نوافذ البيوت، نهض العمال، وكان بطرس نيكولايفتش يَنْوي أن يحثّهم، كان على العمال أن يذهبوا، كل سنة في جماعة، ليأتوا بالخشب من فرجة الغابة.

تساءل في نفسه وهو يرى باب الاصطبل مفتوحاً:

ما معنى هذا؟ مَنْ هنا؟

لم يُجِبْ أحدٌ.

دخل بطرس نيكولايفتش الاصطبل، وكرّر:

أيه! مَنْ هنا؟

الصمت وحده كان الجواب، كان الجو معتماً، والأرض رخوة تحت الوطء وكانت تُشَمُّ رائحةُ الزبل، إلى الباب، كان مربطٌ مخصّصٌ لمهرين أغبرين، مدّ بطرس نيكولايفتش يده فلاحظ أن المربط خالٍ، جسّ بقدمه، ظاناً أن المهرين كانا مضجعين، لكن قدمه لم تلقَ شيئاً.

وتساءل:

إلى أين يمكن أن يؤخذا، ياترى؟ إنهما لم يُربطا بعربة لأن الزلاجات ما تزال هنا.

خرج بطرس نيكولايفتش من الاصطبل ونادى:

أيه، ستيبان...

كان ستيبان رئيس العمال، أجاب، وهو خارجٌ من منزل عمالي:

حاضر، أهذا أنت، بطرس نيكولافتش؟ سيصل العمال.

لم الاصطبل مفتوحٌ؟

الاصطبل؟ لا أعرف، ايه! بروشكا، هات المصباح

هُرع بروشكا، ودخلوا الاصطبل جميعاً، فهم ستيبان مباشرة:

لقد دخل اللصوص الاصطبل، فالقفل مكسورٌ.

مستحيل.

نعم، اقتاد قُطّاعُ الطرق تلك الخيولّ. «باشكا» ليس هنا، و«فوكون» غير موجود أيضاً... لا إنه هنا وسُرق «بيغار»، وكذلك «بوتي».

اختفت ثلاثة جياد، لم يكن بطرس نيكولايفتش يقول شيئاً، وغدا تنفّسه صعباً، وأربد وجهُه.

آه! ليتني أقبض عليهم! مَنْ كان الحارس؟

بافل، لقد أغفَى

توجه بطرس نيكولايفتش إلى الشرطة، وإلى حاكم المقاطعة، وأرسل رجاله بحثاً عن الخيول، فلم يقعوا على أثر لها.

قال سفنيتسكي:

ياله من شعب قذر! ماذا فعلوا؟ مع أني كنت دائماً طيباً معهم، انتظروا، وسترون، جميعكم قطّاع طرق، الآن سأتصرف تصّرفاً آخر معكم.

بيد أن الخيول الثلاثة قد صُرفت: بيع «باشكا» للغجر بثمانية عشر روبلاً، وبودل بالحصان الأغبر، فأخذه فلاح يسكن على بعد أربعين كيلو متراً من هنا، أما «بوتي» فقد ذُبح وبيعت الذبيحة بثلاثة روبلات، وكان رئيس اللصوص ايفان ميرونوف الذي خدم عند سفنيتسكي، وكان يعرف ملكيته معرفة تامة، وقد نظّم هذه السرقة كتدبير انتقامي ليسترد المال الذي ابتّزه منه أحدُ البزجوازيين.

إن المصائب التي جرّتها الورقة المزيّفة على ايفان ميرونوف دفعته إلى إدمان الخمر، كان سيبيع كل شيء ليشرب به لو لم تخبّئ امرأته الثياب وعُدَد الخيل، وعلى العموم كل ما يُحوّل إلى مال، وكانت حالةُ السكر المستمرة لا تمنع إيفان ميرونوف لامن أن يفكر في الذي خدعه وحده، بل ويضافي جميع «هؤلاء السادة» وخدمهم الذين كانوا ينهبون إخوتهم لكي يحيوا حياةً مرفّهة.

بينما كان ايفان جالساً إلى مائدة، ذات يوم، هو وبعض فلاحي مقاطعة «بودولسك»، روى الفلاحون الثملون بالتفصيل كيف سرقوا الخيول من فلاحٍ، ثار ميرونوف ولامهم، وقال:

هذه خطيئة، الجوادُ صديقُ الفلاح، إن أخذْتَهُ منه أفضيتَ به إلى الشقاء، فإذا شئتم أن تسرقوا، فالأوْلى بكم أن تذهبوا إلى بيوت الإقطاعيين، هذه الكلاب تستحق ذلك.

استمر الحديثُ، وأعلن الشاربون أن من العسير سرقة الخيول من بيوت الاقطاعيين، إذ لابُدَ من معرفة مداخل أملاكهم ومخارجها، وهو أمر غير ممكن إلا إذا تواطأ بعضُ مستخدميه، حينئذ تذكّر ميرونوف سفينتيتسكي الذي اشتغل عنده والذي خصم عليه خمسين كوبيكاً

لأنه كسر سطام النار، يوم ترك خدمته، وتذكّر أيضاً الجياد الشهب التي عُني بها.

قدم ايفان ميرونوف إلى منزل سفينتيتسكي متذرّعاً بأنه يَرْغب في العودة إلى العمل، لكنة في الواقع لاحظ الأماكن ليحسن تدبير خطته، وعلم أيضاً أن الاصطبل لم يكن محروساً حراسةً جيدة، وجاء باللصوص ونفّذ مقصده، وُزِّعت الغنيمة، فحصل ايفان على خمسة روبلات وعاد إلى بيته، لم يكن عنده جواد و لم يكن لديه ما يعمله في البيت، انضمّ إلى عصابة لصوص الخيول وارتبط بالغجر.

- ١١ -

لم يدّخر ايفان بيتروفتش سفنتيتسكي جهداً من أجل اكتشاف المذنبين، كان مقتنعاً أن السرقة ما كانت لتتّم لولا تواطؤ أحدُ خدمه، علم، مثلاً، أن بروشكا - وهو شاب، جميل، ماهر - الذي أنهى خدمته العسكرية قبل فترةٍ وجيزة، وكان يعمل خوذياً عندما يخرج، لم يأو إلى بيته أثناءَ ليلة السرقة، كان قائد شرطة المنطقة صديقاً لسفنتيسكي الذي كان يعرف أيضاً عريف الدرك، ونائب الحاكم، وقائم مقامه، كل هؤلاء الموظفين زاروا سفنتيتسكي يوم عيد ميلاده وقدّروا الأطعمة المتنوعة الشهية والأشربة التي قُدمّتْ إليهم، شاركوه همومه، وكانت منيتهم أن يساعدوه.

قال له العريف:

في الحقيقة، كنت تدافع عن الفلاحين، ألم أقلْ لك دائماً إنهم كالحيوانات؟ ولن تحصل على شيء منهم بلا سوط ولا عصا، ساورتك الشكوكُ حول بروشكا، هذا الذي كان يعمل حوذياً؟

نعم

استدْعه.

جاء بروشكا، فسُئل:

أين كنتَ في تلك الليلة؟

هزّ بروشكا رأسه، وكانت عيناه تلمعان، وأجاب:

في البيت

كيف، في البيت؟ جميعُ الخدم يزعمون أنك كنت غائباً.

كما تشاؤون.

ليست القضية ما أشاؤه، يجب أن تقول لنا أين كنت

في البيت.

طيب! سوتسكي[٥]، خذْه إلى الشرطة.

كما تشاؤون.

إذا كان بروشكا لم يُردْ أن يقول أين كان في تلك الليلة، فلأنه وعد عشيقته «باراشا» ألاّ يشوّه سمعتها، وقد وفى بوعده، وبما أنه لم يقم الدليلُ عليه فقد أخلى سبيلَه، لكن سفنتيتسكي كان على يقين من أنه هو ذاته الذي نظّم السرقة، وكان يحتقره.

أرسله سفنتيتسكي، ذات يوم، إلى السوق، على عادته، ليشتري شليماً عند صاحب النزل، أعطى بروشكا ثلاثة أرباع المال للخيول وشرب بالربع الباقي، ولما علم سفنتيتسكي بذلك، تقدم بشكوى إلى

٥ - سوتسكي: (قائد مائة) فلاح تنتخبه القرية ليقوم بمهمات الشرطي فيها.

قاضي الصلح، كان الشاب كثير الحب لذاته، وكان يظن نفسه فوق الذين يحيطون به، وكان فخوراً بذلك، أذلّتْه إقامتُه في السجن، ولم يبق من مسوغ لاعتزازه بنفسه، وانحطّ أخلاقياً.

خرج بروشكا من السجن، ممتلئاً بالحقد على العالم كله، وبحقدٍ أشدّ على معلمه.

وتغيَّرَ كليّاً: تدنّى أخلاقياً، وغدا كسولاً، وفقد ميله إلى العمل، وتعاطى الكحول، وبعد زمن قليل اتُّهم بأنه سرق ثياب برجوازية، فعاد إلى السجن.

في هذه الأثناء، علم سفنتيتسكي أنْ قد عُثِر على جلد «بوتي»، وهو جلد تعرّفه صراحةً، فثار على الذين تركوا اللصوص بلا عقاب، أخذ الآن يكره الفلاحين، وكان يحاول، في كل مناسبة أن يضطهدهم بالأقوال أو بالأفعال.

- ١٢ -

كفَّ اوجين ميخايلوفتش عن التفكير في الورقة المزيّفة، لكن امرأته ماري فاسيليفنا لم تهدأ قط: ظلّت تلوم نفسها على انخداعها على أيدي صبيّين نصّابين، ولم تتمكن من نسيان الكلمات الجارحة التي وجّهها زوجُها إليها آنذاك.

منذ أن كانت ضحيّة هذين التلميذين أخذت تمعن النظر في جميع التلاميذ أينما وُجدت، وذات يوم، صادفت ماكين، لكنه حين رآها، غيَّرَ من شكل وجهه حتى أنها لم تتعرَّفه، وبعد أسبوعين من تصريف الورقة المزورة التقت ميتيا سيموكوفنيكوف، وجهاً لوجه، فتعرفته، وتركته يسير وتبعته حتى مسكنه، وهكذا علمت ابن منْ هو، وفي

اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة، وقابلت أستاذَ الديانة والأخلاق ميشيل فيدنسكي الذي سألها عن سبب مجيئها، فأعربت له عن رغبتها في مقابلة مدير المدرسة شخصياً.

أجابها ميشيل فيدنسكي:

المدير غائب، إنه مريض، لكن ربما استعطتُ أن أنقل إليه المهمة التي جئت من أجلها.

حينئذ قررت ماري فاسيلييفنا أن تروي له القصة كلها.

كان الأب فيدنسكي أرملاً، أكاديمياً، وكان يحبّ ذاته كثيراً، في السنة الماضية، لقي والد ميتيا، في أثناء اجتماع، وثار بينه وبين سموكوفنيكوف نقاش يتّصل بمسألة دينية، تحوّل إلى غير مصلحة الأستاذ، لقد دحض والد ميتيا أطروحاته الدينية وجعله أضحوكة.

حول فيدنسكي نغمته إلى التلميذ الذي كان ملحداً مثل أبيه، ورسَّبه في امتحان الديانة.

سرّته الأنباء التي حملتْها إليه ماري فاسيلييفنا سروراً عظيماً، رأى فيها دليلاً على انحطاط الذين لا يعترفون بسلطة الكنيسة، وقرّر، مستعيناً بهذا المثال، أن يبرهن على الخطر الذي يترّصد جميع الذين ينكرون دور الكنيسة التهذيبي.

الواقع أنه لم يكن في أعماق نفسه سوى الرغبة في معاقبة هذا الملحد المتكبّر بقسوة.

كان الأب ميشيل يقول، ويده موضوعة على الصليب الذي يزين صدره:

نعم، هذا محزنٌ، أنا مسرورٌ لأنكِ أخبرتني بهذه القضية، وأنا، سأبذل وسعي، بصفتي خادماً لكنيسة، لكي يصلح الولد غلطه، بفضل نصائحي، هذا من جهة، لكني سأحاول، من جهة أخرى أن تكون عقوبته في الوقت نفسه من أخف العقوبات.

في اليوم التالي، وأثناء درس الديانة، روى فيدنسكي للطلاب قصة الورقة المزيفة كاملةً وأضاف أن الفاعل تلميذٌ في المدرسة، وقال:

- هذه فعلةٌ دنيئة وحقيرة، لكن إخفاء الخطأ يزيد من خطورة الخطأ، يشقّ علي أن أصدّق، لكنّ المجرمَ إن كان بينكم فالأوْلى به أن يتوب بدلاً من أن يحاول إخفاء جريمته.

كانت عينا فيدنسكي تحدقّان في ميتيا سموكوفنيكوف وهو يتكلم، كذلك التلاميذ حطّوا نظراتهم عليه، احمرّ ميتيا، وتغطى جبينه بالعرق، ثم هرب من الصف وهو يبكي.

علمت السيدة سمو كوفنيكوف، من فم ابنها، الحقيقة كلها، فقصدت مباشرة دكان بائعة الأدوات التصويرية، ودفعت اثني عشر روبلاً ونصف لماري فاسيلييفنا وحصلت على وعد منها بعدم كشف اسم ابنها، وأوصت ابنها بأن ينكر كل شيء وألاّ يعترف بغلطته لأبيه.

وبالفعل، فعندما علم فيدورميخايلوفتش سمو كوفنيكوف، بما جرى في المدرسة، نادى ابنه، فنفى الابنُ نفياً قاطعاً، حينئذ ذهب الأب لزيارة مدير المدرسة، وعرض له الوضع، وصرح بأن سلوك أستاذ الأخلاق غير مقبول وأنه يستحق اللوم الشديد، وحذّره بلهجة متهدّدةٍ أن القضية لن تقف عند هذا الحد.

استدعى مديرُ المدرسة الأب فيدنسكي، ونجم عن ذلك استيضاح عاصفٌ بين الأستاذ وفيدورميخايلوفتش، الثائر.

امرأة حمقاء تتّهم ابني، وتعترف هي نفسها بخطيئتها، فلم تجدْ أنتَ شيئاً أفضل من الافتراء على ابني الشريف البريء.

لم أفتر عليه قط، وأنا أمنعك، على كل حال، من تكليمي بمثل هذا الكلام، أنت تنسى صفتي.

إني أبصق على صفتك.

أجاب الأبُ فيدنسكي الذي أخذت ترتجف ذقنه ولحيته المفرّقة الشعر:

إن آراءك المجرمة معروفةٌ في المدينة كلها.

قال المدير الذي حاول تهدئة المتخاصمين:

أيها السيد، أيها الأب!

إن واجبي الديني هو أن أعطي الطلاب تربيةً أخلاقية ودينية، أنتَ تضع قناعاً، وأنا أعلم تماماً أنك لا تؤمن لا بالعناية الالهية ولا بالموت.

كان سموكوفنيكوف ساخطاً بصدق على موقف الكاهن من ابنه، كانت هذه الحالة توضّح في عينيه الطرائق الجدية للنشاط الكهنوتي، وكان سخطه يزداد أيضاً حين كان يفكر بتأثير رجال الدين المتزايد في الشعب، ولكي يحارب هذا التأثير روى لجميع الناس حالة ابنه.

وكان الأب فيدنسكي يرى الإلحاد والعدمية يمتدان لا إلى الشباب فحسب، بل وأيضاً إلى الجيل الناضج، ممّا قوّى اقتناعه بوجوب

محاربتهما بكل الوسائل، وكان كلما انتقد إلحادَ سموكوفنيكوف وأمثاله ازداد ثقة بصحة آرائه وعصمتها من الخطأ، لم يكن يشعر بأية حاجة للتحقق من إيمانه الخاص، ولمحاولة الامتثال لقواعده.

هذا اليقين، الذي قاسمه إياه من حوله، كان السلاح الرئيسي الذي استخدمه لمحاربة الذين لا يفكرون مثله.

هذه القناعات التي وطّدها نقاشه مع سموكوفنيكوف، ومتاعب المدرسة، وتوبيخ المدير، كل ذلك حداه أن ينفّذ الفكرةَ التي وُلدتْ فيه يوم وفاة زوجه: الترهب واعتناق الحياة الدينية على غرار رفاقه الكثر في الأكاديمية الذين غدا رئيس دير، والآخر مرشحاً للأسقفية.

وفعلاً، قدّم فيدنسكي استقالته، وفي آخر السنة الأكاديمية وغدا راهباً باسم «ميسايل» وبعد وقت قليل عُيِّن مدير مدرسة دينية في مدينة بمنطقة «الفولفا».

- ١٣ -

في هذه الأثناء، كان فاسيلي، البواب، يسير على الطرق الرئيسية نحو الجنوب.

كان يمشي طوال النهار، وفي الليل كان مساعدو العمدة يؤمنون له، في القرى، غرفة لينام، وكان الناس يعطونه خبزاً حيثما ذهب، وكانوا يدعونه أحياناً ليشاطرهم طعامهم، وفي قرية من مقاطعة اورلوف قضى الليل فيها، علم أن تاجراً استأجر بستان الإقطاعي كان يبحث عن حرّاس أشدّاء، وكان فاسيلي قد تعب من التسول، إلا أنه لم يشأ أن يعود إلى بيته، قدّم نفسه إلى التاجر البستاني الذي

استخدمه بخمسة روبلات في الشهر، بدت الحياة في كوخ للحراسة ممتعة لفاسيلي إلى حدّ غريب، وبخاصة عندما بدأت الثمار تنضج، وعندما أعطاه الخدم فراشاً مريحاً.

كان يظل طوال النهار مستلقياً على هذا الفراش الليّن والعطر، بجنب كومة من تفاح الصيف والشتاء، مشغولاً فقط بالسهر عليها، كي لا يسطو عليها السوقةُ، وبالصفير والغناء، وكان فاسيلي يعرف الكثير من الأغنيات وكان صوته جميلاً، كانت فتيات القرية ونساؤها يأتين بحثاً عن التفاح، وكان فاسيلي يمازحهن، وكان يعطي تفاحاً أكثر لمن كن ينظرن إليه بعطف، أو كان يبادل البيضّ بالتفاح، أو يبيع التفاح ليحصل على بعض الكوبيكات ثم يعود إلى النوم، وكان لا ينهض إلا للفطور والغذاء والعشاء.

كان قميصه القطني مثقباً، وكان حافي القدمين، لكن جسمه كان قوياً، سليماً، وعندما كان يُرفع قد البرغل عن النار، كان يأكل كثلاثة، وكانت شهيته تدهش الحارس القديم، كان فاسيلي لا يكاد ينام أثناء الليل، كان يصفر يصرخ، وكانت عيناه الثاقبتان كعيني الهر، تريان بعيداً في الظلمة، وذات يوم، دخل أولادُ القرية البستان وأرادوا أن يهزوا شجرات التفاح، فاقترب فاسيلي منهم خلسةً وانقضّ عليهم، وأرادوا أن يقاوموه لكنه فرّقهم، وقبض على واحد منهم وقاده إلى المعلّم.

كان أحد كوخي الحرّاسة يقع في طرف البستان، والآخر على نحو أربعين متراً من بيت الإقطاعي، وكان يأوي إليه بعد قطاف الثمار، وجد فاسيلي الكوخ الثاني أكثر إمتاعاً بكثير، كان يرى طوال النهار سادةً وفتياتٍ يلهون، يمتطون الخيل، يتنزهون، يعزفون على البيانو والقيثار،

وفي المساء يغنّون ويرقصون، كان يرى فتيات وتلاميذ جالسين أمام النوافذ، يتبادلون المداعبات، وأزواجاً يغيبون في الممرّات المظلمة التي تحف بها أشجار الزيزفون والتي لا ينفذ إليها سوى أشعة القمر، وكان يلاحظ أيضاً الخدم يركضون ويحملون الطعام والشراب، والطهاة، والغسّالات ومديري الأعمال، والبستانيين والحوذيين، يعملون بلا انقطاع، لغاية واحدة هي أن يقدّموا لهؤلاء الناس ما يأكلونه وما يشربونه وما يلهون به، وكان بعض الشباب يأتون أحياناً ليروه في كوخه، وكانوا يختارون أفضل التفاح، القاني الحمرة، وكان ينظر إلى الآنسات وهن يقرش الثمار بشهية، فيجدنها لذيذة، ويبدي آراء هو بالفرنسية، قد كان فاسيلي يدرك أنهن يتحدثن عنه، وكُنّ يَحْملنه على الغناء، وكان البواب يعجب بذلك كله، ويتذكّر حياته في موسكو، وكانت تزداد رسوخاً فيه كل يوم فكرةُ أن كل شيء منوط بالمال.

وأخذ فاسيلي يبحث أكثر فأكثر عن الوسيلة التي يكسب فيها المال بسرعة، كان يتذكر بأية طريقة حصل عليه حتى الآن، وفهم أنه لا ينبغي له أن يتصرف بعد الآن كما تصرّف: لا ينبغي له أن يأخذ ما هو في متناول النظر، كان الأفضل أن يفكّر في الوسيلة التي يعرف بها أين يوجد المال، وأن يوفّق في فعلته بدقة دون أن يترك آثاراً.

قُطفت آخر الثمار، في يوم الصعود، سرّح المالك الذي حقّق أرباحاً طائلة، جميع الحرّاس.

ارتدى فاسيلي ثيابه - أهداه ابنُ المعلم سترة وقبّعة - لكنه لم يشأ أن يعود إلى البيت، التفكير في حياة الفلاحين الكئيبة وحده كان يثير فيه الغثيان، رجع إلى موسكو بصحبة بعض رفاق العمل، وهناك قرّر أن ينهب المخزن الذي كان يعمل فيه، والذي فاجأه صاحبه يسرق،

وضربه وصرفه دون تعويض، كان يعرف المواضع وبقرف في أي موضع يودع المال، وبينما كان أحدُ رفاقه يقوم بالرصد، بعد كسر القفل، دخل من النافذة إلى الدكان وأخذ كل المال الذي استطاع أن يعثر عليه، فأعطى رفيقه مئة روبل، ووضع في جيبه باقي السرقة، مئتين وسبعين روبلاً، وقصد رأساً مدينةً أخرى حيث تعاطى الشراب، بصحبة الكثير من الأصدقاء والصديقات.

- ١٤ -

في هذه الأثناء أصبح ايفان ميرونوف سارق خيول جدّ جريء وجدّ ماهر، أما امرأته آفيميا، التي كانت تلومه في البدء على عدم استقامته، فقد غيّرت رأيها: أصبح له الآن بلوزةٌ مطرزّة، وشال ومعطف جديد من الفرو، وكفاها هذا لتكون سعيدةً وفخورةً بزوجها.

كانت القرية كلها، والمنطقة كلها تعلم أنْ لا سرقة تُركب ما لم يشاركْ فيها ميرونوف، لكن لم يكن يجرؤ أحدٌ على اتهامه، وكانت الشكوك تَبْهظه أحياناً، لكنه كان يستطيع أن يتخلص من المأزق، وقد أقدم على آخر سرقاته في «كولوتوفا»، وعندما كان يتوفر لميرونوف إمكان اختيار ضحاياه، فقد كان يفضل دائماً أن تكون من بين الإقطاعيين والتجار، لكن عندما كان من الصعوبة بمكان أن يتصدّى لهم، فإنه لم يكن يتردّد في سرقة الفلاحين، وهكذا، نظّم، بواسطة شريك، هو «غير اسيم» الماهر، سرقته الأخيرة للخيول في «كولوتوفا»، و لم يتبيّن الفلاحون غياب الخيول إلا عند الفجر وأخذوا يبحثون عنها في جميع طرق الأرباض المحيطة، كانت الخيول في واد من وديان الغابة، وكان ايفان ميرونوف ينوي أن يبقيها فيه حتى الليل ثم يسوقها بعد ذلك إلى بعد أربعين كيلو متراً عن هذا المكان، إلى بيت بواب هو

شريكه، زار «غير اسيم» الذي كان يقوم بالحراسة، وحمل إليه طعاماً وفودكا، ولكي لا يلقى أحداً، سلك درباً ضيّقةً تُفضى إلى بيت، لكن المصيبة أن حارس، الأحراج رآه، فسأله:

آه! جئت تبحث عن الفطور؟

أجاب ميرونوف وهو يشير إلى كيسٍ جاء به مصادفةً:

نعم، لكنني لم أجد شيئاً.

وأردف الحارس وهو ينأى:

بالفعل، فالفطور ناردةٌ في هذا الصيف.

لكنه أدرك أن شيئاً مشبوهاً كان يجري، إذ ليس من سببٍ يسوّغ نزهة ميرونوف المبكّرة في غابة الدولة، وأخذ الحارس يستكشف الغابة، وسرعان ما وصل إلى أطراف الوادي وسمع صهيل الخيل، اقترب بحذرٍ من المكان الذي جاءت منه الأصوات، فرأى آثار الخيل، وتقدّم أكثر فاكتشف غير اسيم أخيراً وهو يأكل، ودابتين مربوطتين بشجرة.

أسرع الحارسُ إلى القرية وجاء بالعمدة ومفوض الشرطة وشرطيين، طوّقوا المكان الذي كان فيه السارق وألقوا القبضَ عليه، فروى لهم غير اسيم، وهو سكران، كلَّ شيء، قال لهم كيف أن ايفان ميرونوف سقاه، وأقنعه بارتكاب السرقة، وأضاف أن ميرونوف سيعود ليبحث عن الخيل، فأمر الشرطةُ غيراسيم أن يظلَّ في مكانه، ونصبوا كميناً للقبض إلى ايفان ميرونوف، عند هبوط الليل، سُمع صفيرٌ، فأجاب غيراسيم، حينئذٍ نزل ايفان ميرونوف الوادي، وفي هذه اللحظة،

انقضّ عليه الرجالُ المختبئون وقبضوا عليه واقتادوه إلى القرية، وعند الصباح، اجتمع أمام دار العمدة جمعٌ من الفلاحين.

بُدئ باستجواب ايفان ميرونوف أمام الجمهور، سأله قبل الجميع «ستيبان بيلاجيوسكين»، وهو رجلٌ طويل، مقوّس الظهر قليلاً، ذراعاه طويلتان، وأنفه كأنف النسر، وعلى وجهه تعبير قاس، هو فلاح أنهى خدمته العسكرية قبل حين، لقد ترك أسرته لينشئ بيتاً لنفسه، لكن جواديه سُرقا منذ البدء، ثم اشتغل عاملاً في منجم وفي مدى عام من العمل المُضني، استطاع أن يشتري حيوانين آخرين وعاد إلى البيتً، فسُرق الجوادان من جديد.

سأل ستيبان، وهو ممتقع من الغضب، يحدّق، وقد بدت القسوةُ عليه، في الأرض حيناً وفي ايفان ميرونوف حيناً آخر:

قُلْ، أين خيلي.

ظل هذا يُنكر، حينئذ ضربه ستيفان على وجهه فكسر أنفه، وأخذ الدمُ يسيل بغزارة.

قل أين هي، وإلا قتلتكَ.

لزم ايفان الصمتَ، وهو مطرق الرأس، ضربه ستيبان بيديه الطويلتين مرة، مرتين، كان السارق يلقى رأسه إلى هذه الجهة تارة، وعلى تلك تارة أخرى، مُصرّاً على صمته.

صاح العمدةُ:

اضربوه جميعاً.

فأخذ الجميعُ يضربونه، انهار ايفان ميرونوف وهو يصرخ:

متوحّشون، شياطين، اضربوني حتى أموت، لن تُخيفوني، حينئذ تناول ستيبان حجراً وكسر جمجمة ميرونوف.

- ١٥ -

مَثُل القتلةُ أمام المحكمة.

كان ستيبان مستحقّاً لأشد العقوبات، لأن الشهود أجمعوا على أنه هو الذي أجهز على ايفان ميرونوف حين ضربه بحجر، و لم يُخف ستيبان شيئاً عن المحكمة، وروى أن سُرق مرتين وأنه أعلم الشرطة، وأن الشرطة لم تفعل شيئاً لاكتشاف الجُناة.

وماذا تفعلون بمثل هؤلاء اللصوص؟ لقد خربوا بيوتنا. سأل النائب العام.

لَمَ لمْ يضربْه الآخرون، و لم ضربتَه أنت وحدك؟

ليس هذا صحيحاً، كلهم ضربوه، كلهم أرادوا موته، أنا أجهزت عليه فقط، وكان شيئاً غير مجدٍ أن ندعه يتألم أكثر مما تألم.

إن صراحته، وكونه اعترف بجرمه، والهدوء المطلق الذي عبّر فيه عن نفسه كل ذلك ترك أثراً في المحكمة، والحقّ أن ستبيان لم يكن يرى في قتله لميرونوف ما يستوجب اللوم، وأثناءَ خدمته العسكرية أعدم بالرصاص بعضاً من رفاقه الذين حُكموا بالإعدام، لم يكن في ذلك ما يُرعبه، قُتلَ رفيقٌ؟ لا بأس! اليوم هو وغداً سأكون أنا.

حُكم على ستيبان بعقوبة خفيفة: السجن تسع سنوات، أخذت منه ثيابُ الفلاح التي رُقّمت وأودعت السجن، وتسلّم بدلاً منها وزرة السجناء وقبقابهم.

لم يكن ستيبان يحترم الإدارة، لكنه اقتنع، في الوقت الحاضر، أن جميع أعضاء السلطة، جميع السادة، جميعهم ما عدا القيصر الذي كان يرأف برعاياه وكان عادلاً، لصوص يمتصّون دم الشعب، ورسخّت هذه القناعة قصصُ المنفيين وسجناء الأشغال الشاقة الذين لقيهم في السجن، لقد أرسل أحدُهم إلى سجن الأشغال الشاقة لأنه تجرّأ على كشف جرائم الإدارة، وأُرسل آخر إليه لأنه ضرب موظّفاً استولى ظلماً على ملكية فلاح، وثالثٌ لأنه زورّ حوالةً، كلُّ شيء كان مباحاً «للسادة» والتجار، أما الفلاحُ فهو يُرسَلُ إلى سجن الأشغال الشاقة أو السجن العادي من أجل شيء تافه، ليأكله القمل، كانت امرأة ستيبان تأتي لتزوره، كان عسيراً عليها أن تطعم أولادها وحدها، كان البؤس يتفاقم في بيتها وانتهى بأن جلب الخراب الكامل، غدا ستيبان الذي لم يكن يجهل مُصابَ ذويه، عصبيّاً، كاد يضرب الطاهي بالفأس، ذات يوم، ضرباً مميتاً، فاستحق على ذلك سنة سجن إضافيّة، في هذا الوقت علم بموت امرأته وبأن بيته قد دمرته نيرانُ الحريق.

بعد أن أمضى ستيبان مدة العقوبة، دُعي إلى مستودع السجن حيث سُلِّم ثيابه.

سأل الحارس وهو يستلمها:

إلى أين سأذهب الآن؟

الأمر واضح: إلى بيتك.

لم يعدْ لي بيت، لابد لي من أن أجوب الدروب لأنهب الناس،

قطع الطريق يُعيدك إلينا.

سنرى، سنرى...

انصرف ستيبان، اتّجه بالرغم من كل شيء، إلى بيته، لم يكن يعلم في الحقيقة، إلى أين يذهب.

وقبل أن يبلغ قريته، دخل نزلاً يعرفه ليقضي الليل، كان صاحب النزل برجوازياً قصيراً وسميناً من فلاديمير، كان يعرف ستيبان ويعلم أن البؤس وحده هو الذي قاده إلى السجن، فاستضافه تلك الليلة.

صاحب النزل هذا كان قد اختطف امرأة فلاح فقير ثم جعل منها خليلته وخادمته.

لم يكن ستيبان يجهل هذه القصة المحزنة، وكان قد علم كيف أهان هذا البرجوازي الثريُّ الفلاحَ الفقير، وكيف هجرت «ماترينا» الحقيرةُ زوجَها، كانت الآن جالسة على مقعد تشرب شايها وهي تتصّببُ عرقاً، فعرضت الشاي على ستيبان، شفقةً منها لم ينزل في النزل أيُّ مسافر، هذه الليلة، سُمح لستيبان أن ينام في المطبخ، انسحبت المرأة إلى غرفتها بعد أن خلّصت المائدة ممّا عليها، اضطجع ستيبان في حجرة السلّم، لكنه لم يتمكن من النوم بسبب طقطقة النجارة التي وضعت على المدفأة لتجفّ، كان يرى أبداً بطن صاحب النزل، الفائض عن زنّاره، والظاهر في طيّات قميص القنب المغسول، والمعاد غَسلُه، والباهت، ولاحقتْه فكرةُ أن يغمس سكينه في هذا البطن، وأن يستخرج ذلك الشحم، «ولا تَنْس الأثنى»، كما كان يقول، كان يقول في نفسه تارةً: «قبّحهم الله، مالي ومالهم، سأنصرف غداً»، وكان يفكر، تارةً أخرى، في ايفان ميرونوف، فيحمله ذلك على التفكير من جديد في بطن صاحب النزل الضخم وفي وجهه الأبيض الراشح عرقاً، قال في نفسه «إن قتلتُ فسوف أقتل الاثنين»، صاح الديك للمرة الثانية.

يجب أن أفعل ذلك، في الحال، فعمّا قليل يطلع الصبُح، نزل من حجرته، وتناول فأساً وسكيناً، لم يكد يترك المطبخ حتى سمع صوت مزلاج وباب يُغْلق، خرج صاحب النزل من غرفته.

اضطُرّ ستيبان إلى ترك مشروعه الأولي، لم يكن يستطيع أن يستخدم السكين، حينئذاك أهوى بالفأس فحطم رأس صاحب النزل الذي تهاوى على الأرض.

ثم دخل ستيبان غرفة ماترينا التي وثبت من سريرها، ظلّت واقفةً، بقميصها وحده، وكأنها تجمّدت، قتلها ستيبان بالفأس ذاته.

أشعل الضوء، وأخذ المال الموجوَد في درج، وانصرف.

- ١٦ -

في حيّ بعيد عن مركز المنطقة، كان موظّف سابق سكّير، يسكن هو وابنتاه، وصهره، في بيتهم وكانت المتزوّجة من بنتيه تشرب وتسلك سلوكاً سيئاً، أما كبراهما، ماري سيميونوفنا التي كانت أرملة، هزيلةً متغضّنة، في الخمسين من عمرها، فكانت تعولهم، كانت تقبض معاشاً قدره مئتان وخمسون روبلاً، وكان هذا المبلغ هو المصدر الوحيد لدَخْل الأسرة كلها، وكانت الأرملة هي التي تقوم بشؤون المنزل، وتقود أباها حين يسكر، وتهّيء الطعام، وتَغْسل، وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، كانت تُوبّخ وتُهان من قبل الذين كانت تخدمهم، حتى إن صهرها السكران قد ضربها ذات يوم، وكانت تتحمّل كل شيء دون أن تفوه بكلمة وتظل متواضعة، وكما يحدث أيضاً، فقد كانت كلما ازداد عملها أسرعت لإتمام شغلها، وكانت تمد يد المعونة إلى البؤساء، وتعطيهم ثياباً تختارها من خزانتها، وتذهب للعناية بالمرضى.

وكان خياطُ القرية، المبتور الساق، يعمل لماري سيميونوفنا، كان هذه المرة يُصلح ثيابَ والدها ويثني لها سترة الشتاء التي كانت تحتاج إليها لتذهب إلى السوق.

كان الأعرج رجلاً عاقلاً، نافذ الصبر، لقد استطاع أن يُمعن النظر حوله، بفضل مهنته، وعودتْه عاهتُه التأمل، ظلّ أسبوعاً كاملاً في بيت ماري سيميونوفنا، أدهشتْه الحياةُ التي تحياها هذه المرأة. جاءته ذات يوم إلى المطبخ الذي كان يخيط فيه، شرعت في الحديث معه، وهي تغسل المماسح، فروى لها كيف أنه ترك أخاه لأنه كان يهينه.

كنتُ أظن أن الأمور ستتحسن معي. ولسوء الحظ، لم يتخلَّ عني الشقاء.

قالت الأرملة:

الأفضل أن نظل حيث كنّا دائماً، وأن نعيش حيث عشنا دائماً.

لكنكِ أنت، تدهشينني، يا ماري سيميونوفنا، أنت تعتين بالناس جميعاً، وتتعبين، لكن الآخرين لا يفعلون شيئاً صالحاً

ظلت ماري صامتةً.

كأنك تؤمنين بالكتب التي تَعِدُ بالمكافأة في العالم الآخر.

أجابت:

لا أدري، لكن يبدو لي أنّ من الأفضل أن يعيش المرءُ كما أعيش.

وهل تنصح الكتبُ بذلك؟

الكتب؟ فتحت الانجيل وقرأت الموعظة على الجبل.

غرق الخياط في أفكاره، وعندما انتهى من عمله، عاد إلى بيته، وظل يفكّر فيما رآه لدى ماري سيميونوفنا، لقد حفظ كل ما قرأته له، كل ما قالته له.

- ١٧ -

تغيّر موقفُ بطرس نيكولايفتش سفنتيتسكي من الشعب، وكذلك موقف الشعب منه.

فخلال سنة قطعت سبعٌ وعشرون شجرة سنديان من أشجاره وأحرق المستودعُ والبيدر اللذان لم يكونا محميّين، أيقن أن مكانه ليس بين هؤلاء الفلاحين.

في هذه الأثناء، كان آل ليفنتشوف يبحثون عن مدير لممتلكاتهم، فدلّهم مديرُ المنطقة على سفنتيتسكي باعتباره أحد أفضل المديرين في المنطقة كلها، وبعد أن أجّر سفتيتسكي ملكيته، سافر، وبصحبته زوجته، إلى آل ليفنتسوف، في مناطق الفولغا البعيدة.

كان سفنتيتسكي دائماً من أنصار النظام والشرعيّة، وهو الآن، في مهماته الجديدة، لا يقبل على الإطلاق أن يغتصب الشعب البربريُّ الفظ، بالرغم من القانون، شيئاً، أيّاً كان، من الممتلكات التي يديرها، وتولّى بحزم إدارة العمل، وكان سعيداً إذ استطاع أن يفرض عقوبات قاسية على الذين في إمرته.

عمل على سجن فلاح سرق حطباً، بل وضرب فلاحاً آخر لقبه ولم يسلّم عليه ولم يتنحَّ بسرعةٍ عن طريقه.

ثارت منازعات بشأن المراعي التي كان الفلاحون يعتبرون

استعمالها حقاً مكتسباً، وأعلمهم سفنتيتسكي أن الماشية إن دخلت هذه المراعي مرةً أخرى فسوف يقبض عليها.

جاء الربيع، وساق الفلاحون مواشيهم، كما كانوا يفعلون منذ سنين، لترعى في مراعي السيّد الإقطاعي، جمع سفنتيتسكي جميع عماله وحبس الحيوانات في فناء السيد، كان الفلاحون في الحراثة، و لم تستطع احتجاجات نسائهم أن تفعل شيئاً، وعندما أنهى الفلاحون أعمالهم، جاؤوا يطلبون تسليم مواشيهم، أجابهم سفنتيتسكي، وبندقيته على كتفه (كان عائداً من جولة في الملكية) أنه سيعيد الماشية مقابل دفع رسم خمسين كوبيكا عن كل رأسٍ بقرنين، وعشرة كوبيكات عن كل خروف، فصاح الفلاحون أن المراعي ملكٌ لهم كما كانت في زمن آبائهم وأجدادهم، وأَنْ ليس لأحد الحق في وضع يده على ملك الآخرين.

قال فلاح عجوز لسفنتيتسكي وهو يدنو منه:

أعد إلينا ماشيتنا وإلا ساءت الأمور.

زعق سفنتيتسكي وقد شحب من الغضب:

كيف، «ساءت الأمور؟».

لا تقترف هذه الخطيئة، أعدها...

صرخ سفنتيتسكي:

ماذا؟

مكتبة
t.me/t_pdf

وضرب العجوزَ على وجهه.

آه! تريد أن تقاتل؟ هيا، يا شباب، استردوا الماشية بالقوة!

انقض الجمهور وأراد سفنتيتسكي أن يهرب لكن الفلاحين

أدركوه، فتخبّط، وانطلق عيار ناريّ، وقُتل فلاح، تبع ذلك عراكٌ رهيب، وقُطِّع سفنتيتسكي إرباً، وبعد خمس دقائق من بداية هذه المشادّة ألقي بجسده المشوّه في الوادي.

حكمت محكمةٌ عرفيةٌ على القتلة، حُكم على اثنين منهم بالموت شنقاً.

- ١٨ -

في قرية الخياط، استأجر خمسة فلاحين أثرياء من اقطاعيٍّ، بألف ومئة روبل مئة وخمسة هكتارات من أرض خصبة وسوداء كالقار، ثم أجّروها لفلاحين بخمسة عشر إلى ثمانية عشر روبلاً الهكتار.

لم تُعط قطعةٌ من الأرض بأقل من اثني عشر روبلاً، وكان الربح المتحقّق كبيراً، كان كل واحد من الفلاحين الخمسة يحتفظ لنفسه بخمسة هكتارات لا تكلّفه، بهذه الطريقة، شيئاً.

مات أحدهم، فاستبدل به شركاؤه الخياط الأعرج، وعندما صاروا إلى تقسيم الأرض، صرّح الخياط، وكان الوحيد بينهم الذي لم يشرب الفودكا، عندما طُرحت مسألة سعر الإيجار، أنه يجب أن يُعطى كلُّ واحدٍ الحصة نفسها، وألا يُجْنَى منها أيُّ ربح.

كيف ذلك؟

ألسنا مسيحيين؟ «السادة» يمكنهم أن يتصرّفوا على هذا النحو، أما نحن فيجب أن نتصرّف كمسيحيين، يجب ألاّ ننسى الله هذا هو قانون المسيح.

وأين رأيتَ، يا تُرى، مثل هذا القانون؟

في الكتاب المقدّس، في الانجيل، تعالوا إلى بيتي نهار الأحد وسأقرؤه، وسأشرحه لكم.

في الأحد التالي، ذهب ثلاثة من الفلاحين الأثرياء إلى بيت الخياط الذي أخذ يقرأ لهم.

قرأ لهم خمسة إصحاحات من انجيل متى، ثم فسّرها، أصغوا إليه جميعاً، لكن «ايفان تشويف» وحده هو الذي اقتنع بالكلام الإلهي.

لم يقتنع فحسب، لكنه أراد أيضاً أن يعيش بحسب قانون الرب، وحذتْ أسرتُه حذوه.

لم يقبل «تشويف» سوى حصة الأرض التي هي من حقّه ورفض الفائض.

قصده الفلاحون كما قصدوا الخياط، وأصغوا إليهما، وانتهوا بفهمهما، وكفّوا عن التدخين والشرب والتجديف وأخذوا يتعاونون، وانقطعوا عن الكنيسة وسلّموا أيقوناتهم إلى الكاهن كانوا خمسة وستين ينتمون إلى سبع عشر أسرةً مختلفة، ذُعر الكاهن وأبلغ المطران، بعد أن فحص المطرانُ الحالة قرّر أن يُعيّن للقرية الارشمندريت «ميسايل» الذي كان أستاذ الديانة في المدرسة الثانوية.

- ١٩ -

بعد أن دعا المطران «ميسايل»، أجلسه إلى جنبه، وروى له آخر أنباء الأبرشيّة:

كل ذلك ناجمٌ عن نقص الحميّة الدينية وعن الجهل، أنت رجلٌ عالم وأنا أثق بك، اجمع الشعبَ وحاولْ أن تشرح له.

أجاب «ميسايل»:

ببركتك، سأبذل وسعي.

كان في أعماقه سعيداً بهذه المهمة، كانت تُفرحه كل مناسبة يُتاح له فيها أن يُدلّل على ايمانه، وفوق ذلك، فهو حين يَهْدي الآخرين، يؤكّد قناعاته الخاصة.

وأردف المطران، وهو يتناول بيده البيضاء والربلة فنجان الشاي الذي حملته إليه الخادمة.

نعم، حاولْ، إن رعيّتي تسبّب لي الكثير من الهموم.

وأضاف مخاطباً الخادمة:

لَمَ تأتين بنوع واحدٍ من المربّى؟ هاتي أنواعاً أخرى.

وتابع مخاطباً ميسايل:

ثم إن ذلك يُحزنني كثيراً.

سر ميسايل لأنه يستطيع أن يَبرز، وبما أنه لم يكن غنياً، فقد طلب مالاً ليغطّي نفقات السفر، وطلب أيضاً أن يأمر حاكمُ المقاطعة قائد الشرطة المحلية أن يمدّ يد المعونة والمساعدة في حال مقاومته.

استجاب المطرانُ لمطالبه، جمع ميسايل، بمساعدة الخادمة والطاهية بعض المؤن لأن من الفطنة أن يحمل بعضها إلى مثل تلك المناطق النائية، كان راضياً عن تكليفه بهذه المهمة لأنه كان يعي أهمية مهمته، وقد اقتنع أن شكوكه الدينية اختفت، وهو، في الوقت الحاضر، مقتنع كلَّ الاقتناع بصدقه.

لم تكن أفكاره تتّصل بجوهر الدين - كان الدين يُعَدُّ مسلّمةً - بل بالوسائل التي عليه أن يستخدمها لمحاربة المعارضة التي تتجلّى ضد أشكاله الخارجية.

- ٢٠ -

استقبل كاهن القرية وخُدّام الكنيسة الآخرون ميسايل بجميع مظاهر التكريم، وفي اليوم التالي لوصوله، اجتمع الشعبُ في الكنيسة، كان ميسايل يرتدي ثوباً كهنوتياً جديداً، من الحرير ويعلّق صليباً في عنقه، صعد المنبر، وشعرهُ مشعّثٌ، وقف الكاهن بجانبه، ووقف الشمامسة والجوقة أبعد منه، أمام الأبواب الجانبية، وكان أشياع الطائفة الجديدة حاضرين أيضاً، وقد ارتدوا ستراً من جلد الخروف.

بعد القدّاس، قرأ ميسايل موعظةً يتوسّل فيها إلى جميع الذين انفصلوا عن الكنيسة الأم أن يعودوا إليها، ويعدهم بالمغفرة، وهدّد العُصاةَ، بآلام الجحيم الطويلة، لم يتأثّر أولئك الأشياعُ، لكنهم أجابوا عن الأسئلة التي طُرحت عليهم، وعن سبب انفصالهم عن الكنيسة أجابوا أن ذلك كان لأن الكنيسة تأمر بعبادة صور الخشب التي يصنعها البشر، وأضافوا أن ذلك لم يُصرَّح به في الانجيل أبداً، بينما العكس هو المُعْلن عنه في النبوءات، سأل ميسايل «تشويف».

أصحيح أنكم تنعتون الأيقونات المقدسة بأنها لوحات خشبية مبتذلة؟

فأجاب:

اقلبْ أنت بذاتك أية أيقونة شئت وسوف ترى.

وعندما سُئلوا لماذا لا يعترفون بالكهنوت أجابوا بهذه الآية من الانجيل:

«أخذتم مجانا، فاعطوا مجّاناً».

وأضافوا:

بينما الكهنة لا يمنحون بركتهم إلا بالمال.

ردّ «تشويف» والخياط اللذان كانا يعرفان الانجيل معرفة عميقة على جميع المحاولات التي حاولها ميسايل ليدعّم أقواله، رداً حاسماً، وانتهى ميسايل بأن غضب وهدّدهم بالسلطات المدنية، فردّوا على ذلك بآية أخرى من الانجيل:

لقد طردوني وسوف يطردونكم.

كانت هذه النقاشات بلا نتيجة، وكان كل شيء سينتهي نهاية حسنة، لو لم يكرّس ميسايل، في اليوم التالي، موعظته للشرور التي يُسببّها التشيّع الذي يستحق، برأيه، أقسى العقوبات، وبتأثير هذه الكلمات، أخذ المؤمنون يتهامسون، عند خروجهم من الكنيسة، أنه لا يخلو من الفائدة أن يُعاقب جميعُ الذين يزعزعون أفكار الشعب، وفي اليوم ذاته، في اللحظة التي كان فيها ميسايل والكاهن ومفتّش الشرطة يتذوقون معاً سمك السلمون وسمك اللور، حَدثَ حادثٌ خطير، تجمَّعت أمام منزل «تشويف» جماعةٌ من الارثوذكسيين المتشدّدين - كما اجتمع هناك أيضاً نحو عشرين من المتشيّعين - وكانوا ينتظرون خروجه ليضربوه، إن موعظة ميسايل أولاً، ثم موقف المتشدّدين المتوعد ثانياً، إن ذلك ولّد لدى المنشقّين خبثاً لم يكن موجوداً لديهم حتى الآن.

هبط الليل، وذهبت النساءُ لحلب البقر، وظلّ المتشددّون متجّمعين أمام المنزل، وأوشك أول شخص ظهر أن يُضرب، فعاد مُسرعاً إلى البيت أخذ المنشقّون يتناقشون في الموقف الذي ينبغي أن يتّخذوه و لم يتفقوا، كان الخياط يقول إنّ من الواجب أن يتحملوا كل شيء وألاّ يبدوا أية مقاومة، وكان رأي «تشويف»، على عكس ذلك، إذ رأى أن عدم المقاومة سيؤدي إلى إبادتهم جميعاً، وتناول هراوةً، وخرج إلى الشارع، فانقضّ المتشدّدون عليه.

صاح وهو يضرب بكل قواه:

لنطبّق إذن شريعةَ موسى.

فقأ عين أحد المهاجمين، فلما رأى ذلك الآخرون تفرّقوا وعادوا إلى مساكنهم.

حوكَم تشويف، واتُّهم بنَشْر أفكار تخريبيّة بالنسبة إلى الله، وحكم بالنفي.

تلقى الأب ميسايل مكافأةً.

- ٢١ -

وصلت الآنسة «تور تشانينوفا» بطرسبرج من سنتين، آتية من بلاد قوزاق الدون لتُتابع دراستها، كانت طويلةً، جميلة، شرقية الملامح، تعرّفت إلى طالب هو « توري» الذي كان ابن رئيس منطقة في مقاطعة «سمبرسك»، فوقعت في حبّه، لكن هذا الحب لم يكن حبَّ امرأة تتوق لأن تصبح زوجة الحبيب وأمّاً لأولاده، كان حبّاً معتدلاً، حب رفقة كالذي بين كائنين يحدوهما نفسُ الاحتقار لا للنظام السائد

فحسب، بل وأيضاً لجميع الذين يجسّدونه، وهما فوق ذلك مقتنعان بتفوّقهما على الآخرين بتربيتهما وبصفاتهما الأخلاقية.

كانت الفتاة موهوبةً في دروسها، تحفظ بسهولة ما تتعلّمه وتنجح في فحوصها، وفضلاً عن ذلك، فقد كانت تقرأ بشغف عدداً كبيراً من الكتب المنشورة حديثاً، كانت تورتشا نينوفا مقتنعة بأن مهمتها ليست في إنجاب الأولاد وتربيتهم - كانت هذه الفكرة تثير حتى نفورها - بل إن مهمتها هي أن تبذل وسعها لتدمّر النظام القائم الذي يخنق أفضل قوى الشعب، وأن تدلّ الشعب على درب الحياة الجديد، الذي دلّت عليه أفضل العقول الغربية، كانت طويلة، بيضاء الجلد، ذات سحنة متألقة، وعينين سوداوين لامعتين، وشعر وافر أسود، كانت توقظ لدى الناس رغبةً لا تتمناها ولا تستطيع المشاركة فيها، لأن كيانها كله كان يهيمن عليه نشاطُها الدعائي، ومع ذلك فقد تبيَّنت بسرور أنها أعجبت الناس، و لم تكن لتهمل مظهرها الخارجي، دون أن تسقط في الأناقة المسرفة، وكانت الخطوة التي تلقاها تُبهجها ولا سيّما أنها كانت تشعر دائماً بأعمق الازدراء لك ألاعيب الغُنج.

كانت أفكارها بشأن الوسائل الواجب استخدامها ضد النظام تتجاور بقسوتها أفكار رفاقها أو صديقها «تورين»، لأن الفتاة كانت تُجيز جميعَ الوسائل، بما فيها أعمال الارهابيين، بيد أن «تورتشانينوفا» كانت في قرارة نفسها، طيّبة تفكّر في راحة الآخرين قبل أن تفكّر في راحتها، كانت تستشعر فرحاً صادقاً في فعلها للخير، سواء أكان ذلك لطفلٍ، أو لشيخ، أو لحيوان.

كانت تقضي عطلتها، في الصيف، في منزل رفيقة، معلّمة، في مركز من منطقة الفولغا، وفي المنطقة نفسها كان توري يقيم عندَ أبيه،

وكانوا ثلاثتهم، وكذلك طبيب المنطقة، كثيراً ما يلتقون، ويتبادلون الكتب، ويتناقشون، ويسخطون، كانت ملكيّةُ «توري» تجاوز ملكية «كنتسوف» التي كان سفنتيتسكي يديرها ويبذل وسعه لتوطيد النظام فيها، وقد لاحظ الطالبُ «تورين» لدى فلاحي لفنتسوف طموحهم إلى الاستقلال وتصميمهم على الدفاع عن حقوقهم، مما نمّى فيه اهتمامه بهم.

كانت له معهم اتصالاتٌ متتالية، وكان في أحاديثه، يحاول أن يلقنّهم الأفكار الاشتراكية، على العموم، وبرنامج تأميم الأرض، على الخصوص.

أثار مقتلُ سفنتيتسكي وقدومُ المحكمة، الحلقةَ الثورية في المدينة، فأعلنت بشجاعة عن دواعي سخطها، أثبتت المحكمة أن تورين كان يقوم بالدعاية بين الفلاحين أتاحَ تحرّي مسكنه العثور على بعض المنشورات الثورية، فاقتيد الطالب إلى بطرسبرج.

عادت «تورتشانينوفا» أيضاً إلى بطرسبرج، وأرادت أن تزور الطالب في السجن، لكنها لم تُعْطَ إذناً، و لم تستطع أن تراه إلا في أيام الزيارة الرسمية، و لم تتحدّث معه إلا من خلال شبكتين من القضبان.

هذه الأنظمة رسّخت حقدها على النظام القائم، وهو حقدٌ بلغ ذروته بعد أن راودها ضابطُ دركٍ جميلٌ عن نفسها في مقابل التسهيلات التي يبذلها، وشمل سخطُها جميع الذين هم في الإدارة ـ وتوجهت إلى قائد الشرطة فرفض طلبها متذرّعاً لرفضه بالحجج التي تذرّع بها ضابطُ الدرك وهي أنه لا يستطيع أن يستجيب لطلبها إذ أن عليه الامتثال للأوامر الوزارية، تقدّمت بطلب إلى الوزير والتمست مقابلته فرُفض التماسُها، حينئذ عزمت أنْ تُقدم على فعلة يائسة، فاشترت مسدّساً.

كان الوزير يستقبل مراجعيه، دخل غرفة الاستقبال، ومر أمام، رجلين أو ثلاثة في انتظاره، وتقدمَ نحو الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين، التي ترتدي ثياباً قاتمة، وتنتظر، وهي تحمل ورقةً في يدها اليسرى، طافت بعيني الوزير وهو يرى هذه المراجعة الجميلةً شعلةٌ دافئة مداعبةٌ، لكنه تذكر وضعه، فعاد من جديد إلى هيئته الرصينة سألها ويدنو منها:

فيمَ ترغبين؟

ودون أن تجيبه، أخرجت من لفاعها يدها اليمنى المسلّحة بمسدس وسدّدته إلى صدر الوزير وأطلقت النار، لكنها أخطأته.

كانت ترتجف بكل أعضائها و لم تستطع أن تلفظ كلمة واحدة، واستبّد بها ضحكٌ هيستيري، و لم يُجرح الوزير.

كانت هذه هي الطالبة «تورتشا نينوفا» وقد سُجنت، تلقّى الوزير التهنئات وعلامات المودّة من الشخصيات العليا ومن القيصر نفسه، وعيّن لجنةً مكلفة بالتحقيق وباكتشاف المؤامرة المدبّرة ضدّه.

الوقع أنه لم تكن هناك أيةُ مؤامرة، لكن موظفي الشرطة السرّية والشرطة المدنية ألزموا أنفسهم إلزاماً شديداً الكشفَ عن جميع تفرّعات المؤامرة غير الموجودة، وبهذه الطريقة كانوا يكسبون معاشهم بشرف، نهضوا مع الفجر، وقاموا بتحرّيات عديدة، ونسخوا أوراقاً وكتباً، وقرؤوا صحفاً ومراسلات خاصة، ونسخوا بخط مُتْقن مقاطعَ من هذه الوثائق كلها، استجوبوا عدة مرات «تورتشانينوفا»، وقابلوها بأشخاص آخرين، وبذلوا وسعهم كي يحملوها على الإبلاغ عن شركائها.

كان الوزير طيباً بطبيعته، وكان يشعر بعطف كبير على هذه القوزاقية الجميلة، لكنه كان يعي عظمة واجباته بصفته رجل دولة، وهي واجبات عليه أن يتمِّمها، مهما تكنْ شاقّةً.

طلب إليه أحدُ رفاقه القُدامى، وصديق تورين، وقد لقيه في حفلة القصر الراقصة، العفّو عن الطالب وتورتشانينوفا، هزّ الوزير كتفيه بقوة حتى أن شريطته الحمراء انطوت فوق صدْرته البيضاء وقال:

منْيَتي أن أطلق سراح هذه البُنيّة المسكينة، لكنّ الواجب، كما تعلم...

في هذه الأثناء، ظلت الطالبةُ في السجن، وكانت أحياناً تتّصل بجيرانها عن طريق دقاتها على الجدار، أو تقرأ الكتب المسموح بها، وكانت أحياناً أخرى، تغرق في اليأس، فيستولي السخطُ المسعورُ عليها، وتدّق الباب، وتزعق أو تضحك كالمجنونة.

- ٢٣ -

قبضت ماري سميونوفا حاصل معاشها من صندوق المالية، وعلى طريق العودة صادفت المعلم الذي كانت تعرفه، فصاح بها من جانب الشارع الآخر:

وبعدُ، يا ماري سميونوفنا، هل قبضت مبلغاً كبيراً؟

قبضتُ ما لا يكاد يكفينا.

قال المعلم وهو يبتعد:

يكفيكم ويزيد، من غير شك.

هتفت ماري سميونوفنا:

إلى اللقاء.

نظرت، وهي تقول ذلك إلى جهة الأستاذ، فكادت تصطدم برجل مديد القامة، طويل الذراعين، قاسي الهيئة.

عندما اقتربت من بيتها دُهشت إذ رأتْ الشخص نفسه مرّةً أخرى.

بعد أن رأى أيَّ بيت دخلت، وقف برهةً، ثم انقلب راجعاً، أحسّت ماري سميونوفنا بالقلق، ثم بالحزن، لكنها ما إن بلغت البيت ووزّعت الهدايا على العجوزين، وعلى ابن أختها فيديا، وداعبت الصغيرة تريزوركا، حتى عادت إليها السكينة، وسلّمت مالها كله إلى والدها واستأنفت أعمالها المنزلية التي كانت على عاتقها.

الشخص الذي صادفته كان ستيبان، كانت هذه أول مرة يقصد فيها المدينة بعد مقتل البواب، ومن المدهش أنه لم يحتفظ من ذلك القتل بأية ذكرى كريهة، بل إنه كان يفكّر فيه عدة مرات في اليوم، كان يتذكّر ذلك بسرور لأنه ارتكب هذه الفعلة بمهارة عظيمة حتى إن القلق لم يساوره وحتى أنه كان يأمل أن يستمر على هذه الطريق دون أن يستطيع أحدٌ منعه من ذلك، وفي كل مرة كان يجلس فيها في الحانة ليشرب الشاي أو الفودكا، كان يراقب الحاضرين ولا يلقي على نفسه سوى سؤال واحد: «كيف يمكن قتلُه؟» قصد بيتَ حوذي من قريته ليقضي الليلَ عنده، لكن هذا الرجل كان غائباً، أعلن ستيبان أنه سينتظره، فجلس وثرثر مع امرأته، وفي إحدى اللحظات أدارت له ظهرها، راودته فكرة قتلها، دهش من ذلك في بداية الأمر، وهزّ رأسه، لكنه أخرج فجأة سكيناً من ساق جزمته، رماها أرضاً وذبحها، أخذ الأولاد يزعقون فقتلهم جميعاً، وغادر القرية.

قضى الليل في نزل قرية مجاورة، وفي اليوم التالي، قصد مركز المنطقة، وهناك سمع الكلمات التي تبادلتها ماري سميونوفنا والمعلم، أخافته نظره المرأة، لكنه صمّم، مع ذلك، على دخول البيت والاستيلاء على المبلغ الذي قبضته، أثناء الليل، كسر القفل وانسل إلى إحدى غرف النوم، كانت الأخت الصغرى، الأخت المتزوجة، هي التي سمعته أولاً، صاحت: فقتلها ستيبان مباشرة، استيقظ الزوج وارتمى على القاتل، وأمسك به من رقبته وصارعه طويلاً، لكن ستيبان كان الأقوى، وعندما قضى على خصمه، دخل الغرفة التي كانت تنام فيها ماري سميونوفنا، مستثاراً، هائجاً بسبب القتال الذي خاضهُ. نهضتْ وحدقت في ستيبان بعينيها الوادعتين ورسمت علامة الصليب، أرهبتْ نظرتها ستيبان من جديد فخفض عينيه، وقال دون أن يرفع رأسه:

أين المال؟

لم تجب، فكرَّر ستيبان وهو يشير إلى سكّينه:

- أين المال؟

قالت: مابك، أهذا ممكن؟

ممكنٌ، بالتأكيد.

دنا ستيبان منها، وقد تهّيأ للإمساك بيديها، منعاً لمقاومتها، لكنها صالبت بين يديها على صدرها، وتنهّدت وكرّرت:

آه! يالها من خطيئة! ارحمْ نفسك، أنت تُهلك نفسك آه!...

لم يعد يستطيع ستيبان أن يتحمّل لا صورتها ولا نظرتها، فغرز سكينه في عنقها وهو يقول:

مالي وللكلام معك؟

سقطت على الوسادة وهي تشخر وتسقي السرير بدمها، أخذ ستيبان يفتش المنزل ويجمع التحف، وعندما أخذ ما يريد، أشعل سيجارةً، وجلس ونظّف ثيابه وسافر.

فكر أن هذه الجريمة تبقى بلا عقاب كسابقاتها، لكنه قبل أن يصل إلى النزل أحس بالتعب الشديد حتى أنه عجز عن تحريك ذراعيه وساقيه، نام في حفيرةٍ وقضى فيها ليلته، ثم النهار والليلة التالية.

***

القسم الثاني

- ١ -

كان ستيبان يرى أبداً، وهو مضطجع في الحفيرة، وجه ماري سيميونوفنا الوادع، النحيل والمتخوّف، ويسمعها تهمس بصوتها الشاكي: «أهذا ممكن؟». كان يعيش جريمته مرة ثانية، كان خائفاً يغمض عينيه ويهزّ رأسه الأشعث الشعر، وكأنه يحاول أن يطرد تلك الأفكار والذكريات فإذا تمكن أن يتحرّر، لبضع لحظات من إحدى هذه الصور ظهرت له صورٌ أخرى: كانت إحدى هذه الصور ذات وجه مضيء، والأخرى كانت معتمة بعينين حمراوين، وكانت جميعها تقول الشيء نفسه: «قتلتَ الآخرين فاقتُل نفسك بدورك، وإلا فلن ندعَك وشأنَك» حينئذٍ كان يفتح عينيه ويرى من جديد ماري سيميونوفنا، ويسمع من جديد صوتها، فيمتلئ شفقة عليها، ويحتقر نفسه، ويغمض عينيه فتعود الصور المُعتمة إلى الظهور.

في اليوم التالي نهض من الحفرة، وجرّ نفسه إلى النزل وأخذ يشرب، شرب كثيراً لكن الكحول لم تؤثّر فيه، كان يُفرغ قدحاً بعد قدح، وهو جالس وحده إلى الطاولة، دخل عريفٌ من الدرك النزل، سأله:

مَنْ أنت؟

ذاك الذي ذبح آل دوبروتفوروف.

قُيّد، وبعد أن احتفظت به الشرطةُ المحلية يوماً، أُرسل إلى مركز المقاطعة، عرف المشرفُ ذلك السجين القديم في هذا الذي غدا مجرماً رهيباً واستقبله دون أدنى عطف، حذّره المشرف بصوت مبحوح، وهو يقطب حاجبيه، ويُقدم فكّه الأسفل:

حذار، ليس عندي موضعٌ للتسلية، إذا لاحظتُ أدنى شيء فسوف أضعك في السجن المنفرد، لن تفلت مني.

أجاب ستيبان وهو يخفض بصره:

لَم أُفلتُ، أنا سلّمت نفسي.

صاح المشرفُ:

اخرس وعندما يكلّمك رؤساؤك فانظر إليهم في عيونهم.

ولطمه بجمع قبضته على فكّه، فسقط ستيبان وكأنما أيقظته اللطمةُ: ماذا؟

امشِ، ولا تحاولْ أن تعاند.

كان المشرف يتوقع بوادر العنف من ستيبان، ومحاولات التحدّث مع السجناء الآخرين، ومحاولة الهرب، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وعندما كان ينظر هو أو مساعده إلى المجرم من طاقة الباب، كانت اللوحة نفسها تواجههما: كان ستيبان جالساً على كيس مملوء بالقش ورأسهُ مستندٌ إلى يديه، وهو يحدّث نفسه.

أثناء الاستجواب، كان موقفه غير موقف السجناء الآخرين: كان شاردَ الذهن، لا يصغي إلى الأسئلة التي تُلقى عليه، وعندما كان يُصغي

إليه كان يجيب بصدق مطلق، وكان قاضي التحقيق الذي تعوّد أن يُحبط مهارة المتهمين وحيلهم، يشعر مع هذا بشعور مشابه لشعور الرجل الذي يصعد درجاً ويحاول أن يحطّ قدمه على درجةٍ غير موجودة.

كان ستيبان يذكر، وهو مقطّب الحاجبين، ثابت النظرة، الجرائم التي اقترفها بلهجة بسيطة وجادة، وكان واضحاً أن يبذل جهده لكي لا يفوته أي تفصيل.

قال ستيبان وهو يتحدّث عن ضحيته الأولى:

خرج حافي القدمين، وثبتُ عليه فسقط وهو يحشرج، وبعد ذلك على الفور، تصديتُ لامرأته و...

عندما زار النائبُ العام الحجيرات المنفردة سأل ستيبان إن كانت لديه شكوى يتقدّم بها أو طلب يطلبه، فأجاب السجين أنه لا يحتاج إلى شيء وأنه لا يشكو أحداً، وبعد أن خطا النائبُ العام بضع خطوات في الممر النتن، سأل المشرف عن سلوك ستيبان، فأجاب السجّان الذي أسعده أن ستيبان لم يتقدّم بأية شكوى:

إنه مدهش، إنه عندنا منذ شهرين وكان سلوكه حتى الآن مثالياً، ومع ذلك فأنا أخشى أن يكون قد دبّر شيئاً ما، فهو رجل شجاعٌ، وقوتُه غير عادية.

- ٢ -

كان ستيبان يحسّ بالألم نفسه أثناء الشهر الأول من اعتقاله، كان يرى دائماً جدران الزنزانة الرمادية، ويسمع دائماً أصوات السجن ذاتها، الصوت الجهنمي الآتي من القاعة العامة في الطابق الأسفل،

صوت خطوات السجّان الذي يتمشّى في الممرّات، تكتكة الساعة الجدارية، وفي الوقت نفسه كان يرى المرأة التي أثّرت فيه نظرتُها الملأى بالوداعة، منذ أول لقاء لهما في الشارع، تلك المرأة ذات العنق النحيل والمتغضّن، إنما تُهلك نفسك، لا نفس الآخرين! أهذا ممكن».

ثم الصوتُ يسكتُ، وحينئذ كانت الشياطين تنبعث، كانت تظهر لستيبان سواء أكان مفتوح العينين أم مغمضهما، وكان يراها بوضوح أكبر عندما كان يغضّ بصره، وعندما كان يفتح عينيه من جديد كانتً الشياطين تختلط بالباب وبالجدران، لتختفي ببطء شيئاً فشيئاً، ثم لا تلبث أن تعود، وتدنو منه من الجهات الثلاث، متّخذة ملامح مرعبة، وقائلة له: «انتهِ من ذلك مع نفسك، اقتلْ نفسك، تستطيع أن تصنع أنشوطة، أو تشعل النار».

حينذاك كانت الرعشةُ تسري في جسد ستيبان، وكان يتلو الصلوات، جميع الصلوات التي كان يعرفها: السلام لكِ، وأبانا...

بدا له في البدء أن ذلك يُهدّئه، وبينما كان يصلي، كان يستذكر حياته الماضية كلها: كان يرى أباه وأمه والقرية التي ولد فيها، وكلب العبور، وجده متمدّداً في حجرة السلم، والزلاّجات الصغيرة التي كان يتنزّه فيها بصحبة رفاقه: كان يفكّر في الفتيات اللواتي عرفهنّ، وفي أغانيهن، ثم كان يرى جياده التي سُرقت، وكيف أوقِفَ السارق وكيف قضى عليه بضربة حجر.

تذكر حبسه الأول الذي تلاه إخلاءُ سبيله، ثم تذكّر ضحاياه: البواب الضخم، امرأة الحوذي وأولادهما، وأخيراً تلك التي تظهر دائماً، حينئذ كان يمتلئ رعباً وينهض، وكما يدور الوحشُ في قفصه، كذلك كانً يذرع الزنزانة بخطىً سريعة، مرتداً فجأةً أمام الجدران

التي ترشح من الرطوبة، ويعود إلى الصلاة دون أن يشعر بالسكينة هذه المرة.

أثناء أمسية لا نهاية لها من أمسيات الخريف التي كانت الريح تصفر فيها نائحةً في المدافئ، جلس ستيبان على سريره بعد أن ركض في زنزانته، أحسّ بغتةً أن من المستحيل عليه متابعة الصراع، وغلبتْه الشياطين فاستسلم، وطالما استرعى انتباهه مفتاحُ تهوية المدفأة الثقيل، وفكّر في أنه لو تمكن من لف شريط دقيق أو حبلٍ نحيف حوله فلن ينزلقا عنه، لكن ينبغي إتمام هذا العمل بذكاء، شرعَ ستيبان به وقضى يومين يصنع حبلاً طويلاً، ممزّقاً الكيس الذي اتّخذه فراشاً (كان يغطي سريره بثيابه كلما جاءت ساعة الحرس)، ولكي يصنع هذا الحبل كان يربط قطعتين من الكيس معاً بعقدة مضاعفة، لكي لا تنزلق ولكي تكون من القوة بحيث تتحمّل جسده.

عندما أنهى عمله، لفّ حول عنقه الحبلَ القاتل، وصعد إلى سريره وشنق نفسه، وفي اللحظة التي بدأ يحشرج فيها - وكان لسانه قد خرج من فمه - انقطع الحبلُ ووقع ستيبان على الأرض، هرع السجّان على صوت السقوط، استُدعي ممرّضٌ واقتيد ستيبان إلى المشفى ليعود بعد ذلك إلى السجن، لكنه وُضع هذه المرة في القاعة العمومية.

كان يعيش مع عشرين سجيناً آخر، لكنه كان في الواقع وكأنه مازال وحده، لم يكن يرى أحداً، ولا يكلم أحداً، وكان يتألم كما كان يتألم من قبل.

ما شقّ عليه، بخاصة، آنذاك هو أن جميع رفاقه كانوا ينامون، وأنه هو كان، كعادته، نهباً للأرق، ولرؤيتها، كان يسمع صوتها، ثم تظهر الشياطين بعيونها المرعبة، وكان منظرها يملؤه هياجاً.

كان يصلي دائماً، لكن صلواته لم تكن تنفعه قطّ.

وفي ذات يوم، ظهرت له من جديد، بعد أن صلّى، تضرّع إليها ستيبان، توسّل إليها أن تدع روحه وشأنها وأن تغفر له، عند الفجر اضطجع على فراش القش ونام نوماً عميقاً، رآها أيضاً في الحلم، رأى عنقها النحيل المغضّن الذي قطعه.

- أتغفرين لي؟

سألها ثلاث مرات، لكنها أصرّت على صمتها، حينذاك استيقظ، ومنذ ذلك الوقت أحسّ بالعزاء، ونظر حواليه، وكأنه قد تمالك نفسه، واقترب من رفاقه في السجن، وكلّمهم.

- ٣ -

كان فاسيلي الذي أوقف من جديد بسبب سرقة وحُكم بالنفي، في القاعة نفسها التي كان فيها تشويف» وكان محكوماً بعقوبة مماثلة، وفي هذه القاعة وُضع ستيبان.

لم يكن فاسيلي يكفّ عن الغناء بصوته الجميل أو عن رواية مغامراته لرفاقه، أما «تشويف» فكان يرقّع الثياب والغسيل أو يقرأ المزامير أو الانجيل.

وحين سأله ستيبان لماذا سجنوه أجاب أنه سينفُى لأنه اعتنق عقيدة المسيح الحقيقية، لأن هؤلاء الكهنة الكذابين لا يطيقون أولئك الذي يعيشون بموجب الانجيل، ويتجرؤون على الوشاية بهم، طلب إليه ستيبان أن يعلمه قانون الانجيل، فأجابه «تشويف» أن هذا القانون لا يُجيز أن نصلي للإله الذي صنعته يد الإنسان لكنه يريد أن نؤلّه الروح والحقيقة» روى له كيف أن خياطاً أعرج، قروياً، لقّنه الديانة الحقيقية، بمناسبة تقسيم قطعة أرض.

سأله ستيبان:

لكن، ماذا يقال في الانجيل عما يخصّ الجرائم.؟

كلُّ شي قد قيل

وقرأ تشويف: «ومتى جاء ابنُ الإنسان في مجده، وجميع الملائكة معه، فحينئذ يجلس على عرش مجده، وتُحشر أمامه جميعُ الأمم، الخراف عن يمينه والجداء عن يساره، حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه: «تعالوا يا مباركي رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم، لأني جعتُ فأطعمتموني، عطشتُ فسقيتموني، كنتُ غريباً فآويتموني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتم إليّ.

فيجيبه الأبرارُ حينئذ قائلين: «يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشاناً فسقيناك، ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟.

«فيجيب الملكُ ويقول لهم: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتم ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم».

«ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني، يا ملاعين، إلى النار الأبدية المعدّة لإبليس وملائكته، لأني جعتُ فلم تطعموني، عطشتُ فلم تسقوني، كنتُ غريباً فلم تأووني، عُرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني».

«حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: «يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً و لم نخدمْك.

«حينئذ يجيبهم قائلاً: بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فَبي لم تفعلوا».

«فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية». متى ٢٥: ٣١ - ٤٦

كان فاسيلي يُصغي إلى «تشويف»، وهو جالسٌ على الأرض، ويحني رأسه دليلاً على الموفقة، وقال بلهجة مقتنعة:

هذا صحيح، اذهبوا، أيها الملاعين، إلى العذاب الأبدي، أنتم لم تطعموا أحداً، أما أنتم أنفسكم شبعتم أنتم تستحقون ذلك.

وأضاف، لكي يعرّفهم أنه قادرٌ على القراءة:

أعطني كتابك، سأقرؤه بنفسي.

سأل ستيبان الذي أصغى بصمت وهو مطرق الرأس.

لكن لن تكون حينئذ مغفرة.

قال «تشويف» لفاسيلي الذي كان يتكلم بلا انقطاع عن الأغنياء الذين لم يُسعفوا الغريب، و لم يطعموه، و لم يزوروه في سجنه:

انتظر، اسكتْ، انتظر، أتريد.

كرّر ذلك وهو يقلّب صفحات الانجيل، وأخيراً عثر على المقطع الذي كان يبحث عنه، ومسدّ بيده القوية التي ابيضّت في السجن، فقال:

وجاؤوا أيضاً باثنين آخرين مذنبين مع يسوع ليُقتلا، ولما مضوا به إلى الموضع الذي يُدعى جلجلة صلبوه هناك مع المذنبين، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره، فقال يسوع: «يا أبتاه، اغفرْ لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون، وإذ اقتسموا ثيابه، اقترعوا عليها».

«وكان الشعبُ واقفين ينظرون، والرؤساء أيضاً معهم يسخرون قائلين: خلّص آخرين فليخلّص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله».

«والجند أيضاً استهزؤوا به وهم يأتون ويقدّمون له خلاً قائلين: إن كنتَ أنت ملكَ اليهود فخّلصْ نفسك، وكان عنوانٌ فوقه بأحرفٍ يونانية ورومانية عبرانية: «هذا هو ملكُ اليهود».

وكان واحدٌ من المذنبيْن المعلّقيْن يجدّف عليه قائلاً: إن كنتَ أنتَ المسيح فخلّصْ نفسك وإيّانا».

«فأجاب الآخر وانتهره قائلاً: أولا تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه، أما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محلّه، ثم قال ليسوع: اذكرني يا ربْ متى جئتُ في ملكوتك، فقال له اليسوع: الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس» لوقا ٢٣:٣٢ - ٤٢.

كان ستيبان جالساً يتأمل، ولا يفهم ما كان «تشويف» يقرؤه، لكنه لم يقل شيئاً، وفكّر: «هذا هو قوام الإيمان الحقيقي، الذين أطعموا الفقراء وسقوهم وزاروا السجناء، هؤلاء وحدهم سينجون، أما الذين لم يتصّرفوا هكذا فأولئك يذهبون إلى جهنم، إن المذنب لم يتبْ إلا وهو على الصليب، ومع ذلك فهو في الجنة». ولم ير ستيبان في ذلك أي تناقض، بل قد خُيّل إليه ذلك يقوّي الآخر: الأبرار يذهبون إلى الجنة والأشرار إلى الجحيم، وهذا يعني أن الجميع ينبغي أن يكونوا أخياراً، لقد غفر يسوع للمذنب وهذا يعني أنه خيِّرٌ إلى ما لا نهاية، كل ذلك كان جديداً بالنسبة إلى ستيبان الذي كان يُدهش لأنه جهل ذلك حتى الآن، وأثناء ساعات الاستراحة، كان يظل مع «تشويف الذي كان يسأله أو يصغي إليه، كان يصغي إليه ويفهمه، لقد أدرك

المعنى العام لهذه العقيدة: جميع الناس إخوةٌ ويجب أن يحبّ بعضهم بعضاً ويرحم أحدهم الآخر، وحينئذ سيصبحون جميعاً سعداء، وكان يصغي بانتباه شديد إلى كل ما قد يعزّز رأيه، كان يأبى أن يسمع رأياً معارضاً ويُنْسبه إلى الجهل، وهكذا غدا ستيبان إنساناً آخر.

- ٤ -

إن هدوء ستيبان بيلا جيوسكين والتغيّرات التي طرأت على موقفه أدهشت الحرّاس والمشرفين ورفاقه، كان يقوم بأشد الأعمال قسوة بما فيها تنظيف المراحيض، دون أن يُؤمر بذلك ودون أن ينتظر دوره، ومع ذلك، وبالرغم من الاحترام الذي كانوا يكنّونه له، كان رفاقُه يخشونه بسبب قسوته وقوّته الجسدية، والحادث الذي وقع له مع متشرِّدين هاجماه فتخلّص منهما بسهولة، بعد أن كسر ذراع أحدهما، زاد من تلك الخشية، إن هذين المتشردين دفعا شاباً غنياً سجيناً أن يلعب بالورق وسلبا كل ما معه، تولّى ستيبان الدفاعَ عنه واستولى على المال الذي ربحاه وأعاده إليه، أهاناه أولاً، ثم ضرباه، لكنه سرعان ما تغلّب على خصميه، سأل المشرفُ المتخاصمين، أفاد المتشرّدان أن ستيبان ضربهما دون أي سبب، فلم يدافع عن نفسه وقبَل، دون أي احتجاج، العقوبة التي لحقت به وهي: ثلاثة أيام في السجن المنفرد ونقله إلى زنزانة يظلّ فيها وحيداً.

هذا السجن المنعزل شقّ عليه لأنه حرمه من تشويف ومن الانجيل، وفضلاً عن ذلك، فقد كان يخشى أن تبدأ من جديد تلك الكوابيس، وأن يعود إلى رؤية الأوجه المعتمة، إلى رؤيتها، هي، لكنه لم يحلم أي حلم مزعج، وكانت نفسه كأنها جديدة وفرحةٌ، بل إنه كان سيكون سعيداً لو استطاع أن يقرأ الانجيل، كان يستطيع أن يحصل عليه لو طلبه من الإدارة، لكنه لم يكن يعرف القراءة.

بدأ، طفولته، تعلّمَ الأحرف الهجائية بحسب الطريقة القديمة ١= آز، ب= بولي [٦]، لكنه كان محروماً من الذكاء، ولم يُحسن جمع الأصوات بعضها إلى بعض فظل جاهلاً، وقد صمّم الآن أن يتعلّم القراءة وطلب من الحارس انجيلاً، فحمل إليه الحارسُ واحداً وأكب ستيبان على العمل، تذكّر الأحرف الهجائية، لكنه لم يتمكن من تكوين مقاطع، حاول، بجهد جاهد، أن يؤلّف كلمات، لكنه لم يتمكّن، قضى ليالي ساهراً، يفكّر في ذلك بلا انقطاع، وفقد شهوة الطعام، وسبّب له فشله حزناً كبيراً لم يستطع أن يتخلّص منه سأله الحارسُ ذات يوم:

لم تُفلحْ أليس كذلك؟

لا

أتعرف «أبانا؟».

أعرفها.

إذن اقرأْها، هاهي ذي.

ودله الحارس على هذه الصلاة في الانجيل.

جمع ستيبان الأحرف والأصوات التي تشكّلها، وحاول أن يحلّ رموز الكتابة بهذه الطريقة، وفجأة اختفى سرُّ تجميع الأحرف بعضها إلى بعض: صار يعرف القراءة، كان ذلك فرحاً عظيماً عنده، منذ

---

٦ - ١= ا ز ب = بوكي: في الأحرف الهجائية السلافونية التي ابتكرها في سنة ٨٦٢ القديسان سيريل وميتود، يحمل كل حرف اسمه، كما هي الحال في الأحرف الهجائية اليونانية (ألفا، بيتا، ألخ).

ذلك الحين صار يقرأ، وكانت كل فكرة يتمثّلها تكلّفه جهوداً طويلة، فتزداد قيمةً عنده.

وبدلاً من أن يحزن من عزلته، كان سعيداً بها، كان مستغرقاً في قراءته، وأخيراً، أعيد إلى القاعة العمومية، ذلك أن زنزانته سيشغلها سجينٌ سياسي جيء به منذ وقت قصير.

- ٥ -

لم يعد «تشويف» هو الذي يقرأ في الوقت الحاضر، الكتاب المقدس للسجناء، وإنما ستيبان، كان بعض السجناء يغنّي، أثناء القراءة، أغاني ماجنة، وكان الآخرون يصغون إليه وهو يقرأ النصّ المقدّس ويشرحه.

كان له مستمعان مثابران وصامتان: «ماركوركين» الجلاّد القاتل الذي حكم بسجن الأشغال الشاقة، وفاسيلي الذي دخل السجن من جديد لأنه ارتكب سرقة جديدة، والذي وضع في غرفة ستيبان نفسها، انتظاراً للحكم.

تسنّى لماكوركين، أثناء سجنه، أن يقوم بوظيفته كجلاد مرتين، وفي كل مرة كان لابدّ من أن يسافر بعيداً، فقد كان صعباً العثورُ على رجل ينفّذ قرارات المحكمة.

إن الفلاحين الذين انقضّوا بضراوة على شفتيتسكي حكمتهم محكمة عرفية، حُكم على اثنين منهم بالموت شنقاً.

نُدب «ماركوركين» إلى «بنزا» لإعدام المحكومين، ولو إن مناسبة عرضتْ له، قبل وقت قريب، لكتَبَ - كان متعلّماً - إلى الحاكم يعلمه أن سيسافر في بمهمة إلى «بنزا» ليقوم بوظيفة الجلاد، ولطلَب أن

تُدفع له نفقات الانتقال والطعام، أما الآن فشدّ ما أدهش مدير السجن تصريحه بأنه لن يذهب إلى بنزا وأنه لن يكون جلاّداً من الآن فصاعداً.

فصرخ المدير:

وإذن فقد نسيتَ عمود التشهير.

ليكنْ، الأعمدة هي الأعمدة، لكنْ لا يحق لأحد أن يقْتل.

ماذا، تعلمتَ هذا عند بيلاجيوسكين؟ إنه لنبيٌّ حذرٌ انتظْر، سترى...

- ٦ -

في هذه الأثناء، أنهى «ماكين» الذي زوّر الورقةَ دراسة الحقوق، وبفضل نجاحاته النسائية، ولاسيما لأنه كان عشيق خليلة نائب وزير عجوز، وهو ما يزال فتيّاً، فقد عُيِّن قاضياً للصلح.

كان لئيماً، مقامراً، مديناً، كما كان فاتناً للنساء، لكنه كان ماهراً، شجاعاً، قوي الذاكرة، ويقود ببراعة استجواباته.

كان يمارس مهماته القضائية في الدائرة التي سيمثُلُ فيها ستيبان بيلاجيوسكين.

منذ استجواب الأول، أدهش هذا ماكين بأجوبته البسيطة. الصادقة، والهادئة، أحس القاضي أن هذا الرجل الحليق الرأس الذي كبُلتْ يداه والذي كان يرافقه حارسان سيعودان به إلى السجن عمّا قليل، أفضلُ منه أخلاقياً، ولذلك كان يشجع نفسه أثناء الاستجواب، باذلاً وسعه كي لا ينتابه الخوف وكي لا يتشوّشَ، وقد راعه أن ستيبان

كان يروي جرائمه وكأنها وقعت منذ زمن بعيد جداً، وكأن إنساناً آخر غيره هو الذي ارتكبها.

سأل ماكين:

ألم تشفق عليهم.

أشفق عليهم! لم أكن أعلم إذ ذاك ما الشفقة؟

والآن؟

ابتسم ستيبان بحزن.

الآن لن أقتل، حتى لو أحرقوني على نار هادئة.

ولِمَ تغيّرت؟

لأني أدركتُ أن الناس إخوةٌ

إذن، أنا أيضاً أخوك؟

بالتأكيد

مع ذلك فأنا الذي سيقرر إن كان يجب إرسالك إلى سجن الأشغال الشاقة.

إنك تتصرّف عن جهل.

أتظن إنني لا أفهم؟

لنستمر، أين ذهبت بعد ذلك؟

وكانت دهشة ماكين عظيمة حين علم بتأثير ستيبان في ماكوركين، الجلاّد الذي عرّض نفسه للعقاب، ورفض أن يمارس مهمّاته.

كان آل «ايروبكين» الذي لهم ابنتان صالحتان للزواج يستقبلون، وكان بين مدعويهم ماكين الذي كان يغازل كلا البنتين.

بعد أن أحرز ماكين نجاحاً عندما غنى أغنيات عاطفية - كان موسيقياً يُجيد الغناء، وكان مرافقاً حسناً على البيانو - روى بالتفصيل وبكل موضوعية انطباعاته عن السجين الغريب الذي هدى الجلاّد إلى الإيمان وقد أفاض في الحديث عنه، لأنه يشعر لأول مرة بأنه يهتم اهتماماً شديداً بالحالة التي عليه أن يقضي فيها، فجميع الحالات التي قضَى فيها حتى الآن لم يكترث لها.

لم يكن يدرك الحالة النفسية لسجنائه، و لم يكن يحاول أن يكتشف ما يجري في أعماق نفوسهم، مما كان يسمح له أن يأخذ ما كان مرتبطاً بأعمالهم المادية، ماروه، ومافعلوه، لكن حالة «بيلاجيوسكين» كانت استثنائية.

لم يسأله عمّا يحسّ به في قرارة نفسه، لكنه سأل نفسه، لم يجد جواباً شافياً، لكنه كان يشعر أن هذه الحالة مثيرةً لأعمق اهتمام. أثناء السهرة، عرضَ القضية كلها، انقلاب الجلاد، ما قاله له السجّان عن سلوك ستيبان، كيف كان يقرأ ستيبان الإنجيل، وتأثيره في رفاقه.

أثارت روايةُ ماكين اهتماماً شديداً لدى مستمعيه، ولا سيّما ابنة ايروبكتن الصغرى، ليزا التي بلغت الثامنة عشرة، والتي تركت قبل وقت قصير معهد الفتيات، لقد أخذت تتخلّص من المؤثرات السيئة المظلمة التي خضعت لها، وأخذت تتنفسّ من جديد، وبنشوةٍ، هواء الحياة العليل، كمَنْ يخرج من الماء بعد سقوط عميق فيه.

سألتْ ماكين لكي تكتشف ما الذي أمكن أن يُحدّد مثل هذا التحوّل لدى ستيبان، فكرّر قاضي الصلح ما علمه من العريف وما رواه السجينُ ذاته بصدد جريمته الأخيرة، قال إن الوداعة، واللامبالاة التي أبدتْها ضحية ستيبان الأخيرة أمام الموت، مضافتين إلى قراءة الانجيل قد فتحت عينيه وانتصرت عليه.

تململت «ليزا ايروبكين» طويلاً هذه الليلة وهي تقاوم الأرق، منذ بضعة أشهر، قام فيها صراعٌ ضارٍ بين احتمال حياة اجتماعية تَجْذبها إليها أختها وبين العواطف التي تشعر بها إزاء «ماكين» الذي كان تطمح إلى أن تجعله أفضل، أدركت أن القلب هو الذي انتصر، لقد سمعت ما قيل عن ضحية ستيبان، هدتها روايةُ ماكين، وفقاً لاعترافات القاتل، إلى حياة ماري سيميونوفنا التي أدهشتها كثيراً، كانت ليزا تتمنّى أن تكون مثلها، لكنها كانت غنية وكانت تخشى ألا يكون «ماكين» وقد اهتم بها بسبب غناها فقط، فقرّرت أن توزّع ثروتها، وأطلعت «ماكين» على نيتّها.

اغتبط هذا بهذه المناسبة لإظهاره تجرّده من المنفعة، وليتمكّن من القول لليزا أنه يحبها، وأن مسألة المال لا تلعبُ أي دور في هذا الحب، وأن القرار الذي اتّخذته يدلّ على عظمة نفسها، قد ترك فيه أثراً حسناً.

بيد أن الفتاة اصطدمت بمعارضة أبيها ـ كانت الملكية ملك أمها – الذي لم يشأ أن توزّع ثروتها

دعم «ماكين» ليزا، وكان كلما تصرّف هذا التصرف انفتح أمامه عالمٌ من المطامح الروحية، عالم كان يجهله حتى الآن، وكانت ليزا تجسّده.

ساد الصمت القاعة، وكان ستيبان الذي لم ينم بعد، جالساً في فراشه، دنا منه فاسيلي، وسحبه من ساقه وطلب إليه بصوتٍ خافت أن ينهض ويأتي إلى قربه، أطاع ستيبان.

يا أخي، كلّفْ نفسك وساعِدْني.

فيم أستطيع مساعدتك؟

أريد أن أهرب.

وكشف له فاسيلي عن أنه أعدّ خطة للفرار.

غداً، سأدفعهم (وأشار إلى النائمين) إلى التمرّد، سيبلّغون عني وسأنقل إلى فوق، وهناك، أعرف ما ينبغي لي فعلُه يجب أن تساعدني على خلع شبكة غرفة الموتى.

هذا ممكن، وأين ستذهب؟

حيثما نظرت وجدت الأشرار.

يا أخي ربما كان هناك أشرار، لكن ليس لنا أن نحكم عليهم

ماذا؟ أنا لستُ مجرماً، لم أقتل أحداً، أنا لص، لكن ما الشر الذي في السرقة، ألا يسرق إخواننا؟

هذا شأنهم، سوف يُسألون عن أعمالهم

ما جدوى الحكم عليهم، يا ستيبان؟ لقد سرقتُ كنيسةً، لمن أسأتُ حين فعلتُ هذا؟ صمَّمتُ الآن ألا أنهب الدكاكين، لكني سأعمد إلى سرقة الخزائن، وسأوزّع الغنيمة على الناس الطيبين.

نهض سجينٌ وأخذ يصغي إليهما، وافترقا.

في اليوم التالي لعب فاسيلي لعبته، أعلن أن الخبز سيء وأن الخبز لا يؤكل، وأقنع رفاقه الذين طلبوا أن يتمكنوا من التعبير عن مطالبهم للإدارة، قَدِم المشرفُ، فسبَّ السجناء، وحين علم أن المحرض على التمرد هو فاسيلي، وضعه في زنزانة، وحيداً، في الطابق العلوي، لُبِّيَتْ رغبةُ فاسيلي.

- ٩ -

كان فاسيلي يعرف الزنزانة التي نُقل إليها، أخذ يفكُّ الألواح الخشبية التي تغطّي أرض الزنزانة، دون أن يضيع لحظة، وعمل فيها حفرة قفز منها إلى غرفة الموتى التي تقع في الطابق الأسفل، كانت فيها جثّةٌ على طاولة، كما كان فيها أكياس ستُنقل إلى مخزن الكلأ، كان فاسيلي يعرف جميع هذه التفاصيل، ولهذا السبب قرّر أن يكون فرارهُ من هنا، غادر فاسيلي الغرفة، وبعد أن اجتاز الممر ذهب إلى المراحيض التي كانت تُعدُّ، لقد عُملت في الجدار فتحةٌ تسمح بالنزول إلى القبو، فحص الباب، ثم عاد إلى غرفة الموتى، فرفع الجثة المتجمّدة - لمسها وهو يعرّيها - الكفن الذي يغطّيها، ثم ربط الأكياس، كلّ كيس بالآخر ليصنع منها حبلاً، ثم ربط الحبل بمسمار وأسقطه إلى الأسفل، لم يكن طولها كافياً لتصل إلى الأرض، ولم يكن يدري إن كان يلزمه الكثير ليصل إليها، لكن لم يكن لديه مجال للتردّد، وعندما انزلق إلى آخر الحبل قفز، توجعّت قدماه لكن ذلك لم يمنعه من المشي، كان للقبو نافذتان يمكن المرور منهما، لكن قد وضعت عليهما قضبان، كان لابد من خَلْعها، بمَ؟

أخذ فاسيلي يفتّش، اكتشف قطعاً من الألواح الخشبية، كان أحدهما ينتهي برأس حاد، فحاول بمساعدة هذه القطعة أن يقتلع القرميد الذي

يثبت القضبان عمل طويلاً، صاحت الديكةُ للمرة الثانية، لكن القضبان ظلّت تقاوم، وأخيراً تمكن من إخراج قضيب من أحد طرفيه، غرز فاسيلي قطعة اللوح ونجح في فك قرميدة سقطت فأحدثت صوتاً مدوّياً استطاع الحراسُ أن يسمعوه، جمد فاسيلي، وظل كلُّ شيء هادئاً، انسلّ من النافذة، كان عليه أن يستعجل، لكن لابدّ من اجتياز الجدار، في ركن من الفناء كان يوجد مبنى، كان على فاسيلي أن يتسلقه ثم يقفز إلى الشارع، كان ينبغي له أن يأتي بقطعة اللوح، وإلا لما استطاع التسلّق، ذهب فاسيلي ليأتي بالقطعة، فلما عاد إلى الخارج وقف متنصتاً مِنْ وَقْع الأقدام، أين يوجدُ الحارسُ، تبيّن أنه في الجهة الأخرى من السجن، اقترب فاسيلي من المبنى، وأسند اللوح إلى الجدار وتسلّق، انزلق اللوح نزع جوربيه ليتمكن من التشبث به، وأعاد اللوح إلى مكانه، وحاول من جديد، وتمكّن من التمسّك بالميزاب.

يارب، ساعدني كي لا يَسْقط، كي يَسْندني.

توصل إلى وَضْع ركبته على السطح بينما كان يمسك الميزاب بيد، ويدنو الحارس، فينبطح فاسيلي، دون ضوضاء، على بطنه، ولا يلاحظ الحارسُ شيئاً فيبتعد، وينهض فاسيلي من جديد، فتنزلق صفيحة تحت قدميه، لم يبقْ سوى خطوة أو خطوتين، ثم يأتي الجدار الخارجي، ويبلغه بسهولة وهو يمدّ ذراعه، يبلغه بيد ثم باليد الأخرى ويتمدّد على طوله، ويتمسك بالجدار، حذار من أن تجرح نفسك عند القفز، يدور فاسيلي على نفسه، ويتعلّق بذراعيه، ويرخي يداً، ثم يُرخي الأخرى، ويركض فاسيلي.

في أحد الأرباض، تَفْتح مالانيا البابَ فيدخل فاسيلي، ويَلْبُد تحت غطاء مرقّع لكنه سميك ومشبع بالحرارة.

تضخم جسم السيدة سفنتيسكي الهادئة التي لم ترزق أولاداً، مثل بقرة عاقر، مع أنها كانت امرأة جميلة، رأت من النافذة قاتل زوجها، ورأت أيضاً أن جثته نُقلتْ إلى مكان ما في الحقول، وكان الشعور بهول الجريمة لدى ناتالي ايفانوفنا - هكذا كانت تدعى - عظيماً جداً حتى لقد خَنقَ جميع العواطف الأخرى، كما يقع دائماً، لكن عندما ترك الجمهورُ الأملاك التي كان فيه، وعندما توقف الهديرُ والصراخ، وهُرعت مالانيا الخادمة، حافية القدمين، شاردة العينين، لتعلن أن بطرس نيكولايفتش قد قُتل وأن جسده رُمي في وادٍ، تخلّى الشعور بالهول عن مكانه إلى شعور بالفرح لدى السيدة سفنتيتسكي التي رأت نفسها أخيراً وقد تخلّصت من الطاغية ذي النظارة السوداء الذي استعبدها طوال تسعة عشر عاماً، أرعبتها هذه الفكرةُ، و لم تشأ أن تعترف لنفسها بأنها كانت سعيدة بذلك، ولا سيما أنها لم تقل ذلك لأحد، وعندما رأت جسد زوجها المشوّه الذي كان يُغسل ويُلْبَسُ ثيابه قبل أن يوضع في النعش، خافت وانتحبت.

وصل الوكيلُ المكلّف بالتحقيق، كانت ناتالي ايفانوفنا التي استُدعيتْ كشاهدة، في غرفة القاضي عندما لمحت فلاحيْن مقيّدين يُظَنّ أنهما القاتلان الرئيسيّان، كان أحدهما عجوزاً، له لحيةٌ بيضاء، طويلة، جعدة، ووجه جميل، هادئ، نبيل، والآخر ذو سمات غجرية، جعدة، عيناه سوداوان، وشعره مجعّد، مموّج.

أفادت الأرملة إنها تعرّفت هذين الشخصين باعتبارهما البادئين بالقبض على زوجها، وبالرغم من كلمات الفلاح الشاب: «أنت تُذنبين، يا سيدتي، سنموت جميعاً ذات يوم»، فإنها لم تشعر

بأية شفقة، عليهما، على العكس، فقد تملّكت كيانها كله، أثناء الاستجواب، الرغبةُ في الانتقام.

لكنْ عندما عرضت القضيةُ، بعد شهر، على محكمة عرفيّة حكمت على ثمانية فلاحين بالنفي، وعلى اثنين آخرين - الشيخ والغجري المجعّد - كما كانوا يسمّونه - بالموت شنقاً، عند ذاك أصبحت السيدة سفنتيتسكي نهباً لعواطف مؤلمة جداً.

ومع ذلك، فسرعان ما تخلصت من شكوكها، متأثرةً بمظهر الحكمة الرسمي، وبما أن قضاةً رفيعي المنزلة قد وجدوا ذلك عادلاً فلأن الأمور في الواقع كانت كذلك.

كان تنفيذ حُكم الإعدام سيقع في القرية، وأعلنت مالانيا التي ارتدت فستاناً جديداً ووضعت حذاءً جديداً، لسيدتها، وهي عائدة من القدّاس الربّاني أن المشنقة كانت تُنصَبُ، وأن الجلاد سيأتي في الأربعاء القادم من موسكو، وأضافتْ أن أسر المحكومين كانت تتأوه بلا توقّف وبشدة حتى إن كل القرية كانت تسمعها.

لم تغادر ناتالي ايفانوفنا منزلها لكي لا ترى المشنقة ولا الشعب وتمنّتْ أن يحدث مالا بدّ من حدوثه بأسرع ما يمكن، لم تكن في الواقع تفكر إلا في نفسها، و لم تتّجه أفكارها ثانيةً نحو أسر المحكومين.

- ١١ -

في نهار الأربعاء، استقبلت السيدة سفنتيتسكي عريفاً كانت تعرفه، قدّمت له الفودكا والفطور المملّحة التي أعدتّها، وبعد أن شرب العريف وأكل أخبرها أن تنفيذ الإعدام الذي كان مقرّراً أن يجري في اليوم التالي قد أُجّل.

كيف لماذا؟

إنها قصةٌ غريبة، لم يجدوا جلاّداً، كان في موسكو جلادٌ، لكن هذا الرجل، بحسب ما رُوي لي، يُعلن الآن، بعد أن قرأ الانجيل وأعاد قراءته، أنه لا يستطيع أن يقتل بعد الآن، وهو نفسه محكوم بالأشغال الشاقة بسبب القتل، لكنه لم يقتل، بحسب قانونه الجديد، هُدِّد بالجَلْد، فقال: «افعلوا ذلك، لكني لن أقتل».

احمرتْ السيدة سفنتيتسكي، لقد ألهبها تدفّقُ أفكارها.

أيمكن أن يُعفى عنهما؟

كيف، يُعفَى عنهما، بما أنهما حُكما بقرار المحكمة، القيصر وحده يمكن أن يفعل ذلك.

وكيف يعلم بحالتهما؟

لنا الحقُّ في التماس العفو.

قالت السيدة سفنتيتسكي ببلاهة:

لقد حُكم عليهما بالموت، بسببي، لكني، أنا أغفر لهما.

أخذ العريف يضحك:

حسناً! إذن برِّئيهما!

بالتأكيد، ممكن

هل بقي لديّ وقتٌ؟

برقّياً

إلى القيصر؟

نعم، يمكننا التوجّه إليه أيضاً

إن علْمَ السيدة سفنتيتسكي بأن الجلاد أبى أن يقتل، وأنه مستعدٌ لقبول أشدّ العقوبة، إن ذلك قد زلزلها حتى أعماقها، استولى عليها شعورٌ بالرأفة والرعب، ودفعها إلى العمل.

يا عزيزي فيليب فاسيلييفتش، أتريد أن تحرّر لي برقيةً إلى القيصر.

هزّ العريف رأسه.

يجب أن نكون حذرين، فقد يكلّفنا ذلك غالياً.

لكني أنا المسؤولة، ولن أتكلّم عنك.

فكر العريف: «يالها من امرأة شهمة! ما أعظم طيبتها! لو كانت امرأتي مثلها لكان بيتي جنّة، لكن الأمر ليس كذلك.؟

وحرّر العريف، للقيصر البرقيّة المطلوبة: «إلى صاحب الجلالة الإمبراطورية الإمبراطور.

«إن مواطنةٌ أمينة لجلالته، أرملة بطرس سفنتيتسكي، المساعد في المعهد، والذي قتله الفلاّحون، تجثو عند قدمي جلالته المقدّسيتين - هذا المقطع أعجب المؤلّف على وجه الخصوص - وتلتمس عفوه عن الفلاحين المحكومين بالموت».

وتلا ذلك اسمي المحكوميْن، واسم المقاطعة والمنطقة والقرية التي ارتُكب فيها الجرم.

وقد أرسل العريفُ نفسه البرقية، فرحتْ نفسُ السيدة سفنتيتسكي بدا لها أنها إن غفرت هي، أرملة الضحية، فإن القيصر لا يستطيع أن يرفض العفو.

كانت ليزا ايروبكين تعيش في حالة من الحماسة المستمرة، وكانت كلما سارت في الطريق المسيحية التي انفتحت لها، توطّدت قناعتُها بأن هذه الطريق هي طريق الحقيقة، واستمرّ فرحُ نفسها.

كان عليها الآن مهمتان ملحّتان يجب أن تقوم بهما: تحويل «ماكين» أو على الأصح، ردّه إلى طبيعته الأصلية التي هي خيّرة ونقيّة، كانت تحب هذا الشاب، كان نورُ حبها يضيء نفسها كما يضيء نفس جميع الناس في الأصل، كان ماكين يتميّز، في عينيها، عن عامة البشر بطبيعته وبصفاته العديدة، وبرقته التي يملكها والتي هي خاصة به.

كان هدفها الثاني بلوغ الفقر، كانت تريد أن تتخلّص من ملكيّتها، فتختبر «ماكين» أولاً، ومن أجلها هي، بعد ذلك، من أجل نفسها، لكي تمتثل لقول الانجيل، أخذت توزّع ثروتها، لكن أباها عارض ذلك، وكذلك فإن رسائل الطلبات التي لا تُحصى، والتي تلقتها ثبّطتْ عزيمتها، حينئذ توجّهت ليزا إلى كاهن مشهور بقداسة حياته، فوهبتْه ما تملك، وأذنتْ له أن يستعمل ما وهبتْه الاستعمال الذي يبدو له أفضل شيء، لكن عندما علم الأبُ بنيَّة الفتاة غضب، واستشاط، ونعتها بالمجنونة المستهترة، وأعلن أنه سيتّخذ تدابير لحمايتها من نفسها.

إن هذه الكلمات أخرجت ليز عن طورها، ولمّا لم تعد مسيطرة على نفسها، وجّهت إليه، وهي تبكي، ألفاظاً فظّة واتّهمته بالاستبداد بل وبأنه طامح، حتى إذا هدأت، التمست صفحه، زعم الشيخُ أنه لا يحقد عليها، لكنه ظلّ يحمل في قرارة نفسه ضغينةً عليها، لم تشأ ليزا ايروبكين أن تروي هذه الحادثة لماكين، وكفّتْ أختها التي غارَت

منها عن الاهتمام بها، وهكذا لم تجد ليزا أحداً تركن إليه، لم تجدْ مَنْ تتوب أمامه، حينئذ قالت في نفسها: «يجب أن أتوب أمام الله»، كان ذلك في منتصف الصوم الكبير، فقرّرت أن تصوم، أن تذهب إلى الاعتراف، حتى إذا روت للكاهن كلَّ شيء، طلبت مشورته في الحياة التي يجب أن تحياها.

غير بعيد عن المدينة، كان يقوم ديرٌ فيه راهبٌ أصبح مشهوراً بفضل حياته ومواعظه ونبوءاته وحالات الإبراء التي تنسب إليه.

تلقّى رسالة من ايروبكين الشيخ يخبره بزيارة ابنته، وهو يقدّمها على أنها غيرُ طبيعية، وأنها تعيش في حالة هياج مستمر، وهو يُبلغ الراهب ثقته، ويتمنى أن يدلها على الحياة التي ينْبغي أن تعيشها، في بحبوحة مرُيحة، وأن يُعيدها إلى المبادئ المسيحية التي لا تَقْضي البتّة باختفاء النظام القائم.

كان الراهب الشيخُ حاضراً عندما وصلت الفتاة، وكان قد استقبل الكثير من الزوّار، فنصحها بالاعتدال، وأن تنصاع لشروط حياتها وتطيع أباها، كانت ليزا تصغي إليه بصمت، وهي متأثرة، محمرّة الوجه، وعندما انتهى، استشهدتْ بخجل، والدمعُ في عينيها، بكلام الانجيل: «اتركْ أباك وأمك واتبعني»، ثم عادتْ إليها ثقتها، فقالت كيف أنها تتصوّر يسوع، اكتفى الشيخُ أولاً بالابتسام وبالإجابة بجمل جاهزةٍ، ثم صمت، مردّداً فقط، بين حينٍ وآخر:

آه! ياإلهي.

قال لها وهو يُباركها بيده المتغضنّة:

تعاليْ لتعترفي غداً

في اليوم التالي، استمع إلى اعتراف ليزا، ودون أن يستأنف حديث الأمس، رفض أن يأخذ على عاتقه إدارة أملاكها.

إن نقاء الفتاة، وطاعتها المطلقة للمشيئة الإلهية، وحماستها، كل ذلك أدهش الشيخ، كان يطمع منذ زمن بعيد إلى أن يهجر حياته التي يحياها، لكن رؤوساء الدير أصروا على أن يستمر في نشاطه، وكان نشاطه، بالفعل، يُسهم إسهاماً هاماً في حياة الدير، وقد قبل الراهب بذلك، مع أنه كان يحس بكل ما في وضعه من التباس: كان فيه قدّيساً وصانعاً للعجائب، وبصفته رجلاً ضعيفاً فقد ترك نفسه تنبهر بنجاحاته، وإذا رأى نفس الفتاة في عريها، اكتشف نفسه هو، نفس الشيخ، وظهر له كم كان بعيداً عن الهدف الذي كان قلبُه يقوده إليه.

بعد بضعة أيام من زيارة ليزا، حبس نفسه ثلاثة أسابيع، ثم عاد إلى الظهور، واحتفل بالقدّاس، وألقى موعظة يتوب فيها، كان يتّهم الناس بالخطيئة ويدعوهم إلى التوبة هم أيضاً.

منذ ذلك الوقت، كانت الموعظة التي يلقيها كل خمسة عشر يوماً تجذب عدداً كبيراً من المؤمنين، وأخذت شهرته كواعظ تعظم شيئاً فشيئاً، لأن مواعظه التي تحتوي شيئاً شجاعاً وصادقاً، كانت تُحدث في المؤمنين تأثيراً عميقاً.

في هذه الأثناء، نفّذ فاسيلي مشاريعه، دخل ذات يوم، بصحبة بعض الرفاق، إلى منزل «كرازنوبوزوف»، وهو رجل ثري كان يعرف بخله وعدم استقامته، وبعد أن خلع قفل المكتب، استولى على ثلاثين ألف روبل، واستعملها فيما بعد كما يحلو له، لم يعد فاسيلي يعاقر الخمر، وكان يُعطي الفقراء مالاً، ويساعد الفتيات الصالحات للزواج على أن يجدْن أزواجاً، ويدفع ديونهن إلى دائنين لا موارد لهم، ويتخفّى هو

ذاته: كان له شغلٌ واحدٌ يشغله: أن يهبّ إلى مساعدة الذين يستحقون مساعدته، و لم يكن ينسى أيضاً الشرطة التي تبحث عنه.

كان قلبُه ممتلئاً بالفرح، وعندما انتهى به الأمرُ إلى إلقاء القبض عليه، مثُل أمام القاضي، وضحك أيضاً، وتباهى بأنه اختلس مالاً من برجوازي ضخم الكرش، وكان يحتفظ به بغير دراية ومن غير أن يعرف كم يملك بدقّة، أما هو، فاسيلي، فقد وضع هذا المال موضع التداول، واستطاع بذلك أن يساعد ناساً طيبين.

دافع عن نفسه بطريقة مرحة جداً وبارعة جداً حتى إن المحلفّين كادوا يبرّئونه، ومع ذلك حكم عليه بحظر الإقامة.

شكرهم فاسيلي ووعد بالسفر.

- ١٤ -

لم يكن لبرقية السيدة سفنتيتسكي أيُّ أثر في القيصر، قررّت لجنة العفو أولاً ألا تقدّم تقريراً للقيصر بشأن هذه البرقية، لكن حاله سفنتيتسكي أثيرت بعد ذلك بقليل، أثناء فطور القيصر، وقال رئيس اللجنة الذي كان على المائدة للامبراطور أنه تلقى برقية من أرملة سفنتيتسكي.

قالت قريبةٌ للقيصر.

هذا لطفٌ منها.

تنهد الإمبراطور، وهزّ كتفيه، ولفظَ كلمة «قانون»، وقدَم قدحاً صبَّ فيه خادم نبيذ موزيل الفوّار، تظاهر جميعُ المدعوين بالتعجب من الحكمة الإمبراطورية، و لم يذكر أحدٌ البرقية بعد ذلك.

شُنق الفلاحان، الشيخ والشاب، بيد تتري، وهو قاتل خطير وسارقٌ للماشية، سجينٌ في قازان، وقد قبل أن يقوم بمهمة الجلاّد.

أرادت امرأةُ الشيخ أن تُلبس الجثة قميصاً وصدارةً بيضاء وأن تضع في قدميه حذاءً جديداً، لكنها مُنعتْ من ذلك، ودُفن الجسدان في حفرة، على أرض حبيسة، وراء المقبرة.

قالت الإمبراطورة العجوز لابنها، القيصر:

حدثتني «صوفي فلاديميرونوفنا» أنه واعظٌ رائع.

وأضافت:

مُرْ بمجيئه، يمكنه أن يعظ في الكنيسة.

قال القيصر:

في القصر، أفضل.

وأمر بدعوة الأب «ايزودور».

في كنيسة القصر، كانت جميع الشخصيات الكبيرة مجتمعةً، وكان وجود الواعظ الجديد الذي قيل عنه إنه غير عادي، على المنبر حَدثاً هاماً.

ظهر الشيخ الهزيل الأشيب، ونظر إلى الحاضرين، ولفظ الكلمات الطقسية: «باسم الآب والابن والروح القدس»، ثم بدأ موعظته.

سارت الأمور، في البدء، سيراً حسناً، لكنها كانت تسوء كلما مضى في كلامه، كان يُمعن في التهجم شيئاً فشيئاً، كما قالت الإمبراطورة فيما بعد.

هاجم جميع الناس، تكلّم عن عقوبة الإعدام فعزا ضرورتها إلى سوء إدارة الإمبراطورية، وتساءل: هل يجوز إعدامُ الناس في بلد مسيحي؟

نظر المؤمنون بعضهم إلى بعض، وتساءلوا، وقد بدا عليهم الهم، إن كان شطط الأب «ايزودور» لا يُزعج الإمبراطور، لكن أحداً لم يعبّر عن رأيه بصوتٍ عالٍ

عندما أنهى الأب موعظته، دنا منه رئيس كنيسة العاصمة ودعاه إلى زيارته.

بعد هذا الحديث الذي حضره ممثّل المجمع المقدّس، أُبعِدَ الواعظ الباسل إلى دير «سوسدال» الذي كان الأبل ميسايل رئيسه.

- ١٥ -

جميع الناس الذين استمعوا إلى الأب ايزودور تصرّفوا وكأن الموعظة لم تزعجهم في شيء.

القيصرُ نفسه كان يعتقد أن موعظة الشيخ لم تتركْ فيه أي أثر، ومع ذلك فقد فكّر مرتين، أثناء النهار، في إعدام الفلاحيْن اللذين التمست السيدةُ سفنتيتسكي العفو لهما، أقر برنامج النهار: استعْراض، مقابلة الوزراء، العشاء وأخيراً المسرح، نام القيصر، على عادته، حالما وضع رأسه على الوسادة، شوّش نومَه حلمٌ مرعب: كانت المشانق تُنصب في وسط الحقل، كانت الجثث المعلّقة فيها تتأرجح، وقد أخذت ألسنتها المتدلّية تطول بلا انقطاع، ثم صرخ أحدهم: «هذا عملكَ، هذا عملكَ..». استيقظ القيصر سابحاً في عرقه وأخذ يفكر، أخذ يفكّر لأول مرة في المسؤوليات التي تبهظه، وعادت إلى ذهنه كلماتُ الأب ايزودور.

لكن جميع الكائنات البشرية كانت غريبة بالنسبة إليه، و لم يكن قادراً على أن يحسب حساباً لمتطلبّات الإنسان الأوّلية، للطلبات التي كانت تأتيه من كل الجهات، وكونُ حاجات الإنسان ضروريةً أكثر من حاجات القيصر فكرةٌ كانت تتجاوز فهمه.

- ١٦ -

عندما خرج «بروكوفي» من السجن بعد أن قضى عقوبته الثانية، كان رجلاً منتهياً، وكان من قبل طموحاً، فائراً وشاباً، صار يلازم بيته، جالساً بلا عمل، بالرغم من شتائم أبيه، لكنه كان يأكل ويحاول أن يسرق ليشرب في الحانة، كان يسعل ويبصق ويظل ساكناً بلا حراك، ذهب ذات مرة إلى الطبيب الذي فحصه: وقال له:

يا أخي، أنت بحاجة إلى ما لا تملكه.

بالطبع، الأمور دائماً هكذا.

اشربْ حليباً، ولا تدخِّنْ!

نحن في الصوم الكبير، وليس لدينا بقرة.

في ليلة من ليالي الربيع، لم يستطع النوم، اشتهى أن يَسْكر، كان حزيناً لأنه لم يكن يملك شيئاً يبيعه ليحصل على شيء من المال، وضع «بروكوفي» قبعته، وخرج، بعد أن مشى في الشارع بضع لحظات، ووصل إلى منزل الكاهن، توقّف، كان خروف الشمّاس، مربوطاً بالجدار، في الخارج، دلف إلى الفناء، وحمل الحيوان ليأخذه إلى نزل «بيتروفنا»، وفكر «ربما أعطيتني زجاجة في مقابل هذا الخروف».

لم يكد يخطو بضع خطوات حتى ظهر الشماس على العتبة، وكان نور الصبح قد طلع، فرأى بروكوفي حاملاً غنيمته.

إيه! ماذا تفعل؟

ونبّه النيامَ، فتراكض الناس وقبضوا على بروكوف ورموه في سجن مجلّد من البرد، حكم عليه القاضي بالسجن أحد عشر شهراً.

جاء الخريف، نُقلَ السارق إلى المشفى، كان يسعل، وكان يبدو له أن صدره يريد أن يتمزق، و لم يتمكن من أن يَدْفأ، وبينما كان رفاقه أكثر مقاومة منه، فلم يتألموا من البرد، كان بروكوفي يرتجف نهاراً وليلاً، وكان المشرف لا يُدفئ المشفى قبل شهر تشرين الثاني، توفيراً منه للحطب، كان المريض يتوجّع جسدياً على نحو مروّع لكن إصابته المعنوية كانت أشد أيلاماً، كان مُتعباً من كل شيء وكان يحتقر كلّ أحد: الشماس والمشرف - لأنه كان يترك المرضى في البرد - والحارس وجاره الذي كانت شفتاه حمراوين ومنتفختين وكان يحتقر أيضاً سجين الأشغال الشاقة الذي وُضع منذ فترة قصيرة بجانبه، كان هذا هو ستيبان، كان رأسه، مغطى بالحمرة، فاقتيد إلى المشفى.

لم يلبث احتقارُه لجاره أن تحوّل إلى صداقة، وكان ينتظر بفارغ الصبر كلَّ لحظة يمكنه أن يستأنف الحديث معه، وكانت هذه الأحاديث تطرد المرارة من قلب «بروكوفي».

روى ستيبان للجميع، وفي كل مكان ذهب إليه، جريمة القتل الأخيرة التي ارتكبها، وشرح الأثر الذي أحدثتْه فيه، قال:

إنها لم تصرخْ، وكانت تردّد: «لَئن، فليس ذلك شيئاً، لكنك عندما تقتل فإنما تُهلك نفسك، ارحمْ نفسك!».

الحدث معروف، هلاك النفس رهيب، لكنني تابعتُ، ويا لحمقي، كما بدأتُ، وأنا آسفٌ لما فعلتُ، لم أقتل أحداً، لكن هؤلاء الملاعين أضاعوني... لم أسئْ إلى أحد...

كل ذلك سيؤخَذ بالاعتبار.

أين، كيف؟ والله؟

حسناً! هل تراه؟

أنا، يا أخي، لا أومن به، أظن أن أجسادنا ستسمّد الأرض، هذا كل شيء

أتظن ذلك! لقد ارتكبتُ كثيراً من الجرائم، وتلك المرأة الطيبة التي كانت تسعى إلى مساعدة الآخرين، أتظن أنني هناك معها؟ كلا بالتأكيد، إذن أنت تعتقد أن الروح تحيا بعد الموت؟

بالتأكيد، هذا مؤكّد حتماً.

لم تكن الحياةُ تُريدُ أن تغادر «بروكوفي»، كان يختنق، وعندما جاءت لحظاته الأخيرة، أحسّ بالانفراج، ونادى ستيبان:

وداعاً، يا أخي، أنا أرى، الموت حاضرٌ، كنتُ خائفاً، والآن لستُ أخاف شيئاً، أتمنّى فقط أن يتم ذلك بسرعة.

ومات بروكوفي في المشفى.

- ١٧ -

في هذه الأثناء، كانت شؤون تاجر المنتوجات التصويرية تنهار، كسدت تجارته، ونافسه تاجرُ منتوجات مشابهة منافسةً قاتلة.

كان عليه، مع ذلك، أن يدفع ضرائب باهظة، وفي نهاية الأمر، حُجزَ مخزنُه وبضاعتُه لتُباع بثمن مخفّض بيعاً عمومياً، وعبثاً بحث التاجر وامرأته في كل مكان، لم يستطيعا أن يعثرا على أربعمئة روبل كان يمكن أن تنقذهما، كان الأمل الوحيد ينحصر في «كرازنوبوزوف» وهو تاجر ثريٌّ عشيقتُه صديقةُ بائعة المنتوجات التصويرية.

لكن هذا الأمل كان أيضاً قليل الحظ في التحقق، فكل المدينة كانت تعلم أن «كرازنوبوزوف» كان ضحية سرقة كبيرة، وقد ذهب الناس إلى التأكيد أنه سُلبَ نصف مليون.

قالت التاجرة لزوجها:

ـ أتعلم مَنْ السارق؟ إنه فاسيلي، بّوابنا القديم، يقولون إنه يبذّر المال وأنه رشا الشرطة.

كان نذلاً.. أتذكرين كيف قَبِلَ بسهولةٍ أن يشهد شهادة زور؟ ما كنتُ لأصدّق ذلك!

قيل إنهم رأوه في فنائنا، رأته الطاهية، أكدّت لي أن فاسيلي وهب أربع عشرة فتاةً فقيرة مهورهن.

كم يتقوّل الناس!

في هذه اللحظة، دخل رجلٌ غريب الهيئة، متقدّمٌ في السن، يرتدي سترةً.

ماذا تريد؟

دونك هذه الرسالة لك.

ممّن؟

مكتوبٌ فيها ذلك.

أتريد جواباً مباشراً؟ اصبْر.

لا.

وضع الرجل مغلّفاً كان يحمله في يده وغادر الغرفة بخطاً سريعة، عجيب!

مزّق اوجين ميخابلوفتش المغلّف، لم يصّدقْ عينيه: كان المغلف يحتوي على أوراق من ذوات مئة روبل، أربع أوراق، ما معنى ذلك؟

وكان ضمن المغلّف بطاقة مرسلة إلى التاجر كتبها إنسان أمّي:

«يقول الانجيل: «قابل الشرّ بالخير» لقد أسأتَ إلي كثيراً بورقتك المزورّة، وأنا آذيتُ الفلاح، ومع ذلك فأنا أشفق عليك، دونك أربع أوراق من ذوات المئة، خذها ولا تنس بوّابك فاسيلي؟

قال التاجر لزوجته ولنفسه:

هذا مذهلٌ، في الحقيقة.

وكان كلما فكّر في فاسيلي، أو تحدّث عنه مع امرأته، طَفَر الدمعُ وامتلأ قلبُه فرحاً.

- ١٨ -

خمسة عشر كاهناً كانوا مسجونين في دير سوسدال لأنهم لم يُبدوا إخلاصاً كافياً للارثوذكسية، وكان بينهم الأب «ايزودور»، أمر الأب ميسايل أن يُنقل إلى حُجيرة منفردة ظلّ فيها عدة أيام، بعد ثلاثة أسابيع

من وصوله، قصد الرئيسُ حُجيرات المسجونين، سأل ايزودور ليعلم إن كان له طلبٌ يتقدّم به.

أنا بحاجة إلى كثير مِن الأشياء التي لا أستطيع أن أعدّدها بحضور هذه الكثرة من الناس، أَتحْ لي أن أكلمّك على انفراد.

تلاقت نظراتهما، أدرك ميسايل أن ليس هناك ما يخشاه، فأَمر أن يُؤْخذ ايزودور إلى غرفته حيث يمكنهما أن يظلا منفردين، حينذاك قال للسجين.

تستطيع أن تتكلّم هنا.

ركع ايزودور وقال:

يا أخي! ماذا تفعل؟ ارحمْ نفسَكَ، ليس هناك مذنبٌ أكبرُ منك، إنك تدنس ما هو مقدّس...

بعد شهر، طلب مسايل إخلاء سبيل لا ايـزودور وحده، بل سبعة مسجونين آخرين أيضاً، وفي الوقت نفسه قدّم استقالته، وأعرب عن رغبته في أن يتمكن - لكي يجد الطمأنينة - من أن يعيش في ديرٍ إلى الأبد.

- ١٩ -

انقضت عشرُ سنوات، أنهى ميتياسموكوفنيكوف دراسته في مدرسة البوليتكنيك، وألحقَ كمهندس بجمعية تنقّب عن الذهب في سيبيريا، كان يَقْبض مرتباً ضخماً، أعلمه المدير، وهو يطوف المنطقة، أنه يضع تحت تصرّفه ستيبان، سجين الأشغال الشاقة.

سجين الأشقال الشاقة؟ أليس خطراً؟

لا خوف منه البتّة، إنه قدّيس، اسألْ مَنْ تشاء.

و لم ذاك، يا ترى؟...

ابتسم المدير:

لقد قتل سبع مرات، لكنه قدّيس، إني أتحمل مسؤولية ما أقول.

وقبل ميتياسموكوفينكوف أن يَصْطحب معه ستيبان الذي غدا أصلع والذي لّوحت السمرةُ وجهَه الهزيل.

صحب ستيبان الوديع معلّمه الجديد حيثما ذهب، كان يهتّم بالأولاد، ويُعنى، على الخصوص، بميتيا الذي روى له حياته كلها، و لم وكيف جاء إلى هنا، وكيف وممّ يعيش.

والشيء المدهش أن ميتيا، الذي كان همّه حتى الآن أن يأكل ويشرب ويلعب بالورق ويتخذ عشيقات له، فكّر لأول مرة في حياته بالحياة التي يحياها، أبت الأفكارُ الجديدة أن تتركه، وقلبتْه قلباً بهظه ثقلُ الندم المتعاظم أبداً، وفي هذه الفترة عُرض عليه وضعٌ أكثر دخلاً لكنه رفض، لأنه صمّم أن يشتري ملكيةً في الريف وأن يتزوج وأن يضع جميع قواه في خدمة الشعب.

- ٢٠ -

وهذا مافعله، وقبل ذلك زار أباه، كانت علاقاته به متوتّرة بسبب زواج جديد للأب استاءَ منه الابنُ، جاء ميتيا الآن، وهو راغبٌ في أن يُصالح أباه، دُهش الأبُ أول الأمر، هزئ أولاً من ابنه، لكنه سرعان ما تخلى عن موقفه العدائي، وتذكّر كثيراً من الحالات التي أساء فيها التصرّف مع ابنه.

***

الكسي الابريق[1]

١٩٠٥

كان «الكسي» الابن الأصغر، وقد لُقِّب بالإبريق لأن أمه أرسلته، ذات مرة، ليحمل ابريقاً من الحليب إلى امرأة الشمّاس، فزلّت قدمُه وكسر الإبريق، ضربتْه أمُّه وشاكسه الأولاد بهذا الإبريق: اليوشا الابريق! ولازمه هذا اللقبُ، كان الكسي فتى صغير القامة، هزيلاً، متباعد الأذنين وكأنهما جناحان، طويل الأنف جداً، وكان الأولاد يشاكسونه: «أنفُ اليوشا مثل كلبٍ على أكمة!».

كان في القرية مدرسةٌ، لكن الكسي لم يكد يستفيد منها: لم يكن لديه وقتٌ للتعلم، كان أخوه الأكبر يشتغل في المدينة عند تاجر، وأخذ الكسي، منذ الصغر، يساعد أباه، ففي السادسة، كان يحرس، برفقة البنات الصغيرات، الخراف والبقرات في المراعي، وبعد ذلك بقليل أخذ يحرس الخيول ليلاً نهاراً، ومنذ الثانية عشرة، صار يحرث ويقود العربة، لم يكن كثير القوى، لكنه كان حاذقاً جداً، كان مرحاً أبداً، كان الأولاد يهزؤون منه، فيصمتُ أو يضحك، وعندما كان أبوه يوبّخه، كان يصمت ويصغي فإذا كفّ الأبُ عن توبيخه، ابتسم الكسي، واستأنف عمله.

---

١ - كتبت هذه الأقصوصة بين ٢٤ - ٢٨ شباط ١٩٠٥، ونموذج الشخصية الذي احتذاه المؤلف هو مساعد الطاهي في اياسنايا بوليانا الملقب «اليوشا غورشوك».

كان عمر الكسي تسعة عشر عاماً، عندما سافر أخوه ليؤدّي خدمته العسكرية، فأرسل الأبُ ابنه ليكون بوّاباً عند التاجر، أعطي الكسي جزمة أخيه العتيقة، وقبّعة أبيه، وسترة، وأُخِذَ إلى المدينة كان الكسي معجباً بلباسه، لكن التاجر لم يرض أبداً عن هيئته، وقال وهو يتفحّص الكسي:

كنتُ أظن أنك ستأتيني برجلٍ ليحل محل سيميون، وها أنت تأتيني بهذا البليد، لَمَ يَصْلح؟

يستطيع أن يقوم بأي عمل: رَبْط الحصان، التبضّع، وهو يُحسن العمل، إن يبدو بليداً، لكنه قادر جداً، وهو فوق ذلك متواضعُ جداً.

حسناً! ما العمل؟ سنرى. دعْهُ.

بدأ الكسي حياته عند التاجر، لم تكن أسرةُ التاجر كبيرة: كانت تتألف من امرأته وأمه العجوز، ابنه البكر، المتزوج، الذي لم يتعلم إلا قليلاً والذي كان يعمل مع الأب، وابن آخر، متعلم تخرج من المدرسة الثانوية ثم دخل الجامعة التي طرد منها، وهو الآن يعيش في البيت، وبنتٍ ما تزال في المدرسة الثانوية.

في البدء، لم يُعجب الكسي أحداً، كان مسرفاً في قرويته، رديءَ الملبس، سيء التربية، وكان يخاطب الجميع بضمير المفرد، لكنهم ما لبثوا أن ألفوه: وكان يعمل أفضل من أخيه، ولا يناقش بالفعل، أحداً، كان يكلف جميع الأعمال فيقوم بها جميعاً راضياً وبسرعة، وينتقل، دون استراحة، من عمل إلى الآخر، في محل التاجر وفي البيت على حد سواء، كان العمل كله على ظهره، وكان كلما اشتغل ازداد ما يعطونه من شغل، كانت زوجة التاجر وأمه وابنته، وكان الابنُ والمستخدم

والطاهية، كانوا جميعاً يرسلونه إلى هذا المكان حيناً، وإلى ذاك حيناً آخر، مكلّفينه هذا العمل تارةً وذاك تارةً أخرى. كان يَسْمعُ طوال الوقت: «أسرعْ، يا صاحبي، إلى هناك! ... اليوشا دَّبرْ هذا... ماذا، اليوشا، ألم تعمل ذاك؟... اليوشا، انتبهْ، لا تنْسَ...» وكان اليوشا يركض ويرتّبوينتبه ولا ينسى، ويعمل كل شيء وهو مبتسم أبداً.

سرعان ما أَتْلفَ جزمة أخيه، فأخذ المعلمُ يوبّخه لأنه كان ينتقل جزمةً ممزّقة تطلُّ منها أصابعُه العارية، وأمره أن يشتري جزمة جديدة من السوق، اشترى جزمةً جديدةً وفرح بها، لكن قدميه كانتا مدميتين، وكان يتألم كثيراً منها، في المساء، بعد جولاته، وكان مستاءً منها، وخاف اليوشا أن يستاء أبوه، عندما يأتي ليتسلم الأجرة من خَصْم التاجر لثمن الجزمة.

حتى في الشتاء، كان الكسي ينهض قبل طلوع النهار، ويقطع الحطب، ويكنسُ الفناء، ويطعم البقرة والحصان ويسقيهما، وبعد ذلك، كان يشعل المدفأة، ويلمّع الجزمات ويُعدّ السماور ويجلوها، حينذاك كان المستخدم يناديه ليساعده في إخراج البضاعة، أو تأمره الطاهية بعجن العجين، وتنظيف الصحون، ثم كانوا يرسلونه إلى المدينة، ليحمل بطاقةً تارةً، وليأخذ البنت إلى المدرسة تارةً أخرى، وليأتي بزيت القنديل للعجوز في أحيان أخرى.

كان يقول له أحدهم حيناً: «أين اختفيتَ، ياملعون؟» ويقول غيره أحياناً آخر: «لا تكلّف نفسك الذهاب إلى هناك، سيركض اليوشا إليه، اليوش، اليوشا!». فيركض اليوشا.

كان يتناول فطوره، وهو يركض، ونادراً ما كان يتناول غذاءه مع الناس، كانت الطاهية توبّخه لأنه لا يأكل مع الآخرين، بيد أنها كانت

تشفق عليه، وتحتفظ له بشيء ساخن للغذاء والعشاء، كان العمل كثيراً في عشيّات الأعياد وأيامها، لكن اليوشا كان يحب الأعياد لأنه كان يُعطَى حلواناً، وهو حلوان قليل في الحقيقة لأنه كان يحصل على ستين كوبيكاً، لكنه كان مالاً هاماً بالنسبة إليه، أما أجرته فلم يرها قط، ذلك أن الأب كان يأتي ويتسلّم المال من التاجر، وقد وُبِّخ الكسي فقط لأنه أتلف جزمته بهذه السرعة.

عندما جمع روبلين من الحلوان، اشترى، بناءً على نصيحة الطاهية، بلوزةً حمراء مَحكية، وعندما لبسها، ظل فاغر الفم من السرور، كان الكسي قليل الكلام، فإذا تكلّم أَوْجز دون أن ينظر إلى محدثه، وكان إذا أمر بفعل شيء أو إذا سُئِل إن كان يستطيع أن يفعل هذا الشيء أو ذاك، كان يجيب، دون أدنى تردّد، أنه يستطيع ذلك، ويعكف عليه بسرعة.

لم يكن يعرف أية صلاة، وقد نسي الصلوات التي علّمته إياها أمه، ومع ذلك كان يصلي صباحاً ومساءً، وكانت صلاته عبارة عن حركاتٍ بالأيدي.

عاش هكذا سنة ونصف، وفي أثناء النصف الثاني من السنة الثانية، وقع له أغربُ حادثٍ في حياته، وها هو ذا، لقد دهش حين علم أن بين الناس، فيما عدا العلاقات القائمة على حاجة كل إنسان إلى الآخر، علاقات شديدة الخصوصية أيضاً، إن الكائن الإنساني قد يحتاج إلى الآخر، لا ليساعده، ولا لينظّف له جزمته، ولا ليحمل شيئاً اشتراه. ولا ليربط حصاناً بل رغبةً منه في خدمته وملاطفته فقط، وإن مثل هذه العلاقات توجَد معه، تعلّم ذلك من الطاهية «اوستينا»، كانت «اوستينا» يتيمة شابة، مثابرة على العمل مثل اليوشا، وقد أحسّ اليوشا

للمرة الأولى، أنه كان هو نفسه ضرورياً لإنسان آخر، لا خدماتُه، عندما كانت أمه تظهر عطفها عليه فإنه لم يكن يلاحظ ذلك، كان ذلك يبدو له طبيعياً جداً، وكأنه هو نفسه يعطف على نفسه، لكنْ ها هو ذا يلاحظ هنا، فجأة أن شخصاً غريباً يرأف به، كانت تحتفظ له في الوعاء بحساء الحنطة مع الزبدة، وبينما كان يأكله، وذقنه مستندة إلى قبضته، كانت هي تنظر إليه، ألقى عليها نظرةً، فأخذت تضحك، وأخذ هو يضحك أيضاً.

كان ذلك جديداً كل الجدّة، غريباً كل الغرابة، حتى إن الكسي خاف، أحسّ أن ذلك سيمنعه من القيام بعمله كما قام به حتى الوقت الحاضر، لكنه كان سعيداً مع ذلك، وعندما كان ينظر إلي بنطاله الذي رقعته اوستينيا كان يهزّ رأسه ويبتسم، وكثيراً ما كان يفكر فيها، وهو يعمل أو يجري ويتمتم: «هيه! هيه! اوستينيا!» كانت اوستينيا تساعده قدر استطاعتها وكان هو يساعدها أيضاً، كانت تروي له حياتها: أنها أصبحت يتيمة، أن عمتها أخذتها إلى بيتها، ثم استُخدمتْ في المدينة، أن ابن التاجر غازلها، وأنها وضعته عند حدّه، كانت تحبّ الحديث، وكان يسره أن يستمع إليها، لقد سمع الناس يروون أن الفلاحين الذين يعملون في المدينة، يتزوجون الطاهيات في الغالب، سألته مرة إن كانوا سيزوجونه عما قريب، فأجاب أنه لا يعلم شيئاً بعد، وأنه لا يحب أن يتزوج فتاةً من قريته، قالت:

ماذا! هل وضعتَ عينيك على أحد؟

نعم... سآخذك أنتِ... أتقبلين بي؟

إنه لإبريقٌ حقاً! وما أحسن الطريقة التي قال بها ذلك! و لِمَ لا أقبل بك؟

قالت ذلك وربّتت كتفه.

أثناء الصوم الكبير، جاء العجوز إلى القرية طلباً للمال، علمت امرأة التاجر أن الكسي ينوي الزواج بالطاهية، و لم يكن ذلك يروق لها، قالت لزوجها: «سوف تحمل وتغدو غير صالحة لشيء مع ابنها».

سلّم التاجرُ الأبَ أجرة الكسي، وسأل الفلاحُ:

وبعد! كيف يعمل؟ قلتُ لك إنه لا يناقش.

نعم... لكنه يرغب في أن يرتكب حماقة... إنه يريد أن يتزوّج الطاهية، وأنا لا أريد خدماً متزوجين، هذا لا يلائمني...

قال الأب:

الغبي! هذا ما اخترعه! ليس هذا شيئاً ذا بال، سآمره بالعدول عن هذه الحماقة...

مرّ الأب بالمطبخ، وجلس أمام الطاولة ينتظر ابنه، كان اليوشا قد ذهب بمهمة، رجع وهو يلهث، قال الأب:

ظننتُك فتى رزيناً، فإذا بك تخترع ذلك الشيء!

أنا؟... لاشيء...

كيف لا شيء؟ تريد أن تتزوج، سأزّوجك إذا حان موعد الزواج، وبمن تليق بك، لا بفاجرة من المدينة.

تكلّم الأبُ طويلاً، كان اليوشا واقفاً يتنهّد، فلما انتهى الأبُ من كلامه، ابتسم اليوشا.

حسناً! يمكن العدول عن ذلك...

طيّب.

بعد سفر أبيه، وعندما ألفى نفسه وحيداً مع اوستينيا، روى لها ما قاله (كانت مختبئة خلف الباب وقد سمعت كل شيء.)

ليست أمورُنا على ما يُرام... هل سمعتِ؟ لقد غضب ومنعني من ذلك.

كانت تبكي بصمت، وهي تمسح عينيها بوزرتها، صفق اليوشا بلسانه:

كيف لا أطيع؟... لابدّ من الطاعة... يجب أن نعدل عن ذلك.

في المساء، عندما زارته امرأة التاجر ليغلق المصاريع قالت له:

وبعد! استمعتَ إلى أبيك، وعدلتَ عن حماقتك؟

أجاب اليوشا وهو يضحك ويبكي في آن واحد:

نعم... عدلنا عن ذلك.

منذ هذا اليوم، لم يكلّم اوستينيا عن الزواج، وعاش كما كان يعيش من قبل، أثناء الصوم الكبير، أرسله المستخدم لينظّف الثلج عن السطح، صعد السطح وكنس الثلج كله، وأخذ ينزع الثلج المتجمّد قرب الميزاب، زلَت قدماه وسقط مع رفشه، ولسوء حظه سقط على باب حديدي بدلاً من أي يسقط على الثلج، هُرعت اوستينيا ومعها ابنة التاجر.

هل أصابك مكروه، اليوشا؟

أوه! لا مكروه... ليس هذا شيئاً.

أراد أن ينهض فلم يستطع وابتسم، نُقِل إلى مأوى البوّاب، جاء ممرّض يفحصه وسأله أين يتألم.

أتألم في كل موضع من جسمي، لكن هذا ليس شيئاً... لكن المعلم سيغضب... يجب إخبار أبي.

لزم الكسي الفراش يومين، وفي اليوم الثالث استُدعي الكاهن.

قالت اوستينيا:

ماذا! هل ستموت؟

فقال اليوشا بسرعة، على عادته:

وكيف! لا نستطيع أن نعيش إلى الأبد، لا بدّ من أن نموت ذات يوم... شكراً اوستينيا، فقد كنتِ لطيفة معي... أرأيت، كان أفضل لنا أنهم لم يسمحوا لنا بالزواج، وإلاّ، فكيف كانت ستصير الأمور؟... الآن تحسنّت الحال...

صلى مع الكاهن، لكنْ بيديه وقلبه، على عادته، وأحسّ في قلبه أنه كما يمكن أن يكون بخير، في هذا العالم، عندما يطيع ولا يفعل شراً، فكذلك سيكون في العالم الآخر، كان يتكلّم قليلاً، ويطلب فقط أن يشرب، ويدهش من شيء ما.

دهش من شيء ما، وتمطّى ومات.

***

يوميات الشيخ فيدوركوزميتش
التي ظهرت بعد وفاته

شاعتْ أعجبُ الأنباء عن فيدور كوزميتش الذي ظهر في سيبيريا سنة ١٨٣٦ وعاش فيها طوال سبع وعشرين سنة في أماكن شتى، شاعت حتى في حياته، وكانت تذهب إلى أن هذا الرجل الذي أخفى اسمه وألقابه ليس سوى الإمبراطور الاسكندر الأول.

وبعد موته، تعزّزت هذه الشائعات إذ انتشرت، لم يكن يُعتقد بين الشعب فقط أنه الاسكندر الأول فعلاً، بل وأيضاً في الدوائر العليا وفي الأسرة الإمبراطورية في عهد الاسكندر الثالث، وكان العالم «شيلدر[١]» مؤرخ عهد الاسكندر الأول يعتقد ذلك أيضاً.

كانت عدة ظروف، أصل هذه الشائعات، أولاً، كون الإمبراطور مات فجأةً دون أن يكون قد تألم من مرض خطير، الأمرُ الثاني هو أنه توفيّ بعيداً عن الجميع، في مدينة «تاغانروغ» الصغيرة، وثالثاً، إن جميع الذين حضروا وضعه في التابوت رووا أن ملامحه قد تغيرّت كثيراً حتى أصبح لا يعرف، ولذلك قيل إنَّ النعش أُغلق و لم يسمح

١ - العالم شيلدر: الجنرال نيكولا كارلوفتيتش شيلدر ١٨٤٢ - ١٩٠١، مؤرخ كتاب في أربعة مجلدات عن «الاسكندر الأول» ظهر في ١٨٩٨.

لأحد برؤيته الدليلُ الرابع هو أن الاسكندر الأول، كثيراً ما كان يقولُ بل ويكتب أحياناً، كما هو معلوم، - وقد تزايد ذلك منذ بعض الوقت - أنه لا يرغبُ إلا في شيء واحد، أن يدع مهّماته ويهرب من العالم، خامساً وأخيراً، وهو ظرفٌ لا يُعرف إلا قليلاً، أنه قيل في المحضر الذي وُصف فيه جسدُ الاسكندر الأول أن الظهر حتى بداية الفخذين كان يحمل بقعاً زرقاء مائلة إلى السوداء وحمراء قانية، لا يمكن أن توجد على بشرة الإمبراطور التي يكاد يكون بياضها أنثوياً.

والذي سوّغَ التفكير في أن كوزميتش قد كان الاسكندر ذاته متخفيّاً هو أن قامة هذا الشيخ وقدّه ومظهره الجسدي، كل ذلك كان مطابقاً للذي في الإمبراطور (تعرف الخدمُ الفرّاشون الاسكندر في كوزميتش)، بحيث أن جميع الذين عرفوا الإمبراطور أو رأوا صورته وجدوا بينه وبين كوزميتش شَبَهاً مذهلاً: كانا يبدوان في السنّ نفسه، كانا مقوّسي الظهر بالطريقة المميّزة ذاتها، وثانياً، إن كوزميتش الذي كان يزعم إنه شريد وأنه نسي أصوله كان يعرف عدة لغات أجنبية، وكانت تصرفاته المهيبة، وطريقته في التلطّف المتنازل، تدهش الناس الذي يشغلون أعلى المراكز، وفضلاً عن ذلك، وثالثاً، إن الشيخ أبى أن يكشف لأحد عن اسمه ولقبه، لكنه كان أحياناً، يطرح نفسه، في بعض الجمل التي تُفلت منه على أنه كائن سيطر قديماً على الناس جميعاً، رابعاً إنه أتلف قبل موته بعض الأوراق، لكنْ وجدتْ مع ذلك ورقة عليها أحرف غريبة مرقّمة، والحرقان الأولان من اسمه: ا...ا...، خامساً وأخيراً، إن الشيخ، بالرغم من إيمانه، لم يعترف قط، وعندما زاره كاهنٌ وحاول أن يُقنعه بأن عليه أن يتمّم واجباته كمسيحي، أجابه:

إن لم أقلْ، وأنا أعترفُ، من أنا، فسوف تدهش السماءُ، وإن قلتُ مَنْ أنا، فسوف تدهش الأرضُ.

هذه الافتراضات، والشكوك بطلت لتغدو حقيقة في اليوم الذي وُجدت فيه مذكّرات كوزميتش، وهي تبدأ على النحو التالي.

- ١ -

احفظْ، يارب، الصديق الكريم ايفان غريغوريفتش الذي قدّم لي هذا المأوى البديع، لستُ جديراً بطيبته ولا بالفضل الإلهي، أنا هادئ البال هنا، قلّةٌ هم المارة، أنا وحدي مع ذكرياتي كمجرم، ومع الله، سأحاول الإفادة من هذه الوحدة لأروي حياتي بالتفصيل، وستكون هذه الحياة، بالنسبة إلى الكثيرين، درساً مليئاً بالعظات.

ولُدتُ وقضيت سبعةً وأربعين عاماً من حياتي في قلب تجارب رهيبة، وأنا لم أمتنع عن مقاومة هذه التجارب فحسب، لكنني قد ثملتُ بها، خضعتُ لإغوائها وأغويُت غيري، خَطِئْتُ وأكرهت الآخرين على الخطيئة، لكن الله التفتَ إليَّ وبدتْ لي حقارة حياتي، وهي حقارة كنت أحاول تسويفها لعيني وأنا أحمل الآخرين وزْرها، في كل فظاعتها، وأعانني الله على الشفاء، لا من الشر - فالشر ما يزال يملكني بالرغم من الصراع الذي أخوضه ضدّه - بل من كوني أسهمت في الشرّ أية آلام لم تستشعرها نفسي وماذا جرى فيها عندما أدركتُ للمدى خطيئتي التي ينبغي أن أكفّر عنها لا بالإيمان بهذا التكفير بل بالفداء.

لا أريد الآن أن أتحدث عن أفعالي: كيف استطعتُ أن أترك منصبي وكيف مَرَّرت جثّة جندي تركتُه يُعذَّب حتى الموت على أنها جثّتي،

وإنما سأروي حياتي منذ بدايتها، فهكذا أستطيع أن أهرب، عشتُ في «تافانروغ» في الجنون نفسه الذي لازمني طوال أربع وعشرين سنة، أنا أكبر المجرمين، القاتل أباه، القائل مئات آلاف البشر الذين ماتوا خلال الحرب التي كنت مسؤولاً عنها، الغادر، الماجنْ، المذنب، كنت أصدّق ما يقال عني، كنتُ أعتبر نفسي منقذ أوروبا، المحسن إلى الإنسانية، الكمال الاستثنائي، المصادفة السعيدة، كما قلتُ للسيدة «دي ستال»، كنت أرى نفسي كذلك، لكن الله لم يتخلّ عني تماماً، وكان صوت ضميري الساهر يؤرقني أبداً، لم يبق لشيء من قيمة، كان الناس جميعاً مذنبين، وأنا وحدي كنتُ صالحاً، و لم يكن ليفطن إلى ذلك أحدٌ، كنت أتوجّه إلى السماء وأصلي تارةً لإله الارثوذكس، وتارةً أخرى لإله الكاثوليك، وفي بعض الأحيان لإله البروتستانت، وفي أحيان أخرى لإله النور، كنتُ أتوجه إلى الله نفسه أمام الناس ليُعجبوا بي، كنتُ أحتقر جميع الناس، لكن رأي هذه الكائنات التي احتقرتها كان في نظري هو وحده الذي يُعول عليه، فمن أجله وتبعاً له كنت أعيش وأتصرّف.

كنتُ أستفظع الحياةَ وحدي، لكن الحياة مع امرأتي[٢] كانت أفظع أيضاً، كانت تسمّم حياتي أكثر من أي شيء آخر، هي الضيقّة التفكير، الكذّابة، الحقودة، الخبيثة، المصدروة، والتي كلّها رياء، كان يُظّنّ أننا نعيش شهر عسل متجدّد، لكن هذا العسل كان سمّاً قاتلاً وخفياً.

أحسستُ ذات يوم أنني تعسٌ جداً، ذلك أني تلقيتُ عشية أمس رسالة من «آراكتشييف» يحدثني فيها عن مقتل خليلته. وصف لي حزنه وأساه، والشيء المدهش أن التملق المستمر المليء بالرهافة الذي

---

٢ – امرأتي: الامبراطورة اليزابيت ابنة حاكم «باد».

كان يُغدقه عليّ أبداً، وموقفه مني في حياة أبي عندما كنا نحن الاثنين نركن إليه سراً عن جّدتي، وهذا الإخلاص كإخلاص الكلب الأمين، كل ذلك قد أفضى بي، في هذه الآونة الأخيرة، إلى أنني إن كنتُ أحب أحداً فقد كان هذا الرجل، لكنْ هل يجوز استعمال كلمة «حب» أثناء الكلام على هذا الوحش؟

إن ما علّقني به هو أنه كان مخلصاً لأبي كما كان مخلصاً لي، بدلاً من أن يشارك في مقتل أبي مثل كثيرين غيره احتقرتهم لأنهم كانوا شركائي بالذات، وسأتحدّث فيما بعد عن ذلك كله.

نمْتُ لماماً، وشدّ ما أدهشني أن مقتل نستازيا الجميلة والخبيثة

كانت جميلة إلى حدّ غريب - قد منعني من النوم وأقضّ مضجعي طوال الليل، وكنتُ أتألم فوق ذلك أيضاً، استأتُ لعلمي أن امرأتي مسلولة مقعدة، ولا جدوى منها البتّة في حياتي، لعلمي أنها مضجعة، تفصلها غرفةٌ عني، وآلمتْني أيضاً ذكرى ماري[٣] (ناريشكين) التي فكّرتُ فيها، لقد تركتني من أجل دبلوماسي باهت، أراد القدر، وهذا جليّ، أن نحسد وأبي آل غاغارين... لكنني تركت نفسي تنساق وراء الذكريات...

نمتُ لماماً، طلع الفجر، أزحتُ الستار، وارتديت بلوزةً بيضاء وناديت الخادم، لم يكن قد استيقظ أحدٌ بعد، ارتديتُ سترةً، ومعطفا مدنياً، ووضعتُ قبّعة على رأسي، ومضيت إلى الشارع ماراً بالحراس، بدأت الشمس تلمع فوق البحر، كان ذلك يوماً ندياً من أيام الخريف،

---

٣ - قتلت خليلة اراكتشييف نستازيا منكينا، على أيدي خدامها الذين لم يتحملوا فظاظتها.

ما إن صرتُ في الهواء الطلق حتى أحسستُ بالتحسّن، إذ تبدّت أفكاري السوداء، اتّجهتُ إلى البحر الذي كان يتراقص تحت الشمس، في بعض المواضع.

وقبل أن أبلغ زاوية الشارع، حيث المنازل الخضراء، سمعت ضجيج طبول وأبواق آتياً من الساحة، أصختُ السمعُ وعلمت أن العقوبة ستُنفذ على هذه الساحة، لقد اقتيد المحكوم بين صفّين من الجنود.

وأنا الذي أذنتُ بكثير من العقوبات الأخرى لم أر واحدة منها، والشيء الغريب - ولعل ذلك كان بتأثيرٍ شيطاني - أنني كنتُ أفكر في مقتل نستازيا الجميلة والحسّاسة وفي عقوبة فَسْخ الجنود، في آن واحد، وهو شعور مثير، تذكرتُ جميع هؤلاء «السميونوفيين[٤] الذين اقتيدوا هم أيضاً بين صفوف الجنود» وأولئك المستوطنيين العسكريين الذين جُرَّ المئات منهم إلى الموت، وفجأة خطر لي أن أذهب لرؤية هذا المشهد، كان ذلك ممكناً، لأنني كنتُ باللباس المدني، كلما كنتُ أمضي كنتُ أسمع بوضوح أكبر ضوضاء الطبول والأبواق، ولمّا لم أكن أضع نظّارةً، فقد كنتُ لا أرى جيداً بعينيّ القصيرتي النظر، لكني ميّزتُ ظهراً أبيض لرجلٍ بين صفّين من الجنود، وعندما اختلطتُ بالجمهور الذي كان ينظر إلى المشهد خلف الحاجز أخرجتُ نظارتي واستطعتُ أن أرى بوضوح كل ما يجري، كان الرجل ذو القامة العالية الذي رُبطتْ بحربةٍ يداه العاريتان ورأسه المكشوف، والذي تقوّس ظهره ودميَ في بعض المواضع، يتقدّم على الرصيف

٤ - السميونوفيين: جنود من فوج سميونوفسكي تمردوا سنة ١٨٢٠ على قائدهم القاسي فعوقبوا عقاباً شديدا.

بين الجنود المجهزين بعصيّ، إن هذا الرجل هو أنا، كان يشبهني كل الشبه في كل شيء، القامة نفسها، الظهر المقوس نفسه، الفم نفسه العينان الزرقاوان نفسهما، لكن الفم لم يكن باسماً، كان منقلباً بسبب الصرخات التي انطلقت تحت وقع الضربات أما العينان فلم يكونا وادعتين، وإنما أحاطت بهما دوائر زرقاء على نحو شديد، وكانت جفونه ترفّ بلا انقطاع.

عندما نظرتُ إلى وجه هذا الرجل عرفتُه، كان هذا هو الجندي ستروفسكي ضابط الصف الذي ينتسب إلى جناح ميسرة الكتيبة الثالثة في فوج سيميونوفسكي، الذي يعرفه جميعُ الحرس بسبب شبهه بي - وقد لقّبوه مازحين الاسكندر الثاني، لم أكن أجهل أنه نُقل إلى حامية الموقع مع حرس آخرين من فوجه ممّن تمردّوا، وأدركتُ أنه ارتكب ذنباً ما منذ وصوله إلى الموقع، ولعله أوقف في حين كان يحاول الفرار، وهو الآن يُعاقَبُ، وعلمتُ فيما بعد أن الأمر كان كذلك.

كنتُ أنظر إلى هذا البائس وهو يتقدّم، كالمسحور، وأرى كيف كانوا يضربونه، وأحسّ بشيء يجري فيّ، لاحظتُ فجأة أن المشاهدين على جانبيّ كانوا يلاحظونني، ابتعد بعضهم عني واقترب آخرون، كان واضحاً أنهم عرفوني، حين رأيتُ ذلك انقلبت راجعاً إلى القصر، ظلّت الطبول تقرع والأبواق تدوّي، فلا شك إن العقاب مستمرّ، سيطرت علي الفكرةُ التالية وهي أنني ينبغي أن أشاطر شبيهي آلامه، وإن لم أشاطره إياها فعلى الأقل أن أقرَّ بأن ما كان يتمّ فيّ لابد أن يكون كذلك، لكني شعرت أنني لا أستطيع ذلك، وأحسستُ أيضاً أنني إن أعترف أن الأمور يجب أن تكون كذلك، وأن ذلك عادلٌ، فينبغي أن أعترف حينئذٍ أن الشر موجودٌ في حياتي بأسرها وفي جميع أفعالي،

وينبغي لي أن أفعل ما أردتُ دائماً أن أفعله: أن أهجر كل شيء، أن أهرب، أن أختفي.

استولى عليّ هذا الشعورُ كلياً، كنت أقاومه، كنتُ أسلّم بأن هذا العقاب يجب أن يتم، وأنه ضرورةٌ مؤلمة، وكنتُ أسلَم أيضاً بأنني كان يجب أن أكون محل هذا البائس، ومع ذلك فمن المدهش أنني لم أشفق عليه، وبدلاً من أن أضع حدّا للتعذيب، توجهتُ إلى مسكني خوفاً من أن أُعرَف.

مالبث قرع الطبول أن توقّف، وعندما عدتُ إلى القصر أحسستُ بأني تخلصتُ من الشعور الذي أثقل صدري في الساحة، شربتُ شاياً واستمعتُ إلى تقرير فولكونسكي[٥]، تناولتُ فطوري بعد ذلك بصحبة امرأتي، كما هي عادتي، وفي جو الرياء المعتاد، ثم قرأ عليّ «دييبتش» تقريره المتعلق بالمعلومات المجموعة عن جمعية سرّية، وإذا شاء الله أن أكتب ذات يوم قصة حياتي كلها، فسأتكلم عن ذلك بتفصيل أكبر، أمّا في هذه اللحظة فسأقول فقط إني استقبلت هذه الأنباء دون أن أعلّق عليها أهميّة، استغرق ذلك وقتي حتى آخر الفطور، وبعد الطعام انسحبتُ إلى مكتبي، واضجعتُ على الأريكة، ونمتُ على الفور، لم تكد تمضي خمس دقائق حتى استيقظت: سرى في جسدي تيارٌ، سمعتُ الطبول والأبواق والضربات، وصرخات سترومنسكي، ورأيته، أو رأيت نفسي، لستُ أدري، كان إياي أو كنتُه، وكنت أرى سحنته المتألمة، وانتفاضاته اليائسة، ووجه الجنود والضباب المحزون، سرعان ما تركتنني هذه الرؤيا، وثبتُ من الأريكة، وزرّرت سترتي، ووضعتُ قبعتي وخرجتُ قليلاً قائلاً إنني ذاهبٌ لأتنزّه.

---

٥ - فولكونسكي: الأمير فولكونسكي، وزير البلاط.

كنت أعرف أين يقع المستشفى العسكري، فقصدته مباشرة، أثار وصولي، كما هي الحال دائماً، نشاطاً عاماً، هُرعَ الطبيبُ الرئيسي وهو يلهث، وكذلك آمر الموقع، أعربتُ عن رغبتي في زيارة القاعات، في القاعة الثانية شاهدتُ رأس «سترومنسكي» الأصلع. كان دائماً على ظهره، ورأسه مستريحٌ على يدٍ وهو يتنهد على نحو مثير للشفقة.

قيل لي:

لقد عوقب لأنه حاول الفرار.

قلت: «آه»! وأومأت إيماءتي العادية الدالة على أنني سمعتُ ووافقتُ، ثم قفلتُ راجعاً

في اليوم التالي استخبرت عن سترومنسكي، فأُبلغتُ أنه مشرفٌ على الموت، وأنه تناول الأسرار الأخيرة، كان ذلك في يوم عيد أخي ميشيل بافلوفتش، كان هناك قدّاسٌ واستعراض، أعلنتُ أنني مريض بسبب سفري إلى «القرِم» ولم أذهب إلى القداس، عاد «ديبتش»[٦] إليّ، ونقل إلي الأحاديث التي قيلت في الجيش الثاني، وذكرني بما قاله كونت «دي ويت»[٧] قبل سفري إلى القرم، وكذلك المعلومات التي قدّمها ضابطُ الصف «شيروود»[٨].

---

٦ – ديبتش: الجنرال ديبتش، كان آنذاك قائد الجيش الثاني المعسكر في روسيا الجنوبية.

٧ – الكونت دي ويت: قائد فيلق.

٨ – شيروود: من أصل انكليزي، قدم في تشرين ١٨٢٥ تقريراً عن الجمعيات السرية التي شكلها الضباط، وهو تقرير لم يلتفت إليه الاسكندر الأول، لكن نيكولا الأول كافأ شيروود فيما بعد ولقبه «الأمين».

وحينئذ فقط، عندما سمعتُ ديبتش يتكلم ويعلّق أهمية كبيرة على نيّاتِ المتآمرين، إنما أحسستُ بالانقلاب الكلي الذي جرى فيّ، كانت قد نُسجت مؤامرة ترمي إلى تغيير نظام الحكم وإلى إدخال الدستور، وهو بالضبط ما أردتُ أن أفعله منذ عشرين سنة، أعطيتُ أوروبا دساتير بلا انقطاع، فمن أفادتْ؟ والمسألة الرئيسية، بأي حقّ فعلتُ ذلك كله؟ كان الشيء الأساسي بالنسبة إلي أن أشارك في السياسة الخارجية، أن أهتم بالشؤون الخارجية، ألم أكن قد شاركت فيها وحوّلت حياة الشعوب الأوروبية؟ كل هذه المسائل كانت بلا أهمية، كل ذلك بلا جدوى ولا يخصني.

وأدركتُ فجأةً أن الهام بالنسبة إلي هو أنا، هو نفسي والرغبة التي شعرت بها قديماً، رغبتي في التنازل عن العرش، كنتُ سأفعل ذلك حينذاك بتباه، لأدهش الناس أو لأحزنهم، وأيضاً لأظهر لهم عظمة نفسي، عادت إليّ الآن هذه الرغبة أقوى من ذي قبل وبصدق لا تشوبه شائبة، سأتنازل عن العرش الآن لا لأدهش الناس، لكن من أجلي، من أجل نفسي فقط، وكأن الطريق التي سلكتُها طوالَ حياتي اللامعة، بالمعنى الذي يعطيه العالَم هذه الكلمة، إنما قطعتُها فقط ليقرضني الندمُ، ولأعود منها إلى هذه الرغبة في أن أهجر كلَّ شيء، أما ما أرغب فيه الآن، بعد أن شفيتُ من كل طموح، من كل ظمأ إلى المجد، فقد كان من أجل نفسي، من أجل الله، كانت رغبتي قديماً رغبةً مبهمةً، أما الآن فقد جعلتْ من المتعذر عليّ أن أستمرّ طويلاً في الحياة التي كنت أحياها، لكن كيف العمل؟ لا بطريقة مندهشة ليمدحني الناس بل، على العكس، بحيث لا يعلم أحدٌ أنني ذهبتُ، ولكي أتألم، ولّدت هذه الفكرة فيّ الكثير من الفرح، والكثير من الحماسة حتى إني قد بحثتُ عن السبيل

لتنفيذها، استخدمتُ جميعَ موارد فكري وكل ما أملك من حيلةٍ لتحقيق مشروعي في الهرب.

وشد ما كانت دهشتي حين ظهر أن تحقيق هذا المشروع أبسطُ كثيراً مما ظننتُ، كانت خطتي هي التالية: التظاهر بمرض خطير والإيهام بأني مشرف على الموت، ضمّ طبيب إلى فكرتي برشوته، تَرْك سترومنسكي المشرف على الموت مكاني، والهرب بسرعة مخفياً اسمي عن الناس جميعاً

سهّلت الظروفُ مشاريعي، ففي ٩ من الشهر الجاري أُصبتُ بالحمى، وكأن ذلك عملٌ مقصود، ومرضتُ طوال أسبوع تقريباً، أسبوع تعزّزت فيه نيّاتي وتحدّدت خطةُ الفرار، في ١٦ شعرتُ بالعافية فنهضت.

حلقتُ ذقني في هذا اليوم، على عادتي، وجرحتُ وجهي جرحاً بالغاً قرب الذقن، وأنا أفكر، فقدت كثيراً من الدم، وشعرتُ بالدوار ووقعتُ، تراكض الناسُ لإنهاضي، أدركتُ على الفور أن هذا الإغماء يمكن أن يُفيدني، فتظاهرت بالضعف الشديد، مع أنني كنتُ بخير، لزمتُ الفراش وأمرتُ أن يُؤتي بالطبيب «فيلييه»، ما كان هذا ليقْبل بالكذب، لولا أني كشفت له عن مشروعي، وأخبرته بما أنوي وضعه موضع التنفيذ، وقدّمت له ثمانين ألف روبل إن قَبِلَ أن يفعل كل ما أطلبه منه، وهذه هي الطريقة التي سأتصرف بموجبها: علمتُ خلال الصباح أن سترومنسكي في حالة نزاع وأنه سيموت في الليل.

اضطجعتُ، ولم أسمح لأحد بدخول غرفتي إلا للطبيب الذي رشوتُه، متذرّعاً بأن الجميع يضايقونني، وكان عليه أن يحمل في هذه الليلة جسد سترومنسكي إلى صالة الحمام، وأن يضعه مكاني، وأن

يعلن موتي الفجائي، ومن المدهش أن كل شيء تمّ كما قدّرنا، وفي ١٧ تشرين الثاني، كنتُ حراً، وُضع جسدُ «سترومنسكي» في تابوت مغلق، ودُفن في موكب فخم، واعتلى أخي نيكولا العرش، وأرسل المتآمرين إلى سجن الأشغال الشاقة - ولقد لقيتُ بعضهم، فيما بعد، في سيبيريا، لقد عانيتُ آلاماً ليست شيئاً بجنب جرائمي وفرحتُ فرحاً عظمياً لستُ جديراً به وسأتحدّث عنه فيما بعد.

والآن، وقد أشرفتُ على الموت، وأدركت بطلان حياتي القديمة، وعظمة حياتي كمتشرّد، سأحاول أن أروي ماضيَّ.

***

حياتي

١٢ كانون الأول ١٨٤٩

في ضواحي «كرازنوريتشنسك»، في الغابة العميقة والمستنقعية، اليوم هو عيد ميلادي الثاني والسبعين، فمنذ اثنين وسبعين سنة ولدت في بطرسبرج، في قصر الشتاء، في شقة أمي، الدوقة العظمى ماري فيودوروفنا[١]، الإمبراطورة فيما بعد.

كانت الليلةُ لطيفةً، أشعر بتحسّن بعد ضيق الأمس، الشيء الأساسي أن اتجاهي إلى الحلم قد اختفى، وأستطيع الآن أن أتقرّب إلى الله من كل نفسي، البارحة مساءً صلّيتُ في الظلمات، شعرت شعوراً واضحاً بدوري على الأرض: أن شخصي ووجودي نافعان للخالق، وأنا حين أخدمه فإنما أُسهم في سعادتي وفي سعادة الإنسانية، فإن لم أفعل ذلك أفلتتْ مني السعادة - لا السعادة كلها، بل التي يمكن أن تكون سعادتي - لكنني لا أحْرم العالم السعادة التي هي من حقّه، ما كان ينبغي أن أفعله سيفعله آخرون غيري، وهكذا تتمّ مشيئته، وفي هذا إرادتي حرّةٌ، لكن إن علم بما سيكون، إذا كان كلّ شيء مُحدَّداً منه، فهل الحريةُ موجودةٌ؟ من حدود المعرفة تولّد الصلاةُ الساذجةُ

١ - ماري فيدوروفنا: أم الاسكندر الأول أميرة ورتمبرغ بالولادة.

لدى الطفل ولدى الشيخ: «أبانا، لتكنْ مشيئتك لا مشيئتي، ساعدْني، تعال وابقَ فيّ، تعال وابقَ فيّ». وبكل بساطة: «إلهي، امنحني عَفْوكَ وحمايتك، نعم، إلهي، عفوك وحمايتك، اعفُ واحم، لا أستطيع التعبير وأنت تعرف قلبي، أنتَ فيه» نمتُ بسرعة كبيرة، استيقظت كعادتي عدة مرات في الليل بسبب ضعفي كشيخ، بعد أن حلمتُ أنني كنت أستحمُّ وأسبح في البحر، ودهشت إذ حملتني الأمواج إلى حد أني كنتُ على سطح الماء الأخضر الجميل، ضايقني بعضُ الأشخاص، كانت على الشاطئ نساءٌ، ومنعني عُريي من أن أخرج من الموج، كان معنى هذا الحلم أن جسدي يُعيق بمقاومته اتّحادي بالله لكن المخَرْج كان قريباً، نهضت قبل الفجر، وأشعلتُ بجهد النارَ إذ فركتُ قطعتين من الحطب أحداهما بالأخرى لتسخينهما وأشعالهما.

ارتديتُ سترتي المبطنة بالفرو وخرجتُ، كان الفجر يطلع، من خلال أوراق الأشجار والصنوبر المغطى بالثلج، محمّراً، مصطبغاً بلون البرتقال، عدتُ أمس بالحطب المقطوع وعبأتُ المدفأة وأخذتُ أنشر الخشب، بزغ النهار، أكلتُ بسكوتاً مبلّلاً، كانت النار تفرقع في الموقد، أغلقتُ فم المدفأة وأخذت أكتب:

وُلدتُ في ١٢ كانون الأول ١٧٧٧، منذ اثنتين وسبعين سنة بالضبط، في بطرسبرج، في قصر الشتاء، وقد سُميّتُ، تبعاً لرغبة جدّتي[٢]، باسم الاسكندر، وهي تسمية ترمز إلى النبوء بأني سأصبح ذات يوم، كما كانت تقول جدتي، عظيماً مثل الاسكندر المقدوني قديساً مثل الكسندر «نيفسكي» عُمِّدْتُ بعد ثمانية أيام في الكنيسة الكبرى، في قصر الشتاء، كانت الدوقةُ «دي كورلاند» تحملني على

---

٢ – هي كاترين الثانية ١٧٦٢ – ١٧٩٦.

وسادة ذات تخاريم، وكان رجال من ذوي الرتب العالية يحملون أطراف غطائي، كانت الإمبراطورةُ اشبينتي، وكان لي اشبينان هما ملك النمسا وملك بروسيا، وُضعتُ في غرفة أُعدّتْ بحسب توجيهات جدتي (لستُ أذكر شيئاً، لكن ذلك قد رُوِيَ لي هكذا): في وسط هذه الغرفة الواسعة التي كانت تنوّرها ثلاث نوافذ كبيرة، ظُلّةٌ من المخمل لها ستارتان من الحرير تنزل بين أربعة أعمدة من السقف إلى الأرض، وتحت هذه الظلّة وضع سريرٌ حديدي صغير يغطّيه لحافٌ ووسادة صغيرة وغطاء انكليزي خفيف، وحول قبّة السرير، أُقيمتْ حواجز مفرَّغة طولها ذراعان، لكي تمنع الزائرين من الاقتراب الشديد، وليس في الغرفة أثاثٌ آخر، سوى سرير المرضع، خلف الظلّة.

جميع تفصيلات تربيتي الأولى نظّمتها جدتي: كان ممنوعاً هزّ سريري، كنتُ ألفَّف بطريقة خاصة، لم يكن يُوضع في قدمي حذاء أطفال، كنتُ أغسل بالماء الفاتر أولاً، ثم بالماء البارد، كان لي لباس خاص يُلبس دفعة واحدة، بدون أزرار ولا عقد، ومنذ أن أخذتُ أزحف وُضعتُ على سجادةٍ وتُركتُ وشأني، في البدء كانت جدتي - كما قيل لي تجلس على السجّادة وتلعب معي، لستُ أتذكّر شيئاً حتى ولا مرضعي.

كانت المرضعُ ادفوتيا بيروفنا، امرأة البستاني الطيّب في «تساركسوي سيلو»، لستُ أتذكّرها، لقيتُها مرة واحدة منذ طفولتي، حين كان عمري ثمانية عشر عاماً، في تساركسوي سيلو، جاءت إليّ وأعلنت اسمها، كان ذلك في الزمن الغابر، منحتُ صداقتي «سزارتوريسكي» [٣] لأول مرة، وكنتُ أشعر بالاحتقار صادق لكل

---

٣ - أدم سذارتوريسكي، أمير بولوني

ما يجري في القصرين، كنتُ أحتقرُ أبي البائس كما أحتقر جدتي، لأن مشاعري إزاءها في هذه الفترة أصبحت مشاعر الاحتقار، في هذه الحقبة كنتُ جديراً باسم رجل، بل إني كنتُ رجلاً طيباً، كانت لي نيّاتٌ حسنة.

كنتُ أتنزّه في الحديقة مع آدم عندما برزَت من ممرّ عرضاني امرأةٌ حسنة اللباس ينمّ وجهُها الباسم المليء بالسحر، عن طيبة عظيمة، كانت تبدو متأثّرة، اتّجهت إليّ بسرعة، وجثتْ، وأمسكَت بيدي وأخذت تلثمها.

أيها الأب! يا صاحب الجلالة! حين جاء بك الله...

مَنْ أنتِ؟

أنا مُرضعُك آدفوتيا، دونياشا[٤]، أرضعتك خلال أحد عشر شهراً، الله قد قادني إلى هذا المكان لكي أراك.

أجبرتُها على النهوض، وسألتُها أين تسكن، ووعدتها بالذهاب إلى بيتها، كان داخل بيتها المرتب، قريباً جداً إلى النفس: كانت ابنتها، أختي من الرضاعة، رائعةً، صورة للجمال الروسي في كماله، وكانت مخطوبة إلى أحد سائسي القصر، وكان زوجها البستاني مبتسماً مثلها، أولادها الكثرة بشوشون مرحون هم أيضاً، عندما رأيتهم جميعاً، كنتُ كالمستنير، أشرق النورُ في الظلمات التي تكتنفني، وفكرّتُ: «هذه هي الحياة الحقيقية، هذه هي السعادة الحقيقية، كل شيء هنا واقعي، كل شيء بسيط، كل شيء واضح، فلا الدسائس ولا الحسد ولا الخصومات تجدُ مكاناً في هذا المسكن».

---

٤ – دونياشكا: تصغير ادوفونيا للتحبب.

وإذن فإن التي غذتني بحليبها هي دونياشا، هذه المرأة الرائعة، أما أول مربيَّة لي فكانت ألمانية، هي «صورة ايفانوفنا بنكندوروف»، المربيةُ الثانية، «جسلر» كانت انكليزية، كانت الألمانية جسيمةً بيضاء البشرة، مستقيمة الأنف، وعندما كانت تُلقي أوامرها في غرفة الأطفال كانت هيئتها مفعمة بالجلال، لكنها كانت تتظاهر بأنها متواضعة وذليلة إلى حدّ مدهش عندما كانت تنحني أمام جدّتي انحناء شديداً مع أنها أطول منها كثيراً، كانت تتصرف معي كالأَمَة مع احتفاظها بقسوتها، كانت تبدو تارةً كالملكة بتنانيرها الفضفاضة وبوجهها ذي الأنف المستقيم المطبوع بطابع الجلاد، وكانت تظهر تارة أخرى بمظهر الفتاة الصغيرة المرائية.

كانت «براسكوفي ايفانوفنا جسلر» انكليزية، وجُهها طويل منقطٌ بالنمش، ورصينٌ أبداً، لكنها عندما كانت تضحك فقد كانت تضحك بكل كيانها، ولم يكن بوسع المرء ألا يشاركها مرحها، كنتُ أحبّ دقتها، وتوازنها، ووضوحها، ورقتها الثابتة، كان يُخيّل إلي أنها تعرف أشياء لا يعرفها غيْرها، لا أمي ولا أبي ولا جدتي، في أبعد ذكرياتي، تبدو لي أمي كائناً غريباً كئيباً، رؤيا بهية يمّحي أمامها الآخرون، كانت جميلة ترتدي أروع الثياب من الحرير ومن الدنتيلا، كانت يداها البيضاوان رَبْلتين، كانت تظهر في غرفتي في لألأة الماس، غريبة الهيئة، دون أن تنظر إلي، وكأنني غريب عنها، ووجهها مطبوع بالحزن، ثم كانت تداعبني، وتأخذني بين يديها الربلتين، والجميلتين جداً، وتقرّبني من وجهها الأجمل أيضاً، وترمي إلى الخلف بكتلة شعرها العطرة، كانت تغطي وجهي بالقبل وهي تبكي، وذات يوم أَرْختني يداها وأُغمي عليها... الشيء المدهش أنني اكتشفت دسائس القصر التي كنتُ مركزاً لها، إما لأن جدتي أيقظت انتباهي حول

هذه النقطة، وإما بسبب موقف أمي، وربما بغريزة الطفل الخالصة، لكني لم أكن أشعر بشيء تجاه أمي، حتى ولا بالحب البنوي، كان في موقفها شيء اصطناعي، كان يبدو.. لي أن جميع مظاهر العواطف التي تغدقها عليّ، إنما كانت تُغدقها وهي ناسيةٌ أنني حاضرٌ هنا، كل ذلك كنتُ أحسُّ به، وكان الأمر كذلك حقاً، لقد نَحّتني جَدتي عن تربية والدي، وضعتني تحت إشرافها كلياً لكي تنْقل إليّ التاجُ الذي أرادت أن تنتزعه من والدي البائس الذي كانت تحتقره، ومن الواضح أنني لم أعلم شيئاً من ذلك، زمناً طويلاً، لكني ما إن بدأتُ بالتفكير حتى شعرتُ أنني سبب للخلافات والحسد، وألعوبة للمكائد المدبّرة، وإن لم أميّزْ الدوافع إلى ذلك، وتولّدت في نفسي كطفلٍ البرودةُ واللامبالاةُ، كطفلٍ لا يحتاج إلى عرشٍ بل إلى أن يكون محبوباً، بحب خالصٍ ليس غير، لكن هذا الحب لم يمحضْني إياه أحدٌ، كانت أمي حزينةً دائماً بحضوري، وفي ذات يوم تحدّثتْ فيه بالألمانية مع صوفي ايانوفنا، بكتْ وتركت الغرفة، وهي تكاد تركض، وقد تعرّفتْ خطى جدتي، كان أبي يدخل أحياناً غرفتنا أو كنّا نُؤخَذ إليه، أخي وأنا، لكن هذا الأب البائس كان يُظهر بشكلٍ أوضح من أمي أنه كان مستاءً من رؤيتي، وكان يجد مشقة في كبْت غضبه.

أذكر يوماً أُخذنا، أخي وأنا، إليه، كان ذلك عشية سفره في رحلة إلى الخارج، في ١٧٨١، رماني بنظرة رهيبة وهو ينحّني بقفا يده، ونهض بغتةً من المقعد الذي كان جالساً عليه، وتلفّظ ببعض جمل، وهو يختنق، تتعلق بي كما تتعلّق أيضاً بجدتي، لم أفهم ما قاله لكني أتذكّر هذه الكلمات: «بعد ٦٢، كل شيء ممكن»[٥] خفتُ

٥ - أي بعد مؤامرة ١٧٦٢ التي أودت بحياة بطرس الثالث، والد بولس الأول.

وانخرطتُ في البكاء، احتضنتني أمي بين ذراعيها وأخذت تقبلني، ثم قدّمتني إلى والدي، فباركني على عجل، وغادر الغرفة مسرعاً وهو يطرق الأرض بكعبيه العاليين، وأدركتُ فيما بعد لِمَ انفجر غضبُه هكذا، كان أبي وأمي سيسافران باسم كونت وكونتيسة الشمال، لقد قرّرت جدتي أن يكون السفرُ كذلك، وكان هو خائفاً من أن تنتهز جدتي غيابه وأن تنتزع منه حقوقه في العرش، وأن تعلنني وارثاً للعرش» إلهي! إلهي! كان يعلّق أهمية على ما أهلكنا، هو وأنا، إلى ما كلّفنا، نحن الاثنين، هلاك نفسينا وجسدينا، وكنت أعلّق أنا أيضاً على ذلك أهمية كبيرة!...

قرع أحدُهم البابَ وهو يلفظ الكلمات الطقسية: «باسم الآب والابن...» فقلتُ مردّداً الفرض: «آمين» سأجمع الصفحات التي كتبتُها، وسأذهب لأفتح، وإذا شاء الله فسوف أتابع كتابتي غداً،

١٣ كانون الأول.

نمتُ لماماً وعمرتْ نومي الكوابيسُ، تلزُّ نفسها بي امرأةٌ كريهة، ولستُ أخاف منها أو من الخطيئة، بل أخاف أن ترانا امرأتي وتنشأ الخصومات من جديد، اثنتان وسبعون سنة ولستُ حرّاً بعدُ بأفعالي، يمكن أن نُخدَعَ في الواقع، لكن الأحلام تُظهر بدقّة مقدار الانحطاط الذي انحدرنا إليه، ورأيتُ أيضاً في حلمي ـ وما رأيته يثبتُ الدناءة الأخلاقية التي أنا فيها – شخصاً يحمل إلي زهوراً وعلبةً من الملبس، – ملبّس غير عادي، أخرجناه من العلبة لنقدّمه، لكن قد بَقي منه بعد التوزيع واحتفظتُ به لنفسي، كان حاضراً فتى كأنه ابن سلطان تركيا، عيناه سوداوان، وهيئته كريهة، كان ينحني على الملبّس ويتناوله بين أصابعه، لكني كنتُ أدفعه وأنا أحس أن من العَدْل أن يأكل هذا الولد

الملبّس، ولا أنا، ومع ذلك فلم أعطه الملبّس، أحسستُ أنني أشعر بالخبث إزاءه، وكنت أشعر أن هذا شر.

المذهل أن ذلك كله وقع لي فعلاً، فقد جاءت «ماري مارتيميانوفنا» [٦] اليوم، وكانت قد سألتني أمس بواسطة رسول إن كانت تستطيع أن تمرّ بي، فأجبتُ بالإيجاب، زياراتها ثقيلةٌ علي، لكن الرفض من جانبي يحزنها، وصلتْ إذن، فمن بعيد كانت تسمع ضوضاء الزلاجة، دخلت، مرتديةً معطف فرو، رابطة منديلاً على شعرها، حاملةً كيساً من الحصير، دخلتْ وأدخلت معها دفعةً من البرد حتى كدتُ أضع سترتي، كانت تحمل فطائر وزبدةً وتفاحاً، جاءت تستشيرني بشأن ابنتها الراغبة في خطبة أرمل ثري، هل ينبغي أن تَعده بالزواج بها؟ إن رأي الناس بفطنتي لا يسرني، إنهم ينسبون إلى تذلّلي أمام الله جميع الحجج التي أعارضهم بها، إني أقول دائماً: العفة خيرٌ من الزواج، لكن الزواج كما يقول بولس، أفضل من التحرّق، كان بصحبة ماري مارتيميانوفنا صهرها «نيكاتور ايفانوف» الذي كان يدعوني إلى السكنى عنده والذي كثيراً ما ضايقني بزياراته، إن نيكاتور ايفانوف هذا يدفعني إلى التجربة، فلست أستطيع التغلب على النفور والاحتقار اللذين أحسّ بهما إزاءه: «ساعدني يا ربي، على رؤية ذنوبي وعلى ألاّ ألوم أخي»، وأنا أرى جميع ذنوبه، وأستشفّها، وأرى كل نواحي ضعفه، لا أستطيع أن انتصر على الاشمئزاز الذي في نفسي تجاهه هو، أخي في يسوع المسيح.

لماذا أحمل في نفسي مثل هذه المشاعر؟ طالما أحسستُ بها خلال حياتي، أشد نفوري اتجه إلى اثنين: لويس الثامن عشر ببطنه الضخم، وأنفه الأقنى، ويديه البيضاوين الملطّختين، ذلك البليد، الوقح، المفرط

---

٦ - ماري مارتيميانوفنا: زوجة التاجر كروموف.

ثقةً بنفسه - وهأنذا أعود إلى شتمه - ونيكاتور ايفانوف الذي جعلني أمس أتأ لم ساعتين، كلٌ شيء فيه يغيظني، بدءاً من جرس صوته إلى شعره وأظافره، ولكي أشرح قسوة موقفي لماري مارتيميانوفنا، كذبتُ إذ قلت لها أنني كنتُ منحرف الصحة، بعد ذهابهما صلّيتُ فعاد إليّ هدوئي، أشكرك، يا ربي، لأنك أعطيتني هذا الذي أستطيع أن أتحكم فيه وحده، لقد خطر ببالي أن نيكاتور ايفانوف طفل وأنه سيموت ذات يوم، الفكرة نفسها راودتني بصدد لويس الثامن عشر مع علمي أنه ميت، وأسفتُ على غياب نيكاتور ايفانوف الذي أردتُ أن أؤكد له مشاعري الحسنة.

حملت إليّ ماري مارتيميانوفنا شمعاً، أستطيع أن أكتب الآن في الليل، خرجتُ إلى الفناء، إلى يساري، توارى شحوبُ النجوم المُنير خلف ضياء غريب لفجرٍ جنوني، ما أجمل الجَو!... سأتابع في أثناء غياب أبي وأمي اللذين سافرا إلى الخارج، خضعْنا، قسطنطين وأنا، وأنا أكبر منه بسنتين، خضوعاً تاماً لسيطرة جدّتنا، وقد تلقّى أخي اسم «قسطنطين» للدلالة على أنه ينبغي أن يصبح ذات يوم إمبراطور اليونان في القسطنطينية.

الأولاد يحبون جميع الناس، ولا سيما الذين يحبّونهم ويدّللونهم، كانت جدتي تدلّلني، وتُثْني عليّ، وكنتُ أحبّها بالرغم من الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث منها رغم العطور، والتي كنتُ أشمّها بخاصة عندما تضعني على ركبتيها، ملامسةُ يديها أيضاً كانت كريهةً، يديها النظيفتين، الصفراوين، المغضّنتين، برطوبتهما اللامعة، وأصابعهما المعقوفة نحو راحة اليد والمنتهية بأظافر منفصلة بوضوح عن اللحم والمنتفخة على نحو غير طبيعي، كانت عيناها العكرتين، المتعبتين، الميتتين تقريباً، تبعثان، مع ابتسامة الفم الأدرد انطباعاً شاقاً، دون أن

تثيرا مع ذلك النفور، وكنتُ أعزو تعبير عينيها، كما أوحي إليّ - وهو ما أتذكّره الآن بمرارة - إلى أعمالها أو إلى الجهود التي كانت تبذلها من أجل شعوبها، وكنت أشفق عليها بسبب نظرتها الكاسرة، وقد لقيتُ «بوشمكين»[٧] مرتين، إن هذا الرجل المحنيّ الظهر، المصاب بالحول، الطويل، الأسود الشعر والجلد، والوسخ، كنت أنفرُ منه، مع أنه كان يناديني: يا صاحب السمو الملكي، ومع أنه كان يلاطفني ويشاكسني، ما كان يُسخطني بخاصة، هو أنه كان وحده الذي لا يخاف جدّتي، كان يَهْذر بلا حياء، في حضورها، بصوت حاد.

بين الشخصيات الأخرى التي رأيتها في هذه الحقبة من طفولتي الأولى لدى جدّتي، «لاتسكوي»[٨] لم يكن يتركها، كان جميع الناس يلتفتون إليه ويهتمون به، الإمبراطورة نفسها لم تكن ترفع بصرها عنه ومن الواضح أني لم أكن أفهم آنذاك مَنْ كان «لاتسكوي»، وأنه أعجبني كثيراً، كنتُ أحبّ شعره الجعد، بسمته الملأى بالفرح، ووجهه السعيد الخلّي والماس الذي كان يتلألأ عليه بكل ألقه.

كانت فترة للبهجة، كانوا يأخذوننا إلى تساركسوي، كنّا نجدّف في زروق، ونقوم بالبستنة والنزهات وركوب الخيل، كان قسطنطين فتى جسيماً، أصهب، باخوس صغيراً، كما كانت تدعوه جدّتي، يسلّي الناس جميعاً بأجوبته السريعة والجريئة وبخياله، كان يقلّد كلّ واحدٍ، حتى صوفي ايفانوفنا، وحتى جدّتنا.

---

٧ - بوتمكين: محظي كاترين الثانية القادر على كل شيء، فيلدمارشال وأمير «توريد» (١٧٣٦ - ١٧٩١)

٨ - لاتسكوي: الكسندر لاتسكوي، ضابط شاب من الحرس الفرسان، محظي كاترين الثانية منذ ١٦٨٠، مات بالحمى القرمزية في ١٧٨٤.

كان موت صوفي ايفانوفنا في تلك الفترة حدثاً عظيماً، وقع هذا الموت في تسارسكوي، بحضور جدّتي، اقتادتنا صوفي ايفانوفنا بعد الغذاء وأخذت تقصّ شيئاً وهي تضحك، وفجأة غدا وجهُها رصيناً، وأخذت تترنّح، واستندت إلى الباب، ثم انزلقت وسقطت بكل ثقلها، هُرع الناس، وأعادونا، وفي اليوم التالي علمنا أنها ماتت، انهمرت دموعي زمناً طويلاً قبل أن أتمكن من تمالك نفسي، ظنّ الناس أنني أبكي صوفي ايفانوفنا، لكنني في الواقع لم أكن أبكيها، وإنما بكيت كون الناس جميعاً سيذوقون الموت، كون الموت موجوداً، لم أتوصلْ إلى فهم ذلك، لم أشأ أن أعتقد بأن الموتَ قدرُ الناس جميعاً، أذكر أنني عندما كنتُ ابنَ خمس سنين، عَرَضَتْ لنفسي كطفل، مسألةُ الموت بكل اتساعها - كل هذه المشكلات التي تطرح نفسها على الناس، والتي يبحث الحكماء عن أجوبة لها ويجدونها، والتي تحاول الأذهان التافهة أن تتناساها إذ تنحّيها جانباً، فعلتُ ما يليق بطفل أن يفعله، لا سيّما في الوسط الذي كنتُ أعيش فيه: أبعدتُ عني فكرةَ الموت، وعشتُ كأنها غير موجودة، عشتُ هكذا حتى اللحظة التي أرعبتني فيها هذه الفكرةُ.

حدثٌ ثان له أهميته، ارتبط بوفاة صوفي ايفانوفنا، وهو أنه عُهد بتربيتنا إلى أيدي الرجال، وذلك بتعيين مربٍّ لنا هو نيكولا ايفانوفتش سالنيكوف [٩]، وهو غير سالتيكوف الذي لعله كان جدّنا[١٠]، بل نيكولا ايفانوفتش الذي كان جزءاً من بيت أبي، كان رجلاً قصيراً، عظيم الرأس، ذا وجه ينم على الغباء ويكشرّ أبداً، وكان أخي قسطنطين

---

٩ - سالتيكوف: أصبح فيما بعد أميراً ورئيساً لمجلس الوزراء في ١٨١٢

١٠ - سالتيكوف الذي لعله كان جدنا، كان يزعم أن بولس الأول الذي ولد في سنة ١٧٥٤، لم يكن ابن بطرس الثالث، وإنما ابن عشيق كاترين، الضابط سيرج سالنيكوف.

يقلّده بشكل مدهش، وكوننا انتقلنا هكذا إلى السلطة المذكّرة ملأني بالحزن العميق، لأنه كان يعني أنني أصبحتُ منذ هذه اللحظة مفصولاً عن مرضعي الرائعة «براسكوفي ايفانوفنا».

الذين لم يُصابوا بمصيبة الولادة في أسرة مالكة يصعب عليهم تصوّر الرأي الخاطئ، الذي يتكون فيها عن الناس، ولا سيما رياء العلاقات القائمة معهم، بمَ كنا نشعر، بم كنت أشعر؟ بدلاً من أن أشعر بالمشاعر الطبيعية التي يشعر بها طفلٌ أمام البالغين ومَنْ هم أكبر سنّاً، وبدلاً من أن نعترف بالنعم المُغدقة علينا، خلقوا فينا فكرةً مفادها أننا لسنا فقط من جوهر متفوّق له الحق في أن يتوقع جميع الترضيات المتخيّلة، بل لقد رسخوا فينا اليقين بأن مجرد كلمة منا، مجرد ابتسامة، ليستا فقط ثمناً لتلك النعم بل إنها جزاء لها وهما يُسعدان الناس، لقد طُلب منا، وأنا أعترف بذلك، موقفٌ مليء بالتهذيب إزاء الناس جميعاً، لكني كنتُ أشعر بإرهاف الصبي، أن كل ذلك كان تمثيلاً، لم نكن مهذّبين من أجل الآخرين، بل من أجل أنفسنا، لكي تكون عظمتنا أشد إدهاشاً.

في يوم احتفالٍ رسمي، كنا نطوفُ في مركبة، في جادة «النيفا» كانت المركبة كبيرةً وشديدة الارتفاع، جلسنا فيها، أخواي وأنا وكذلك نيكولا ايفانوفتش سالتيكوف، كنا جالسين في صدر العربة، وكان يقف في مؤخرتها خادمان بزينتهما وخلعتهما الحمراء، كان اليوم يوماً خريفياً منيراً، كنت أرتدي سترةً مفتوحة، وصُدرةً بيضاء تزينها شريطة زرقاء لوسام القديس «اندريه»، كان كوستيا يرتدي مثلما أرتدي، كان على رأسينا قبعتان بها ريشٌ، وكنا نرفعهما مراراً للتحيّة، كان الشعب يقف ويهتف لنا، وكان بضعة أشخاص يركضون خلف عربتنا.

كان نيكولا ايفانوفتش يكرر بلا انقطاع:

الناسُ يحيّونكم، إلى اليمين.

مررنا قرب هيئة الحرس، أقبل علينا حارسٌ يركض، إني أراه دائماً، أحببتُ منذ طفولتي كل ماهو عسكري، كل ما هو تدريب عسكري، لقد لقّنوني - ولاسيما جدتي التي كانت تشك فيَّ، في هذه النقطة - أن جميع الناس متساوون وأننا يجب أن نتشرّب هذه الفكرة، لكني كنتُ أعلم أن جميع الذين يقولون هذه الأقوال لا يؤمنون بها.

أذكر أن «ساشاغوليتزين» الذي كان يلعب معي ذات يوم آلمني حين دفعني.

كيف يجرؤ.

لم أتعمّد ذلك، باه! ما أهمية ذلك؟

استشطتُ غضباً، وأحسستُ بقلبي يخفق خفقاناً أشد بتأثير الإهانة، اشتكيتُ إلى نيكولا ايفانوفتش وعندما طلب غوليتزين الصفح منّي لم أخجلْ من نفسي.

هذا كاف اليوم، احترقت الشمعةُ وأشرفت على نهايتها، عليّ أيضاً أن أقطع الأغصان، حدُّ الفأس مثلّمٌ وليس عندي مسنٌ لأشحذه، وأنا، على كل حال، لا أدري كيف أفعل ذلك.

١٦ كانون الأول

لم أكتب شيئاً منذ ثلاثة أيام، أحسست بالضيق، قرأتُ الانجيل لكني لم أقعْ من جديد على تلك الطريقة في تأويله، وهي طريقةٌ ضرورية لي لأتصل بالله، وقد ظهرت لي من قبل، لقد فكرتُ دائماً في أن الإنسان لا يمكن أن يظل بلا رغبات، ولقد كان لي دائماً رغبات،

وما يزال لي حتى الآن، أردت دائماً أن أكون نابليون لأعيد السلام إلى أوروبا وأتحرّر من التاج، وكانت كلّ رغباتي تتحقق، لكنها حينئذ كانت تفقد إثارتها لاهتمامي، أو كانت تبدو غير قابلة للتحقّق وحينئذ كانت تكفّ عن أن تكون رغبات، لكنْ بينما كانت هذه الرغباتُ تتحقق أو تبدو غير قابلة للتحقق، كانت تولد رغباتٌ أخرى فيّ، كان الأمر كذلك وسيظلّ كذلك حتى النهاية، أمس رغبت في الشتاء، والشتاء حاضرٌ، رغبتُ في العزلة وأنا في العزلة أو قريباً منها، في الوقت الحاضر، أرغب في أن أروي حياتي على أكمل وجه لكي يَفيدُ منها الناسُ، وسواء أتحققت هذه الرغبات أم لا، فإن رغبات أخرى جديدة ستتلوها، الحياة لا تقوم إلا على هذا.

وخطرت ببالي فكرةٌ هي أنه إذا كان الوجود كله - يقظة الرغبة هو فرح الحياة - يقوم على تحقيق الرغبات، فلابدّ أن توجد رغبةٌ في متناول كل كائن بشري، رغبة ستتحقّق، أو على الأصح إنها تمضي أبداً وهي تتحقّق، وبدا لي واضحاً أن تلك حالة الإنسان الذي يرغب في الموت، إذ ستكون حياته كلها اقتراباً مستمراً من تحقّق رغبته، رغبة ستحقق بكل تأكيد.

بدا لي ذلك، في البداية، مدهشاً، لكني أحسستُ بعد التأمّل، أن الأمر كذلك، الاقتراب من الموت هو الرغبة الوحيدة المعقولة للإنسان، لا الموت ذاته، بل هذه المسيرة التي تقود من الحياة إلى الموت، هذه المسيرة التي هي تحرير الأهواء والتجارب، تحرير هذه الكلمة الروحية الحيّة في كل واحد منا، أحسّ بذلك الآن لأنني تخلصت من كلّ ما هو خاف عني تقريباً، جوهر نفسي، اتحادي بالله والله ذاته، بلغت هذا المفهوم دون أن أعي ذلك، لكني إذا كنتُ قد سلّمت أن خَيْري - وذلك ليس ممكناً فحسب بل يجب أن يكون كذلك - إذا كنتُ قد

سلّمت بأن خيري الأعظم هو في تحرير أهوائي، واقترابي من الله، إذنْ فكل ما يسوقُني إلى الموت: الشيخوخة، الأمراض، كل ذلك سيساعدني على تحقيق رغبتي الوحيدة، الأمرُ كذلك، وهذا ما أحسّ به، عندما لا يؤلمني جسدي، ولكنني عندما أكون مريضاً، كما كنت أمس وأول من أمس، فإني لا أتمكن من ابتعاث الرغبة في الموت، في نفسي، لستُ أتمكن من الرغبة في اقترابه.

نعم إن هذه الحالة النفسية هي حالة نفسٍ تغفو، يجب الانتظار بهدوء...

أستأنفُ روايتي من حيثُ تركتها أمس، إن ما كتبتُه فيما يتعلّق بطفولتي، قد كتبته غالباً بحسب الروايات التي رُويت لي، وما رُوي لي يختلط بما استشعرته أنا نفسي، بحيث أني أعجز أحياناً عن تمييز ما أحسست به عما رُويَ لي.

إن حياتي بأسرها، منذ طفولتي حتى شيخوختي الحالية، شبيهةٌ بمدينة مغطّاة بضباب كثيف، شبيهة بساعة الحرب في ضواحي درسدن، فعندما يكون كل شيء مظلماً لا يميّز المرءُ شيئاً بوضوح، ثم تظهر فجأة هنا وهناك جزرٌ صغار، وتحدث انقشاعاتٌ، نلمح منها كائنات تحرّرت من كل قيد، وأشياء يغتشيها ستار لا ينفذ منه البصر، تلك هي ذكرياتي طفولتي، نادرة هي الانقشاعات في سحب الضباب والدخان الكثيف البيت تغرق فيها ذكرياتي، نادرة أثناء طفولتي، وأندر أيضاً فيما بعد.

تحدثتُ عن ذكريات الأولى: موت بوكندورف، وداع والدّي، تقليدات «كوستيا»، لكنني عندما أفكر في ماضي، فإن بعض ذكريات تلك الحقبة تَعْرضُ لي، وهكذا فقد نسيت ظهور، «كوستيا» في حياتي

وعندما بدأنا نعيش معاً، أتذكر مع ذلك، على نحو مدهش، يوماً - لم أكن قد بلغت السابعة بعد وكان عمر كوستيا خمس سنوات - ذهبنا فيه إلى النوم، بعد أن حضرنا كلانا قدّاس منتصف الليل، وقد أفَدْنا من أنه لم يكن في غرفتنا أحدٌ فنمنا في سرير واحد، كان كوستيا مرتدياً قميصه، وقد جاء إلي وشرع في لعبة مسلّية قوامُها أن نتبادل ضربات الكفّ على جسمينا العاريين، ضحكنا حتى كدنا نفقد نَفَسَنا، أحسسنا أننا سعيدان، وفجأة دخل ايفان ايفانوفتش، كان يلبس صدارة مطرزةً مغطّاة بالأوسمة، كان رأسه الضخم ذا شعر مستعار، قطّب حاجبيه وأسرع إلينا وقد بدا عليه الرعبُ الذي لم أجد له تفسيراً قط، فرّق بيننا، وتوعّد بمعاقبتنا وأعلن أنه سيذهب ليشتكي إلى الجدة.

ذكرى ثانية متميّزة، بعد بعض الوقت، وكان عمري حوالي تسع سنوات، جرى بحضورنا عند جدّتي استيضاح بين اورلوف وبوتمكين، كان ذلك عند اقتراب أول سفرةٍ لنا إلى موسكو وسفر جدّتنا إلى القرم، أخذنا نيكولا ايفانوفتش إليها، كالعادة كانت القاعة الكبرى المزيّنة السقف غاصة بالناس، كانت جدتي قد استكملت زينتها، رفعت شعرها على جبينها، وربطته بفنٍّ على قذالها، كانت ترتدي فستاناً منزلياً أبيض، وتجلس أمام منضدة للزينة ذهبية، وكانت خادماتها واقفات يُنهين زينتها، نظرتْ إلينا مبتسمةً وهي لاتني تكلّم جنرالاً، وهو رجل ذو قامة مديدة ومهيبة، يعلق وسام القديس آندريه وكانت إحدى وجنتيه مشجوجة بندبة فظيعة.

كان هذا هو «اورلوف» «المشجوج» الذي رأيته هذا اليوم لأول مرة، وكان آل آندرسون يقفون بجوار جدتي، وثبتْ كلبتي المفضّلة، ميمي عليّ من المنضدة ولحست وجهي، اقتربنا، أخي وأنا، من جدتي

ولثمنا يديها البيضاوين المنتفختين، استدارت إحدى اليدين وداعبت وجهي بأصابعها المشوّهة، شممت رائحة جدتي الكريهة طاغيةً على العطور، وهي ما تزال تحدّث المشجوج وتنظر إليه.

قالت وهي تشير إلي:

يا له من ولد طيّب، يا كونت، ألم تره بعد؟

أجاب اورلوف وهو يلثم يدي ويد أخي:

كلاهما طيّب.

قالت جدتي للخادمة، ماري ستيبانوفنا التي انتهت من وضع شبكة صغيرة لشعرها:

كفى، كفى، أين علبة السعوط؟

تقدم لانسكوي، ورفع الغطاء، ومدّ العلبةَ لجدتي، تناولت السعوط ونظرت مبتسمةً إلى ما تريونا دينيوفنا التي تضحك الآخرين، وهي تقترب.

***

ما رأيته في الحلم

١٩٠٦

لم تعدْ ابنتي موجودةً بالنسبة إلي! أتسمعني، لم تعدْ موجودة، لكني لا استطيع أن أدعها على الرصيف، سأفعل ما هو ضروري لتعيش على هواها، لكني لم أعد أعرفها، نعم، نعم... لم أكن أستطيع أن تصوّر شيئاً مشابهاً، هذا مروّع، مروّع...

ارتعشت كتفاه، وهزَّ رأسه، ورفع عينيه.

هذه الكلمات قالها الأمير ميشيل ايفانوفيتش... وهو رجلٌ بلغ الستين، لأخيه الأصغر الأمير بطرس ايفانوفتش الذي بلغ الخمسين، وهو حاكم مقاطعة في وسط روسيا.

جرى هذا الحديث في مركز المقاطعة، التي قصدها من بطرسبرج، الأخ الأكبر، بعد أن علم أن ابنته التي هربت من البيت منذ سنة، تعيش في هذه المدينة، مع ابنها.

كان الأمير ميشيل ايفانوفتش شيخاً وسيماً، غضّاً، مديد القامة، أبيض الشعر، متميّز الوجه، لطيف الحركات، كانت أسرتُه تتألف من زوجته، وهي امرأة جدّ عاميّة، سريعة الغضب، كثيراً ما تُخاصم زوجها من أجل أشياء تافهة، ومن ابن ماجنٍ، مبذّر، لكنه «جدّ لائق»

كما كان يعتقد أبوه، وابنتين الكبرى منهما متزوّجة تسكن بطرسبرج، والصغرى، الأثيرة، «ليز» وهي التي هربت من البيت قبل سنة، والتي عثر عليها مع ولد، منذ زمن قريب، في مركز مقاطعةٍ بعيد.

ودّ الأميرُ بطرس ايفانوفتش لو يسأل أخاه عن الظروف التي سافرت فيها مع ليز، ومن عساه يكون والد الطفل، لكنه لم يستطع أن يُقدم على طَرْح مثل هذه الأسئلة، وحتى في الصباح، عندما أعربت امرأةُ بطرس ايفانوفتش عن تعاطفها، رأى الأمير بطرس ايفانوفتش الألم يرتسم على وجه أخيه، ولاحظ الجهود التي يبذلها ليخفي ذلك الألم خلف ملامح الكبرياء، ثم أخذ يسأل امرأة أخيه عن أسعار الشقق.

أثناء الغذاء، بدا، أمام الأسرة والمدعوين، خفيفَ الروح، ساخراً، كعادته دائماً، كان يبدو متعالياً مع الجميع، ما عدا الأطفال الذين كان يعاملهم بحنان فيه احترام، ومع ذلك، فقد كان يبدو طبيعياً جداً بحيث كان الجميعُ كأنما يقرّون بحقّه في أن يكون متكبّراً.

نظم له أخوه مساءً لعبةَ «هويست» فلما أوى إلى غرفته التي أعدّت له، وفي اللحظة التي أوشك أن يرفع فيها طقمَ أسنانه، قُرع البابُ قرعاً خفيفاً بإصبعين.

من الطارقُ؟

هذه أنا، يا ميشيل

تعرّف الأمير ميشيل ايفانوفتش صوت زوج أخيه قطّب حاجبيه، وأصلح وضعَ طقم أسنانه، وقال بينه وبين نفسه: «ماذا يلزمها»، وقال بصوت عالٍ:

ادخلي.

كانت امرأة أخيه امرأةً رقيقة، طيّبة، خاضعة لزوجها خضوعاً عبودياً، لكنها كانت غريبة الأطوار (بل إن بعضهم كان يعدّها مختلّة)، كانت جميلة، لكنها لم تكن تُعنى بشعرها، وكانت تهمل لباسها، وكانت كالشاردة، تحمل أفكاراً غريبة لا تليقُ بامرأة الحاكم، وهذه الأفكار كانت تُعرف عنها بصراحة وهو شيء كان يدهش كثيراً معارف زوجها.

بدأت بدايةً فيها قلة المنطق وهو ما تتّسم به:

تستطيع أن تصرفني، لكني لن أنصرف، أقول لك ذلك سلقاً.

أجاب أخو الزوج بأدبه المألوف، الذي بالغ فيه قليلاً، وهو يقدّم لها مقعداً:

معاذ الله!

قالت وهي تتناول سيجارة من علبته:

ألا يزعجكَ هذا؟ اسمعْ، ميشيل... لا أريد أن أقول لك ما تكره... لكني أحب أن أحدّثَك عن ليز...

تنهّد ميشيل ايفانوفتش، من الألم طبعاً، لكنه ما لبث أن تمالك نفسه، وقال ببسمة مجهدة:

لا أستطيع معك إلا أن أتحدّث عن موضوع واحد، وهو بالذات الموضوع الذي تريدين أن تحدّثيني عنه.

قال ذلك دون أن ينظر إليها، متحاشياً أن يُسمّي موضوع الحديث، لكن زوج الأخ الربيلة والفاتنة لم يداخلها الحياءُ، وظلّت تنظر إلى

ميشيل ايفانوفتش نظرتها الرقيقة بعينيها الزرقاوين، وقالت وهي تتنهد أيضاً تنهداً أعمق منه:

ميشيل، يا صديقي العزيز، ارحمْها، فهي، بالرغم من كل شيء، مخلوقٌ بشري.

كانت تتنقل كعادتها، وهي تخاطبه، من ضمير المفرد إلى ضمير الجمع.

أجاب ميشيل ايفانوفتش ببسمة متكلّفة:

لم أشك في ذلك قط.

إنها ابنتك

كانت ابنتي، نعم، لكنْ ما جدوى هذا الحديث، يا «آلين» العزيزة؟

ميشيل، يا عزيزي، اذهبْ لمقابلتها! أردتُ أن أقول لك فقط إن المذنب في ذلك كله...

احمر وجهُ الأمير ميشيل ايفانوفتش وغدا رهيباً.

بالله عليكِ، دعينا من الكلام عنها! لقد تألمتُ ما فيه الكفاية. ليس لي الآن سوى رغبة واحدة: اتخاذ الترتيبات الضرورية لكي لا تكون عبئاً على أحد، ولكي تتمكن من تنظيم حياتها، أما نحن، فسنظل من جانبنا، وكأننا لا نعرفها، هذا كل ما أستطيع فعله.

ميشيل، دائماً «أنا»! لكن لها أيضاً «أنا ها»!

لا ريب في ذلك، لكني أرجوك، يا عزيزتي آلين، لندعْ ذلك. إنه يشقّ علي كثيراً.

صمنت الكسندرا دميتريفنا وهزّت رأسها:

وماري؟ (زوج ميشيل ايفانوفتش)، أهي من الرأي ذاته؟

تماماً

صمتت الكسندرا دميتريفنا وهزّت رأسها، فقال:

لنتوقف هنا؟ ليلة سعيدة

لكن الكسندرا دميتريفنا لم تنصرف، صمنت

قال لي بطرس أنك تنوي أن تترك المال للمرأة التي تسكن عندها؟ أتعرف عنوانها؟

نعم، أعرف.

في هذه الحالة، لا تفعلْ ذلك بواسطتها، اذهبْ إليها أنت بنفسك لترى فقط كيف تعيش، وإذا كنتُ لا تحب أن تلقاها، فمن المؤكّد أنك لن تلقاها، أما هو فليس هناك، ليس هناك أحد.

ارتعش ميشيل ايفانوفتش بجسده كله:

لماذا تعذيبني؟ ليس هذا رحيماً بي.

نهضت الكسندرا دميتريفنا، وقالت وقد تحنّنت على نفسها، وفي صوتها دموعٌ:

إنها جدُّ بائسة وجد طيّبة.

نهض وظل واقفاً حتى تنتهي من كلامها، مدّت إليه يدها.

ميشيل، ليس هذا حسناً.

قالت ذلك وخرجت.

ظل زمناً طويلاً، بعد ذلك، يمشي طولاً وعرضاً، على سجّادة الغرفة التي أُعدّت له، كان يقطّب حاجبيه، ويرتعش ويُطلق اوه! وعندما سمع صوته، خاف من ذلك، وسكت.

كان يتألم في كبريائه الجريحة، ابنته! ابنته التي تربّت في بيت أمه الشهيرة «افدويتا بوريسوفنا» التي كانت تشرّفها الامبراطورة بزياراتها حين كانت تعتبر معرفتُها شرفاً عظيماً، ابنته هو الذي عاش أبداً بلا خوف ولا لوم!...

أما أن يكون له ولدٌ ابن زنا، من فرنسية، ربّاه في الخارج، فلم يكن ذلك لقلّل من حسن ظنّه بنفسه، وإذا بابنته التي عمل لها كل ما يستطيع ويجب أن يفعله، والتي رباها تربية صالحة، ومكنها من اختيار شريك لحياتها في أفضل شرائح المجتمع الروسية الارستقراطية، إذا بهذه البنت التي لم يُعطها فقط كلّ ما تشتهي الفتاة بل كان يحبّها ويُعجبُ ويَفْخر بها، إذا بها تُلحق به العار حتى إن الخجل ليمنعه الآن من النظر إلى الإنسان في وجهه.

أخذ يتذكر الآن لا الزمن الذي كان يعامل فيه ابنته كعضو من أسرته، لكن عندما كان يحبّها بحنان، ويفرح برؤيتها، ويفخر بها! تُذكّرها كما كانت وهي في الثامنة أو التاسعة، بنيّةً حَركةً، ذكيّةً، رشيقةً، ذات عينين سوداوين لامعتين، وشعر أشقر نازل إلى كتفيها، تذكّرها كيف كانت تثب على ركبتيه، وتطوّق عنقه، وتدغدغه، وتضحك، ولا تكفّ عن ذلك بالرغم من طلباته، ثم تقبّله بعد ذلك على شفته وعينيه وخدّيه، لقد كان عدواً لكل بوح، لكنها كانت تستثير حنانه، فيستسلم لذلك الحنان أحياناً، إنه الآن يتذكر السرور الذي كان يجده وهو يداعبها.

هذه المخلوقة الفاتنة، فيما مضى، استطاعت أن تصير إلى ما صارت إليه اليوم، إنساناً لا يُمْكنه التفكير فيها دون اشمئزاز! ثم تذكّر الفترة التي غدت فيها امرأةً، وشعوره الخاص بالخوف والإهانة الذي شعر به عندما لاحظ أن الناس ينظرون إليه وكأنه امرأة، تذكر غيْرته على ابنته، عندما كانت تأتي إليه، وهي تعلم أنها جميلة، يدفعها شعورٌ من الغنج، لتريه نفسها في فستان الحفلة الراقصة، أو حين كان يراها ترقص في السهرة، كان يخاف عليها من النظرات الدنسة التي تُرمى بها والتي لم تكن تفهمها، بل كانت فرحةً بها، فكر: «نعم، يا لها من خرافة، نقاء النساء! على العكس إنهن لا يعرفن الخجل، ولا حياء فيهن».

تذكّر كيف أنه رفض، لسبب لم يفهمه بعد، طالبين للزواج جميلين جداً، وكيف أنها ظلت تختلط بالمجتمع وتَثْمل شيئاً فشيئاً بنجاحاتها، لكن هذه النجاحات لم يكن يمكنها أن تستمر إلى الأبد، انقضت سنتان، ثلاث سنوات، أُعجب بها الجميع، وكانت جميلة لكنها لم تعد في ريّق الشباب، وبدت كأنها أصبحت من المتمّمات العادية لحفلات الرقص، تذكر ميشيل ايفانوفتش خوفَه من أن تظل عانساً، ورغبته في زواجها بأسرع ما يمكن، زواجاً أدنى حسناً مما كان يرغب ومما كان يُرجى لها من قبل، لكنه زواج مناسب، مع ذلك.

لكنها كانت تصطنع موقفاً شديد التكبّر، على ما بدا له، عند هذه الذكرى، هَدَو فيه شعور بالعداء أشد حدة: «لقد رفضتْ كثيراً من الطالبين المناسبين لتصل إلى هذا العار!... وتأوه من جديد: «اوه! اوه!» ووقف فأشعل سيجارة وأراد التفكير في شيء آخر: كيف سيعمل على تسليمها المال دون أن تراه.

ومرة أخرى، استيقظت في ذاكرته ذكرى أخرى، تذكّر المغامرة

الحمقاء، التي باشرتها عندما أنافت على العشرين، مع فتى في الرابعة عشرة، أحد مستجدّي مدرسة النبلاء العسكرية، قضى الصيف عندهم في الريف، تذكّر كيف جنّنت الفتى، ودموعَه، والطريقة الباردة بل والفظّة التي قابلتْ بها الفتى، عندما رجا الأبُ ذلك الفتى أن يسافر، لكي يُنهي هذه القصة المضحكة، وكيف أن علاقاتهما، منذ ذلك الوقت وقد كانت باردةً إلى حدٍّ كافٍ أصبحت باردةً تماماً من جانبها، كان يبدو عليها أنها مهانةٌ من شيءٍ ما.

كان يفكّر: «كم كنتُ محقّاً، أنها طبيعة سيئة، فاقدة للحياء».

والذكرى الأخيرة والرهيبة أخيراً هي الرسالة المرسلة من موسكو والتي تقول فيها إنها لا تستطيع أن تعود بعد الآن إلى البيت، وإنها امرأة بائسة، ضالّة، وهي تطلب الصفح والنسيان، ثم الذكرى الرهيبة لحديثه مع امرأته، والافتراضات المنفّرة والتي غدت يقيناً وهو أن المصيبة وقعت في فنلندا حيث أُرسلت لتقضي بعض الوقت عند عمتّها، وأن الفاعل طالبٌ تافه، سويدي، شقي متزوج.

تذكّر كل ذلك، وتذكّر أيضاً حبّه القديم لها، وافتخاره بها، ثم هالتْه ذكرى هذا السقوط الذي لم يستطع فهمه، فكرهها بسبب الأذى الذي جرّته عليه.

عادت إلى ذهنه كلماتُ زوج أخيه، وكان يحاول أن يتصوّر كيف يستطيع أن يصفح عنها، لكنه لم يكن يتذكّر سواه «هو»، فيمتلئ قلبه رعباً واشمئزازاً وذلةً، ويصيح «اوه! اه!» ويحاول أن يطرد هذه الأفكار.

«لا، مستحيل، سأترك المال لبطرس ليسلمها إياه كل شهر، أما أنا فلم يبق لي ابنةٌ!».

ومرةً أخرى، سقط في وَهدة هذا الشعور الغريب، المعقّد الذي كان يعذّبه باستمرار، وهو مزيج من التحنن، عند ذكرى حبه لها، ومن الكره بسبب الألم الذي سبّبته له.

- ٢ -

عاشت ليز طوال هذه السنة الأخيرة أكثر بكثير من الخمس والعشرين سنة السابقة، في هذه السنة، ظهر لها فجأةً فراغُ حياتها، لقد راعها ما في الحياة التي كانت تعيشُها من دناءة وحقارة، في مجتمع بطرسبرج الغني حيث لم تكن تستمتع إلا بالحياة الحيوانية، الخارجية، بعيداً عن كل حياة داخلية، السهرات، الحفلات الراقصة، الحفلات الموسيقية، ولائم العشاء، الزينات، فساتين الرقص التي تُري جمال الجسد، العاشقون شباباً وغير شباب، المتشابهون جميعاً، الذين يُظهرون أنهم يعرفون شيئاً، وأن لهم الحق في أن يستمتعوا بكل شيء وأن يهزؤوا من جميع الناس، الصيف، الإقامة في الريف، في الطبيعة ذاتها، وأحياناً الموسيقا، والأدب الذي يمس مسائل الحياة مسّاً، كل ذلك بدا لها حسناً سنةً، سنتين، ثلاث سنوات، لكن بعد أن دام ذلك سبع سنوات أو ثمان، دون أمل يبشّر بالتغيير ومع فقدانها شيئاً فشيئاً من فتنتها، وقعتْ في نوع من اليأس، جعلها أحياناً تتمنى الموت، قادتها رفيقاتها نحو عمل البر، رأت من جهة، البؤس، البؤس الحقيقي المنفّر، والبؤس المخفي، أيضاً، وهو أكثر إثارة للشفقة، رأت اللامبالاة القاسية لدى رئيسات الجمعيات الخيرية اللواتي يذهبن إلى المعدمين في عربات فخمة، ويرتدين فساتين تكلّف آلاف الروبلات، فأحست بحزنها يتزايد، كانت تُريد من الحياة شيئاً حقيقياً لا ظلَّ الحياة، ولم تعثر على شيء، كانت أفضل ذكرياتها حبّها لذلك الفتى، كان شعوراً

سليماً، شريفاً، مستقيماً، وفيّاً، أما الآن فلم يكن لديها شيءٌ مشابه ولا يمكن أن يكون، صارت تضجر أكثر فأكثر، حينذاك ذهبت إلى عمتها، في فلندا، وبدا لها كلّ شيء جذاباً هناك: المحيط الجديد، والطبيعة الجديدة، والأشخاص الجدد.

متى وكيف بدأ ذلك، إنها لم تكن تستطيع أن تتبيّن ذلك، كان عند عمتها مدعوٌّ سويدي، كان يتحدّث عن دراساته، عن شعبه، عن الرواية السويدية الجديدة، لم يكن بوسعها أن تقول متى بدأت تلك العدوى الرهيبة، عدوى النظرات والبسمات التي لا يمكن التعبير عن معناها بالكلمات، لأنها تتجاوز جميع الكلمات، هذه النظرات والبسمات كانت تكشف لكل منهما عن نفسه، لا عن نفسه فقط، بل عن الأسرار الخطيرة، الهامّة، المشتركة في البشرية جمعاء، وبسبب هذه البسمات كانت كلُّ كلمة من كلماتها تأخذ معنى أعمق وأكثر حناناً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الموسيقا عندما كانا يصغيان إليها معاً أو يغنّيانها غناء ثنائياً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الكتب التي كانا يقرأانها بصوت عالٍ، كانا يناقشان أحياناً، وكلٌّ يدافع عن رأيه، لكن نظرةً واحدةً أو بسمةً واحدةً كانتا كافيتين لكي يقبع النقاش، على الفور، في مكان ما، في الأسفل، بينما هما فوق هذا النقاش، إلى منطقة لا يبلغها سواهما.

كيف وقع ذلك؟ كيف ومتى ظهر الشيطان، من خلال هذه النظرات وهذه الابتسامات، واستولى عليهما في اللحظة نفسها، لم يكن بوسعها أن تقول ذلك، لكنها عندما أحسّت بالخوف من هذا الشيطان، كان الرباط الخفي الذي كان يربط بينهما قد تعقّد كثيراً إلى الحد الذي شعرت معه أنها لن تقوى على الانفصال عنه و لم يبق لها

أملٌ في غير أمانته وكرمه، كانت ترجو ألا يستغلّ قوتّه، لكنها كانت، وعلى نحو مبهم، لا ترغب في ذلك.

وزاد من ضعفها في هذا الصراع أنها لم تكن تملك ما تتشبّث به، كانت حياتُها الاجتماعية، السطحية، المزيفة تُثير نفورها، أمها لم تكن تحبّها، أبوها كان يصدّها عنه، كما خُيِّل إليها، وكانت تتحرق لا لتمثيل الحياة بل للحياة نفسها، وكانت تستشعر هذه الحياة في الحب، حب المرأة الكامل للرجل، كانت طبيعتها المشبوبة العاطفة، السليمة، تدفعها إلى ذلك، هذه الحياة، كان يَجْمعها في ذاته، في شخصه الطويل، في رأسه الأشقر ذي الشارب الواضح المرفوع الذي كانت تَظْهر تحته ابتسامة القادرة على كل شيء، كانت ترى فيه وعداً بأفضل ما في الدنيا، وإذا بالبسمات والنظرات والآمال والوعود بشيء خارق للجمال، إذ بذلك قد أفضى إلى ما لابدّ من وقوعه، إلى ما كانت تخافه وتتوق إليه في آن واحد، وإذا بكل ما هو جميل، سعيد، نقي، مليء بالأمل في المستقبل، يغدو منفّراً، حيوانياً، يائساً لا حزيناً فحسب.

كانت تنظر إليه وتحاول أن تبتسم، وتتظاهر بأنها لا تخشى شيئاً، لكنها كانت تعلم في أعماق نفسها أن كل شيء قد ضاع، وأنَّ ليس فيه ما كانت تبحث عنه وما كان فيها وفي ذلك الفتى، همست إليه أنه ينبغي أن يكتب إلى أبيه لكي يطلب يدها، فوعدها بذلك، فلما التقيا أعلن لها أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك في الحال، كان في نظرته شيءٌ خجولٌ، مُبهمٌ، فازدادت شكاً فيه، وفي اليوم التالي، كتب إليها أنه متزوجٌ، وأن امرأته تركته منذ وقت طويل، وأنه الآن ضالٌ في نظرها، وأنه مذنبٌ، وتوسّل إليها أن تصفح عنه، استدعته وأعلنت له أنها تحبّه، وتشعر أنها مرتبطةٌ به، وأنها لن تتخلى عنه، سواء أكان

متزوجاً أم لا، في اللقاء الثاني، أخبرها أنه لا يملك شيئاً وأن أهله فقراء وأنه لا يستطيع أن يقدّم لها سوى حياة تعسة، أتعس حياة، أجابت أنها لا تحتاج إلى شيء، وأنها مستعدة للحاق به حيث شاء، ثناها عن ذلك ورجاها أن تنتظر، فقبلت، لكن الحياة مع هذا التكتّم في أسرته، هذه اللقاءات العارضة، هذه المراسلة السرية، آلمتْها، فألحّتْ عليه للسفر معه.

عندما عادت إلى بطرسبرج، كتب إليها أنه يعدها بالمجيء إليها، ثم انقطع عن الكتابة واختفى، حاولت أن تعيش كما كانت تعيش من قبل، لكن ذلك غدا مستحيلاً، مَرضتْ، عُنيَ بها لكن حالتها ساءت، وعندما أدركت أنه يجب عليها أن تُخفي ما أرادت أن تخفيه، فكّرت في الانتحار، لكن كيف تقتل نفسها لكي يبدو موتُها طبيعياً! خُيِّل إليها أنها كانت مصمّمةً على الموت، حصلت على السم، وصبّته في كأس، لكنْ، في اللحظة التي كانت ستبتلع السمَّ، دخل غرفتها ابنُ اختها الذي بلغ الخامسة، وهو يركض ليُريها لعبةً، أهددته إياها جدّتُه، وضعتْ الكأس، وداعبت الطفل، وانفجرت باكيةً، فجأةً خَطَر لها أنها يمكن أن تُصبح أماً، هي أيضاً، ولأول مرة فكّرت لا فيما يقول الناسُ، بل في حياتها الخاصة بها، والانتحارُ الممكن حين لا تحسب حساباً لرأي الآخرين، يغدو غير ممكن حين لا تهتمّ بغير نفسها، رمت السمَّ، وعزفت عن الانتحار، وأخذت تحيا حياتها، منطويةً على نفسها.

كانت هذه الحياة شاقة، لكنها كانت الحياة، ولم تكن تريد أو تستطيع أن تنفصل عنها، أخذت تصلي، وهو شيءٌ لم تفعله منذ زمن طويل، لكن الصلاة لم تعَزِّها، لم تكن تتألم من أجل نفسها، بل من

أجل ألم أبيها الذي كانت تتوقعه، أبيها الذي كانت تشفق عليه وتحسّ بأنها مذنبةٌ معه.

هكذا انقضت حياتُها خلال بضعة أشهر، ثم طرأ، فجأة، حادثٌ، لم يلحظه أحدٌ، حتى ولا هي نفسها، لكنه حوّل حياتها تحويلاً، لقد أحست، فجأة، وهي تحيك غطاءً، حركةً غريبة في داخل جسمها، «لا، هذا غير ممكن!» كفّتْ عن عملها لحظة، وسرعان ما أحسّت بالحركة غير العادية، «أهو طفل أم طفلةٌ؟» نسيت حقارتها وكذبها، وغضب أمها، وألم أبيها، واستنار وجههُا بابتسامة، غير تلك الابتسامة القبيحة التي كانت تردُّ بها على ابتساماته القبيحةً، لكنها ابتسامة نقيّة وفرحة.

ارتعبت الآن لكونها أرادت أن تقتله معها، ولم تعد تفكّر الآن إلا بالوسيلة التي تغادر معها البيت، والاختفاء في مكانٍ ما لتصبح أمّاً، أمّاً بائسة، شقيّةً، أمّاً مع ذلك، رتّبت كل شيء وسافرت، لتقيم في مركز مقاطعة لا يستطيع أن يعثر فيها عليها أحدٌ، وتعتقد أنها بعيدة عن أهلها، لكن عمّها عُيِّن حاكماً فيها، وهو أمرٌ لم تكن تتوقّعه.

كانت في الشهر الرابع الذي تعيش فيه عند القابلة ماري ايفانوفنا، حين علمت أن عمّها في المدينة، أرادت أن تسافر إلى مكان آخر.

– ٣ –

استيقظ ميشيل ايفانوفتش مبكّراً، وفي الصباح ذاته، ذهب ليرى أخاه في مكتب العمل، وترك له شيكاً راجياً أن يسلّم ابنته مبلغاً معيناً في كل شهر، ثم استعلم عن سفر القطار السريع إلى بطرسبرج، فعلم أنه يسافر في السابعة مساءً، بحيث أنه كان يتسنّى لميشيل ايفانوفتش

أن يتناول غذاءه قبل السفر، وبعد أن شرب القهوة مع امرأة أخيه التي لم تَنْبس بكلمة عمّا يؤلمه، لكنها كانت تنظر إليه بخجل، نهض ليقوم، على عادته، بنزهته الصحيّة، رافقته الكسندرا دميتريفنا حتى البهو، وقالت له وهي تنظر بعطف إلى وجهه الغاضب:

ميشيل، اذهبْ إلى الحديقة العامة، النزهة فيها جميلةٌ جداً، وهي قريبة من «كل شيء».

عمل ميشيل بنصيحتها، وقصدَ الحديقة العامة التي كان كل شيء قريباً منها، وأخذ يفكر بغيظٍ في حماقة النساء وعنادهن وقسوة قلوبهن.

وفكر في امرأة أخيه: «إنها لا ترحمني، ولا تستطيع أن تفهم آلامي، وهي؟ (كان يفكّر في ابنته)، أتعرف ماذا يعني هذا بالنسبة إلي، أيّ تعذيب، أية ضربة قاصمة في آخر حياتي، ضربة ربّما قصّرتها، على كل حال، هذا أفضل، النهاية ولا هذه الآلام، وكل هذا، من أجل ذلك الساقط: تنّهد «أوه! اوه!» عندما فكّر في ثرثرة الناس لابدّ أن تحدث عندما يعلمون هنا (ولعلهم قد علموا جميعاً)، وغلى فيه شعورٌ من الكره والغضب غلياناً أحس معه بالحاجة إلى أن يقول لها ذلك، أن يُفهمها ما فعلتْه، وفكر: «إنهن لا يفهمْن... كل شيء قريبٌ من هنا..». أخرج مفكّرته وقرأ العنوان: «شارع المطابخ، بيت آبراموف، فيرا ايفانوفنا سيلفيرستوفا». كانت تعيش هنا بهذا الاسم، خرج من الحديقة ونادى عربةً.

سألته القابلة، ماري ايفانوفنا، عندما أصبح على سطح درجٍ ضيقٍ ومنتنٍ:

فيم ترغبُ، يا سيدي؟

السيدة سيلفير ستوفا، هل هي هنا؟

فيرا ايفانوفنا؟ مِنْ هنا، أرجوك... خرجت للحظةٍ، ذهبت إلى الدكان لكنها سترجع في الحال.

تبع ميشيل ايفانوفتش ماري ايفانوفنا الضخمة إلى الصالون الصغير، وكطعنة سكين، أحسّ أنه جُرح بصراخٍ آتٍ من الغرفة المجاورة، بدا له أنه صراخٌ خبيثٌ، مقزِّز، لطفل.

اعتذرت ماري ايفانوفنا، ومضت إلى الغرفة الأخرى، فسمعها تُهدّئ طفلاً، فلماّ هدأ الطفلُ عادت.

هذا ابنها، لن تتأخر عن العودة، وأنتَ، مَنْ أنت؟

أحد معارفها، لكني سأعود، فذلك أفضل.

قال ميشيل ايفانوفتش ذلك، وهو يتهيّأ بالخروجِ فقد كان يشقُّ عليه أن يلتقيها، وكل استيضاح كان يبدو له مستحيلاً

وبينما هو يهمّ بالخروج، سُمعتْ على الدرج خطواتٌ خفيفةٌ وسريعة، وتعرّف صوتَ «ليز».

يا ماري ايفانوفنا، ألم يصرخ في غيابي؟ وأنا...

في هذه اللحظة، شاهدت أباها، فسقطت الصرّةُ من يدها، وهتفت:

أبي.

وقفت عند الباب، وقد شحبت شحوباً وارتجفت ارتجافاً، كان

ينظر إليها وهو ساكن، لقد هزلتْ، اتّسعتْ عيناها، ودقَّ أنفها، وضَعفت يداها وطالتا، لم يَدْر ما يقول وما يفعل، نسي ما فكّر فيه عن العار و لم يكن يحسُّ إلا بالشفقة، بالشفقة عليها، على هزالها، على فستانها المنكر، وقبل كل شيء، على وجهها البائس بعينيه الضارعتين المحدّقتين فيه.

قالت وهي تتقدم نحوه:

اغفرْ لي، يا أبي

أنا، اغفري لي...

لفظ ذلك وأخذ يبكي كالطفل هو يقبّل وجهها، ويديها، ويبلّلها بالدموع.

شفقتُه عليها فتحتْ عينيه على نفسه، وحين شاهد نفسه على حقيقتها، أدرك أنه مذنبٌ تجاهها، مذنبٌ بسبب كبريائه وبرودته وغضبه، وابتهج إذ أحسّ أنه مذنب، بأنه لا يجد شيئاً يغفره، لأنه هو نفسه بحاجة إلى المغفرة، قادته إلى غرفتها، وروتْ له كيف تعيش، لكنها لم تُره الصبي، و لم تتحدّث عن الماضي لعلمها أن ذلك يشقّ عليه، قال لها إنها ينبغي أن تستقرّ على نحو آخر، فقالت:

نعم، في الريف إن أمكن.

سنتحدّث عن ذلك كله.

وفجأة، سُمع خلف الباب بدءُ بكاء طفل وصراخه، حملقت بعينيها، و لم ترفعهما عن أبيها، وتردّدت، قال ميشيل ايفانوفتش، وقطّب جاجبيه من الجهد الذي بذله ليسيطر على نفسه.

ماذا! يجب أن ترضعيه؟

نهضت، وخطرت لها فكرةٌ مجنونة فجأةً، وهي أن تُريَ ذاك الذي أحبّته قديماً بحنان، هذا الذي صارت تحبّه الآن أكثر من أي شيء في العالم، لكن قبل أن تقول شيئاً عن ذلك، نظرت إلى وجه أبيها لتقرأ فيه إن كان سيغضب أم لا، لم يكن وجهُ أبيها يعبّر عن الغضب بل عن الألم وحده، وقال:

اذهبي، اذهبي، الحمد لله! سأعود غداً وسوف نقرّر، إلى اللقاء، يا عزيزتي، إلى اللقاء.

ومرة أخرى، لم يكد يكبح التنهيدات التي صعدت إلى حنجرته.

عندما عاد ميشيل ايفانوفتش إلى بيت أخيه، سألته الكسندرا دميرتيفنا على الفور:

وبعد، ماذا؟

لا شيء.

سألته وقد استشفّتْ من وجهه أن شيئاً ما قد حدث:

هل رأيتَها؟

قال مقتضباً:

نعم

وفجأة أخذ يبكي، وقال وهو يهدأ

نعم، لقد أصبحتُ أحمق وعجوز.

لا، أنت ذكي، ذكي جداً

غفر ميشيل ايفانوفتش مغفرةً كاملة، وتغلبّ على جميع مخاوفه من الرأي العام، أسكن ابنته عند أخت الكسندرا ميتريفنا التي كانت تقطن الريف، كان يراها كما كان من قبل، ويقيم عندها زمناً طويلاً، لكنه كان يتحاشى أن يرى الصبي، و لم يكن يستطيع أن يتغلّب على الشعور بالاشمئزاز الذي أحسّ به نحوه، وهو شعور كان مصدراً لآلام ابنته.

***

الأب باسيل

١٩٠٦

كان الوقتُ خريفاً، توقفت عربةٌ هزّتها نتوءات الطريق، أمام منزل مغطّى بالقش، هو منزل الكاهن باسيل دافيدوفتش، وثب منها على الأرض فلاح يرتدي معطفاً قصيراً من الفرو مرفوع القبة، وأدار العربة، دنا من النافذة التي يعتقد أنها نافذة الغرفة التي تنام فيها الطاهيةُ والخادمة.

من الآتي

جئتُ طالباً الأب الكاهن

ما الأمر؟

من أجل امرأة تحتضر

وأنتَ، مَنْ أنت؟

أنا آتٍ من فوسدريمو.

أضاءت الخادمة الضوء، وعبرَت الممرّ والفناء، وفتحت باب العربة، وفي الوقت نفسه، ظهرت على سطح الدرج امرأةٌ، كانت

امرأة الكاهن، وكانت سمينةً، قصيرةً، مغطّيةً رأسها بمنديل، صاحت بصوت أبح وعدائي:

من هذا الذي ساقه إلينا الشيطان؟

أجابت الخادمة:

جاء طالباً الأب الكاهن

وأنتم، مالكم تنامون جميعاً؟ والمدفأة التي لم تشعل بعد!

لم يحن الوقت بعد.

لو لم يحن الوقتُ لما ذكّرتكم!

دخل فلاحُ فوسدريمو البيتَ الخشبي، ورسم علامة الصليب أمام الأيقونات، وحيّا امرأة الكاهن، وجلس على مقعد قرب الطاولة، لقد وضعت امرأتُه، وهي تتألم آلاماً مبرّحة، طفلاً ميتاً، وأشرفت هي نفسها على الموت، كان الفلاحُ صامتاً، ينظر حوله ويفكّر في الطريق التي سيسلكها ليوصل الكاهن: أيذهب في الطريق المستقيمة، أو عن طريق «كوسوي»، وهذا سيجعله يدور دورةً كبيرة: «الطريق سيئةٌ جداً قرب القرية، الساقية متجمّدة، لكنها لا تتحمل العربة، لقيتُ كل مشقات الدنيا حتى خرجتُ منها».

دخلت الخادمة ووضعت قرب المدفأة حزمة من البتولة، وطلبت إلى الرجل أن يتكّرم فينشر لها بعض قطع الحطب: خلع معطفه وبدأ العمل.

استيقظ الكاهن، على عادته، مرحاً معافىً، ظل بعض الوقت

متمدّداً في سريره، ورسم علامة الصليب، وتلا صلاته المفضّلة: «يا رب السموات..». ثم نهض، وانتعل جزمته، وغسل وجهه، ومشط شعره الطويل، ولبس جبّته العتيقة ووقف تحت الأيقونات للصلاة.

في وسط «أبانا» وقَفَ عند هذا القول: «اغفر لنا سيئّاتنا، كما نغفر نحن لمن أساء إلينا»: تذكر أن الشمّاس تمتم عشية البارحة، وهو في حالة سُكر، بهاتين الكلمتين «فرّيسيّون، مراؤون» كان باسيل دافيدوفتش يعرف أن فيه الكثير من النقائض، لكنه غضب بخاصة من هذا اللوم بالمراءاة، غضب على الشماس إذ ذاك، أما في الوقت الحاضر فكانت شفتاه تهمسان: «كما تغفر..». وأضاف في نفسه: «ليكنْ الله معه»، وعند هذه الكلمات: «ولا تدخلْنا في التجربة» تذكّر أنه تلذّذ بشرب الشاي الذي أضيف إليه الكثير من «الروم»، في الأحد الماضي، بعد القداس الذي احتفل به في بيت الملاّك الثري «مولتشانوف».

– ٢ –

بعد أن أنهى صلواته، نظر إلى نفسه في مرآة سيئة شوّهت وجهه، وتأمّل برضاً وجهه العريض الصبوح الذي تزينه لحية صغيرةٌ، قليلة الشعر، كان يبدو فتيّاً بالرغم من مرور اثنتين وأربعين سنة، حملت امرأته إلى الصالون السماور الذي كان يَغْلي:

لم تفعلين ذلك بنفسكِ؟ و«تيكل؟».

قلّدته امرأته مُحنقةً:

لم تفعلين ذلك بنفسكِ؟ ومن سيفعله، إذن؟

ولِمَ بكّرتِ؟

جاء فلاح يطلبك من فوسدريمو، فامرأته تحتضر

من زمنٍ طويل؟

منذ هنيهة.

و لَم لم توقظوني؟

شرب الأب شايه، بدون حليب، لأن اليوم كان يوم جمعة، وتناول الميرون المقدس، وارتدى معطفه، ووضع قبعته، وخرج بخطى ثابتة من الممر.

كان الفلاح ينتظره فيه.

مكتبة
t.me/t_pdf

قال الكاهن:

صباح الخير، يا «متري».

وشمر كمّه الواسع، ورسم علامة الصليب على جبين الفلاح الذي قبل يده ذات الأظافر المقصوصة.

ثم دخل كلاهما من درج المدخل

بزغت الشمس، لكنها لم تكن تستطيع أن تخترق الغيوم المنخفضة: قاد الفلاحُ عربته إلى أمام العتبة، صعد باسيل دافيدوفتش وجلس على المقعد المصنوع من القش ومن الأغطية المطوّية، جلس متري بجنبه، ورمى بسوطه الفرس العجوز الهزيلة، ومضت العربة وهي ترتجّ على الطريق.

كان نديفُ الثلج يتطاير.

كانت أسرة باسيل دافيدوفتش تتألف من امرأته، وحماته، أرملة الكاهن السابق، ومن ثلاثة أولاد: صبيين وبنت، كان البكر ينهي دراسته في معهد ديني ويتهيّأ للجامعة: أما الثاني، اليوشا، المفضّل لدى أمه، فكان ما يزال في مدرسة دينية أيضاً، وكانت البنت، لينا، وعمرها ستة عشر عاماً، تلزم البيت، وتساعد أمها كيفما اتفق لها، وتجد الحياة شاقة.

موجايسكي نفسه كان قد درس دراسة جيدة في معهد ديني، وعندما أنهى دراسته سنة ١٨٤٠، تهيّأ للأكاديمية، وفكر في أن يصبح راهباً، لكن أمه، وهي أرملة شماس مصابة بولد سكيّر وبثلاث بنات، كانت غارقة في الشقاء، والقرار الذي اضطُرَّ إلى اتخاذه آنذاك كان تضحيةً مريرةً، تخلّياً حقيقياً، نسي أحلام الأكاديمية[١]

وغدا كاهن قرية، لقد سَنَحَ له مركزٌ بشرط أن يتزوّج ابنة الكاهن السابق، كان الوضع تافهاً، كان الكاهن السابق فقيراً، وفقيرةً كانت زوجتُه وبنتاه، كانت «آن»، التي تتوقّف عليها وظيفة الكاهن، بعيدة عن الجمال، لكنها كانت يقظةً وسرعان ما فتنت باسيل دافيدوفتش، فتزوجها، دون كبير تفكير، وأصبح الأب باسيل بشعر قصير أولاً، ثم بشعر طويل، وقد عاش عيشة سعيدة، خلال اثنتين وعشرين سنة مع امرأته «آن»، وهو ما يزال إلى الآن زوجاً صالحاً، بالرغم من انسياقها في مغامرة صغيرة خياليّة مع طالبٍ، ولعله ازداد حباً لها، ندماً على استسلامه لمشاعر جد شريرة إبّان خيانتها، إن هذا النسيان لذاته، هذا الامّحاء، هو الشعور نفسه الذي دفعه قديماً إلى العدول عن الأكاديمية: كان يشعر من جراء ذلك بفرح داخلي عذب.

---

١ - الأكاديمية، هي أكاديمية اللاهوت.

تابع الكاهن والفلاح طريقهما بصمت، كانت العربة تثب من قلعة إلى قلعة على الطريق الوعرة، بالرغم من بطء الفرس، وكان الكاهن لايني ينزلق من مقعده، فيجلس فيه من جديد ويسوي معطفه.

عندما خرجا من القرية وتجاوزا الحفرة، سار الفلاح عَبْر الحقول فسأله الكاهن:

أصحيح أن امرأتك سيئة الحال إلى هذا الحد؟

أجاب الفلاح على مضض:

لا أمل لي في لقائها حيّةً

فردّد الكاهن:

لا ردّ لمشيئة الله، مشيئة الله، ما العمل، لا بد من أن نتألم.

نقل الفلاح نظرته إلى وجه الكاهن، كاد يقول له شيئاً خبيثاً، لكنه سكت أمام تعبير العذوبة المنبعث من العينين الناظرتين إليه، وحرك رأسه وهمس:

مشيئة الله، مشيئة...لكنها قاسيةٌ جداً، يا أبي، أنا وحدي، ماذا سأفعل للأولاد؟

لا تقنط، فسوف يأخذ الله بيدك.

لم يجب الفلاح بشيء ودمدم ببعض الشتائم نحو الفرس التي تباطأ سيرُها، ثم حرك العنان بعنف.

دخلا الغابة حيث الطريق سيئة كلها لأن الحفر تعترضها، مَضيَا هكذا زمناً طويلاً، بصمت، باحثين بنظرهما عن أفضل الممرات، و لم يتكلم الكاهن مرةً أخرى إلا عندما بلغا السهل، قال:

ما أجمل هذه الخضرة

أجاب الفلاح:

لا بأس

ثم كفّا عن الكلام، ونحو الساعة العاشرة وصلا إلى البيت، لم تكن المرأةُ ميتةً، وتوقّفت أوجاعُها، لم تقو على التململ فظلت متمدّدة على السرير وكانت حركة عينيها وحدها تُظهر أنها ما تزال حيّةً.

نظرت إلى الكاهن كأنها تريد أن تدعوه و لم تنظر إلا إليه، جلست بجنبها عجوز، وكان الأولادُ نائمين على الموقد، وكانت ابنتُها البكر، وهي بنتُ عشر سنوات ترتدي قميصاً فقط، تتأمل أمها ومرفقها الأيمن في يدها اليسرى مثل البنت الكبيرة.

دنا الكاهن من المريضة، وتلا الصلاة، ومنحها المسحةَ الأخيرةَ، وصلى أمام الأيقونات

نظرت العجوز إلى المحتضرة مرة أخرى، وغطّت وجهها بقماشة بيضاء، ثم اتجهت إلى الكاهن ووضعت في يده قطعة من العملة، أخذها، مع علمه أنها خمسة كوبيكات،

دخل الزوجُ الكوخ الخشبي، وسأل:

انتهى الأمر؟

أجابت العجوز:

هذه هي النهاية

أخذت البنتُ تزعقُ حين سمعت هذه الكلمات، لفظت بعض الكلمات غير الواضحة فزعق الأولاد جميعاً معاً، بأصواتهم المتعدّدة.

رسم الفلاحُ علامة الصليب، ورفع القماشة ليرى الوجه الذي غار دمُه، الوجه الهادئ والساكن، ثم أعاد الغطاءَ بحيطةٍ، وبعد أن رسم علامة الصليب مرات، التفت نحو الكاهن:

هل نذهب؟

لنذهبْ

حسناً، سأسقي الفرس

وخرج من الكوخ.

بدأت العجوزُ تُنشد صلواتها، كانت تتكلم عن اليتامى الذين تُركوا بلا أم وتقول إن أحداً لن يأتي ليطعمهم ويلبسهم، وأنهم سيظلون مُهملين مثل العصافير التي سقطت من أعشاشها، ولدى كل مقطع كانت تُرسل نَفَساً مبحوحاً، وتزيد من شدّة غنائها، وهي تُصغي إلى نفسها، كان الكاهن يصغي إلى ذلك كله ويحسّ بالحزن يجتاحه، رثى للأولاد وأراد أن يفعل شيئاً من أجلهم، جس جيب جبّته، وتحسسّ محفظته التي تحتوي نصفُ روبل، تلقّاه أمس من آل مولتشانوف، لم يتسنّ له أن يعطيه امرأته، كما كان يفعل عادة، فوضعه في يد العجوز، دون أن يفكر في العواقب.

عاد الفلاح الأرمل وأعلن أنه طلب إلى جاره أن يُرجع الكاهن، لأنه هو سيظل هنا ليصلح سطحه.

- ٥ -

كان الجار فلاحاً، أصهب، ملتحياً، مرحاً ومحدثاً، وقد شرب قليلاً أثناء وداعه لابنه، وكان ممتاز المزاج، قال:

فرس ميتري متعبةٌ جداً، يجب أن نعينه، لابد من التعاون دائماً، أليس صحيحاً ما أقوله.

وصاح بالجواد الأغبر:

هيه! أنت! هيا، امضِ

قال باسيل دافيدوفيتش الذي كان يثب على معقده بسبب رجّات الطريق:

لا تسرعْ إلى هذا الحد.

طيب، هذا ممكن، وبعد! هل ماتت؟

قال الكاهن:

نعم

أحب الرجل الأصهب أن يتفجّع وأن يضحك في آن واحد، قال وقد اقتصر على المرح:

ايه! ماذا! أخذ المرأة، وأعطى بنتاً.

قال الكاهن:

إني أرثي له، هذا المسكين.

بالتأكيد، يجب أن نرثي له، إنه وحده، وهذا هو الشقاء جاء إلي وقال: «أَرْجِعْ الكاهن، لأن فرسي منهكة!» يجب أن يكون بيننا تراحمٌ، أليس كلامي حسناً، يا أبي؟

لقد شربتَ، فيما أعتقد، وهذا غير حسن، يا فيدور، فلسنا في يوم الأحد.

بما لي شربتُ، كنت أودّع ابني... سامحني، يا أبي...

ليس هناك ما أسامحك عليه، كل ما في الأمر أن الشرب سيء.

بالتأكيد، والأفضل ألا نشرب، لكن يجب أن نظهر أمام الناس... هل يمكن ألا نرثي له؟ وأيضاً فقد سُرق حصانه في هذا الصيف.

وبدأ فيدرو قصة طويلة عن سرقة الخيول في السوق لقد قتل اللصوص حصاناً من أجل جلده، وقبض الفلاحون على أحدهم.

وضربوه، يا إلهي، كم ضربوه!

لِمَ ضربوه؟

ماذا! هل ينبغي أن يلاطفوه؟

وصلا إلى منزل باسيل دافيد وفيتش وهما يتحدّثان مثل هذه الأحاديث.

كان يرجو أن يستريح، لكن رسالتين كانت تنتظرانه لسوء حظه،

الأولى من المطران و لم تكن لها أهمية كبيرة، لكن الثانية كانت رسالة من ابنه أثارت عاصفةً في الأسرة، ذلك أن امرأة الكاهن طلبت أن يسلّمها نصف الروبل، بيد أن ضياع هذا المال زاد من غضبها. والواقع أن الابن كان يطلب مالاً في رسالته وكان يستحيل عليهم أن يرسلوا إليه المال، وذلك بسبب لا مبالاة الزوج.

***

مَنْ القَتَلَةُ

١٩٠٨

– ١ –

كان ذلك في ١٥ حزيران ١٩٠٦، استوى الشوفان، ونمت الحنطة السوداء، وأوشك الشيلم أن يُزهر، وبدأ الفلاحون يسمّدون الحقول.

كان الجوّ حاراً، وكان الوقت غير بعيد من الظهيرة، ألقى «سيميون بوريلين آخر أكوام الزبل في حقله، وعاد إلى بيته بعربتيه المربوطة إحداهما خلف الأخرى وهو ينعس في مقدّمة العربة الأولى، كانت الطريق تمر بحقول الشوفان.

صاح صوتُ فتاة رنان:

يا عمّ! هيه! عم سيميون!

استيقظ سيميون وشاهد عربتين من الزبل مقبلتين عليه تسوقهما فتاة قوية، حافية القدمين، بخمار أحمر، وصدار أزرق وتنورة رمادية، وقفت الفتاة قرب العربة، ونادت سيميون، وهي تضحك.

كنتَ تنام، عم سيميون؟

قال سيميون بلهجة مازحة وهو يفتح عينيه:

نعم، آه! آغرافينا ماركوفنا! وماذا يفعل «فانكا»؟ (كان فانكا أخاها، وكانت هي خطيبة ابن سيميون، «بول»).

سافر إلى موسكو، هذا التافه، وجدوا له عملاً هناك.

قال سيميون:

حسناً! هل أوصيته بأن يستخبر عن «بول»، أعتقد أنك مشغولة البال لغيابه؟...

وماذا يفعل لي، بول هذا؟ لستُ بحاجة إليه، ليغربْ عني! هيّا، أعطني الطريق، دُرْ، هيّا!

قطّبت الفتاةُ حاجبيها واحمرّت.

أوه! ما أشد حساسيتك! تثورين لأتفه الأشياء! لَمَ غضبتِ؟ لم يُعطه معلّمه عطلةً، وهو يسلم عليك، في رسالته...

أدار، سيميون عربتيه،

طيّب، طيب

ابتسمت الفتاةُ واستضاء وجُهها كله.

لم يدر حصان عربة سيميون الثانية تماماً، فسدَّت العجلاتُ الطريق، ذهبت «غروشكا» إلى خلف العربة، وبحركة قوية ألقتْ بالمؤخّرة إلى اليمين، فمرت عربتها، وقالت:

اوه؟ إني لا أغتاظ

صحيح، ونحن نرثي لكِ حقاً

صرخت الفتاة بحصانها:

هيّا، مالك تقف!

ومشت مسرعة بقدميها الحافيتين، فلحقت بحصانها، قال سيميون في نفسه، وهو يهزّ رأسه:

«ما أجملها! إياك، يا بافلوشا، إن تركتها تفلتُ فلن تُدركها».

حل سيميون جياده في الفناء، ونادى الخادم وأرسله مع الخيل إلى الحقول، لقد وضع كلَّ السماد، لكنْ بقي عليه عملٌ كثير، فلابدّ من إصلاح سياج البستان، وتعشيب حقل البطاطا، وشحذ المناجل، وقد قيل إنه سينُادى غداً عند التاجر على حشّ الكلأ، ويجب الحصول أيضاً على الخشب لبناء الحظيرة، وهذا الخشب يجب شراؤه أو طلبه أو أخذه خلسةً من الغابة، ولابد من كتابة رسالة إلى بول.

فكّر سيميون في ذلك كله، بينما هو يسير إلى بيته، وقرّر ألا يمسّ الخيل، إنها متعبةٌ جداً دون ذلك، وهي بحاجة إلى الراحة قليلاً، والرسالة أيضاً، من الصعب كتابتها، لكن يجب شحذ المنجل.

كانت «آكسينيا» قد هيّأت الغذاء، رسم سيميون علامة الصليب أمام الايقونة وجلس إلى المائدة مع أمه، والخادمة والخادم، وعندما تناول الحساء بالملفوف، أخذ يتكلّم عن «بول».

كان بول مستخدماً في مكتبٍ، في مصنع للعطور، في موسكو، كان يقبض ثمانية عشر روبلاً في الشهر، ولم يتخلف قط عن إرسال المال إلى البيت، وقد أرسل أجرة الشهور الأخيرة، لكنه وعد بالمجيء إلى البيت ولم يجئْ

«أهـو يتعهر في موسكو؟ كلُّ شيء ممكن اليوم» هكذا يتكلم سيميون أثناء الغداء، وهو يلوك خبزه مع البطاطا، واقفتْه العجوزُ على مخاطر الزمن الحاضر، كانت «آكسينيا» تجلس إلى المائدة بمرح وتَأكل، وهي تملأ الأطباق وترفعها بحيوية وهي تغمز بعينيها فرحاً - وكانت عيناها لامعتين وذكيّتين.

كانت تمدح ابنها، وتبتسم لذكره، ولا تنتظر منه إلا الخير، وإنما جرهم الحديث إلى الابن لأن سيميون روى لقاءه إغرافينا».. التي كان بول خطيبها، وبهذه المناسبة قال إنه يفكر في زواجهما بعد عيد القديس بطرس

قالت آكسينيا:

هذا حسن، هذا حسن، أرسلْ إليه إذن رسالةً، فربما جاء، قالت ماتريونا منذ زمن قريب، إنها رأته هناك وأنه أصبح أنيقاً مثل «سيّد».

بدأت العجوزُ كلامها فردّت لا على الكلمات بل على ما ثار في كنتها من تفكير، قبل كل شيء على ما ثار فيها من شعور تعرفه، شعور الحب والحنان إزاء فرح حياتها الرئيسي، ابنها بول، قالت كأنها تبرّر آكسينيا:

ماذا، إنه فتى طيب، كل والد سيفخر إن كان له مثل هذا الابن، لا هو ماجن ولا هو سكير، لا لوم عليه.

هكذا تكلّمت العجوز، وكأنها توافق حفيدها.

قالت اغرافينا لسيميون على الطريق: «ليغربْ عني» لقد كانت تعتقد أن من الضروري أن تتكلّم هكذا! لكنها بعد أن حلّت حصانها،

وذهبت مع البنات لتسبح، تذكّرت «بول» طوال الوقت، شخصه الجميل، شاربه الصغير، وجهه المرح، عزفه على الأكورديون، وابتسامة السرور التي لا يستطيع أن يكبتها حين يفكّر في اتقانه الرقص، تذكّرت بعد ذلك كيف دنا منها في عيد الميلاد، واختارها من بين جميع الفتيات، وقبّلها بخجل واحترام.

هكذا كانوا يفكرون في «بول» في القرية، في ١٥ حزيران، في هذا اليوم نفسه، وقع لبول حادثٌ قليل الأهمية في الظاهر، لكن كانت له نتيجةٌ عدّلت حياته.

- ٣ -

قبل ثمانية عشر شهراً، قاد والد «بول» ابنه إلى المدينة، اتفق مع يهودي، صاحب مصنع للعطور، وترك لابنه القمصان والصُدارات التي أعدّتها آكسيميا، وعاد هو نفسه.

كان بول قد عاش في الريف كما يعيش الآخرون، مهتدياً بما يَهْدي حياة أكثرية البشر الساحقة، وبتعبير آخر، كان يهتدي بما يفعله الناسُ من حوله، بما يفعله كلُّ إنسان، فإذا حاد عمّا يفعله الجميع فلأن هوىً جرفه، لكنه كان يعلم، في هذه الحالة، أنه أساء التصرّف، بحيث لم يكن يستحسن إلا ما يستحسنه الناس، ولا يستقبحُ إلا مايستقبحونه. وفي الريف، كانت مبادىء الحياة الريفية تنظم سلوكه: كان حسناً ألا يضيع المرءُ وقته عبثاً، بل أن يعمل وأن يتقن العمل، ألا يخاف من شيء، أن يكون ذا جلادة، ألا يغتاظ، ويمكنه، بين الحين والآخر، أن يلهو، وأن يشرب قليلاً، بل وأن يشتم ويضرب إن ما يستطع أن يتمالك نفسه،

«من ذا الذي لم يذنب أمام الله و لم يخطئ أمام القيصر؟»[1] وأن يربح من الأغنياء، إذا سنحت الفرصة، وينبغي ألا يدع الفرصةَ تفوته، لكن لا يجب أن يستغلّ أخاه الفلاح: يجب أن يتصرّف معه بشرف، وأن يفكر، على كل حال، في نفسه وفي الله، لا بأن يذهب فقط إلى الكنيسة ويتلو الصلوات في موعدها، لكن بألاّ يطرد المتسولين، وأن يساعدهم في حدود قدراته، أن يلهو ما دام شاباً لكن دون أن يرتكب ذنوباً، ألا يَسْرق ولا يزني ولا يسكر، وقبل كل شيء، أن يطيع الشيوخ وأن يُصغي إلى ما يقولون... تلك هي متطلبات الريف وحدود الخير والشر، كان بافلوشا يمتثل لها بلا نقاش لها، لكنه إن كان يخضع، وهو يعيش في الريف، لمتطلبات مَنْ حوله، فقد كان يُدرك، من خلال الكتب التي كان يُحب أن يقرأها وكان يقرؤها، أن هناك حياةً أخرى لها متطلبّاتها المختلفة، أما ما قوام هذه المتطلّبات فلم يستطع أن يتبيّن ذلك، لكنه كان يهتمّ بها، لا شعورياً، كان ينتظر جواباً عن هذا السؤال، وهو يقرأ كل ما يقع تحت يده، لكن الكتب التي قرأها لم تُعطه الجواب.

– ٤ –

تشوّشت سكينتُه النفسية في موسكو، إن هذا السؤال: لِمَ كانت حياةُ الناس منظّمة بحيث ينفق بعضُهم ثلاثة روبلات على العطور، ويظل آخرون أياماً كاملة بلا طعام، بينما تدقُّ أجراسُ الكنائس ويلمع ذهبُ الأيقونات والحلل الكهنونية؟ إن هذا السؤال أخذ يطرق ذهنه أكثر فأكثر.

---

١ – مثل روسي.

كل الحياة المحيطة به كانت تبدو له مثل لغزٍ عريض، معقّد، غدا اكتناهُه المشكلة التي تشوّشه بلا انقطاع.

أن أباه وأمه (اللذين كان يحبهما أكثر من أي شيء) وخطيبته اغرافينا، وزواجه هناك، في الريف، إن كل ذلك كان يشغل باله، لكن ذلك لم يكن سوى قطرةٍ في بحر، إذا قيس بالاهتمام الذي كان يهتمه بحلّ لغز الحياة.

كانت حياتُه تسير كما حياة الذين يعملون عند الغرباء، كان يسكن مع مواطنين من قريته، في الثامنة صباحاً، يأتي إلى المكتب، ويمسك الحسابات، ويسجلها في الدفتر، ويسجّل أيضاً جميع الإرساليات وإيصالات التسلّم ألخ... كان يتناول غداءه ويستريح ويستأنف العمل، ثم يعود إلى منزله، ويَنْظم أشعاراً رديئة لم يكن يظنها كذلك، وفي أيام الأعياد، عندما يكون المكتب مغلقاً، كان يذهب إلى حديقة الحيوانات أو إلى المسرح أحياناً، كان نظيف اللباس، وكان يحرص على ذلك، ومع ذلك فقد كان يُرسل إلى أبيه أكثر بقليل من نصف ما كان يكسبه.

وذات سبتٍ، مساءً، قال له رفيقه نيكولا آناسوف، وهو يخرج من المكتب:

أنتَ، يا مَنْ يحب القراءة، هل قرأتَ «المَلِكُ المجاعةُ؟».

أجاب بول بأنه لم يقرأه

حسناً، تعال إلى بيتي، سأعيرك إياه

ذهب بول إلى بيت آناسوف، وأخذ الكتاب، وقرأ الليلَ كلّه، و لم

ينم إلا عند الفجر، وعندما استيقظ، أراد أن يرسم علامة الصليب، على عادته، لكنه تذكّر ما قرأ، فابتسم من نفسه، وأخذ يَسْترجع كلَّ ما قرأ، والذي كان بدايةً لاكتناه ذلك اللغز الذي أقضّ مضجعه.

- ٥ -

بعد ذلك بقليل أَدْخل «آناسوف بول» في اتّحاد العمال، واستعلم بول عن أهداف هذه الجمعية، إنه لشيءٌ زهيدٌ أن يبرهن العلماءُ والمثقفون بوضوع أن وضع الأشياء الحالي فاسدٌ، ظالمٌ، مثير، فلقد عُثر على الوسيلة لمعالجة ذلك، وفضلاً عن ذلك، فقد أعطي الناس إمكان المشاركة في هذا العمل الإصلاحي.

عكف بول بكل كيانه على هذا العمل، قرأ كل الكتب، قرأ «كربوتكين» و«ريكلو»[٢]، وحدث في نفس بول تغيّرٌ كامل، الواقع أن ما كان في الريف قد كان هنا، الفرق أنه كان، في الريف، يهتدي بفهم للحياة مشترك بينهم، بينما كان يهتدي هنا بفهم مشترك بين الذين يحيطون به.

وفرقٌ آخر هو أنه لم يكن هناك يحس أنه مسرورٌ من نفسه، بينما لا يمكنه هنا ألاّ يفرح من نفسه، ألا يسرَّ من نفسه، وبالمقابل، فهو لم يكن يحسّ هناك بمشاعر الكره نحو الناس، حتى الوكيل الذي عاقب أباه بجزاء بسبب سرقة الخشب لم يكرهْهُ، كان يُقرّ بأن الوكيل قد فعل، بالنظر إلى وظيفته، ما ينبغي أن يفعله، و لم يكن يشعر بالحسد نحو معلّمه الشاب الذي كان يمرّ أمامه على درّاجة مقدّراً أن الأمور ينبغي أن تكون كذلك.

---

٢ - كروبتكين وريكلو: الأمير كروبتكين ١٨٤٢ - ١٩٢١، والجغرافي الفرنسي ريكلو (١٨٣٠ - ١٩٠٥) منظران من منظري الفوضوية.

أما الآن، فعلى العكس، كان من المستحيل عليه ألاّ يتساءل لماذا لم يكن هو مع تلك السيدة، في تلك العربة التي يجرّها جوادٌ فارهٌ، وكان ذلك السيّد بشاربه المعقوف.

وأخيراً فهو لم يكن ينتظر شيئاً من الحياة هناك، و لم يكن يعتمد إلا على نفسه، أما هنا فثمة الأملُ، بل الثقة بأن كل ذلك سيتغيّر، وأنه سيكون أحد صانعي هذا التغيّر، ولعله سيكون الصانع الأساسي: لقد وُجدَ إذن قادةٌ خرجوا من بين صفوف العمال.

- ٦ -

عاش كذلك حتى ١٥ حزيران، مستغرقاً أكثر فأكثر في أفكاره وعواطفه، وناسياً أكثر فأكثر قريته وآغرافينا.

كان في الريف عفيفاً، وكذلك زَهدَ هنا، لفَرط ما كان مستغرقاً في أفكاره عن الثورة، كان في الريف عفيفاً لأن الفسق كان مستْقبحاً، وعندما قالت له آغرافينا، وهي تودّعه: «والآن لن تنساني مع حسان موسكو»، أجاب: «كفى هذراً، قلتُ لكِ إني لا أحب ولن أحب غيركِ».

وهو، الآن في موسكو، عندما يتذكّرها، يبتسم، ويبدو له غريباً أن يتزوج غروشكا تلك الأميّة، كان يحلم بالاتحاد الروحي بامرأة متعلّمة، ومن أجل هذه العلاقة وفي الوقت نفسه، من أجل العمل أرادَ أن يكون عفيفاً.

في ١٧ حزيران، عندما خرج «بول» من مكتبه، مساءً، صادف في شارع نيكولا آنوسوف، زميله القديم في المكتب ورفيقه في منظمة

العمال التي كان بول عضواً فيها منذ رأس السنة، كان آنوسوف فتىً مرحاً، شاطراً، جريئاً جداً، قرأ كثيراً، وكان يُعَدُّ رفيقاً جيد الذكاء.

كانت أول كلمة لآنوسوف هي التالية:

كنتُ ذاهباً، إلى بيتك، يا بول، لم أشأ أن أذهب إلى المكتب، قبّح الله هذا المستغِل اليهودي، لكن لديّ قضيّة سأقترحها عليك، قضيّة سهلة وهامة.

ذهب بول معه، وفي الطريق روى آنوسوف لبول أنهم قرّروا في حزبهم (كان ينتهز بسرور خاص كلّ فرصة لينطق بهذه الكلمات) أن يشتروا آلة طباعة، وهذه الآلة ضرورية للطباعة، لكن كان لابدّ لذلك من بعض عمليات «نزع الملكية» التي يجب أن يشارك فيها جميعُ الشغيّلة الواعي، وبما أن بول يُعتبر عضواً واعياً في الحزب، فقد اقترح عليه أن يذهب، في الحال معه، إلى لجنة الجمعية العمالية حيث ستُقرَّرُ ما العمليات التي ينبغي القيام بها وكيف ينبغي القيام بها.

كان بول، وهو يصغي إلى أنوسوف، لا يكاد يستقرّ على ساقيه، لفَرْط ما أحسّ بالانفعال والحماسة، لم يكن يفكر فيما عليه أن يفعله، ولا فيما هو «نزع الملكية» - كان يعلم أن ذلك يُمارَس وكان ذلك يكفيه - كان يحمر ويشحب في الحماسة وهو يصغي إلى آنوسوف، وكان الشيء الأساسي، الأهم بالنسبة إليه أن يغدو على صلة مباشرة بقادة الثورة، أن يتمكن من المشاركة في تحرير الشعب، أن يتمكن من العمل.

طلب إليه آنوسوف أن يجيء في الحال، لكن بول قال له أنه مُضطر إلى المرور بالبيت لشأن من شؤونه، لكنه سيكون، بعد ثلاثة أرباع الساعة، في اللجنة، شارع برونايا.

- ٧ -

عاد بول إلى بيته بخطى سريعة، وقد استخفته الحماسة بأن يكون عضواً في الحزب، بأن يتمكن من العمل، من الظهور، وفي الوقت نفسه، كان يفكر أنه يجب عليه، في أول لقاء له مع هؤلاء الناس غير العاديين، أن يُحدث فيهم أثراً طيباً، ولإحداث هذا الأثر كان لابد من طقم لائق، كانت لديه سترة طقم قصيرة، وبنطالاً ضيقاً جداً على قدّ ساقيه، وكان يعجبه بنوع خاص، وفكر في أن ذلك هو ما كان يلزمه، رجع سريعاً إلى بيته، وارتدى ملابسه، ونظر إلى نفسه في المرآة، وصفّف شعره، ومضى يوسع الخطى إلى شارع برونايا.

- ٨ -

كان فلاديمير فاسيلييتش انتباتروف، وهو طالب قديم في السنة الخامسة، في كلية الطب، ومحكومٌ بالأشغال الشاقة لأنه شارك في تحرّر العمال، قد هرب من سجن الأشغال الشاقة إلى الخارج، ثم رجع إلى روسيا باسم آخر.

في صيف ١٩٠٦ جاء إلى موسكو ليجذب العمال إلى الحزب الاشتراكي الثوري.

كان قصة فلاديمير فاسيلييفتش هي التالية: كان ابن شمّاس، اجتذب، وهو ما يزال في المدرسة الدينية، أنظار معلميه وزملائه بقدراته الباهرة إلى حدود غير عادية، وباستقامته، وبإخلاصه، وبَقْدرٍ بالغ لا من الجمال بل من الجاذبية، كانت بسمته مُعدية جداً بحيث أن أشد الناس رصانةً وحزناً لم يكن يستطيع أن يمتنع عن الرد على ابتسامته بابتسامة، وبعد كثير من المساعي، حصل له أهله على وظيفة

كاهن بشرط أن يتزوّج ابنةَ كاهن القرية السابق، وعبثاً كرّر على أبيه أنه غير مؤهّل للكهنوت، وعبثاً توسل إلى أمه، فلم يشأ والده أن يسمعا شيئاً مما يقول، وهدّداه بلعنتهما، صمّم فلاديمير أن يتحرّر بوسيلة أخرى، لقي خطيبته وتفاهم معها بصراحة تامة، قال لها إنه لا يؤمن بالكنيسة، وأنه لا يحبها بحيث أن زواجه بها وقبوله لوظيفة كاهن سيكونان شيئاً غير شريف وحقير.

شقّ ذلك في البدء على تلك الريفية الطيبة، لكنها عزمت، بعد أن غلبها خطيبها بسحره وابتسامته وصراحته، أن تفسخ مشروع الزواج.

هكذا سُوِّي كل شيء، ترك فلاديمير البيت دون كوبيك واحد: كان هم الأب أن يشتمه ومَنعَ الأمَّ من مساعدة ابنها.

في المدينة الجامعية، توجّه فلاديمير إلى أستاذ قديم في المعهد الديني، عثر له على دروس، ودخل كليّة الطب، وهنا بدأ نشاطه الثوري، وقد ابتعثَ هذا النشاطَ، بصورة أساسية، التباينُ المذهل الذي لم يكن موجوداً فقط بين الترف العجيب، ترف الأسر التي يعطي الدروس فيها (إحدى هذه الأسر التي كان يُعدُّ فيها للمعهد الثانوي فتىً شديد الغباء، كانت تعيش في ترف جنوني) وبين بؤس الشعب، بل بصورة أساسية التباينُ بين العلم الراقي وبين الجهل الفظيع، الخرافي لدى أبيه والشماس ورفاقه في المعهد الديني، ولاسيما لدى جماهير الشعب، كان الهدفُ الأساسي، الوحيد، لنشاطه الثوري تنويرَ الشعب، وتخليصه من هذا الجهل الذي تحافظُ عليه الكنيسةُ والذي بسببه كان يتعذّر على هذا الشعب إلا أن يقع تحت سيطرة جميع الذين يريدون أن يستغلّوه.

- ٩ -

عاش فلاديمير فاسيلييفتش، في بداية نشاطه، طوال خمس سنوات، دون أية رغبة شخصية، مُكبّاً بكلّيته على عمله، كان مستعداً أن يضحّي في كل لحظة بحرّيته وحياته من أجل الهدف الذي يُتابعه، دَعْكَ من رفاهيات الحياة، وأفراح الحب، كان حريصاً على سلامته، يتخفّي عن أعدائه، لكنه لم يكن يفعل ذلك، من أجله، من أجل شخصه، لكنه كان يفعله من أجل العمل العظيم المشترك لخلاص الشعب من النير المادي والمعنوي، لم يكن يعرف أية رفاهية من رفاهيات الحياة ولا يريد أن يعرفها، كانت له علاقات حميمية ببعض النساء، لكنها كانت علاقات عفيفة على الإطلاق، كانت علاقات عمل، ومع أن جوليا كرفتزيفا والآنسة آروتسون أُغرمتا به وأنه شك في ذلك، إلا أنه أبى أن يعترف لنفسه بذلك.

- ١٠ -

كان يعيش الآن، في موسكو، لدى رفيق، ضابط مدفعية سابق، وهنا كانت تجري الاجتماعات، في الاجتماع الأخير، كان بول حاضراً، وكان الموضوع هو الحصول على المال الضروري لشراء آلة طباعة...

***

بول (دراما)

المشهد الأول

غرفة صغيرة فقيرة الأثاث، في الوسط، طاولة، وحولها كراسي، وُضع سماور على الطاولة التي لا غطاء لها، الجميعُ جالسون حول الطاولة.

آنا يوسيفوفنا آروتسون: ألمانية، فتاة سمراء، طالبة.

ماري ايفانوفنا شولتز: رفيقتها، فتاة شقراء، رصينة جداً، ممّرضة.

رازومنيكوف: ضابط سابق جميل، قوي، مديد القامة، وهو يرتدي صدارة روسية وجزمة عالية الساقين.

نيكولا غافرليفوتش آلمازوف: طالب قديم في السنة الخامسة في كلية الطب، وجه حازم، ذكي، ساخر، هزيل الجسم، متوسط القامة.

شام: أستوني، رجل سمين وقصير، صامت.

ماتفييف: فلاح في الثانية والعشرين، متحمس جداً، كلام باهر.

م. ا. شولتز، تقدّم فنجان الشاي لرازومنيكوف: وبعدُ، كفى نقاشاً، لقد قرّرت الأغلبية أن نزع الملكية ضروري...

رازمنيكوف، بحرارة: أنا لا أناقش، لكني أقول ما يلي: كما أن حكامنا، إذا كانوا بحاجة إلى تنفيذ حكم الإعدام فيجب أن يشنقوا بأنفسهم وألاّ يُكرهوا على ذلك المساكين الذين يعيشون في البؤس..

ألمازوف، منهياً كلامه بابتسامة رشيقة ساخرة: فكذلك نحن إذا شئنا ان نُقدم على «نزع الملكية» - كما لو كنا نرغب في ذلك حقاً - فينبغي لنا أن ننفّذ نحن بأنفسنا هذا العمل اللطيف، تاركين «لشام» مثلاً أو لشاب جدّ متّزن وجدّ عملي مثله (يشير إلى ماتفييف) أمرَ تنظيم القضية، والاهتمام بالمراسلة، بالطباعة، ألخ...

رازومنيكوف: أنا أقول أنه لا يمكن أن تفرض على الآخرين مخاطر هذا المشروع.

المازوف: غاضباً: يمكن أن يَرِدَ ذلك لو كان خادمُك المتواضع مختبئاً في مكان ما، في مكان مأمون، لكن يبدو لي أن الخطر واحدٌ للجميع، المسألة هنا مسألة توزيع العمل.

ي. آروتسون بحرارة: إن كان ذلك لا يعجبك فلا تفعله، لكن على مَنْ يقعُ اللوم؟ على نيكولا غافريلوفتش الذي وهب القضية حياتَه كلها...

م. ا. شولتز: كفى نقاشاً، تناولوا الشاي...

رازمنيكوف: قلتُ رأيي، فافعلوا أنتم كما تشاؤون

ماتفييف: الخطر!... نحن سعداء بالخطر نحن مستعدون لأن نهب حياتنا بالمناسبة التي نُظهر فيها صدقنا، قولوا لي فقط ما الذي يجب أن أفعله، وسأذهب بفرح حتى إلى الموت المحقّق. وأنا أعلم أن «بول بوريلين» يرى رأيي.

م. ا. شولتز، مبتسمة: بدأ يحمي صديقكَ.

ماتفييف: أنتم لا تعلمون ماذا يعني بالنسبة إلي الفلاح أو العامل أن يَنفذ النور فجأة إلى ظلماتهما! يجب أن نعرف تلك الظلمة: وحين نفكر، كما فكّرنا، أن هذه الظلمة طبيعية، وأن من الضروري أن يجوع الفلاح والعامل وأن ينظر إلى العمل الذي يُعطيانه في أرض إنسان آخر أو في مشروع «رأسمالي لإنسان آخر، وفجأة...

آلمازوف، يبادل الآنسة آروتسون وشولتز النظرَ: هذا صحيح، صحيح...

ماتفييف: نعم، حين نفكّر كذلك، حين نعيش في القبر ثم نفهم فجأةً أن ذلك لا ينبغي أن يكون، وأنه ينبغي أن يكون شيئاً آخر، وأننا، نحن العمال، لا ينبغي أن نكون تابعين للرأسمال، بل أن يكون الرأسمال تابعا لنا...

آلمازوف: كل هذا صحيح، لكنْ كنتَ تريد أن تحدّثنا عن «بوريلين»...

رازومنيكوف: لقد أعجبني كثيراً.

معاً

م. اشولتز: هذا شاب جذاب على نحو غير عادي.

ماتفييف: نعم، بمناسبة الكلام على بوريلين، كنتُ أريد أن أقول أنه الآن في هذه الحالة الذهنية بالضبط، إنه مليء بالحميّة، وكلما تعلّم ازداد شوقاً إلى التعلّم، وهو يريد أن يعمل، قبل كل شيء، لا أريد أن يتكلم بل أن يعمل، لسنا فلاحين لسبب زهيد - (يضحك الجميع)

آلمازوف: فهمتُ

آروتسون: بوريلين وآنوسوف ينظران تحت، هل نناديهما؟ ماذا تقررَ؟

آلمازوف، مخاطباً الجميع وبشكل خاص رازومنيكوف: وبعدُ! يا رفاق، هل نكلّف بوريلين وآنوسوف هذا العمل؟ وإذا كلّفناهما، هل ينبغي أن ندعوهما وأن نقول لهما ذلك؟

رازومنيكوف: أنا، قلت رأيي.

آروتسون: لكنكم تعلمون أن الآلة اشُتريتْ، وأنه لابدّ من المال الذي لا نملكه، وهذا شيء مستعجل وضروري.

آلمازوف، مخاطباً الجميع ما عدا رازومنيكوف: وبعدُ! يا سادة، هل نحن متفقون على أن نوكل إلى بوريلين وآنوسوف نزع ملكية ما يستطيعانه من عند صاحب مصنع العطور؟ (الجميع يعبرون عن مواقفهم) الأغلبية موافقة.

أيوسيا، نادهما، (يخرج ماتفييف، يخاطب آروتسون، (يالهذا الإيمان، وما أذكاه...

آروتسون: نعم، هو تلميذك، أنت تبثّ شعلةَ الحماسة فيمن تشاء.

م. ا.شولتز، لرازومنيكوف: أنا من رأيك تقريباً، لكني لا أريد أن أنفصل عن رفاقي.

شام: يجب أن نتذكّر أولاً أننا يجب أن نهجر كل شيء وأن نعمل.

رازومنيكوف: نعم، لكن لا على حساب الآخرين.

شام: لمَ على حساب الآخرين؟

المشهد الثاني

نيكولا أنوسوف وبول بوريلين.

يدخلان ويصافحان الجميع.

م. شولتز: اجلسا..

يجلسان، صمت ثقيل

الماسوف لبول: إن رفيقك في المكتب، وهو رفيقنا بقناعاته وبإخلاصه للقضية المشتركة، قد قال لنا أنك تشاركنا قناعاتنا وترغب في مساعدتنا.

بول، متهيّجاً: أنا مستعدٌ لكل شيء، فهمت الآن...

آلمازوف: دعوني أنهي كلامي، كنت أقول إذن: إنكما ترغبان في مساعدتنا، ولا شك أن ذلك يسرّنا، إن الذين يتضامنون معنا من العمال لا يُعدّون بالمئات بل بالآلاف، وكلما ازداد عددهم كان ذلك أنفع لنجاح قضيتنا، لكننا يجب أن ننبّهكم إلى أنه لابد لنا، لكي ننجح، من القوة والجلادة والحذر والتكتّم، فالألمان يحيطون بنا[1].

«يروي بول بإسهاب، وهو متحمّس، كلِ ما عاناه: إنه كان يعيش في الظلمات، إن الفلاحين لا يفهمون شيئاً، وأن الكهنة يخدعون الشعب، وأنه نظم قصائد في هذا الموضوع، يوقفه المازوف وهو يبتسم ويعيده إلى الموضوع، يقول بول أيضاً كثيراً من الأشياء التي

---

١ - في المخطوط الأصلي كتب تولستوي بيده، بازاء هذا المقطع الجمل التالية ثم محاها: «العمل لا يتقدم، هذا شيء سخيف، لا أستطيع» أما البقية فقد نسختها الكونتيسة صوفي اندريفنا وصححها ليون تولستوي.

لا فائدة منها، هو سعيدٌ لأنه عرف رجالاً حقيقين، رجالاً يضحّون بحياتهم من أجل أصدقائهم، من أجل القضية، القضية الكبرى، من أجل إلغاء الاستغلال والطغيان، وهو، مع أمثال هؤلاء الرجال، مستعدٌ لكي شيء.

يعهد إليه آلماسوف بالمهمة ويسأله كيف يُقدّر أنه سينُهيها بنجاح، يتدخل آنوسوف في الحديث ويقترح خطة: هي أن يذهب إلى المكتب صباحاً باكراً، ويكسر القفل، وينصرف، الأمرُ بسيط ولن يعرف أحدٌ شيئاً، ومن المؤكد أن في الصندوق عشرة آلاف روبل.

بول: سبعة آلاف بالتأكيد، لا عشرة.

كل ذلك جرى في ١٥ حزيران، في نفس اليوم الذي لقي فيه والد بول اغرافينا، والذي تذكّرته فيه اغرافينا وأمه بكثير من المحبة، وفي ١٧ حزيران، في الصباح الباكر، نفذّ بول وآنوسوف «نزع الملكية» في مكتب معلّمهما، كما كلّفتهما اللجنُة الثورية.

في هذا اليوم وصل المعلُم صاحب المصنع، وهو يهودي تنصّر، ويُدعى ميشيل بوريسوفتش شندل، إلى مكتبه أبكر من عادته، لأن ذلك اليوم كان يوم دفع أجرة العمال.

في عشية أمس، ١٦ قضى شندل سهرته عند رجل مهتمّ بالأدب، وكان شديد الحرص على معرفته والفخر به، كان هذا الرجل يكتب في صحيفة تحررية لحزب «الكادية» ويحب شندل الذي أحب آراءه، وكان حسن المعاشرة، وجاء، هذا المساء، عضوٌ في «الدوما» مرّ بالمدينة، وهو رجل محافظ، كثير الحركة عظيم الموهبة، وقد انقضت السهرةُ كلها في النقاشات السياسية النشطة التي شارك فيه شندل،

جرى الكلام على كثير من الأشياء، ومن بينها وضع العمال، وكان شندل الذي له علاقة بالعمال يطالب لهم بالحق في تأليف النقابات للدفاع عن حقوقهم، بل ويسلّم بالإضراب السلمي، وكان يرى أن رأيه هو، رأيه كصاحب مصنع، فيبتعث الإعجاب وشيئاً من الاحترام لشخصه، وكان هذا ساراً له.

استيقظ مبكراً ليذهب إلى مكتبه، وتذكّر بسرور نقاش السهرة، والكلمات التي قالها، وخرج من بيته وهو يَحْسبُ إن كان في صندوقه ما يكفي من المال ليدفع أجرة العمال ويسدّد ثمن البضاعة المستدانة لأسبوع، اقترب من المكتب.

قال في نفسه: «يجب أن أسأل بوريلين عن ذلك، وتذكّر، عندما فكّر في بوريلين، أنه عندما تكلم أمس عن تطور العمال العقلي وعن أخلاقيتهم فقد كان بول أمام منظوره.

وشدّ ما كانت دهشتُه حين رأى المكتب مفتوحاً.

- ١٤ -

عندما دخل البهو رأى بوريلين، لم يدهش من ذلك، حيّاه، وتناول المفتاح المعلق بمسمار، واتّجه إلى غرفة مظلمة تفضي إلى مكتبه، وفجأة، هجم بوريلين عليه، أمسك بيد طرف معطفه وبيد أخرى مسدّساً صوّبه إلى صدره:

صاح بوريلين:

أعطني مفتاح الصندوق؟

ماذا؟ ماذا؟

ماذا؟ ماذا؟

المفاتيح! المال!

قال شندل لبول:

بوريلين، ماذا دهاك؟

أسرعْ، أسرعْ...هات ما عندك، أنا أعلم أن عندك سبعة آلاف روبل ...

قال شندل وهو يعطي المفاتيح:

آه! آه! ما معنى هذا؟

ما كاد شندل يسلّم المفاتيح حتى وثب آنوسوف، من خلف الباب، والمسدّس في يده وأمسك شندل من رقبته.

دخل بول المكتب ومعه المفاتيح، وفتح الصندوق، ظلَّ آنوسوف مصوّباً مسدّسه على شندل، أخذ بول المال ووضعه في جيبه.

قال آنوسوف وهو يمشي القهقري إلى الباب:

ولا كلمة، وإلا...

عندما وصلا الباب، خرجا إلى الفناء، أراد بول أن يركض، فمنعه آنوسوف، وهمس إليه: «خطوة، خطوة» لم يصلا الباب حتى صاح شندل من مكتبه: «اقبضوا على السارق!

وسرعان ما أخذا يركضان، لكن البواب سدّ عليهما الطريق، عاد آنوسوف إلى صاحب المعمل مصوّباً إليه مسدّسه.

ألفى بول نفسه وجهاً لوجه مع البواب، ولكي يخيفه أطلق النار

مرتين، فولّى آنوسوف هارباً، صاح بول:

أطلق النارَ، أنت، أنا لا استطيع.

دلف إلى الشارع وهو يركض، لكن الناس أقبلوا عليه مسرعين، غاب بول في فناء فارغ، لكن قبل أن يتسنّى له أن ينثني راجعاً، أحاط به جمهورٌ من الناس وأخذوا يضربونه كلٌّ من جهته.

- ١٥ -

قال بول في نفسه، وهو لا يفهم شيئاً: «ماهذا، يا ترى؟» في حين كان يُضرب، ويلقى العنت، ويسيل عرقاً، وقد فقد قبّعته، وتمزّقت ثيابه، قعد وهو يحاول أن يتفادى بمرفقيه الضربات التي كانت تنهال على وجه المدمي، وأن يبلغ بواب البناية المجاورة، لم يثب إلى نفسه إلا عندما جاء رجال الشرطة وأبعدوا الناس الذين يضربونه وأنهضوه وأقتادوه، خطرت له عدةُ أفكار، لمَ لم يطلق النار على البواب؟ ولام نفسه لأنه لم يتصرّف كذلك، كان يتذكر كيف نفذ ما كان قد وَعَدَ به فلاديمير فاسيلييفتش، لا يعودُ الفشل إليه، بل إلى آنوسوف الذي أضاع كثيراً من الوقت مع المعلم، اختلطت هذه الأفكار مع إحساسٍ بالألم في العنق، ومع وجه المعلم المرتعب ووجه البواب المرتعبِ أيضاً، «نعم، كان يجب ألا أخاف، كان يجب أن أقتل» كذلك كان يفكر، إن ما كان يتمّمه لم يكن من أجله هو، بل من أجل خلاص الشعب، وانبعثت أيضاً أفكارٌ عن بيته وأمه، لكنها لم تكن منسجمة إلا قليلاً مع ما كان يجري هنا، وسرعان ما اختفت.

في المركز، حُبس في حجرة منفردة، وعند الظهر نُقل إلى السجن الكبير حيث تُرك وحده.

***

حكمة الطفولة

١٩٠٨ - ١٩١٠

١ - في الدين «ولدٌ وأمُّه».

الولد: لَمَ لبستْ مربيتي وكأنها تريد أن تخرج، و لَمَ ألبستني بلوزةً جديدةً؟

الأم: لأن اليوم عيد ولأننا سنذهب إلى الكنيسة.

الولد: أي عيد؟

الأم: عيد الصعود.

الولد: ما معنى عيد الصعود؟

الأم: معناه أن سيّدنا يسوع المسيح صَعَدَ إلى السماء.

الولد: وما معنى صعد؟

الأم: معناه طار

الولد: كيف طار، بأجنحة؟

الأم: لا، لم يطر بأجنحة، طار فقط، لأنه الله، ولأن الله قادر على كل شيء.

الولد: قال لي والدي دائماً إن السماء هي ما نراه وأن لا شيء فيها، وأن هناك النجوم، النجوم التي لا تحصى، وأن السماء لا نهاية لها. فأين أمكنه أن يطير إذن؟

الأم مبتسمة: لا يُمكن فهمُ كل شيء، يجب أن نؤمن.

الولد: نؤمن بماذا؟

الأم: إلى ما يقوله الأشخاص العظام.

الولد: لكنكِ قلتِ لي أنتِ عندما رويتُ لك أننا قد نموت إذا نثرنا الملح، إننا لا ينبغي أن نؤمن بالحماقات.

الأم: بالتأكيد، يجب ألا نؤمن بها.

الولد: وكيف أستطيع أن أعلم متى تكون الحماقة ومتى لا تكون؟

الأم: لكني قلتُ لك لأننا يجب أن نؤمن بالدين الحقيقي لا بالحماقات

الولد: وما الدين الحقيقي؟

الأم: ديننا، (بينها وبين نفسها): يبدو لي أنني أقول حماقات. (بصوت عال): اذهبْ وقل لأبيك إننا ذاهبون، وضَعْ وشاحَك.

الولد: هل سأحصل على الشوكولا بعد القدّاس.

٢- في الحروب

«كارل شميدت، تسع سنوات، بطرس اورلوف: عشر سنوات، ماشا اورلوف، ثماني سنوات».

كارل: ... لأن بلدنا بروسيا فلن نسمح للروس بأن يأخذوا أرضنا.

بطرس: لكننا نقول، نحن، إن هذه الأرض أرضنا لأننا احتللناها من قبل.

ماشا: مَنْ، نحن؟

بطرس: أنتِ أصغر من أن تفهمي، نحن، نعني بلدنا.

كارل: كان الناس يعيشون بحيث أن بعضهم ينتمي إلى هذا البلد والآخرون إلى بلد آخر.

ماشا: وإلى أي بلد أنتمي، أنا؟

بطرس: إلى روسيا، مثلنا جميعاً.

ماشا: وإن لم أشأ أن أنتمي إليها!

بطرس: شئِت أم أبيت، أنت روسية، كل شعب له قيصره أو ملكه.

كارل: أو برلمانه!

بطرس: وكلٌّ واحد يملك جيوشاً، وكلٌّ واحد يجبي ضرائب من شعبه

ماشا: و لم هذا الفَصْل؟

بطرس: كيف، و لِمَ؟ لأن كل بلد مثل الشخص الواحد.

ماشا: لكن، لِمَ هذا الفصل؟

كارل: كيف، لم؟ لأن كل إنسان يحب وطنه.

ماشا: لست أفهم لِمَ لا يكون العالم متّحداً، ألا يكون ذلك أفضل؟

بطرس: لنلعبْ، أفضلُ لنا، فنحن هنا أمام مسائل خطيرة لا أمام ألعاب.

ماشا: لستُ أفهم

كارل: ستفهمين عندما تكبرين

ماشا: لا أحب أن أكبر، إذن

بطرس: إنها صغيرة، ومع ذلك فقد صارت عنيدة مثل الآخرين.

٣- في الوطن والدولة

«غلافريلا، الخادم، جندي احتياط، ميشا، ابن البيت».

غلافريلا: وداعاً، ميشنكا، يا سيدي الوديع! الله أعلم متى سنلتقي ثانية، إن كنا سنلتقي ذات يوم.

ميشا: هل أنت مسافرٌ حقاً؟

غلافريلا: طبعاً، هناك حربٌ أخرى، وأنا جندي احتياط.

ميشا: مع من الحرب؟ مَنْ شنَّ الحربَ وعلى مَنْ؟

غلافريلا: ياه! الله أعلم، يحار المرء فيها، قرأتُ في الصحف لكني لم أتمكن من فهم ما يحكونه بدّقة، يقال إن النمساوي غاضب على ملكنا لأنه حاباهم حين فعل شيئاً ما...

ميشا: وأنت، لِمَ تذهب؟ تَخَاصم القيصران، وما عليهما إلا أن يُقاتل كلٌّ منهما الآخر.

غلافريلا: هذا بديهي، لماذا أذهب؟ من أجل القيصر، والوطن، والعقيدة الأرثوذكسية.

ميشا: لكنك لستَ حريصاً أن تذهب إلى الحرب؟

غلافريلا: ومَنْ يحرص على ذلك؟ أيترك الرجل امرأته وأولاده؟ وأنا، بعد الحياة الهانئة التي عشتُها، أيمكن أن أتمنّى ذلك؟

ميشا: إذن، لَمَ تذهب إليها؟ قل إنك لا تريد أن تذهب، ولا تذهبْ، ماذا يمكن أن يُصيبك؟

غلافريلا، ضاحكاً: ماذا يمكن أن يصيبني، سيسوقونني بالقوة.

ميشا: مَنْ الذين سيسوقونك بالقوة؟

غلافريلا: يسوقني ناسٌ مثلي، عبيد.

ميشا: و لم يسوقونك وهم مثلك؟

غلافريلا: والسلطة؟ يُؤْمرون بذلك فيفعلون ما يؤمرون به.

ميشا: وإذا لم يفعلوه؟

غلافريلا: مستحيل

ميشا: لماذا، مستحيل؟

غلافريلا: لأن... لأن ليس من قانون يجعل ذلك ممكناً.

ميشا: أية قوانين؟

غلافريلا: أنت تُجيد الكلام! تطيب الثرثرة معك، عليّ أن أذهب الآن إلى المطبخ وأضع السماور على النار.

٤- في الضرائب

(عمدة القرية وغروشكا التي بلغت السابعة، يدخل العمدةُ كوخاً خشبياً فيه غروشكا وحدها، ينظر حواليه)

العمدة: آه! لا أحد هنا؟

غروشكا: أمي عند البقرة وفيديا عند المعلم.

العمدة: قولي لأمك إن العمدة جاء، قولي لها أيضاً: إن هذا هو ثالثُ تنبيه، وأنني أصر أن تأتي وتدفع الضرائب قبل الأحد، وإلاَ أخذتُ البقَرة.

غروشكا: كيف، تأخذ البقرة؟ أنت سارقٌ إذن؟ لكننا لن نعطيك إياها، بقرتنا!

العمدة: أرأيتم هذه البنت! يا لها من شجاعة!... ما اسمك أنتِ؟

غروشكا: غروشكا

العمدة: حسناً، يا غروشكا الطيبة، اصغي إلي: قولي لأمك إنني لستُ سارقاً، ولكنني سآخذ البقرة مع ذلك

غروشكا: و لم تأخذها وأنتَ لستَ سارقاً؟

العمدة: لأننا يجب أن ندفع ما علينا، سآخذ البقرة من أجل الضرائب.

غروشكا: وما الضرائب؟

العمدة: آه! يا لها من بنت! ما الضرائب؟ هي ما قرّر القيصر أن يجبيه من الشعب.

غروشكا: ولمنْ تُجبْى؟

العمدة: هذا معلوم: للقيصر، أما بقية الأشياء، فسوف ننظر فيها، فيما بعد.

غروشكا: القيصر، ليس فقيراً؟ نحن الفقراء، لكن القيصر غني!

العمدة: ليس ما يأخذه من أجل نفسه بل من أجلنا نحن، لنا نحن الأغبياء، لحاجاتنا الخاصة: الإدارة، الجيش، التعليم، لنفعتنا.

غروشكا: ماالمنفعة التي سنجنيها إذا أخذتْ منّا بقرُتنا، ليست هذه المنفعة.

العمدة: ستفهمين عندما تكبرين، لا تنسيْ أن تكرّري لأمك ما قلتُه لكِ.

غروشكا: لن أقول لها كل هذه الحماقات، ما يلزمك، أنت وقيصرك، افعْله بنفسك، وما يلزمنا نحن، نفعله بأنفسنا.

العمدة: آه، عندما تكبر هذه البنتُ فسوف تُصبح سماً زُعافاً.

٥- في الأحكام

«ميتا، عشر سنوات، ايليوشا، تسع سنوات، وصوفيا، ست سنوات».

ميتيا: قلتُ، لبطرس سيميونوفتش إننا يمكن أن نتعوّد ألاّ نرتدي ثياباً، فأجابني: هذا مستحيل، حينئذ قلتُ له إن ميشيل ايفانوفتش يزعم عوّدْنا وحهنا البردَ، ونستطيع كذلك أن نعوّد جسمنا كله. فقال لي: «أنت غبيٌّ وميشيلُكُ غبي». (وضحك) كلمتُ أمس أيضاً

ميشيل ايفانوفتش فقال لي: بطرس سيميونوفتش يروي لك الكثير من الأكاذيب.

وأضاف: ليس ثمّة قوانين ضدّ الأغبياء.

يضحك الجميع

أليوشا: سأقول لهم ما يلي: «كلُّ واحد منكم هو ما يَنْعت به الآخر».

ميتيا: أتقول ذلك جاداً؟ ليس كلا الاثنين غبيّاً، مع ذلك.

صونيا: كلاهما غبيّ، مَنْ ينعت الآخرين بالغباء فهو غبي

أيليوشا: وأنتِ، تشتمين الآخرين، ومن ثمّ فأنت أيضاً غبيّة.

ميتيا: ما لا يعجبني، هو أن ما يقوله بعضُهم عن بعض، لا يجرؤون أن يقولوه وجهاً لوجه، عندما أكبر لن أفعل ذلك، سأقول بصراحةٍ ما أفكّر فيه.

ايليوشا: وأنا أيضاً.

صونيا: وأنا، سأفعل ما يحلو لي.

ميتيا: وكيف ستفعلين؟

صونيا: سأتكلّم متى شئتُ، وإذا لم أشأ فلن أتكلّم.

ايليوشا: نعم، واضحٌ أنك غبيّة.

صونيا: لكنك قلتَ مع ذلك إنك لن تُهين الآخرين.

ايليوشا: لن أفعل ذلك من وراء ظهورهم.

٦ – في الطبيعة

«ماشاوميشا عاكفان أمام منزلهما على بناء بيت للُعَبهما».

ميشا، بقوة: ليس كذلك! هاتي العصا الأخرى، لست ماهرة، أتعلمين!

«تظهر امـرأة عجوز على عتبة المنزل، ترسم علامة الصليب وتُمتم».

احفظْها، يا يسوع، هذه نفس ملائكية، إنها تشفق علينا

«يتوقف الطفلان عن اللعب ويتطلّعان إلى العجوز».

ماشا: عمّنْ تتكلمين؟

العجوز: عن ماما، أمك، إنها لا تنسى الله أبداً! هي طيبة جداً معنا، نحن الفقراء! أعطتْني تنورة وشاياً ومالاً، احفظها يارب، يا ملكة السماء، ليست مثل هذا المسيح الدجّال الذي قال لي: تتسكعون وأنتم بهذه الكثرة الكثيرة، حتى كلابه صارت شرّيرة مثله، وصعُبَ علي الذهاب بسببها.

ماشا: أيّ مسيحٍ دجّال؟!

العجوز: السيد الإقطاعي الذي يسكن في مواجهتنا، هذا السكيّر! آه! إنه ليس من الطيبة في شيء! هذا شأنه، ليغفر الله له... شكراً لأمك، الحمامة، أهدتني الهدايا، عزّتني أنا البائسة، كيف يمكننا أن نعيش، على كل حال، إذا لم يوجد مثل هؤلاء الناس.

«تبكي».

ماشا وميشا: نعم إنها طيّبة.

العجوز: عندما تكبران، يا ولديّ، لا تَنْسيا الفقراء، ولن ينساكما الله.

«تبتعد».

ميشا: ما أشد بؤس هذه المرأة!

ماشا: كم أنا مسرورة لأن أمي أعطتها!

ميشا: ولماذا لا نعطي عندما نستطيع أن نعطي؟ نحن لسنا بحاجة إلى شيء، أما هي فهي بحاجة إلى كل شيء!

ماشا: هل تذكر قول يوحنا المعمدان: «إن كان عندك ثوبان فأعط أحدهما»؟

ميشا: عندما أكبر فسوف أعطي كل شيء.

ماشا: لا يمكننا أن نعطي كل شيء.

ميشا: لماذا؟

ماشا: وأنت إذن؟

ميشا: هذا قليل الأهمية... كل الناس يجب أن يكونوا طيبين، عندئذ يُصبح كل الناس سعداء.

«يكف ميشا عن اللعب، ويذهب إلى غرفته، فينزع ورقةً من

دفتره ويكتب عليها بضع كلمات ويضعها في جيبه، وقد كتبَ عليها: «يجب أن يكون المرء خيّراً».

٧ - جزاء العمل

«الأب، كاتيا، تسع سنوات، وفيديا ثمان سنوات».

كاتيا: بابا، كسرْنا زلاّجتنا الصغيرة، أتسطيع أن تصلحها لنا؟

الأب: لا، يا صغيرتي، لا أعرف، يجب أن تعطيها «بروكور» وسيصلحها.

كاتيا: كنا في الحديقة، قال لنا بروكور أنْ ليس لديه الآن وقتٌ ليصلحها، لأنه يصلح باب المدخل.

الأب: ليس هذا شيئاً، ما عليكِ إلا أن تنتظري.

فيديا: وأنتَ، بابا، أأنتَ لا تعرف حقّاً؟

الأب: أبداً، يا صغيرتي.

فيديا: أنت لا تُحسن أن تفعل شيئاً، إذن؟

الأب: بلى! لكني لاأحسنُ ما يحسنه «بروكور».

فيديا: أتعرف كيف تضع سماوراً مثل فاسيلي؟

الأب: ولا هذا أيضاً.

فيديا: أتعرف كيف تربط الخيل بالعربة؟

الأب: ولا هذا أيضاً.

فيديا: كنتُ أقدّرُ ذلك، نحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً لأنهم يفعلون كلَّ شيء لنا، أليس كذلك، يا بابا؟

الأب: لكنَ مهنتُه، ما عليك إلا أن تدرسي فتعرفي ما ينبغي أن يفعله كل إنسان.

فيديا: ونحن، ألا ينبغي لنا أَن نعرف كيف يُهيّأ الطعام أو كيف تربط الخيل.؟

الأب: هناك أشياء أكثر ضرورة من هذا.

فيديا: أعرفها: يجب أن نكون أخياراً، يجب ألا نَشْتم الناس، يجب ألا نكون أشراراً، لكنا يمكن أن نعرف كيف نُعد الطعام، وكيف نربط الخيل، وكيف نكون، في الوقت نفسه أخياراً، أليس هذا صحيحاً، أليس ممكناً؟

الأب: بل هذا ممكن؟ طبعاً، اصبري، ستكبرين وحينئذٍ ستفهُمين.

فيديا: وإذا لم أكبر؟

الأب: حماقات.

فيديا: بابا، أتستطيع أن تطلب ذلك من بروكور».

الأب: نعم، نعم! إذهبا إليه، وقولا له إني أمرتُ بذلك.

٨ – إدمان الخمر

«المساء في الخريف، «ماركاركا»، اثنا عشر عاماً، و«مارفوتكا» ستة أعوام خرجا من بيتهما قبل هنيهة وهما في الشارع، مارفوتكا يبكي، بول عشر سنوات، على درج مدخل البيت المجاور».

بول: أين يسوقكما الشيطان في هذه الليلة؟

ماركاركا: لقد شرب مرةً أخرى.

بول: مَنْ؟ العم بروكور؟

ماركاركا: ومَنْ تُريد أن يكون غيره؟

مارفوتكا: وهو يضرب ماما...

ماركاركا: لن أعود إلى البيت، سوف يضربني، (يجلس على العتبة) سأنام هنا، ولن أعود.

«صمتٌ، مارفوتكا ما يزال يبكي».

بول لمارفوتكا: سيحدث مالا بدّ له أن يحدث، نيتشيفو، ماذا تريد أن تفعل بذلك؟ نيتشفو

مارفوتكا، باكياً: لو كنتُ قيصراً، لضربتُ كل الذين أعطوه الفودكا، ولمنعتُ الجميع أن يبيعوه شيئاً منها.

ماركاركا: الأمور لا تجري هكذا، القيصر لا يدع الآخرين يتاجرون بالفودكا، إنه يتاجر بنفسه[1]، وذلك لكي لا يخسر شيئاً فيه.

بول: صحيحٌ هذا؟

ماركاركا: تسأل إن كان ذلك صحيحاً؟ ذلك هو الصحيح! وُضعَتْ السيدة أكولينا السجن، لأنها كانت تبيع خمراً، قيل لها: لا تسبّبي لنا خسارةً!

---

١ - منذ ١٨٦٤ احتكرت الدولة بيع الخمور.

بول: أتظن أنها سُجنت من أجل ذلك؟ لقد قيل إنها تصرّفت ضد القانون...

ماركاركا: كانت تبيع خمراً، هذا ما هو ضدّ القانون!

مارفوتكا: ما كنت لأمنعها... دائماً هذا الخمر!...

بول لماكاركا: كلامُك صحيحٌ جداً، سأسأل المعلم غداً، إن لم يعرف فسوف يدهشني ذلك.

ماركاركا: نعم، اسألْهُ

«في صباح اليوم التالي، ذهب بروكور، والد ماكاركا، بعد أن نام نوماً عميقاً، ليشرب بضع قطرات، بدأت امرأته تعجن عجين الخبز، وعيناها منتفختان وزرقاوان، قصد بول المدرسة التي لم يتجمّع فيها الطلاب بعد، يجلس المعلم عند العتبة ملاحظاً، وهو يدخّن، الأولاد القادمين.

بول، يدنو منه: قلْ لي، يا أوجين سيميو نوفيتش، أصحيحٌ ما قيل لي أمس أن القيصر يتاجر بالخمر، وأن السيدة آكولينا قد سُجنت من أجل ذلك؟

المعلم: أنت تطرح أسئلة حمقاء والذي قال لك ذلك غبي، القيصر لا يتاجر، ومن أجل ذلك هو قيصر، وفيما يخصّ السيدة آكولينا فقد أوقفت لأنها كانت تبيع خمراً بدون رخصة، وبهذه الطريقة سبّبت خسارة للخزينة.

بول: كيف ذلك؟

المعلم: لأن كل تاجر خمر يجب أي يدفع رسماً، برميل الخمر

يكلّف خزينة الدولة روبلين، لكنه يباع في التجارة بثمانية روبلات وأربعين والفرق يكون عائدات الدولة، ومجموع هذه العائدات هائل: ٧٠٠ مليون روبل.

بول: إذن كلما شرب الناس خمراً ازدادت العائدات؟

المعلم: هذا بديهي، ولو لم توجد هذه العائدات فكيف ينفقون على الجيش والمدارس وكل ما هو ضروري لنا، على العموم؟

بول: إن كان هذا ضرورياً لنا حقاً، فلما لا تكون الدولةُ عائداتها من أشياء نافعة؟ ولماذا الخمر؟

المعلم: كيف، لماذا من الخمر؟ لأن الأمر هكذا، كفى، لقد تجمع الطلابُ، يا أولادي، اجلسوا في أماكنكم.

٩ – في حكم الإعدام

«بطرس بيتروفتش، أستاذ، ماري ايفانوفنا، امرأته – إنها تخيط – فيديا ابنهما، تسع سنوات، يستمع إلى حديثهما، وإيفان فوسيلييفتش النائب العام العسكري».

النائب العام: لا نستطيع أن نهمل دروس الماضي، لقد رأينا بأمّ أعيننا، لا في لحظات التاريخ الكبرى فحسب، ولا سيما في فرنسا بعد الثورة، لكن عندنا، في الوقت الحاضر أن تدمير العناصر المنحرفة، الفاسدة والخطرة بالنسبة إلى المجتمع يؤدي إلى النتيجة المطلوبة.

الأستاذ: لا، لا نستطيع أن نعرف، لا نستطيع أن نحدّد النتائج البعيدة لهذا التدمير، كل هذه الاعتبارات لا تسوّغ التدابير الاستثنائية والأحوال العرفية.

النائب العام: إن لنا الحق، مع ذلك، في الافتراض أن نتائج هذه التدابير لن تكون الاستثنائية؟ يجب أن نسلّم أن تنفيذ الإعدام ببعض الناس لن يستطيع أن يؤثر في الكائنات الأخرى المحرومة من كل صفة إنسانية، الكائنات التي أصبحت حيوانات مفترسة، وبأية وسيلة، إنْ لم يكن بالخوف، نستطيع أن نؤثّر في أمثال هؤلاء الوحوش، مثلاً كالذي قتل ببرودة عجوزاً وثلاثة أولاد لأنه كان بحاجة إلى ثلاثمائة روبل.

الأستاذ: لستُ أعارض مبدأ الحكم بالإعدام، لكني أرفض فكرة المحاكم العسكرية الاستثنائية التي كثيراً ما تعقد جلساتها عندنا، وكنت سأقبل بها لو أن أحكامَ الإعدام توصّلت إلى تخفيف الجرم، لكنها لم تؤدّ، في الواقع، إلى تقْسية قلوب الذين يتعودون رؤية إعدام إخوانهم بلا مبالاة.

النائب العام: حتى لو لم نستطع التنبؤ بالنتائج البعيدة لهذه الإعدامات فإننا واثقون من إحسانها...

الأستاذ: من إحسانها؟

النائب العام: نعم، إن الحسنة التي تنتج عن ذلك مباشرة لا يمكننا إنكارها، كيف يجوز للمجتمع ألاّ يعاقب المسيء بما يستحق، مثل..

الأستاذ:... معنى هذا أن المجتمع يجب أن يَسْترشد بروح الانتقام؟

النائب العام: على العكس، إنها تستبدل العقوبات العامة من الانتقام الشخصي.

الأستاذ: وإذن فهذه العقوبات يجب أن تطبّق بأشكال حدّدها القانون مرّةً وإلى الأبد، لا على أنها أشكال لتدابير استثنائية.

النائب العام: العقوبات العامة تحل محل الانتقام الذي يستطيع جميعُ الناس أن يلجؤوا إليه، والذي هو مبالغ فيه، وغير شرعي ولا يستند في الغالب إلى شيء أو يستند إلى الأخطاء.

الأستاذ محتداً: إذن، برأيكَ أن هذه العقوبات تُطّبق دائماً بحقّ، دون ارتكاب أخطاء، على حالات شديدة الوضوح، لا، لست أوافقك أبداً، وحججُك لا تقنعني ولا تقنع أحداً، إنني أعارض بصراحة الاعتقاد بأن الأحكام العرفية التي أُعدم فيها آلاف الأشخاص والتي ما تزال موجودةً في أيامنا، هي تدابير معقولة، شرعية، ومُحْسنة.

«ينهض وقد ثارت عصبيته ويذرع الغرفة».

فيديا، لأمه: ماما، لماذا يخاصم بابا؟

الأم: لأنه يرى من الشر أن يحكم بالإعدام كثير من الناس.

فيديا: كيف؟ يُقْتلون؟

الأم: نعم! بابا يرى أنه لا يجوز التصرّف هكذا غالباً.

فيديا، يدنو من أبيه: لماذا قيل في الوصايا العشر: «لاتقتلْ؟ بموجب هذا القول يجب ألا يقتل أحداً أبداً؟

الأستاذ، مبتسماً: لا علاقة لهذا بما كنا نقول، الله يأمر ألا يقتْل الإنسان إنساناً آخر.

فيديا: لكنْ، في كل إعدام موتُ إنسان؟

الأستاذ: صحيح، لكنْ يجب أن نعلم لماذا أُعدم وفي أية ظروف.

فيديا: ومتى يمكن فعلُ ذلك؟

الأستاذ: كيف أردّ عليك؟ لنقلْ أن ثمة حرباً، وأن مجرماً يقتل جميع الناس، فكيف ندعُه يفعل ولا نعاقبه؟

فيديا: إذن لماذا يأمرنا الانجيل بأن نحب الجميع ونغفر لهم؟

الأستاذ: لو كان ذلك ممكناً لكان شيئاً رائعاً، لكنه غير ممكن.

فيديا: لماذا؟

الأستاذ: هكذا

«مخاطباً النائب العام الذي استمع إلى فيديا وهو يبتسم».

ومع ذلك، فأنا لا أستطيع، أيها المحترم ايفان فاسيلييفتش أن أقرّ بضرورة الأحكام العرفية والمحاكم العسكرية.

١٠ – في السجون

«سيمكا، ثلاث عشر سنة، آكزيوتكا، عشر سنوات، ميتكا، عشر سنوات، بالاشكا، عشر سنوات، فانكا، ثماني سنوات، يجلسون قرب بئرٍ بعد أن جَنَوْا فطوراً».

آكزيوتكا: آه! كم كانت تبكي العمة ماتريونا! والأولاد! بدأ أحدهم فأخذ الجميع ينتحبون.

فانكا: لماذا كانوا يبكون؟

بالاشا: لماذا؟ لأن أباهم اقتيد إلى السجن، من يجوز له أن يبكي غيرهم؟

فانكا: ولماذا اقتادوه إلى السجن؟

آكزيوتكا: مَنْ يعلم؟ جاؤوا وقالوا له: «استعد»، واقتادوه رأينا كل شيء...

سيمكا: أُوقف لأنه سرق خيولاً: خيول «دمكين»، و«كراموف» أيضاً، وجوادنا الأغبر لم يفلت من يديه أيضاً، ولا نستطيع مع ذلك، أن نُهنّئه على ذلك كله.

آكزيوتكا: لا جدال في هذا، لكننا مع ذلك نشفق على الصغار، وهم أربعة، ويا لفقرهم، حتى ولا خبزَ، جاؤوا إلى بيتنا.

سيمكا: ما كان ينبغي له أن يسرق.

ميتيكا: لكنه هو الذي سرق، لا الأولاد

سيمكا: أنت تشوّه القصة كلها بهؤلاء «الصغار»، لماذا أساء التصرّف؟ وما دَخلُ الصغار هنا؟ ألأن عنده كثيراً من الأولاد يجب أن يسرق؟

فانكا: وماذا سيفعلون به في السجن؟

سيمكا: سيُحبَسُ، هذا كل شيء.

فانكا: وهل يُطعمونه؟

سيمكا: ولذلك فإن هؤلاء الملاعين من سارقي الخيول لا يخشون شيئاً، وماذا يَضيره إن ذهب إلى السجن؟ نفقة كاملة، راحة وسلامة، لو كنتُ القيصر لعرفتُ كيف أتصرّف مع سارقي الخيول، هؤلاء الملاعين، ولأَقلعوا عن عاداتهم، لكنْ ما مصيرُهم في السجن، الراحةُ بصحبة

أصدقاء مؤنسين من أمثالهم، وتَعلُّمُهم بعضهم من بعض كيف يسرقون بمهارة أكبر، لقد روى والدي أن «بروكور» كان قديماً فتىً طيباً، لكنه بعد أن مر بالسجن، غدا سوقياً داعراً، هذا محزنٌ حقاً، حينئذ بدأ...

فانكا: لم وضع في السجن إذن؟

سيمكا: حاولْ أن تعرف، أنت.

آكزيوتكا: نفقة كاملة له هو لكن...

سيمكا، متابعاً: ليتعلم السرقة أكثر.

آكزيوتكا: والأولاد والأم، فَلْيموتوا جوعاً! هم جيراننا، مع ذلك، وهم يثيرون الشفقة، ماذا تريد أن تفعل بهم؟ سيأتون ليسألوا الخبزَ، ولا نستطيع أن نرفض لهم ذلك.

فانكا: و لمَ يسجنون اللصوص؟

سيمكا: لكن ماذا تريد أن تفعل بهم؟

فانكا: ماذا؟ نفعل؟ نفعل شيئاً آخر، لكي...

سيمكا: تماماً، شيئاً آخر، تقول ذلك ولا تعلم ماذا! ناسٌ أعقلُ منك بحثوا، لكنهم لم يجدوا شيئاً.

بالاشكا: أنا لو كنتُ الامبراطورة...

آكزيوتكا، ضاحكاً: لو كنت الامبراطورة ماذا كنت ستفعلين؟

بالاشكا: ماذا كنتُ سأفعل؟ كنتُ رتّبتُ الأمور، بحيثُ لا يسرق أحدٌ، وبحيث لا يبكي الأولاد.

آكزيوتكا: كيف كنتِ ستتوّصلين إلى ذلك؟

بالاشكا: كنتُ أعطيتُ الجميع كلَّ ما يحتاجون إليه دون أن يحسّ أحدٌ بالذل، ولكي يكون لدى الناس ما يكفيهم.

سيمكا: ايه! أيتها الامبراطورة، كيف ستفعلين ذلك؟

بالاشا: حسناً، سأفعل... سأفعل».

ميتكا: لنذهب إلى الحديقة التي تتشابك فيها أشجار القبقب

سيمكا: موافق، إلى الأمام، سرْ! وأنتِ، يا امبراطورة، إياك أن تُضيعي فطورك

«ينهضون وينصرفون».

١١ – في الغنى

«الأب وامرأته وابنته وفاسيا، ست سنوات يجلسون في الشرفة، الأولاد الآخرون الأكبر سناً يلعبون المضرب، يقترب متسوّل شاب».

الأب، للمتسوّل: وأنتَ، لماذا تتسوّل؟

المتسوّل: لماذا؟ ارحمْ عاطلاً عن العمل يجر نفسه جائعاً، رثّ الثياب، أنا آتٍ من موسكو، وأحاول أن أعود إلى البيت، أعينوا رجلاً بائساً.

الأب: و لمَ أنت بائسٌ؟

المتسوّل: الأمرُ واضح: لقد افتقرتُ.

الأب: لو اشتغلتَ لما افتقرتَ.

المتسوّل: أشتغلُ؟ لا أطلب إلا هذا، لكني لا أجدُ عملاً، كل شيءٍ مغلق...

الأب: وكيف جرى أن الآخرين يشتغلون وأنك أنت عاطل؟

المتسوّل: صدّقْني، أتمنّى من كل قلبي أن أجد عملاً، الناس لا يُشغّلون، ارحمْ، يا سيدي! إني أمشي منذ يومين دون أن آكل شيئاً.

الأب، يفتح محفظته، لامرأته: أمعك نقود، ليس معي سوى أوراق مالية؟

الأم: تركتُ محفظة النقود في محفظة اليد، على الطاولة قرب السرير، (لفاسيا) هل تذهب وتأتيني بها؟

(فاسيا لا يسمعها، ولا يرفع بصره عن المتسول)

الأم: فاسيا، ألا تسمع؟

(تسحبه من كمّه)

فاسيا: ما بك ماما؟

(تكرر الأم على فاسيا طلبها

فاسيا، يثب: على الفور!

(يذهب وهو يلتفت وراء إلى المتسوّل)

الأب للتمسوّل: انتظْر لحظةً.

الأب، يخاطب امرأته بالفرنسية: هذا رهيب! ما أكثر الذين بلا عمل! كلهم كسالى، لكن ذلك، على كل حال، محزن، هو جائع.

الأم: إنه يبالغ! يقال إن الشيء نفسه موجودٌ في كل مكان، قرأت أن في نيويورك وحدها مائة ألف عاطلٍ عن العمل، أتريد شاياً أيضاً؟

الأب: صبي، لكن لا تثقّليه.

«يدخن، صَمْتٌ، يلاحظهما المتسول وهو يهزّ رأسه، ويسعل كأنه يريد أن يجذب الانتباه، فاسيا يُسارع حاملا محفظة النقود ويبحث فجأة عن المتسول بنظراته، يمدّ المحفظة إلى أمه ويبقى أمامها».

الأب، يخرج عشرة كوبيكات من المحفظة: دونكَ، هذه لك، خذها.

المتسوّل، يرفع قبّعته ويتناول قطعة النقود: شكراً، شكراً لك، وشكراً أيضاً لأنكم عطفتم على بائس.

الأب: آسف، على الخصوص، أنك لا تعمل، لو كنتُ تعمل لما كنتَ فقيراً! من يَعْملْ يبتعدْ عنه الشقاء...

«المتسول يرد قبعته إلى رأسه، ثم يبتعد وهو يقول».

المتسول: ومع ذلك فمن الصحيح أن العمل لا يصنع الغنى لكنه يصنع تحدّب الظهر.

«ينصرف».

فاسيا: ماذا قال؟

الأب: ذكر المثل الغبي الذي يتداوله الفلاحون: لن تغدو غنياً بالعمل، لكنك ستغدو أحدب.

فاسيا: ما معنى هذا؟

الأب: يعتقدون أننا لا نعتني بالعمل بل نصبح حُدباً.

فاسيا: وليس هذا صحيحاً؟

الأب: طبعاً، ليس صحيحاً، كل الذين يتسكّعون مثل هذا المتسول ولا يريدون أن يعملوا يلازمهم الشقاء أبداً.

فاسيا: وكيف جرى أننا لم نعمل قط وأننا أغنياء؟!

الأم: كيف عرفتَ أن الأب لا يعمل؟

فاسيا: لا أدري، لكننا مع ذلك أثرياء، لابدّ أن أبي قد اشتغل شغلاً مضنياً، أهو يعمل كثيراً، حقّاً؟

الأب: هناك عملٌ وعملٌ، لعل عملي ممّا لا يستطيع جميعُ الناس أن يقوموا به.

فاسيا: وما عمُلك، بابا؟

الأبُ: أعملُ لأطعامكم جميعاً، ولأوفرّ لكم التعلم ولألبسكمْ.

فاسيا: لكن المتسول يحتاج إلى ذلك كله أيضاً، فلماذا إذن كان في هذه الحالة البائسة، وكنا نحن، على ما نحن عليه؟..

الأب، مبتسماً: إن هذا الولد اشتراكي بالولادة.

الأم: يُقال: إن غبيّاً واحداً يستطيع أن يطرح من الأسئلة ما لا يستطيع ألف حكيم الجواب عنها، ينبغي أن نقول: إن ولداً واحداً يستطيع... الولدُ ليس غبياً، لكنه مع ذلك، ولدٌ.

١٢ - لِنحب الذين يُهينوننا

«ميشا، عشر سنوات، فانيا، ثماني سنوات».

ماشا: أعتقد الآن أن أمي لو أخذتنا معها لذهبنا إلى باساج، ثم إلى «ناسيا»، ماذا كنت تتمنّى أن تفعل أنت؟

فانيا: أتمنّى لو حدث لي ماحدث أمس.

ماشا: وماذا حدث أمس؟ ضربك غريشا وبكيتما كلاكما، وليس في ذلك كله ما يسرّ!

فانيا: بلى، هذا بالضبط ما هو حسن، كان شيئاً حسناً جداً إنه لا يوجد ما هو أحسن، هذا ما أريده مرةً أخرى.

ماشا: لستُ أفهم

فانيا: اسمعْ، سأشرح لك ما أرغَب فيه، أتذكر أن العم بافل بايفانوفتش في الأحد الماضي... اوه! كم أحبّهُ!...

ماشا: كيف يمكن ألا نحبّه، تقول أمي إنه قدّيس، وهذا صحيح.

فانيا: في الأحد الماضي، روى قصة رجل كان يُهان دائماً، وكان يزداد حباً للذين يزدادون إهانة له، كانوا يسبّونه فيمدحهم، يضربونه فيمدّ إليهم يد المعونة، ويؤكد العمُّ أن الذي يحذو حُذْوه سيشعر بالسعادة، سرَّني ذلك وأردت أن أفعل عندما ضربني، غريشا أمس، تذكّرتُ هذه القضية، فأخذتُ أعانقه وأخذ يبكي، اوه! كم كنتُ سعيداً! لكني اقترفتُ خطيئةً تجاه مربيتنا: لقد وبختني، ونسيتُ ما عاهدت نفسي عليه، فأجبتُها بفظاظة، وأنا الآن أريد مرةً أخرى أن أكون كما كنتُ مع غريشا.

ماشا: أتريد أن تُضربَ مرةً أخرى؟

فانيا: نعم، حتى هذا، سأفعل ما فعلتُه مع غريشا، وسأشعر بالسعادة.

ماشا: حماقات! كنتَ أحمق وما تزال أحمق.

فانيا: ليكنْ! أحمق، نعم أحمق، لكني أعلم الآن ما ينبغي أن أفعل لأشعر بالسعادة التامّة

ماشا: غبي تام الغباء! ما ينبغي أن تفعله لتصبح غبيّاً تام الغباء!

فانيا: ربما...

١٣ - في الصحافة

«في قاعة المطالعة، فولوديا طالب ثانوي، أربع عشرة سنة، يقرأ، يحضّر دروسه - صونيا، خمس عشرة سنة، تقرأ، يدخل البواب وهو يحمل سفطاً ثقيلاً على ظهره، يتبعه ميشا ثماني سنوات.

البواب: أين ينبغي أن أُضع ذلك كله، يا سيدي؟ لقد تحطّم ظهري.

فولوديا: أين أمرتَ بوضعه.

البواب: قال لي فاسيلي يتموتيتش: «احملْ هذا إلى غرفة المطالعة ريثما أصل».

«يتابع قراءته، يضع البوابُ حمله وهو يتنهّد».

صونيا: ما هذا؟

فولوديا: الصحيفة: «الحقيقة».

ميشا: كيف، «الحقيقة؟».

صونيا: هذا كثير.

فولوديا: هذه مجموعة سنةٍ كاملة.

«يتابع قراءته».

ميشا: كل هذا مكتوبٌ؟

البواب: كأن الذين كتبوا هذا كله لم يُعطّلوا عطلتهم.

فولوديا، ضاحكاً: ماذا تقول؟

البواب: قلتُ إن الذين كتبوا هذا كله لم يُعطّلوا، سأنصرف الآن، قولوا إنني حملتُ كلَّ شيء.

«ينسحب».

صونيا لفولوديا: لِمَ كل هذه الصحف لبابا؟

فولوديا: يريد أن يعثر على مقالات بولشاكوف ويجمعها.

صونيا: لكن العم ميشيل ايفانوفتش قال إن بولشاكوف يُغريه بالغثيان.

فولوديا: لا أستغرب هذا! فالعم لا يقرأ إلا: «الحقيقة الشاملة».

ميشا: وهل «حقيقة» العم كبيرة مثل هذه؟

صونيا: أكبر منها. هنا يوجد ما ظهر منذ سنة فقط. والحقيقة الشاملة» تظهر منذ عشرين سنة.

ميشا: منذ عشرين هكذا، منذ عشرين؟

صونيا، محاولة إدهاش ميشا: وليس هذا شيئاً. نحن هنا أمام صحيفتين، وتصدر ثلاثون صحيفة، بل أكثر.

فولوديا، دون أن يرفع رأسه. ثلاثون؟ خمسمئة وثلاثون في روسيا وحدها. وإذا جمعنا ما يصدر في الخارج كان عندنا الآلاف.

ميشا: لا نستطيع أن نضعها في هذه الغرفة؟

فولوديا: في هذه الغرفة؟ ولا في شارعنا. والآن، لا تُلْهوني، إذا شئتم. ربما سئُلت غداً. ومع كل حماقاتكم!...

«يستأنف القراءة».

ميشا: أنا، أعتقد أننا لا ينبغي أن نقرأ إلى هذا الحدّ.

صونيا: و لم لا؟

ميشا: لأن هذه الصحف إن كانت تقول الحقيقة فلا جدوى من تكرار الشيء نفسه، في كل يوم، وإن كانت لا تقول الحقيقة فلماذا إذن يكذبون في معظم الأحيان؟

صونيا: هل وجدت ذلك وحدك؟

ميشا: لماذا يكتبون كل ذلك؟ إن في ذلك إسرافاً.

فولوديا، ورأسه مستغرقٌ في كتابه: لأنه بدون حرية الصحافة، كيف نستطيع أن نعرف أين الحقيقة؟

ميشا ومع ذلك، فبابا يجد أنهم يقولون الحقيقة في «الحقيقة» بينما

يُصاب العم ميشيل ايفانوفتش بالغثيان وهو يقرؤها. فكيف نستطيع أن نعرف أين الحقيقة: أهي في «الحقيقة» أم «في الحقيقة الشاملة؟».

صونيا: هذا صحيح. أعتقد أيضاً أن هناك أكثر مما يلزم من الصحف والدوريات والكتب:

فولوديا: من الواضح أن عقل المرأة تافه.

صونيا: قلتُ، بما أن هناك أكثر مما يلزم من الصحف، فنحن لا نستطيع أن نعرف أين...

فولوديا: لكن لكلٍ عقله. ويكفي أن يفكر ليعرف أين الحقيقة.

ميشا: إذا كان لكلٍّ عقله، فيمكن أن يكوّن رأيه بنفسه.

فولوديا: أنت حرٌ في أن تصطنع العناد!... على كل حال، اصنع ما تشاء، لكن دعْني أعمل.

١٤ - في الندم

«فوليا، ثماني سنوات، وبيده صحنٌ فارغ، يبكي في البهو. فيديا، عشر سنوات، يركض ويقف».

فيديا: ماما تريد أن تعرف أين كنتَ، ولماذا تبكي؟... كان هذا للمربية... (يلاحظ أن الصحن فارغ ويصفر.) أين الحلوى؟

فوليا: أنا... أنا...أنا أردتُ... أنا... ودون قصد، اوه... أكلتها.

فيديا: ألم تستطيع أن تذهب إلى المربية؟ أكلتها؟ ما أمْكرَكَ! مع أن ماما كانت تعتقد أنك مسرورٌ جداً بأن تُعطيها إياها.

فوليا: نعم، نعم، كنتُ مسروراً، لكن فجأة، ها، ها، ! فيديا: ذقتها، ثم أكلتها! أنَت ماكرٌ حقاً!

«يضحك».

فوليا: مهما ضحكت... لكن كيفَ سأحكي ذلك للمربية، أو لأمي...

فيديا: آه! يا أخي المسكين، ماذا فعلتَ؟ ها، ها، ها! بلعتَ كل شيء! لا فائدة من البكاء، ويجب أن تجد شيئاً آخر.

فوليا: وكيف إذن؟ ماذا يجب أن أفعل الآن؟

فيديا: هذه قصة يطول شرحها.

«يبذل وسعه ألا يضحك، صمتٌ».

فوليا: لقد ضللتُ، ولا أدري ما أفعل

«يبكي بقوة».

فيديا: لَم تيأس هكذا؟ (بينه وبين نفسه)، سيَزْعق، الأمر بسيط، مع ذلك: اذهبْ وقلْ لماما أنكَ أكلتها.

فوليا: الأمرُ أسوأ

فيديا: إذن، اذهب واعترف للمربية.

فوليا: كيف أعترف لها بذلك؟

فيديا: طيّب، ابقَ هنا إذن، سأذهب وأحكي لها كلَّ ما جرى، لن تقول شيئاً.

فوليا: لا، لا تفعل ذلك، آه! كيف أحكي لها؟...

فيديا: إيه! هذا أمرٌ تافهٌ! لقد غلطتَ، ما حيلتُك في ذلك؟ سأشرح لها، على الفور.

«يخرج».

فوليا: فيديا، فيديا! ابقَ... لقد ذهب! أردتُ أن أذوقها فقط، وماذا فعلتُ؟ لا أذكر شيئاً من ذلك، والآن ما العمل؟

«يتضاعف بكاؤه».

فيديا، راكضاً: ما يزال يبكي! المربية صفحت عنكَ، كما توقّعتُ، كلُّ ما قالته: «آ! يا صغيري!».

فوليا: كيف، ألم تغضب؟

فيديا: لم يَخْطر لها أن تغضب... وقالت: «بئس الحلوى، كنت سأُعطيه إياها، مع ذلك».

فوليا: لكني أكلتُها دون قصد.

«يبكي من جديد».

فيديا: لكن لماذا تبكي الآن؟ المربية صفحت عنكَ، ولن تقول شيئاً لماما!

فوليا: المربية صفحتْ عني، وأعلم أنها لطيفة، لكني أنا سيء، سيء، سيء، ومن أجل ذلك أبكي.

١٥ – في الفن

«خادم، نيانيا وناتاشا، ثماني سنوات، نيانيا تحيك جورباً، وتعدُّ القطب».

الخادم: أتسمعين، آدفوتيا فاسيلييفنا، أتسمعين؟ آ...

نيانيا: نعم، أنا أسمع، لحظة، لا أستطيع أن أَقْسم نفسي قسمين، (لناتاشا) سآتيكِ، في الحال، بخوخ أسود، اصبري، سأصبُّ الحليبَ «تصفي الحليب».

الخادم، وهو يجلس: وأنا رأيت أيضاً، يتساءلون لماذا ندفع.

نيانيا: نعم، لقد ذهبنا إلى المسرح، كان الوقتُ أطول، هذه المرة.

الخادم: الأوبرا طويلة دائماً، يظل المرءُ قاعداً... قاعداً، أرسلونا لنرى اوبرا، رائعة.

«بول، فلاح مستخدم في المطبخ، يدخل، حاملاً خوخاً، يصغي إلى الحديث».

نيانيا: كانت إذن غناءً؟

الخادم: ويا له من غناء! إنهم يغنون بصوت قوي جداً، لكن هذه الأغاني لا تتشابه، وأنا أحبُّ ذلك كثيراً، إنها الأصوات نفسها دائماً لكنها لا تتشابه لقد تخاصمتْ، وكانت ستتقاتل، لكنها غنت من جديد.

نيانيا: يُقال إن الاشتراك غال؟

الخادم: مقصورتنا تكلّف ثلاثمئة روبل، مقابل اثنتي عشرة تمثيلية.

بول، هازاً رأسه: ثلاثمئة روبل؟ لمن يذهب هذا المال؟

الخادم: الأمر واضح: يذهب إلى مَنْ يغنّي، يحْكون أن المغنية تكسب خمسين ألف روبل في السنة.

بول: لا أتكلّم عن الآلاف، لكنْ هنا، في القرية، ثلاثمئة روبل شيءٌ صخم.

«نينا، طالبة في معهد الفتيات تدخل قاعة الطعام».

نينا: أنتِ هنا، ناتاشا؟ أين اختفيت؟ ماما تناديك.

ناتاشا، وهي تأكل خوخةً: على الفور

نينا، للخادم: يأية مناسبة كنتَ تتكلم عن مئة روبل؟

نيانيا: سيميون نيكولايفتش (تشير إلى الخادم) روى أنه كان في المسرح حيث سمع الغناء، وهو متعجبٌ من أن يُدفع هذا الأجرُ الكبير للمغنيّات، أصحيح، يا نينا ميكايلوفنا، أن المغنية تكسب حتى خمسة وعشرين ألف روبل في السنة؟

نينا: بل وأكثر، دعيتْ مغنيةٌ إلى أمريكا فقبضت مئة وخمسين ألفاً، وليس هذا كل شيء، كُتب في الصحف أمس أن موسيقياً قبض خمسة وعشرين ألف روبل من أجل أحد أظافره.

بول: تُكتَبُ أشياء كثيرة!

نينا، مسرورة: أؤكد لك أن هذا صحيح.

بول: لماذا، من أجل أحد الأظافر؟

نينا: لماذا؟

ناتاشا: نعم، لماذا؟

نينا: لأن هذا عازف البيانو وهو مؤمّن، فإذا أصابه شيءٌ في يده فإنّه لا يستطيع العزف، بعد ذلك، وحينئذٍ يُدفَع له التأمين.

بول: هذه صفقة رابحة!

سيمتشكا، طالبٌ في السنة السادسة يدخل: أنتم في اجتماع هنا، عمّ تتحدثون؟

«تشرح له نينا».

سيمتشكا، وهو مسرور في أن يزيدهم دهشة: ليس ثمن السفر شيئاً، في باريس أمّنت راقصةٌ على ساقيها بمئتي ألف روبل، وبديهي أن رجلها إذا كُسرت فستكفّ عن العمل.

الخادم: هؤلاء الراقصات، اعذروا تعبيري، يعملن بأرجلهن، دون سراويل.

بول: وأي عمل!

سيمتشكا: لكن جميع الناس ليس بوسعهم أن يفعلوا ما يفعلنَه! ثمَ كم انفقْن من سنين وهنّ يدرسْن!

بول: يدرسْنَ ماذا؟

سيمتشكا: أنت لا تفهم شيئاً من ذلك! الفن شيءٌ عظيم.

بول: أنا أعتقد أنه شيءٌ تافه. نحن ندفع ثمنه بمال الأغبياء، ولو أن كل الناس كسبوا مالَهم بأن يعملوا كما نعمل نحن، لما كان هناك لا راقصون ولا مغنّون، والحقّ أنهم لا قيمة لهم البتّة.

سيمتشكا: هذا شأن من كان بلا تعلّم، إن أسماء بيتهوفن وفيردي ورافائيل، بالنسبة إليه، لا قيمة لها.

ناتاشا: أنا أعتقد أنه يقول الحقيقة.

نينا: لنذهبْ، لنذهبْ.

١٦ – في العلم

«طالبان، واقعي، خمسة عشر عاماً، طالب في الفرع العلمي، و«أنسي»، ستة عشر عاماً في الفرع اليوناني اللاتيني، فولوديا وبيتروشا توأمان، شقيقا الثاني.

الواقعي: ماذا تنفعني اللاتينية واليونانية بما أن كل شيء قد تُرجِمَ إلى اللغات الحديثة؟

الأنَسي: لن تفهم الإلياذة أبداً إذا لم تقرأها في اليونانية.

الواقعي: لستُ بحاجة إلى أن أقرأها، ولا أرغب في ذلك.

فولوديا: ما الإلياذة؟

الواقعي: حكاية.

الأنَسي: لكنها جميلة جداً بحيث أننا لا نجد في العالم حكايات تشبهها.

بيتروشا: وفيم هي بهذا الجمال؟

الواقعي: هي حكاية، هذا كل ما في الأمر.

الأنَسي: لكنك لن تفهم بدقةٍ أبداً العصور القديمة إذا لم تفهم هذه الحكايات.

الواقعي: في رأيي، أن ههنا الخرافة نفسها التي في التعاليم الدينية مما يُسمّى: «القانون الديني».

الأنَسَي، ثائراً: إن القانون الإلهي خاطئ وكاذب، لكن الإلياذة من التاريخ ومن الحكمة.

فولوديا: أحقّاً أن القانون الإلهي ليس سوى حماقة؟

الأنَسَي: لِمَ تبقيان هنا؟ أنتما لا تفهمان، مع ذلك، شيئاً. الولدان، وقد جُرحا: لِمَ تفكر أننا لا نفهم شيئاً؟

فولوديا: ولعلنا نفهم أكثر منك.

الأنَسَي: طيّب، طيب، لكن لا تتدخلا في الحديث، ابقيا هادئين.

(إلى الواقعي)، تريد أن تبرهن أن اللغات القديمة لا تفيد شيئاً في الحياة، لكنْ ألا نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن علم الجراثيم، والكيمياء، والفيزياء، وعلم الفلك؟ لماذا تريد أن تعرف المسافات التي تفصلنا عن النجوم، وكل هذه التفاصيل التي لا يحتاج إليها أحدٌ؟

الواقعي: كلا، إن هذه المعارف ضروريةٌ جداً.

الأنَسَي: لأي شيء؟

الواقعي: كيف، لأي شيء؟ لكل شيء؟ والملاحة؟

الأنَسَي: الملاحة ممكنة بدون علم الفلك.

الواقعي: لا تنس تطبيقاتها العلمية، في الزراعة والطب والصناعة...

الأنَسَي: ليس هذا شيئاً، هذه المعارف نفسها تصلح لصنع القنابل للحروب والثوريين، آه! لو كانت تؤدي إلى رفاه الإنسان!...

الواقعي: ألا تعتقد أن العلوم تجعل الناس أفضل؟

فولوديا: ما العلوم التي تجعل الناس أفضل؟

الأنَسَي: قلتُ لكَ، لا تتدخّلْ في مناقشات الذين يكبرونك في السن، أنت تنطق دائماً بالحماقات.

فولوديا وبيتروشا، معاً: حماقات أم لا، ما العلوم التي تساعدنا على أن نحيا حياة حسنة؟

الواقعي: مثل هذه العلوم غير موجودة، مثل هذه الحياة يجب أن يبنيها كلُ واحدٍ بنفسه.

الأنَسَي: لا، فولوديا وبيتروشا لا يتعلمان ذلك كله في المدرسة.

فولوديا: إنْ كانوا لا يعلّموننا ذلك فلإننا يجب ألا نتعلّمه.

بيتروشا: سنكبر ولن نتعلّم ما ليس ضرورياً أن نتعلمه.

فولوديا: وسنعيش حياةً أفضل.

الأنَسَي: ضاحكاً: حسناً! أيها الحكيمان، لقد حللتما المشكلة.

١٧ – في المحكمة المدنية

«الفلاح، المرأة العرابة، ديتيا ابن الفلاح البكر، تسعة عشر عاماً، وبيتيا الابن الثاني، تسعة أعوام، يدخل الفلاح الكوخ الخشبي ويبدأ في خلع ملابسه».

الفلاح: آه! يا لهذا الطقس! كانت العودةُ صعبةً.

الفلاحة: كان المكان بعيداً! خمسة عشر كيلومتراً.

الفلاح: بل عشرين، (لابنه)، اذهبْ واهتم بالحصان.

الفلاح: وماذا، هل ربحنا؟

العرّابة: حيّرتني هذه القضية، ما هي بالضبط؟

الفلاح: هذه هي: «افيريان» استولى على بستان البقول الذي لي ولا يريد أن يرده إلي ولست أرى حلاً لهذه القضية.

الفلاحة: هذه هي المرة الثانية التي نَمْثُلُ فيها أمام المحكمة.

العرابة: أعرف، أعرف، زوجي قال لي: إن المحكمة كانت بجانبك في المرة الأخيرة.

الفلاح: هذا المحزن، بعد أن خسر «افريان» ذهب إلى محكمة أخرى، محكمة المنطقة، فأحالت القضية، ومثلتُ أمام القضاة، فحكموا عليّ واستأنفت لكني حكمتُ من جديد، آه!... من هذه المحاكم!

الفلاحة: ماذا ينبغي أن تفعل إذن؟

الفلاح: لن أتخلّى له عما هو لي، سأستأنف أمام محكمة عليا، وقد تحدّثت إلى المحامي.

العرابة: وإذا حكمت هذه المحكمة لمصلحته؟

الفلاح: سأذهب إلى محاكم أعلى حتى لو ضحّيتُ بآخر بقرة لي، لن أستسلم لهذا الشيطان المدحدح، سيعرفني مَنْ أنا!

العرّابة: ما أشدّ ما يُحزن أن تكون لنا علاقة بكل هذه المحاكم، وإذا حكمتْ له تلك المراجع العليا؟

الفلاح: سأتوجّه إلى القيصر، يجب أن أذهب وأطعم الحصان خبزاً.

بيتيا: وإذا حكم القيصر علينا فإلى من نتوجّه؟

الفلاحة: بعد القيصر، لا يوجَد أحدٌ.

بيتيا: ولماذا كان القضاة إلى جانب بابا تارةً، وإلى جانب آفيريان تارةً أخرى؟

الفلاحة: لعلهم لا يعلمون من الأمر شيئاً.

بيتيا: إن كانوا لا يعلمون شيئاً، فلماذا يَمْثل الناسُ أمامهم إذن؟

الفلاحة: لأنْ لا أحد يُريد أن يُحْرم ما يملك.

بيتيا: حسناً، عندما أكبر، سأتصرّف تصرّفاً آخر: إن كان لي شيء يخاصمني فيه أحدٌ، فسوف نقترع، فمن يحالفْه الحظّ ينلْ ذلك الشيء المتنازع فيه، ثم لا شيء بعد ذلك. هذا ما سنفعله دائماً، آكولينا وأنا العرابة: الأمر أسهل هكذا، وهذا يتمّ بلا خطيئة، الفلاحة: ما أغرب تنظيم الأشياء الآن، لقد أنفقْنا من المال أكثر مما يساوي بستان البقول.

١٨ - في المحكمة العسكرية

في المحكمة العسكرية

«غريشا، اثنا عشر عاماً، سيمكا، عشرة أعوام، تيشكا: ثلاثة عشر عاماً».

تيشكا: إن أخذتَ شيئاً من صندوق الآخرين، فسوف توضع في السجن وسوف تخاف من أن تعود إلى فعلتك.

سيمكا: نعم، موافق على هذا، لكن العم نيكيتا روى أن ميتروفان سُجن من أجل لا شيء.

تيشكا: كيف، من أجل لا شيء؟ إذا كان الأمر كذلك، فماذا يفعلون بالذي أدان بريئاً؟

غريشكا: لن يهنِّئوه، إن حكَم خلافاً للقانون فسيُعاقبُ.

سيمكا: ومن سيعاقبه؟

تيشكا: رئيسه.

سيمكا: ومن رئيسه؟

تيشكا: الإدارة.

سيمكا: وإذا أخطأت الإدارةُ هي أيضاً؟

غريشكا: هناك ما هو أعلى منها، وستُعاقب أيضاً، ولذلك كان القيصر هنا.

سيمكا: وإذا أخطأ القيصر، هو أيضاً، فمن يعاقبه؟

تيشكا: مَنْ يعاقبُه؟ مَنْ يعاقبه؟ الأمر واضحٌ...

غريشكا: الله يعاقبه.

سيمكا: لكن الله يعاقب أيضاً الذي سرق من صندوق الآخرين. فليكن الله هو وحده الذي يعاقب جميع المذنبين. والله لن يخطئ.

تيشكا: الأمور لن تستمر بلا شك هكذا؟

سيمكا: و لمَ لا؟

تيشكا: لأن...

١٩ - في الملكية

«شيخ يصلح حاجز الشرفة، ابن اقطاعي عمره سبعة أعوام، ينظر إلى عمل نجار الأبنوس ويعجب به».

الولد: ما أحسن شغلَك، ما اسمُك؟

النجار: ما اسمي؟ كانوا قديماً يسمّونني «كرولكا»، والآن «كرول»، بل ويسمّونني «سافيتش».

الولد: ما أحسن شغلك، «كرول سافنتش».

النجار: عندما نشتغل فيجب أن نُحسنَ الشغلَ، لم نشتغل شغلاً سّيئاً؟

الولد: أعندكَ شرفة؟

النجار: ضاحكاً: أنا؟ يا بني، عندي شرفة لا تُعَدُّ شرفتك بجانبها شيئاً، شرفتي بدون نوافذ، يدخلها الإنسان ويخرج منها فوراً، هذه شرفتي

الولد: أنت تمزح، لا، قلْ لي، أعندك شرفة مثل هذه؟ أسألك عن ذلك جاداً.

النجار: آه! أيها الولد الرائع! شرفة؟ أية شرفة يمكن أن تكون

لأخي؟ ليُعطيه الله فوق رأسه، وما نفعُ الشرفة؟ بدأت بعمل السقف في الربيع، السقفُ القديم استطعتُ أن أهدمه، لكنني لم أتمكن بعدُ من إنهاء السقف الجديد، وأنا الآن بلا سقفٍ، والريُح تَصْفر.

الولد، دهشاً: لماذا؟

النجار: لأنني فقدت قواي.

الولد: كيف ذلك، فقدتَ قواك؟ ومع ذلك، فأنت تعمل عندنا.

النجار: أعمل لكم، أمّا لي فلا أستطيع.

الولد: لأي سبب؟ لستُ أفهم، اشرحْ لي.

النجار: ستكبر، أيها الولد الطيّب، وستفهم، أنا أعمل لكم، أما لي فلا أستطيع.

الولد: لماذا

النجار: لأنه لابد من الخشب وليس لديّ خشب، يجب أن أشتريه وبِمَ أشتريه؟ ليس عندي شيء، أنا أعمل هنا، وستدفع أمك أجرتي - قلْ لها أن تدفع لي أفضل أجرة ممكنة - وحينذاك سأذهب إلى الحقول، وسأشتري خمس صنوبرات، وسأُنهي السقف.

الولد: وأنت نفسك، أليس عندك غابة؟

النجار: عندنا غابات شديدة الاتساع حتى إننا نستطيع أن نمشي فيها ثلاثة أيام دون أن نصل إلى نهايتها، لكنها للأسف ليست لنا.

الولد: لكن ماما تقول إن غابتنا هي التي تُسبّب لنا القلاقل، هذه الغابة لا تعود عليها إلا بالمتاعب.

النجار: كل الشر يأتي من هنا! لأمكَ همومٌ لأنها تملك غابةً شديدة الاتساع، ولي همومٌ لأنني لا أملك شيئاً من ذلك، لكني أثرثر معك وأنسى عملي، ولن يمدح أحدٌ أخانا من أجل ذلك.

الولد: عندما أكبر فسوف أتصرّف بحيث يكون لي مقدار مساوٍ للذي مع الآخرين، المساواة لجميع الناس

النجار: إذن أسرعْ واكبرْ، وإلا فلن أكون حيّاً، لكن لا تنسَ... أين وضعت منجري؟.

٢٠ – في الأولاد

«امرأة الاقطاعي وولدها، الطالب الثانوي، أربعة عشر عاماً، وتاينتشكا خمسة أعوام، يتنزهون في الحديقة، تقترب منهم فلاحةٌ عجوز

الأم: ما بكِ، ما تريونا؟

العجوز: جئتُ طالبةً طيبتكِ

الأم: لماذا؟

العجوز: لأنني أخجل، يا سيدتي من الكلام، لكن، ما العمل، لقد وضعتْ ابنتي أيضاً، وطلبتْ إلي أن أرجوك كي تكوني إشبينة الوليد.

الأم: لكن لم يمض زمنٌ طويل على ولادتها السابقة!

العجوز: ماذا أقول؟ مضى على ذلك سنةٌ منذ الصيف.

الأم: كم حفيداً لك الآن؟

العجوز: من الصعب إحصاؤهم جميعاً، إني أعطي نصفهم عن رضاً، وكلّهم صغار، وأصغر، أي شقاء!

الأم: وابنتك، كم ولداً لها؟

العجوز: الذي وُلد أخيراً هو السابع، وكلُّهم أحياء، لو أن الله الرحيم أَخَذ بعضهم إليه!

الأم: ماذا تقولين؟ كيف تجرئين أن تتكلّمي هكذا؟

العجوز: ماذا بوسعي أن أفعل؟ نحن نذنب، الشقاء كبير، ارحمينا، يا سيدتي، وعمّديه، وإلا فلن نستطيع أن نعطي شيئاً للكاهن، بل ليس لدينا ما يكفي من الخبز، كل الأولاد صغار، وصهري سافر، ونحن امرأتان وحدنا، ماذا سنفعل؟ أنا عجوز، وابنتي وضعت طفلها، أيّ عمل تستطيع أن تقوم به، وهؤلاء الصغار لا يعرفون إلا طلب الطعام.

الأم: وهم سبعة حقاً؟

العجوز: سبعة من غير نقص، الكبير وحده بدأ يتدبّر أمره، أما الآخرون فصغار جداً.

الأم: وكيف صار أنهم بهذه الكثرة؟

العجوز: لا حيلة لنا، يا سيّدتي، إنه يأتي عندما يحصل على الإذن، أو في أيام الأعياد، وهو يعيش قريباً منا، ليت الشيطان أبعده عنا!

الأم: آه! بعضهم يبكي لأنهم لا أولاد لهم أو لأنهم فقدوهم، وأنتم تبكون لأن لديكم الكثير من الأولاد.

العجوز: الكثير، أكثر مما يلزم، ذلك يتجاوز مواردنا، هل أؤمّلُ منك ذلك، يا سيّدتي؟

الأم: نعم، عمّدتُ الآخرين، وسأعمّد هذا أيضاً، أصبيٌّ هو؟

العجوز: صبي بصحّة جيدة، ويصرخ عالياً، متى تريدين أن يتم العماد؟

الأم: متى شئت.

«تنصرف العجوز بعد أن شكرتها».

نانيتشكا: كيف يكون لبعضهم أولاد، لا يكون لبعضهم الآخر؟ أنتِ لك أولاد، وما تريونا لها أيضاً، لكن «باراشا» ليس لها.

الأم: باراشا لا زوج لها، الأولاد يولدون بعد الزواج، بعد الزواج يكون هنا زوج وزوجة، حينئذ يولد الأولاد.

نانيتشكا: يولدون دائماً؟

الأم: لا، لا، يولدون دائماً، الطاهي له امرأة، لكن ليس له أولاد.

نانيتشكا: هل يمكن أن يتدبّر الأزواج أنفسهم فيكون أو لا يكون يكون لهم أولاد متى شاؤوا؟

الطالب: ما أحمق أسئلتك التي تطرحينها!

نانيتشكا: أبداً لا، أعتقد أن ابنة ماتريونا إذا كانت لا تريد أولاداً فيجب أن تتصرف بحيث لا يكون لها أولاد، ماما هل هناك وسيلةٌ من أجل هذا؟

الطالب: أكرّر لكِ أنك تطرحين أسئلة حمقاء، أنت تتحدثين عمّا لا تعلمين.

الأم: كيف أستطيع أن أجيبك؟ لا نعلم من ذلك شيئاً، هذا يأتي من الله.

نانيتشكا: من أين يأتي الأولاد؟

الطالب: من التيس.

«يضحك».

نانتشكا، وقد خُدشت: ليس في هذا ما يضحك، أعتقد أن ما تريونا إذا قالت أنهم يواجهون صعوبات بسبب الأولاد، فيجب أن يتصرفوا بحيث لا يجيئهم أولاد، مربيتنا ليس لها أولاد ولا تواجه صعوبة.

الأم: لكنها فتاة غير متزوجة.

نانيتشكا: هذا مثل ما قلتُ: مَنْ لا يُحبّ الأولاد... الأمرُ كذلك، وإلاّ، فما الذي سيحدث؟ يولد الأولاد ولا يجدون ما يأكلونه (تنظر الأم إلى ابنها وتلزم الصمتَ)، عندما أصبح كبيرة سأتدبر أمري لكي يكون لي بنتٌ وصبي لا أكثر، وسأحبهما كثيراً، أمعي حقٌ، ماما؟ سأسأل المربَية عن ذلك.

«تنصرف».

الأم لابنتها: نعم، يُقال بصدق، إن الحقيقة تخرج من فم الأطفال، ما تقوله حقٌّ، لو أدرك الناسُ أنَ الزواج شيءٌ عظيم وليس لعبةً، لو

أدرك الناس أنهم لا يتزوجون من أجل أنفسهم بل من أجل الأولاد، إذن لما حدَثَتْ تلك الأشياءُ الفظيعة، ولما كان هناك أطفال مشرّدون ولقطاء، ولما جرى ما يجري عند ابنة ماتريونا، الأولاد لا يصنعون هناك الفرحَ، بل التعاسة.

٢١ – في التربية

«البواب ينظّف القفل، كاتيا، سبع سنوات، تبني بالمكعبّات بيوتاً صغيرةً، نيكولا، طالب ثانوي في الخامسة عشرة، يدخل رامياً كتابه في الفضاء».

نيكولا: أبعدهم الله هم ومدرستهم الملعونة!

البواب: ماذا جرى؟

نيكولا: صفرٌ آخر، وهذا سوف يُسبّب مشكلةً من جديد، أبعدهم الله! أأنا بحاجة إلى معرفة هذه الجغرافية الشيطانية؟ ما اكاليفورنيا؟ و لِمَ، يا ترى، يجب أن أعرفها؟

البواب: وماذا سيصيبُك؟

نيكولا: سأعيد صفّي مرةً أخرى.

البواب: ولماذا؟

نيكولا: لأنني لا أريد أن أتعلم الحماقات، آه! ليهلكْ كل شيء!... سأذهب وأقول لماما... لا أستطيع، هذا كل شيء، (يجلس) ليفعَلوا ما شاؤوا... أما أنا فلا أستطيع، إن لم يُخرجوني من المدرسة أهرب، سأهرب، قسماً بالله.

الأم: كيف لا تستطيع؟

نيكولا: هكذا، لا أستطيع، كل ذلك لا يدخل رأسي.

الأم: لا يدخلِ لأنك تفكر في شيء آخر، ليس في رأسك سوى الحماقات، لا تفكر في الحماقات، فكرْ فيما عليك أن تتعلّمه.

نيكولا: ماما، كلّمتُك جاداً، خلّصيني من الدراسات، لستُ بحاجةٍ إلى شيء، لا أريد شيئاً إلا التخلّص من هذه الدراسات،

الأم: وماذا تنوي أن تفعل؟

البواب: وأين ستذهب؟

نيكولا: سأترك البيتَ، سأصبح حوذيًّا، بَواباً، كل شيء أفضل من تلك الحماقات الشيطانية؟

البواب: إني أحذّركَ من أن مهنة البواب صعبةٌ أيضاً، يجب أن ينهض البوابُ باكراً، ويقطع الحطب ويحمله ويشعل النار

نيكولا: عظيم! (يصفر)، هذا يسلّي! تقطيع الحطب، يا له من شغل ممتع، كنتَ تعتقد أنك ستدهشني، لكن هذا عملٌ مُسلّ... أنت، كان عليكَ أن تحاول دراسة الجغرافية!...

البواب: صحيح، لكن لماذا يجبرونك؟

نيكولا: اسألْهم عن هذا... لاحقّ لهم، يظنون أنّ من غير الممكن ألا أتعلمّها

البواب: هذا سينفعك فيما بعد، لتحصل على الرتُبِ، والمرتّب، مثل أبيك وعمك

نيكولا: وإذا كنتُ لا أريد؟

كاتيا: إذا كان لا يريد!...

«تدخل الأم ممسكة ببطاقة».

الأم: كتب المديرُ إلي نلتَ صفراً من جديد، لا يمكن أن يستمر الأمرُ هكذا، نيكولنكا، أنت بين أمرين: إما أن تدرس وإما ألاّ تدرس

نيكولا: القرار جاهزٌ: لا أستطيع أن أدرس، لا أستطيع لا أستطيع، خلّصيني، بحقّ السماء، لا أستطع أن أدرس

نيكولا: هذا شأني.

الأم: هذا ليس شأنك، هذا لا يتعلّق إلا بي، أنا مسؤولة عنكم جميعاً أمام الله، يجب أن أقوم بتربيتكَ.

نيكولا: وإذا كنتُ غير قادرٍ؟

الأم: يا لها من حماقة! «لا أستطيع»، ياللبلاهة التي تقولها! إني أكلّمك في هذه للمرة الأخيرة، أطلب إليكَ، بصفتي أماً، أن تُغيّر موقفك، وأن تفعل ما يطلب منك، وإن لم تُطعْ فسوف أتّخذ تدابير صارمة؟

نيكولا: قلتُ لكِ إني لا أستطيع ولا أريد.

الأم: نيكولا، حذار.

نيكولا: لستُ أخشى شيئاً، لماذا تجعلينني أتألّم؟ أنتِ لا تفهمين.

الأم: أتريد أن تسكت؟ كيف تجرؤ أن تكلّمني؟ اخرْج، حذار!

نيكولا: أنا ذاهبٌ، لست أخشى شيئاً، لستُ بحاجة إليكم.

«يخرج نيكولا بسرعة وهو يَصفْق الباب».

الأم، في نفسها: آه!... لقد عذّبني، لكني أعلم من أين يأتي ذلك كله، إنه لا يفكر أبداً فيما يجب أن يفكّر فيه، إنه لا يفكّر في غير الحماقات، في الكلاب والدجاج

كاتيا: كيف يا ماما! أنتِ نفسك قلت لي إننا يجب أن نفكّر في الدب الأبيض.

الأم: لا أتكلم عن هذا، وإنما أؤكد أنكم يجب أن تدرسوا عندما تُؤْمَرون بالدراسة.

كاتيا: لكنه يقول إنه لا يستطيع.

الأم: يقول حماقات.

كاتيا: لم يقل إنه سيظل بلا عمل، هو لا يحب أن يتعلّم الجغرافيا، هو يريد أن يعمل، أن يصبح حوذياً أو بواباً.

الأم: لو كان ابن بوابٍ لأمكنه أن يكون بوّاباً، لكنه ابن أبيكِ، وإذن فيجب أن يتعلّم.

كاتيا: لكنه هو لا يريد.

الأم: أراد أم لم يرد، لا أهمية لذلك يجب أن يطيع.

كاتيا: وإذا كان عاجزاً؟

الأم: إياكِ، لا تفعلي مثله.

كاتيا: هذا ما أريده بالذات، لن أدرس ما لا أحبّ، على الإطلاق.

الأم: وستكونين حمقاء.

«صمتٌ».

كاتيا: عندما أكبرُ ويصير لي أولاد، لن أجبرهم على الدراسة، إن شاؤوا أن يدرسوا فسوف يدرسون، وإلاَ فهذا حسنٌ أيضاً.

الأم: عندما تكبرين لن تتصرّفي هذا التصرّف.

كاتيا: بلى، حتماً!

الأم عندما تكبرين؟ لا

كاتيا: بلى، بلى، سأتصرّف هكذا.

الأم: وإذن فستكونين غبيّة.

كاتيا: قالت المربية إن الغبيّ والغبيّة ضروريان لله.

***

ما مِنْ مذنبِ

١٩١٠

- ١ -

ما أغرب حظّي، وما أعجبه! لا أظن أن بين البؤساء المضْطَهدين الذين يكابدون عنف الأغنياء وترفهم، من هو قادرٌ على أن يَشعْر بجزء من مئة ممّا يُوحي إليّ الآن ظلمُ هذا العنف ووحشيّتُه وفظاعتُه، ظلم هذه السخرية، سخرية الأغنياء من الفقراء ووحشيتها وفظاعتها، كل هذا الذلّ كل هذا الجور، كل هذا الشقاء الذي يصيب الأغلبية الساحقة من هؤلاء الناس الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة، أحسستُ بذلك منذ زمن بعيد، و لم يتوقف هذا الإحساس عن النمو مع الزمن، وقد بلغ ذروته، في هذه الآونة الأخيرة، وأنا الآن أحسُّ إحساساً شاقاً بذلك ومع ذلك فأنا أعيش في هذا المجتمع مجتمع الأغنياء الفاسد المجرم، ولا أستطيع أن أهجره، ولا أعرف كيف أهجره، ولستُ أقوى على هجرانه، لا أستطيع أن أعدّل حياتي على نحو لا يترافق فيه إرضاءُ حاجات جسدي، الأكل واللباس والنوم والتنقّل، بالشعور بالذنب، وبالخجل من وضعي.

حاولتُ زمناً أن أعْزُفَ عن وضعٍ لا يتفق مع أشواق نفسي لكن

ظروف الماضي المعقّدة، والأسرة ومتطلّباتها كانت تضغط عليّ مثل كماشة، أو على الأصح لم أكن أعلم كيف أتخلّص من ذلك الوضع، أو لم أكن أقْوى، واليوم وقد تجاوزتُ الثمانين، وضعف جسدي، لم أعد أسعى إلى الانعتاق منه، والغريبُ أنني كلما ضعفتْ قواي الجسدية تعرّفتُ تعرفاً يزداد عمقاً ما في وضعي من إجرام، وازددت معاناةً منه.

لكن إذا بفكرة تراودني وهي أن وضعي ليس عديم الفائدة وأنه يتطلّب مني الاعتراف الصادق بما أعانيه، وأنني ربما فتحتُ بذلك عيون الذين - على الأقل عيون بعضهم - لا يرون حتى الآن ما أراه بوضوح كبير، وأنني ربما خفّفتُ، جزئياً على الأقل، عن حياة هذه الأغلبية الهائلة التي تُعاني جسدياً ومعنوياً من الظروف التي ألزمها إياها الناسُ الذين يخدعونها ويخدعون أنفسهم. الواقعن أنني ربما كنت في وضع يخوّلني التنديد بكل الكذب وبكل الاجرام الذي في العلاقات القائمة بين الناس، للكلام عليه بصدق مطلق لا تُغشيه الرغبةُ في تبرير الذات، ولا الحسدُ الذي يحسّه الفقراء والمضطهدون تجاه الأغنياء والظالمين، أنا في هذا الوضع بالذات، لستُ عازفاً فقط عن تبرير ذاتي، بل ينبغي لي أن أبذل جهوداً لكي لا أبالغ في درجة إجرام الطبقات السائدة التي أعيش فيها، والتي أخجل من الانتماء إليها، والتي أكره ميزاتها بكل قوى نفسي، والتي لا يمكنني الامتناع عن المشاركة في حياتها، ومن جهة أخرى، لا يمكن أن أقع في الخطأ العادي الذي يقع فيه الناسُ الذين ينتمون إلى الطبقة المظلومة والمستعبدة، ولا الخطأ الذي يقع فيه الديموقراطيون المدافعون عن تلك الطبقة، الذين لا يرون نقائص الشعب ولا أخطاءه، ولا يريدون أن يروا أيضاً الظروف المخفّفة لشروط الماضي المعقّدة التي من شأنها أن تجعل من أغلبية الناس

في الطبقات المسيطرة غير مسؤولين، ولّما كنتُ حراً من الرغبة في تبرير ذاتي، ومن خوف الشعب المتحّرر، وكذلك من حسد الشعب، وغضبه على ظالميه، فإني أجد نفسي في أكثر الظروف مناسبة لأرى الحقيقة وأجهر بها، ولعل القدر قد وضعني في هذا الموضع الغريب من أجل هذه الغاية

سوف أحاول الاستفادة من ذلك الوضع قَدْر الإمكان، فعلى الأقل، سُيخفّف ذلك منه قليلاً.

- ٢ -

استضاف ملاّكٌ لأكثر من ألفي هكتار ضيفاً عابراً، في منزله الريفي الضخم، هو ابن عم زوجته، الكسندر ايفانوفتش فولفين، وهو عزب، مستخدمٌ في مصرف في موسكو، بمرتّب سنوي مقداره ٨٠٠٠ روبل، محترمٌ في وسطه.

في المساء، أوى الكسندر ايفانوفتش إلى غرفة نومه، متعباً من لعب الورق مع أقربائه، ووضع على المنضدة التي تغطيها سجادةٌ، ساعتَه الذهبية، وعلبة السجائر الفضّية، ومحفظته، ومحفظة النقود الكبيرة بجلد سويدي، وفرشاة شعره ومشطه، ثم خلع سترته القصيرة، وصدرته، وقميصه المنشّى، وبنطاله ولباسه، وحذاءه الانكليزي الصنع، وجوربه الحريري، ثم ارتدى منامةً ومبذلاً وعلّق أغراضه خلف الباب وتمدّد على السرير النظيف ذي النوابض بفراشيْه ووسائده الثلاث ولحافه المبطن بالجوخ، كان الوقتُ منتصف الليل، أشعل الكسندر ايفانوفتش سيجارةً وظل متمدّداً على ظهره مدة خمس دقائق مستعيداً انطباعات النهار، ثم اطفأ الشمعة وانقلب على جنبه، وبعد أن تململ

طويلاً انتهى بأن أغفى في الساعة الواحدة، استيقظ في الثامنة صباحاً، وارتدى بنطاله ومبذله وقرع الجرس، أسرع إليه ربُّ أسرة عجوز على ساقيه المقوّستين، هو الخادم ستيبان، جَدٌّ لستة أحفاد، ودخل الغرفة حاملاً حذاء لامعاً، والبنطال والسترة بعد تنظيفها بالفرشاة، وقميصاً منشىً ومطوياً، شكره الضيفُ وسأله عن حالة الطقس، كانت الستائر مسدلة حتى لا تمنعه الشمسُ من النوم حتى الحادية عشرة، كما كانت عادةُ بعض أعضاء الأسرة.

نظر الكسندر ايفانوفتش إلى ساعته، لم يكن الوقتُ متأخراً بعد، أخذ يغتسل ويرتدي ثيابه، كان الماء مهّيأ، وكذلك كانت مهيّأةً ومنظّفة جميع أغراض الزينة التي اتّسخت عشية أمس: الصابون وفرشاة الأسنان وفرشاة الأظافر والشعر، والمقصّ الصغير ومبرد الأظافر، وبعد أن غسل وجهه ويديه، وبعد أن نظّف بعناية الجلد حول أظافره ونشفّه بمنشفة، وبعد أن مسح جسمه الأبيض والسمين بالإسفنج، وغسل رجليه، بعد أن فعل ذلك كله بدون عجلة، أخذ يمتشط، أولاً بمجموعة فراش انكليزية سرّح لحيته الجعدة أمام المرآة، التي دب فيها الشيب على جوانبها، وفَرقها فرقتين، ثم سرّح شعره بمشط كبير، ثم مشط رأسه كله بمشط ناعم، وبدّل بقطن المشط المتسخ قطناً نظيفاً، ولبس ثيابه الداخلية وجوربه واحتذى حذاءه، وارتدى بنطاله الذي تعلّق بحمالتين من الحرير، وصدرته، وقبل أن يرتدي سترته القصيرة، جلس في مقعد ليّن، ليستريح قليلاً من عناء الزينة، وأشعل سيجارة وفكّر في المكان الذي سيتّخذه وجهةً لنزهته.

يمكن الذهاب إلى الحديقة، لكن يمكن الذهاب أيضاً إلى بورتوتشكي (كانت ثمّة غابةٌ تحمل هذا الأسم الغريب) «نعم من المحتمل أن أذهب

إلى بورتوتشكي، آه! لا بدّ من أن أردّ على رسالة سيميون نيكولايفتش، لكن، فيما بعد» وقف بعزم، ونظر إلى ساعته، كانت الساعة التاسعة إلا خمس دقائق، وضع ساعته في جيب صدرته، ووضع في جيب بنطاله محفظة النقود مع ما بقي له من مئة وثمانين روبلاً تسلمها بدل السفر والنفقات الصغيرة التي لابدّ منها في الأسبوعين اللذين نوى أن يقضيهما عند صديقه، وضع في سترته علبةَ سجائره الفضية، وقداحته الكهربائية، ومنديله، وخرج من الغرفة، تاركاً، بطبيعة الحال، أمر العناية بتنظيمها ورفع الأوساخ التي سبّبها لستيبان الخادم ابن السبعين الذي كان يتوقع من جانب الكسندر ايفانوفتش مكافأة شرفيّةً حسنة، كما كان يقول، والذي تعوّد كثيراً هذا العمل حتى إنه كان ينفّذه دون أن يشعر بأي اسمئزاز

بعد أن نظر الكسندر ايفانوفتش في المرآة واستحسن مظهره، قصد صالة الطعام، وهناك كان سماور فضيّ، أو كذلك كان يبدو، يلمع ويغلي، فوق غطاء نظيف، ناصع البياض، كل ذلك بفضل عناية خادم غير ستيبان، ومربية وخادم غرفة الخدمة – الذي استطاع قبل الفجر أن يذهب إلى القرية ليصلح منجل ابنه – وكان على المائدة أيضاً غلاّية قهوة، وحليب ساخن، وقشدة وزبدة، وخبز من جميع الأنواع، وحلوى، كان يجلس إلى المائدة طالبٌ، مربي الابن الثاني، والابن الثاني نفسه، والضاربة على الآلة الكاتبة التي كانت تنسخ مقالات رب البيت، وهو عضو نشيط في جمعية النبلاء والفلاحين وملاّكٌ ريفي كبير، وكان قد خرج من الساعة الثامنة صباحاً ليرى أراضيه.

أثناء الفطور، تحدّث الكسندر ايفانوفتش مع المربّي والناسخة عن الطقس، عن لعبة الورق أمس، عن ثوْرة تيودوريت الذي تفوّه،

دون سببٍ، بفظاظات لأبيه، كان تيودوريت الابن الأكبر، و لم ينجح رغم سنه، كان اسمه تيودور، لكن أحد الناس سمّاه مازحاً أو عامداً «تيودوريت» ووجد الاسمُ مضحكاً، فاستمر الجميع في هذه التسمية حتى عندما كان ما يفعله غير مضحك على الإطلاق، كما هي الحال الآن، لقد دخل الجامعة وتركها منذ سنتين، ثم خدم في الحرس وما لبث أن ترك الجيش، وهو الآن يعيش في الريف، لا يفعل شيئاً، ويلوم كل شيء، ويستاء من كل شيء.

كان تيودوريت ما يزال في سريره، وكذلك جميع أعضاء الأسرة، أي ربة البيت، آنا ميكايلوفنا، وأختها وهي أرملة حاكم مقاطعة سابق، ورسّام مناظر طبيعية كان يعيش عندهم.

تناول الكسندر ايفانوفتش من البهو قبعة القش (كلفته عشرين روبلاً) وعصا كرتُها من العاج المنقوش، وخرج، اجتاز السطحَ المزدان بالزهور، ومرّ أمام الروضة التي كان في وسطها كتلةٌ على شكل مثلث، ومعها زهور بيضاء وحمراء وزرقاء مرتّبةً في صفوف منتظمة، وراسمةً على جوانبها اسم ربة المنزل متشابك الأحرف، عندما قطع الكسندر ايفانوفتش الحديقة دلف إلى جادة الزيزفون القديم، وكانت الفلاحات المجهّزات بالمجارف والمكانس ينّظفن تلك الجادة، أما البستاني فكان يدبّر شيئاً ما، وقد حمل عاملٌ شاب شيئاً على عربته، تجاوزهم الكسندر ايفانوفتش، ودخل الحديقة المغروسة بالأشجار العتيقة التي كانت تشغل على الأقل، مائة هكتار تقطّعها ممرّات ممشوطة، تنزه - وهو يدخّن، في الممرات المفضّلة، ودلف إلى الحقول ماراً بأحد الأجنحة، كان الجو جميلاً في الحديقة، لكنه كان أجمل في الحقول، إلى اليمين، كانت تُشاهد نساءٌ يجمعن البطاطا، وكأنهن بقعٌ جميلةٌ حمراء وبيضاء، وإلى

اليسار كانت المراعي والحقول المحصودة حيث كان يرعى قطيعٌ، وإلى الإمام، إلى اليمين قليلاً، كانت تظهر أشجار السنديان الخضراء القائمة في «بورتوتشكي» كان الكسندر ايفانوفتش يتنفّس بملء رئتيه ويبتهج بحياته، على العموم، وببقائه عند ابنة عمه، على الخصوص، حيث كان يستمع بالراحة من مشاغل المصرف.

فكّر: «ما أسعد البشر الذين يعيشون في الريف، صحيحٌ أن الكسندر ايفانوفتش لا يستطيع أن يجد الهدوء مع مشاريعه الزراعية وجمعية النبلاء، لكنه هذا هو ما يبتغيه» وبعد أن أشعل سيجارة جديدة، وهو يمشي بجزمته المتينة المريحة، وهي جزمةُ عمل انكليزية، بخطى ثابتة، وأخذ يفكّر، هازاً رأسه، بمشاغل الشتاء في المَصرف: «من العاشرة إلى الثانية، وفي بعض الأحيان، كل يوم حتى الساعة الخامسة... هذا سهلٌ بالكلام، ... ثم تأتي الجلسات والأعمال الخاصة، وبعد ذلك «الدوما»... الأمر مختلف هنا، أحسّ بالحياة الهنيئة هنا! صحيح أنني أضجر لكن ذلك لا يدوم طويلاً..». وابتسم

بعد أن تنزّه في «بورتوتشكي»، عاد مباشرةً عبر الحقل الخريفي الذي كان يُحرث، في الحقل كان قطيعُ الفلاحين من البقر والخراف والنعاج والخنازير، كان الطريق يؤدي، إلى القطيع رأساً، خافت الخرافُ وهربت الواحد تلو الآخر، وصنعت الخنازير صنيعها، وحدّقت فيه البقرتان الهزيلتان، صاح الراعي، وهو فتى صغير، بخرافه وصفق بسوطه، فكّر الكسندر ايفانوفتش متذكّراً سفراته الكثيرة إلى الخارج، «ماأشد تخلّفنا، بالمقارنة مع أوروبا! في أوروبا كلها لا تجد مثل هذه البقرة» أراد الكسندر ايفانوفتش أن يسأل إلى أين يُفضي الطريق الذي يتصالب مع الطريق الذي يسلكه، ولمن هذا القطيع، نادى الفتى:

لمنْ هذا القطيع؟

نظر الولد بدهشة قريبة من الرعب إلى القبعة، واللحية الممشوطة، وقبل كل شيء إلى النظارة الذهبية، و لم يحسن الجواب رأساً عن السؤال، فكرّر الكسندر ايفانوفتش حينئذٍ أجابه الصبيُ بعد أن تمالك نفسه:

لنا.

فسأله الكسندر إيفانوفتش وهو يهزّ رأسه ويبتسم:

لكن لمنْ، لنا؟

كان الولد ينتعل مشّايةً، ويرتدي بلوزةً من قماش خشن، وسخة، ممزّقة عند الكتف، ويضع قبّعة سقطت واقيتها.

لمن، لنا؟

لقرية «بيروغوفو».

كم عمركَ؟

لا أعرف

هل تعرف القراءة والكتابة؟

لا، لا أعرف.

كيف ذلك؟ أليس عندكم مدرسة؟

ذهبتُ إليها.

و لم تتعلم إذن؟

لا.

إلى أين يُؤدي هذا الطريق؟

أخبره الفتى، فسار في طريق البيت وهو يفكّر في الطريقة التي يشاكس فيها نيكولا بيتروفتش بسبب النبيجة المتواضعة لاهتماماته ومساعيه لمصلحة التعليم العام.

نظر نيكولا بيتروفيتش إلى ساعته، وهو غير بعيد عن المنزل، فلاحظ بغَيْظ أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة وتذكر أن الكسندر ايفانوفتش سيذهب إلى المدينة وأنه أراد أن يرسل معه رسالة إلى موسكو، ولم يكتبْ هذه الرسالة بعد، مع أنها مستعجلة، أراد أن يكتب لصديقه وزميله لكي يشتري له لوحة، أو صورة للعذراء تباع في المزاد العام، عندما دنا من البيت رأى أربعة جياد أصلية، جميلة، فارهة، حسنة المظهر، مربوطة بعربة، يلمع طلاؤها الأسود في الشمس، وكان الحوذي بقفطانه الأزرق وزناره الفضّي على مقعده، كانت العربّة تقف أمام درج المدخل، وبين الحين والحين كانت تحرك أجراسها لترن

أمام باب المدخل كان يقف فلاحٌ حافي القدمين بقفطان ممزّق وبلا قبّعة، حيّا الكسندر ايفانوفتش الذي سأله عمّا يريد.

جئت إلى الكسندر ايفانوفتش.

من أجل أية قضيّة؟

من أجل شقائي... لقد هلك حصاني.

سأله الكسندر ايفانوفتش، فروى له الفلاح أن له خمسة أولاد، وأن هذا الجواد كان كل ما يملك، وأخذ يبكي

ما بكَ؟

جئتُ أطلب الحسنة

ركع ورفض أن ينهض بالرغم من رجاء الكسندر ايفانوفتش

ما اسمك؟

أجاب الفلاح دون أن ينهض: دميتري سوداريكوف

أعطاه الكسندر ايفانوفتش ثلاثة روبلات، انحنى الفلاحُ حتى لامس الأرض، دخل الكسندر ايفانوفتش المنزل، وجد في البهو صاحب البيت نيكولا بتروفيتش، سأله:

والرسالة؟ أنا ذاهبٌ في هذه اللحظة

عفواً، عفواً... إن كان ذلك ممكناً، سأكتبها على الفور... نسيتُ تماماً، الجو جميل جداً عندكم حتى أننا ننسى كل شيء، إذن موافق؟ أستطيع أن أكتبها؟

تستطيع، لكن أسرعْ، أرجوك

كانت الجياد تنتظر منذ أكثر من ربع ساعة، وكان الذباب مؤذياً، سأل الكسندر ايفانوفتش الحوذيَّ:

هل يمكنك الانتظار، آرسين

أجاب الحوذي: لمَ لا؟ وفكّر في نفسه: «ما لهم يأمرون بربط الخيل ولا يذهبون! أنا، أسرعتُ أنا أولادي، وها أنني أنتظر هنا لإطعام الذباب».

قال الكسندر ايفانوفتش وهو يتّجه إلى غرفته فوراً، فوراً. لكنه عاد أدراجه ليُحدّث نيكولا بتروفيتش عن الفلاح الذي جاء يطلب معونته:

هل رأيته؟

هذا سكير لكنه بائسٌ، هيّا، أرجوك، أسرعْ

أخذ الكسندر ايفانوفتش الورق النشّاف وكل ما يلزم للكتابة، وكتب رسالته، وقطع شكاً من دفتره، وسجّل عليه مبلغ مئة وثمانين روبلاً، ووضع كل شيء في المغلّف، وحمله إلى نيكولا بتروفيتش

حسناً، إلى اللقاء

قبل الغداء، أخذ الكسندر ايفانوفتش يقرأ الصحف، لم يكن يقرأ سوى «الأنباء الروسية» و«الكلام» أحياناً «الكلام الروسية»، لكنه لم يمسك بيده قط «الزمن الجديد[1]» التي كان صهره مشتركاً فيها.

بينما هو يطالع وعلى عادته الأنباء السياسية، وأعمال القيصر والرئيس والوزراء، وقرارات البرلمان، لينتقل بعد ذلك إلى المسرح، والأنباء العلمية، والأخبار التافهة، إلخ، سمع جرس الغذاء، كان على المائدة ما يكفي ثمانية أشخاص من الملاعق والسكاكين، والشوكات الفضية، وكان عليها أيضاً أباريق للماء، وزجاجات من الماء المعدني، ومشروب الكفاس، والخمر، والفُوَط، وكان كل ذلك يلمع ويمثّل عنايَة أكثر من عشرة أشخاص، مهتميّن فقط بهذه الخدمة، بدءاً من

---

١ - الأنباء الروسية والكلام: صحيفتان متحررتان، الكلام الروسي أكثر اعتدالاً، أما الزمن الجديد فهي محافظة.

الغاسلات، إلى البستاني والحوذي والطاهي والخادم وأمين النفقة، ألخ، وكان خادمان يذهبان ويجيئان أبداً وهما يحملان المقبّلات، والمأكولات الساخنة والباردة.

كانت ربةُ البيت تتكلم بلا توقّف وتروي كلَّ ما تفعله وتفكّر فيه وتقوله، وكان كل ذلك، في اعتقادها، حسناً جداً، وساراً دائما للجميع، ما عدا الناس المحدودين، كان الكسندر ايفانوفتش يحسّ ويعلم أن كل ما كانت تقول سخيف، لكنه لم يكن يستطيع أن يُظهر ذلك، وكان المربي يتحدث بين الحين والحين مع الأرملة، كان الصمت يُطبق أحياناً، وحينئذ يصبح تيودوريت في المقام الأول ويغدو الضجر قاتلاً، وحينئذ تطلب ربة البيت أحد الألوان التي لم تُقَدّم بعد، فيجري الخادم إلى المطَبخ أو إلى أمين النفقة، لم يكن أحدٌ بحاجة إلى الطعام، لكنهم جميعاً كانوا يأكلون ويتكلّمون، وهم يجهدون أنفسهم، هكذا كانت تمرّ ساعة الطعام

الفلاح الذي جاء يطلب المعونة بسبب هلاك حصانه، كان يُدعى دميتري سوداريكوف، لقد قضى نهار أمس كله حول حصانه، ذهب أول الأمر إلى بيت «سانين» القصّاب، في اندريفكا، فلم يجده في بيته، فانتظره ثم كاسره على سعر الجلد، وجاء الظهرُ، ثم ذهب إلى جار يطلب إليه أن يعيره حصانه لينقل حصانه خارج القرية، لأنه لم يكن مسموحاً أن يُظمر حيث هلك، لم يُعطه جاره حصانه، وكان هو بحاجة إليه لإدخال البطاطا، أفلح دميتري أخيراً في طلبه حصان ستيبان الذي عطف عليه، بل وساعده على نقل الحيوان النافق، انتزع دميتري الحافرين الأماميين وأعطاهما زوجته: كان أحدهما سليماً والآخر لم يبق منه سوى نصفه، وأثناء حفره للحفرة بمجرفة مثلّمة،

وصل سانين، قطعوا الحصان الميت، وواروه في الحفرة، كان دميتري متعباً جداً، ومن حزنه، ذهب مع سانين إلى ماتريونا وشرب معه نصف زجاجة، تبادل مع امرأته بعض الشتائم وذهب لينام على الكلأ، في الزريبة: نام دون أن يخلع ثيابه وتغطي بقفطانه الممزّق، كانت امرأته في الكوخ الخشبي مع بناتها، كانت لها أربع بنات، وكان عمر الأخيرة خمسة أسابيع فقط.

نهض دميتري، بفعل العادة، مع الفجر، تنهّد: «آه!» لذكرى ما مرّ به أمس، تذكر كيف كان الحصان يتخبّط، وينتصب على قوائمه، ثم يسقط، وكيف أنه لم يبق له حصان، وهو لا يملك سوى أربعة روبلات وثمانين كوبيكاً ثمن جلده، نهض، وأصلح لباسه، وخرج ليذهب إلى الفناء، ثم دخل الكوخ الخشبي.

كان الكوخ مائلاً، وسخاً وأسود، كان مدفّأً، وكانت امرأته تضع بيدٍ القشَّ في المدفاة، وبالأخرى تحمل قرب ثديها المتدلي خارج قميصها الوسخ بنتها الأخيرة، رسم دميتري علامة الصليب ثلاث مرات، وهو ينظر إلى الزاوية، ولفظ كلمات عديمة المعنى: الثالوث، أم الله، أومن، أبانا...

ماذا! ليس عندنا ماء؟

ذهبت الصغيرة لتأتي بالماء، وأظن أنها ستحمل ماء، وبعدُ، هل ستذهب إلى المعلم في سوروتشنكا؟

نعم، لابدّ من الذهاب...

وسعل بسبب الدخان، أخذ خرقةَ كانت على المقعد، وذهب إلى المدخل، كانت ابنته قد جاءت بالماء، فملأ دميتري فمه ماءً من السطل

ولفَظَه في يديه، ثم أخذ مرة ثانية بفمه، ومسح وجهه، وفركه بيده وبالخرقة، وملّس شعره، وخرج

في الخارج اقتربت منه طفلةٌ صغيرة بنت عشر سنوات، ترتدي قميصاً وسخاً فقط.

مرحباً، عمّ دميتري، يطلبونك كي تأتي للدَرسْ.

فأجاب:

طيب، سأذهب قولي لهم إني سأذهب بعد الغذاء، يجب أن أذهب إلى «اوغروماياً».

وفهم أن آل كوموشكين، وهم فقراء مثله تقريباً يطلبونه لأنهم اشتغلوا عنده، في الأسبوع الماضي، على الدرّاسة التي استأجرها.

دخل دميتري الكوخ وأخذ حذاءه وذهب إلى منزل المعلم، وبما أنه تلقّى ثلاثة روبلات من الكسندر ايفانوفتش، ومثلها من نيكولا بتروفيتش، فقد عاد إلى بيته، وسلّم المال لامرأته وقصد آل كوموشكين، كانت الدرّاسة في ذروة عملها وكان السائق يحث الخيول.

حول السائق كانت الخيول الهزيلة تجرّ جرّها، وكان الرجلُ يحثّها بصوت رتيب: «هيّا! يا أصحابي!» كانت النساء تحل الحزم، كان غيرهن يمشط القش والسنابل، وكان غيرهن، مع الرجال، يجمعون أكوام القش ويحملونها إلى الفلاحين ليرموها في الدرّاسة، كان العمل على أشده، وفي البستان الذي مرّ أمامه دميتري، كانت امرأة حافية القدمين وبالقميص، تقتلع البطاطا بيديها وتضعها في سلّة.

سأل دميتري: أين الجَدُّ؟

الجدّ في الأرض المسوّرة

ذهب دميتري إليه وما لبث أن بدأ عمله، كان المعلم على علم بمصيبة دميتري، وبعد أن سلّم عليه، حدّد له المكان الذي يجب أن يقف عليه ليُناول القشّ.

خلع ديمتري قفطانه وسواه ووضعه جانباً، على حافة السياج ثم عكف على العمل بحميّة خاصة، مجمّعاً القش بالمذراة ورامياً به في الدرّاسة، دام العمل هكذا حتى الغذاء، وكانت الديكة قد تجاوبت ثلاث مرات بصياحها، وليس معنى ذلك أنهم لم يصدّقونها، لكنهم لم يسمعوها في غمرة العمل والأحاديث بشأن العمل، لكن إذا بهم يسمعون، من فناء المعلم، على مسافة ثلاثة كيلو مترات، صفير الدرّاسة البخارية، حينئذ اقترب من السياج صاحبُ العمل، وهو شيخ في الثمانين، مستقيم القامة، وقال وهو يتقدّم نحو السائق:

حسناً! انتهى العملُ! هيّا إلى الغداء.

ضاعف العاملون من نشاطهم، فُرتِّب القشّ في لحظة، وكذلك كل ما دُرس وفُصل عن القش من الحبوب والسنابل، واتجهوا إلى البيت الخشبي، وكان معداً: فَحَوْل المائدة صُفّتْ المقاعد ليتمكن الجميع من الجلوس، كان المجموع تسعة أشخاص، دون حساب أصحاب البيت، في البدء صلّى الجميع وهم ينظرون إلى الإيقونات، ثم جلسوا، كان الغذاء مؤلفاً من الحساء بالخبز، ومن البطاطا المسلوقة ومن مشروب الكفاس.

أثناء العشاء دخل البيت متسوّلٌ أقطع، حاملاً كيساً على ظهره، مستنداً إلى عصا كبيرة

السلامُ لهذا البيت! أعطوني شيئاً، من فضلكم، بجاه المسيح.

قالت ربةُ المنزل، وهي امرأة كبيرة، كنّةُ العجوز:

الله يعطيك

كان الشيخ عند الباب المؤدي إلى خَلْوةٍ

ليس هذا حسناً، يا «مرفا»، اقطعي له كسرةً من خبز.

لكني أحسب إن كان لدينا ما يكفي للجميع.

لا، ليس هذا حسناً، يا مرفا، الله قد أمر باقتسام كل شيء، اقطعي له كسرةً.

أطاعت «مرفا» انصرف المتسوّلُ، نهض السائق وشكر أصحابَ البيت، وذهب ليستريح.

لم ينم دميتري، وجرى إلى الدكان ليشتري تبغاً، وأخذ يثرثر مع فلاح من «ديمنسك»، واستعلم عن سعر الماشية، لأنه كان يتوجّس أنه سيُضطر إلى بيع بقرته، وعندما عاد، كان الآخرون قد باشروا العمل، واستُؤنف العملُ هكذا حتى المساء.

بين هؤلاء الناس المظلومين، المخدوعين، المنهوبين، المُفْسَدين، المقتولين ببطء من جراء نقص الغذاء ومن جراء عمل هو فوق قواهم، ناسٌ يَستْغلّون، لدى كل خطوة من حياتهم الفارغة الحقيرة، عملَ هؤلاء العبيد المخيف، ولستُ أتكلم عن عمل هؤلاء الملايين من عبيد المصانع: السماور، والأواني الفضّية والعربات والآلات، إلخ، بين هؤلاء الناس يعيش بدَعةٍ رجالٌ يَعُدُّ بعضُهم أنفسهم مسيحيين،

وبعضهم الآخر متعلمّون ومتنورون إلى حدٍّ لا حاجة لهم معه إلى المسيحية أو إلى أية ديانة أخرى، لفرط ما يجدون أنفسهم أعلى من ذلك كله، يعيشون وسط هذه الفظاظات ينظرون إليها ولا يرونها، ويُنهون حياتهم بدعة، وهم في الغالب ناسٌ طيبّون، كبارٌ في السن، عجائز وشبابٌ، أمهات وأطفال، أطفال أشقياء فاسدون، يُهيّؤون ليكونوا عُمْي البصيرة

هذا شيخ يملك آلاف الهكتارات، عزب، عاش حياته في الفراغ مُعَلِّفاً نفسه وزانياً، وقارئاً مقالات: «الزمن الجديد» وهذا ضيفه، حاكم سابق، وعضوٌ في مجلس الشيوخ، الذي يقرأ ويستحسن تقارير مؤتمر الفقهاء المشرّعين الذين أقرّوا ضرورة عقوبة الإعدام، وهذا خصمهما الذي يقرأ «الأنباء الروسية» والذي يتعجب من عمى الحكومة التي تتغاضى عن «وحدة الشعب الروسي إلخ...

وهذه الأم الفاتنة والطيبة التي تقرأ لابنتها الصغيرة قصة الكلب «فوكس» الذي عطف على أرنب، وهذه هي تلك البنت الصغيرة ترى، أثناء نزهتها، أطفالاً حفاةً، جياعاً، يبحثون عن حبّات البطاطا الساقطة، تراهم وقد تعوّدت ألاّ ترى فيهم، مخلوقات مثلها، بل شيئاً مثل الإخراج المسرحي، مثل المنظم الطبيعي لِمَ ذلك؟.

***

نقاش حول الملكية الزراعية

١٩١٠

بدأ الحديث ونحن ما نزال على الغداء، وقد باشرتْه ربّةُ المنزل «ماري فاسيلييفنا كرازنو بيفزوفا» وهي أرملة ووصيّةٌ على أولادها القاصرين كانت تخاطب مدعوَّها «هرزنتشتين» مارشال نبلاء المقاطعة المغتر جداً بميزته «كروسي حقيقي» [١]، وتروي له قصة سرقة الخشب التي وقعت في غابةٍ تخص أولادها

«وصلوا بهدوء وقطعوا سبع سنديانات، كما لو أن الغابة ملكهم، ثم حملوها معهم، لا أستطيع أن أسكت عن هذه السرقة دون فرض العقوبات، وإلا لجاءت القرية كلها بعد قليل لتتزود بحاجتها منها، ولن يبقى شيءٌ من الغابة، ليس من حقي أن أسمح بذلك.

إنه لشيءٌ قاسٍ، مع ذلك، وغيرُ مجدٍ، من ناحيةٍ أخرى، أن تقتلعي بعض الفلاحين من منازلهم لترميهم في السجن.

ماالعمل إذن؟ لعل من واجبي أن أشكرهم؟

---

١ - روسي حقيقي: كان أعضاء حزب أقصى اليمين يدعون: الروس الحقيقيين، وتولستوي يهزأ من هذا الحزب إذ أطلق على الشخصية التي تمثله اسماً ألمانياً صرفاً.

هذا الجواب الساخر كان موجّهاً إلى «سيميون تيرنتيفتش بروكوفييف» مربّي أولاد ماري فاسيلييفا، وكان المربي المذكور، برأي ماري فاسيلييفنا، عاجزاً عن الظهور في بيت لائق، بيد أنها كانت تعترف بأنه، وإن كان غريب الأفكار، إلا أنه سليمُ الحسّ، خدومٌ، متواضع، وأستاذ ممتاز على وجه الخصوص فلقد استطاع أن يلقّن أولادها حبَّ الدراسة، وبفضله أنهى والداها الكبيران بنجاح باهر امتحان القبول في المعهد، في الصفين السادس والرابع.

صمت سيميون تيرنتييفتش وتنهّد، كان يعرف آراء ربّة المنزل المحدّدة جداً، ويعلم أنها لا تدع نفسها تتزعزع بحجج محدّثيها، صمتَ إذنْ وأطرق فوق صحن الفاكهة المطبوخة بالسكر، كان الغداء موشكاً على النهاية.

قال «هرزنتشتين» لماري فاسيليفنا:

في هذه الفترة تهبّ ريح التمرد، في الشعب، لقد طارت آخر مبادئ الأخلاقية التي كانت تكبحه، وفُقدَ فقداناً كليّاً مفهوم حقّ الملكية، و لم يعد الناسُ يفرّقون بين ما «لي» وما «لك» هذا هو انحطاط الدين والأخلاق.

وهذا سيميون تيرنتييفتش الذي يريد لو نهنّئهم ونعاملهم برفقٍ.

ظل المربي صامتاً، وزاد على صحته، وقال وهو يختنق بنصف تفاحة ازدرها:

لست أريد شيئاً.

لا أسمع ما تقول.

لستُ أقول شيئاً.

قالت ماري فاسيلييفنا:

اوه! إياك أن يعنَ لكَ أن تغتاب الفلاحين أمام سيميون تيرنتييفتش، فهو يعتبرهم جميعاً قدّيسين صغاراً.

قال «الروسي الحقيقي»:

ياه! لكن هذه الأنواع من القديسين بحاجة إلى السجون والمشانق، جميعهم لصوصٌ عريقون.

أحمر سيميون تيرنتييفتش ثم شحب، وقال بصوت متهدّج، وبابتسامة مُقتسرة:

ـ إن هذه الصفة «لصوصٌ عريقون» اختيارٌ موفق، لكنها لم تُوجّه الوجهة الصحيحة.

سأله «الروسي الحقيقي»:

ما الذي أردتَ أن تلمحّ إليه؟

لا شيء تقريباً: فقط أن اللصوص هم الذين استولوا على ملكية الآخرين واستعملوها، أما الذين اغتُصبْت منهم أملاكهم ويريدون أن يستَرْجعوها، فلا أعتقد أنه يمكن تَسْميتهم لصوصاً.

آه، الأمر هكذا!

عرض الخادمُ «تاراس» على مارشال النبلاء الذي أنهى صحنه، أن يأخذ ثانية شيئاً من الفاكهة المطبوخة، لكنه رفض بامتعاض، كان

يهيء جوابه لهذا الأستاذ الصغير التافه الذي أراد بالتأكيد أن يجرحه بتلميحاته الفظة.

نهضت ماري فاسيليفنا ودعت الضيوف إلى الانتقال إلى الصالون:

وقالت وهي تبتسم:

سنتابع هناك هذا الحديث ونحن نتناول القهوة.

قال المارشال وهو يبتسم نحو ربة المنزل: ممتاز، ونهض والتفت إلى زاوية الغرفة التي كانت فيها الأيقونات، رسم علامة الصليب كما يليق «بالروسي الحقيقي»، وأثناء ذلك كان يفكر: «انتظر قليلاً يا فتاي، سأعلّمك كيف ترميني بوقاحاتك!» وسأل سيميون تيرنتييفتش.

كيف تعرّف السرقة إذن، أرجوك؟

فأجاب سيميون تيرنتييفتش بحدّة:

ليس هذا شيئاً جديداً، إن السرقة تُعرّف بحسب أقدم حسّ سليم أنت تعلم جيداً إلى من كنتُ ألمحّ، تكلّمت عن السارقين الذين يستولون بغير حق على ملكية الآخرين، وينوون الاحتفاظ بها، كنت أتكلم عن جميع ملاّكي الأراضي، لماذا يستولي الذي يملك أرضاً على ملك الآخرين؟ إن الملكية العقارية تُشترى وتُملّك، ككل ملكيّة أخرى، بفضل ثمرة العمل، فالرجل الذي تعب له حق التملّك، لكنْ في حين نستطيع أن نتملك الجواهر والماس والذهب دون أن نجور على حقوق الآخرين، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الأرض، ففي جزيرة توفّر أرضُها الغذاء لجميع السكان، إذا احتكر أحدهم الأرضَ التي تطعم جاره أضرَّ به وألزمه أن يغدو متسوّلاً أو عبداً.

لكننا لسنا في جزيرة.

الأمرُ واحدٌ، فمساحة الأرض محدودةٌ.

تدخلت ماري فاسيليفنا:

وكيف يمكن تقسيم الأرض بالتساوي على الجميع؟

وفي الوقت نفسه سألتْ عندما حمل تاراس الطبق مع القهوة:

كم تريد من السكر؟

قال سيميون تيرنتييفتش:

لا ينبغي تقسيم شيء، وذلك، من جهة أخرى، غير ممكن، كمن يريد أن يقسم الهواء الذي يحتاج إليه جميع الناس على حد سواء.

وكيف لا نقسّمها؟

الأمر بسيط: كما يفعل هؤلاء اللصوص - الشعب - بالضبط، حين يعتبرون أن الأرض ملكٌ لله أي أنها مشتركة بين الجميع، ولا تُسْتعمل إلا بموافقة الجميع.

أَعرفُ المسألة، أنت تقصد الأراضي الجماعية التي تُقسم إلى أقسام صغيرة لا يتعدّى عرضُ القسم الواحد مترين... إن قراءاتك وأفكارك الحلوة بالذات هي التي جعلت الفلاحين... على ما لن أقوله... أي على ما هم عليه الآن!

ليست الأراضي الجماعية هي التي قادتهم إلى الشقاء الذي يقبعون فيه، وإنما قادهم إليه الملاكون العقاريون والحكومة.

ومع ذلك فلولا الحكومة لكانوا قد هلكوا منذ زمن بعيد، ولحسن الحظ أن الحكومة أدركت المسألة أخيراً، إن قانون ٩ تشرين الثاني[٢] قد جاء في وقته، إن متانة الملكية العقارية هي العنصر الوحيد لنظام البلاد الاجتماعي.

جميلٌ نظامُك المبنيّ عل ملكية الأرض الفردية وغير الشرعية،

لكن الأمر كذلك في كل أوروبا، وبفضل ذلك يسودها النظام والسلام.

أخذ سيميون تيرنتييفتش يثور ويُسرع في كلامه:

هذا هو بالضبط ما يروّع! أوروبا! حكومتنا - واعذروني على عنف تعابيري - مؤلّفةٌ من أفراد محدودين ورجعيين لا يستطيعون ولا يعرفون التفكير حسب أدمغتهم، إنهم عاجزون عن السير في خط للسلوك قائم على شروط حياة شعبنا، أوروبا! لكن لم يوجدْ في أوروبا قط ما وُجِدَ عندنا دائماً وما زال موجوداً، المشاعيّة الزراعية

جميلةٌ مشاعيتك! فهي التي تدعمُ جميع الخمّارات، هذه هي المشاعية!

أنت تنسى أن الشعور بأن الأرض لا يمكن أن تكون غرضاً للملكية متأصّلٌ في قلب الشعب الروسي، وهذه القناعة التي هي في مقدمّة الأفكار الاجتماعية، والتي ستُدْخلها أوروبا إليها، عاجلاً أم آجلاً،

---

٢ - قانون ٩ تشرين الثاني: الذي نشره الوزير ستوليبين في سنة ١٩٠٦، وهو يسمح للفلاحين بترك الأراضي الجماعية «المير» محولين حصتهم من الأرض إلى ملكية فردية.

نراها تَطْلع في انكلترا مثلاً، فهذا المفهوم المتقدّم لدى الشعب الروسي نعتبره نحن وكأنه مختلف أو يبلغ الأمرُ بحكومتنا أنها تتخذ أوروبا التي فقدت كل إحساس بالعدل قدوةً لها.

تماماً، وسيكون رائعاً لو أشبهنا أوروبا أقلَّ شَبَه، انت لا تقول سوى الأفكار المبتذلة، وأنا أطرح على نفسي المشكلة:

كيف ننظّم المكلية الزراعية؟ الذين أوتوا فكراً متينًالا يقنعون بالألفاظ الفَخمة، لابدّ من وقائع، أمّا الطوباويون الذين هم من شاكلتك فليس لديهم جوابٌ يحملونه إلى المشكلة.

أنت مخطئٌ، بل إن لدينا جواباً واضحاً جليّاً.

أنا شديد التشوق إلى سماعه.

لقد قلتُه لك: يجب أن تكون الأرض ملكيةً جماعية.

هذا نغمٌ سمعناه أكثر من مرة، لكن كيف تريد أن تحققه عندما يرغب بعضهم الاهتمام بالأرض بينما يقضي الآخرون وقتهم في العزف على البيانو؟

يجب أن يتم ذلك بحيث يكافئ الذي يستفيد من الأرض ذلك الذي يعزف على القيثارة التي استمتع بها، في حين أن غيره لا يستفيد منها.

لكن كيف؟

بأن تُدفَع له مكافأتهُ.

ومامعيار هذا الدفع، من فضلك؟ غريب، كم يبدو لكَ كلُّ شيء سهلاً!

المعيار؟ بسيطٌ جداً، يُدفع له مقدارُ الضريبة التي على عازف القيثار أن يدفعها إلى الخزينة العامة

لكن هذه نظرية هنري جورج[٣] نظرية الضريبة الموحدّة!

نعم هي نفسها

لكن ذلك غير ممكن التحقيق!

لماذا إن إلغاء القنانة وأكثر من ذلك تحرير العبيد كانا يبدوان في ذلك العهد غير ممكني التحقيق، المهم هو أن نتبيّن ظلم مبدأ الملكية الفردية للأرض، هذا كل شيء، أنت أيضاً، يا ماري فاسيلييفنا، قلتِ: أولئك لصوص، لكن جميع ملاّكي الأراضي لصوص، لقد مضى زمنٌ كان الشعبُ المُسْتعبَد لا يحسُّ فيه بظلم مصيره فيخضع له، لكن عهداً جاء لم يعدْ فيه احتمال الظلم ممكناً - وهو ما أدركه أفضل المدافعين عن الرق، وما أحسّ به العبيد بدورهم، وهذا الوضع لا يمكن أن يُحافَظ عليه بالقوة، لا يمكن المحافظة على شيء بالقوة زمناً طويلاً... الشيء نفسه يحدث اليوم مع عبودية الأرض، كما أن أفضل...

أمثالك...

أفضل الناس بين الذين يستغلّون العبيد الفلاحين يدركون أن وضع الأشياء الحالي لا يمكن أن يستمر، إنهم يحسّون حقاً أنهم مجرمون.

نحن المجرمون، ماري فاسيلييفنا!

---

٣ - هنري جورج: عالم اجتماع امريكي ترك كتابه «التقدم والملكية» ١٨٨٠، أثراً كبيراً في تولستوي.

تماماً، مجرمون، الأمرُ الرئيسي هو أن الشعب، قد أدرك أنه مخدوع، فاعتبر جميع ملاكي الأراضي مجرمين ولصوصاً، وإنما اخترنا هذه الفترة بالذات لإصدار قانون ٩ تشرين الثاني - هو قانون غير أخلاقي وتعسّفي، نحن لأنني نحلمُ بالوسائل التي نقلّد بها أوروبا التي سبقها شعبُنا بألف فرسخ، إن هذا مروعٌ، في الواقع.

لا أرى مع ذلك كيف يمكننا علاجُ ذلك.

بلى، بإعادة تقييم الأرض وبتحميلها جميع الضرائب.

هذا من هنري جورج صرْفاً، وبالنسبة إلى سكان المدن؟

سكان المدن لن يدفعوا الضرائب، لكن الشيء الأساسي ليس هنا، لا أعلم كيف سيتحقق تحريرُ عبيد الأرض، كما أنه لم يكن ممكناً أن يعرف الناسُ سلفاً كيف سيُشرع في تحرير السود أو الأقنان في روسيا، لكني أعلم أنه لا يجوز الاستمرار في العيش ضمْن هذا الظلم الفادح، يجب ألا نُخفي ذلك عن أنفسنا، بل يجب أن نؤمن به: وإذا اقتُلعت خمس عشرة سنديانة لماري فاسيليفنا، فليس هذا سرقة، لكنه علامة الحيازة غير الشرعية، حيازة ماري فاسيلييفنا وأولادها الأرض التي طلعتْ عليها هذه السنديانات، وهذا هو ما يمكن أن نصفه بالسرقة...

فهتفت ماري فاسيلييفنا

أنا السارقة إذن! شكراً عظيماً! أظن أنك تجاوزت الحدّ، سيميون تيرنتييفتش.

استشاط سيميون وهاج هائجه:

ماري فاسيلييفنا، ليست هذه مزحةً! فكّري قليلاً: إن الفلاحين

يعلمون أن الأرض لله، كما يعلمون أن الشمس تشرق كل يوم، وهذا العلم لم يأتهم وفقاً لنظريات تعلّموها أو لمحاكمات عقلية طويلة، لكنهم يستخلصونها من جهودهم الشخصية المتكرّرة: هم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا دون الأرض، وأنهم لا يكادون يُفْلحون في إطعام أولادهم وتربيتهم إلا إذا اشتغلوا فيها طوال حياتهم، إنهم كائنات بشرّية مثلهم مثلك، وقد فهموا فجأة أن هذه الأرض انتزعها منهم ناسٌ لا يعلمون.

قالت ماري فاسيلييفنا بحسم: إن لك أفكاراً غريبة حقاً.

ثم انطلقْت في خطاب طويل عن التزاماتها نحو أبنائها، عن الأوصياء السيئين الذين نجدهم في كل مكان، ثم تحدّثت بعد ذلك عن أبناء الأمير آداشيف، والذي تزوّج من آل ستروغانوف، أخت ستروغانوف الشهير، وكانت هناك قصة عن «غمنوفا»...

صمت سيميون تيرنتييفش، ونهض وخرج دون أن يفوه بكلمة

يقينا، لا أقبل أن أحتفظ بمثل هذا الرجل قرب أولادي!

وهذا هو رأيي أيضاً، يا عزيزي، سأكون ممتنّة لو عثرت لي على انسان آخر!

يا له من فكر مضطرب ومشوّش!!

في هذا اليوم بالذات سجل «تاراس» الخادم على دفتره الصغير، وكان من عاداته أن يسجّل كلَّ مساء انطباعاته عن أحداث النهار: «استقبلنا مارشال النبلاء، تأخّر الغداء، لم يصل الأولاد، أنْحت علي السيدة باللوم، بصددهم، لا أستطيع أن أكون في كل مكان، في

الوقت نفسه، ردّ سيميون تيرنتييفش رداً حسناً على المارشال، لقد واجهه بعيوبه مواجهةً جريئة، حتى إن المارشال أفحَم، يجب أن تنفجر الحقيقة، إن إخواننا الفلاّحين ضحيّة خدعة كبيرة، جاءت امرأة أخي لتراني...».

***

مكتبة
t.me/t_pdf

كودنكا[1]

١٩١٠

لا أفهم هذا العنادَ، لماذا تريدين أن تسهري طول الليل، وأن تذهبي غداً إلى المنصة الامبراطورية مع العمّة فيرا؟ ومن هناك تريْن كل شيء، لقد قلتُ لك أن «بير» وعدني باصطحابك، وكوصيفة شرف للامبراطورة، فهذا حقُّك

هكذا كان الأمير بول غوليتزين، المعروف في المجتمع الراقي الذي لقبّه «الحمامة»، يخاطب ابنتَه الكسندرا وعمُرها ثلاثةُ وعشرون عاماً، والتي يدعوها خُلصَاؤها «رينا».

جرى هذا الحديث في مساء ١٧ أيار ١٨٩٦، في موسكو، عشية عيد التتويج الشعبي، وكان موضوعُ الحديث: إن رينا، وهي فتاة قوية وجميلة، ويمتاز وجهُها الجانبي بما يمتاز به آل غوليتزين، الأنف الكاسر المحدب، قد انتهتْ من مرحلة الحماسة للحفلات الراقصة والسهرات، وكانت، أو كانت تظن نفسها، امرأة راقية بأفكارها الشعبيّة، كانت وحيدة أبيها وأثيرته، وكانت تفعل ما تشاء، وقد خطر

---

١ - كودنكا: حقل «كودنكا»، ساحة كبيرة للتدريبات في الشمال الغربي من موسكو.

لها أن تذهب إلى الحفلة الشعبية مع ابن عمها، لا عند الظهر، مع الحاشية الامبراطورية، لكن مع الشعب، مع البواب وسائس البيت اللذين كانا يريدان أن يحضرا الحفلة وأن يذهبا في ساعة مبكّرة.

لكني، يا أبي، لا أريد أن أنظر إلى الشعب، أريد أن أكون معه... أريد أن أتبيّن مشاعره نحو القيصر الشاب، أفلا يمكن، مرةً، على الأقل...

حسناً، افعلي ما تشائين، أعرف عنادَك

لا تغضبْ، يا أبي العزيز، أعدك أن أكون عاقلةً، وسيكون «آليك» معي.

ومهما تكن هذه الفكرةُ قد بدتْ للأب غريبةً وسخيفةً، فقد اضطُرَّ أن يذعن لها، وأجابها عن سؤالها إن كانت تستطيع أن تأخذ العربة الفخمة:

بلا شك، خُذيها، اذهبي بالعربة إلى كودنكا ثم أرسليها.

اتفقنا – كل شيء على ما يُرام إذن.

دنت من أبيها، وعلى عادته رسم عليها علامة الصليب، لثمتْ يده الطويلة البيضاء، وافترقا.

في المساء نفسه، في مسكن كانت تؤجّره ماري إياكوفليفنا لعمال مصنع السجائر، كان الحديث يجري عن عيد اليوم التالي، كان «ايميليان اياغودني» في غرفته مع رفاقه الذين اجتمعوا عنده، يتّفقون على ساعة الخروج.

قال جاك، وهو فتى جدّ مرح، كان يسكن خلف الحاجز:

أعتقد أن من الأفضل ألاّ ننام، وإلاّ لنمنا حتى ساعة متأخرّة.

اعترض ايمليان:

ولماذا لا ننام؟ سنخرج عند الفجر، الرفاق قالوا ذلك.

إذن إذا كنا سننام، فلْننم فوراً، لكن أيقظني، يا سيميونيتش.

وعده بذلك سيميونيتش، أي ايمليان، وهو نفسه أخذ من طاولته خيطاً حريرياً، واقترب من المصباح، وأخذ يقطب زراً فوق معطفه الصيفي، فلما انتهى من ذلك، هيّأ ثياب الآحاد ووضعها على المقعد، ثم لَمع بالفرشاة جزمته، ثم تلا صلاته، أي تلا «أبانا» و«السلام لك» اللتين لم يكن يعرف معناهما، ولم يسع قطّ إلى معرفته، وأخيراً، وبعد أن نزع جزمته وبنطاله اضطجع على الفراش المبسوط فوق سريره الذي يّصر، وفكر: «لَم لا، هناك ناس محظوظون، لعلي أنا أيضاً سأحصل على بطاقة يا نصيب (انتشرت شائعاتٌ في الشعب أن بطاقات يانصيب ستُوزَّع، فضلاً عن الهدايا) لستُ أطلب عشرة آلاف روبل، لكن على الأقلِ خمسمئة، وكم من الأشياء سأفعها إذا حُزتُ هذا المال، سأرسل مالاً إلى العجوزين، سوف آتي بامرأتي، أهي حياةٌ أن نظل أبداً مفترقين! وسأشتري لنفسي ساعة جيّدة، سأصنع معطف فرو لها ومعطف فرو لي، بينما أنا الآن أتسكع، وأتسكع، ولا أجدُ سوى الشقاء...».

ورأى نفسه وهو يتنزه في بستان الكسندر مع امرأته، رأى الشرطي نفسه الذي أوقفه هذا الصيف لأنه كان فاقد الوعي من السكر، لم يعد الشرطيُّ بل جنرالاً، وهو يدعوه ليدخل المطعم ويسمع الاوركسترا، الأوركسترا، تعزف، وكأنها ساعة جدار تدقّ الساعات... فيستيقظ

سيميونيتش، ويسمع الساعة ترن، ويسمع، خلف الباب صاحبة البيت تسعل، ويرى، من النافذة، أن الجو منيرٌ أكثر مما كان مساء «على شرط ألا تكون الساعةُ قد فاتتْني».

وينهض ايمليان، ويمضي حافي القدمين إلى ماوراء الحاجز ويوقظ «جاك» ويدهن شعره، ويرتدي ملابسه، ويمتشط، وينظر إلى نفسه في المرآة المكسورة:

«لا بأس، أنا حسن الهيئة، ولذلك تحبّني النساء».

ويذهب إلى صاحبة البيت، فيتزوّد بقطعة حلوى، وبيضتين، وقطعة من لحم الخنزير، ونصف زجاجة خمر، لم يكد الفجر يطلع حتى خرج هو وجاك من الفناء واتّجها إلى حديقة بيتروفسكي، لم يكونا وحدهما، فمن ورائهما، وأمامهما، ومن كل الجهات أخذ يتجمّع الرجال والنساء، والأولاد، فرحين، بثياب جميلة، متّجهين إلى جهة واحدة، وهكذا يصلون إلى حقل كودنكا الذي صار أسود من الناس، ومن أنحاء شتّى كان يُرى الدخانُ: كانت الصبيحة باردة، وحصل الناس على الحطب والأغصان وعملوا مواقد.

لقي ايميليان رفاقاً، وعملوا هم أيضاً موقداً جلسوا حوله مع ما حملوه من زاد، وأخيراً بزغت الشمس صافيةً، منيرةً، بهجةً، أخذ الناس يغنّون ويثرثرون ويمزحون ويضحكون ويلهون بكل شيء، وينتظرون الفرح، شرب ايمليان مع رفاقه، ودخّن سيجارة، وشعر بفرح أكبر.

كانوا جميعاً في عيد، وبين العمال ونسائهم الذين لبسوا ثياب الأحد، كان يُشاهدُ تجارٌ أغنياء مع نسائهم وأولادهم يختلطون

بالشعب، وبين الجمهور كانت تسير أيضاً «رينا غوليتزين» فرحةً، مشرقةً لكونها أدركت غايتها: وهي أن تحتفل بين الشعب ومع الشعب، بمجيء القيصر الذي يعبده شعبُه إلى العرش. كانت تتمشّى مع ابن عمها «آليك» بين المواقد.

صاح بها عاملُ مصنعٍ شابٍ وهو يرفع إلى شفتيه قدحاً صغيراً».

على صحتك! يا آنسة ألا تريدين أن تشربي قدحاً معنا؟

قال «آليك» ليُظهر أنه يعرف العادات الشعبية:

شكراً، اشربوا على صحتنا.

وابتعدا

وبسبب من عادتهما أن يجلسا دائماً في الأماكن الأولى، اتّجها نحو المنصة الإمبراطورية، وأخذا يشقّان طريقهما، بين الجمهور، في المكان الذي كان فيه الجمهور متراصاً جداً (كان الجمهور كثيفاً جداً إلى درجة أن الضباب الذي أحدثه تنفّس الناس قد كثّف الجوّ، بالرغم من نقاء الهواء الصباحي) لكن الشرطة منعتهما من التقدّم.

قالت رينا:

حسن، لنِعدْ إلى هناك، أرجوك.

وعادوا إلى صفوف الجمهور.

قال ايمليان وهو جالسٌ مع رفاقه حول الطعام الممدود على ورقة:

هذه كذبة! هذه كذبة!

قال ذلك ردّاً على حكاية عامل وصل لتوّه وزعم أنهم أخذوا يوزّعون الهدايا على الشعب.

كما قلتُ لك، ليس هذا بموجب القانون، لكنهم يُعطون، رأيت ذلك بنفسي، إنهم يحملون سفطاً وكأساً.

لاشك أنهم هؤلاء العمال الملاعين، وماذا يضيرهم من ذلك؟ إنهم يُعطون مَنْ يشاؤون.

لكن ما معنى ذلك؟ هل يمكن التصرّف خلافاً للقانون؟

أنت ترى أن ذلك ممكن!.

هيا، يا رفاق، لا مجال للانتظار.

نهض الجميع، دسّ ايمليان في جيبه الزجاجة التي بقي فيها شيءٌ من الخمر، وسار مع أصحابه.

لم يكادوا يسيرون عشرين خطوة حتى أصبح السيرُ صعباً جداً بسبب تدافع الناس.

إلى أين تذهب؟

وأنتَ؟

ماذا! لستَ وحدك!

كفى!

وصاح صوتُ امرأة:

يا إلهي! نحن نختنق!

وانفجرت أصوات الأطفال من كل جانب

ليأخذْهُ الشيطان!...

وأخيراً، لستَ وحدك! سيأخذون كل شيء... سأُريهم، هؤلاء الشياطين!...

ايمليان هو الذي كان يصرخ، لقد قدّم كتفيه، واستخدم مرفقيه، وأخذ يشق طريقه إلى الأمام، دون أن يعلم هو نفسه لماذا، وإنما لأن كل الناس كانوا يتقدمون، ولأنه بدا له أنه يجب أن يستمر في سيره إلى الأمام، وخلفه، وعلى كل جانب منه، كان الناسُ يدفعونه، بينما كان الذين في الصفوف الأمامية لا يتحركون ولا يسمحون بالتقدم، كان الجميع يصرخون ويتأوهون ويرسلون الآهات، وكان ايمليان مقطب الحاجبين، صامتاً، يَصرّ أسنانه القوية، ويحرك مرفقيه دون أن تفتر همّتُه، وفجأةً اهتزّ كل شيء، حدثت حركةٌ إلى الأمام وإلى اليمين، بضرب من التَّمايل، نظر ايمليان نحو تلك الجهة فلمحَ شيئاً ما يمر فوق الجمهور، وتبعه ثانٍ، ثم ثالثٍ، لم يتبين ما الشيء، لكن صوتاً بجانبه صاح:

الشياطين الملاعين! إنهم يلقون الهدايا على الشعب!...

وحينما كانت تسقط الأكياس المحتوية على الهدايا، كانت تسمع الصرخات والضحكات والبكاء والتأوهات، دفع أحدهم ايميليان في جنبه، فغدا أكثر تجهماً وفوراناً، لكن قبل أن يفيق من هذه الضربات، مشى انسان آخر على قدميه وعلق معطفه الجديد بشيء ما وتمزق، فتملّكه الغضب وأخذ يدفع بكل قواه الذين كانوا أمامه، وفي هذه اللحظة بالذات، حدث شيءٌ لم يتمكن من فهمه: قبل لحظة لم يكن أمامه شيء سوى الظهور البشرية، وإذا به يرى الآن أمامه خيَاماً، هي نفسها التي سيتمّ فيها توزيع الهدايا، فرح، لكن فرحه لم يدمْ طويلاً،

لأنه سرعان ما أدرك أنه شاهد ذلك فقط لأن الجمهور اقترب من الحفرة، وأن جميع الذين كانوا أمامه سقطوا فيها، وأنه هو سوف يُقْلبُ على هؤلاء الناس، بينما يسقط عليه الذين هم خلفه، وحينئذ سيطر عليه الخوفُ، لأول مرة، وسقطت وسقطوا عليه امرأة بشالٍ مطرّز: تخلّص وأراد أن يقلب نفسه، لكن الناس ضغطوا عليه من الخلف، و لم يَقْو على المقاومة، واندفع إلى الأمام، لكن قدميه غاصتا في شيء رخو: كان يدوسُ الناس، كان الناس يمسكون بساقه ويصرخون، لكنه لم يكن يرى شيئاً، ولا يسمع شيئاً ويسير وهو يدوس الناس.

صاح رجل بجنبه:

يا إخوتي، خذوا ساعتي... هي ذهبية... لكن انقذوني، يا إخوتي!

فكر ايمليان: «لا مجال للساعة الآن»، وظلّ يشق طريقه ليمّر إلى الجهة الأخرى من الحفرة.

كان يَضْطرب في نفسه شعوران، وكلاهما مؤلمٌ أحدهما الشعور بالخوف على حياته، والآخر الشعور بالغضب على هؤلاء الناس المجانين الذين يضغطون عليه، بيد أن الهدف الذي وضعه نصب عينيه منذ البداية، وهو الوصول إلى الخيمة، وتّسلّم كيس الحلوى وفيه بطاقة اليانصيب، هذا الهدف كان يجذبه، كانت الخيام في متناول النظر، كان يُرى المستخدمون الذين كُلِّفوا توزيع الهدايا، وكانت تُسمْع صرخات الذين وصلوا الخيام، وكانت تسمع تقصّفات العبّارات الخشبية التي ازدحم عليها الجمهور، بذل ايمليان جهداً و لم يبق عليه سوى عشرين خطوة، عندما سمع فجأةً تحت قدميه، أو على الأصح بين قدميه صرخات طفل وبكاءه، نظر ايمليان، فرأى طفلاً، أشعث الشعر، ممزّق القميص، منبطحاً على بطنه، يصرخ بائساً ويتشبّث

بساقيه، فأصابه شيءٌ في قلبه، اختفى خوفُه على شخصه، وكذلك غضبه على الناس، وتحركت شفقته على الولد، انحنى، وأمسك به من صدره، لكن الناس الذين كانوا خلفه كان يدفعونه دفعاً شديداً حتى أوشك هو نفسه أن يسقط فأَفلتَ الولد من يديه، لكنه جمع كل قواه، وأمس بالولد مرة أخرى، من صدره، ورفعه فوق كتفه، الذين كانوا يدفعون خفَّ دفعُهم وحمل اميليان الولد.

صاح حوذي كان بجنب اميليان:

هاته إلى هنا.

أخذ الولد ورفعه فوق الجمهور.

مَرَره من فوق الجمهور!

والتفت اميليان فرأى الولد محمولاً يبعد شيئاً فشيئاً غاطساً في الجمهور تارةً، وطافياً فوق أكتاف الناس ورؤوسهم تارة أخرى.

تابع ايميليان سيره.

كان مستحيلاً عليه ألا يَتْبع الحركة، لكنه لم يكن يُسرُّ لا بالهدية، ولا بالوصول إلى الخيام، كان يفكر في الولد، وفيما صار إليه جاك، وفي هؤلاء الناس المدهوسين الذين رآهم وهو يعبر الحفرة، عندما وصل أمام الخيمة تسلّم كيساً وطاساً من الزجاج، لكن ذلك لم يكن بفرحة، ما سرّه، في اللحظة الأولى، هو أنه تخلص من السحق وأنه تمكن من التنفّس والحركة، لكن هذا الفرح اختفى بسرعة أيضاً بسبب ما شاهده هنا، شاهد امرأة في فستان مخطط وممزّق، تحتذي حذاء بأزرار، شقراء الشعر ومحلولته، مضطجعة على ظهرها، وقدماها منتصبتان،

كانت إحدى يديها تستريح على الأرض، والأخرى متشنّجة في أدنى صدرها، لم يكن وجهها شاحباً لكنه كان مرزقاً، كوجوه اجثث، كانت هذه أول امرأة تموت دهساً، وتُلقى هنا أمام المنصّة الامبراطورية، بينما كان اميليان ينظر إليها، كان يقف إلى جانبها شرطيان ومفتش شرطة يلقي أوامره، في الوقت نفسه ظهر القوزاق، أمرهم رئيسهم بشيء، فاندفعوا نحو ايميليان والآخرين الذين كانوا هنا وردّوهم إلى الجمهور، وقع ايمليان مرة أخرى، ومرة أخرى أحسّ أنه سُحق، مرة أخرى انطلقت الصرخاتُ، وتأوهات النساء والأطفال، وجعل الناس يسحقُ بعضهم بعضاً وهم لا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك، لكن ايمليان لم يعد يحس الآن لا الخوف ولا الغضب على الذين يدفعونه، لم تكن له سوى رغبة واحدة: الانصراف، التخلص من ذلك كله، فَحْثَّ ما كان يجري في نفسه، التدخين والشرب، وأخيراً حصل على ما أراد: وصل إلى المكان الخالي وشرب ودخّن.

مع آليك ورينا، حدث شيءٌ آخر، لم يكونا ينتظران هدية وكانا يمشيان مع الجمهور الذي يتجمع، وهما يكلّمان النساء والأطفال، عندما انهال الجمهور، فجأةً نحو الخيام حيث كان المستخدمون يوزعون، على ما يقال، هدايا غير التي وعد بها رسمياً

لم يتسنّ لرينا أن تعود لأنها انفصلت عن «آليك» وجرّها الجمهور فاستولى عليها الرعُب، أرادت أن تُسيطر على نفسها، لكنها لم تُفلح، فأخذت تصرخ وتطلب الرحمة، لكن لم تكن الرحمة تُرجى، أخذ الناس يضغطون عليها أكثر فأكثر، فتمزق فستانها، وانتُزعت قبّعتُها، وبدا لها، وإنْ لم تستطع أن تتأكد، إن ساعتها وسلسلتها قد انتُزعتا، كانت قوية جداً وكان باستطاعتها أن تقاوم، لكن حالة القلق التي

كانت فيها كانت مُرعبةً جداً حتى إنها عجزت عن التنفّس، تمزّقت ثيابها، وضغط عليها الناسُ من كل جانب، فصمدت مع ذلك، لكن عندما حمل القوزاق على الجمهور لتفريقه، بلغ يأسها حدّاً تخلت معه قواها عنها، وأغمي عليها، سقطت و لم تتذكّر شيئاً بعد ذلك.

عندما صحت من إغمائها، كانت ممـدّدةً على ظهرها، فوق العشب، وكان مقرفصاً قربها رجلٌ يبدو عاملاً، له عثنون، ومعطف ممزق، وكان يرش وجهها بالماء الذي ملأ به فمه، وعندما فتحت عينيها رسم الرجل علامةَ الصليب ولفظَ الماء، كان هذا الرجل هو ايميليان.

من أنتَ؟ أين أنا؟

قال ايمليان:

أنتِ في كودنكا، وأنا؟ أنا رجلٌ دفعني الناسُ أيضاً دفعاً غير قليل، لكننا نحن نستطيع أن نتحمّل كل شيء.

سألت رينا وهي تشير إلى كميّة من النقود الصغيرة الموضوعة على بطنها:

وما هذا؟

هذا؟ كان الناس يعتقدونك ميتةً، فكانوا يُعطون النقود للجنازة، وأنا، عندما نظرتُ إليك قلتُ في نفسي «لا، إنها ما تزال حيّة»، فأخذت أرشّك بالماء.

ألقت «رينا» نظرة على نفسها فلاحظت أنها كانت ممزقة الثياب، وأن صدرها نصف مكشوف، فخجلت وأصلح لها الرجل وضع ثوبها.

ليس هذا شيئاً، يا آنسة فأنت حيّة.

اقترب عددٌ كبيرٌ من الناس، وكذلك شرطيٌّ جلست رينا على الأرض وأعطت اسمها وعنوانها، ذهب ايمليان ليأتي بعربة، وتجمّع جمهورٌ عظيم.

عندما وصل ايمليان مع العربة، نهضت «رينا»، حاول بعضهم أن يُصْعدها، لكنها صعدت وحدها، كانت خجلى فقط من فستانها الممزق.

سألتها إحدى النساء وقد اقتربت منها:

وأين أخوكِ؟

قالت بيأس:

لا أدري، لا أدري، (عرفتْ في البيت أن آليك استطاع، منذ بداية الكارثة أن يخرج من الزحمة وأن يرجع إلى البيت سليماً).

قالت رينا:

هذا هو الذي أنقذني، ولولاه لا أدري ماذا كان سيصيبني.

وسألت ايمليان:

ما اسمكَ؟

أنا؟ لماذا.

قالت امرأةٌ:

إنها أميرة غنية جداً.

اصطحبْني إلى أبي، سيشكركَ.

فجأة، انبجس، في نفس ايمليان شيءٌ قوي ما كان ليرضى بمئتي ألف روبل بدلاً منه.

ماذا! لا، ياآنسة، امضي إلى بيتك، لا داعي للشكر.

لا، لا، لن يهدأ لي بال...

وداعاً، يا آنسة، يحفظك الله، لكن لا تأخذي معطفي معك.

وابتسم ابتسامة فرحة جداً حتى إن رينا كانت تستعيدها كعزاءٍ لها في أشقّ لحظات حياتها.

***

المحتويات

مقـدّمة ٥

تأريـخ يَوم الأمـس ٢٣
١٨٥١

هكـذا يمـوت الحـب ٥١
١٨٥٣

الحلم ٨٩
١٨٥٧ - ١٨٦٢

قصة فارنكا الصغيرة ٩١

التي كبرت في ليلة واحدة ٩١
١٨٥٧

كيف يموت الجنود الروس ١٠٧
١٨٥٣

الحَـجَلة ١١٧
١٨٥٠

الـواحـة ١١٩
١٨٥٠ - ١٨٦٠

الحبّ البريء ١٢٩
١٨٦٣

حاجّان ١٦٧
١٨٧٠

المَناقشة..... ١٧١
١٨٧٥

مذكرات مجنون ١٧٧
١٨٨٤

الشيطان..... ١٩٥
١٨٨٩

للأم..... ٢٥٧
١٨٩١

سهرة القيصَر الشاب في ليلة عيد الميلاد..... ٢٧٣
١٨٩٤

الأب سيرج ٢٨٧
١٩٠٤

الحاج مراد ٣٥١
١٩٠٢

بعد الحفلة الراقصة..... ٥٣٧
١٩٠٣

العـملة المزيفـة ٥٥٣
١٩٠٤

الكسي الابريق..... ٦٤٧
١٩٠٥

يوميات الشيخ فيدوركوزميتش التي ظهرت بعد وفاته ... ٦٥٥

حياتي ٦٦٧
١٢ كانون الأول ١٨٤٩

ما رأيته في الحلم..... ٦٨٥
١٩٠٦

الأب باسيل..... ٧٠٣
١٩٠٦

مَنْ القَتَلةُ ٧١٥
١٩٠٨

بـول (دراما) ٧٢٩

حكمة الطفولة ٧٣٩
١٩٠٨ - ١٩١٠

ما مِنْ مذنبِ ٧٩١
١٩١٠

نقاش حول الملكية الزراعية ٨٠٩
١٩١٠

كودنكا ٨٢١
١٩١٠

مكتبة
t.me/t_pdf

لعلّ الدارسين لايشيرون إشارة كافية إلى أن تولستوي كان يتأنّى في صنْع أعماله الأدبية: كانت مسودات النصوص ورواياتها لا تني تتكاثر، وكان يعمل على نسخ النص حتى عشر مرات، ثم يهجره ويستأنفه... ليدعَه جانباً، وقد يدعه نهائياً في بعض الأحيان! وذلك لأسباب شتّى: فتارةً كان يرى أن العمل الأدبي لم ينضج نضجاً كافياً، وتارةً أخرى لأن العمل يتّسم بطابع شخصيّ مفرط؛ أو لأنه لم يكن يريد أن يزيد من خصوماته مع الرقابة. فليس مدهشاً إذن أن تُلفي ابنته ألكسندرا نفسها، بعد موته، مالكةً لنحو أربعين عملاً لم تُنشر، وأن تُبادر إلى أن تدفع جزءاً منها إلى النشر. وكان فلاديمير تشيرتكوف يشرف على تحريرها النهائي. وقد ظهرت ثلاثُ مجلدّات في موسكو، في سنة ١٩١١ وفي سنة ١٩١٢. ونحن نجد بينها نحو عشرين قصة وأربع مسرحيات، وأعمالاً من الطراز الأول مثل «الحاج مراد» و«الجثة الحيّة». أما المخطوطات الأخرى فلم يُقدَّر لها أن ترى النور إلا بعد ذلك بزمن كبير، وبرعاية الجمعية التعاونية «زادروغا»، في موسكو، لتظهر في طبعة الأعمال الأدبية الكاملة التي كان يُنوى إخراجها في سنة ١٩٢٨ بمناسبة مرور مئة عام على ولادة تولستوي. وبما أن الجمعية التعاونية المذكورة قد حلّها النظام السوفييتي فإن نُسخ النصوص التي كانت ستظهر أُرسلت سراً إلى باريس، حيثُ ظهرت بالروسية تحت عنوان: قصص ومسرحيات لم تُنشر، لليون تولستوي، بعناية الناشر المعروف جداً «كاربسنيكوف» الذي كان مهاجراً آنذاك. ويحتوي هذا المجلّد على أربعة أعمال دراميّة وتسع قصص تُرجمت إلى الفرنسية، بعد ذلك، ونحن نقدّمها اليوم مع التي ظهرت في طبعة تشيرتكوف.

ISBN 978-2-843090-81-3
9 782843 090813

t.me/t_pdf

لوحة الغلاف للفنانة olga suvorova